الجهاد في سبيل الله

حقيقته وغايته

الدكتور
عبد الله بن أحمد القادري

الجزء الثاني

دار المنارة
جدة

الطبعة الثانية
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

دار المنارة
للنشر والتوزيع
هاتف: ٦٦٠٣٦٥٢ - فاكس: ٦٦٠٣٢٣٨ - المستودع: ٦٦٧٥٨٦٤
جدة ٢١٤٣١ - ص.ب: ١٢٥٠ - المملكة العربية السعودية

الفصل الرابع

صفات المجاهدين في سبيل الله

وفيه ثلاثة مباحث:

الأول : في صفات القائد.
الثاني : الصفات التي يجب أن يتحلى بها أفراد الجيش الإسلامي.
الثالث : الصفات التي يتحلى بها الجيش مجتمعاً.

الفصل الرابع

صفات المجاهدين في سبيل الله

تمهيد:

الجهاد في سبيل الله من أعظم التكليفات الشاقة على النفس البشرية قال تعالى: ﴿كُتب عليكم القتالُ وهو كُرْهٌ لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، وعسى أنْ تحبُّوا شيئاً وهو شَرٌّ لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[1].

لذلك لا يمكن أن يقوم به إلا من رزقه الله صفات تجعله أهلاً للقيام به، والمجاهد في سبيل الله ـ ولا سيما جهاد الكفار بقتالهم بالنفس والمال ـ يتصف بالصفات التي يتصف بها سائر المؤمنين مما أثنى الله بها عليهم أو أمرهم بها، ويفضلهم بالصفات الدافعة إلى تضحيته بنفسه وماله وتقديم رضا الله على ما سواه. وإذا كان المجاهدون يفضلون غيرهم كما قال تعالى: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غيرُ أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضّل الله المجاهدينَ بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً، وكلاًّ وعد الله الحُسْنى، وفضّل الله المجاهدينَ على القاعدين أجراً عظيماً﴾[2]. إذا كان المجاهدون يفضلون غيرهم من سائر المؤمنين فإنهم هم يتفاضلون فيما بينهم درجات بحسب كمال تلك الصفات ونقصها. لذلك كان منهم القائد المدبر الحكيم، والجندي المقاتل المطيع، والمصاحب المعين بما يستطيع.

فصفات المجاهدين ـ إذن ثلاثة أقسام ـ: صفات يتحلى بها القائد وتبرز فيه

---

(١) البقرة: ٢١٦.

(٢) النساء: ٩٥.

أكثر من غيره ـ وإن اشترك جيشه معه فيها أو في بعضها ـ، وصفات يتحلى بها أفراد الجيش الإسلامي، وصفات يتحلى بها الجيش مجتمعاً.

وإن القاعدة الأولى التي تنبني عليها كل الخلال التي ترضي الله ومنها صفات المجاهدين في سبيله هي الإيمان الذي تقوى تلك الصفات بقوته وتضعف بضعفه في القادة والجيش على حد سواء، ولذا قال ابن تيمية رحمه الله: (وإذا كان أولياء الله هم المؤمنين المتقين فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى كان أكمل ولاية لله، فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى)[1].

والذي يكون إيمانه أكمل يحقق عبوديته لله أكثر، فيكون وقته كله عبادة وصبراً وعلماً وتذكراً وتقوى وإحساناً وإخلاصاً واعتزازاً بدينه. كما قال تعالى: ﴿أمَّن هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً يحذرُ الآخرة ويرجو رحمةَ ربِّه، قُلْ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنَّما يتذكَّر أولو الألباب * قل يا عباد الذين آمنوا اتَّقوا ربَّكم للذين أحسنُوا في هذه الدنيا حسنةٌ وأرض الله واسعةٌ، إنَّما يُوفَّى الصابرون أجرهم بغيرحساب * قُلْ إني أُمرتُ أن أعبدَ الله مخلصاً له الدين * وأُمرت لأنْ أكون أوّلَ المسلمين﴾[2].

---

(١) الفتاوى (١١/١٧٥).

(٢) الزمر: ٩ ـ ١٢.

المبحث الأول

صفات القائد

وفيه أربعة عشر فرعاً:

الفرع الأول	:	الإكثار من طاعة الله.
الفرع الثاني	:	القدوة الحسنة.
الفرع الثالث	:	تزكية الجنود وتطهيرهم والارتقاء بهم في طاعة الله.
الفرع الرابع	:	الخبرة بأمور الحرب والقوة فيها.
الفرع الخامس	:	اللين للجند والشفقة عليهم.
الفرع السادس	:	البعد عن طلب القيادة ابتغاء الرئاسة.
الفرع السابع	:	إسناد الأمور إلى أهلها.
الفرع الثامن	:	تربية الجند على التسليم المطلق لله لا لشخصه.
الفرع التاسع	:	تطبيق قاعدة الشورى.
الفرع العاشر	:	الحرص على تطبيق أهداف الجهاد والضبط الإداري وقوة التأثير.
الفرع الحادي عشر	:	اختبار إرادة القتال عند الجند.
الفرع الثاني عشر	:	التفوق في الشجاعة والكرم.
الفرع الثالث عشر	:	مراقبة الجند وزجرهم عن الظلم وجمع المال من غير السبيل المشروع.
الفرع الرابع عشر	:	التصرف السريع الحكيم أمام المفاجآت.

تمهيد:

القائد إذا لم يفق أفراد جيشه بتحلّيه بمقومات القيادة الناجحة لا يكون أهلاً لقيادتهم، لأنه لا يستطيع أن يقودهم قيادة مرضياً عنها، فالأتباع بصفة عامة، والجيش بصفة خاصة يتطلعون دائماً إلى التوجيه الدائم والارتقاء بهم في كل ما يحققون به مرامهم، وإلى تصحيح الأخطاء التي قد تبدر منهم وإلى المزيد من العلم والخبرة والتزكية وغير ذلك، فإذا لم يكن عند القائد ما يعطيه جنوده، بل كان مثل بقية الأفراد أو قد يكون في الأفراد من هو أحسن منه، فإنه يصعب عليه أن يقودهم برضا منهم واختيار ومحبة له، ويكون معرضاً للاحتقار وعدم الطاعة والتحايل عليه. ويصعب على المتتبع لآيات القرآن الكريم والسنة المطهرة وسيرة السلف الصالح أن يحيط بصفات القائد، ولذلك يكتفي بشيء منها يدل على ما سواه من الصفات.

الفرع الأول

الإكثار من طاعة الله وإعداد النفس لتحمل المشاق

إن المؤمنين كلهم في حاجة إلى إتعاب أنفسهم في طاعة الله، ولكن المجاهدين في سبيل الله أشد حاجة إلى هذا الإتعاب وإلى إعداد أنفسهم لتحمل المشاق في سبيل الله، والقائد المجاهد ليس أشد حاجة من الجميع فحسب، بل إن الضرورة تقتضي منه الاستمرار في إتعاب نفسه في طاعة ربه وإعدادها لتحمل التكليف واستقبال المشاق في سبيله بصدر رحب، فمسؤولية القائد ليست كمسؤولية أتباعه، والصعاب التي تواجهه أكثر من الصعاب التي تواجه جنده، والذي يعينه على اقتحامها والنجاح فيها إنما هو قوة صلته بربه الذي يمده العون بقدر ما يحقق من عبوديته: ﴿إيّاكَ نعبدُ وإيّاكَ نستعينُ﴾[1]. لهذا كلف الله نبيَّه ﷺ عندما أرسله للدعوة إليه الإكثار من التقرب إليه ومفارقة الفراش والغطاء ليتزود الزاد اللازم لقيادة البشرية وجهادها، وبقراءة هذه الآيات التي

---

(١) الفاتحة: ٥.

يؤمر فيها بالقيام ويعلل هذا الأمر بثقل التكليف، ويؤمر بالذكر والانقطاع إلى الله والتوكل عليه والصبر على أذى قومه، يتضح جلياً هذا الأمر العظيم الذي لا غنى لقائد عنه، وهو إتعاب النفس في طاعة الله وإعدادها لتحمل المشاق في سبيله، قال تعالى: ﴿يا أَيُّها المُزَّمِّلُ * قُمِ الليلَ إلاَّ قليلاً * نصفَهُ أو انْقُصْ منه قليلاً * أَوْ زِدْ عليه ورتِّلِ القرآنَ ترتيلاً * إنَّا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً * إنَّ ناشئةَ الليل هي أشدُّ وَطْأً وأَقْوَمُ قيلاً * إنَّ لك في النهار سَبْحاً طويلاً * واذْكُرِ اسمَ ربِّك وتبتَّلْ إليه تبتيلاً * ربُّ المشرقِ والمغربِ لا إله إلا هو فاتَّخِذْه وكيلاً * واصْبِرْ على ما يقولون واهْجُرْهم هَجْراً جميلاً﴾[1].

قال سيد قطب رحمه الله: (إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً. فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء الكبير فما له والنوم وماله والراحة وماله والفراش الدافىء والعيش الهادىء والمتاع المريح، ولقد عرف رسول الله ﷺ حقيقة الأمر وقدره، فقال لخديجة رضي الله عنها وهي تدعوه أن يطمئن وينام: «مضى عهد النوم يا خديجة» أجل مضى عهد النوم وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الطويل الشاق)[2].

ولقد استجاب لذلك ﷺ فكان يقوم حتى تتفطر قدماه كما استجاب لربه في الدعوة والصبر وتحمل المشاق حتى لقي الله.

واقتدى به أصحابه رضي الله عنهم فكانوا يحرصون على اقتفاء أثره ـ وإن كان الوصول إلى قمة طاعته بعيداً ـ وكان خلفاؤه أشد حرصاً على الاقتداء به في إتعاب أنفسهم في طاعة ربهم وإعدادها لتحمل المشاق في سبيله.

وكل من أراد أن يقود الأمة الإسلامية إلى هدى الله والدعوة إليه والجهاد في سبيله، فلا بد له من أن يسبق أتباعه في طاعة ربه وفي إعداد نفسه لتحمل أعباء الدعوة والجهاد، وإلا فإنه سيكون مثل البدوي الجاهل الذي لا يعرف إلا ركوب الجمل أو غيره من الدواب، يقعد على مقعد قائد الطائرة وقد امتلأت

---

(١) المزمل: ١ ـ ١٠.
(٢) في ظلال القرآن (٢٩/ ٣٧٤٤).

بالمسافرين فيضع يده على مفتاحها اتفاقاً، فتأخذ في الطيران في الجو فيسره ذلك لأول وهلة، لأنه أصبح طياراً فجأة بدون عناء تمرين أو مشقة تعليم، ولكنه سرعان ما يسقط في يده حين لا يقدر أن يسيطر على الطائرة التي تأخذ هنا وهناك ثم تسقط مرتطمة بما قابلها، فتتحطم ويهلك القائد وركابه، ولا يبعد كثير من قادة المسلمين في هذا الزمان عن هذا المثل.

وما من قائد لأمة من الأمم ظهر نجاحه في قيادة أمته إلا كان له السبق على أتباعه في كل مجال من المجالات التي تعتبر ضرورة من ضرورات القائد الناجح.

الفرع الثاني
القدوة الحسنة

ومن أهم صفات القائد الناجح أن يكون قدوة حسنة لجيشه في إيمانه وعمله الصالح وشجاعته وكرمه وعطفه ولينه وحزمه وإقدامه وإيثاره وغير ذلك، ليروا ما يدعوهم إليه أو يلزمهم به في تصرفاته فيقتدوا بعمله الذي يصدق قوله، وقد سبق ما يمكن الرجوع إليه، ويضاف هنا مثال لم يذكر قبل، وهو أنه ﷺ ثبت في غزوة أحد عندما أصيب أصحابه وفروا، وكان كما وصفه الله يدعوهم في أخراهم، قال تعالى: ﴿إذْ تُصْعِدُون ولا تَلْوُون على أحدٍ والرسولُ يدعوكم في أُخْراكم، فأثابكم غَمّاً بغَمٍّ لكيلا تحزنُوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم، والله خبيرٌ بما تعملون﴾[1].

ولذلك كان من هديه ﷺ أن يكون في أول الجيش في ذهابه، وفي آخر الجيش في إيابه، ليكون هو ﷺ أول مباشر للعدو وكان أصحابه إذا حمى الوطيس اتقوا به.

وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة فخرجوا نحو الصوت فاستقبلهم

---

(١) آل عمران: ١٥٣.

النبي ﷺ وقد استبرأ الخبر وهو على فرس لأبي طلحة عري وفي عنقه السيف وهو يقول: «لم تراعوا لم تراعوا» ثم قال: «وجدناه بحراً، أو قال: إنه لبحر»(١).

ومن الأمثلة التي ينبغي معرفتها والاقتداء به فيها، وهي تبين مدى شجاعته وتوكله على ربه، ما تضمنه حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة نجد، فلما أدركته القائلة وهو في واد كثير العضاه، فنزل تحت شجرة واستظل بها وعلق سيفه، فتفرق الناس في الشجر يستظلون، وبينما نحن كذلك إذ دعانا رسول الله ﷺ فجئنا، فإذا أعرابي قاعد بين يديه، فقال: «إن هذا أتاني وأنا نائم فاخترط سيفي، فاستيقظت وهو قائم على رأسي مخترطٌ سيفي صلتاً، قال: ما يمنعك مني؟ قلت: الله. فشامه ثم قعد، فهو هذا»، قال: ولم يعاقبه رسول الله ﷺ)(٢).

والذي يظهر أن الرسول ﷺ دعا أصحابه وأخبرهم بما جرى ليأخذوا درس القدوة واقعاً حياً في الشجاعة والتوكل، ومن ذلك إظهاره ﷺ الاستهانة بما يصيبه في سبيل الله حيث قال: «هل أنتِ إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت»(٣).

الفرع الثالث
تزكية جنوده وتطهيرهم والارتقاء بهم في طاعة الله

إن القائد المسلم يجب أن يستمر تعليمه لجنده أمور دينهم، وأن يربيهم تربية تطهرهم من دنس الآثام والرذائل، ويربطهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، لأن بعد الجيش الإسلامي عن التعليم والتربية والتطهير يكون سبباً في قسوة قلوبهم وارتكابهم المعاصي والآثام، وذلك مما يجب أن يحول القائد بينه وبين جنده، قال تعالى: ﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعثَ فيهم رسولاً من

---

(١) البخاري رقم ٧٩٠٨ فتح الباري (٦ ـ ٩٥) ومسلم (٤ ـ ١٨٨٢).
(٢) البخاري رقم ٤١٣٩ فتح الباري (٧ ـ ٤٢٩) ومسلم (٤ ـ ١٧٨٦).
(٣) البخاري رقم ٢٨٠٢ فتح الباري (٦ ـ ١٩) ومسلم (٣ ـ ١٤٢١).

أنفسهم، يتلو عليهم آياتِه ويُزَكِّيهم، ويعلِّمهم الكتابَ والحكمةَ، وإن كانوا من قَبْلُ لَفي ضلالٍ مبينٍ﴾[1] وقال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأُمِّيين رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِه، ويزكِّيهم ويعلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا من قَبْلُ لفي ضلالٍ مُبينٍ﴾[2].

قال سيد قطب رحمه الله: (ويزكيهم، يطهرهم ويرفعهم وينقيهم يطهر قلوبهم وتصوراتهم ومشاعرهم ويطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم ويطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة والأسطورة وما تبثه في الحياة من مراسم وشعائر وعادات وتقاليد هابطة مزرية بالإنسان وبمعنى إنسانيته ويطهرهم من دنس الحياة الجاهلية وما تلوث به المشاعر والشعائر والتقاليد والقيم والمفاهيم)[3].

ولا بد من مباشرة القائد تربية جنوده وتزكيتهم بنفسه، وإذا لم يستطع مباشرة تزكية جنوده كلهم، فيمكنه أن يباشر تربية قوادهم الذين يباشر كل منهم مجموعة منهم، لأن في تربية القائد المباشرة ما يرفع المعنويات في نفوس جنوده ويقوي صلتهم به وولاءهم له على أساس ما يرضي الله سبحانه، كما إن في ذلك وحدة التوجيه وتصحيح الأفكار والمفهومات وتلقي ما عندهم من مشكلات ومحاولة حلها والاهتمام بها، بخلاف بعده عنهم، فإن صلتهم به تضعف وتقوى صلتهم بغيره، كما إن طرق التربية قد تختلف، وكذلك الأفكار والمفهومات، وقد يذكرون مشكلاتهم لقوادهم المباشرين فلا يهتمون بها، وفي ذلك ما فيه من عدم الثقة والشك في اهتمام القائد بمصالحهم. وعلى القادة الذين يبتعدون عن تربية جنودهم بأنفسهم أن يتحملوا نتائج ذلك الابتعاد من إحداث الفرقة في جيوشهم بسبب اختلاف طرق التربية وتعدد التوجيه وتزاحم الأفكار المتضاربة التي تجعلهم أحزاباً وطرائق قدداً.

وأسوأ ما مر بالجيوش الإسلامية إسناد أمورهم إلى أعداء الإسلام من يهود

---

(١) آل عمران: ١٦٤.

(٢) الجمعة: ٢.

(٣) في ظلال القرآن (٤ ـ ٥٠٧).

ونصارى وشيوعيين ووثنين ليقوموا بتدريبهم على السلاح وتربيتهم على مناهج الفكر التي لا يخلو أحد منهم من تلقيها مع تدريبه على السلاح، ولا فصل عند أعداء الله بين التدريب على السلاح والتربية على مناهج الفكر، وإن اختلفت قلة وكثرة، قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تتخذوا بِطانةً من دونكم لا يألونكم خَبَالاً، وَدُّوا ما عَنِتُّمْ، قد بَدَتِ البغضاءُ من أفواههم، وما تُخْفي صدورُهم أكبر، قد بيَّنا لكم الآياتِ إن كنتم تعقلون﴾(١).

ولا يكفي القائد أن يبدأ التربية ثم يترك جنوده، بل عليه أن يستمر في التربية ويرتقي بجنوده ويحفز هممهم إلى المزيد من الصلة بالله سبحانه، ويظهر هذا من كثيرمن النصوص، وهذا حديث أبي هريرة كمثال: قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها» فقالوا: يا رسول الله أفلا نبشر الناس، قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فأسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة. . .»(٢).

فالرسول ﷺ أراد أن لا يبشر الناس بما ذكر أولاً من أن الإيمان بالله ورسوله وإقام الصلاة وصيام رمضان يدخل الله بها الجنة، لئلا يتكل الناس، والمقصود أن يكثروا من الأعمال الصالحة ولا سيما الجهاد في سبيل الله الذي أعد الله لأهله ما ذكر من الدرجات(٣).

الفرع الرابع
الخبرة بأمور الحرب والقوة فيها

الخبرة بالعمل أصل من أصول نجاحه، والجهل به، من أهم أسباب فشله، فلا بد أن يكون القائد ذا خبرة فائقة بشؤون الحرب وفنونها، وبرجاله

---

(١) آل عمران: ١١٨.
(٢) صحيح البخاري رقم ٢٧٩٠، فتح الباري (٦ ـ ١١).
(٣) راجع فتح الباري (١٢ ـ ٦).

الذين أعدهم لقتال الأعداء، وبالعدو الذي يقاتله، وسلاحه الذي يستعمله، وبالأرض التي تكون عليها المعركة من سهول وجبال وغابات ومياه وغير ذلك، والقائد بدون خبرة كالجسد بدون روح، وقد اختار الله طالوت لقيادة الملأ من بني إسرائيل وزوده بهاتين الصفتين: العلم والقوة، كما قال تعالى: ﴿وقال لهم نبيُّهم: إنَّ الله قد بعث لكم طالوتَ ملكاً، قالوا: أنَّى يكون له الملكُ علينا ونحن أحقُّ بالمُلْك منه ولم يُؤْتَ سَعَةً من المال، قال: إنَّ الله اصطفاه عليكم وزاده بَسْطَةً في العلم والجسم، والله يُؤتي ملكَه من يشاء، والله واسعٌ عليمٌ﴾[1].

وقد برز علمه وخبرته في اختيار جنده ومعرفة الصالح منهم للجهاد وغير الصالح، وبرزت قوته في صموده وصبره ومصابرته ونجاحه في جهاده بقتل عدوه.

وقال ابن تيمية رحمه الله: (والقوة في كل ولاية بحسبها فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها، فإن الحرب خدعة، وإلى القدرة على أنواع القتال من رمي وطعن وضرب وركوب وكر وفر ونحو ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيل، تُرهبون به عدوَّ الله وعدوكم﴾[2] وقال النبي ﷺ: (ارموا واركبوا وأن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا ومن تعلم الرمي ثم نسيه فليس منا) وفي رواية (فهي نعمة جحدها)[3] رواه مسلم.

قال سيد قطب رحمه الله: (وفي ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة وكلها واضحة في قيادة طالوت. تبرز فيها خبرته بالنفوس وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة، وعدم التفاته للتجربة الأولى، ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه، ثم ـ وهذا هو الأهم ـ عدم تخاذله وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة، ولم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة، فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الإيمان الخالص ووعد الصادقين المؤمنين)[4].

---

(١) البقرة: ٢٤٧.

(٢) الأنفال: ٦٠.

(٣) الفتاوى (٢٨ ـ ٢٥٣).
وانظر صحيح مسلم (٣/٥٢٢).

(٤) في ظلال القرآن (٢ ـ ٢٦٣).

وقال ابن قدامة رحمه الله: (ولأن الأمير أعرف بحال الناس وحال العدو ومكانتهم ومواضعهم وقربهم وبعدهم. فإذا خرج خارج بغير إذن لم يأمن أن يصادف كميناً للعدو فيأخذه)[1].

الفرع الخامس
لين القائد وشفقته على جنده وإكرامهم وتعهدهم

إن المسؤول عن جماعة ما راع لتلك الجماعة، يجب عليه أن يعنى بها ويتفقد أفرادها ويرفق بهم ويشفق عليهم ويؤدي إليهم حقوقهم، ولا يجوز له أن يكون مفرطاً في شيء من ذلك ولا قاسياً جباراً عليهم. والقائد المجاهد يلزمه ذلك أكثر من غيره، لأن ظروف الحرب والإعداد لها والتدريب على وسائلها ولقاء الأعداء الذي تزهق فيه نفوس وتراق فيه دماء كل ذلك يقتضي رعاية أكثر وشفقة أشد وتعهداً للجنود وتحسساً لمشكلاتهم وحلها أو حل المقدور عليه منها، وليناً وتواضعاً وتكريماً وبعداً عن الفظاظة والغلظة، لتحصل بين القائد وجنده المحبة والمودة والتعاون على القيام بالواجب وتنتفي الشحناء والبغضاء والنفرة والتفرق والاختلاف ويتحقق النصر وينتفي الفشل. وقد كان الرسول ﷺ قدوة كل قائد إلى صراط الله المستقيم مجاهداً في سبيل الله، وها هو القرآن الكريم يظهر منة الله عليه بتلك الصفات الحميدة ويبين أنه لو لم يمنحه الله إياها واتصف بغيرها، لما ارتبط به أصحابه ذلك الارتباط الوثيق الذي جعلهم يفدونه بأرواحهم وأهلهم وأموالهم ويلبون دعوته ودماؤهم تسيل من جراح المعارك السابقة فيطلبون العدو في معارك لاحقة، قال تعالى: ﴿فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم، ولو كنتَ فظّاً غليظَ القلب لانفضُوا من حولك، فاعْفُ عنهم واستغفِرْ لهم وشاورهم في الأمر، فإذا عزمتَ فتوكَّل على الله إن الله يحبُّ المتوكلين﴾[2].

قال في تفسير المنار: («ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك» لأن الفظاظة وهي الشراسة والخشونة في المعاشرة وهي القسوة والغلظة وهما من الأخلاق المنفرة للناس لا يصبرون على معاشرة صاحبها وإن كثرت فضائله ورجيت فواضله، بل يتفرقون ويذهبون من حوله ويتركونه وشأنه لا يبالون ما

---

(١) المغني (٩ - ٢١٦).

(٢) آل عمران: ١٥٩.

يفوتهم من منافع الإقبال عليه والتحلق حواليه)[(١)].

ووصفه ربه سبحانه بأنه حريص على مصالح أمته يشق عليه ما يشق عليهم وأنه شديد الرأفة والرحمة بهم، كما قال تعالى: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم، عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ، حريصٌ عليكم، بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ﴾[(٢)].

وبين هو ﷺ شفقته على أمته ورأفته بهم ومحبته الخير لهم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها فأنا آخذ بحجزكم عن النار وهم يقتحمون فيها»[(٣)].

لذلك كان ﷺ رفيقاً بأصحابه رؤوفاً رحيماً بهم بعيداً عن الغلظة عليهم، فائتلفت عليه قلوبهم واشتدت محبتهم إياه، كما كان شديد الحب لهم، وحث ﷺ أمته على الرفق كما في حديث جرير عن النبي ﷺ قال: «من يحرم الرفق يحرم الخير» وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه» وفي رواية: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شأنه»[(٤)].

وأثنى ﷺ على القادة الذين يستجلبون محبة أتباعهم على طاعة الله ويحبون هم أتباعهم على ذلك، وذم القادة الذين يستجلبون بغض أتباعهم ولعنهم إياهم كما يحصل ذلك منهم لأتباعهم، كما في حديث عوف بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم، قيل يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف؟ فقال: لا ما أقاموا فيكم

(١) تفسير المنار (٤ ـ ١٩٩).
(٢) التوبة: ١٢٨.
(٣) البخاري رقم ٦٤٨٣ فتح الباري (١١ ـ ٣١٦) ومسلم (٤ ـ ١٧٨٩).
(٤) مسلم (٤ ـ ٢٠٠٣).

الصلاة، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يداً من طاعة»[١].

وكان ﷺ يتفقد أصحابه ولا سيما المجاهدين منهم الذين يبذلون أنفسهم في سبيل الله كما ضرب خيمة في مسجده لسعد بن معاذ الذي أصيب يوم الخندق ليعوده من قريب كما في حديث عائشة رضي الله عنها[٢].

وكان ﷺ إذا استأذنه أحد من أصحابه وقت الحرب لحاجة سائغة يأذن له، ويحذره من عدوه ويأمره بأخذ سلاحه شفقة عليه، كما في حديث أبي سعيد الخدري، وفيه: فقال أترى هذا البيت فقلت: نعم قال: كان فيه فتى منا حديث عهد بعرس قال: فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله فاستأذنه يوماً فقال لـه رسول الله ﷺ: «خذ سلاحك فإني أخشى عليكم قريظة»[٣].

وكان ﷺ يصبر على جنوده إذا خالفوه الرأي في أمر يرون مراجعته فيه ويجتهد في إقناعهم كما حصل في معركة بدر التي قال الله تعالى في شأنه معهم: ﴿كما أخرجك ربُّك من بيتك بالحقِّ وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون * يجادلونك في الحقِّ بعدما تبينَّ كأنَّما يُساقون إلى الموتِ وهم ينظرون﴾[٤].

وكما في قصة هدنة الحديبية التي سيأتي ذكرها إن شاء الله في الكلام عن الشورى.

وكان ﷺ يكرم كبار جيشه ويدافع عنهم كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»[٥]، وكان ﷺ يخالط أصحابه في أكلهم وشربهم وعملهم في الحرب وفي السلم، فأحبوه وعنوا به، وكانوا يصنعون له الطعام

---

(١) مسلم (٣ ـ ١٤٨١).
(٢) البخاري رقم (٤١٢٢) فتح الباري (٧ ـ ٤١١) ومسلم (٣ ـ ١٣٨٩).
(٣) مسلم (٤ ـ ١٧٥٦).
(٤) الأنفال: ٥ ـ ٦.
(٥) البخاري رقم ٣٦٧٣ فتح الباري (٧ ـ ٢١) ومسلم (٤ ـ ١٩٦٧).

ويدعونه لتناوله في وقت السلم ووقت الحرب، ومن هذا حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما يقول: لما حفر الخندق رأيت رسول الله ﷺ خَمَصاً فأنكفأت إلى امرأتي فقلت لها هل عندك شيء؟ فإني رأيت رسول الله ﷺ خَمَصاً شديداً، فأخرجت لي جراباً فيه صاع من شعير ولنا بهيمة داجن قال: فذبحتها وطحنت ففرغت إلى فراغي فقطعتها في برمتها، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ ومن معه، قال: فجئته فساررته، فقلت: يا رسول الله إنا قد ذبحنا بهيمة لنا وطحنت صاعاً من شعير كان عندنا فتعال أنت في نفر معك، فصاح رسول الله ﷺ وقال: «يا أهل الخندق إن جابراً قد صنع لكم سؤراً فحيَّهلاً بكم، وقال رسول الله ﷺ: لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينتكم حتى أجيء، فجئت وجاء رسول الله ﷺ يقدم الناس حتى جئت امرأتي فقالت: بك وبك فقلت: قد فعلت الذي قلت لي، فأخرجت له عجينتنا فبصق فيها وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق فيها وبارك، ثم قال ادعي خابزة فلتخبز معك واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها، وهم ألف، فأُقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن بُرْمتنا لَتغطُّ كما هي وإن عجينتنا لتخبز كما هي»[1].

والقائد الذي يرعى مصالح جنده ويتفقد أحوالهم ويشفق عليهم يكون قائداً محبوباً عند جنده، وهم أيضاً يجتهدون في طاعته وتفقد أحواله ويحبونه ويكرمونه، وفعل الصحابة مع الرسول ﷺ كما في هذه الحادثة وأمثالها شاهد واضح على ذلك. وهكذا كان أصحابه من بعده، قائدهم يحبهم ويشفق عليهم ويتفقد أحوالهم، وأتباعه يحبونه ويطيعونه ويكرمونه، وبدون ذلك الرفق والعناية من القائد لا يحصل من جنده على الحب والطاعة والتقدير، وإذا ما اشتد عليهم وقهرهم على طاعته وتوقيره وإظهار حبه فإن كل ذلك يكون من باب النفاق له، وقلوبهم تبغضه وتحقد عليه ويتحركون في تنفيذ أوامره وهم كارهون، فإذا غابوا عن عينيه أو عن أعين أعوانه تمردوا ولم يلقوا له بالاً، وقد ينفضّون من حوله وهو في أشد الحاجة إليهم، بل قد يكيدون لـه ويمكرون به عندما تحين لهم الفرصة للكيد والمكر، وصدق الله القائل: ﴿ولو كنتَ فظّاً غليظَ القلبِ لانفضّوا

---

(١) مسلم (٣ ـ ١٦١٠).

من حولك﴾[١]. وصدق رسوله ـ ﷺ ـ القائل في الرفق: «ولا ينزع من شيء إلا شانه»[٢].

الفرع السادس
البعد عن طلب القيادة ابتغاء الرئاسة

ومن الصفات التي يجب أن يتحلى بها القائد زهده في الرئاسة على الناس والتواضع وعدم حب العلو، بل إذا كلف قيادة الجند ممن يجب عليه أن يسمع له ويطيع أو تعينت عليه لعدم وجود من هو أكفأ منه ، قام بها تقرباً إلى الله سبحانه طالباً منه العون والتوفيق والسداد، فإن الذي يتطلع لرئاسة الناس ويحب العلو لنفسه ليس أهلاً لقيادتهم ولا أهلاً للنجاح، لأنه لا يستحق عون الله سبحانه وتعالى، بل إنه معرض لإفساد مرام الأمة التي يقودها والجيش الذي يتولى إمرته.

لذلك نهى الرسول ﷺ عن طلب الإمارة وشدد في النهي حرصاً على الأمة من أن يطمع في قيادتها طامع لغير طاعة الله، بل لهوى في نفسه، وما كان أصحابه رضي الله عنهم أهل هوى ولكنه سد الذريعة، ففي حديث عبد الرحمن ابن سمرة المتفق عليه قال : قال النبي ﷺ: «يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة فأنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها»[٣].

وفي حديث أبي موسى ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما قال أبو موسى: أقبلت إلى النبي ﷺ ومعي رجلان من الأشعريين، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري، ورسول الله ﷺ يستاك، فكلاهما سأل، فقال: «يا أبا موسى» أو «يا عبد الله بن قيس» قال: قلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل. فكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته قَلَصت، فقال:

---

(١) الآية من آل عمران: ١٥٣.

(٢) سبقت الآية كاملة، والحديث كذلك في أول هذا المبحث.

(٣) البخاري رقم ٦٦٢٢ فتح الباري (١١ ـ ٥١٦) ومسلم (٣ ـ ١٤٥٦).

«لن» أو «لا نستعمل على عملنا من أراده، ولكن اذهب أنت يا أبا موسى...»[١].

والإمارة عند المسلمين قربة وعبادة يتقربون بها إلى الله، لنصر دينه وتحقيق مصالح عباده، وليست مغنماً من جاه أو منصب أو مال.

قال ابن تيمية رحمه الله: (فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات، وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها، وقد روى كعب بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه» قال الترمذي: حديث حسن صحيح. فأخبر أن حرص المرء على المال والرياسة يفسد دينه مثل أو أكثر من إفساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم)[٢].

ولا فرق في طلب الرئاسة بين التصريح والتلويح، فإذا قامت القرائن على أن شخصاً ما يستشرف للقيادة ويحرص عليها وجب ألا يمكّن منها ولو كان طلبه إياها تلويحاً.

ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يستشرفون للإمارة إلا إذا ظهر لهم أنها ـ فعلاً ـ تقربهم إلى الله سبحانه وتعالى وتجلب لهم حبه إياهم وتزيد في حبهم له ولرسوله ﷺ، فإنهم حينئذ يتنافسون في الإستشراف لها والتطلع إلى رايتها وفيها بذل النفس في سبيل الله كما يتضح من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه سمع النبي ﷺ يقول يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً» رجلاً يفتح الله على يديه (وفي حديث سلمة بن الأكوع: «لأعطين الراية غداً» أو «ليأخذن غداً رجل يحب الله ورسوله» أو قال: يحب الله ورسوله) فقاموا يرجون لذلك أيهم يعطى، فغدوا وكلهم يرجو أن يعطى، فقال: أين علي؟ فقيل: يشتكي عينيه...» الحديث وفيه: «على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام،

---

(١) البخاري رقم ٦٩٢٣ فتح الباري (١٢ ـ ٢٦٨) ومسلم (٣ ـ ١٤٥٦).
(٢) الفتاوى (٢٨ ـ ٣٩١)، وانظر سنن الترمذي (٤/٥٨٨).

وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدى بك رجل واحد خير لك من حُمْر النَّعم»[١].

أما إذا تعينت الإمارة أو القيادة على شخص بأن كان هو وحده أهلاً لها، وهو يرى أنها لو أسندت إلى غيره لضاعت مصالح المسلمين، ويغلب على ظنه أنه قادر على القيام بها مع خوف الله تعالى وعدم وجود ضرر على الناس أشد من الضرر الذي يحصل لو وليها غيره أو مساوياً له، فإن له عندئذ أن يلوح بطلبها أو يصرح لتعينها عليه، وقد حمل العلماء طلب يوسف عليه السلام أن يجعله العزيز على خزائن الأرض على هذه الحال، وحملوا النهي عن طلب الإمارة على غير ذلك، قال القرطبي رحمه الله: (ودلت الآية أيضاً على جواز أن يخطب الإنسان عملاً يكون له أهلاً، فإن قيل: فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة ـ وذكر الحديث ـ وعن أبي بردة قال: قال أبو موسى: ـ وذكر الحديث ـ وقد تقدما قريباً ـ قال: (فالجواب أولاً: أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه، لتعين ذلك عليه ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك كما قال يوسف عليه السلام)[٢].

أما إذا لم يتعين عليه بأن وجد من هو أفضل منه أو من يساويه فإن عليه أن يشير بمن هو أفضل أو من هو مثله وأن يجتهد في ذلك حتى لا يولاها غيره ممن ليس مثله في الكفاءة، كما فعل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة رسول الله ﷺ حيث كان كل منهما يدفعها إلى الآخر حرصاً على ألا يتولاها من هو أقل كفاءة، كما في حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه: (واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، فقالوا: منا أمير ومنكم أمير، فذهب إليهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر، وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أني

---

(١) البخاري رقم ٢٩٤٢ فتح الباري (٦ ـ ١١١) ومسلم (٤ ـ ١٨٧٢).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩ ـ ٢١٥).

قد هيأت كلاماً قد أعجبني خشيت ألا يبلغه أبو بكر، ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، فقال حباب بن المنذر: لا والله لا نفعل، منا أمير ومنكم أمير. فقال أبو بكر: لا ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء... فبايعوا عمر أو أبا عبيدة، فقال عمر: بل نبايعك أنت فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ، فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس)[١].

ولقد خسرت الأمة الإسلامية خسارة فادحة بقوم يلحّون في طلب الإمارة والقيادة ويبذلون جهوداً مضنية في سبيل الحصول عليها من أجل العلو في الأرض وابتغاء الرئاسة والمال والجاه فأفسدوا بذلك الدين والدنيا معاً وتوالت على المسلمين الهزائم بسبب تساهلهم في هذا الأمر ووجود طلاب الرئاسة والعلو والمال والجاه على كراسي قيادتهم الذين يضحون بدين الأمة ودنياها من أجل إرضاء أهل الكفر الذين يعاونونهم ما داموا كذلك على البقاء على كراسي القيادة وعلى المسلمين أن يتحملوا مسؤولية منحهم السلطة في قيادتهم لمحبيها من هذا النوع، فإن المصائب التي أنزلها الله بهم والمحن التي ابتلاهم بها ما هي إلا بسبب ما كسبت أيديهم، ومن يعمل سوءاً يجز به، هذا بالإضافة إلى أن الحريص على القيادة مستعبد لغير الله لا يرجى منه إلا ذله وهوانه وذل من تبعه، كما قال اللواء محمد جمال الدين محفوظ: (والمصدر الثالث من مصادر استعباد الإنسان وذلته إنما هو وهم الحرص على الوظيفة أو المكانة الاجتماعية، ومن أجل ذلك يسير بعض الناس في هذه الحياة وكل همه الاحتفاظ بوظيفته أو المحافظة على مكانته، فيتزلف ويرائي ويعيش مطأطىء الرأس منحنياً في ذلة وهوان وتلك نزعة يحاربها الإسلام ويحاول أن يجتثها من جذورها من الوسط المسلم)[٢].

الفرع السابع
إسناد الأمور إلى أهلها

ومن صفات القائد الكفء الصالح إسناده الأمور إلى أهلها، وأمور الجهاد كثيرة، منها ما يحتاج إلى الرجل القوي الشجاع الخبير بأساليب الحرب ورجالها

(١) البخاري فتح الباري (٩ ـ ١٩) رقم الحديث ٣٦٦٨.
(٢) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية ص ١٩٥.

وأرضها وأحوال العدو، ومنها ما يحتاج إلى الذي يكون أكثر أمانة من غيره ليكون خازناً للذخائر والسلاح والمؤن، ومنها ما يحتاج إلى الخادم الذي يقوم بخدمة الجنود في طعامهم وشرابهم وتفقد مركوباتهم، ومنها ما يحتاج إلى أطباء يداوون الجرحى، ويقومون بشؤونهم، وهكذا... وعلى القائد أن يضع كل عامل في مكانه المناسب ليقوم بما هو أهل له من أنواع الجهاد، والقائد الذي يفعل ذلك يكون ناجحاً في قيادته، يجني ثمرة عمله من إسناد كل أمر إلى من هو أهل له. وهذا من أهم الأسباب التي حققت للسلف الصالح في القرون الأولى ما كانوا يصبون إليه من نشر الدعوة وإعلاء كلمة الله في الأرض، لأنهم أدوا هذه الأمانة التي كلفهم الله إياها وما كانوا يحابون فيها قريباً ـ مهما كانت قرابته ـ ولا صديقاً ـ مهما كانت صداقته ـ ولا من يتوقع منه نفع لهم ـ مهما كان نفعه ـ وإنما كانوا يسندون الأمر إلى أهله من أجل رفع كلمة الله.

وقد كان الرسول ﷺ يسند الأمر إلى من هو أهل له ولو كان أقل فضلاً من غيره ممن هم أقل خبرة منه في ذلك الأمر الذي أسنده إليه، كما فعل ﷺ في إسناد عمل الجهاد إلى خالد بن الوليد الذي كان ماهراً في أساليب القتال قبل دخوله الإسلام، وقد رأى ﷺ خبرته القتالية وهو يقاتل المسلمين في صفوف أعدائهم المشركين كما في غزوة أحد. قال ابن تيمية رحمه الله: (فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها، فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة والآخر أعظم قوة، قدم أنفعهما لتلك الولاية وأقلهما ضرراً فيها، فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع ـ وإن كان فيه فجور ـ على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أميناً، كما سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو وأحدهما قوي فاجر والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يُغْزى؟ فقال: أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين فيغزو مع القوي الفاجر).. إلى أن قال: (وإن لم يكن فاجراً كان أولى بإمارة الحرب ممن هو أصلح منه في الدين إذا لم يسد مسده، ولهذا كان النبي ﷺ يستعمل خالد بن الوليد على الحرب منذ أسلم، وقال: «إن خالداً سيف سله الله على المشركين»[1] مع أنه أحياناً قد كان يعمل ما ينكره النبي ﷺ،

(١) جامع الأصول (٩ ـ ١٠٢) قال المحشّي بعد أن ذكر له شواهد: فهو حديث صحيح بشواهده..

حتى إنه مرة قام ثم رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد» لما أرسله إلى بني جذيمة فقتلهم وأخذ أموالهم بنوع شبهة، ولم يكن يجوز ذلك، وأنكره عليه بعض من معه من الصحابة حتى وداهم النبي ﷺ وضمن أموالهم، ومع هذا فما زال يقدمه في إمارة الحرب لأنه كان أصلح في هذا الباب من غيره وفعل ما فعل بنوع تأويل)[١].

وهكذا فعل أبو بكر بعد رسول الله ﷺ في استعمال خالد على أمور الحرب. وعزله عمر رضي الله عنه لاجتهاد منه ندم عليه فيما بعد. قال ابن كثير رحمه الله: (بعد أن أبلى خالد في موقعة قنسرين وفتحها الله عليه قال عمر: يرحم الله أبا بكر كان أعلم بالرجال مني والله إني لم أعزله عن ريبة ولكن خشيت أن يوكل الناس إليه)[٢].

وإسناد الأمور إلى غير أهلها خيانة يترتب عليها الفشل واضطراب الحال وقد دلت التجارب في تاريخ البشر على ذلك، فما أسند أمر إلى غير أهله إلا ساءت أحوال ذلك الأمر، وأصيب الناس بما يضرهم بقدر حاجتهم إليه وظهرت شكاواهم من مشكلاته التي تواجههم بسبب ذلك. لذلك حث القرآن الكريم المسلمين على أداء الأمانات التي منها إسناد الأمور إلى أهلها، كما قال تعالى: ﴿إنَّ الله يأمركم أن تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلها﴾[٣] وحضت السنة النبوية عليه كذلك كما قال النبي ﷺ لأبي ذر في الإمارة: «إنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»[٤] وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة قيل: يا رسول الله وما إضاعتها؟ قال: إذ وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)[٥].

وقال ابن تيمية رحمه الله: (فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره لأجل

---

(١) الفتاوى (٢٨ ـ ٢٥٤) وما بعدها. وانظر البخاري رقم ٤٣٣٩ وفتح الباري (٨ ـ ٥٦).
(٢) البداية والنهاية (٥٣/٧)، وراجع الفتاوى (٢٨ ـ ٢٥٦ ـ ٢٧٥).
(٣) النساء: ٥٨.
(٤) مسلم (٣ ـ ١٤٥٧).
(٥) البخاري رقم ٥٩ فتح الباري (١ ـ ١٤١).

قرابة بينهما، أو ولاء عتاقه أو صداقة، أو مرافقة في بلد أو مذهب، أو طريقة، أو جنس، كالعربية والفارسية والتركية والرومية، أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة أو غير ذلك من الأسباب، أو لضغن في قلبه على الأحق أو عداوة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهى عنه في قوله: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تخُونوا الله والرسولَ وتخونوا أماناتِكم وأنتم تعلمون﴾[1]).

والقائد الذي لا تعرف من صفاته إلا إسناد الأمور إلى غير أهلها مع وجود من هو أهل لها، يكفيك ذلك دلالة على أنه قائد فاشل ليس أهلاً للقيادة، إما لضعفه وعدم معرفة وظيفته ورجالها الذين هم قادرون على تحقيقها، وإما لفشله وخيانته التي تجعله غير مؤتمن عند العقلاء من الناس، أو لهما معاً: ضعفه وخيانته.

ولقد نكبت الأمة الإسلامية بقادة يحاربون كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، ويتخذون أعواناً لتلك المحاربة من تعتبر ولايتهم في أي عمل من الأعمال وبالاً على الأمة، بجهلهم بما يولون عليه، وبضعفهم الذي لا يقدرون معه على القيام بما ينفع، وبخيانتهم، وهذه الصفات الهدامة هي التي جعلتهم عند قادتهم أهلاً للولاية، لأنهم ينفذون لهم أوامرهم ورغائبهم ولو كان في ذلك ما يسخط الله ويضيع الشعوب ويلقي بها إلى التهلكة، لعلمهم بأن الخبير الأمين القوي لا يمكن أن يستجيب لما يبتغون منه من خيانة وغش، لأن خبرته وأمانته وقوته تمنعه من تنفيذ ذلك وتدفعه إلى معارضته وإنكاره، ومن تلك الولايات قيادات الجيوش التي أسندت إلى غير أهلها ممن أضاعوا البلاد والعباد، البلاد التي أصبحت تحت سيطرة أعداء الله من الكفار عن طريق الاحتلال المسلح فعلاً، أو خاضعة خضوعاً مزرياً لهم، وكأن أولئك القادة ما هم إلا سرايا من جيوش الكفر تحرس له الشعوب التي ينتمون إليها من أن تنفض عنها غبار الذلة والمهانة فترفع المصحف في يمينها والمدفع في يسارها ملبية نداء ربها لرفع راية الإسلام في الأرض كلها.

(١) الفتاوى (٢٨ ـ ٢٤٨) والآية في الأنفال: ٢٧.

والمتأمل في حال أكثر جيوش الشعوب الإسلامية يدرك أنها لم تحظ بقادة جهاد يطلبون الموت في سبيل الله لرفع رايته، وإنما هم حراس حكام رفعهم على كراسي الحكم أعداء الإسلام من كفرة اليهود والنصارى والشيوعيين لتحقيق أهداف الكفر بتلك الجيوش.

والقائد المسلم الذي يسند الأمر إلى أهله هدفه أن يحقق في الأرض العبودية الكاملة لله وحده وتحطيم الطواغيت الذين يبتغون العلو في الأرض، وجعل الناس عبيداً لهم من دون الله، كما قال ابن تيمية رحمه الله: (وجميع الولايات الإسلامية إنما مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سواء في ذلك ولاية الحرب الكبرى مثل نيابة السلطنة، والصغرى مثل ولاية الشرطة وولاية المال وهي ولاية الدواوين المالية، وولاية الحسبة)[1] بخلاف قادة الشهوات ومحبي العلو في الأرض فإنهم يسندون الأمر إلى غير أهله ليكون عبداً لهم يحقق لهم غايتهم ويعينهم على ظلمهم ومعاصيهم، ومع ذلك فإنهم - أي أولئك القادة - يكونون عبيداً لمن ولوهم، لأنهم يرجون منهم تحقيق رغباتهم ويخافون أن يفضحوهم أو يقفوا ضدهم مع غيرهم. قال ابن تيمية رحمه الله: (وكذلك طالب الرياسة والعلو في الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم، فيبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عما يجترحونه ليطيعوه ويعينوه، فهو في الظاهر رئيس مطاع وفي الحقيقة عبد مطيع لهم.

والتحقيق أن كلاهما[2] فيه عبودية للآخر وكلاهما[3] تارك لحقيقة عبادة الله وإذا كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق، فكل واحد من الشخصين لهواه الذي استعبده واسترقه مستعبد للآخر)[4].

---

(١) الفتاوى (٢٨ - ٦٦).

(٢ - ٣) كذا والصواب: كليهما، لأن كلا وكلتا إذا أضيفتا إلى الضمير تعربان إعراب المثنى.

(٤) العبودية طبع المكتب الإسلامي ببيروت ص ١٠١.

الفرع الثامن
تربية الجندي على التسليم المطلق لله لا لشخص القائد

القائد المسلم الصادق يربي جنده على السعي الجاد للوصول إلى رضا الله الخالق الذي لم يخلق البشر إلا لأجله، كما قال تعالى: ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزقٍ وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين﴾[١].

قال ابن تيمية رحمه الله: (وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها)[٢].

وهذه التربية هي التي ربى الله أصحاب نبيه محمد ﷺ عليها ـ وكذا حواريو الأنبياء قبله ـ وهذا واضح من نصوص كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكم، فإن تنازعْتُم في شيء فردُّوه إلى الله والرسولِ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلَك خيرٌ وأحسن تأويلاً﴾[٣] وجه الدلالة من الآية: أن الله أمر بطاعته وبطاعة رسوله مطلقاً لأن رسول الله ﷺ لا يأمر إلا بما أمر الله بـه ﴿إن هو إلا وَحْيٌ يُوحى﴾[٤] أما غير الرسول ﷺ من أولي الأمر، فقد أمر بطاعتهم مقيدة، بأن لا يحصل بينهم وبين أتباعهم نزاع، وذلك بأن يكونوا أمروا بما أمر الله به، وهو الذي لا يجوز لهم النزاع فيه، أما إذا أمروا بما لم يظهر لأتباعهم أنه طاعة لله فإنه يجب أن يحتكم الآمر والمأمور إلى الله ورسوله، أي إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وذلك لئلا ينصب أحد نفسه آمراً ناهياً يطاع أمره ويجتنب نهيه لشخصه، فيكون تعلق جنده به تعلقاً مطلقاً لأن في هذا عبودية لذلك الشخص، والأشخاص يعتريهم الجهل والهوى والظلم والمحاباة وغير ذلك من النقص البشري.

وقد قيد رسول الله ﷺ طاعة المخلوق بطاعة الخالق ونهى عن طاعة من أمر بمعصيته كائناً من كان، وما ذلك إلا للحفاظ على الاستسلام الكامل لله والعبودية المطلقة له عز وجل. بل إن الله عز وجل أنكر على أصحاب رسول

---

(١) الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨.
(٢) العبودية ص: ٣٩.
(٣) النساء: ٥٩.
(٤) النجم: ٤.

الله ﷺ أن يتباطأوا عن بذل نفوسهم في سبيله بسبب موت رسول الله ﷺ أو قتله لينبههم سبحانه أن الطاعة مطلقة ليست معلقة بشخص حتى ولو كان هذا الشخص هو الرسول ﷺ الذي يجب أن يطاع أمره كما يطاع أمر الله، قال تعالى: ﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قَبْلِه الرسلُ؛ أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلبْ على عَقِبَيْه فلن يَضُرَّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾[1].

قال ابن القيم رحمه الله ـ وهو يتحدث عن بعض حكم غزوة أحد ـ: (ومنها أن وقعة أحد كانت مقدمة وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله ﷺ فنبأهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله ﷺ أو قتل، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه أويقتلوا، فإنهم إنما يعبدون رب محمد وهو حي لا يموت، فلو مات محمد أو قتل لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه وما جاء به، فكل نفس ذائقة الموت، وما بعث محمد ﷺ إليهم ليخلد لا هو ولا هم، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد)[2].

وقال سيد قطب رحمه الله: (وكأنما أراد الله سبحانه بهذه الحادثة وبهذه الآية أن يفطم المسلمين عن تعلقهم الشديد بشخص النبي ﷺ وهو حي بينهم وأن يصلهم مباشرة بالنبع: النبع الذي لم يفجره محمد ﷺ، ولكن جاء فقط ليومىء إليه ويدعو البشر إلى فيضه المتدفق كما أومأ إليه من قبله من الرسل ودعوا القافلة إلى الارتواء منه، وكأنما أراد الله سبحانه أن يـأخذ بـأيديهم فيصلها مباشرة بالعروة الوثقى العروة التي لم يعقدها محمد وإنما جاء ليعقد بها أيدي البشر ثم يدعهم عليها ويمضي وهم بها مستمسكون، وكأنما أراد الله سبحانه أن يجعل ارتباط المسلمين بالإسلام مباشرة وأن يجعل عهدهم مع الله مباشرة وأن يجعل مسؤوليتهم في هذا العهد أمام الله بلا وسيط حتى يستشعروا تبعتهم المباشرة التي لا يخليهم منها أن يموت رسول الله ﷺ أو يقتل فهم إنما بايعوا الله وهم أمام الله مسؤولون.

(١) آل عمران: ١٤٤.
(٢) زاد المعاد (٢ ـ ١١٣).

وكأنما كان الله سبحانه يعد الجماعة المسلمة لتلقي هذه الصدمة الكبرى حين تقع وهو سبحانه يعلم أن وقعها عليهم يكاد يتجاوز طاقتهم فشاء أن يدربهم عليها هذا التدريب وأن يصلهم به هو وبدعوته الباقية قبل أن يستبد بهم الدهش)[١].

وإذا كان الله سبحانه وتعالى أراد أن يفطم المسلمين عن تعلقهم الشديد بشخص النبي ﷺ وأن يصلهم به مباشرة، وهو حي باق لا يموت فإن فطم الأمة عن التعلق الشديد بشخص غيره ﷺ واتصالها بالحي الذي لا يموت أولى ما دام المقصود هو تحقيق عبوديتهم له سبحانه، وعلى هذه الأمة أن تعد قادة يتلو بعضهم بعضاً يقودونهم إلى صراط الله والجهاد في سبيل الله وأن يكون تعلقهم بهم تعلق جندي يعبد الله ويطيع قائده في طاعة الله وطاعة الله باقية ولو مات ذلك القائد أو قتل وعلى القائد الذي يليه أن يحمل الراية لرفع كلمة الله وعلى الأمة أن تتبعه في طاعة الله.

قال محمد رشيد رضا رحمه الله: (أقول: وفي هذه الآية من الهداية والإرشاد أيضاً أنه لا ينبغي أن يكون استمرار الحرب وعدمه معلقاً بوجود القائد بحيث إذا قتل ينهزم الجيش أو يستسلم للأعداء بل يجب أن تكون الأعمال والمصالح العامة جارية على نظام ثابت لا يزلزله فقد الرؤساء، وهذا ما عليه نظام الحروب والحكومات في هذا العصر، وقد كان أكثر الناس في العصور القديمة تبعاً لرؤسائهم يحيون لحياتهم ويخذلون بموتهم حتى إنهم يرون أن وجود الجيش العظيم بعد فقد القائد كالعدم.

إن الأمة التي تقدر هذه الهداية حق قدرها تعد لكل علم تحتاج إليه ولكل عمل تقوم مصالحها به رجالاً كثيرين فلا تفقد معلماً ولا مرشداً ولا حاكماً ولا قائداً ولا رئيساً ولا زعيماً إلا ويوجد فيها من يقوم مقامه ويؤدي لها من الخدمة ما كان يؤديه فهي لا تحصر الاستعداد لشيء من الأشياء في فرد من الأفراد ولا تقصر القيام بأمر من الأمور على تابع واحد من التابعين ولا يتجرأ فيها حاكم ولا زعيم على احتكار علم من العلوم أو عمل من الأعمال. بل تتسابق فيها الهمم

---

(١) في ظلال القرآن (٤ ـ ٤٨٦).

إلى الاستعداد لكل شيء يمكن أن يصل إليه كسب البشر وينال منه العامل بقدر همته وسعيه وتأييد التوفيق له فأين نحن معاشر المسلمين من هذه الهداية اليوم؟)[١].

ولقد كان رسول الله ﷺ يثبت في نفوس أصحابه التسليم المطلق لله ويشدد النكير عليهم في إطرائه كما في حديث عمر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تطروني كما أَطْرَتِ النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا عبدالله ورسوله»[٢].

وفي حديث أبي مسعود رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجل فكلمه فجعل ترعد فرائصه فقال له: «هون عليك فأني لست بملك إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد»[٣].

كما كان ﷺ يربي أصحابه على دوام الطاعة والاستمرار في الجهاد ولو فقدوا قائدهم الأول والثاني والثالث في وقت واحد لأنهم يجاهدون في سبيل الله وفقد القائد أو القادة لا يسوغ لهم التوقف عن جهادهم، ففي حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: (أمّر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: «إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة» قال عبدالله: كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية)[٤]. (فأين نحن المسلمين من هذه الهداية اليوم).

هكذا عقب محمد رشيد رضا رحمه الله متسائلاً عما يجري الآن في تربية من مكّنهم الله من قيادة المسلمين لأتباعهم قائلاً: (فأين نحن المسلمين من هذه الهداية اليوم)؟

---

(١) تفسير المنار (٤ ـ ١٦٤).

(٢) البخاري رقم الحديث (٣٤٤٥). (فتح الباري (٦ ـ ٤٧٨)

(٣) ابن ماجه (٢ ـ ١١٠٠) وقال المحقق: في الزوائد هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات.. ثم عقب المحقق: والمحفوظ عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس مرسلاً من غير ذكر أبي مسعود اهـ.

(٤) البخاري رقم الحديث: (٤٢٦١)- فتح الباري (٧ ـ ٥١٠)

ويكاد يكون الجواب إننا في عهد الفرعونية الجماعية التي تُعبِّد البشر للبشر وتمنّ عليهم بذلك التعبيد ـ لا بسواه ـ : ﴿وتلك نعمة تمنُّها عليَّ أن عَبَّدْتَ بني إسرائيل﴾[1]. فأغلب من ابتلاهم الله بالمسؤولية على من سواهم ـ ولا سيما القيادة العسكرية ـ يربون من تحت أيديهم على التسبيح بحمدهم والخضوع المذل لهم وعبادة أشخاصهم، حتى إذا قالوا، سمع الأتباع، وإذا دعوهم، استجابوا على نهج الولاء الجاهلي:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهاناً
وهل أنا إلا من غزية إن غوت   غويت وأن ترشد غزية أرشد

ينصب نفسه كأنه ربّ من تحته، ويذل هؤلاء كأنهم عبيده حقاً ويشعرهم بأنه وحده القادر على تصريف الأمور والمدبر للشؤون وأنهم هم يكونون بدونه من سقط المتاع، ويعاملهم معاملة المتكبر المتجبر المتغطرس للأراذل الأذلة الذين لا يستحقون العزة ولا الكرامة، وهم يظهرون له أنه كذلك ربهم الأعلى الذي له الأمر والنهي، وأنهم عبيده الذين عليهم أن يسرعوا إلى تنفيذ أمره والبعد عن نواهيه، وهم في ذلك كاذبون يظهرون له ما لا يبطنون حرصاً على مصالحهم الدنيا التي يظنون أنهم لا ينالونها إلاّ برضاه، فيعينونه ـ بذلك ـ على التكبر والانتفاخ الكاذب، وهو يربيهم على المداهنة والنفاق والذل والجبن يغلون في مدحه إذا حضر ويلعنونه إذا غاب، يسارعون في عمل ما يرضيه إذا علم، ويكيدون له المكايد إذا جهل. لا يرضى هو أن يرتفع أحد منهم إلا بقدر ما يزيد ذلك الارتفاع في كبريائه وطغيانه، ويقلدونه هم في مساويه، فيتكبر كل واحد منهم على من تحته، ويتخذهم عبيداً له ويجعل نفسه إلهاً لهم، فكل واحد منهم رب لمن دونه وعبد لمن فوقه، لأنهم لم يربوا على التسليم المطلق لله، وإنما ربوا على التسليم المطلق لشخص القائد، وتلك هي التربية الفرعونية التي تعبّد البشر للبشر لا لرب البشر.

فالملأ من قوم فرعون ـ وهم عبيده ـ يغرونه بموسى وقومه ليقضي عليهم

---

(١) الشعراء: ٢٢.

لأنهم مفسدون ـ في نظرهم ـ وسبب هذا الإغراء هو اعتقادهم بأنهم يتقربون إليه بما يرضيه لينعم عليهم وهو يهدد المستضعفين بقتل رجالهم واستحياء نسائهم وقهرهم: ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتَذَرُ موسى وقومَه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك؟ قال: سنقتِّل أبناءهم ونستحيي نساءَهم، وإنا فوقَهم قاهرون﴾(١).

والقوم الذين يربون على الذلة والمهانة ليس من السهولة انتشالهم من وهدة الرضا بالمذلة والمهانة إلى قمة العزة والكرامة وليس من السهولة غرس الشجاعة في نفوسهم وقد ألفت تلك النفوس الجبن ولو رزقهم الله العزة بدون تعب منهم وبعث لهم من يحاول رفع معنوياتهم بشتى الإغراءات ليحافظوا على ما منحهم الله من عزة، فإنهم لا يقوون على ذلك، ولقد ظهر هذا المعنى جلياً في بني إسرائيل الذين ذاقوا الذل والهوان من فرعون، وأنعم الله عليهم بتحريرهم من عبوديته وقهره وبعث لهم موسى يدعوهم إلى أن يحافظوا على تلك الحرية ويذكرهم بنعمة الله عليهم ووعد الله لهم بأنه كتب لهم الأرض المقدسة ويطلب منهم تحريرها ودخولها ولكنهم وضعوا أمامه المعاذير تلو المعاذير حتى إذا غلبتهم حجته ولم يبق لهم عذر أظهروا له عذرهم الأصيل الذي ملأ قلوبهم وهو الخوف والذل، كما قال تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه: يا قوم اذكروا نعمةَ الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً، وآتاكم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين * يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدُّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين * قالوا يا موسى إنَّ فيها قوماً جبَّارين وإنا لن ندخلَها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون * قال رجلان من الذين يخافون أنْعَمَ الله عليهما: ادخلوا عليهم البابَ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون * وعلى الله فتوكَّلوا إن كنتم مؤمنين * قالوا يا موسى إنا لن ندخلَها أبداً ما داموا فيها، فاذهبْ أنت وربُّك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾(٢).

والذي يتأمل التربية العسكرية ـ وغيرها ـ في الشعوب الإسلامية في هذه

(١) الأعراف: ١٢٧.
(٢) المائدة: ٢٠/٢٤.

الأيام يجدها تربية فرعونية ـ إلا ما شاء ربك وقليل ما هم ـ يربي القائد جنده على طاعته المطلقة في الخير والشر، كما يربيهم على الخضوع الكامل له، وهم يظهرون له الطاعة والولاء وقلوبهم له عاصية كارهة، وإن رأى من يحاول الظهور من جنده قضى عليه بأي أسلوب من أساليب القضاء وإذا غاب هذا القائد بموت أو غيره خلفه من هو مثله لا يهتم إلا بشخصه التي يعبِّد لها من تحت يديه.

وها هم كتّاب هذا العصر يرفعون أصواتهم منكرين هذه التربية الفاسدة التي أماتت في نفوس جنود الشعوب الإسلامية العبودية الحقة لله وجعلتهم عبيداً لما سواه، فكان ذلك وبالاً على الأمة الإسلامية وعائقاً عظيماً عن الجهاد في سبيل الله.

قال محمد الغزالي: (إن الذي يدرس المجتمعات الفاسدة ويتغلغل في بحث عللها والذي يتتبع أعمال الأدعياء وطلاب الزعامة ويستقصي وسائلهم الملتوية في تسخير الجماهير للوصول إلى القمة والذي يلحظ النهضات الكبرى وكيف يدركها الفشل فجأة لأنهم أصيبوا برجال يحبون الظهور فلا يرحبون بالنصر إلا إذا جاء عن طريقهم وحدهم أما إذا جاء عن طريق غيرهم فهو البلاء المبين. الذي يلحظ هذه الآفات القتّالة يدرك أن هنالك رجالاً كأنما يعيشون (في غرف من المرايا) فأينما ولوا وجوههم لا يرون إلا أنفسهم، إنهم يعبدون أنفسهم من دون الله ويريدون أن تعنو وجوه الناس لهم)[١].

وقال سعد جمعة: (والفرق بين الإسلام والنظم المعاصرة أن الولاء في الإسلام هو لله وحده، بينما الولاء في النظم الأخرى المنعوتة بالتقدمية، هو للطاغية أو الدكتاتور أو الحزب الحاكم أو الجيش العقائدي أو الإيديولوجية المتسلطة، ولذا فهو ولاء إكراه وضغط وإرهاب فكري وقهر بوليسي لا ولاء الخير والمحبة والمودة والتقوى والأخوة)[٢].

وقال اللواء محمد جمال الدين محفوظ: (القائد السلبي: والنمط الثاني هو

---

(١) الإسلام والاستبداد السياسي ص: ٣٥.

(٢) الله أو الدمار ص: ١٨١ ويراجع كتاب الخطر الصهيوني على العالم الإسلامي ص: ٢٩ ـ ٤٣.

القائد السلبي الذي لا تصل به قدراته، أو قد لا يصل إيمانه وإدراكه لمسؤوليته إلى حد السعي إلى إعداد غيره للقيادة، فنراه لا يهتم بأكثر من تصريف الأمور ويترك معاونيه ومرؤوسيه لعوامل الصدفة في التعليم وبعض القادة من هذا النمط يركز كل الأمور في يده، ويتصور أن من صالحه أن يقال عنه إن الأمور تختل لو غاب عن قيادته.

وقد ينطوي هذا السلوك على سوء النية والحقد وكراهية النجاح لغيره فيتضاعف ضرره)[١].

ولقد كان من آثار كبرياء القادة على الأتباع وعدم تربيتهم على التسليم المطلق لله، بل لأنفسهم أن أصيبت الشعوب الإسلامية بمآس ونكبات متوالية. لتَنافُس الظلمة على القيادة الظالمة، ومحاولة المقهور التغلب على قاهره والمظلوم الانتصار على ظالمه وصار مريد العلو ذليلاً في الحياة قبل الممات، قال ابن تيمية رحمه الله: (فكم ممن يريد العلو ولا يزيده ذلك إلا سفولاً، وكم ممن جُعِل من الأعلين وهو لا يريد العلو ولا الفساد، وذلك لأن إرادة العلو على الخلق ظلم لأن الناس من جنس واحد، فإرادة الإنسان أن يكون هو الأعلى ونظيره تحته ظلم ومع أنه ظلم فالناس يبغضون من يكون كذلك ويعادونه، لأن العادل منهم لا يحب أن يكون مقهوراً لنظيره وغير العادل منهم يؤثر أن يكون هو القاهر)[٢].

وما لم تعد الأمة الإسلامية إلى منهج دينها الإسلامي وتقتد برسول الله ﷺ في التربية الربانية تربية الأتباع على التسليم المطلق لله لا للأشخاص فإنه لا نجاة لها ولا نصر، لأن نصر الله لا يكون إلا لدينه الذي شرع الجهاد من أجل نصره، لا للأشخاص، وما لم يعدّ قادة الجيوش الإسلامية من يخلفهم إذا فقدوا، كما فعل الرسول ﷺ في تعيين قائد يخلف من سبقه إذا فقد فإن الفشل الذي سجله التاريخ على غير هذه الأمة، وعليها عندما ابتعدت عن الاقتداء بالرسول ﷺ، سيكون حليفها: (ونحن نقرأ في التاريخ عن معارك هزمت فيها

---

(١) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية ص: ٣٠٧.
(٢) الفتاوى (٢٨ - ٣٩٣).

جيوش كبيرة وانسحبت وهي على وشك الانتصار لمجرد موت القائد الذي يقودها في المعركة)[١].

وقال في موضع آخر: (فإذا اختفى القائد من المعركة لموته أو أسره أو إصابته بجروح خطيرة تقعده عن العمل أو ظهرت منه أية بادرة للخوف أو اليأس من التغلب على الموقف الخارجي فإن التفكك يظهر في صفوف الجماعة في الحال حتى ولو كانت موشكة على النصر.

وقد دلت التجارب الكثيرة على ذلك وعلى أنه ما لم يقم مقام القائد الأصلي قائد آخر في الحال له من المقدرة ومن المكانة في نفوس الأفراد ما يجعله قادراً على أن يحل محل القائد الأصلي ويعوض الجماعة عنه فإنها تتدثر ويعتريها التفرق والهزيمة)[٢].

والقائد المسلم الذي يريد بجهاده وجه ربه لا بد أن يعدّ الصف القيادي ويدربه ويفسح له المجال ليزداد خبرة وقوة واتصالاً بالجنود ليقوي صلته بهم وينال محبتهم التي تجعلهم يطيعونه كما كانوا يطيعون القائد الأول، لأن الهدف هو إعلاء كلمة الله الذي لا ينقطع بفقد قائد بموت أو غيره.

أما القائد الذي يريد بعمله العلو على الناس وتكبير نفسه وإحاطتها بهالة من العظمة فإنه يسوءه أن يظهر غيره من جنده ظهوراً يجعل أفراد هذا الجند يقدرونه ويحترمونه خوفاً من أن يصغر ذلك القائد في عيونهم بقدر ما يكبر غيره، ولذلك لا يفتأ يحول بين النابغين من أتباعه وبين ظهور نبوغهم لجنده بأي وسيلة ممكنة له ولو كانت ظالمة والفرق بين القائدين القائد المسلم الذي يريد إعلاء كلمة الله، والقائد الذي يسعى لظهور نفسه وعظمتها، أن القائد المسلم لا يحرص على القيادة إلا لرضا الله بعمله، ومن رضا الله أن يعدّ من يستمر في هذا العمل الجليل بعده حتى يكون له أجره وأجر من علمه وأعانه على ذلك إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيء أما الآخر فإنه يخاف ـ ولو خوفاً

(١) الشخصية العسكرية ص: ١٦.

(٢) نفس المرجع ص: ٦٥.

وهمياً ـ أن ينال العظمة غيره، وهي هدفه الوحيد فلا يسمح بأي فرصة لغيره يخشى منه على ذلك الهدف.

كما أن القائد الأول واثق من جنوده كباراً وصغاراً أنهم يريدون بلوغ الهدف الذي يريد هو بلوغه، لأنه رباهم على ذلك.

أما الآخر فإنه يعلم أنه هو نفسه قدوة سيئة، لأنه أناني يحب التسلط على غيره ولا يضع الرجل في موضعه ولا يفسح المجال لذوي القدرات والطاقات بالبروز وقد يكونون أفضل منه لذلك لا يثق فيمن عنده تلك القدرات والطاقات، بل يخشاه ويخشى أن يلتف حوله جنوده الذين رباهم على الأنانية والظلم لينتقموا منه ويشفوا صدورهم التي امتلأت بالغيظ عليه.

الفرع التاسع
تطبيق قاعدة الشورى

الشورى قاعدة عظيمة من قواعد بناء الأمة الإسلامية واستمرار قوتها وتماسكها وهيبتها في نفوس أعدائها، وقد وصف الله بها عباده المؤمنين مقرونة بالتوكل وإقام الصلاة والإنفاق من رزق الله، واجتناب الكبائر والسيطرة على النفس عند الغضب بالعفو والصفح، كما قال تعالى: ﴿فما أوتيتم من شيء فمتاعُ الحياة الدنيا، وما عند الله خيرٌ وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * والذين يجتنبون كبائرَ الإثم والفواحشَ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون * والذين استجابوا لربِّهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون * والذين إذا أصابهم البَغْيُ هم ينتصرون﴾(١).

وأمر الله سبحانه بها رسوله ﷺ. ولعل المتأمل في سياق الآية التي تضمنت هذا الأمر يظهر له أن الشورى من صفات القائد الذي يلتف حوله جنوده ويحبونه ويطيعون أمره، قال تعالى: ﴿فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم، ولو كنتَ فظّاً غليظَ القلب لانفضّوا من حولك، فاعْفُ عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في

---

(١) الشورى: ٣٦ ـ ٣٩.

الأمر، فإذا عزمتَ فتوكَّلْ على الله، إنَّ الله يحبُّ المتوكلين﴾[١].

ولقد طبّق رسول الله ﷺ هذه القاعدة العظيمة عملياً مع أصحابه رضي الله عنهم في مواقف صعبة: مواقف مواجهة الأعداء التي يتقرر فيها المصير.

طبقها ﷺ في بدر قبل خوض المعركة مع الأعداء الذين كان عددهم ثلاثة أضعاف عدد المسلمين وقد جاءه خبرهم. قال ابن القيِّم رحمه الله: (ولما بلغ رسول الله ﷺ خروج قريش استشار أصحابه، فتكلم المهاجرون فأحسنوا، ثم استشارهم ثانياً فتكلموا أيضاً وأحسنوا، ثم استشارهم ثالثاً ففهمت الأنصار أنه يعنيهم فبادر سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله كأنك تعرض بنا؟ ـ وكان إنما يعنيهم لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأحمر والأسود في ديارهم فلما عزم على الخروج استشارهم ليعلم ما عندهم ـ فقال له سعد: لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها ألا تنصرك إلا في ديارهم؟ وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم: فاظعن حيث شئت وصل حبل من شئت واقطع حبل من شئت وخذ من أموالنا ما شئت وأعطنا ما شئت وما أخذت منا كان أحب مما تركت وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك فوالله لئن سرت بنا حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك وقال له المقداد: لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك فأشرق وجه الرسول ﷺ وسرّ بما سمع من أصحابه وقال: «سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، وإني قد رأيت مصارع القوم»)[٢].

وكان لهذه الاستشارة من رسول الله ﷺ وهذه العواطف الملتهبة من أصحابه رضوان الله عليهم آثارهما العظيمة في سير المعركة بعد ذلك.

وطبق ﷺ هذه القاعدة العظيمة كذلك في أحد قبل خروجه من المدينة عندما استشار أصحابه أيخرج من المدينة للقاء المشركين في أحد أم يبقى ليقاتلهم الرجال إذا دخلوا في الشوارع ويقاتلهم النساء من فوق البيوت؟ وقدَّم

---

(١) آل عمران: ١٥٩. (٢) زاد المعاد في هدى خير العباد (٢ـ٩٦).

رأي أغلب أصحابه[1] على رأيه ﷺ، كما قال ابن القيِّم رحمه الله: (واستشار رسول الله ﷺ أصحابه أيخرج إليهم أم يمكث في المدينة، وكان رأيه ألا يخرجوا من المدينة وأن يتحصنوا بها، فإذا دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة والنساء من فوق البيوت. ووافقه على هذا الرأي عبد الله بن أبي وكان هو الرأي، فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر، وأشاروا عليه بالخروج وألحوا عليه في ذلك، وأشار عبد الله بن أبي بالمقام في المدينة وكان رأيه ألا يخرجوا من المدينة، وتابعه عليه بعض الصحابة، فألح أولئك على رسول الله ﷺ، فنهض ودخل بيته ولبس لأمته وخرج عليهم، وقد انثنى عزم أولئك، وقالوا: أكرهنا رسول الله ﷺ على الخروج، فقالوا: يا رسول الله إن أحببت أن تمكث في المدينة فافعل، فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»[2].

وطبقها ﷺ في غزوة الأحزاب فاستشار أصحابه في شأنهم وأشار سلمان بحفر الخندق فأمر به ﷺ، قال ابن القيِّم رحمه الله: (فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه استشار الصحابة فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق يحول بين العدو والمدينة فأمر به رسول الله ﷺ فبادر إليه المسلمون وعمل بنفسه فيه وبادروا هجوم الكفار عليهم)[3]

وطبق رسول الله ﷺ هذه القاعدة العظيمة في حنين عندما جاءه هوازن مسلمين وسألوه أن يرد عليهم أموالهم وسبيهم فخيرهم بين السبي أو المال فاختاروا السبي فجمع ﷺ المسلمين وطلب منهم أن يردوا لهوازن سبيهم طيبة به نفوسهم فاستجابوا لطلبه وخشي ﷺ أن يكون في القوم من لم تطب نفسه بذلك لكثرتهم، فطلب منهم أن يعودوا إلى عرفائهم ويخبروهم بالإذن، والعرفاء يرفعون الأمر إلى رسول الله ﷺ كما في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ـ وهو في البخاري وأبي داود ـ وفيه: (فقام رسول الله ﷺ في المسلمين فأثنى على الله بما

(١) هكذا كنت أظن أن أغلب الصحابة كانوا يرون الخروج وكان ذلك اتباعاً لآراء بعض الكتاب، فلما رجعت إلى النصوص لم أجد ما يدل أن الأغلبية كانت ترى الخروج، وراجع ما توصلت إليه في رسالتي «الشورى».

(٢) زاد المعاد (٢ ـ ١٠٢).

(٣) نفس المصدر (٢ ـ ١٣١).

هو أهله ثم قال: «أما بعد فإن إخوانكم قد جاءونا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يُطيِّبَ ذلك فليفعل...» فقال الناس: قد طيَّبنا ذلك يا رسول الله، فقال لهم في ذلك: «إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممّن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم» فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيَّبوا وأذنوا...)[١].

وفي عدم اكتفاء الرسول ﷺ بالإذن العام من الأغلبية خشية أن يكون في المسلمين من لم يأذن توسيع دائرة المشورة كلما أمكن كما أن في أمر الناس برجوعهم إلى عرفائهم إظهار إكرامه إياهم واحترامهم وجعلهم يشاركون الرسول ﷺ في رأيه وهو أسلوب يأخذ بألباب كبار قادة الجيش ويزيدهم حباً وطاعة لقائدهم الأعلى.

ولقد اقتفى أصحاب رسول الله ﷺ أثره في تطبيق قاعدة الشورى في أمورهم اقتداء به وتحقيقاً لصفة من صفات المؤمنين ﴿وأمرهم شُورى بينهم﴾[٢] ولعل مثالاً واحداً يكفي لإثبات ذلك عنهم رضي الله عنهم، ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما الوارد في شأن استشارة عمر رضي الله عنه الصحابة في أن يقدم بأصحابه على وباء الطاعون بالشام أو يعيدهم من الطريق خشية أن يصيبهم هذا الوباء وفيه ظهرت الشورى في أعلى صورها بعد رسول الله ﷺ: قوم يرون الإقدام، وآخرون يرون الأحجام، وكلٌ يدلي برأيه ويعلل له، وقد أخذ عمر برأي من أشار بالرجوع، قبل أن يسعفه أحد الصحابة بنص قاطع يوافق رأي عمر ومن معه، وهذا نص الحديث: (إن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرع لقيه أهل الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، قال ابن عباس فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين فدعوتهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا، فقال بعضهم قد خرجت لأمر لا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ لا نرى أن تقدمهم هذا الوباء، فقال: ارتفعوا قال: ادع لي

(١) البخاري رقم ٤٣١٨ فتح الباري (٨ - ٣٢).
(٢) الشورى: ٣٨.

الأنصار. فدعوتهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال ادع لي من كان ههنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم فلم يختلف عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفرار من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، (وكان عمر يكره خلافه) نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيباً في بعض حاجته فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض. فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»[1].

تأمَّل هذا المؤتمر العظيم الذي عقده عمر بن الخطاب رضي الله عنه حرصاً على نفوس أصحابه من جهة وعلى الوصول إلى الحق أهو في الإقدام أم في الإحجام من جهة أخرى، وتأمل تلك الأفواج وهي تفد على الخليفة مبدية، آراءها بكامل حريتها، ويختلف المؤتمرون أمامه وهو يسمع آراءهم وحججهم، ثم يبدي رأيه بعد أن يسمع رأي الفوج الأخير الذي لم يختلف عليه، ويقف من رأي المخالف بعد ذلك موقفاً حازماً لا هوادة فيه ولكنه مدعم بالحجة والقياس.

إن القائد المسلم الذي يكون تواقاً إلى معرفة الحق وما فيه المصلحة يلح بنفسه على جنوده لإظهار ما عندهم مع الحجج والأدلة ويسمع آراءهم ويقلب وجهات نظرهم طمعاً في الوصول إلى ما فيه صلاح للإسلام والمسلمين وحباً في إشراك جيشه في تقرير الرأي الأخير الذي لا يتحمل مسؤوليته وحده، بل إنهم كلهم يتحملون مسؤوليته وهم الذين يباشرون تنفيذه، واشتراكهم في تقرير الرأي يجعلهم متحمسين له ينفذونه عن قناعة وإذا حصل خطأ لم يتبرموا منه لأنهم شاركوا فيه فهو رأي جماعي وليس فردياً.

والقائد المسلم يشرك جنده في أموره لأنه شديد الرغبة في اكتشاف

(١) مسلم (٣ - ١٧٤٠).

المواهب والطاقات في جنوده ليضع أمام عينه رجال المسؤولية الكبرى عن تجربة واختبار ويتبع ذلك بوضع الرجل المناسب في المكان المناسب بعد أن عرفه معرفة تامة ودربه على اكتساب الخبرات التي تهيئه للقيادة مستقبلاً[١].

أما القائد الذي يعادي الشورى ويتهرب منها ولا يعرض آراءه على جنده لمناقشتها، بل يأمر وينهى ويقدم ويحجم مستقلاً برأيه عنهم فإنه قائد أناني مستبد مغرور بآرائه أو يعرف أنها آراء غير سديدة تفتقر إلى الدربة والخبرة لذلك يحاول أن يغطي جهله ونقصه بالكبر على الآخرين وإلزامهم بتنفيذ أوامره دون جدال أو نقاش خشية أن يفضحوه أمام أتباعه فيفقد هيبته التي يظن أنها ستبقى بسلوكه ذاك وما هي بباقية.

ومثل هذا القائد الأناني الواضحة أنانيته قائد آخر يجمع حوله الأوباش المتنفعين من جنده ممن لا إخلاص عندهم لله ولا وفاء لأمتهم ولا أمانة لعملهم فيتفقون معه في كل شيء يجري على لسانه بدون تفكير ولا نقاش، وأمثال هؤلاء الذين يوافقون القائد مطلقاً لا همَّ لهم إلا نفع أنفسهم بتقربهم إلى قائدهم وإظهارهم أنهم أوفياء له مخلصون وأنهم يثقون بكل آرائه السديدة.

قال محمود بابللي: (وليعلم أنَّ من يوافق دائماً لا يرجو إلا نفع نفسه ويحسب أن ذلك يدل على إخلاصه، وما هو بمخلص لمن يردد له الموافقة إنما هو ممالئ مخادع)[٢].

نعم إنه ممالئ مخادع وقائده الذي يركن إليه مثله ممالئ مخادع وبتأمل حالة الجيوش في الشعوب الإسلامية يجد أكثرها وأكثر قوادها من هذا الصنف، لا بل من الصنف الأول، قادة متكبرون مستبدون لا وزن لجيوشهم عندهم وجيوش خاضعون خائفون ينفذون أوامر قادتهم مكرهين، وهذا ما جعل التنافر والبغضاء يسودان بين القادة وجنودهم وبين الجنود بعضهم مع بعض، والخاسرون هم الشعوب المستضعفة الذين يعلمون أن جيوشهم ما حملت

---

(١) راجع المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية للواء محمد جمال الدين محفوظ ص : ٣٣٦ وما بعدها.

(٢) الشورى في الإسلام ص : ٢٨.

السلاح ـ في الغالب ـ إلا لقهرهم لأولئك القادة الطامعين في السيطرة والعلو والإفساد في الأرض.

وكثير من أولئك القادة يوهمون جنودهم وشعوبهم بأنهم قادة ملهمون لا حاجة بهم إلى استشارة أحد، لأنهم ذوو عقول كبيرة وتجارب طويلة وقراراتهم لا يعتريها الخطأ، ولذلك يسوقون جنودهم كما يسوق الراعي شياهه. وهل تستحق الشياه أن يستشيرها الراعي؟.

وبسبب ذلك أصيبت كثير من الشعوب الإسلامية بكوارث عسكرية مدمرة، حيث يؤمر جيوشها بشن الحروب على شعوب مسلمة بدون أي مسوغ فإذا شلت قوة تلك الجيوش وتحطمت معنوياتها، غزا العدو الحقيقي أرضها وهزمها شر هزيمة، وما ذلك إلا لغياب الشورى التي هي إحدى القواعد الإسلامية المتينة التي تحول بين القائد المتهور وبين إلقاء جيوشه وشعبه في التهلكة.

ولو كان أحد في الأرض مستغنياً عن مشورة أتباعه وعرض رأيه عليهم لتمحيصه لكان رسول الله ﷺ أولى بالاستغناء عن مشاورة أصحابه لأنه رسول الله، والله يسدده وينزل عليه الوحي يوجهه إلى الصراط المستقيم. قال ابن تيمية رحمه الله: (لا غنى لولي الأمر عن المشاورة فإن الله تعالى أمر بها نبيه ﷺ فقال تعالى: ﴿فاعْفُ عنهم، واستغفرْ لهم، وشاورهم في الأمر، فإذا عزمتَ فتوكَّل على الله إنَّ الله يحب المتوكلينَ﴾[1] وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لم يكن أحد أكثر مشاورة لأصحابه من رسـول الله ﷺ) ، وقيل: إن الله أمر بها نبيه لتأليف قلوب أصحابه وليقتدي به من بعده وليستخرج بها منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحي من أمر الحروب والأمور الجزئية وغير ذلك، فغيره ﷺ أولى بالمشورة)[2].

وقال سيد قطب رحمه الله: (كان الإسلام ينشىء أمة ويربيها ويعدّها للقيادة الراشدة، فلم يكن بد أن يحقق لهذه الأمة رشدها، ويرفع عنها الوصاية في حركات حياتها العملية الواقعية كي تدرب عليها في حياة الرسول ﷺ وبإشرافه

---

(١) آل عمران: ١٥٩.
(٢) الفتاوى (٢٨ ـ ٣٨٦).

ولو كان وجود القيادة الراشدة يمنع الشورى ويمنع تدريب الأمة عليها تدريباً عملياً واقعياً في أخطر الشؤون ـ كمعركة أحد ـ التي تقرر مصير الأمة المسلمة نهائياً وهي أمة ناشئة تحيط بها العداوات والأخطار من كل جانب ويحل للقيادة أن تستقل بالأمر وله كل هذه الخطورة ـ لو كان وجود القيادة الراشدة (فكيف بالضالة الفاسدة) في الأمة يكفي ويسد مسد مزاولة الشورى في أخطر الشؤون لكان وجود محمد ﷺ، ومعه الوحي من الله سبحانه وتعالى كافياً لحرمان الجماعة المسلمة يومها من حق الشورى وبخاصة على ضوء النتائج المريرة التي صاحبتها في ظل الملابسات الخطيرة لنشأة الأمة المسلمة، ولكن وجود محمد ﷺ ومعه الوحي الإلهي ووقوع تلك الأحداث ووجود تلك الملابسات لم يلغ هذا الحق، لأن الله سبحانه يعلم أن لا بد من مزاولته في أخطر الشؤون، ومهما تكن النتائج ومهما تكن الأخطار المحيطة، لأن هذه كلها جزئيات لا تقوم أمام إنشاء الأمة الراشدة المدربة بالفعل على الحياة المدركة لتبعات الرأي والعمل الواعية لنتائج الرأي والعمل، ومن هنا جاء هذا الأمر الإلهي في هذا الوقت بالذات: (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر)[١].

ويجب أن يكون القائد جاداً في المشاورة آخذاً بما بان له من حق سواء أكان ظهور هذا الحق آتياً من نص من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ أو من رأي صائب يكون أقرب إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال ابن تيمية رحمه الله: (وإذا استشارهم، فإن بيّن له بعضهم ما يجب اتباعه من كتاب الله وسنة ورسوله أو إجماع المسلمين فعليه اتباع ذلك ولا طاعة لأحد في خلاف ذلك وإن كان عظيماً في الدين والدنيا، قال الله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم﴾[٢] وإن كان أمراً قد تنازع فيه المسلمون فينبغي أن يستخرج من كل منهم رأيه ووجه رأيه فأي الآراء كان أشبه بكتاب الله وسنة رسوله عمل به، كما قال تعالى: في الآية نفسها: ﴿فإن تنازعتُم في شيء فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً﴾)[٣].

---

(١) في ظلال القرآن (٤ ـ ٥٠٢). الآية من آل عمران: ١٥٩.

(٢) النساء: ٥٩. (٣) الفتاوى (٢٨ ـ ٣٨٧).

لذلك يجب على القائد أن يشاور ذوي الرأي من علماء الشريعة الإسلامية وذوي الخبرة في أي أمر يتعلق بقيادته وعمله، ولا بد أن يكونوا أمناء حريصين على مصلحة المسلمين، وهؤلاء هم أولـو الأمر الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم بعد طاعة الله ورسوله، قال ابن تيمية: (وأولـو الأمر صنفان: الأمراء والعلماء وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس)(١).

وقال ابن قدامة: (ويكثر المشاورة لذوي الرأي من أصحابه فإن الله تعالى قال: ﴿وشاوِرْهُم في الأمر﴾)(٢).

وبناء على ذلك ليس من حق القائد ـ ولا ينبغي له ـ أن يشاور من لا علم له ولا خبرة ولا حرص على مصالح المسلمين ولو كثر هذا الصنف من الناس فإن العبرة ليست بالكثرة وإنما بالمصالح العائدة على المسلمين وهذا الصنف لا يشير غالباً إلا بما يهواه أو يهواه عامة الناس مما قد يكون فيه مضرة لا مصلحة.

قال البخاري رحمه الله: (وكانت الأئمة رحمهم الله بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم)(٣).

وقال الحافظ رحمه الله: (وأخرج البيهقي بسند صحيح عن ميمون بن مهران قال: كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه أمر نظر في كتاب الله، فإن وجد فيه ما يقضي به قضى بينهم، وإن علمه من سنة رسول الله ﷺ قضى به وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنة، فإن أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم واستشارهم، وإن عمر بن الخطاب كان يفعل ذلك)(٤).

هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن ما قرره أهل الحل والعقد ممن تتوافر فيهم شروط الشورى في أمر المسلمين مما لا يوجد عندهم فيه نص ـ في أصل الأمر أو

---

(١) الفتاوى (٢٨ ـ ٣٨٨).
(٢) المغني (٩ ـ ٢١٥).
(٣) البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول الله تعالى: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ ﴿وشاورهم في الأمر﴾، فتح الباري (١٣ ـ ٣٣٩).
(٤) فتح الباري (١٣ ـ ٣٤٢).

في تطبيقه ـ يلزم ولي الأمر الأخذ به وعدم تجاوزه إلى غيره إلا إذا كانت عنده حجة من نص القرآن أو السنة، أو قاعدة شرعية مقنعة، كما فعل أبو بكر في إنفاذ جيش أسامة، وفي حروب الردة، وكما فعل عمر رضي الله عنه في سواد العراق، فله بذلك مخالفة أهل الشوى، وهو من باب إقامة الحجة، وليس من باب كون الأخذ برأي أهل الحل والعقد غير ملزم.

وسيرة الرسول ﷺ المبينة للأمر بالشورى في كتاب الله تدل على هذا المعنى، فإنه ﷺ لم يكن يلزم أصحابه برأيه إلا إذا صدر عن وحي، أما ما لا وحي فيه، فإنه كان يأخذ برأي الأغلب من صحابته، أهل شوراه.

والذين يدعون أن الأمير أو القائد غير ملزم برأي الأغلب من أهل الشورى فيما لا نص فيه، دعواهم ضعيفة أمام ما ذكر من الحوادث في عهد رسول الله ﷺ، وفي عهد أصحابه رضوان الله عليهم، وما ظنه هؤلاء دليلاً لهم على عدم الإلزام مثل موقف أبي بكر رضي الله عنه من إنفاذ جيش أسامة وحروب الردة ليس فيه دلالة على ما ظنوا، فإن أبا بكر احتج على الصحابة بعقد الرسول ﷺ اللواء لأسامة، وأقام عليهم الحجة في حروب الردة، حتى شرح الله صدر المعارضين لرأيه فوافقوه وأصبح الرأي واحداً في الحادثتين.

وكذلك عمر رضي الله عنه أقنعهم في بقاء سواد العراق لما فيه من الفائدة التي تعود على المسلمين في تلك الديار التي يجب أن يستوطنوها هم وذراريهم لإقامة الدين فيها وإذا قسمت الأرض بين الفاتحين لم يبق لمن بعدهم مصدر رزق ينفقون على أنفسهم منه، فوقف تلك الأرض اقتضته المصلحة العامة من هذا الوجه، ولو فرض أن في هذه القصة وما أشبهها دليلاً لما ذهب إليه من لا يلزمون الأمير برأي الأغلب من أهل شوراه، فالواجب أن يعلم أن قائد المسلمين الذي يكون له الحق في اتخاذ الرأي الذي لا نص فيه ولو خالف أهل الشورى هو من توافرت فيه شروط الاجتهاد التي ذكرها العلماء في أصول الفقه وفي باب الخلافة. ولا يجوز قطعاً أن يحكم بذلك لقائد لا تتوافر فيه شروط الاجتهاد. والمعروف أن خلفاء المسلمين وأمراءهم في القرون المفضلة كانوا أئمة في العلم كما إنهم أئمة في الخلافة.

وينبغي أن يستثنى هنا حالة التحام المسلمين بعدوهم في الحرب إذا طرأ طارىء يصعب فيه التشاور لضيق الوقت وخشية غلبة المسلمين من قبل عدوهم فإن للقائد اتخاذ ما يراه مناسباً إذا كان كفؤاً دون الرجوع إلى أهل الشورى، كما فعل خالد بن الوليد في غزوة مؤتة حيث تولى الإمرة بنفسه وتصرف دون الرجوع إلى أصحابه(١).

الفرع العاشر
الحرص على تحقيق الأهداف، والضبط الإداري، وقوة التأثير

الحرص على تحقيق الأهداف المرسومة للجيش من الصفات الملازمة للقائد المسلم، وقد كان قدوة قادة المسلمين هو رسول الله ﷺ، الذي كان يرسم الهدف ثم يسعى لتحقيقه، فقد حرص ﷺ على إيجاد مكان يهاجر إليه أصحابه ثم يتبعهم هو إليه وكان الهدف من ذلك أن تكون لهم قاعدة يستقرون فيها وينظمون أنفسهم استعداداً لمجابهة المشركين وكسر شوكتهم من أجل نشر الدعوة إلى الله ولقد حقق ﷺ ـ بعون من ربه ـ ذلك الهدف بالهجرة إلى المدينة ومبايعة أهلها له وما تبع ذلك من جمع أهل المدينة كلهم تحت نظام عام يحمي المدينة من الأعداء، وكان منهم المسلم ومنهم المنافق، ومنهم اليهودي ومنهم المشرك.

ثم بدأ ﷺ في بعث السرايا من أصحابه لتدريبهم على القتال وتعرفهم على الأرض، ومعرفتهم تحركات العدو ومحاصرته اقتصادياً، فحقق ﷺ بتلك السرايا الأهداف المرسومة، وكان من أعظمها استعدادهم للقتال المسلح مع العدو، وفي معركة بدر ما يظهر تحقيق هذا الهدف(٢).

وكان من شدة حرصه ﷺ على تحقيق الأهداف يتولى بنفسه الإشراف على بعث السرايا وتوجيهها، والمشاركة في الغزوات وترتيب المقاتلين وتعيين أماكنهم وتنظيم صفوفهم ـ واقرأ هذه الآية التي نزلت ضمن آيات غزوة أحد والتي تصور لك حركاته ﷺ وهو يرتب أصحابه ويحدد لهم أماكنهم قبل المعركة ليقاتلوا

---

(١) للمؤلف بحث كتبه حديثاً بعنوان «الشورى» وهو معدٌّ للطبع، وقد بدت له آراء في الإلزام وعدمه قد تخالف آراءه هنا.

(٢) راجع كتاب الرسول القائد لمحمود شيث خطاب ص: ٥٠ فما بعدها.

عدوهم من مواقع عسكرية نافعة: ﴿وإذ غَدَوْتُ من أهلك تُبَوِّىءُ المؤمنين مقاعدَ للقتال، والله سميعٌ عليمٌ﴾(١).

ولقد حقق ﷺ بذلك الترتيب هدفه بإذن الله، وهو هزيمة أعدائه لولا أن بعض أصحابه خالفوا أمره الصريح عن اجتهاد خاطىء وارجع إلى قصة هذه الغزوة تجد ذلك واضحاً وما من سرية بعثها أو غزوة غزاها ﷺ إلا كان له فيها هدف وكان يحرص على تحقيق ذلك الهدف.

وكان من أهدافه ﷺ الحفاظ على أرواح أصحابه في المعارك بل كان شديد الرغبة في تحطيم معنويات أعدائه بدون الزج بأصحابه في معارك معهم، وإذا تأمل القارىء تنظيم الرسول ﷺ أصحابه في كتائب على هيئة مرعبة في غزوة الفتح وما حققه فعلاً ذلك التنظيم من إنزال الرعب في قلوب أهل مكة الذين لم يقفوا ضد جيش الإسلام وكتائبه، إلا نفر قليل ولوا الأدبار في ساعة من نهار علم صدق ما نقول.

قال ابن القيِّم رحمه الله: (وأمر ﷺ العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند حطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها، ففعل، فمرت القبائل على راياتها، كلما مرت به قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فأقول: سليم، فيقول: ما لي ولسليم، ثم تمر به القبيلة فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة، حتى نفدت القبائل ما تمر به قبيلة إلا سألني عنها فإذا أخبرته قال: ما لي ولبني فلان، حتى مر به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار ولا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال: سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟! قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة، ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً، قال: قلت: يا أبا سفيان: إنها النبوة، قال: فنعم إذن)(٢).

إي والله: (نعم إذن) نعم لكتائب الرحمن المرعبة التي تحمى النبوة وتحرسها وتنشر دعوتها، ولا للنبوة وحدها بدون كتائب مسلحة نعم للحديد

---

(١) آل عمران: ١٢١.

(٢) زاد المعاد (٢ ـ ١٨٢).

الذي حملته سواعد أهل الإيمان، وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. ولقد كانت النبوة موجودة في مكة بحججها وبيناتها وموجودة في المدينة بحججها وبراهينها وبقوتها التي لم تصل إلى أن يقال لها: (فنعم إذن) أما الآن فقد وصلت إلى: (نعم إذن) فليعتبر دعاة الإسلام إن كانوا يريدون: (فنعم إذن).

وفي معركة بدر كذلك حرصه ﷺ على الحفاظ على أرواح أصحابه، وعلى قتل أكبر عدد ممكن من أعدائه وأسر أكبر عدد آخر منهم فضبط أصحابه ذلك الضبط الإداري الحازم نظمهم وصفهم ومنعهم من أن يحدثوا شيئاً إلا بعد إذنه، كما في حديث أنس، وفيه: (فقال رسول الله ﷺ: «لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه» فدنا المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»)(١).

ولو أن الرسول ﷺ ترك المسلمين لأسلوب الكر والفر المعروف آنذاك ـ وما كان فاعلاً ـ لتبعثر المسلمون وهم قلة كما تبعثر المشركون وهم كثرة ولكنه اتبع أسلوب الصف القابل للضبط والسيطرة.

قال محمود شيث خطاب: (إن تطبيق الرسول ﷺ لأسلوب الصفوف يؤمن السيطرة على القوة بكاملها ويؤمن احتياطاً للطوارىء ويصلح للدفاع والهجوم في وقت واحد. أما أسلوب الكر والفر فيجعل القائد يفقد السيطرة ولا يؤمن له أي احتياط للطوارىء)(٢).

وفي الحديث السابق ـ زيادة على الضبط الإداري والترتيب ـ قوة التأثير التي كان رسول الله ﷺ يتصف بها وينبغي لكل قائد أن يتصف بها ـ وإن لم يكن كقوة تأثيره ﷺ ـ وذلك واضح من قوله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» ولا يعرف تأثير هذه الجملة في الصحابة البدريين إلا من اطلع على ما سطره لهم التاريخ من بطولات لا نظير لها فيه بذلك الحشد الهائل.

وكان من حرصه ﷺ على تحقيق الأهداف المرسومة كتمان الأمر الذي يعزم عليه حتى لا تحبط مساعيه قبل تنفيذها، فكان إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها،

---

(١) صحيح مسلم (٣ ـ ١٥١٠).
(٢) الرسول القائد (ص: ١٠٥).

ولكنه إذا رأى أن تحقيق الهدف يقتضي التصريح بها وإظهارها لم يتردد في ذلك، وفي قصة كعب بن مالك: (ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة (أي غزوة تبوك) غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد)[1].

وقال ابن القيِّم رحمه الله: (ومنها ـ أي من فوائد غزوة تبوك ـ تصريح الإمام للرعية وإعلامهم بالأمر الذي يضرهم ستره وإخفاؤه، ليتأهبوا له ويعدوا له عدته، وجواز ستر غيره عنهم والكناية عنه للمصلحة)[2].

وكان من شدة حرصه ﷺ على تحقيق الأهداف أنه يتفقد قبل خروجه للغزو رجاله من منهم أهل للغزو والقتال فيدعه، ومن ليس بأهل لصغره ـ مثلاً ـ فيرده، كما فعل مع عبد الله بن عمر وبعض أصحابه، كما كان ينصح أصحابه بتفقد سلاحهم وركابهم لئلا يخرجوا بشيء غير صالح للسفر أو القتال، كما في حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ في مسير له: «إنا مدلجون فلا يدلجن مصعب ولا مضعف» فأدلج رجل على ناقة صعبة فسقط فاندقت فخذه فمات، فأمر رسول الله ﷺ بالصلاة عليه، ثم أمر منادياً ينادي في الناس «أن الجنة لا تحل لعاص، ثلاث مرات»[3].

ومعنى: (مصعب) من له دابة صعبة القياد، ومعنى (مضعف) من له دابة ضعيفة لا تتحمل السفر أو القتال عليها.

وكان ﷺ ـ كما يحرص على أن يكون السلاح صالحاً غير فاسد ـ يحرص كذلك على ألا يقع السلاح إلا في يد من هو أهل له، لأن الذي ليس أهلاً لحمل السلاح لا يرجى منه تحقيق الهدف به، كما في حديث أنس أن رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أحد فقال: «من يأخذ مني هذا بحقه؟» فاحجم القوم فقال

---

(١) البخاري رقم ٤٤١٨ فتح الباري (٨ ـ ١١٣) ومسلم (٤ ـ ٢١٢٠).

(٢) زاد المعاد (٣ ـ ١٥).

(٣) أحمد (٥ ـ ٢٧٥)، قال الساعاتي في الفتح الرباني في الحاشية: ك أي رواه الحاكم وصححه وأقره الذهبي (١٣ ـ ٤٣).

سماك بن خرشة: أنا آخذه بحقه، قال: «فأخذه ففلق به هام المشركين»[١]. وكذلك أمر أصحابه أن ينثروا ما في جعابهم من النبال لأبي طلحة الذي دافع عنه دفاعاً شديداً وكان يقول له: (نحري دون نحرك)[٢].

ولشدة حرصه ﷺ على تحقيق هدف الجهاد في سبيل الله كان ينصح أصحابه ألا يتركوا التدرب على السلاح وقت السلم والرخاء حتى لا يقعدهم الترف عن الجهاد في أي وقت من الأوقات، كما في حديث عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بسهمه»[٣].

وحذَّرهم ﷺ من التنافس في الدنيا الذي يلهي عن الجهاد في سبيل الله وفيه هلاك المسلمين، فقال: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»[٤].

وكان ﷺ يغلب عليه اللين ـ كما مضى ـ ولكنه إذا رأى ما يخشى منه الحول بينه وبين تحقيق الهدف المرسوم فإنه يشتد في الضبط الإداري الذي لا يترك مجالاً للخلخلة والاضطراب، كما فعل مع أصحابه، وهو قافل من غزوة بني المصطلق، عندما اقتتل اثنان من الصحابة أحدهما من الأنصار والآخر من المهاجرين، وكادت تحصل فتنة بين المهاجرين والأنصار، وأراد ابن أُبَيّ إشعالها، ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبدالله بن أُبيّ[٥]، وفي هذا الضبط الإداري

---

(١) صحيح مسلم (٤ ـ ١٩١٧).
(٢) البخاري رقم ٣٨١١ فتح الباري (٧ ـ ١٢٨) ومسلم (٣ ـ ١٤٤٣).
(٣) صحيح مسلم (٣ ـ ١٥٢٢).
(٤) البخاري رقم ٣١٥٨ فتح الباري (٦ ـ ٢٥٧) ومسلم (٤ ـ ٢٢٧٣).
(٥) سيرة ابن هشام (٢ ـ ٢٩٠ ـ ٢٩٢) ساق القصة بكاملها إبراهيم بن إبراهيم القريبي في رسالته.

العظيم الحرص على وحدة الجيش وعدم تفككه.

وكان ﷺ قوي التأثير في أصحابه كما في حديث جابر رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتدَّ غضبه؛ حتى كأنه منذر جيش يقول: صبَّحكم ومسَّاكم. . .)[١].

ولقد اقتدى به أصحابه رضي الله عنهم في الحرص على تحقيق الأهداف والضبط الإداري وقوة التأثير.

وفي موقفي أبي بكر رضي الله عنه من إنفاذ جيش أسامة وحروب الردة ما يوضح ذلك الحرص وذلك الضبط وتلك القوة المؤثرة، فقد أمَّر رسول الله ﷺ أسامة بن زيد على جيش فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فمات رسول الله ﷺ وهو وجيشه بالجرف، وبعد موته ظهر النفاق في المدينة وارتد كثير من العرب عن الإسلام فرأى كثير من الصحابة عدم إنفاذ جيش أسامة للحاجة إليه في حماية المدينة أولاً ثم لغزو المرتدين ثانياً وأشاروا بذلك على الصديق وممن أشار عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فامتنع الصدِّيق من ذلك وأبي أشد الإباء إلا أن ينفذ جيش أسامة وقال: (والله لا أحلُّ عقدة عقدها رسول الله ﷺ ولو أن الطير تخطفنا والسباع من حول المدينة ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة، وأمر الحرس يكونون حول المدينة)[٢] ولقد حقق الهدف فعلاً (فوجه أسامة، فجعل لا يمر بقبيلة يريدون الارتداد إلا قالوا لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم فلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين فثبتوا على الإسلام)[٣].

= (مرويات غزوة بني المصطلق) فقال: (الحديث رجاله ثقات، ولكنه مرسل وأورده ابن جرير الطبري من هذه الطريق نفسها، وله شاهد عند ابن أبي حاتم من مرسل عروة بن الزبير وعمر بن ثابت الأنصاري وهو مرسل جيد كما قال ابن حجر. وهو أيضاً عند ابن أبي شيبة من مرسل عروة وحده وأصله في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم وجابر بن عبدالله وبهذا يكون الحديث حسناً لغيره ص: ١٩٠ مخطوطة في مكتبة الباحث (نسخة ١ هداها له المؤلف، وقد طبعت الرسالة المذكورة بمطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والقصة فيها من صحيفة ١٨٦ إلى ١٩٠.

(١) مسلم (٢ ـ ٥٩٢).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٦ ـ ٣٠٤).

(٣) نفس المرجع (٦ ـ ٣٠٥).

وفي أمر المرتدين والذين منعوا الزكاة يكفي ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر رضي الله عنه وكفر من كفر من العرب، فقال عمر رضي الله عنه: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلّه إلا الله فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله» فقال: (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال. والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها). قال عمر رضي الله عنه: فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر رضي الله عنه فعرفت أنه الحق)[1].

والذي يستعرض حروب الردة التي أصر أبو بكر رضي الله عنه عليها وأقنع بها غيره من الصحابة الذين خالفوه أولاً فعرفوا أنه الحق يظهر له أن ضبطه الإداري وقوة تأثيره في جنوده حرصاً على تحقيق الهدف المرسوم قد حققت هدفه فعلاً لا في الجزيرة وحدها بل في نشر الدعوة إلى خارج الجزيرة والجهاد في سبيل الله لرفع راية الإسلام.

وقد لخص ابن قُدامة رحمه الله بعض الصفات التي تلزم للقائد لتحقيق الهدف، فقال: (وأمر الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده ويلزم الرعية طاعته فيما يراه من ذلك. وينبغي إذ يبتدىء بترتيب قوم من أطرُفِ البلاد يكفون من بإزائهم من المشركين ويأمر بعمل حُصونهم وحفر خنادقهم وجميع مصالحهم. ويؤمّر في كل ناحية أميراً يقلده أمر الحروب وتدبير الجهاد، ويكون ممن له رأي وعقل ونجدة وبصر بالحرب ومكابدة العدو ويكون فيه أمانة ورفق ونصح للمسلمين ويتقدم إلى من يؤمّره ألاّ يحمل المسلمين على مهلكة)[2].

لقد كانت أهداف القادة المسلمين التي يحرصون على بلوغها ويرسخونها ويضبطون جيشهم من أجلها ويؤثرون فيه تأثيراً قوياً، لقد كانت تلك الأهداف هي إعلاء كلمة الله في الأرض بنشر الدعوة وحماية المستضعفين في الأرض وإقامة حكم الله وتحقيق مصالح المسلمين وقد حقق الله لهم ما كانوا يصبون

(١) البخاري رقم الحديث ١٣٩٩ ـ ١٤٠٠ فتح الباري (٣ ـ ٢٦٢).
(٢) المغني (٩ ـ ٢٠٢).

إليه، لأنهم أعدوا له عدته وأخلصوا لله في سعيهم له فأين قادة جيوش المسلمين الآن من هذه الخصال الحميدة؟ لقد بدلوا بالحرص على تلك الأهداف الحرص على مطامع شخصية لهم أو لغيرهم وقدموا إرضاء الناس على رضا الله وأحلوا محل الضبط الإداري والتأثير في الجنود بالأساليب الناجحة القهر والعسف والطغيان فكانت نتائجها مدمرة للجيوش والشعوب الإسلامية.

وشيدوا بدل الحصون والقلاع وحفر الخنادق أماكن اللهو والطرب والفساد، وجهزوا أبناء الشعوب الإسلامية بآلات الطرب والرقص بدل تجهيزهم بالسلاح ضد الأعداء، وشغلوا الشباب بأنواع الرياضة التي تستفرغ كل طاقتهم في الملاعب الرياضية وخارجها في داخل البلدان الإسلامية وخارجها بدلاً من ترتيب قوم في أطراف البلاد يكفّون من بإزائهم من المشركين.

وولوا أمور الحروب صبية سفهاء مترفين خونة أشداء على المسلمين رحماء بأعدائهم، بدلاً ممن له رأي وعقل ونجدة وبصر بالحرب ومكابدة العدو ويكون فيه أمانة ورفق ونصح للمسلمين.

لذلك كانوا أسرع إلى تحقيق أهداف الأعداء من تحقيق أهداف المسلمين السامية فإلى الله ـ وحده ـ المشتكى.

الفرع الحادي عشر
اختبار إرادة القتال لدى الجيش

معرفة القائد إرادة القتال أو عدم إرادته ضرورة من ضرورات الجهاد في سبيل الله، لأن القائد واحد، والنواب الكبار قليلون لا يكفي أن يعرف إرادتهم، بل لا بد من التعرف الذي يعلم به إرادة الجيش كله أو أغلبه ليقدم أو يحجم وهو على بصيرة من أمره، لأنه لو أقدم بهم وهم لا يريدون القتال، وهو لا يعلم ذلك منهم يكون قد بنى خططاً وحدد أهدافاً وأعد أعداداً مبنية كلها على أوهام سرعان ما ينكشف له أنه قصر في اكتشافها قبل خوض المعركة برجال لا إرادة عندهم لخوضها.

وقد كانت مشاورة الرسول ﷺ قبل بدء المعارك من أهدافها معرفة إرادتهم القتال، كما حصل في بدر في خوض المعركة وفي أحد في الخروج وعدمه، ولهذا عاتبه ربه عتاباً لطيفاً مسبوقاً بالعفو على إذنه لبعض المنافقين قبل أن يبلوهم، كما قال تعالى: ﴿عَفَا الله عنك لِمَ أذنتَ لهم حتى يتبينَّ لك الذين صَدَقوا وتعلمَ الكاذبين﴾[1].

قال ابن جرير رحمه الله: (وهذا عتاب من الله تعالى ذكره، عاتب به نبيه ﷺ في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه حين شخص إلى تبوك لغزو الروم من المنافقين، يقول جل ثناؤه ﴿عفا الله عنك﴾ يا محمد ما كان منك في إذنك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك في ترك الخروج معك وفي التخلف عنك من قبل أن تعلم صدقه من كذبه)[2].

وقد سجل القرآن الكريم اختبار القائد إرادة القتال ـ والطاعة ـ عند جنوده في قصة طالوت، كما قال تعالى: ﴿فلما فَصَلَ طالوتُ بالجنود قال إنَّ الله مُبْتليكم بنهَر، فمن شرب منه فليس مني، ومن لم يَطْعَمْه فإنه مني؛ إلا من اغترف غُرْفةً بيده، فشربوا منه إلا قليلاً منهم، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوتَ وجنوده، قال الذين يظنون أنهم مُلاقُوا الله: كم من فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذن الله، والله مع الصابرين﴾[3]. نعم الفئة القليلة المريدة للقتال ـ من جند الله ـ تغلب الفئة الكثيرة، أما الفئة التي لا تريد القتال، ولو كثرت ـ فإنها لا تغلب بل تُغلب. وعلى القائد أن يختبر جنده حتى يصطفي الفئة المؤمنة الصابرة التي تريد القتال.

قال سيد قطب رحمه الله: (هنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل، إنه مقدم على معركة ومعه جيش من أمة مغلوبة عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة، وهو يواجه جيش أمة غالبة فلا بد إذن من قوة كافية في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة هذه القوة الكامنة لا

---

(١) التوبة: ٤٣.
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠ ـ ١٤١).
(٣) البقرة: ٢٤٩.

تكون إلا في الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات وتصمد للحرمان والمشاق وتستعلي على الضرورات والحاجات وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها فتجتاز الابتلاء.

فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه وصموده وصبره، صموده أولاً للرغبات والشهوات وصبره ثانياً على الحرمان والمتاعب)[١].

هذا وقد حكى النبي ﷺ عن بعض الأنبياء أنه نهى من تعلقت نفسه بشيء يصعب عليه أن يتجرد للقتال قبل أن يناله، نهاه أن يخرج معه للقتال، لعلم ذلك النبي أن أمثال هؤلاء لا يرجى منهم أن يحققوا الأهداف المرسومة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (غزا نبي من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولّما يبن بها، ولا أحد بنى بيوتاً لم يرفع سقوفها، ولا أحد اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر أولادها)[٢].

قال النووي رحمه الله: (وفي هذا الحديث أن الأمور المهمة ينبغي ألا تفوّض إلا إلى أولي الحزم وفراغ البال لها، ولا تفوض إلى متعلق القلب بغيرها، لأن ذلك يضعف عزمه ويفوت كمال وسعه فيه)[٣].

الفرع الثاني عشر
الشجاعة والكرم

والقائد المسلم لا بد أن يكون شجاعاً ثابت الجأش، ليكون قدوة لجنوده في الثبات وقت الشدائد، كما كان كذلك الرسول ﷺ وقد مضى ذكر صموده في غزواته، ولا سيما غزوة أحد، وغزوة حنين، ولولا ذلك الثبات لكانت الهزيمة ساحقة في أحد، ولما آب الصحابة في حنين بروح عالية فنصرهم الله. وكذلك

(١) في ظلال القرآن (٢ ـ ٢٦٨).
(٢) البخاري رقم ٣١٢٤ فتح الباري (٦ ـ ٢٢٠) ومسلم (٣ ـ ١٣٦٦).
(٣) شرح مسلم (١٢ ـ ٥١).

يجب أن يكون القائد المسلم متصفاً بصفة الكرم التي هي من أهم أركان الجهاد في سبيل الله، فإنه إذا كان كريماً يبذل المال والسلاح والمؤن لجنوده ويؤثرهم على نفسه فيحوز ثقتهم من جهة ويقارعون هم العدو بما يجود به عليهم من جهة أخرى وقد كان الرسول ﷺ أجود الناس كما كان أشجع الناس والبخل يلازمه ـ غالباً ـ الكذب والجبن، والقائد الذي فيه هذه الصفات من قادة الفشل والخسران لا من قادة النصر والفلاح.

وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: (كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس، ولقد فزع أهل المدينة فكان النبي ﷺ على فرس، وقال وجدناه بحراً).

وفي حديث جبير بن مطعم أنه بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من حنين فعلقت الناس يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه فوقف النبي ﷺ فقال: «أعطوني ردائي لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً جباناً»[(١)].

هذا وبدون الشجاعة والكرم لا يستقيم أمر المسلمين بل لا يستقيم أمر الناس كلهم، كما قال ابن تيمية رحمه الله: (ولما كان صلاح بني آدم لا يتم في دينهم ودنياهم إلا بالشجاعة والكرم، بيَّن سبحانه أن من تولى عن الجهاد بنفسه أبدل الله به من يقوم بذلك، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفِروا في سبيل الله اثّاقلتْم إلى الأرض، أرضيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل * إلا تنفِروا يُعَذِّبْكم عذاباً أليماً، ويستبدلْ قوماً غيركم ولا تضرُّوه شيئاً، والله على كل شيء قدير﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿ ها أنتم هؤلاء تُدْعَوْن لتنفقوا في سبيل الله، فمنكم من يبخلُ، ومن يبخلْ فإنما يبخلُ عن نفسه، والله الغنيُّ وأنتم الفقراء، وإن تتولَّوا يستبدلْ قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾[(٣)]. وبالشجاعة والكرم في سبيل الله فضل السابقين فقال: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظمُ درجةً من الذين

---

(١) هذا الحديث والذي قبله في صحيح البخاري: الفتح (٦ ـ ٣٥). رقم: ٢٨٢٠، ٢٨٢١.
(٢) التوبة: ٣٨ ـ ٣٩. (٣) محمد: ٣٨.

أنفقوا من بعدُ وقاتلوا، وكلاًّ وعد الله الحُسْنى﴾[١])[٢].

والجيش الإسلامي كله يجب أن يكون متصفاً بالصفتين المذكورتين وليستا خاصتين بالقائد وإن كان يجب أن يكون أشجعهم وأكرمهم لأنه قدوتهم ولذلك ذكرتا في صفاته.

ولقد ابتعد أكثر المسلمين الآن عن الاتصاف بهاتين الصفتين في الجهاد في سبيل الله وإن كانوا يبذلون الأموال بسخاء في غير هذا السبيل من محرمات ومباحات ومكروهات، وترف مبالغ فيه، وعندما توجد جماعة من المسلمين تنذر نفسها للجهاد في سبيل الله، دفاعاً عن دينها وأرضها وأعراضها من المهاجم الكافر الذي عنده من القوة ما لا قبل لتلك الجماعة به، وهي لا تقاتل العدو المهاجم فقط وإنما تقاتله وتقاتل عبيداً له مهدوا له السبيل من نفس البلد الإسلامي، عندما توجد هذه الجماعة وهي لا تملك شيئاً تنفقه على أفرادها من مؤن وسلاح وذخائر وتستصرخ المسلمين وتستنصرهم، لا ليقاتلوا معها، بل ليجهزوا غزاتها، فلا تجد المدد الكافي، بل الضروري من بقية المسلمين، والذي يبذل شيئاً يبذل ما لا يذكر بجانب حاجتهم، ويبذله وكأنه صدقة تطوع ليست واجبة عليه، ولولا أنه يوجد بقية في المسلمين يؤدون ما أوجب الله عليهم بإخلاص لكان المسلمون في أسوأ من حالهم المتردي الآن بسبب بخلهم بالمال في سبيل الله وجبنهم عن الجهاد بأنفسهم. ولقد أذاق الله المسلمين عذابه في الدنيا بذلهم لأعدائهم وفرقتهم فيما بينهم، وإذا لم يفيقوا من سباتهم فيبذلوا نفوسهم وأموالهم في سبيل الله فإنه سيستبدل بهم غيرهم كما قال الله: ﴿وإن تتولَّوا يستبدلْ قوماً غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم﴾[٣].

الفرع الثالث عشر
مراقبة الجند وزجرهم عن جمع المال من غير حقه

والقائد المسلم يجب أن يحرص كل الحرص على إبعاد جنده عن الوقوع في الشبهات فضلاً عن المحرمات ـ لا سيما جمع المال من غير باب شرعي، لأن

(١) الحديد: ١١.
(٢) الفتاوى (٢٨ ـ ١٥٧).
(٣) محمد: ٣٨.

كثيراً من الناس قد يغره الشيطان فيتناول المال بغير حق على وجه من التأويل. والجنود المجاهدون قد يقعون في هذا في وقت الغزو وغيره، فلا بد من المراقبة والمحاسبة والزجر عما يقع مخالفاً للمشروع وحفظ مال المسلمين واجب على القائد، لأنه من أولى الداخلين في الحديث الصحيح: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)[1].

وقد ضرب الرسول ﷺ المثل الأعلى في المراقبة والمحاسبة ومن النصوص الواضحة في ذلك حديث أبي حميد الساعدي قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد على صدقات بني سليم يدعى ابن اللُّتْبِيَّة فلما جاء حاسبه، قال: هذا مالكم وهذا هدية، فقال رسول الله ﷺ: «فهلا جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً؟» ثم خطبنا فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاّني الله، فيأتي فيقول: هذا مالكم، وهذا هدية لي أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً؟، والله لا يأخذ أحد منكم منها شيئاً بغير حقه إلا لقي الله تعالى يحمله يوم القيامة فلأعرفن أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر» ثم رفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه ثم قال: «اللهم هل بلغت» بصر عيني وسمع أذني.[2] ولقد اقتفى أصحاب الرسول ﷺ أثره في ذلك.

هذا هو واجب القائد أن يراقب جنوده ويحاسبهم لئلا يأكلوا أموال الناس، أو أموال بيت المسلمين بالباطل، ولكن ما يعمله كثير من قادة المسلمين الآن بأموال المسلمين من صرفها في المحرمات وإعطائها من لا يستحقها من المجاهدين وغيرهم أمر يدعو إلى الأسى والحزن، كإنفاق الأموال في الخمور والبغاء وغيرهما من الفسق، وإعانة دول الكفر ضد الإسلام والمسلمين. قال ابن تيمية رحمه الله: (ولا يجوز للإمام أن يعطي أحداً ما لا يستحقه من قرابة بينهما أو مودة ونحو ذلك، فضلاً عن أن يعطيه لأجل منفعة محرمة منه، كعطية المخنثين من الصبيان المردان: الأحرار والمماليك ونحوهم والبغايا والمغنين

---

(١) البخاري رقم: ٢٥٥٤ فتح الباري (٥ ـ ١٧٧) ومسلم (٣ ـ ١٤٥٩).

(٢) البخاري رقم: ٦٦٣٦ فتح الباري (١١ ـ ٥٢٤) ومسلم (٣ ـ ١٤٦٣).

والمساخر ونحو ذلك أو إعطاء العرافين من الكهان والمنجمين ونحوهم)[١].

وإذا كان القائد نفسه خائناً لأمته لا يلزم نفسه بشرع الله في حل ولا حرمة فكيف يرجى منه أن يراقب من تحت سلطته ويزجره عن جمع المال من طرق حرام؟ إنه كما قال ابن تيمية: (فأما من يغضب لنفسه لا لربه أو يأخذ لنفسه ولا يعطي غيره، فهذا القسم الرابع شر الخلق، لا يصلح بهم دين ولا دنيا). بخلاف من اقتفى أثر رسول الله ﷺ من القادة الصالحين فقد قال فيهم رحمه الله: (كما أن الصالحين من أرباب السياسة الكاملة هم الذين قاموا بالواجبات وتركوا المحرمات وهم الذين يعطون ما صلح الدين بعطائه ولا يأخذوا إلا ما أبيح لهم، ويغضبون لربهم إذا انتهكت محارمه ويعفون عن حقوقهم وهذه أخلاق رسول الله ﷺ)[٢].

الفرع الرابع عشر
التصرف الحكيم السريع أمام المفاجآت

إن القائد معرض للمفاجآت الطارئة ـ وقد يتعلق بعض هذه المفاجآت بشخصه ـ كأن يموت له عزيز أو يفقد منصبه الذي قام به خير قيام، وقد يفاجأ بفقد قائده أو قادته في المعارك، وهو غير مكلف أن يخلف غيره في القيادة من قبل قائده العام أو الخاص، هذه المفاجآت الطارئة قد تذهل هذا القائد وتنسيه مهمته فيضطرب ويؤثر اضطرابه على جنوده فيخسر المعركة ولو كان قبل ذلك منتصراً يحصد أعداءه حصداً، ولكن القائد الحكيم المدبر الثابت القلب لا تزيده هذه المفاجآت إلا حكمة وسرعة في تصرفه المنقذ لجيشه. ويكفي هنا أن يضرب مثلان لخالد بن الوليد رضي الله عنه: أحدهما في غزوة مؤتة حيث كان الرسول ﷺ قد أمّر زيد بن حارثة فإن قتل فجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول ﷺ، فإن قتل فعبدالله بن رواحة، وقتل الثلاثة واحداً بعد الآخر، ولم يكن أحد بعدهم مكلفاً الإمرة من قبل الرسول ﷺ. ولو ترك الجيش الإسلامي

---

(١) الفتاوى (٢٨ ـ ٢٨٨).
(٢) الفتاوى (٢٨ ـ ٢٩٦).

بدون قائد لانفرط عقده وكان لقمة سائغة لأعدائه من الروم الذين كانوا يفوقونه عدداً وعدة بأضعاف مضاعفة فبادر خالد بن الوليد رضي الله عنه فأخذ الراية وأنقذ الله به جنوده كما في حديث أنس رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: (أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبدالله بن رواحة فأصيب ـ وإن عيني رسول الله ﷺ لتذرفان ـ ثم أخذها خالد بن الوليد من غير إمرة ففتح له)(١).

أما المثال الثاني، فوقع له رضي الله عنه في غزوة اليرموك التي كانت المعارك فيها محتدمة بين المسلمين وبين أعدائهم، وكان خالد رضي الله عنه هو القائد فجاء رسول عمر رضي الله عنه يبلغه بأمرين عظيمين: الأمر الأول: وفاة أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ، والأمر الثاني: عزله عن القيادة واستنابة أبي عبيدة عامر بن الجراح، فلم يزد على أن أوقف الرسول عنده وأدار المعركة حتى تحقق النصر ثم أخبر الناس بما جاءه قال ابن كثير: (وبينما هم في جولة الحرب، وحومة الوغي والأبطال يتصاولون في كل جانب إذ قدم البريد من نحو الحجاز فدفع إلى خالد بن الوليد، فقال له: ما الخبر؟ فقال له ـ فيما بينه وبينه ـ: إن الصديق رضي الله عنه قد توفي واستخلف عمر واستناب على الجيوش أبا عبيدة عامر بن الجراح، فأسرّها خالد ولم يبد ذلك للناس لئلا يحصل ضعف ووهن في تلك الحال، وقال له والناس يسمعون: أحسنت وأخذ منه الكتاب فوضعه في كنانته واشتغل بما كان فيه من تدبير الحرب والمقاتلة وأوقف الرسول الذي جاء بالكتاب ـ وهو منجمة بن زنيم ـ إلى جانبه)(٢).

● ● ●

خلاصة الكلام في صفات القائد المسلم:

وخلاصة القول إن القائد المسلم الذي لا بد أن يكون قدوة لجنوده في كل

---

(١) جامع الأصول في أحاديث الرسول (٨ ـ ٣٥٠) ورمز له بـ(خ، وس) أي أخرجه البخاري والنسائي وهو في البخاري برقم: ٣٧٥٧، فتح (٩ ـ ١٠٠).

(٢) البداية والنهاية (٧ ـ ١٢).

الصفات التي يجب توافرها فيهم حتى يكون على حق في مطالبتهم بها وأهلاً لقيادتهم وتولي أمرهم، فلا بد أن يكون شديد الحرص على التقرب إلى الله سبحانه بعبادته، وذلك يقتضي إتعاب نفسه في التقرب إليه بفرائض العبادات ونوافلها والبعد عن المحرمات والمكروهات وترك بعض المباحات خشية من الوقوع فيما لا يرضي الله عز وجل ولا بد أن يجتهد في تعليم جنوده وتطهيرهم من الذنوب والآثام ومطالبتهم بالقرب إلى ربهم بالإكثار من طاعته وترك معصيته.

ولا بد أن يكون ذا خبرة عالية بأمور الحرب ليوجه جنوده توجيهاً مفيداً لهم في تحقيق أهدافهم وأن يكون ليناً مشفقاً عليهم متفقداً الأحوال لا عنيفاً متكبراً غليظ القلب حتى يجتمعوا عليه ولا ينفضوا من حوله ويجب أن يبتعد كل الابتعاد عن حب الرئاسة وطلبها لذاتها، لأن الحرص على طلب الرئاسة يدل على عدم خلوص عبوديته لله تعالى، وذلك من أسباب مذلته ومذلة جنوده ويصير قدوة سيئة لغيره.

ويجب أن يكون عادلاً منصفاً يسند الأمور إلى أهلها، لأن ذلك هو الذي يجعل الأفراد يؤدون واجبهم بأمانة وإخلاص ويدل على أمانته هو أما إسنادها إلى غير أهلها فإنه يدل على غشه وخيانته، وذلك يسبب كرههم إياه وبغضهم له ويجلب الفشل للمسلمين، لأن الذي أسند إليه الأمر لا يكون أهلاً له بسبب جهله أو خيانته أو ضعفه وكلها أمور لا تجلب إلا الفشل والهزيمة.

ويجب أن يربي الجند على الإخلاص لله والطاعة المطلقة له سبحانه لا يربيهم على الطاعة المطلقة لشخصه، لأنه بذلك يثبت أنه متكبر وأنه لا يعمل لرفع راية الإسلام مخلصاً لله وإنما يعمل لعلو نفسه على الناس، وجنود مثل هذا القائد لا يرجى أن يحققوا نصراً على الأعداء لأنهم يشعرون بأنهم يقدسون من هو مثلهم قهراً بل قد يكون بعضهم أفضل منه في صفات قيادية كثيرة ويرى أنه أولى منه بالقيادة، ولأنه دربهم على الذل له والخوف منه والطاعة المطلقة له، لا لله تعالى.

ولا بد أن يكون القائد مطبقاً قاعدة الشورى مع جنده يستشيرهم في كل

الأمور المهمة التي لا يوجد نص فيها من كتاب أو سنة وفي كيفية التنفيذ إن لم يكن منصوصاً عليه وفي أمور الحرب لأنه باستشارته لهم يشركهم في التنظيم والتخطيط وهم الذين ينفذون ذلك فيكونون مسؤولين عن الأمر من بدايته إلى نهايته ويتحملون النتائج راضين لأنهم لم يجبروا على تنفيذ شيء وإنما دخلوا فيه مختارين، ويشعرون بأن قائدهم يحترمهم ويثق فيهم، بخلاف من استبد بالأمر دون جنده فإنهم يشعرون بعدم ثقته فيهم وبأنهم ينفذون ما لم يشتركوا في التخطيط له ولا يدرون عن نتائجه، وإذا كانت النتائج طيبة فإنها تنسب له دونهم، وإذا كانت سيئة أسندت إليهم لاتهامهم بالتقصير.

ويجب أن يكون القائد شديد الحرص على تحقيق الأهداف الجهادية بأن يسعى لذلك بكل وسيلة ممكنة، لأن تحقيق الأهداف يدفع المجاهدين إلى المزيد من الحماس والرضا ببذل النفس والنفيس وأن يكون ضبطه الإداري بالغاً القمة لأن الضبط الإداري الذي يتخذ فيه القائد القرارات المدروسة الحاسمة يكون من أهم أسباب تماسك الجيش وانضباطه وعدم تخلخله، بخلاف ما إذا كان القائد ضعيف الشخصية متردداً لا يأخذ الأمر بالجد فإن الجيش لا يتماسك والأفراد الذين ألفوا الفوضى تزداد فوضاهم ولا بد أن يكون القائد قوي التأثير في جنده، إذا طرقت كلماته مسامعهم أثرت في نفوسهم وحرّكَتْهم إلى تحقيق الأهداف التي رسمها لهم، وبدون قوة التأثير هذه، يكون القائد بعيداً عن فرص النجاح، لأن الجندي الذي لا يؤثر فيه قائده بسلوكه وأسلوبه وفصاحته وحججه المقنعة يتباطأ في التنفيذ وتباطؤ الجنود عن القيام بواجبهم يؤدي إلى كوارث وهزائم منكرة.

ويجب أن يكون عنده قدرة على معرفة جنوده واختبار إرادتهم الجهادية وقدرتهم وخبرتهم حتى لا يكون في صفه من يكون من المعوقين عن الجهاد في سبيل الله بسبب ضعفهم الجسماني أو الإيماني، وكذلك آلات الحرب ومراكبه يجب أن يتفقدها وأن ينهى عن حمل شيء منها غير صالح.

ويجب أن يكون شجاعاً كريماً، يثبت في وقت الشدة ليقتدي به جنوده ويبذل أغلى ماعنده في سبيل الله كذلك.

والذي لا خبرة له بجنوده وأدوات القتال معرض للفشل لأنه يضع الأمور في غير موضعها لجهله وفي ذلك ما فيه من الفشل والقائد الجبان البخيل قائد إلى الهزائم المحققة ولا شك.

ولا بد أن يراقب القائد جنده ويحاسبهم ـ لا سيما ما يتعلق بالأموال ـ فإن الجندي الذي يستمرىء جلب المال من وجه حرام لا يركن إليه ولا يستحق أن يكون في صفوف المسلمين، لأن خيانته في المال دليل على أنه لا يتورع عن الخيانة في غيره. كذلك لا بد أن يراقب القائد جنوده ويحاسبهم وينصحهم سراً وإذا اقتضى الأمر أن يعلن نصحهم على الملأ فعل بدون ذكر الاسم كأن يقول: ما بال قوم. . . .

ويجب أن يكون هو أبعد الناس عن أخذ المال من غير وجهه أو صرفه في غير وجهه أو على من لا يستحقه وإلا كان كما قيل حاميها حراميها وبذلك لا يقدر أن يراقب غيره أو يحاسبه لأنه هو ليس نظيفاً فكيف يدعو غيره إلى النظافة.

ولا بد أن يكون القائد قادراً على التصرف السريع الحكيم إذا واجهته مشكلة أو معضلة عويصة ـ لا سيما وقت احتدام المعارك ـ لأنه بذلك يقدر على تسيير الأمر ومواصلة النضال والنصر على الأعداء وحماية جنده من التخلخل والوقوع في فخ الأعداء بخلاف من ليس عنده هذه الصفة فإنه سيعرضهم لعكس ذلك.

ولعل فيما ذكر كفاية لبيان الصفات القيادية الجهادية.

المبحث الثاني

الصفات التي يجب أن يتحلى بها أفراد الجيش

وفيه تمهيد وستة فروع:

الفرع الأول	:	**الصدق.**
الفرع الثاني	:	**الطاعة.**
الفرع الثالث	:	**تأكد التوبة لا سيما من القعود عن الجهاد والتفريط فيه.**
الفرع الرابع		**الدهاء وقوة المكر بالأعداء.**
الفرع الخامس		**الشجاعة والكرم.**
الفرع السادس		**الثقة في القائد.**

تمهيد:

صفات أفراد الجيش الإسلامي التي يجب أن يتحلوا بها يصعب حصرها في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولكن يمكن إجمالها في ركنين مهمين: الركن الأول الإيمان بالغيب الذي يجمعه أركان الإيمان الستة: الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالملائكة، والإيمان بالكتب السماوية والإيمان بالأنبياء والرسل ثم الإيمان بالقدر خيره وشره، والذي يحقق الإيمان بما ذكر يكون قد حقق الركن الأول. أما الركن الثاني فهو العمل الصالح وهو طاعة الله ورسوله في كل أمر أمر به والانتهاء عما نهاه عنه الله ورسوله ﷺ، وقد جمع الله ذلك في آية واحدة من آيات سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿ليس البرَّ أن تُوَلُّوا

وجوهَكم قِبَلَ المشرقِ والمغربِ، ولكنَّ البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وآتى المالَ على حبِّه ذوي القُرْبى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا، والصابرين في البأساء والضَرَّاء وحين البأس، أولئك الذين صَدَقوا وأولئك هم المتقون﴾[١]. فالركن الأول ينتهي عند قوله: ﴿والنبيين﴾ ولم ينص على القدر هنا ولكنه نص عليه في آيات وأحاديث كثيرة، والعمل الصالح ما ذكر في الآية بعد ذلك وهو الركن الثاني، وفي معنى هذه الآية حديث جبريل المشهور. قال سيد قطب ـ بعد أن تفيأ في ظلال هذه الآية: ـ (وهكذا تجمع آية واحدة بين أصول الاعتقاد وتكاليف النفس والمال وتجعلها كلا لا يتجزأ ووحدة لا تنفصم، وتضع على هذا كله عنواناً واحداً هو البر وهو جماع الخير أو هو الإيمان كما ورد في بعض الأثر والحق إنها خلاصة للتصور الإسلامي ولمبادىء المنهج الإسلامي المتكامل لا يستقيم بدونها إسلام)[٢].

ولذلك وصف الله سبحانه من قام بما في هذه الآية بهاتين الصفتين العظيمتين: الصدق والفلاح: ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾.

الفرع الأول
الصدق

والصادق المتقي يجعل مقياس السعادة والشقاوة رضا الله وغضبه ويبني حياته ونشاطه على ذلك فيسعى لرضا الله وإن غضب عليه الخلق أجمعون ولا يجعل مقياس السعادة رضا الناس أو غضبهم ولا المال والجاه ولا المنصب ولا الفتن والمصائب، ولهذا قال كعب بن مالك الصادق المتقي لرسول الله ﷺ مقرّاً بذنبه معللاً لذلك الإقرار: (إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن

(١) البقرة: ١٧٧.
(٢) في ظلال القرآن (٢ ـ ١٦١).

حدثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه ، إني لأرجو فيه عفو الله) . نعم إنه ليرجو في صدقه عفو الله ولقد علم أنه إن حدّث الرسول ﷺ حديث كذب يرضى به عنه فإن الله لا بد أن يسخطه عليه.

قال ابن القيِّم رحمه الله: (ومنها ـ أي من فوائد قصة كعب بن مالك في تخلفه عن غزوة تبوك ـ توفيق الله لكعب وصاحبيه فيما جاؤوا به من الصدق ولم يخذلهم حتى كذبوا واعتذروا بغير الحق فصلحت عاجلتهم وفسدت عاقبتهم كل الفساد. والصادقون تعبوا في العاجلة بعض التعب فأعقبهم صلاح العاقبة والفلاح كل الفلاح وعلى هذا قامت الدنيا والآخرة، فمرارات المبادىء حلوات العواقب وحلوات المبادىء مرارات العواقب)[1] إي والله إن مرارات المبادى حلوات العواقب، لأن الجنة حفّت بالمكاره، وإن حلوات المبادىء مرارات العواقب، لأن النار حفّت بالشهوات، وقصة كعب مثال للأول فقد صبر على الصدق وكان مرّاً فنال في العاقبة رضا الله، وكذلك زميلاه أما المنافقون الكاذبون فقد نالوا حلاوة عفو رسول الله ﷺ عملاً منه بظاهر قولهم ولكنهم ذاقوا مرارات العواقب وهي سخط الله تعالى عليهم ولعل القارىء يدرك هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصّدقن ولنكوننّ من الصالحين، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون. ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب﴾[2].

فقد ذاق هذا المنافق حلاوات رزق الله الذي وعد، بل عاهده تعالى أنه إن رزقه أدى حق الله فيه، وكان كاذباً غير صادق فنكث عهده وظهر كذبه فأذاقه الله مرارات عواقب كذبه ونكثه: ﴿فأعقبهم نفاقاً إلى يوم يلقونه﴾ أي أنه مات على نفاقه وكفى بذلك مرارات.

ولهذا عاتب الله سبحانه من قال ما لا يفعل من المؤمنين، لأن ذلك من الكذب الذي لا يليق بجندي الإسلام أن يتصف به، وهو ممقوت عند الله،

---

(١) زاد المعاد (٢ ـ ٢٣).

(٢) التوبة: ٧٥ ـ ٧٨.

والله لا يحب إلا الصادق الذي يخوض المعارك في صف إخوانه المؤمنين بثبات: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون، إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾[١].

الفرع الثاني
الطاعة

إن المؤمن الصادق ـ ولا سيما جندي الجهاد في سبيل الله ـ لا بد أن تتأصل الطاعة في نفسه، مثل الإيمان، فالطاعة دليل الإيمان، ولا يمكن ـ أبداً ـ أن يوجد جيش لأي أمة يحقق لها أهدافها إذا لم تتوافر في أفراده الطاعة.

ولقد حض الله تعالى عباده المؤمنين على الطاعة وأمرهم بها في عدة مواضع من كتابه كما قال سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتُم في شيء فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً﴾[٢] فناداهم سبحانه بصفة الإيمان الذي يقتضي الطاعة وأمرهم بها بعد ذلك، وفي آخر الآية بين سبحانه أن طاعة الله وطاعة رسوله وأولي الأمر، ثم الرجوع فيما اختلف فيه إلى الله ورسوله شرط في الإيمان﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾.

وقال سبحانه: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تُبْطلوا أعمالكم * إنَّ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم * فلا تَهِنُوا وتَدْعُوا إلى السَّلْم وأنتم الأعْلَون، والله معكم ولن يتِرَكُم أعمالكم﴾[٣].

ويفهم من هذه الآية أن دعوة المسلمين أعداءهم إلى السلم ليست من طاعة الله تعالى اللائقة بالمجاهدين، لأن الذي يدعو إلى السلم هو الأدنى عقيدة وسلوكاً وشريعة، أما الأعلى في ذلك كله وفي غيره فلا ينبغي أن يدعو هو إلى

---

(١) الصف: ٢ ـ ٤.
(٢) النساء: ٥٩.
(٣) محمد: ٣٣ ـ ٣٥.

السلم ولذلك أمر الله تعالى المسلمين أن يجنحوا للسلم إذا بدا جنوح عدوهم إليها.

وكيف يدعو إلى السلم مَنِ الله معه يؤيده وينصره ويأمره بجهاد أعدائه لإعلاء كلمته؟!

وبيّن سبحانه أن المتصف بطاعة الله ورسوله له منزلة عالية رفيعة إذ يكون في ركب من أنعم الله عليهم ووفقهم لطاعته ورضوانه من أئمة الخير، قال تعالى: ﴿ومن يُطِع الله والرسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً﴾[1].

والذي لا يطيع الله ولا يطيع رسوله ولا أولي الأمر في طاعة الله ورسوله فإنه عاص ضال، ضلاله ظاهِر، كما قال تعالى: ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسولُه أمراً أن يكون لهم الخِيَرة من أمرهم، ومن يَعْصِ الله ورسولَه فقد ضلَّ ضلالاً مُبيناً﴾[2].

وبين سبحانه أن من اتصف بالطاعة نال الهداية ـ عكس من عصى ـ ﴿وإن تُطيعوه تهتدوا، وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾[3].

وفي الطاعة رحمة الله: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأطيعوا الرسول لعلكم تُرحمون﴾[4].

ولقد حرص الرسول ﷺ على تربية أمته على طاعة أمرائها بعده إلى يوم القيامة ما دام ذلك في إطار طاعة الله وجعل ﷺ طاعة أميره من طاعته ومعصية أميره من معصيته حتى لا يقول قائل: إنما الطاعة للرسول ﷺ فإذا مات فلا طاعة لسواه، كما فعل أهل الردة ونحوهم، قال ﷺ ـ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني)[5].

---

(١) النساء: ٦٩.

(٢) الأحزاب: ٣٦.

(٣) النور: ٥٤.

(٤) النور: ٥٦.

(٥) البخاري رقم ٧١٣٧ فتح الباري (١٣ ـ ١١١) ومسلم (٣ ـ ١٤٦٦).

وكان ﷺ يأخذ البيعة على أصحابه على السمع والطاعة في كل الأحوال ـ ما لم تكن معصية بالنسبة لغير الرسول كما سيأتي ـ كما في حديث عبادة بن الصامت عن جنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض قلنا: أصلحك الله حدِّث بحديث ينفعك الله به سمعته من النبي ﷺ، قال: (دعانا النبي ﷺ فبايعناه فقال: فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان)(١).

هذا. ولقد استجاب الصحابة رضي الله عنهم لهذه الأوامر الصارمة في طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة من ولاه الله عليهم ما لم يأمر بمعصية في حياته وبعد مماته ﷺ ولم يحققوا ذلك النصر على أعدائهم إلا بذلك الإيمان الصادق وتلك الطاعة الكاملة. فقد كانوا رضي الله عنهم يطيعونه في أحرج المواقف.

ويكفي أن يضرب لذلك مثالان: أحدهما في عهد رسول الله ﷺ ـ طاعة أصحابه له ـ والثاني بعد وفاته ـ طاعة بعضهم بعضاً امتثالاً لأمر الله ورسوله بذلك.

المثال الأول قصة كعب بن مالك رضي الله عنه الذي تخلف عن غزوة تبوك وصدق رسول الله ﷺ عند رجوعه ولم يكذب عليه كما كذب عليه غيره من المنافقين، وأمر الرسول ﷺ باجتنابه هو واجتناب صاحبيه اللذين صدقا مثلما صدق، فهجرهم الناس مدة خمسين ليلة وأمر الرسول ﷺ الثلاثة أن يعتزلوا نساءهم فبقوا على طاعة رسول الله ﷺ ولا سيما كعب الذي بعث إليه ملك غسان يدعوه للحاق به ليواسيه مما حصل له فرمى كتابه في التنور وأمر امرأته أن تلحق بأهلها على الرغم من وحشته لهجر الناس كلهم له، قال كعب: (حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت أطلقها أم ماذا؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقْربْها وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فكوني

---

(١) البخاري رقم ٧٠٥٦ فتح الباري (١٣ ـ ٥) ومسلم (٣ ـ ١٤٧٠).

عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر[١].

أما الثاني فقد مضى في قصة عزل خالد عن قيادة الجيش عندما تولى عمر رضي الله عنه الخلافة[٢] وغيرها كثير ومنها قصة إنفاذ جيش أسامة وقصة حروب الردة.

وبتلك الطاعة الفائقة فتح المسلمون وقادتهم الأرض في فترة قصيرة من الزمن ورفعوا راية الإسلام وأخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد.

وكان إذا حصل خلل في الطاعة عاقب الله المسلميـن ولو كان فيهم رسول الله ﷺ بسبب معصيتهم كما حصل لهم يوم أحد حيث قتل من المسلمين سبعون وجرح رسول الله ﷺ بسبب معصية بعض الرماة الذين أمرهم بالبقاء في أماكنهم فاجتهدوا عندما رأوا المسلمين منتصرين على المشركين وترك بعضهم الجبل فأتى الله المسلمين بما لم يكونوا يحتسبون ليكون لهم تربية ولمن وراءهم كما قال تعالى عن ذلك: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿ أَوَلما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير﴾[٤].

وإذا كان هذا العقاب حصل لأصحاب رسول الله ﷺ ولم يسلم من أثره الرسول ﷺ بسبب معصية لا تعد شيئاً بجانب معاصي المسلمين في العصور المتأخرة ولا سيما في هذا العصر فإن ذلك يفسر ما أصاب المسلمين قادة وأتباعاً من ذل وهوان وفرقة حتى أصبحوا يؤمرون وينهون ـ بعد أن كانوا هم الآمرين الناهين.

---

(١) نفس المصدر (٣ ـ ٧٥٠).
(٢) البخاري رقم ٤٤١٨ فتح الباري (٨ ـ ١١٣) ومسلم (٤ ـ ٢١٢٠).
(٣) آل عمران: ١٥٢.
(٤) آل عمران: ١٦٥.

وإن أكثر قادة الجيوش الإسلامية ليفقدون طاعة جنودهم الطاعة الحقة الناشئة عن رضا واختيار وإنما يظهرون الطاعة قهراً لأنهم لم يربوا على الإيمان والطاعة كما كان الجيوش في عهد السلف الصالح يربون عليهما قال الأستاذ المودودي متسائلاً عن أمثال هذه الجيوش المدعاة: (خذ تاريخ العالم كله وسرح النظر فيه من أوله إلى الآخر لن تجد مثالاً واحداً لحركة نجحت أو تمكنت على الأقل من أن تبقى سائرة في طريقها مع أتباع من ذوي الجبن والنفاذ يعصون أمر القائد ولا حاجة لذلك إلى الخوض في صفحات التاريخ بل انظر إلى ما حولك من الدنيا فماذا يكون من رأيك في جيش لا يكون موالياً لدولته ولا مطيعاً لقائده ويأبى رجاله اتباع الضوابط العسكرية؟ فإذا ضرب الناقوس للخروج إلى العرض العسكري لم يتحرك جندي واحد من مكانه وإذا أصدر القائد أمراً لقي من الجنود آذاناً صماً فهل لك أن تدعو هذا الجمع المختلط من الجنود جيشاً؟)[١].

وهذا ما جعل جيوش المسلمين الكثيرة المتفرقة تقف تحت ألوية قادتها، مقهورة لشذاذ الأفاق من اليهود الذين أخرجوا الناس من ديارهم ودنسوا الأرض المقدسة وقد أنزلوا الرعب في قلوب أولئك الجيوش من المسلمين وفي قلوب قادتهم بسبب المعاصي التي ارتكبوا ولا زالوا مستمرين في ارتكابها بل إن الله جعل بأس المسلمين بينهم فنشبت بينهم الحروب والمعارك فضرب بعضهم رقاب بعض، لا في بلدان مختلفة فحسب بل في البلد الواحد أيضاً، ولو أن قادتهم أطاعوا الله ورسوله وربوا جيوشهم على طاعة الله ورسوله وطاعتهم فيما هو طاعة الله ورسوله لكان لهم شأن آخر مع أعدائهم مهما عظمت قوتهم وكثر عَدَدهم وعُدَدهم.

وإذا كانت الطاعة الواجبة هي طاعة الله ورسوله ﷺ، وطاعة أولي الأمر تابعة لطاعة الله ورسوله، فإنه لا يطاع غير الله ورسوله إلا إذا لم يأمر بمعصيته، فإن أمر بمعصيته فلا طاعة له كائناً من كان، لأن المؤمن إنما يطيع الله ورسوله لأن الله عز وجل يثيبه على ذلك وطاعته عبادة، فإذا أطاع غير الله في معصية الله فإنه معرض لعقاب الله، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الذين يُخالفون عن أمره أن

(١) نحن والحضارة الغربية ص: ٢٣٢.

تصيبَهم فتنةٌ أو يصيبَهم عذابٌ أليمٌ﴾[1].

وقد نهى الرسول ﷺ عن طاعة أحد في معصية الله، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[2].

وقد امتثل أصحابه رضي الله عنهم ذلك في حياته وبعد مماته فكانوا أسرع الناس إلى الطاعة فيما ليس بمعصية وأشد الناس إباء فيما فيه معصية.

وأقرهم ﷺ على عدم الطاعة في معصية الله كما في حديث علي رضي الله عنه، قال: (بعث النبي ﷺ سرية وأمّر عليهم رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه. فغضب عليهم، وقال: أليس قد أمر النبي ﷺ أن تطيعوني قالوا: بلى قال: قد عزمت عليكم لما جمعتم حطباً وأوقدتم ناراً ثم دخلتم فيها، فجمعوا حطباً فأوقدوا فلما همّوا بالدخول فقام ينظر بعضهم إلى بعض، فقال بعضهم: إنما تبعنا النبي ﷺ فراراً من النار أفندخلها؟ فبينما هم كذلك إذا خمدت النار وسكن غضبه فذكر للنبي ﷺ، فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف»)[3].

وكانوا رضي الله عنهم إذا أمرهم النبي ﷺ بأمر وأراد فعله ـ لمصلحتهم سألوه إن كان أمراً تجب طاعته نفذوه وإن كان إنما أراده من أجل مصلحتهم وهم لا يرونه راجعوه في ذلك وما كان ﷺ يغضب عليهم بل إنه ليوافقهم في رأيهم ما دام غير مأمور به من الله، ومن ذلك إرادته ﷺ مصالحة غطفان على ثلث ثمار المدينة في غزوة الأحزاب لينسحبوا شفقة على أصحابه، قال ابن القيم رحمه الله: (ولما طالت هذه الحال على المسلمين أراد رسول الله ﷺ أن يصالح عيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة وينصرفا بقومهما وجرت المراوضة على ذلك فاستشار السعدين في ذلك فقالا: يا رسول الله إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة وإن كان شيء تصنعه لنا فلا حاجة لنا

---

(١) النور: ٦٣.

(٢) البخاري رقم ٧١٤٤ فتح الباري (١٣ ـ ١٢١) ومسلم (٣ ـ ١٤٦٩).

(٣) البخاري رقم ٧١٤٥ فتح الباري (١٣ ـ ١٢٢) ومسلم (٣ ـ ١٤٦٩).

فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا! والله لا نعطيهم إلا السيف. فصوب رأيهما وقال: «إنما هو شيء أصنعه لكم لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة»[١].

وقال ابن تيمية رحمه الله: (وفي الحقيقة فالواجب في الأصل إنما هو طاعة الله لكن لا سبيل إلى العلم بمأموره وبخبره كله إلا من جهة الرسل والمبلغ عنه أما مبلغ أمره وكلماته فتجب طاعته وتصديقه في جميع ما أمر وأخبر وأما ما سوى ذلك فإنما يطاع في حال دون حال كالأمراء الذين تجب طاعتهم في محل ولايتهم ما لم يأمروا بمعصية الله إلى أن قال: (فإنه لا معصوم بعد الرسول ولا تجب طاعة أحد بعده في كل شيء))[٢].

وقال في موضع آخر: (ودين الإسلام أن يكون السيف تابعاً للكتاب فإذا ظهر العلم بالكتاب والسنة وكان السيف تابعاً لذلك كان أمر الإسلام قائماً. . . وأما إذا كان العلم بالكتاب فيه تقصير وكان السيف تارة يوافق الكتاب وتارة يخالفه كان دين من هو كذلك بحسب ذلك)[٣]. ولقد أصبح السيف الآن يحارب الكتاب والسنة في أغلب المعمورة وأصبح دين الله تبعاً لأهواء ذوي القوة يأذنون لما يريدون منه ويمنعون ما يشاؤون ولقد أصبحت الطاعة في معصية الخالق كذلك هي الغالبة ولا يخفى ذلك على المتأمل ولعل يوم الاستقامة على طاعة الله وحده وعصيان من أمر بمعصيته قريب.

الفرع الثالث
الحرص على التوبة لا سيما عن القعود عن الجهاد والتفريط فيه

الجندي الصادق قد يذنب، لأنه بشر مهما بلغ إيمانه من القوة لا يكون معصوماً، ولكنه من صفاته الأوبة إلى الله والتوبة وعدم الإصرار على الذنب

(١) زاد المعاد (٢ ـ ١٣١).
(٢) الفتاوى (١٩ ـ ٦٩).
(٣) الفتاوى (٢٠ ـ ٣٩٣).

ولا بد أن تكون توبته صادقة، والتوبة الصادقة ـ وهي التوبة النصوح ـ هي أن يندم على ذنبه وأن يعزم عزماً صادقاً جازماً على عدم العود له بعد أن يقلع عن ذلك الذنب وكلما كان أقوى إيماناً كان أكثر فعلاً للحسنات لتذهب السيئات، ويفرح أشد الفرح بتوبة نفسه من ذنبه. وإذا كان هذا واجباً على المسلمين كلهم فإنه على المجاهدين أكثر وجوباً، وهم أحرص عليه من سواهم.

وإن في قصة كعب بن مالك الذي تخلف عن غزوة تبوك لمثالاً يحتذى في هذا الشأن، وقد نوَّه الله سبحانه بتوبته وتوبة زميليه بصفة خاصة بعد أن نوَّه بتوبته على النبي والمهاجرين والأنصار الذين باشروا الغزوة تسلية للمتخلفين الثلاثة الذين أرجأهم الله مدة طويلة ابتلاء لهم وامتحاناً لصدقهم وتربية لهم ولغيرهم من المؤمنين، قرنهم سبحانه في توبته عليهم بمن باشروا الغزوة ليسليهم وليرفع من شأنهم بسبب صدقهم وتوبتهم النصوح، كما قال تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبيِّ والمهاجرين والأنصار الذين اتَّبعوه في ساعة العُسْرة من بعد ما كاد يَزِيغُ قلوبُ فريق منهم، ثم تاب عليهم إنَّه بهم رؤوفٌ رحيمٌ * وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحُبَتْ، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنُّوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا إنَّ الله هو التواب الرحيم﴾[1].

وبقراءة ما حكاه كعب نفسه عن توبته يظهر للمسلم صدق التوبة قال كعب: (قلت يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقه إلى الله وإلى رسول الله ﷺ، قال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» قلت: أمسك سهمي الذي بخيبر قلت: يا رسول الله وإن من توبتي ألا أحدّث إلا صدقاً ما بقيت.. فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا)[2].

---

(١) التوبة: ١١٧ ـ ١١٨.

(٢) البخاري رقم ٤٤١٨ فتح الباري (٨ ـ ١١٣) ومسلم (٤ ـ ٢١٢٠).

الفرع الرابع
الدهاء وقوة المكر بالأعداء

والجندي المسلم يحرص كل الحرص ـ وهو يخوض المعارك ضد أعدائه ـ على التفكير في أساليب النصر وأسباب التقليل من خسائر أمته، وأساليب دحر أعدائه وتفريق كلمتهم وإنزال الخسائر الفادحة بهم، وقد فتح الرسول ﷺ لجنود الإسلام القاعدة العامة للمكر بأعدائهم، كما في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «الحرب خدعة»[١].

قال الحافظ ابن حجر: (وفيه التحريض على أخذ الحذر في الحرب والندب إلى خداع الكفار وإن من لم يتيقظ لذلك لم يأمن أن ينعكس الأمر عليه. قال النووي: واتفقوا على جواز خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز. قال ابن العربي: الخداع في الحرب يقع بالتعريض وبالكمين ونحو ذلك. وفي الحديث إشارة إلى استعمال الرأي في الحرب، بل الاحتياج إليه أكبر من الشجاعة، ولهذا وقع الاقتصار على ما يشير إليه بهذا الحديث، وهو كقوله «الحج عرفة»، قال ابن المنير: معنى الحرب خدعة: أي الحرب الجيدة لصاحبها الكاملة في مقصودها إنما هي المخادعة لا المواجهة وذلك لخطر المواجهة وحصول الظفر مع المخادعة بغير خطر)[٢].

وقد اشتهرت قصة نعيم بن مسعود رضي الله عنه في غزوة الخندق التي فرق بها كلمة الأحزاب، وهي قصة تدل على دهاء عال وتفكير سام وعقل عظيم، قال ابن القيِّم رحمه الله: (ثم إن الله عز وجل ـ وله الحمد ـ صنع أمراً من عنده خذل به العدو وهزم جموعهم وفلّ حدهم فكان مما هيأ من ذلك أن رجلاً من غطفان يقال له نعيم بن مسعود بن عامر رضي الله عنه جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: (يا رسول الله إني قد أسلمت فمرني بما شئت فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت رجل واحد فخذّل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة». فذهب من فوره ذلك إلى بني قريظة وكان عشيراً لهم في الجاهلية فدخل عليهم

(١) البخاري رقم ٣٠٣٠ فتح الباري (٦ ـ ١٥٨) ومسلم (٣ ـ ١٣٦١).
(٢) فتح الباري (٦ ـ ١٥٨).

وهم لا يعلمون بإسلامه، فقال يا بني قريظة إنكم قد حاربتم محمداً وإن قريشاً إن أصابوا فرصة انتهزوها وإلا استمروا إلى بلادهم راجعين وتركوكم ومحمداً فانتقم منكم. قالوا: فما العمل يا نعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن. قالوا: لقد أشرت بالرأي. ثم مضى على وجهه إلى قريش قال: لهم تعلمون ودّي لكم ونصحي لكم قالوا: نعم قال: إن يهود ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يوالونه عليكم فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك، فلما كان ليلة السبت من شوال بعثوا إلى يهود إنا لسنا بأرض مقام وقد هلك الكراع والخف فانهضوا بنا حتى نناجز محمداً فأرسل إليهم اليهود أن اليوم يوم السبت وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش صدقكم والله نعيم فبعثوا إلى اليهود إنا والله لا نرسل إليكم أحداً فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم. فتخاذل الفريقان)[1].

هكذا يفعل الجندي المسلم عندما يكون صادقاً في جهاده يرغب في نصر قومه وفي هزيمة عدوه، بخلاف الجندي الذي لا همّ له إلا أن ينال رزقه أو إرضاء قادته في خير أو شر فإنه لا يهتم بمثل هذه المعالي وإن اهتم ما وفق كما يوفق الجندي المسلم الصادق.

الفرع الخامس
الشجاعة والكرم
١ ـ الشجاعة

الشجاعة في الجندي، كالروح في الجسد والجبان لا يصح أن يوصف بالجندية، والقائد الشجاع لا يستفيد من جنود جبناء فلا بد أن يختار من يتصف بالشجاعة ليكون جندياً وينمّي في جنوده الشجاعة حتى يصبحوا لا يبالون

(١) زاد المعاد (٢ ـ ١٣١).

الموت، والجندي المسلم يجب أن يكون أكثر شجاعة من غيره يطلب الموت ليلقى الله وهو شهيد، أو ينتصر على عدوه فترتفع راية الإسلام.

وفرق بعيد بين شجاع يرحب بالموت في سبيل الله وهو منشرح الصدر ثابت الجأش، وبين جبان يكاد قلبه يطير من صدره لأدنى سبب.

قال ابن القيِّم رحمه الله: (ومنها ـ أي من أسباب انشراح الصدور ـ الشجاعة فإن الشجاع منشرح الصدر وواسع البطان متسع القلب والجبان أضيق الناس صدراً وأحصرهم قلباً لا فرحة له ولا سرور ولا لذة له ولا نعيم إلا من جنس ما للحيوان البهيمي، وأما سرور الزوح ولذتها ونعيمها وابتهاجها فمحرم على كل جبان كما هو محرم على كل بخيل وعلى كل معرض عن الله سبحانه)[1].

وشجاعة المسلم التي تجعله يرحب بالموت في سبيل الله ليست دعوى تقال باللسان أو تكتب على الورق ولكنها حقيقة واقعة وأمثلتها لا يمكن حصرها في العصور الإسلامية، لذلك يقتصر على بعضها.

فقد كان الجندي المؤمن يحرص على الموت في سبيل الله وهو متلبس بالتقرب إليه، كما في قصة خبيب رضي الله عنه عن أبي هريرة رضي الله عنه ـ وهو يروي قصة أسر المشركين له وقتلهم إياه ـ: فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحل، قال لهم خبيب: دعوني أصلي ركعتين فتركوه، فركع ركعتين، فقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت، ثم قال: اللهم احصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تبقي منهم أحداً ثم أنشأ يقول:

فلست أُبالي حين أُقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإلّه وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزّع

ثم قام إليه أبو سَرْوَعة عقبة بن الحارث، فقتله، وكان خبيب هو سَنَّ لكل مسلم ـ قتل صبراً ـ الصلاة[2].

وكانوا يبايعون الرسول ﷺ على الموت، كما قال سلمة بن الأكوع عندما

(١) زاد المعاد (١ ـ ١٨٧).
(٢) البخاري رقم ٣٩٨٩ فتح الباري (٧ ـ ٣٠٨).

سأله يزيد بن أبي عبيد، قال: قلت لسلمة بن الأكوع: على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية: قال: (على الموت)[١] وكانوا رضي الله عنهم يفون ببيعتهم فلم يترددوا في اقتحام العقبات مهما كانت أهوالها، فكان الواحد منهم يدفع بنفسه فرداً مثل السهم إلى أعدائه مجتمعين فيرعبهم ويشتت شملهم. وهذا سلمة بن الأكوع نفسه الذي كان أحد المبايعين على الموت يروي هذه القصة العجيبة قال: (خرجت قبل أن يؤذن بالأولى وكانت لقاح رسول الله ﷺ ترعى بذي قرد، قال فلقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف فقال: أخذت لقاح رسول الله ﷺ، قلت من أخذها قال غطفان قال: فصرخت ثلاث صرخات: يا صباحاه قال: فأسمعت ما بين لابتي المدينة ثم اندفعت على وجهي حتى أدركتهم وقد أخذوا يستقون من الماء فجعلت أرميهم بنبلي وكنت رامياً وأقول: أنا ابن الأكوع اليوم يوم الرضع وأرتجز حتى استنقذت اللقاح منهم واستلبت منهم ثلاثين بردة قال: وجاء النبي ﷺ والناس فقلت: يا نبي الله قد حميت القوم الماء وهم عطاش فابعث إليهم الساعة فقال: «يا ابن الأكوع ملكت فأسجح» قال: (ثم رجعنا ويردفني رسول الله ﷺ على ناقته حتى دخلنا المدينة)[٢].

واستمروا في المبايعة على الموت بعد وفاة النبي ﷺ قال ابن كثير: (قال عكرمة بن أبي جهل يوم اليرموك: قاتلت رسول الله ﷺ في مواطن وأفر منكم اليوم؟ ثم نادى من يبايع على الموت؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعاً جراحاً وقتل منهم خلق منهم ضرار بن الأزور رضي الله عنهم)[٣].

وكان الشبان حديثو الأسنان يتسابقون في ساح الوغى إلى رؤوس الكفر وقد أحاط بهم جيشهم الكافر لحمايتهم فلا يرجع أولئك الشبان إلا بقتل تلك الرؤوس كما في حديث عبد الرحمن بن عوف قال: بينما أنا واقف في الصف يوم بدر فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانهما تمنيت

---

(١) البخاري رقم: ٤١٦٩ فتح الباري (٧ ـ ٤٤٩) ومسلم (٣ ـ ١٤٨٦).
(٢) البخاري رقم: ٤١٩٤ فتح الباري (٧ ـ ٤٦٠) ومسلم (٣ ـ ١٤٣٢).
(٣) البداية والنهاية (٧ ـ ١١).

أن أكون بين أضلع منهما فغمزني أحدهما فقال: يا عم هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم ما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال لي: مثلها فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يصول في الناس قلت ألا إن هذا صاحبكما الذي سألتماني فابتدراه فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه فقال: «أيكما قتله فقال كل واحد منهما أنا قتلته فقال: هل مسحتما سيفيكما؟ قالا: لا فنظر في السيفين فقال: كلاكما قتله..»[1].

وكان أحدهم رضي الله عنهم يضيق صدره إذا خلفه رسول الله ﷺ لحاجة تدعو إلى بقائه نفوراً من بقائه بين من لا يجب عليه القتال كالنساء والصبيان، ففي حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: (خلف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في غزوة تبوك فقال يا رسول الله: تخلفني في النساء والصبيان فقال: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟»)[2].

وكان الجندي الشجاع المؤمن يستبطيء أكل تمرات في يده تؤخره عن لقاء الله ودخول الجنة كما في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال (رجل للنبي ﷺ يوم أحد: أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: «في الجنة» فألقى تمرات في يده ثم قاتل حتى قتل)[3].

وكان الواحد منهم لشجاعته إذا هرب عدوه في المعركة يغريه بالثبات ويعيره بالهرب، ففي حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: (لما فرغ النبي ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس فلقى دريد بن الصمة فقتل دريد وهزم الله أصحابه قال أبو موسى وبعثني مع أبي عامر فرمي أبو عامر في ركبته، رماه جشمي بسهم فأثبته في ركبته فانتهيت إليه فقلت يا عم من رماك فأشار إلى أبي موسى فقال: ذاك قاتلي الذي رماني فقصدت له فلحقته فلما رآني ولى فاتبعته

---

(١) البخاري رقم ٣١٤١ فتح الباري (٦ ـ ٢٤٦) ومسلم (٣ ـ ١٣٧٢).
(٢) مسلم (٨ ـ ١٧٥).
(٣) البخاري رقم: ٤٠٤٦ فتح الباري (٧ ـ ٣٥٤) ومسلم (٣ ـ ١٥٠٩).

وجعلت أقول له ألا تستحي ألا تثبت فكف فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته)[1]

وكان الواحد من الصحابة رضي الله عنهم يستعذب وقع السهام في جسمه ـ الواحد بعد الآخر، وهو قائم وراكع وساجد مترنم بكتاب الله بين يدي الله يحرس جنود الله وهم نائمون وكان يحب أن يموت وهو جامع بين الأمرين لولا خوفه من أن يضيع ثغراً أمره الرسول ﷺ بحفظه: ـ (عن جابر بن عبدالله قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع من نخل فأصاب رجل امرأة رجل من المشركين فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلاً أتى زوجها وكان غائباً فلما أخبر الخبر حلف لا ينتهي حتى يهريق في أصحاب محمد دماً فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ. فنزل رسول الله ﷺ منزلاً فقال: من رجل يكلؤنا ليلتنا فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار فقالا: نحن يا رسول الله، قال: فكونا بفم الشعب، قال الأنصاري للمهاجري: أيّ الليل تحب أن أكفيكه أوله أم آخره؟ قال: بل اكفني أوله فاضطجع المهاجري فنام وقام الأنصاري يصلي، قال: وأتى الرجل فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة القوم فرمى بسهم فوضعه فيه فانتزعه وثبت قائماً قال ثم رمى بسهم آخر فوضعه فيه فانتزعه وثبت قائماً قال: ثم عاد له بالثالث فوضعه فيه فنزعه فوضعه ثم ركع وسجد ثم أهب صاحبه فقال: اجلس فقد أثبت، قال: فوثب الرجل فلما رآهما عرف إنه قد نذرا به فهرب قال: ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء قال: سبحان الله أفلا أهببتني أول ما رماك قال: كنت في سورة اقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها فلما تابع عليَّ الرمي ركعت فآذنتك وايم الله لولا أن أضيع ثغراً أمر رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها)[2].

وبهذه الشجاعة النادرة وتلك النية الصادقة والعزيمة الصلبة كان العدد القليل يقف أمام الأعداد الهائلة، بل كان الفرد الواحد من العدد القليل يخترق صفوف الأعداد الكثيرة حتى يصل إلى قائد الكفر وجيشه من حوله مثل النحل

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٣ ـ ٦٧٧).

(٢) أحمد في المسند (٣ ـ ٣٤٣) وأبو داود في السنن (١ ـ ١٣٦)، والجهاد لابن المبارك ص: ١٤٩، والبداية لابن كثير (٤ ـ ٨٥).

المجتمع على يعسوبه فيحتز رأسه ويرفعه على رمحه فيضطرب أعداء الله ويفرون مدبرين وكان ذلك بعد وفاة رسول‌الله ﷺ، قال ابن كثير: (لما قصد المسلمون وهم عشرون ألفاً إفريقية وعليهم عبدالله بن سعد بن أبي سرح وفي جيشه عبدالله بن عمر وعبد الله بن الزبير صمد إليهم ملك البربرجرجير في عشرين ومائة ألف وقيل في مائتي ألف فلما تراءى الجمعان أمر جيشه فأحاطوا بالمسلمين هالة فوقف المسلمون في موقف لم ير أشنع منه ولا أخوف عليهم منه قال عبدالله بن الزبير فنظرت إلى الملك جرجير من وراء الصفوف وهو راكب على برذون وجاريتان تظلانه بريش الطواويس فذهبت إلى عبدالله بن سعد بن أبي سرح فسألته أن يبعث معي من يحمي ظهري وأقصد الملك فجهز معي جماعة من الشجعان، قال: فأمر بهم فحموا ظهري وذهبت حتى خرقت الصفوف إليه ـ وهم يظنون أني في رسالة إلى الملك ـ فلما اقتربت منه أحس مني الشر ففر على برذونه فلحقته فطعنته برمحي وذففت عليه بسيفي وأخذت رأسه فنصبته على رأس رمحي وكبّرت. فلما رأى ذلك البربر فرقوا وفروا كفرار القطا واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فغنموا غنائم جمة وأموالاً كثيرة وسبياً عظيماً. . . فكان هذا أول موقف اشتهر فيه عبدالله بن الزبير رضي الله عنه)[1].

هذه كانت حالة الصحابة ومن تبعهم بإحسان ومعلم الناس العلم هو الذي يتقدمهم في المعارك حاملاً الراية حتى تزهق نفسه في سبيل الله قدوة لمن تعلم على يديه العلم والعمل معاً، وفي قصة مصعب بن عمير أول مبعوث إلى الأنصار ليقرئهم القرآن قدوة للعلماء فقد كان هو الذي علمهم القرآن وكان هو حامل لواء رسول الله ﷺ الأعظم ـ لواء المهاجرين ـ يوم بدر وحمل رضي الله عنه اللواء يوم أحد وقاتل حتى قطعت يده اليمنى فأخذه بيده اليسرى وحنا عليه فقطعت يده اليسرى فحنا عليه وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل. . .) الآية. وما زال محتفظاً به حتى سقط مضرجاً بدمائه فسقط اللواء[2].

---

(١) البداية والنهاية (٧ ـ ١٥٢).

(٢) راجع الطبقات لابن سعد (٣ ـ ١١٨ ـ ٦٢٠).

ولو وجد المسلمون جمهور علمائهم يسيرون في هذا الطريق يعلمونهم ويدعونهم إلى العمل ويسبقونهم إلى العمل الذي يدعونهم إليه لكانت هذه الكثرة الكاثرة من طلبة العلم جنوداً مجاهدين في سبيل الله، ولكنهم وجدوا من العلماء من يعلمهم الشجاعة ويجبن ويدعوهم إلى الصدق ويكذب ويحث على الكرم ويبخل ويحضهم على الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال ويقعد فاقتدى الطالب بمعلمه في تعليم الخير والدعوة إليه والابتعاد عنه فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[1].

٢ ـ الكرم

كان جنود الله يتسابقون ببذل أموالهم ـ كبذل أنفسهم في سبيل الله ـ فكان الكرم ـ كالشجاعة ـ من سجاياهم، وهذه بعض الأمثلة على ذلك:

ـ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق. ووافق ذلك مني مالاً فقلت اليوم أسبق أبا بكر ـ إن سبقته ـ قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟»، قلت مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال: «يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: (لا أسبقه إلى شيء أبداً)[2].

وفي حديث عبد الرحمن بن خباب رضي الله عنه، قال شهدت رسول الله ﷺ وهو يحث على تجهيز جيش العسرة، فقام عثمان، فقال: يا رسول الله عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش فقام عثمان فقال: يا رسول الله عليّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حضّ على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: عليَّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزل عن المنبر وهو يقول: «ما على عثمان ما فعل

---

(١) راجع أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (٢ ـ ١٧٦) بتعليق طه عبد الرؤوف سعد الناشر مكتبة الكليات الأزهرية طبعة ١٣٨٨ هـ.

(٢) جامع الأصول في أحاديث الرسول (٨ ـ ٥٩١) وقال أخرجه أبو داود والترمذي وقال المحقق: وإسناده حسن وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

بعد هذه ما على عثمان ما عمل بعد هذه»[١] أخرجه الترمذي.

وفي هذا كما ترى سخاء الجندي المسلم وتكريم القائد إياه والإشادة بفضله، وبهذه النفوس السخية استطاع السلف الصالح أن يجهزوا جيوشهم في سبيل الله وأن يفتحوا البلدان وبالبخل الذي سيطر على أكثر المسلمين في العصور المتأخرة ـ ولا سيما هذا العصر ـ غزيت بلدان المسلمين وضربت عليهم الذلة بعد أن كانت مضروبة على أعدائهم ولولا قلة من المؤمنين لا زالوا على عهدهم مع الله لما كان للمسلمين وجود في الأرض.

الفرع السادس
الثقة في القائد

إن ثقة الجندي في قائده شرط رئيس في الطاعة الصادقة والوفاء بالبيعة والاستبسال في المعركة، وهذا الشرط كان من أعظم أسباب ارتفاع الروح المعنوية في جنود رسول الله ﷺ وإسراعهم إلى لقاء الله برغبة وصدق في جميع المعارك الإسلامية. ومن أبرز الأدلة في هذا ما حصل يوم الأحزاب من تألب المشركين من مكة ونجد وغيرهما من الجزيرة العربية وتحالف اليهود معهم وإحاطتهم بالمسلمين الذين كانوا قليلاً عددهم (ثلاثة آلاف) يقابلهم عدد كبير (عشرة آلاف عدا يهود) ودام الحصار أكثر من عشرين يوماً وبلغ الأمر أشده على المسلمين، وكما وصف الله ذلك بقوله: ﴿ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾[٢].

في هذه الحال وفي هذا الابتلاء والزلزال الشديد الذي أصاب المسلمين وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر والمسلمون في أعلى قمة الثقة بقائدهم وفي غاية الاقتداء به والثقة بوعد الله له ـ ووعد الله بالنصر باق إلى يوم القيامة ـ

---

(١) نفس المصدر وقال المحقق: وفي سنده مجهول، وقال الترمذي هذا حديث غريب من هذا الوجه وفي الباب عن عبدالرحمن بن سمرة ـ يعني الذي قبله ـ أقول فهو شاهد له بالمعنى وهو به حسن اهـ.

(٢) الأحزاب: ١٠ ـ ١١.

ولذلك قال تعالى عنهم: ﴿لقد كان لكم في رسولِ الله أُسْوةٌ حَسَنةٌ لمن كان يرجـو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً * ولمَّا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسولُه، وصَدَق الله ورسولُه، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾(١).

وهذه الثقة الشديدة جعلتهم يتحسسون ما يختلج في صدر قائدهم في إرادتهم القتال أو عدمها فكان الواحد منهم يشب مطمئناً له وبأسلوب يثلج صدره ويظهر سروره على وجهه، كما حصل في غزوة بدر من المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال ابن مسعود رضي الله عنه: (شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقـال: (لا نقول كـما قال قوم موسى: ﴿ فـاذهب أنت وربك فقاتلا ﴾(٢): ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك)، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره ـ يعني قوله)(٣).

والجندي الذي يتصف بهذه الثقة في قائده إذا اشتبه عليه أمر في تصرف القائد لا يذهب يشكك فيه ولا يندس في صفوف الجنود باثاً الإشاعات والغاً في الأعراض بالقال والقيل وإنما تدفعه ثقته إلى الاتصال بقائده لمكاشفته بالأمر في شجاعة وقوة حجة وحسن أدب يستفسر عما أشكل ويستمع الجواب ثم تقنعه الحجة من قائده، فيزول ما كان بنفسه ويغدو أشد حماساً لما ذهب إليه قائده كما في حديث سهل بن حنيف عن أبي وائل قال: كنا بصفين فقام سهل بن حنيف فقال: أيها الناس اتهموا أنفسكم فإنا كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ولو نرى قتالاً لقاتلنا فجاء عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل فقال: «بلى»، فقال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار قال: «بلى» قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا أنرجع ولا يحكم الله بيننا وبينهم فقال: «يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً» فانطلق عمر إلى أبي بكر فقال له: مثل ما قال للنبي ﷺ فقال: إنه رسول ولن يضيعه الله أبداً فنزلت سورة الفتح فقرأها رسول الله ﷺ على عمر إلى آخرها فقال عمر: يا رسول الله

---

(١) الأحزاب: ٢٢.

(٢) المائدة: ٢٤.

(٣) البخاري فتح الباري (٧ ـ ٢٨٧) رقم الحديث: ٣٩٥٢.

أوَفتح هو قال: «نعم»[1] وانطلاق عمر رضي الله عنه إلى أبي بكر ما كان المقصود منه إلا الاستعانة به على إقناع الرسول ﷺ برأيه فلما عرف أن رأي أبي بكر هو رأي الرسول ﷺ وقف...

وهذه الثقة إنما تحصل من جندي شجاع مخلص جاد في السعي إلى تحقيق الهدف في قائد كفؤ أثبتت التجارب لجنوده أنه أهل للثقة.

فإذا كان الجندي جباناً أو منافقاً لا إرادة عنده للقتال ولا لتحقيق الهدف الذي آمن به القائد وجدّ في طلبه فإن هذا الجندي يلجأ إلى التشكيك في قائده ونشر الإشاعات الكاذبة حتى لا يثق به غيره من الجنود ليثبط الجميع عن الجهاد في سبيل الله. قال تعالى عن المنافقين: ﴿ومنهم الذين يُؤذون النبيَّ ويقولون: هو أُذُنٌ، قُلْ أُذُنُ خيرٍلكم، يُؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين، ورحمة للذين آمنوا منكم، والذين يُؤذون رسولَ الله لهم عذابٌ أليمٌ﴾[2].

وإذا اشتدت المعارك بين المسلمين وبين الكافرين أو لاح للجندي الجبان المنافق أن الغلبة ستكون للكافرين أخذ يشكك في القائد ويثبط الجيش بإلقاء الرعب في نفوسهم من أعدائهم وزعزعة ثقتهم في خطط قائدهم وفي نصره كما قال تعالى: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مَرَضٌ ما وعدنا الله ورسولُه إلا غُروراً﴾[3].

وإذا كان القائد ليس أهلاً للقيادة، بسبب جهله أو خيانته، أو عدم قدرته على تدبير أمور جيشه أو لتلك الأسباب كلها وغيرها فإن ثقة جنوده فيه تكون منعدمة، وإن أظهر له بعض المنافقين الثقة فيه والإشادة به ووصفه بما ليس فيه لأجل مصلحة ينالونها منه. ويكون الكلام الذي يذم به هذا القائد صحيحاً صادقاً يراه جنوده في تصرفاته وأعماله، وهذا أشد خطراً على المسلمين من غيره، لأن القائد الكفؤ إذا شكك فيه بعض الجنود يظهر لبقية الجنود كذب

---

(١) البخاري رقم ٣١٨٢ فتح الباري (٦ ـ ٢٨١) ومسلم (٣ ـ ١٤١١).

(٢) التوبة: ٦١.

(٣) الأحزاب: ١٢.

ذلك التشكيك فينبذون المشكك وتعود الثقة إلى نفوسهم والمسلمون يتثبتون من الأمور لأن الله سبحانه قد أمرهم بذلك فقال: ﴿يا أَيُّها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبيَّنوا أن تُصيبوا قوماً بجهالة، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾[1].

(١) الحجرات: ٦.

المبحث الثالث

الصفات التي يتحلى بها الجيش جماعياً

وفيه أربعة فروع:

الفرع الأول : الأخوة الإسلامية.
الفرع الثاني : التواصي بالحق والتواصي بالصبر.
الفرع الثالث : إصلاح ذات البين.
الفرع الرابع : الثبات على الحق.

إن الصفات الفردية الماضية وغيرها من صفات جند الله المجاهدين في سبيله هي التي تجعل الجيش بأجمعه جيش جهاد، ولكنها لا تكفي بدون وجود صفات أخرى مشتركة تربط بعضهم ببعض حتى يصيروا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

وتشمل هذه الصفات: الأخوة الإسلامية القوية التي تنشأ عنها المحبة والمودة، والإيثار، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وإصلاح ذات البين والوقوف صفاً واحداً على الحق ضد الباطل دون أن يخافوا في الله لومة لائم.

الفرع الأول
الأخوة الإسلامية

والأخ يطلق على المشارك في صفة ما، كصفة النسب، أو الصداقة، أو العقيدة أو العمل، والمقصود هنا كما هو واضح المشاركة في دين الله الذي هو

الإسلام فإن المشاركة فيه أقوى من المشاركة في أي شيء آخر، لأن الأخ يشترك مع أخيه في الإيمان بالله الذي خلقهما وفي العبادة التي خلقهما من أجلها وفي الالتزام بأوامره تعالى التي تحقق لهما السعادة في الدنيا والآخرة.

فالأخوة الإسلامية أقوى من أخوة النسب والقرابة والصداقة وغيرها، بل إن الأخوة النسبية أو غيرها إذا لم يشترك ذووها في الإيمان تكون وبالاً عليهم.

قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة، فأصلحوا بين أخَوَيْكُم واتقوا الله لعلكم تُرحمون﴾[1].

وقال تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم، فأصبحتُم بنعمته إخواناً﴾[2].

وقد أمر الرسول ﷺ أمته بتحقيق هذه الأخوة ومقتضاها ونهاهم عن كل ما يعكر صفوها ففي حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»[3].

وفي حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[4]

وفي حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[5].

---

(١) الحجرات: ١٠.
(٢) آل عمران: ١٠٣.
(٣) البخاري رقم: ٦٠٦٥ فتح الباري (١٠ ـ ٤٨١) ومسلم (٤ ـ ١٩٨٣).
(٤) البخاري رقم ٦٠٧٧ فتح الباري (١٠ ـ ٤٩٢) ومسلم (٤ ـ ١٩٨٤).
(٥) البخاري رقم: ٢٤٤٢ فتح الباري (٥ ـ ٩٧) ومسلم (٤ ـ ١٩٩٦).

وفي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»[١].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار»[٢]. وفي حديثه أيضاً عن النبي ﷺ أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته ملكاً فلما أتى عليه قال: «أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها؟ قال: لا غير أني أحببته في الله عز وجل. قال: فإني رسول الله إليك بأن قد أحبك كما أحببته»[٣].

فالجيش الذي يحافظ على هذه النعمة نعمة الأخوة الإسلامية التي ينشأ عنها التحابب والتواد والتراحم يكون شديد التماسك والترابط الذي يحقق له الوحدة والاعتصام وينجو من كل أسباب الفرقة والتباغض، هذا الجيش جدير بأن يكون أهلاً حقاً للجهاد في سبيل الله بخلاف من فرط في هذه النعمة فإنه يستبدل بالمحبة والاعتصام والتراحم البغضاء والتفرق والقسوة وهو جيش يأكل بعضه بعضاً غير أهل لحمل راية الإسلام والجهاد في سبيل الله.

ولقد آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار عندما هاجر إلى المدينة فربط بين المهاجري والأنصاري بذلك الإخاء الخاص الذي يكون أكثر وسيلة لزيادة المحبة والمودة والإيثار فحصل ذلك الإخاء الفريد في تاريخ البشر والذي سجله القرآن الكريم ليبقى نبراساً يهتدي به المسلمون في كل زمان ليحققوه في أنفسهم حتى ينالوا الفوز الذي ناله أولئك قال تعالى: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون اللهورسولَه، أولئك هم الصادقون * والذين تبوأوا الدارَ والإيمانَ من قَبْلِهم يُحِبُّون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجةً ممّا أوتوا، ويُؤثرون على

---

(١) البخاري رقم ٦٠١١ فتح الباري (١٠ ـ ٤٣٨) ومسلم (٤ ـ ٢٠٠٠).
(٢) البخاري رقم: ٧٠٧٢ فتح الباري (١٣ ـ ٢٣) ومسلم (٤ ـ ٢٠٢٠).
(٣) مسلم (٤ ـ ١٩٨٨).

أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة، ومن يُوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون * والذين جاءوا من بعدهم يقولون: ربَّنا اغفِرْ لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تَجْعَلْ في قلوبنا غِلًّا للذين آمنوا، ربَّنا إنَّك رؤوفٌ رحيمٌ﴾[١].

وإن الأمثلة التي ضربها أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان في الحب والرحمة والإيثار ليصعب حصرها ويكفي أن يذكر بعضها الرجل الذي لا يوجد عنده إلا قوت صبيانه يطلب من أهله أن تهيء ذلك القوت لأخيه المسلم وتنوم الصبيان وتطفىء المصباح ويوهم الضيف بأنه يأكل معه فيأكل الضيف الطعام وأهل البيت كلهم طاوون، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه فقلن ما معنا إلا الماء فقال رسول الله ﷺ: «من يضيف هذا» فقال: رجل من الأنصار أنا فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني فقال: هيئي طعامك وأصبحي سراجك ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء فهيأت طعامها وأصبحت سراجها ونومت صبيانها ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان فباتا طاويين فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: «ضحك الله الليلة ـ أو عجب ـ من أفعالكما فأنزل الله... ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾»[٢].

والرجل يعرض على أخيه أن يتنازل له عن نصف ماله وعن إحدى زوجتيه يطلقها فتعتد ثم يتزوجها فيتسامى أخوه ويستغني عن مال أخيه وأهله فيسعى فيغنيه الله، كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: (قدم عبد الرحمن ابن عوف فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله فقال عبد الرحمن بارك الله لك في أهلك ومالك دلني على السوق فربح شيئاً من أقط وسمن فرآه النبي ﷺ بعد أيام وعليه وضر من صفرة فقال النبي ﷺ مهيم يا عبد الرحمن، قال يا رسول الله: تزوجت امرأة من

(١) الحشر: ٨ ـ ٩ ـ ١٠.
(٢) البخاري رقم الحديث ٣٧٩٨ فتح الباري (٧ ـ ١١٩).

الأنصار قال فما سقت فيها فقال: وزن نواة من ذهب فقال النبي ﷺ: «أولم ولو بشاة»[(١)].

وهكذا كان المجاهدون بعد وفاة النبي ﷺ يؤثر بعضهم بعضاً في وقت يصعب فيه الإيثار على النفس كما ذكر عن أبي الجهم بن حذيفة العدوي قال: (انطلقت يوم اليرموك اطلب ابن عمي ومعي شنة من ماء وإناء، فقلت إن كان به رمق سقيته من الماء ومسحت به وجهه فإذا أنا به ينشغ[(٢)] فقلت أسقيك فأشار أن نعم فإذا رجل يقول: آه فأشار ابن عمي أن انطلق إليه فإذا هو هشام بن العاص أخو عمرو بن العاص فأتيته فقلت أسقيك فسمع آخر يقـول: آه فأشار هشام أن انطلق به إليه فجئته فإذا هو قد مات ثم رجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ثم أتيت ابن عمي فإذا هو قد مات)[(٣)].

فتحلي الجيش الإسلامي بهذه الصفة الـربانيـة العظيمـة ضرورة من ضرورات الجهاد في سبيل الله، لأنها تقوي رابطة المجاهدين وتجعلهم صفاً واحداً كالبنيـان المرصوص في التساند والتعاون والتناصر على الأعداء.

الفرع الثاني
التواصي بالحق والتواصي بالصبر

ومن أعظم صفات المجاهدين الجماعية التواصي بالحق والتواصي بالصبر فابن آدم بشر مهما بلغ إيمانه من القوة ومهما وفق لتحقيق العبودية والطاعة، ومهما جاهد في الله حق جهاده فإنه بشر ليس بمعصوم قد يغلبه الشيطان والهوى أو الجهل أو غير ذلك فيحيد عن الجادة قليلاً أو كثيراً وهنا لا بد أن يأخذ أخوه بيده ليعيده إليها وإلا ابتعد عنها حتى يفارقها مفارقة كاملة وتبعه غيره فانفرط بذلك عقد الجماعة ولم يعودوا جنود الله وإنما هم جنود للشيطان لهذا كان التواصي بالحق والتواصي بالصبر من صفات المؤمنين الناجين من الخسران كما

---

(١) نفس المصدر (٧ ـ ٢٧٠).
(٢) أي يفيق إفاقات خفيات جداً عند الموت.
(٣) الجهاد لابن المبارك ص: ٩٧.

قال تعالى: ﴿والعَصْر * إنَّ الإنسان لَفي خُسْرٍ * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصَوْا بالحقِّ وتواصَوْا بالصبر﴾(١).

وما كانت الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس إلا لأنها تتواصى بالحق وتتواصى بالصبر وتنهى الناس عن المنكر وتأمرهم بالمعروف، كما قال تعالى: ﴿كنتم خيرَ أمةٍ أُخرجْت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقومٍ يُحبُّهم ويحبونه، أذلَّةٍ على المؤمنين أعزَّةٍ على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم﴾(٣).

وفي حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: (بايعت النبي ﷺ على السمع والطاعة، فلقنني فيما استطعت والنصح لكل مسلم)(٤).

وجند الله المجاهدون لا يتباطأون في مناصحة بعضهم بعضاً لعلمهم بأن في هذا التباطؤ هلاكهم جميعاً الذي وصفه لهم الرسول ﷺ في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما فقال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»(٥).

هذا وإن الجندية الإسلامية لا توجد إلا حيث التناصح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، لأن عدم التواصي بالحق يعني تضييعه وعدم الغيرة عليه

(١) العصر.
(٢) آل عمران: ١١٠.
(٣) المائدة: ٥٤.
(٤) البخاري رقم: ٧٢٠٤ فتح الباري (١٣ ـ ١٩٣) ومسلم (١ ـ ٧٥).
(٥) البخاري رقم ٢٤٩٣، فتح الباري (٥ ـ ١٣٢).

وعدم الجهاد في سبيل الله لإحقاقه، وعدم التواصي بالصبر الذي لا يكون إحقاق الحق إلا به يدل على عدم الحماس لهذا الحق وعلى قلة الاكتراث بالعدو الذي لا يهدأ له بال إلا إذا هاجم الحق وانتصر على أهله.

قال سيد قطب رحمه الله: (أما التواصي بالحق والتواصي بالصبر فتبرز في خلالها الأمة المسلمة أو الجماعة المسلمة ذات الكيان الخاص والرابطة المميزة والوجهة الموحدة الجماعة التي تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها والتي تعرف حقيقة ما هي مقدمة عليه من الإيمان والعمل الصالح فتتواصى فيما بينها بما يعينها على النهوض بالأمانة الكبرى. فمن خلال لفظ التواصي ومعناه تبرز صورة الأمة أو الجماعة المتضامنة. الأمة الخيرة الواعية القيمة في الأرض على الحق والعدل والخير وهي أعلى وأنصع صورة للأمة المختارة وهكذا يريد الإسلام أمة الإسلام هكذا يريدها أمة خيرة قوية واعية قائمة على حراسة الحق والخير متواضعة بالحق والصبر في قوة وتعاون وتآخ تتضح بها كلمة التواصي في القرآن والتواصي بالحق ضرورة فالنهوض بالحق عسير والمعوقات عن الحق كثيرة. هوى النفس ومنطق المصلحة وتصورات البيئة وطغيان الطغاة وظلم الظلمة وجور الجائرين والتواصي تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى في الهدف والغاية والأخوة في العبء والأمانة فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية إذ تتفاعل معاً فتتضاعف بتضاعف إحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ويحبه ولا يخذله.

وهذا الدين هو الحق لا يقوم إلا في حراسة جماعة متعاونة متواصية متكاملة متضامنة على هذا المثال. والتواصي بالصبر كذلك ضرورة فالقيام على الإيمان والعمل الصالح وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة ولا بد من الصبر)[1].

الفرع الثالث
إصلاح ذات البين

ومن الصفات اللازمة لجند الله المجاهدين إصلاح ذات البين - أي رأب

---

(١) في ظلال القرآن (٣٠ - ٣٩٦٧).

الصدع إذا حصل ـ وجمع الكلمة ونبذ الشقاق والقضاء على الخلاف، لأن فساد ذات البين يقضي على جند الجهاد أكثر مما يقضي عليهم عدوهم الخارجي مهما قويت شوكته وكثر عدده مع صلاح ذات بينهم.

ولقد أمر الله المؤمنين بذلك في كتابه فقال: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول، فاتَّقوا الله وأصلحوا ذاتَ بينكم، وأطيعوا الله ورسولَه إن كنتم مؤمنين﴾[1].

وأمرهم أن يحملوا السلاح لقتال الفئة التي تبغي على أختها ولا تقبل الصلح رحمة منه بعباده المؤمنين الذين يعلم أن في تصدعهم هلاكهم، وإن الخلاف والشقاق ينافي الأخوة الإيمانية، قال تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحبُّ المُقْسطين * إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخَوَيكم، واتَّقوا الله لعلكم تُرحمون﴾[2].

والفئة التي تستمرىء الخلاف والشقاق أو تتسبب لإيجاده أو لا تقبل الصلح فئة تنطوي على غل وعلى شر تريده بالإسلام والمسلمين وقد تتلمس له الأعذار لتوقع الغافلين في شباكها لهذا أمر الله بقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمره سبحانه.

ومن أجل ضرورة إصلاح ذات البين رخص ﷺ لمن أراد ذلك أن يرتكب شيئاً من الكذب الذي لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً ولا سيما إذا كان من باب التورية والتعريض كما في حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً»[3] وجعل ﷺ إصلاح ذات البين أفضل من الصيام والصلاة والصدقة.

---

(١) الأنفال: ١.

(٢) الحجرات: ٩ ـ ١٠.

(٣) البخاري رقم ٢٦٩٢ فتح الباري (٥ ـ ٢٩٩) ومسلم (٤ ـ ٢٠١١).

وحذر ﷺ من فساد ذات البين وسماها بحالقة الدين، كما في حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة» قالوا بلى يا رسول الله قال: «إصلاح ذات البين وفساد ذات البين الحالقة»[1].

الفرع الرابع
نصر الحق والثبات عليه

ومن الصفات التي يجب أن يتصف بها جند الله مجتمعين: (نصر الحق وإحقاقه والقتال عليه حتى يلقوا ربهم سبحانه وتعالى، وهذه الصفة هي ثمرة كل الصفات الحميدة التي يتصف بها القائد وأفراد جنده وجنده كلهم مجتمعين).

ففي حديث معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يَزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك»[2]. وفي رواية مسلم: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الديـن ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة»[3] وفي حديث جابر رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»[4].

وبهذه الصفة ـ مع الصفات الأخرى للمجاهدين في سبيل الله ـ تتميز الطائفة المنصورة على سواها من الطوائف التي تدعي كل منها أنها هي الطائفة

---

(١) الترمذي (٤/٦٦٣) وقال: هذا حديث صحيح، وأبو داود (٥/٢١٨) وقال المحقق في الحاشية رقم ٣: (وأخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١١ باب سوء ذات البين هي الحالقة، وقال: هذا حديث صحيح وقال أيضاً ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: هي الحالقة لا أقول هي تحلق الشعر ولكن تحلق الدين) اهـ.

(٢) البخاري رقم: ٣٦٤١ فتح الباري (٦ ـ ٦٣٢) ومسلم (٣ ـ ١٥٢٤).

(٣) مسلم (٣ ـ ١٥٢٤).

(٤) مسلم (٣ ـ ١٥٢٤).

المنصورة فهي الميزان الذي توزن به الجماعات والدول والطوائف لا بد أن تقاتل على الحق وتنصره ولا بد أن تكون ذات فقه في الدين قائمة بالحق في نفسها داعية إليه غيرها تقاتل عليه من ناوأه إلى يوم القيامة.

وأي جماعة تفقد هاتين الصفتين: الفقه في الدين، ونصر الحق أو إحداهما فليست أهلاً لأن تكون هي الطائفة المنصورة. وأي خلل يقع في أي جماعة فلا بد أن يكون مصدره فقد إحدى الصفتين أو فقدهما معاً أو ضعف في إحداهما أو فيهما معاً.

الفصل الخامس

عوامل النصر وعوامل الهزيمة

وفيه تمهيد وسبعة مباحث:

المبحث الأول	:	التجرد الكامل لله	أو	القتال لغرض آخر.
المبحث الثاني	:	قوة الصلة بالله	أو	ضعف الصلة به.
المبحث الثالث	:	التوكل على الله	أو	الاعتماد على سواه.
المبحث الرابع	:	الصبر والمصابرة	أو	الجزع والانهزام.
المبحث الخامس	:	العدل	أو	الظلم.
المبحث السادس	:	صحة الولاء	أو	فساده.
المبحث السابع	:	الحذر واليقظة	أو	التساهل والغفلة.

الفصل الخامس

عوامل النصر والهزيمة

تمهيد:

لقد وعد الله عباده المؤمنين بالنصر على أعدائه الكافرين ووعده سبحانه حق لا يتخلف، لكمال صدق إخباره، وكمال قدرته وحكمته عز وجل، قال تعالى: ﴿ومَنْ أصدقُ من الله حديثاً﴾[1] وقال: ﴿ومَنْ أصدق من اللهِ قيلاً﴾[2] وقال: ﴿وما أرسلنا قَبْلكَ إلا رجالاً نُوحي إليهم، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين * ثم صَدَقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المُسْرفين﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وردّ الله الذين كفروا بغَيْظهم لم ينالوا خيراً وكفَى الله المؤمنينَ القتالَ وكان الله قويّاً عزيزاً * وأنزل الذين ظاهروهـم من أهل الكتابِ من صَيَاصِيهم، وقذف في قلوبهم الرُّعْبَ فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً * وأورثكم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم وأرضاً لم تطأوها وكان الله على كل شيء قديراً ﴾[4] وقال تعالى: ﴿ أُذِنَ للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾[5] وقال تعالى: ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، ولله جنودُ السمواتِ والأرضِ ، وكان الله عليماً حكيماً﴾[6].

فكمال صدقه وكمال قدرته وكمال حكمته سبحانه تقضي بتحقيق وعده وعدم تخلفه.

---

(١) النساء: ٨٧.
(٢) النساء: ١٢٢.
(٣) الأنبياء: ٧ ـ ٩.
(٤) الأحزاب: ٢٥ ـ ٢٧.
(٥) الحج: ٣٩.
(٦) الفتح: ٤.

والآيات القرآنية التي وعد فيها سبحانه عباده المؤمنين على أعدائهم الكافرين بالنصر كثيرة ومتنوعة منها ما نص الله فيه على أنه يؤيد بنصره من يشاء كقوله تعالى: ﴿والله يؤيِّد بنصره من يشاء، إنَّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار﴾[١] وقوله: ﴿ويومئذ يفرحُ المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾[٢].

ومنها ما ذكر الله فيه طلب عباده المؤمنين نصره إياهم، كقوله تعالى عن نوحٍ عليه السلام: ﴿قال ربِّ انصرني بما كذَّبون﴾[٣] وقوله عن غيره: ﴿قال ربِّ انصرني بما كذَّبون﴾[٤] وقوله عنه أيضاً: ﴿فدعا ربَّه أنِّي مغلوبٌ فانتَصِر﴾[٥] وقوله عن الفئة القليلة الغالبة من قوم طالوت: ﴿ولما برزوا لجالوتَ وجنوده قالوا: ربَّنا أفرغْ علينا صبراً وثبِّتْ أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾[٦] وقوله عن المؤمنين من أمة محمد ﷺ: ﴿أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾[٧] وقوله عن أتباع الأنبياء المجاهدين الصابرين: ﴿وما كان قولَهم إلا أن قالوا: ربَّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، وثبِّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾[٨].

ومنها ما ذكر فيه أنه لا نصر إلا من عنده سبحانه، كقوله تعالى: ﴿وما جعله الله إلا بُشْرى لكم ولتطمئنَّ قلوبكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾[٩] وقوله: ﴿وما جعله الله إلاَّ بُشْرى ولتطمئن به قلوبُكم، وما النصر إلا من عند الله، إنَّ الله عزيزٌ حكيمٌ﴾[١٠].

ومنها ما وعد فيه عباده من رسله والمؤمنين بالنصر كقوله تعالى: ﴿إنَّا لَنَنْصُر رسلَنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾[١١] وقوله: ﴿ولقد

---

(١) آل عمران: ١٣.
(٢) الروم: ٤ ـ ٥.
(٣) المؤمنون: ٢٦.
(٤) المؤمنون: ٣٩.
(٥) القمر: ١٠.
(٦) البقرة: ٢٥٠.
(٧) البقرة: ٢٨٦.
(٨) آل عمران: ١٤٧.
(٩) آل عمران: ١٢٦.
(١٠) الأنفال: ١٠.
(١١) غافر: ٥١.

سبقتْ كلمتُنا لعبادنا المرسلين: إنَّهم لهم المنصورون، وإنَّ جندنا لهم الغالبون﴾[١].

ومنها ما أمر فيه عباده بالاعتصام به لأنه نعم المولى ونعم النصير: ﴿واعتصموا بالله هو مولاكم فنِعْم المولى ونعم النصير﴾[٢].

ومنها ما وعد الله فيه من نصره من عباده بالنصر، كقوله تعالى: ﴿ولينصرنَّ الله من ينصُرُه، إنَّ الله لقوي عزيزٌ﴾[٣] وقوله: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[٤].

ومنها ما ذكر فيه أنه لا غالب لمن نصره ولا ناصر لمن خذله، كقوله: ﴿إن ينصركم الله فلا غالبَ لكم، وإن يَخْذُلْكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[٥].

ومنها ما ذكر فيه أنه يجازي عباده وأولياءه الذين يقاتلون أعداءه بالنصر كقوله: ﴿قاتِلوهم يُعَذِّبْهم الله بأيديكم ويُخْزِهم وينصركم عليهم، ويَشْفِ صدور قوم مؤمنين﴾[٦].

ومنها ما نفى فيه مَنْ ينصر أعداءه الظالمين، كقوله: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾[٧] وقوله: ﴿وما لكم من دون الله من وليٍّ ولا نصير﴾[٨] وقوله: ﴿وما للظالمين من نصير﴾[٩] وقوله: ﴿والظالمون ما لهم من وليٍّ ولا نصير﴾[١٠] وقوله: ﴿ وما أنتم بمعجزينَ في الأرض، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾[١١].

والخلاصة إن الله سبحانه وعد عباده المؤمنين الذين ينصرون دينه بالنصر على أعدائه الكافرين وإن أعداءه الكافرين لا ناصر لهم من دونه فمتى وجدت

---

(١) الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣.
(٢) الحج: ٧٨.
(٣) الحج: ٤٠.
(٤) محمد: ٧.
(٥) آل عمران: ١٦٠.
(٦) التوبة: ١٤.
(٧) البقرة: ٢٧٠.
(٨) العنكبوت: ٢٢.
(٩) الحج: ٧١.
(١٠) الشورى: ٨.
(١١) الشورى: ٣١.

طائفة قوية الإيمان أعدت ما تستطيع من العدة وجاهدت في سبيل الله أعداءه فإن نصر الله لها محقق لا يتخلف أبداً.

ونصر المؤمنين دين الله شرط في نصر الله إياهم ـ وإن كان سبحانه قادراً على نصرهم بدون ذلك ـ لأن الذي ينصر دين الله ينجح في ابتلائه إياه ويكون جديراً بالخلافة في الأرض ويحمل الأمانة التي كلفه الله إياها بخلاف الكسالى الذين يخلدون إلى الأرض ويتمنون هزيمة أعداء الله بدون أن يضحوا بنفس ولا مال، بل يريدون النصر بمجرد انتسابهم إلى الإسلام وأدائهم بعض الشعائر التي لا بذل فيها ولا تضحية فإنهم لا يستحقون هذا النصر الذي إن حصل لهم لم يقدروه حق قدره لأنه أتاهم بدون تعب ولا نصب والذي يغنم شيئاً بسهولة لا يستبعد أن يفرط فيما غنم، لذلك ذكر الله سبحانه أنه لو شاء لانتصر من أعدائه بدون أن يجاهدهم أولياؤه ولكنه لم يشأ ذلك لأن حكمته تقتضي أن يبتلي من ادعى الإيمان بالبذل والتضحية لينال الصادق ثواب الله وينصره على عدوه بعد أن يبذل جهده بما يدل على صدقه ويتبين الكاذب بنكوصه وشحه بنفسه وماله وينهزم أعداء الله وهم يرون أن لدين الله من ينصره في الأرض من البشر لا مجرد القضاء الكوني الذي أيد الله به أولياءه قال تعالى: ﴿ولو يشاء الله لانتصر منهم، ولكن ليبلو بعضكم ببعضٍ، والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يضلَّ أعمالهم * سيهديهم ويُصْلِحُ بالَهم * ويدخلُهم الجنةَ عرَّفها لهم * يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تُتركوا ولمَّا يعلمِ الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنينَ وليجَةً، والله خبيرٌ بما تعملون﴾[2].

فإذا ما أبطأ نصر الله سبحانه عن عباده فإن ذلك يدل على عدم استكمالهم شرائط نصره التي لا يستحقونه بدونها، وهي تتلخص في قوة الإيمان والتجرد الكامل لله تعالى وإعداد العدة المستطاعة للجهاد في سبيل الله، وصفاء الصف الإسلامي من عناصر الفساد، وسيأتي الكلام على هذه الأمور في هذا الفصل وفي غيره من الفصول القادمة إن شاء الله.

---

(١) محمد: ٤ ـ ٧. (٢) التوبة: ١٦.

وهناك حكمة أخرى في عدم نصر أهل الحق دائماً مضافة إلى هذه قال ابن القيِّم رحمه الله: (ومنها ـ أي من حكم وقعة أحد ـ أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة ويدال عليهم أخرى لكن يكون لهم العاقبة فإنهم لو انتصروا دائماً دخل معهم المسلمون وغيرهم ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انتصروا عليهم دائماً لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة فاقتضت حكمة الله أنْ جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاؤوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة)[١].

وقال سيد قطب رحمه الله: (لقد كتب الله على نفسه النصر لأوليائه وحملة رايته وأصحاب عقيدته، ولكنه علق هذا النصر بكمال حقيقة الإيمان في قلوبهم وباستيفاء مقتضيات الإيمان في تنظيم سلوكهم وباستكمال العدة التي في طاقتهم وببذل الجهد الذي في وسعهم فهذه سنة الله وسنة الله لا تحابي أحداً. فأما حين يقصرون في أحد هذه الأمور فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير فإن كونهم مسلمين لا يقتضي خرق السنن لهم وإبطال الناموس فإنما هم مسلمون لأنهم يطبقون حياتهم كلها على السنن ويصطلحون بفطرتهم كلها مع الناموس)[٢].

فأما إذا تخلف النصر عن طائفة تنتسب إلى الإسلام ولم تكن لها العاقبة فإن الأمر إذن يختلف. لأنها تتسمى باسم الإسلام واسم الإيمان وهي تفقد معنى كل منهما أو لم تقم بتكليفاتهما ومقتضياتهما وهي بذلك لا تستحق نصر الله الذي وعد به المؤمنين من عباده لأنه عنى الإيمان الذي أراده والإسلام الذي ارتضاه لا الإيمان أو الإسلام اللذين تعارف عليهما كثير من الناس بعيداً عن مراد الله من الإيمان والإسلام، فحقيقة الإيمان في القرآن والسنة وعُرْف السلف الصالح، وكذلك حقيقة الإسلام غير حقيقتهما عند كثير من الناس والله سبحانه إنما علق الأحكام في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ على الإيمان والإسلام اللذين هما مراده لا ما اصطلح عليه فيهما كثير من الناس مما لا يوجد فيه مراد الله فوعد الله بالنصر للمؤمنين المراد به المؤمنون حقاً الذين قوي إيمانهم عقيدة وسلوكاً وصفات المؤمنين في القرآن الكريم والسنة المطهرة هي التي تميز المؤمنين حقاً من غيرهم مثل قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر اللهُ وجَلِتْ قلوبُهم، وإذا تُلِيَتْ عليهم

(١) زاد المعاد(٢ ـ ١١٠).

(٢) في ظلال القرآن (٤ ـ ٥١٣).

آياتُه زادتهم إيماناً، وعلى ربهم يتوكلون * الذين يُقيمون الصلاة ومما رزقناهم يُنفقون * أولئك هم المؤمنون حقّاً، لهم درجاتٌ عند ربهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿فلا وربِّك لا يُؤمنون حتى يحكِّموك فيما شَجَرَ بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرَجاً مما قَضَيْتَ ويسلِّموا تسليماً﴾[٣] وقوله: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً * ألَمْ تَرَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطَّاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به، ويريد الشيطانُ أن يُضلَّهم ضلالاً بعيداً * وإذا قيل لهم تعالَوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيتَ المنافقين يصدُّون عنك صدوداً﴾[٤] وقوله: ﴿الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يُقاتلون في سبيل الطَّاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إنَّ كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾[٥] وقوله: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غيرُ أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة، وكلاً وعد الله الحُسْنى وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾[٦] وقوله: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقومٍ يحبُّهم ويحبونه، أذلةٍ على المؤمنين، أعزَّة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء، والله واسعٌ عليمٌ * إنَّما وليُّكم الله ورسولُه والذين آمنوا، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاه وهم راكعون * ومن يتولَّ اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فإن حزبَ الله هم الغالبون﴾[٧] وقوله: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنةَ، يُقاتلون في سبيل الله فيَقْتُلون ويُقْتَلون، وَعْداً عليه حقاً في التوراةِ والإنجيل والقرآنِ، ومن

(١) الأنفال: ٢ ـ ٤.
(٢) الحجرات: ١٥.
(٣) النساء: ٦٥.
(٤) النساء: ٥٩ ـ ٦١.
(٥) النساء: ٧٦.
(٦) النساء: ٩٥.
(٧) المائدة: ٥٤ ـ ٥٦.

أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببَيْعكمُ الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم﴾[١] وقوله: ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسولُه أمراً أن يكون لهم الخِيَرةُ من أمرهم، ومن يَعْصِ الله ورسولَه فقد ضلَّ ضلالاً مُبيناً﴾[٢] وقوله: ﴿لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيَّدهم بُروح منه، ويُدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضي الله عنهم ورضوا عنه، أولئك حزبُ الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾[٣].

والذي يستعرض هذه الآيات ـ وهي قليل من كثير ـ يجد أن كثيراً من المنتسبين إلى الإسلام يدّعون الإيمان وهم عنه بعيدون. نعم قد يكون عند بعضهم الحد الأدنى الذي ينالون به الجنة ـ ولو بعد العذاب ـ كمن يخرجه الله من النار ممن في قلبه مثقال حبة من إيمان أو من يغفر الله له فيدخله الجنة دون عذاب، ولكن هذا شيء والإيمان الذي وعد الله عليه بالنصر شيء آخر.

فالذي لا يخاف الله ولا يزداد إيماناً بتلاوة آياته ولا يتوكل عليه أو يكون توكله عليه ضعيفاً يجعله يخاف غيره أكثر منه ولا يقيم الصلاة ولا ينفق من رزق الله لايكون ممن عناه الله بإطلاق المؤمن في القرآن والسنة فهو غير موعود بالنصر والذي ضعف إيمانه حتى وصل إلى الشك أو لم يجاهد بماله ونفسه في سبيل الله فهو غير صادق في إيمانه وليس ممن وعده الله بالنصر. والذي لا يحكّم كتاب الله وسنة رسوله في حياته أو وجد في نفسه حرجاً وضيقاً من حكم الله ولم ترض نفسه أن تسلم لحكم الله ليس هو المؤمن الذي وعده الله بالنصر والذي لم يطع الله ورسوله ولم يردّ ما تنازع فيه مع غيره إلى كتاب الله وسنة رسوله وأراد التحاكم إلى غير الله من الطواغيت وإذا دعي إلى حكم الله ورسوله صدّ عنها كيف يكون من المؤمنين الذين وعدهم الله بالنصر لا بل كيف يكون مؤمناً مجرد إيمان. والمؤمن القادر على الجهاد في سبيل الله بنفسه وماله فقعد لضعف إيمانه لا يكون أهلاً لنصر الله الموعود به.

---

(١) التوبة: ١١١.

(٢) الأحزاب: ٣٦.

(٣) المجادلة: ٢٢.

والذي يدعي الإيمان وهو يتكبر على عباد الله المؤمنين ويخضع لأعداء الله الكافرين ولا يحب الله ولا رسوله ـ وعلامة محبتهما طاعتهما وترك معصيتهما ـ ويقعد عن الجهاد في سبيل الله ويخاف لوم اللائمين أكثر من خوف الله ويوالي أعداء الله ويعادي أولياءه ولا يقيم صلاة ولا يؤتي زكاة لا يكون من حزب الله الذين وعدهم بالغلب. والذي لم يعقد صفقة البيع والشراء مع الله فيجاهد بنفسه وماله في سبيل الله ويقتل أو يقتل ليس هو من ذوي الفوز العظيم الذين وعدهم الله به والذي يواد من عصي الله وحاده وحاربه ليس من حزبه المفلحين وبهذا يتضح أن أكثر من يدعون الإيمان من هذه الأصناف التي تستحق الهزائم بدلاً من النصر لأنها لم تحقق الإيمان الذي أراده الله وإنما حققت ما يضاده وينافيه أو ينافي كماله الواجب وليس من حقها أن تطلب من الله ما وعد به غيرها مدعية أنها المعنية بالوعد.

قال ابن تيمية رحمه الله: (وإلا فكثير من الناس لا يصلون لا إلى اليقين ولا إلى الجهاد ولو شُكِّكوا لشكوا ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا وليسوا كفاراً ولا منافقين، بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه على الأهل والمال وهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة وإن ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبهم فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين وانتقلوا إلى نوع من النفاق وكذلك إذا تعين عليهم الجهاد ولم يجاهدوا كانوا من أهل الوعيد...).

إلى أن قال: (وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا أو أكثرهم إذا ابتلوا بالمحن التي يتضعضع فيها أهل الإيمان ينقص إيمانهم كثيراً وينافق أكثرهم أو كثير منهم ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالباً وقد رأينا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة، وإذا كانت العافية أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين وهم مؤمنون بالرسول باطناً وظاهراً لكن إيماناً لا يثبت على المحنة)[1].

وما ذكره ابن تيمية رحمه الله يوجد مثله وأعظم منه في كثير من المنتسبين إلى الإسلام في هذا الزمان وقد توالت عليهم الهزائم وهم يتعجبون ويستغربون

(١) الفتاوى (٧ ـ ٢٧١ ـ ٢٨١).

كيف لا ينصرهم الله على عدوهم الكافر وهم مؤمنون لأنهم لم يعرفوا حقيقة الإيمان التي أرادها الله وهم يفقدونها ومن ذلك أنه قد تعين عليهم الجهاد فلم يجاهدوا وهل يستحق النصر من فيه هذه الصفة السلبية فضلاً عن غيرها؟

هذا ولا بد من بيان أهم أسباب النصر التي إذا فقدت كان فقدها سبباً للهزيمة.

المبحث الأول

التجرد الكامل لله تعالى أو القتال لغرض آخر

إن من أهم عوامل النصر أن يكون المجاهدون متجردين في جهادهم لله سبحانه لا تتعلق نفوسهم بمغنم مادي ولا بجاه أو منصب، بل ولا بالنصر على الأعداء إلا لأن فيه إعلاء كلمة الله سبحانه، وإنما يكون قصدهم الحصول على رضا الله عنهم بالجهاد في سبيله وحده لتكون كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى تنفيذاً لأمر الله سبحانه بالإخلاص: ﴿وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصينَ له الدين حنفاءَ، ويقيموا الصلاة ويُؤتوا الزكاة، وذلك دينُ القيِّمة﴾[1] وعملاً بحث الرسول ﷺ على تصحيح النية لله تعالى في كل الأعمال الصالحة كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنية وإنما لامرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[2].

وحديث أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[3].

ولقد أنكر الله سبحانه على عباده المؤمنين أن تتعلق نفوسهم بشخص من

---

(١) البيِّنة: ٥.

(٢) البخاري رقم ٦٦٨٩ فتح الباري (١١ ـ ٥٧٢) ومسلم (٣ ـ ١٥١٥).

(٣) البخاري رقم ١٢٣ فتح الباري (١ ـ ٢٢٢) ومسلم (٣ ـ ١٥٢).

البشر، وهم يقاتلون، ولو كان ذلك الشخص هو رسول الله ﷺ ليكون تجردهم له تعالى كاملاً يقاتلون في سبيله سواء كان الرسول ﷺ حاضراً أم غائباً حياً أم ميتاً، لأنه إذا غاب فالله حاضر، وإذا مات فالله حي لا يموت والجهاد إنما هو في سبيله وحده قال تعالى: ﴿وما محمد إلاَّ رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرسل، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم؟ ومن ينقلب على عقبَيْه فلن يضرَّ الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين * وما كان لنفس أن تموت إلا بإذنِ الله كتاباً مؤجلاً، ومن يُرِدْ ثوابَ الدنيا نؤته منها، ومن يُرِدْ ثواب الآخرة نؤته منها، وسنجزي الشاكرين﴾(١).

وقال سيد قطب رحمه الله: (إن البشر إلى فناء، والعقيدة إلى بقاء، ومنهج الله للحياة مستقل في ذاته عن الذين يحملونه ويؤدونه إلى الناس من الرسل والدعاة على مدار التاريخ. والمسلم الذين يحب رسول الله ـ وكان الصحابة يحبونه الحب الذي لم تعرف له النفس البشرية في تاريخها كله نظيراً ـ هذا المسلم الذي يحب محمداً ذلك الحب مطلوب منه أن يفرق بين شخص محمد ﷺ والعقيدة التي أبلغها وتركها للناس من بعده باقية ممتدة وموصولة بالله الذي لا يموت. إن الدعوة أقدم من الداعية... وهي أكبر من الداعية وأبقى من الداعية. فدعاتها يجيئون ويذهبون وتبقى هي على الأجيال والقرون ويبقى أتباعها موصولين بمصدرها الأول الذي أرسل بها الرسل وهو باق سبحانه ويتوجه إليه المؤمنون وما يجوز أن ينقلب أحد منهم على عقبيه)(٢).

وتضعف نفس المؤمن، لأنه بشر، فتكره لقاء العدو وتميل إلى الحصول على الغنيمة دون لقاء في ساح القتال فيوجه الله ذلك المؤمن إلى أن يتجرد من إرادته ويتسامى إلى إرادة الله لرفع كلمته وإحقاق الحق وإبطال الباطل، كما قال تعالى: ﴿كما أخرجك ربُّك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون، يجادلونك في الحقِّ بعدما تبين كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون * وإذ يَعِدُكم الله إحدى الطائفتين أنَّها لكم، وتودُّون أنَّ غير ذات الشوكةِ تكون لكم، ويريد

(١) آل عمران: ١٤٤ ـ ١٤٥.
(٢) في ظلال القرآن (٤ ـ ٤٨٥).

الله أن يحقَّ الحق بكلماتِه ويقطعَ دابر الكافرين، ليحقَّ الحقَّ ويبطلَ الباطل ولو كره المجرمون﴾[١].

ونهى الله المؤمنين أن يضعفوا في طلب عدوهم معللاً ذلك بأنهم يشتركون في الألم الحاصل من القتال وبزيادة ينالها المؤمنون ولا ينالها عدوهم وهي ما يرجونه من الله، قال تعالى: ﴿ولا تَهنوا في ابتغاء القوم، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجُون، وكان الله عليماً حكيماً﴾[٢].

ولعل في ذكر الله سبحانه نصر المؤمنين ذكراً مستأنفاً بعد أن بين لهم أركان التجارة الرابحة التي ينالون بها الفوز العظيم ما يدل دلالة واضحة على هذا التجرد، إذ لم يجعل النصر الذي تحبه النفوس من ربح التجارة التي دلهم عليها، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تُنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون * يغفرْ لكم ذنوبَكم ويدخلكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، ومساكنَ طيبةً في جنات عَدْنٍ ذلك الفوزُ العظيمُ * وأخرى تحبُّونها نصرٌ من الله وفتح قريب، وبشِّر المؤمنين﴾[٣] وقد ذكر ابن جرير رحمه الله اختلاف أهل العربية في ذلك أهو معطوف على قوله هل أدلكم على تجارة أم هو مستأنف ورجَّح أنه مستأنف فقال: (والصواب من القول عندي القول الثاني وهو أنه معني به ولكم أخرى تحبونها) . . . إلى أن قال: (فمعنى الكلام إذا كان الأمر كما وصفت: هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ولكن خلة أخرى سوى ذلك في الدنيا تحبونها: نصر من الله وفتح قريب يجعله لكم)[٤]. وقد استهل ابن قدامة كتاب الجهاد بهذه الأحاديث منبهاً بها على الإخلاص لله والتجرد لإعلاء كلمته فقال: (روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسولي فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي

---

(١) الأنفال: ٥ ـ ٨.
(٢) النساء: ١٠٤.
(٣) الصف: ١٠ ـ ١٣.
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٨ ـ ٩٠).

خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة» متفق عليه. ولمسلم: «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم» وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لغدوة في سبل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها» رواه البخاري)(١).

وقال السرخسي: (ثم قال اغزوا باسم الله.. وبين أنه ينبغي لهم أن يقصدوا على اسم الله تعالى كما قال ﷺ: «كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أقطع قال: وفي سبيل الله أي ليكن خروجكم لابتغاء مرضاة الله تعالى، لا لطلب المال فالمجاهد ببذل نفسه وماله فإنما يربح على عمله إذا قصد به ابتغاء مرضاة الله تعالى فأما إذا كان قصده تحصيل المال فهو كرّة خاسرة)(٢).

فإذا ما أرادت طائفة من المسلمين نصر الله تعالى على أعدائهم فعليهم أن يربوا أفرادهم على الإخلاص لله والتجرد الكامل له لا ابتغاء مال ولا جاه ولا رئاسة وإلا فإنهم لا يكونون مجاهدين في سبيله حتى يستحقوا نصره الذي لا يمنحه إلا لمن هو أهله وإن الذي لا يتجرد له أجدر بالهزيمة من النصر.

وقد كان لتجرد الصحابة رضي الله عنهم في غزوة بدر، وفي غزوة الأحزاب مع قلتهم وقلة عددهم وكثرة عدوهم وكثرة عتاده ما كان من النصر الذي لا يخفى، وكان لإعجابهم بكثرتهم في غزوة حنين، وميل بعضهم إلى الغنائم في غزوة أحد ما كان من خسران وهزيمة. قال تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطنَ كثيرة، ويوم حُنَين إذ أعجبتكم كثرتكم، فلم تُغْنِ عنكم شيئاً، وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبَتْ، ثم ولَّيتم مدبرين﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ولقد صَدَقكم الله وعدَه إذ تَحُسُّونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعدما أراكم ما تُحِبُّون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾(٤).

قال سيد قطب رحمه الله: (إن معركة حنين التي يذكرها السياق هنا

---

(١) المغني (٩ ـ ١٩٦).
(٢) المبسوط (٩ ـ ٥).
(٣) التوبة: ٢٥.
(٤) آل عمران: ١٥٢.

ليعرض نتائج الانشغال عن الله والاعتماد على قوة غير قوته لتكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية حقيقة القوى التي تعتمد عليها كل عقيدة إن الكثرة العددية ليست بشيء إنما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة وإن الكثرة لتكون أحياناً سبباً في الهزيمة لأن بعض الداخلين فيها التائهين في غمارها ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التي ينساقون في تيارها تتزلزل أقدامهم وترتجف في ساعة الشدة فيشيعون الاضطراب والهزيمة في الصفوف فوق ما تخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون في توثيق صلتهم بالله انشغالاً بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر في الحياة. لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة لا بالزبد الذي يذهب جفاء ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح)[١].

(١) في ظلال القرآن (١٠ ـ ١٦١٨).

المبحث الثاني

قوة الصلة بالله أو ضعفها

إن طاعة الله سبحانه وتعالى هي الحصن الذي يقي العبد المطيع من سخط الله وعذابه في الدنيا والآخرة ويحقق له رضاه عنه سبحانه. وقد كثر الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله في الكتاب والسنة وما من رسول بعثه الله إلى قومه إلا أمرهم بعبادة الله وطاعته، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً﴾[1] فالطاعة هي دليل الإيمان الحق. وقال تعالى: ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فإن تولَّوا فإنما عليه ما حُمِّل وعليكم حُمِّلتم، وإن تطيعوه تهتدوا، وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾[2] فالطاعة سبب في الاهتداء واستمراره، والمعصية سبب في الضلال. وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، ولا تُبْطلوا أعمالكم﴾[3]. فالطاعة سبب في قبول الأعمال والمعصية سبب في بطلانها. وقال تعالى عن كل نبي دعا قومه: ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾[4].

ويبن سبحانه أن في طاعته وطاعة رسوله الفوز والنجاح ـ وفي معصية الله ورسوله الخسران ـ ، كما قال سبحانه: ﴿ومن يُطع اللهَ ورسولَه ويَخْشَ الله ويَتَّقْهِ فأولئك هم الفائزون﴾[5]. وقال: ﴿تلك حدود اللهَ ومن يُطع الله ورسولَه

(١) النساء: ٥٩.

(٢) النور: ٥٤.

(٣) محمد: ٣٣.

(٤) الشعراء: ١٠٨.

(٥) النور: ٥٢.

يدخلْه جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوزُ العَظيم، ومن يَعْصِ الله ورسولَه ويتعدَّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها، وله عذابٌ مهين﴾[١] وجعل سبحانه من أطاع الله ورسوله في زمرة صفوة خلقه فقال: ﴿ومن يُطِعِ الله والرسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ومن يُطِعِ الله ورسولَه فقد فاز فوزاً عظيماً﴾[٣].

والطاعة من صفات المؤمنين الذين وعدهم الله بالرحمة ـ وهم الذين وعدهم الله بالنصر على العدو ـ كما قال تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله إنَّ الله عزيزٌ حكيمٌ﴾[٤].

وكما أمر الله سبحانه بطاعته وطاعة رسوله وبين أن فيها الفوز العظيم والاهتداء والرحمة فقد نهى الله سبحانه عن طاعة غيره من أعدائه الذين يجب جهادهم لا طاعتهم، كما قال سبحانه: ﴿فلا تُطِعِ الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾[٥] وقال تعالى: ﴿يا أيها النبي اتَّقِ الله، ولا تُطِعِ الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً﴾[٦] وقال: ﴿ولا تُطِعِ الكافرين والمنافقين ودَعْ أذاهم، وتوكَّل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾[٧] وقال: ﴿فاصبْر لحكم ربِّك ولا تُطِعْ منهم آثماً أو كفوراً﴾[٨] وقال تعالى: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تُطِعْهما، وصاحبهما في الدنيا معروفاً، واتَّبِعْ سبيل من أناب إليّ، ثم إليَّ مرجعُكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾[٩] وأوضح سبحانه أن من أطاع أعداءه ضل عن صراطه المستقيم، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أُوتوا الكتاب يردُّوكم بعد إيمانكم كافرين﴾[١٠] وقال

(١) النساء: ١٣ ـ ١٤.
(٢) النساء: ٦٩.
(٣) الأحزاب: ٧١.
(٤) التوبة: ٧١.
(٥) الفرقان: ٥٢.
(٦) الأحزاب: ١.
(٧) الأحزاب: ٤٨.
(٨) الدهر: ٢٤.
(٩) لقمان: ١٥.
(١٠) آل عمران: ١٠٠.

تعالى: ﴿وإن تُطِعْ أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله، إن يتبعون إلا الظنَّ وإن هم إلاّ يخرصون﴾[١] وقال: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم، وإن أطعتموهم إنّكم لمشركون﴾[٢] وقال: ﴿يوم تقلَّب وجوهُهم في النار يقولون: يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا * وقالوا: ربَّنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلُّونا السبيلا﴾[٣].

وبعد أن أقام الله الحجة على عباده بأمرهم بطاعته ونهيهم عن معصيته رتب على ذلك جعل طاعته سبباً في رضاه عمن أطاعه ودفاعه عنه ومنحه النصر على أعدائه وجعل معصيته سبباً في سخطه على من عصاه وحرمه من تسديده وأنزل به مصائبه وجعله مهزوماً في الدنيا معذباً في الآخرة، وأوضح سبحانه أن مقياس طاعته تقديم ما يحبه هو على كل ما سواه من قرابة وأزواج وأموال وتجارة ومساكن وغيرها، كما قال سبحانه: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وأموالٌ اقترفتموها، وتجارةٌ تخشون كسادها، ومساكنُ ترضَوْنها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله؛ فتربَّصوا حتى يأتي الله بأمره، إنَّ الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[٤].

وقد تنوعت أساليب الآيات القرآنية التي بين فيها نصره سبحانه للمؤمنين: فمنها ما ذكر فيها فلاحهم الشامل للدنيا والآخرة: مثل قوله سبحانه: ﴿ألم * ذلك الكتاب لا ريْبَ فيه هُدَى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم يُنفقون * والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هُدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾[٥].

وقوله: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ إلى قوله: ﴿أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾[٦] وفي معنى ذلك ذكر تعالى أنه مع من أطاعه مثل قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع

---

(١) الأنعام: ١١٦.
(٢) الأنعام: ١٢١.
(٣) الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٧.
(٤) التوبة: ٢٤.
(٥) البقرة: ١ ـ ٥.
(٦) المؤمنون: ١ ـ ١١.

الصابرين﴾[١] وقوله: ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وأحسنوا إنَّ الله يحب المحسنين﴾[٢] ومن كان الله معه وأحبه فإنه لا بد ناصره.

ومنها ما هو صريح في النصر على الأعداء في ساح القتال أو كالصريح مثل قوله سبحانه: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوّان كفور * أُذِنَ للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقَديرٌ * الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنا الله، ولولا دَفْعُ الله الناس بعضهم ببعض لَهُدِّمت صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذْكَر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرنَّ الله من ينصره إن الله لقويٌّ عزيز * الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة، وآتَوُا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبةُ الأمور﴾[٣].

وقوله: ﴿الشهرُ الحرام بالشهر الحرام، والحرماتُ قصاص، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتّقوا الله واعلموا أنَّ الله مع المتقين﴾[٤] وقوله سبحانه: ﴿إن تمسَسْكم حسنةٌ تسُؤْهم، وإن تُصْبكم سيئة يفرحوا بها، وإن تصبروا وتتّقوا لا يضركم كيدُهم شيئاً، إنَّ الله بما يعملون محيط﴾[٥].

وهذه الآية جامعة شاملة لأسباب النصر كلها التي تتفرع عن الركنين المذكورين فيهما، وهما: الصبر والتقوى.

ومن الطاعة ذكر الله سبحانه الذي يترتب عليه الفلاح وقد أمر الله به المؤمنين مع الثبات والطاعة واصفاً إياه بالكثرة في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكر الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾[٦] لأن ذكر الله سبحانه يزود المؤمن بالطمأنينة والاعتماد عليه والثقة بنصره والاستهانة بقوة أعدائه مهما كانت ويزيد الذاكر إخلاصاً وتجرداً يتنزل على صاحبهما نصر الله.

قال سيد قطب رحمه الله: (إن ذكر الله عند لقاء العدو يؤدي وظائف شتى

(١) البقرة: ٥٣.
(٢) البقرة: ١٩٥.
(٣) الحج: ٣٨ ـ ٤١.
(٤) البقرة: ١٩٤.
(٥) آل عمران: ١٢٠.
(٦) الأنفال: ٤٥.

إنه الاتصال بالقوة التي لا تغلب والثقة بالله الذي نصر أولياءه وهو في الوقت ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها فهي معركة لله لتقرير ألوهيته في الأرض وطرد الطواغيت المغتصبة لهذه الألوهية، وإذن فهي معركة لتكون كلمة الله هي العليا لا للسيطرة ولا للمغنم ولا للاستعلاء الشخصي أو القومي، كما إنه توكيد لهذا الواجب ـ واجب ذكر الله ـ في أحرج الساعات وأشد المواقف، وكلها إيحاءات ذات قيمة في المعركة يحققها هذا التعليم الرباني)[١].

ومن طاعته سبحانه اللجوء إليه بالدعاء والتضرع وإظهار الفقر إليه وقد نوَّه الله بذلك فقال: ﴿إذ تستغيثون ربَّكم فاستجاب لكم أنِّي مُمدُّكم بألفٍ من الملائكة مُرْدِفِين، وما جعله الله إلاّ بُشْرى ولتطمئن به قلوبُكم، وما النصرُ إلا من عند الله، إنَّ الله عزيزٌ حكيمٌ﴾[٢].

ولقد كان ﷺ شديد الإلحاح على ربه في الدعاء لا سيما عندما تشتد الكربة ويعظم الأمر حرصاً منه على نصر الله لعباده لتعلو كلمته وتعم عبادته الأرض كما في حديث ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر ـ وهو الذي نزلت فيه الآية المذكورة آنفاً ـ : «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك فخرج وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر»[٣]. وفي حديث عبدالله بن أبي أوفى كتب إلى عمر بن عبيد الله حين خرج إلى الحرورية: إن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس ثم قام في الناس فقال: «يا أيها الناس لا تمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا» ثم قال: «اللهمَّ منزِّل الكتاب ومُجريَ السحاب وهازمَ الأحزاب اهزْمهم وانصرنا عليهم»[٤].

ولقد اتخذه أصحابه رضي الله عنهم أسوتهم في معاركهم فكانوا يلجأون إلى الله ملحين عليه في الدعاء طالبين نصره على عدوهم بزلزلة أقدامهم ورعب

---

(١) في ظلال القرآن (١٠ ـ ١٥٢٨).
(٢) الأنفال: ٩ ـ ١٠.
(٣) البخاري رقم الحديث: ٣٩٥٣. فتح الباري (٧ ـ ٢٨٧)
(٤) متفق عليه وهو في اللؤلؤ والمرجان. (٢ ـ ٤٣٨).

قلوبهم وتثبت أقدام المؤمنين وإنزال سكينته عليهم وتوفيقهم للزوم طاعته وتقواه كما حصل من معاذ بن جبل يوم اليرموك: (وجعل معاذ بن جبل كلما سمع أصوات القسيسين والرهبان يقول: اللهم زلزل أقدامهم وارعب قلوبهم، وأنزل علينا السكينة وألزمنا كلمة التقوى، وحبب إلينا اللقاء وأرضنا بالقضاء)[١].

وإذا تأملت النصوص المتقدمة وجدت أن الله سبحانه وتعالى أمر عباده بالثبات عند اللقاء وأمر الرسول ﷺ به أصحابه بصفة الصبر الذي لا يكون الثبات بدونه والثبات ـ وقد أمر الله به ـ من طاعته وهو من أهم عوامل النصر وقد كان الرسول ﷺ أكثر الناس ثباتاً عندما تزلزل الأقدام وتطير القلوب وينكشف الناس كما حصل في غزوة أحد وغزوة حنين وكذلك خلص أصحابه رضي الله عنهم والجيش الذي يكون أكثر ثباتاً يكون أولى بالنصر من غيره. قال سيد قطب رحمه الله: (فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر، فأثبتُ الفريقين أغلبهما وما يدري الذين آمنوا أن عدوهم يعاني أشد مما يعانون وأنه يألم كما يألمون ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون فلا مدد له من رجاء في الله يثبت أقدامه وقلبه وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى فسينخذل عدوهم وينهار. وما الذي يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسنين: الشهادة أو النصر بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا، وهو حريص على هذه الحياة التي لا أمل له وراءها ولا حياة له بعدها ولا حياة له سواها)[٢].

والخلاصة إن الجيش الذي تربى قادته وأفراده على طاعة الله سبحانه جيش موعود بالنصر من الله جدير بأن يفي الله له بوعده. وما وجد هذا الجيش الذي تربى تلك التربية إلا كان الغالب وأعداؤه المغلوبين. سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً. والذي يتأمل التاريخ البشرى يجد مصداق ذلك واضحاً جلياً. فعند ما يبذل عباد الله قلوا أو كثروا جهدهم في إبلاغ دين الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإعداد العدة المستطاعة فينصرهم الله على عدوهم قل عدده أم كثر إما مباشرة من عنده بدون سبب مادي كما فعل سبحانه بكثير من الأمم التي

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٧ ـ ١١).
(٢) في ظلال القرآن(١٠ ـ ١٥٢٨).

حاربت أنبياءها، كعاد وثمود وإما بالأسباب المادية القليلة التي تقابل بها الفئة المؤمنة القليلة الجيوش المدججة الكثيرة كما في قصة طالوت وجالوت: ﴿كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله، والله مع الصابرين﴾[١] وكما في قصة غزوة بدر والأحزاب وغيرها. . .

قال السرخسي رحمه الله: (وإنما يوصيه ـ أي يوصي الأمير ـ بتقوى الله تعالى لأنه بالتقوى ينال النصرة والمدد من السماء قال الله تعالى: ﴿بلى إنْ تصبروا وتتَّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يُمْدِدْكم ربُّكم﴾[٢] وبالتقوى يجتمع للمرء مصالح المعاش والمعاد)[٣].

وقد أعطى الله لعباده المؤمنين حقاً هذا الوعد القاطع: ﴿ولن يجعلَ الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾[٤] وهو وعد من الله الذي لا أحد أوفى بوعده منه ولا أصدق حديثاً منه ولا أقدر على الوفاء بالوعد منه، فإذا جعل الله للكافرين على من يدعي الإيمان سبيلاً فعليه أن يفتش عن عيوب نفسه وضعف إيمانه وبعده عن رضا الله الذي لا يمنح الله نصره من فقده، وفرق بعيد بين من عنده حقيقة الإيمان الذي يجعل حياته ومماته لله وبين من يدعيه وهو يفقد حقيقته ولو أدى بعض مظاهره. قال سيد قطب رحمه الله: (غير أنه يجب أن يفرق بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان. إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة ثبوت النواميس الكونية ذات أثر في النفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيلة حين تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحدودة أن تقهرها ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهر فإن حقيقة الكفر تغلبه إذا هي صدقت مع طبيعتها وعملت في مجالها لأن حقيقة أي شيء أقوى من مظهر أي شيء ولو كانت هي حقيقة الكفر وكان هو مظهر الإيمان)[٥] نعم من ادعى الإيمان، وواجه عدوه فهزمه هذا العدو فلا يسأل لماذا لم ينصره الله ـ لأنه لو كان أهلاً للنصر لنصره ـ ولكن ليسأل نفسه ماذا عملت وليراجع إيمانه فسيجد في نفسه

---

(١) البقرة: ٢٤٩.
(٢) آل عمران: ١٢٥.
(٣) المبسوط (١٠ ـ ٤).
(٤) النساء: ١٤١.
(٥) في ظلال القرآن (٥ ـ ٧٨٣).

الخلل وفي إيمانه الضعف وأن ما أصابه كان بما كسبت نفسه ولقد كان هذا ما تلقاه أصحاب رسول الله ﷺ ـ وهو بين ظهرانيهم ـ عندما خالفت طائفة منهم أمره ﷺ إذ عاقبهم على عصيانهم فانتزع النصر منهم وقد شاهدوه بأعينهم وأصابهم بما لم يكن في حسبانهم فقتل منهم سبعون منهم حمزة عم رسول الله ﷺ وشج رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته وتفرق أصحابه تفرقاً منكراً ليبتليهم الله بذلك وليلقنهم درساً لا ينسونه بأن المعصية مهما كانت صغيرة في أذهانهم ـ لا تؤمن عواقبها ولو كان مرتكبها صحابياً ولو كان مجتهداً أو لو كان في صف فيه رسول الله ﷺ فكيف بغير الصحابة وكيف بغير الرسول ﷺ. قال تعالى: ﴿ولقد صدقَكم الله وعدَه، إذ تَحُسُّونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تُحبُّون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليَكم، ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المؤمنين﴾(١).

ولقد دهش أصحاب رسول الله ﷺ من إدالة الكافرين عليهم وبينهم رسول الله ﷺ ولم ينتبهوا لخطر المعصية التي حصلت من بعضهم فتساءلوا كيف يديل الله علينا أعداءه فأجابهم الله عز وجل على ذلك جواباً قاطعاً مقنعاً لهم ولمن أتى بعدهم بأن سبب الهزائم التي تقع على من ادعى الإيمان آت من عند نفسه وأن الله تعالى لم يخلف وعده، لأنه وَعَدَ المؤمن الملتزم بطاعته لا الذي يعصيه في وقت هو أحوج الناس إلى قوة الاتصال به واللجوء إليه، فقال تعالى: ﴿أَوَ لَمَّا أصابتكم مصيبةٌ قد أصبتم مثليها قلتم أنَّى هذا؟ قل: هو من عند أنفسكم، إنَّ الله على كل شيءٍ قديرٍ﴾(٢).

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة وأمّر عليهم عبد الله وقال: «لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا». فلما لقينا هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة فقال عبدالله: عَهِدَ إليّ النبي ﷺ ألا

---

(١) آل عمران: ١٥٢.
(٢) آل عمران: ١٦٥.

تبرحوا فأبوا فلما أبوا صُرِفَ وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً، وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «لا تجيبوه»، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: «لا تجيبوه». فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟، فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك، قال أبوسفيان: أعل هبل، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه» قالوا: ما نقول: قال: «قولوا: الله أعلى وأجل». قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه» قالوا: مانقول قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم» قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال، وتجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤني)[١].

تأمل قوله: (فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلًا) وكيف أصبح المهزوم ـ وهو كافر ـ منتصراً على المؤمنين بسبب معصية بعضهم، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (وفيه شؤم ارتكاب النهي وأنه يعم ضرره من لم يقع منه، كما قال تعالى: ﴿واتَّقوا فتنةً لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾[٢] وأن من آثر دنياه أضر بأمر آخرته ولم تحصل له دنياه)[٣].

وقال ابن القيم رحمه الله: (ثم أخبرهم أنه صدقهم وعده في النصرة على عدوه وهو الصادق الوعد، وأنهم لو استمروا على الطاعة ولزوم أمر الرسول لاستمرت نصرتهم ولكن انخلعوا عن الطاعة وفارقوا مركزهم فانخلعوا عن عصمة الطاعة ففارقتهم النصرة فصرفهم عن عدوهم عقوبة وابتلاء وتعريفاً لهم بسوء عواقب المعصية وحسن عاقبة الطاعة)[٤].

وقال سيد قطب رحمه الله: (إنها معركة لله فلا ينصر الله فيها إلا من خلصت نفوسهم له وما داموا يرفعون راية الله وينتسبون إليها فإن الله لا يمنحهم النصر إلاَ إذا محصهم ومحضهم للراية التي رفعوها كيلا يكون هناك غش ولا

---

(١) البخاري رقم الحديث: ٤٠٤٣، فتح الباري (٧ ـ ٣٤٩).
(٢) الأنفال: ٢٥.
(٣) الفتح (٧ ـ ٣٥٣).
(٤) زاد المعاد (١٢ ـ ١١٤).

دَخَل ولا تمويه بالراية ولقد يغلب المبطلون الذين يرفعون راية الباطل صريحة في بعض المعارك لحكمة يعلمها الله. أما الذين يرفعون راية العقيدة ولا يخلصون لها إخلاص التجرد فلا يمنحهم الله النصر أبداً حتى يبتليهم فيتمحصوا ويمحضوا)[١].

ولقد وقر هذا المعنى ـ أن الطاعة المطلقة لله هي أساس النصر، وأن معصيته هي سبب الهزيمة ـ في نفوس أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان فكان قادتهم يحرضون جندهم على طاعة الله ـ ومنها اجتماع الكلمة ـ والبعد عن معصية الله وأن الهزيمة لا تأتي من قلة وإنما من المعصية واقرأ هذا النص الذي تتضح فيه الثقة الكاملة بنصر الله لمن أطاعه والهزيمة لمن عصاه: (فكتب الأمراء إلى أبي بكر وعمر يعلمونهما بما وقع من الأمر العظيم ـ أي من كثرة جيوش الروم يوم اليرموك التي أربت على مائتي ألف، وقلة جيش المسلمين الذي بلغ أربعة وعشرين ألفاً ـ فكتب إليهم: أن اجتمعوا وكونوا جنداً واحداً والقوا جنود المشركين فأنتم أنصار الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ولن يؤتى مثلكم عن قلة ولكن من تلقاء الذنوب فاحترسوا منها وليصل كل رجل منكم بأصحابه)[٢].

لا بل إن أعداء الإسلام قد أدركوا سر انتصار العدد القليل من حزب الله المؤمنين، مع قلة العتاد، على الأعداد الهائلة ذات القوة العظيمة من حزب الشيطان الكافرين، وهو أن حزب الله ملتزم طاعة الله وحزب الشيطان مصر على الكفر والعصيان، وفي النص الآتي ما يوضح ذلك تمام الإيضاح: (كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فواق ناقة عند اللقاء فقال هرقل، وهو على أنطاكية لما قدمت منهزمة الروم: ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشراً مثلكم؟ قالوا: بلى. قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن. قال فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمرون

---

(١) في ظلال القرآن (٤ ـ ٤٩٣).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٧ ـ ٥).

بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم[١]. ومن أجل أنّا نشرب الخمر ونزني ونركب الحرام وننقض العهد ونغصب ونظلم ونأمر بالسخط وننهى عما يرضي الله ونفسد في الأرض. فقال: أنت صدقتني)[٢].

نعم عرف السلف الصالح سر انتصارهم فعضوا عليه بالنواجذ فنصرهم الله، وعرف أعداء الإسلام هذا السر فخططوا تخطيطاً دقيقاً لانتزاعه من المسلمين فنجحوا في ذلك بأساليب شتى فابتعد المسلمون عن دينهم وعصوا ربهم فهزمهم الله وأذلهم وصاروا إلى ما صاروا إليه حتى أصبح أئمة الفساد ودعاة الانحلال والعبث وأتباعهم هم الكثرة الغالبة في الشعوب الإسلامية، وما لم يعودوا إلى صراط الله المستقيم ويقوّوا إيمانهم ويطيعوا ربهم ويتركوا معصيته فإنهم سيبقون على ذلهم الذي ألفوه وما لم يفق قادتهم من غفلتهم فيحيوا في نفوس شعوبهم روح الإيمان وحب الطاعة وكراهة المعصية ويربطوهم بالقرآن بدل الأغاني الخليعة وبالفتوة بدل الرقص والمجون فإن نقمة الله ستبقى جاثمة على صدورهم وعلى قادة جيوش الشعوب الإسلامية أن يقتدوا بالسلف الصالح في تربية جيوشهم على قراءة سورة الأنفال والتوبة وآيات الجهاد الأخرى في سورة البقرة وآل عمران والنساء والأحزاب ومحمد والفتح والحشر أو يكثرون من قراءتها عليهم: (وقاصهم الذي يعظهم ويحثهم على القتال أبو سفيان بن حرب، وقارئهم الذي يدور على الناس فيقرأ سورة الأنفال وآيات الجهاد المقداد بن الأسود)[٣] بدلاً من تربيتهم على المعاصي والفسوق والعصيان وعبادة الطواغيت وظلم المؤمنين وقتل الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر كما كانت بنو إسرائيل تفعل بأنبياء الله ورسله ودعاة الإيمان، وها هو أحد دعاة الإسلام يحذر أمته من مغبة هذا الصنيع قبل أن يسيل الطغاة دمه فعاقبهم الله بتسليط أرذل خلق الله وأذلهم وأقلهم عدداً في الأرض وهم بنو إسرائيل الذين زاد أعداء الإسلام من المسلمين عليهم في الجرم والظلم والطغيان وهل يتوقع قتلة الدعاة إلى الله إلا عذاب الله وحبوط أعمالهم في الدنيا والآخرة ومن عذاب الدنيا ذلهم وهوانهم كما

---

(١) التناصف هنا إما أن يكون المراد به تعاونهم على العدالة أي كل منهم ينصف الآخر ويعطيه حقه أو أن بعضهم يخدم بعضاً راجع لسان العرب مادة «نصف».

(٢) البداية والنهاية (٧ ـ ١٥). (٣) البداية والنهاية لابن كثير (٧ ـ ٨).

قال تعالى: ﴿إنَّ الذين يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيينَ بغير حقٍّ، ويقتلون الذين يأمرون بالقِسْط من الناس؛ فبشِّرهم بعذاب أليم * أولئك الذين حَبِطتْ أعمالُهم في الدنيا والآخرة، ومالهم من ناصرين﴾[١].

قال سيد قطب رحمه الله: (ولقد قصَّ الله على المسلمين من أنباء بني إسرائيل (أي في إخضاع الهداة والشرائع للهوى والنزوة المتقلبة) ما يحذرهم من الوقوع في مثله حتى لا تسلب منهم الخلافة في الأرض والأمانة التي ناطها بهم الله فلما وقعوا في مثل ما وقع فيه بنو إسرائيل وطرحوا منهج الله وشريعته وحكموا أهواءهم وشهواتهم وقتلوا فريقاً من الهداة وكذبوا فريقاً ضربهم الله بما ضرب به بني إسرائيل من قَبْلُ من الفرقة والضعف والذلة والهوان والشقاء والتعاسة)[٢].

(١) آل عمران: ٢١ - ٢٢.

(٢) في ظلال القرآن (١ - ٨٩).

المبحث الثالث

التوكل على الله أو الاعتماد على سواه

التوكل على الله معناه الاعتماد عليه وتفويض الأمور إليه والاستعانة به والإيمان بأنه إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون وأنه لا معطي لما منع ولا مانع لما أعطى وأنه لا يصيب أحداً إلا ما كتب الله له وأن جميع الخلق لا يقدرون على نفع أحد لم يرد الله نفعه ولا ضر أحد لم يرد الله ضره، ولا يتم إلا بمباشرة الأسباب التي جعلها الله كوناً أو شرعاً مؤدية إلى مسبباتها.

ولا يستغني عن التوكل على الله أحد من مخلوقاته العقلاء منهم وغير العقلاء المؤمنون منهم وغير المؤمنين، وأفضله وأشمله التوكل عليه والاستعانة به تعالى على لزوم طاعته واجتناب معصيته والدعوة إليه والجهاد في سبيله لإعلاء كلمته ونشر دينه وإقامة حكمه.

قال ابن القيِّم رحمه الله: (التوكل نصف الدين والنصف الثاني الإنابة، فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة، ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين لسعة متعلق التوكل وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل ووقوعه من المؤمنين والكفار والأبرار والفجار والطير والوحش والبهائم فأهل السموات والأرض ـ المكلفون وغيرهم ـ في مقام التوكل وإنْ تباين متعلق توكلهم، فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في الإيمان ونصرة دينه وإعلاء كلمته وجهاد أعدائه وفي محابه وتنفيذ أوامره ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه وحفظ حاله مع الله فارغاً عن الناس ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه من رزق أو عافية أو نصر على عدو، أو زوجة أو ولد ونحو ذلك... إلى أن قال: فأفضل التوكل: التوكل في الواجب ـ

عن واجب الحق وواجب الخلق وواجب النفس ـ وأوسعه وأنفعه التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم)[١].

وقد أمر الله بالتوكل عليه عباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وعلى الله فليتوكّل المؤمنون﴾[٢]. وقال: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾[٣] وقال: ﴿فتوكل على الله إنَّك على الحق المبين﴾[٤] وقال: ﴿وتوكل على الحيِّ الذي لا يموت﴾[٥] وقال: ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾[٦] وقال: ﴿فإذا عزمتَ فتوكل على الله﴾[٧]. وجعل سبحانه التوكل عليه وحده من أبرز صفات المؤمنين إيماناً حقاً، كما قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجِلَتْ قلوبهم، وإذا تُليت عليهم آياتُه زادتْهم إيماناً، وعلى ربِّهم يتوكلون﴾[٨].

وحث الله أمة محمد أن يقتدوا بنبيه إبراهيم ومن معه في موقفهم من أعدائهم من معاداتهم وتبريهم منهم حتى يؤمنوا بالله وحده وفي توكلهم عليه سبحانه كما قال: ﴿قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم والذين معه، إذ قالوا لقومهم إنا برءاءُ منكم وممَّا تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده، إلاَّ قولَ إبراهيمَ لأبيه لأستغفرنَّ لك، وما أملك لك من الله من شيء، ربَّنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾[٩].

وتحدى أنبياء الله قومهم متوكلين على ربهم، فهذا نوح عليه السلام يدعو قومه أن يجتمعوا هم وشركاؤهم لينزلوا به ضراً ولا يمهلوه في ذلك بعد إن أخبرهم بتوكله على ربه القادر على كل شيء كما قال تعالى: ﴿ واتْلُ عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه: يا قوم إنْ كان كَبُرَ عليكم مقامي وتذكيري بآياتِ الله

---

(١) مدارج السالكين (٢/١٣ ـ ١١٤).
(٢) آل عمران: ١٢٢.
(٣) المائدة: ٢٣.
(٤) النمل: ٧٩.
(٥) الفرقان: ٥٨.
(٦) الأحزاب: ٣.
(٧) آل عمران: ١٥٩.
(٨) الأنفال: ٢.
(٩) الممتحنة: ٤.

فعلى الله توكلتُ، فأجْمعوا أمرَكم وشركاءكم ثم لا يكنْ أمرُكم عليكم غُمّةً، ثم اقضُوا إليّ ولا تُنظرون﴾[١].

وذاك هود يقف أمام قومه مجتمعين متحدياً لهم كذلك بتوكله على ربه وحده: ﴿قال إني أشهد الله واشهدوا أنِّي بريءٌ ممّا تشركون من دونه، فكيدونِ جميعاً ثم لا تُنظرون * إني توكلتُ على الله ربي وربِّكم، ما من دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتها، إن ربي على صراطٍ مستقيمٍ﴾[٢].

وحكى الله عن جميع الأنبياء أنهم اعتصموا بالتوكل عليه في صراعهم مع قومهم الكافرين وهم مطمئنون صابرون، كما قال تعالى: ﴿قالت لهم رسلُهم إن نحن إلاَّ بشرٌ مثلكم، ولكنَّ الله يمنُّ على من يشاء من عباده، وما كان لنا أن نأتيَكم بسلطانٍ إلا بإذن الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون * وما لنا ألاَّ نتوكل على الله وقد هدانا سُبُلَنا، وَلَنَصْبرنَّ على ما آذيتمونا، وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾[٣]. ويبلغ أمة محمد ﷺ معه قمة التوكل والاستهانة بقوة أعداء الله مهما بلغت كما قال سبحانه: ﴿الذين قال لهم الناسُ إنَّ الناسَ قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً وقالوا: حَسْبُنا الله ونعْم الوكيلُ﴾[٤].

وقد كان الرسول ﷺ يربي أصحابه على التوكل على الله وعدم الاعتماد على سواه، وكان ينشىء على ذلك صغارهم وتنشئة الصغير على صفة من الصفات تثبت في نفسه أكثر من ثباتها في نفس الكبير في الغالب. ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال لي: «يا غلام أني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فأسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»)[٥].

---

(١) يونس: ٧١.
(٢) هود: ٥٤ ـ ٥٦.
(٣) إبراهيم: ١١ ـ ١٢.
(٤) آل عمرن: ٦٣.
(٥) الترمذي رقم ٢٦٣٥ تحفة الأحوذي (٧ ـ ٢١٩) وقال الترمذي حديث حسن صحيح وراجع جامع العلوم والحكم لابن رجب ص: ١٦٠.

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطاناً»(١).

ولقد شهد التاريخ بأحداثه الواقعة أن المؤمنين المتوكلين على الله تعالى منصورون على أعدائهم، وإن ابتلوا ابتلاء يمحصهم الله به فإن العاقبة لهم حتماً وأن أعداء الله مهما كثروا واشتدت قوتهم وتضافروا على أولياء الله فإنهم مهزومون. وقد أنكر الله على من وقف ضد دعوة الرسول ﷺ عدم اعتبارهم بالأمم الماضية المكذبة ـ وقد كانت أشد قوة منهم ـ التي أخذها أخذ عزيز مقتدر نصراً لأوليائه عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين كانوا من قبلهم، كانوا هم أشدَّ منهم قوة وآثاراً في الأرض، فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واقٍ * ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلُهم بالبيِّنات فكفروا، فأخذهم الله إنه قويٌ شديدُ العقاب﴾(٢).

وأمر الله نبيه ﷺ أن ينذر قومه عقاب الأمم المكذبة التي اغترت بقوتها وأظهرت تحديها لرسلها الذين كانوا يستندون إلى قوة الخالق سبحانه كما قال تعالى: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتُكم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمودٍ * إذ جاءتهم الرسلُ من بين أيديهم ومن خَلْفهم ألاَّ تعبدوا إلا الله، قالوا لو شاء ربُّنا لأنزل ملائكةً، فإنا بما أُرسلتم به كافرون * فأمّا عادٌ فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا: من أشدُّ منا قوة؟ أَوَلَمْ يَروا أنَّ الله الذي خلقهم أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون * فأرسلنا عليهم ريحاً صَرْصَراً في أيام نَحِسَات لنذيقهم عذاب الخِزْيِ في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أَخْزَى وهم لا يُنصرون﴾(٣).

وقال عن قوم نوح الذي تحداهم بتوكله على الله ـ كما مضى ـ: ﴿فنجَّيناه ومن معه في الفُلْك، وجعلناهم خلائفَ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتِنا، فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين﴾(٤) وقال عن فرعون: ﴿إنَّ فرعون عَلَا في

---

(١) الترمذي رقم الحديث ٢٤٤٧ تحفة الأحوذي (٧ ـ ٨) وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه وراجع جامع العلوم والحكم ص: ٣٧٩.

(٢) غافر: ٢١ ـ ٢٢.

(٣) فصلت: ١٣ ـ ١٦.

(٤) يونس: ٧٣.

الأرض وجعل أهلها شِيَعاً، يستضعف طائفة منهم يُذبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم، إنه كان من المفسدين * ونُريد أنْ نَمُنَّ على الذين استُضعفوا في الأرضِ ونجعلهم أئمةً ونجعلَهم الوارثين * ونمكِّن لهم في الأرض ونُريَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون﴾(١)

وعندما تخلو الأرض من مؤمنين يدافعون عن حرماته في الأرض ـ وسوف لا تخلو الأرض بعد بعثة الرسول ﷺ من مؤمنين يدافعون عن دينه ويسعون لإعلاء كلمته وإن اختلفت درجة الدفاع والسعي أو اختلفوا في القلة والكثرة ـ فإن الله ينزل بأعداء الله المعتدين على تلك الحرمات ما يشتت شملهم ويمزقهم شر ممزق، وما قصة أصحاب الفيل بخافية قال تعالى: ﴿ألَمْ تَرَ كيف فعل ربك بأصحابِ الفيل * ألَمْ يَجْعَلْ كيدَهم في تضليل * وأرسلَ عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سِجِّيل * فجعلهم كَعَصْفٍ مأكول﴾(٢).

وذكر الله أصحاب نبيه ﷺ بنصر الله لنبيه ودفعه عنه وقد كان في الغار وحيداً إلا من صاحبه أبي بكر وقريش تحترق لفقدهما وتغري من يأتي بهما حين أو ميتين بأموال كثيرة وكانوا يصلون إلى فم الغار ويعمي الله أبصارهم عنهما ولو تمكنوا من القبض عليهما لشفوا غلهم من رسول الله ﷺ وصاحبه اللذين لم يكن معهما إلا الله تعالى، ذكّر الله تعالى أصحاب نبيه في المدينة بعد أن قويت شوكتهم بهذه الحادثة التي كان فيها مع نبيه وصاحبه فنصره وأيده وأنهم إن لم ينصروه فهو معه وناصره أيضاً، قال تعالى: ﴿إلاَّ تنصروه فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه: لا تَحْزَنْ إنّ الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه، وأيَّده بجنودٍ لم تَرَوها، وجعل كلمةَ الذين كفروا السُّفْلى، وكلمةُ الله هي العليا، والله عزيزٌ حكيم﴾(٣).

وفي غزوة بدر كان تدبير الله لعباده المؤمنين ضد أعدائه الكافرين قبل المعركة وفي أثنائها وبعدها ما لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ يتوقعونه من نصره وتأييده، فما كانوا يريدون لقاء العدو أولاً وإنما كانوا يريدون العير ولكن الله أراد

---

(١) القصص: ٤ ـ ٦.
(٢) سورة الفيل.
(٣) التوبة: ٤٠.

لهم ذات الشوكة لكسرها وقطع دابر الكافرين وكان العدد والعدة أكبر من طاقتهم فاستغاثوا ربهم فأغاثهم وأشرك معهم في المعركة ملائكته، وطمأنهم مع ذلك بالنعاس وإنزال المطر وثبت قلوبهم وألقى الرعب في قلوب أعدائهم، قال تعالى: ﴿إذ تستغيثون ربَّكم فاستجاب لم أني ممدكم بألف من الملائكة مُرْدِفين * وما جعله الله إلا بُشْرى ولتطمئن به قلوبُكم وما النصرُ إلا من عند الله إن الله عزيزٌ حكيمٌ * إذ يُغشّيكم النعاسَ أَمَنَةً منه، وينزِّل عليكم من السماء ماء ليطهِّركم به، ويذهب عنكم رجز الشيطان، وليَرْبِط على قلوبكم ويثبتَ به الأقدام * إذ يُوحي ربك إلى الملائكة: أني معكم فثبِّتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بَنان * ذلك بأنهم شاقُّوا الله ورسوله، ومن يُشاقِقِ اللهَ ورسولَه فإن الله شديد العقاب * ذلكم فذوقوه وأنَّ للكافرين عذابَ النار﴾[1].

وفي غزوة بني النضير ذكَّر الله أصحاب محمد ﷺ بنعمته عليهم وبقدرته الكاملة وملكه المطلق إذ أنزل الرعب في قلوب أعدائهم فخرجوا من ديارهم وما كان المسلمون يظنون أنهم يخرجون منها وكذلك اليهود ما كانوا يظنون أن يخرجوا لتحصنهم فيها ومناعتها ولكن الله أرعبهم فخرجوا وخربوا بيوتهم بأيديهم مع المؤمنين، قال تعالى: ﴿ سبَّح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم * هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنَّهم مانِعَتُهم حصونُهم من الله، فأتاهم الله مِنْ حيثُ لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب، يُخْرِبون بيوتَهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾[2].

وفي عقب غزوة أحد وجروح المسلمين تسيل وشهداؤهم يدفنون خوفهم أعداء الله بجموعهم فاستهانوا بهم متوكلين على الله فعادوا بفضل الله ونعمته ولم يصبهم سوء وذكرهم الله بأن الشيطان يخوفهم من أوليائه ونهاهم أن يخافوهم لأن المؤمن يجب أن يعتمد على ربه ولا يخاف سواه، قال تعالى: ﴿الذين قال لهم الناسُ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشَوهم، فزادهم إيماناً وقالوا: حسْبُنا الله

(١) الأنفال: ٩ ـ ١٤.
(٢) الحشر: ١ ـ ٢.

ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضل لم يَمْسَسهم سوء، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم * إنما ذلكم الشيطان يخوِّف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾(١). وفي غزوة الأحزاب التي تجمع أعداء الله فيها على الرسول ﷺ وأصحابه من داخل المدينة وخارجها من مكة ونجد ذكرهم الله بنعمته عليهم إذ نصرهم على أعدائهم بجنود وريح ورد الكافرين خاسرين وكفى المؤمنين القتال، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً * إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفلَ منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحناجرَ وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً﴾(٢).

وقال: ﴿وردَّ الله الذين كفروا بغَيْظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً﴾(٣).

وفي غزوة حنين أذاق الله المؤمنين شيئاً من عقابه لإعجابهم بكثرتهم وفي ذلك نقص في التوكل على الله، ثم ذكرهم بنصره لهم في مواطن كثيرة وبعد أن أعطاهم درساً يعيدهم به إلى جنابه والتوكل عليه لنصرهم على أعدائهم سبحانه، قال تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطنَ كثيرةٍ، ويوم حُنَيْنٍ إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً، وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبَت، ثم ولَّيتُم مدبرين * ثم أنزل الله سكينتَه على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تَرَوها، وعذَّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين * ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾(٤).

قال سيد قطب رحمه الله، وهو يتفيأ في ظلال سورة الأنفال ـ: (إن الموقعة ـ أي موقعة بدر ـ بظروفها التي صاحبتها تحمل بيِّنة لا تجحد وتدل دلالة لا تنكر على تدبير وراء تدبير البشر وعلى قوة وراءها غير قوة البشر إنها تثبت أن لهذا الدين رباً يتولى أصحابه متى أخلصوا له وجاهدوا في سبيله وثبتوا وأنه لو

---

(١) آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٥.
(٢) الأحزاب: ٩ ـ ١١.
(٣) الأحزاب: ٢٥.
(٤) التوبة: ٢٥ ـ ٢٧.

كان الأمر إلى القوى المادية الظاهرة ما هزم المشركون ولا انتصرت العصبة المسلمة هذا الانتصار العظيم، ولقد قال المشركون أنفسهم لحليفهم الذي أراد أن يمدهم بالرجال وهم ذاهبون للقتال: (فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم ولئن كنا إنما نقاتل الله ـ كما يزعم محمد ـ فما لأحد بالله من طاقة) ولقد علموا ـ لو كان العلم يجدي ـ أنهم إنما يقاتلون الله كما قال لهم محمد الصادق الأمين وأنه ما لأحد بالله من طاقة فإذا هلكوا بعد ذلك بالكفر فإنما يهلكون عن بينة.. ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة)[١].

هذا وإن على ضعاف الإيمان من قادة المسلمين الذين أصبح خوف أعداء الله في أنفسهم أكثر من خوف الله فقعدوا عن الجهاد في سبيل الله بل إن كثيراً منهم حارب الله ورسوله إرضاء لأعدائه وظناً منهم أنهم إذا اتخذوهم أولياء دامت سيطرتهم على البلاد والعباد، عليهم ـ أي على هؤلاء أن يعلموا أن أولياءهم الذين يتخذونهم من دون الله أوهى من بيت العنكبوت وإن الله وحده هو الذي يكفي من توكل عليه وأن العزة لله وحده يؤتيها من يشاء وأنه يعز من يشاء ويذل من يشاء ويؤتي ملكه من يشاء وينزعه ممن يشاء، ولعل في هذه الآيات التي تساق بدون تعليق عبرة لمن ضعف إيمانه ولم يتوكل على الله واتخذ من دونه أولياء. قال تعالى: ﴿مثلُ الذين اتَّخذوا من دون الله أولياءَ كمثل العنكبوتِ اتَّخذت بيتاً، وإنّ أوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوتِ لو كانـوا يعلمون﴾[٢]، ﴿يقولون: لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، ولله العِزَّةُ ولرسولِه وللمؤمنينَ، ولكنَّ المنافقين لا يعلمون﴾[٣] ﴿الذين يتّخذون الكافرينَ أولياء من دون المؤمنين، أيبتغون عندهم العزّة، فإنَّ العزّة لله جميعاً﴾[٤] ﴿أليسَ اللهُ بكافٍ عبدَه، ويخوِّفونك بالذين من دونه، ومن يُضْلِلِ الله فما له من هادٍ، ومن يَهْدِ الله فما له من مُضِلٍّ، أليسَ الله بعزيزٍ ذي انتقام﴾[٥] ﴿إنَّ الذين كفروا يُنفقون أموالهم ليصدُّوا عن سبيل الله، فسينفقـونهـا ثم تكون عليهم حسْرةً، ثم يُغْلَبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون * ليميزَ الله الخبيثَ من الطيب، ويجعلَ

---

(١) في ظلال القرآن (١٠ ـ ١٥٢٥).
(٢) العنكبوت: ٤١.
(٣) المنافقون: ٨.
(٤) النساء: ١٣٩.
(٥) الزمر: ٣٦ ـ ٣٧.

الخبيثَ بعضَه على بعض فيركُمَه جميعاً فيجعله في جهنم، أولئك هم الخاسرون * قُلْ للذين كفروا إنْ ينتهوا يُغْفَرْ لهم ما قد سَلَفَ، وأن يعودوا فقد مَضَتْ سُنَّةُ الأولين﴾[١] ﴿ألم تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالةَ ويريدون أن تَضِلُّوا السبيلَ، والله أعلم بأعدائكم، وكَفَى بالله وليّاً وكفى بالله نصيراً﴾[٢] ﴿قُلِ اللَّهُم مالكَ الملك، تُؤتي الملكَ من تشاء، وتَنْزِعُ الملكَ ممَّنْ تشاء، وتعزُّ من تشاء، وتذلُّ من تشاء، بيدك الخير، إنَّك على كل شيء قدير﴾[٣].

وإن مما يدل على التوكل على الله حسن الظن به، ومما يدل على عدمه سوء الظن به سبحانه وتعالى ـ ولا سيما وقت الشدة ـ ولهذا قال تعالى عن المؤمنين في غزوة الأحزاب: ﴿ولَمَّا رأى المؤمنون الأحزابَ قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسولُه، وصدق اللهُ ورسولُه، وما زادهم إلاَّ إيماناً وتسليماً﴾[٤]. وقال عن المنافقين: ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مَرَضٌ ما وعدنا اللهُ ورسولُه إلا غروراً﴾[٥]. وذكر تعالى أن المؤمنين يحسنون به الظن في كل الأحوال: حالة النصر وحالة الإدالة عليهم أو استشهاد أحد منهم: ﴿قُلْ لن يُصيبَنا إلاَّ ما كتب الله لنا، هو مولانا وعلى الله فَلْيتوكل المؤمنون * قُلْ هل تربَّصون بنا إلاَّ إحدى الحُسْنَيَيْنِ، ونحن نتربَّص بكم أن يصيبَكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا، فتربّصوا إنّا معكم متربصون﴾[٦].

وقال ابن القيم رحمه الله: (فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه وكذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن والتحقيق إن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ولا التوكل على من لا ترجوه. والله أعلم)[٧].

وقال سيد قطب رحمه الله: (وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات

---

(١) الأنفال: ٣٦ ـ ٣٨.
(٢) النساء: ٤٤ ـ ٤٥.
(٣) آل عمران: ٢٦.
(٤) الأحزاب: ٢٢.
(٥) الأحزاب: ١٢.
(٦) التوبة: ٥١ ـ ٥٢.
(٧) مدارج السالكين (٢ ـ ١٢١).

والمشركين والمشركات هي ظن السوء بالله، فالقلب المؤمن حسن الظن بربه يتوقع منه الخير في السراء والضراء، يؤمن بأن الله يريد به الخير في الحالين وسر ذلك أن قلبه موصول بالله وفيض الخير من الله لا ينقطع أبداً فمتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصيلة وأحسها إحساس مباشرة وتذوق، فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة بالله ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها فيسوء ظنهم بالله وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور ويبنون عليها أحكامهم ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين كلما كانت ظواهر الأمور توحي بهذا على غير ثقة بقدر الله وقدرته وتدبيره الخفي)[1].

بقي أن ينبَّه على خطأ منتشر بين قوم جهلوا حقيقة التوكل المشروع الذي صار عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم الذين قاموا بدين الله في الأرض ورفعوا راية الإسلام، هذا الخطأ هو ما فهمه بعض أدعياء التدين من أن التوكل على الله لا يصح أو لا يتم إلا باطراح الأسباب وعدم مباشرتها، وبنوا على ذلك قدحهم في الذين يباشرون تلك الأسباب، وهو خطأ فاحش بعيد عن دين الله وعن حقيقة التوكل على الله سبحانه. فالله سبحانه الذي أمر بالتوكل أمر بمباشرة الأسباب إلا أنه سبحانه نهى عن الركون إليها واعتقاد حتمية نتائجها بعيدة عن مشيئته سبحانه، بل على من يفعل السبب المشروع أن يعتمد على الله سبحانه في الحصول على نتيجته فإن الله قد يحول بين السبب والنتيجة وإن الإنسان ليبذل وسعه في سبب ما من الأسباب حتى يظن أنه قد وصل إلى هدفه فيفاجأ بالحرمان منه وقد يبذل جهده في سبب ما من الأسباب فيبدو له عدم ترتب نتيجته عليه فيفاجأ بحصول تلك النتيجة وهذا واقع مشاهد في كثير من الأمور.

وقد أمر الله سبحانه بإعداد العدة للكافرين ووعد بالنصر عباده المؤمنين وقد يعدون عدة كبيرة ويظنون أنهم منتصرون على عدوهم فيصابون بضد ما ظنوا لأمور أخرى يعلمها الله سبحانه منهم لا يكونون أهلاً لنصره مع وجودها وقد يكون عددهم قليلاً وعُددهم ضعيفة ولكنهم بذلوا جهدهم وأحسنوا الظن بالله

---

(١) في ظلال القرآن (٢٦ ـ ٣٣١٩).

وتوكلوا عليه فيحقق الله لهم من النصر ما لم يتوقعوه. وكان اتخاذ الأسباب من شأن أنبياء الله، فنوح صنع السفينة له ولقومه فنجاهم الله بها وكان قادراً على نجاتهم بدونها وداود صنع الدروع لاستعمالها في جهاده أعدائه والرسول ﷺ اتخذ الأسباب وأمر باتخاذها، وقال: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز...»[(١)]. وتأمل قوله سبحانه: ﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تُنفقوا من شيء في سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون﴾[(٢)] أمرهم بإعداد القوة التي فسرها الرسول ﷺ بالرمي وأسند إليهم الإرهاب لعدوهم الظاهر والخفي عليهم وفي آية أخرى أسند إليهم القتل الذي أمرهم به فقال: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾[(٣)]. وهذا من باب مباشرة الأسباب وإسناد الأفعال الظاهرة إلى من تعلقت به. وقد نفى سبحانه أن يكون المسلمون قتلوا المشركين وأن يكون الرسول ﷺ رمى فقال: ﴿فلم تقتلوهم ولكنَّ الله قتلهم، وما رَمَيْتَ إذ رَمَيْتَ ولكنّ الله رَمَى﴾[(٤)] ليبين لهم وجوب تسليم الأمر كله إليه وأن الأسباب التي باشروها لم تكن وحدها قادرة على إنشاء نتائجها بل هي خاضعة لمشيئة الله المطلقة هذا هو مفهوم التوكل لا تفريط فيه ولا إفراط، فلا يظن الإنسان أنه مستقل عن الله بالأسباب والنتائج ولا يظن أن ترك الأسباب المشروعة هو حقيقة التوكل، وما أجمل ما قاله ابن القيم في هذه المسألة: (فالتجرد من الأسباب جملةً ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً) إلى أن قال: (وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين يوم أحد... وأستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه يدله على طريق الهجرة وقد هدى الله به العالمين وعصمه من الناس أجمعين وكان يدخر لأهله قوت سنة وهو سيد المتوكلين وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد وجميع أصحابه وهم أولو التوكل حقاً وأكمل المتوكلين بعدهم هو من اشتم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة أو لحق أثراً من غبارهم. فحال النبي ﷺ وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها بها يعلم صحيحها من سقيمها فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من بعدهم فإن توكلهم كان

---

(١) مسلم (٤ - ٢٠٥٢).
(٢) الأنفال: ٦٠.
(٣) التوبة: ٥.
(٤) الأنفال: ١٧.

في فتح بصائر القلوب وأن يعبد الله في جميع البلاد وأن يوحده جميع العباد وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد فملأوا بذلك التوكل القلوب هدى وإيماناً، وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأتها يقيناً وإيماناً فكانت همم الصحابة رضي الله عنهم أعلى وأجلّ من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعي فيجعله نصب عينيه ويحمل عليه قوى توكله)[1].

وقال سيد قطب رحمه الله ـ مبيناً مفهوم التوكل الشرعي الذي يبذل صاحبه جهده بمباشرة الأسباب ويعتمد على الله في ترتيب النتائج عليها: (إن التصور الإسلامي يتم بالتوازن المطلق بين تقدير الفاعلية المطلقة لقدر الله سبحانه وتحقق هذا القدر في الحياة الإنسانية من خلال نشاط الإنسان وفاعليته وعمله. إن سنة الله تجري بترتيب النتائج على الأسباب ولكن الأسباب ليست هي التي تنشىء النتائج فالفاعل المؤثر هو الله والله يرتب النتائج على الأسباب بقدره ومشيئته، ومن ثم يطلب إلى الإنسان أن يؤدي واجبه وأن يبذل جهده وأن يفي بالتزاماته، وبقدر ما يوفي بذلك كله يرتب الله النتائج ويحققها. وهكذا تظل النتائج والعواقب متعلقة بمشيئة الله وقدره، وهو وحده الذي يأذن لها بالوجود حين يشاء وكيفما يشاء وهكذا يتوازن تصور المسلم وعمله فهو يعمل ويبذل ما في طوقه وهو يتعلق في نتيجة عمله وجهده بقدر الله ومشيئته ولا حتمية في تصوره بين النتائج والأسباب فهو لا يحتم أمراً بعينه على الله)[2].

---

(١) مدارج السالكين (٢ ـ ١٣٤) وما بعدها.

(٢) في ظلال القرآن (٤ ـ ٥٠٣).

المبحث الرابع

الصبر والمصابرة أو الجزع وعدم الثبات

والصبر والمصابرة من أعظم أسباب النصر على الأعداء، لأن الصبر عند أهل اللغة حبس النفس على ما تكره ومما تكرهه النفوس: القتال الذي تسيل فيه الدماء وتزهق فيه النفوس، كما قال تعالى: ﴿كُتب عليكم القتالُ وهو كُرْهٌ لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبُّوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[1]. وكذلك أمر الله المؤمنين أن يستيعنوا بالصبر والصلاة مقدماً له في الذكر وختم ذلك مؤكداً أنه مع الصابرين. كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾[2] ولم يقل مع المصلِّين، لأن الصبر إذا وجد في المؤمن حقاً كان معيناً لصاحبه على فعل الطاعات وترك المنكرات ومن الطاعات الصلاة، وذكر سبحانه الصبر عاملاً من عوامل النصر على الأعداء وأكد أنه مع الصابرين كما قال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون، وأطيعوا الله ورسولَه ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحُكم، واصبروا إن الله مع الصابرين * ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بَطَراً ورئاء الناسِ ويصدُّون عن سبيل الله، والله بما يعملون محيطٌ﴾[3]. وأمر سبحانه بالصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى ورتب على فعلها الفلاح، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتَّقوا الله لعلكم تفلحون﴾[4] والفلاح شامل لفلاح الدنيا والآخرة، ومن فلاح الدنيا النصر على الأعداء وهو أيضاً من فلاح الآخرة لأن النصر على الأعداء يتيح

---

(١) البقرة: ٢١٦.

(٢) البقرة: ١٥٣.

(٣) الأنفال: ٤٥ ـ ٤٧.

(٤) آل عمران: ٢٠٠.

الفرصة لتطبيق الإسلام في الأرض والقضاء على شوكة الكفر.

وكان الصبر من أهم الأسباب التي جعلت أولياء الله من أتباع الأنبياء يثبتون بعزة في صراعهم ضد الكفار ولم يستكينوا ولم يهنوا أمام المحن والمصائب وكان هو الصفة البارزة التي أحبهم الله من أجلها، كما قال سبحانه: ﴿وكأيِّن من نبيٍّ قاتل معه رِبِّيُّون كثيرٌ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين﴾[1].

ولقد سلَّى الله سبحانه نبيَّه عندما جحد قومه ما جاء به وآذوه وآذوا أصحابه فحزن لذلك سلاه بذكر ما أصاب إخوانه الأنبياء والرسل من قبله إذ كذبوهم وآذوهم فصبروا على ذلك حتى جاءهم نصر الله، فقال تعالى: ﴿قد نعلم إنَّه لَيَحْزُنك الذي يقولون، فإنهم لا يكذِّبونك ولكن الظالمين بآياتِ الله يجحدون * ولقد كُذِّبت رسلٌ من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا، ولا مُبَدِّل لكلمات الله، ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾[2] وإن لمن يبطيء عنهم النصر من المؤمنين لأسوة حسنة في ركب الصابرين من الأنبياء وأتباعهم في أن يصبروا حتى يأتيهم نصر الله، كما قال تعالى: ﴿أم حَسِبتُم أن تدخلوا الجنة ولمَّا يأتِكم مَثَلُ الذين خَلَوا من قبلكم، مسَّتهم البأساء والضرَّاء وزُلْزلوا حتى يقول الرسولُ والذين آمنوا معه متى نصر الله؟! ألاَ إنَّ نصرَ الله قريبٌ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القُرى، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم، ولدارُ الآخرة خيرٌ للذين اتَّقوا أفلا تعقلون، حتى إذا استيأس الرسلُ وظنُّوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرُنا فنُجِّي من نشاء ولا يُردُّ بأسنا عن القوم المجرمين﴾[4].

فالصبر من أهم عوامل نصر المؤمنين على أعدائهم، كالتقوى، كما قال سبحانه: ﴿بلى إنْ تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددْكم ربُّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين، وما جعله الله إلا بُشْرى لكم ولتطمئن قلوبُكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾[5] وقال تعالى: ﴿وإن تصبروا وتتَّقوا

(١) آل عمران: ١٤٦.
(٢) الأنعام: ٣٣ ـ ٣٤.
(٣) البقرة: ٢١٤.
(٤) يوسف: ١٠٩ ـ ١١٠.
(٥) آل عمران: ١٢٥ ـ ١٢٦.

لا يضركم كيدُهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾[١].

ولما كان الصراع بين الحق والباطل قائماً إلى يوم القيامة، وجنود الحق دائماً في مقاتلة مع جنود الباطل، كما قال سبحانه: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إنَّ كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾[٣] لما كان الأمر كذلك كان لزاماً على جند الله المؤمنين وحزبه المفلحين أن يكون صبرهم أشد من صبر أعدائهم وأثبت وأشمل حتى لا يولوا مدبرين عند أقل زلزلة فيكون أعداؤهم أكثر ثباتاً منهم والصبر من الأخلاق الإنسانية التي يمكن أن يأخذ كل واحد منها حظه على قدر عزمه وسمو هدفه وحرصه على تحقيق ذلك الهدف لذلك كان الصبر خير ما أعطيه عبد وأوسعه كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وفيه: «ومن يتصبر يصبِّره الله وما أُعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»[٤] فلا بد أن يكون المؤمن أكثر صبراً من عدوه في المعركة، كما إنه لا بد أن يكون صبره أشمل أي يصبر في كل موقع يستدعي الصبر في السراء والضراء، يصبر على لزوم الطاعة واجتناب المعصية، وبذلك يفوق عدوه الذي يشتد هلعه إذا ظن أن فرصة نصره قد فاتت أو أنه قد أصبح على شفا الخسران والهلاك فيتزلزل وينفذ صبره لفقد ما كان يؤمل حصوله في دنياه، بخلاف المؤمن الذي وصفه الرسول ﷺ بأن أمره كله له خير، كما في حديث صهيب بن سنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[٥] لأن المؤمن يرجو من صبره تحقيق الهدف الذي خلقه الله له وهو عبادته الموصلة إلى رضاه فصبره أثبت إذ كلما طال وقت صبره عظمت حسناته وغفرت خطاياه

---

(١) آل عمران: ١٢٠.

(٢) النساء: ٧٦.

(٣) البقرة: ٢١٧.

(٤) متفق عليه: البخاري رقم ١٤٦٩ فتح الباري (٣ ـ ٣٣٥) ومسلم (٢ ـ ٧٢٩).

(٥) رواه مسلم (٤ ـ ٢٢٩٥).

وأشمل لأنه يصبر في المعارك في قتال عدوه البشري ويصبر عن تعاطي المعاصي التي تشتهيها نفسه لعلمه بأن النار حفت بالشهوات ويصبر على أداء الطاعات التي قد تكرهها نفسه ودوامها لأن الجنة حفت بالمكاره قال تعالى: ﴿ولنبلونَّكم بشيء من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون﴾[1].

قال ابن القيِّم رحمه الله: (وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه يقول كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر وأما صبره على المعصية فصبر اختيار ورضا ومحاربة للنفس ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة ـ ثم ذكر تلك الدوافع وهي كونه شاباً. وعزباً وغريباً ومملوكاً والمرأة جميلة، وذات منصب وهي سيدته وقد غاب الرقيب وقد توعدته بالسجن والصغار ـ ومع هذه الدواعي كلها صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله)[2] وعندما يكون هذا شأن المؤمن يصبر في كل موقع فإنه يزداد بصيرة وقرباً من الله وتوفيقاً فينال عون الله ونصره ومدده بخلاف الكافر الذي لا يصبر إلا لما يظهر له من ربح مادي يحققه فإذا ظهر له أنه لا يتحقق نفد صبره كما مضى.

قال المودودي رحمه الله: (فمهما بلغ الرجل الغاية في الصبر واستولى على الأمد في حلبته فلا بد له أن يقف تحمله وينفد ثباته عند حد معلوم إذا كان لأغراض عاجلة لأنه يستمد قوته ويتغذى من الجذور الفكرية للشرك وعبودية المادية، أما الصبر الذي يستجلب قوته من جذور التوحيد والذي لا يبتغى من ورائه إلا وجه الله تعالى فهو كنز مكنون لا تصل إليه يد السارق وجيش عرمرم من الثبات والبسالة لا يقدر أن يقف في وجهه سائر الشدائد والأهوال الممكنة في هذه الدنيا، ثم إن الصبر لغير المسلمين من نوع محدود ضيق جداً فبينما تراه

---

(١) البقرة: ١٥٧.

(٢) مدارج السالكين (٢ ـ ١٥٦).

خائضاً غمار المعركة ثابتاً أمام هجمات الرشاشات والقنابل ثبوت الجبال الراسيات إذا به تراه مستسلماً لشهوات النفس الجانحة لا يكاد يملك نفسه وعواطفه أمام هزة يسيرة من هزات الغريزة الثائرة. أما الإسلام فيطبق الصبر ويوسع تطبيقه على سائر الحياة الإنسانية ويجعله سداً منيعاً ومعقلاً حصيناً ليس دون أخطار وأهوال معدودة فقط بل دون كل ما يحاول تنكيب الإنسان عن الصراط المستقيم من المطامح والأخطار والوساوس والرغبات)[١].

نعم لما كان المؤمن يجب أن يكون أكثر صبراً وأثبت وأشمل أمره الله بمصابرة الكافرين حتى ينفد صبرهم وهو لا يزال صابراً مصابراً كما قال تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتّقوا الله لعلّكم تُفلحون﴾[٢].

قال سيد قطب رحمه الله: (والمصابرة وهي مفاعلة من الصبر مصابرة هذه المشاعر كلها ومصابرة الأعداء الذين يحاولون جاهدين أن يفلوا من صبر المؤمنين، مصابرتها ومصابرتهم، فلا ينفد صبر المؤمنين على طول المجاهدة بل يظلون أصبر من أعدائهم وأقوى: أعدائهم من كوامن الصدور، وأعدائهم من شرار الناس سواء، فكأنما هو رهان وسباق بينهم وبين أعدائهم يدعون فيه إلى مقابلة الصبر بالصبر والدفع بالدفع والجهد بالجهد والإصرار بالإصرار ثم تكون لهم عاقبة الشوط بأن يكونوا أثبت وأصبر من الأعداء وإذا كان الباطل يصر ويصبر ويمضي في الطريق فما أجدر الحق أن يكون أشد إصراراً وأعظم صبراً على المضي في الطريق)[٣].

واقرأ النص الآتي الذي سجله التاريخ لمصابرة المسلمين أعداءهم وكيف كانت لهم العاقبة عليهم، قال ابن كثير رحمه الله: (لما وصل أبو عبيدة في اتباعه الروم المنهزمين إلى حمص نزل حولها يحاصرها ولحقه خالد بن الوليد فحاصروها حصاراً شديداً وذلك في زمن البرد الشديد، وصابر أهل البلد رجاء أن يصرفهم عنهم شدة البرد وصبر الصحابة صبراً عظيماً بحيث أنه ذكر غير واحد أن من

(١) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية ص: ٢٦ طبع دار الفكر بيروت.

(٢) آل عمران: ٢٠٠.

(٣) في ظلال القرآن (٤ ـ ٥٥٢).

الروم من كان يرجع وقد سقطت رجله وهي في الخف والصحابة ليس في أرجلهم شيء سوى النعال ومع هذا لم يصب منهم قدم ولا إصبع أيضاً ولم يزالوا كذلك حتى انسلخ فصل الشتاء واشتد الحصار وأشار بعض كبار أهل حمص عليهم بالمصالحة فأبوا عليه ذلك وقالوا أنصالح والملك منا قريب. . .) إلى أن قال: (فجاءت عامتهم إلى خاصتهم فقالوا ألا تنظرون إلى ما أنزل بنا وما نحن فيه ألا تصالحون القوم عنا فصالحوهم على ما صالحوا عليه أهل دمشق على نصف المنازل وضرب الخراج على الأراضي وأخذ الجزية على الرقاب)[1].

---

(١) البداية والنهاية (٧ ـ ٥٢).

المبحث الخامس

العدل

إنما شرع الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته التي منها إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن جور السلطان إلى عدل الإسلام، فلا بد أن يكون المجاهدون في سبيل الله متصفين بالعدل بعيدين عن الظلم ليس ظلم بعضهم بعضاً فحسب بل ظلم الكفار أيضاً، فالعدل واجب للمسلم وغير المسلم ولذلك نهى الله المسلمين عن الاعتداء على من ظلمهم بغير حق بل أوجب عليهم العدل وألا يحملهم بغض عدوهم على عدم إنصافه ـ هذا في غير الاعتداء بالمثل فهو مشروع ـ قال تعالى: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾[1] وقال: ﴿ولا يجرمنّكم شنآنُ قومٍ على ألّا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتّقوا الله إنّ الله خبيرٌ بما تعملون﴾[2].

وعندما يعتدي العدو على المسلم فليس له إلا معاملته بالمثل كما قال تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾[3]، ولو أبيح للمظلوم أن يظلم من ظلمه بأكثر من ظلمه لكان في ذلك من الفوضى وعدم الاستقرار في الأرض وعدم الأمن على الأنفس والأعراض والأموال ما الله به عليم. ولهذا كان الظالم مستحقاً لأخذ

---

(١) المائدة: ٢.

(٢) المائدة: ٨.

(٣) البقرة: ١٩٤.

الله إياه بعقابه جزاء ظلمه كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» قال ثم قرأ: ﴿وكذلك أخذُ ربِّك إذا أخذ القُرى وهي ظالمة إنَّ أخذه أليم شديد﴾[١] ولقد نادى الله عباده كلهم كما روى عنه نبيه ﷺ كما في حديث أبي ذر رضى الله عنه عن ربه: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»[٢].

وإذا كان الظلم محرماً مطلقاً والعدل واجب والجهاد إنما شرع لرفع كلمة الله وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن جور السلطان إلى عدل الإسلام فإن من رفع راية باسم الإسلام لجهاد أعداء الله وهو متصف بهذه الصفة جدير بالنصر على أعداء الله أما من رفعها وهو يفقد العدل ويتصف بالظلم فإنه جدير بأن يكله الله إلى نفسه بل أن يهزمه ويديل عليه عدوه الكافر إذا كان أكثر اتصافاً بالعدل والبعد عن الظلم من المسلم وقد نص العلماء أن الدولة العادلة أحق بالقيام في الأرض ولو كانت كافرة من الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة.

قال ابن تيمية رحمه الله: (وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: (إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة)، ويقال الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وقد قال النبي ﷺ: «ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم» فالباغي يصرع في الدنيا وإن كان مغفوراً له مرحوماً في الآخرة، وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة)[٣].

---

(١) البخاري رقم: ٤٦٨٦ فتح الباري (٨ ـ ٣٥٤) ومسلم (٤ ـ ١٩٩٧). والآية من سورة هود: ١٠٢.

(٢) مسلم (٤ ـ ١٩٩٤).

(٣) الفتاوي (٢٨ ـ ١٤٦).

ولقد كان عدل المسلمين سبباً في حرص أعداء الإسلام على أن يحكمهم جند الله بدلاً من ملوكهم الظلمة فما كان نصر المؤمنين مقصوراً على القتال فحسب كما يزعم من يتهمهم بالقسوة والوحشية وإنما كان من أهم أسبابه ذلك العدل الذي لم تألفه البشرية من أمة كما ألفته من المسلمين. ولعل في قراءة الحادثتين الآتيتين ما يجعل الأمر واضحاً جلياً لمن أنصف وألقى السمع وهو شهيد:

١ ـ (لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم، فقال أهل حمص لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم. ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم، ونهض اليهود فقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد. فأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود، وقالوا إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه، وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد فلما هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم وأخرجوا المفلسين فلعبوا وأدوا الخراج)[١].

اليهود والنصارى الذين قال الله عنهم: ﴿ولن ترضَى عنك اليهودُ ولا النصارى حتى تتَّبعَ ملتهم﴾[٢] يقولون للمسلمين الذين عدلوا فيهم: (لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم. . .) وهل فوق هذا النصر من نصر.

٢ ـ وقال أبو عبيدة: (لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد عليه قوم من أهل سمرقند فرفعوا إليه أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا. فنصب لهم جميع بن حاضر الناجي، فحكم بإخراج

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (١ ـ ١٦٢).
(٢) البقرة: ١٢٠.

المسلمين على أن ينابذوهم على سواء، فكره أهل مدينة سمرقند الحرب وأقروا المسلمين فأقاموا بين أظهرهم)[١] أهل الحق الذين أوجب الله عليهم الدعوة والجهاد يتمكنون من فتح بلد ويستقرون فيه، فيشكو أهل البلد غدراً منهم فيأمر الخليفة بمحاكمة جنده ويقضي قاضي المسلمين بإخراج المسلمين المنتصرين وعليهم أن يعلنوا الحرب على أعدائهم مرة أخرى، ولولا تنازل أهل البلدة عن حقهم في الخروج لخرجوا فعلاً. إنه العدل الذي فتحوا به القلوب قبل فتحهم البلاد بالسيف.

---

(١) فتوح البلدان أيضاً (٣ - ٥١٩).

المبحث السادس

صحة الولاء أو فساده

ومن أسباب النصر على الأعداء أن يحتق أولياء الله المؤمنون الموالاة والمعاداة: الموالاة لله ولرسوله وللمؤمنين، والمعاداة للكافرين فإن الله سبحانه وتعالى إنما ينصر المؤمن على الكافر لكون المؤمن يؤمن بالله ويسعى لرضاه ومن الأمورر التي ترضي الله ألا يكون ولياً لأعداء الله، ولهذا سمى الله المؤمنين: حزب الله، وأولياءه ويقاتلون في سبيله وسمى الكافرين أولياء الشيطان وحزبه ومنح حزبه تعالى الغلبة والفوز والفلاح وتوعد حزب الشيطان بالخسران، قال تعالى: ﴿إنَّما وليُّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾[1] وقال: ﴿لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسولَه ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيَّدهم بروح منه، ويدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضي الله عنهم ورَضُوا عنه، أولئك حزبُ الله ألا إنَّ حزبَ الله هم المفلحون﴾[2].

والذي يتأمل قوله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريِّين من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريُّون نحن أنصارُ الله، فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فأيَّدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾[3] يظهر له أن من أهم أسباب نصر الله سبحانه أن

(١) المائدة: ٥٥ ـ ٥٦.

(٢) المجادلة: ٢٢.

(٣) الصف: ١٤.

يحقق المجاهدون موالاته وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه، ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم﴾ ولم يقل على الذين كفروا التي يظهر للقارىء لأول وهلة أنها تناسب ذكر الذين آمنوا، وتناسب قوله: ﴿فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة﴾.

وقال تعالى: ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكرَ الله، أولئك حزبُ الشيطان ألاَ إن حزبَ الشيطان هم الخاسرون﴾[1].

وقال: ﴿الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يُقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كَيْدَ الشيطان كان ضعيفاً﴾[2].

والذين يزعمون أنهم مؤمنون ويظهرون لأعداء الله من اليهود والنصارى والمشركين المودة والحب إذا سالموهم وإذا قاتلوهم فإنما يقاتلونهم من أجل الأرض لا من أجل إعلاء كلمة الله الذي هم أعداؤه فإنهم أولى بالهزيمة من النصر وهذا هو ما جازاهم الله به على مودتهم لأعدائه.

قال سيد قطب رحمه الله: (وما دام المسلمون لم يفاصلوا قومهم ولم يتبرأوا منهم ولم يعالنوهم بافتراق دينهم عن دينهم ومنهجهم عن منهجهم وطريقهم عن طريقهم لم تتدخل يد الله سبحانه للفصل بينهم وبينهم لتحقيق وعد الله بنصر المؤمنين والتدمير على الظالمين)[3].

---

(١) المجادلة: ١٩.

(٢) النساء: ٧٦.

(٣) في ظلال القرآن (١٢ ـ ١٩٤٧).

المبحث السابع

الحذر واليقظة أو التساهل والغفلة

من أسباب النصر أن يكون المجاهدون حذرين من عدوهم بأن يكون تخطيطهم جيداً وتنظيمهم دقيقاً وأسرارهم محفوظة. وقد أمر الله أولياءه المجاهدين بذلك فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا خُذُوا حِذْرَكم فانفروا ثُباتٍ أو انفروا جميعاً﴾[1] وذكَّرهم سبحانه أن عدوهم يود أن يغفلوا عن أسلحتهم وامتعتهم ليميل عليهم ميلة قاضية عليهم فقال سبحانه: ﴿وإذا كنتَ فيهم فأقمتَ لهم الصلاةَ فَلْتَقُمْ طائفةٌ منهم معك وليأخذوا أسلحتهم، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم، ولتأت طائفة أخرى لم يصلُّوا فليصلُّوا معك وليأخذوا حذرَهم وأسلحتَهم، ودَّ الذين كفروا لو تَغْفُلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة، ولا جُناحَ عليكم إن كان بكم أذىً من مطر أو كنتم مَرْضَى أن تضعوا أسلحتكم، وخُذُوا حِذْرَكم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾[2] انظر كيف علم الله عباده المجاهدين كيف يرتبون أنفسهم في الصلاة ترتيباً لا يتمكن معه العدو من استغفالهم والهجوم عليهم مع ذكر طمع العدو في تلك الغفلة وانظر كيف يكرر تحذير المجاهدين من عدوهم.

وأنكر سبحانه على المجاهدين أن يكون فيهم من يفشي أسرارهم سواء كانت تتعلق بأمنهم أو خوفهم بسلمهم أو حربهم، لأن العدو إذا علم ذلك بنى عليه خططه الحربية المضادة وحض سبحانه على رد تلك الأمور إلى قادة الجهاد: الرسول ﷺ في زمانه، وولاة أمر المسلمين بعده كما قال سبحانه: ﴿وإذا جاءهم أمرٌ من

---

(١) النساء: ٧١.

(٢) النساء: ١٠٢.

الأمن أو الخوف أذاعوا به، ولو ردُّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لَعَلِمَهُ الذين يستنبطونه منهم، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتَّبعتُم الشيطانَ إلا قليلاً﴾[١].

ولا شك أن القائد المطلع على أمور الحرب وخططه أجدر بمعرفة ما ينبغي إذاعته وما لا ينبغي كذلك حذرهم سبحانه من أن يغفلوا عن معرفة من قد يندس في صفوفهم من المنافقين الذين لا توجد عندهم دوافع الجهاد في سبيل الله بل توجد عندهم عوامل التثبيط لهم وللمؤمنين مثل هؤلاء لا يجوز للمسلمين أن يغفلوا عنهم بل يجب أن يعرفوهم بالقرائن الواضحة التي منها القعود عن الجهاد في سبيل الله وإذا عرفوا منعوهم من الخروج معهم خشية تثبيطهم قال تعالى: ﴿فإن رَجَعَك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقُلْ لن تخرجوا معي أبداً، ولن تُقاتلوا معي عدوّاً، إنَّكم رضيتُم بالقعود أول مرة، فاقعدوا مع الخالفين﴾[٢] وقال: ﴿وإذا رأيتهم تُعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمَعْ لقولهم، كأنهم خُشُبٌ مسنَّدة، يحسبون كلَّ صَيْحةٍ عليهم، هم العدو فاحذرهم، قاتلهم الله أنَّى يُؤفكون﴾[٣].

وقد كان الرسول ﷺ شديد الحذر من عدوه فكان لا يفشي سره لهم بل ولا لبعض أصحابه في الأمور المهمة، ومن ذلك ما حصل ليلة العقبة التي تمت فيها بيعة الأنصار له، فقد احتاط من أن يعلم المشركون تلك البيعة فكان في غاية السرية مع أن عدد المبايعين كان ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين وهو عدد غير قليل، قال ابن القيم رحمه الله: (فلما كانت ليلة العقبة: الثلث الأول من الليل تسلل إلى الرسول ﷺ ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان فبايعوا رسول الله ﷺ خفية من قومهم ومن كفار مكة على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأزرهم)[٤] وسبق أنه كان إذا أراد غزوة ورّى بغيرها.

هكذا كان المجاهدون من أصحابه ومن تبعهم يخططون وينظمون بدقة وفي كتمان عن عدوهم فيحوزون النصر ويسلمون من الهزيمة وتأمل هذه الحادثة

---

(١) النساء: ٨٣.
(٢) التوبة: ٨٣.
(٣) المنافقون: ٤.
(٤) زاد المعاد(٢ ـ ٥٧).

تَرَ ذلك فيها واضحاً في قصة مواجهة أبي بكر أعداءه من بني عبس وبني مرة وذبيان بعد وفاة النبي ﷺ: (وبات أبو بكر رضي الله عنه قائماً ليله يعبىء الناس ثم خرج على تعبئة من آخر الليل وعلى ميمنته النعمان ابن مقرن، وعلى المسيرة أخوه عبدالله بن مقرن، وعلى الساقة أخوهما سويد بن مقرن، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد فما سمعوا للمسلمين حساً ولا همساً حتى وضعوا فيهم السيوف فما طلعت الشمس حتى ولوهم الأدبار وغلبوهم على عامة ظهرهم وقتل حبال واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة وكان أول الفتح وذل بها المشركون وعزّ بها المسلمون)[1].

سهر القائد وتعبئة جيشه طول الليل ـ اختيار قادة الجيش ممن يتطاوعون ويتعاونون من الأكفاء: ثلاثة أخوة، مباغتة العدو في وقت لا يتوقع فيه الهجوم، عدم الضجيج الذي ينبه العدو على قرب الغزاة ـ وكانت الغلبة والنصر والعز للمسلمين والهزيمة والذل للكافرين.

وقال عبد الرؤوف عون ـ وهو يعلق على فتح مدينة بخارى: ـ (ثم كانت خطة قتيبة في قتال الترك تتلخص في أنه أمر قائد الخيالة بأن يناوشهم القتال ليشغلهم عنه في الوقت الذي يتقدم فيه الجيش كله وهم عنه مشغولون فيصدمهم الصدمة القاضية في هجومه الخاطف وقد تم له ذلك فعلاً فهجم عليهم من حيث لا ينتظرون لأنهم كانوا يحاربون خيالته وأخذتهم رماح المسلمين وسيوفهم فلاذوا بالفرار بعد أن جرح ملكهم وجرح ابنه، وأخيراً تم لهم فتح المدينة بفضل حسن القيادة وسرعة تعديل الخطة حسب ما تمليه ظروف المعركة)[2].

هذه بعض عوامل النصر التي تعتبر شرطاً في نصر الله فإذا تحققت من قبل المجاهدين تحقق وعد الله القائل: ﴿إن تنصروا الله يَنْصُرْكم ويثبِّت أقدامكم﴾[3] وإذا لم تتحقق كلها كانت الهزيمة الشاملة، وإذا تحقق بعضها دون بعض كان النصر والهزيمة بحسب ذلك.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٦ ـ ٣١٣).

(٢) الفن الحربي في صدر الإسلام ص: ٢٣٧ ومصدره الكامل لابن الأثير (٤ ـ ٥٤٢).

(٣) سورة محمد: ٧.

الباب الثاني

غاية الجهاد في سبيل الله

وابتلاء المجاهدين

وفيه فصلان:

الفصل الأول : **أهداف الجهاد في سبيل الله.**

الفصل الثاني : **انتصار الحق على الباطل.**

الفصل الأول

أهداف الجهاد في سبيل الله

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول : إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض.

المبحث الثاني : دفع عدوان الكافرين.

المبحث الثالث : نيل الشهادة في سبيل الله.

المبحث الرابع : تصفية الصف الإسلامي من عناصر الفساد.

المبحث الخامس : مقارنة بين أهداف الجهاد في سبيل الله وغيره من أنواع القتال.

الفصل الأوّل

أهداف الجهاد في سبيل الله

تمهيد: الغاية العليا للجهاد

غاية الجهاد في سبيل الله هي إعلاء كلمة الله لتحقيق عبادته، الغاية التي خلق الله الخلق من أجلها هي عبادته سبحانه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رِزْقٍ وما أريد أن يُطعمون، إنَّ الله هو الرزَّاق ذو القوة المتين﴾[1] والعبادة كما قال ابن تيمية رحمه الله: (هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)[2] فهي شاملة لنشاط الإنسان كله ويفسر ذلك قوله سبحانه: ﴿قُلْ إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحيايَ ومماتي لله ربِّ العالمين، لا شريكَ له، وبذلك أُمِرتُ وأنا أول المسلمين﴾[3].

وهي دينه سبحانه الذي ارتضاه لمن استخلفه ومكنه في الأرض وبها يمنحه الأمــن ويقيه الخوف، كما قال تعالى: ﴿وعدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكِّنَنَّ لهم دينَهم الذي ارتضى لهم، وليبدلَّنَهم من بَعْدِ خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾[4].

وهي الهدى ودين الحق الذي بعث الله رسله وأنزل كتبه للدعوة إليه وإظهاره على كل الأديان الباطلة في الأرض. فلا تتحقق عبادته سبحانه إلا

---

(١) الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨.

(٢) العبودية ص: ٣٨ طبع المكتب الإسلامي.

(٣) الأنعام: ١٦٣.

(٤) النور: ٥٥.

بإظهار دينه وإعلاء كلمته كما قال سبحانه: ﴿هو الذي أرسل رسولَه بالهدى ودين الحق ليظهَره على الدين كلِّه، وكفى بالله شهيداً﴾(١).

وإعلاء كلمة الله لا تتحقق إلا بجنود آمنوا بالله واتبعوا كتابه وجاهدوا في الله حق جهاده، لأن أعداء الله لا يألون جهداً في الصد عن دين الله والإعراض عنه ومعارضته، لذلك أمر الله عز وجل عباده المؤمنين بقتال أعداء الله الكافرين حتى يكون الدين كله لله، فأهم أهداف الجهاد في سبيل الله إعلاء كلمة الله قال تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكون الدينُ لله، فإن انتهَوا فلا عُدْوانَ إلا على الظالمين﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ، ويكون الدينُ كلُّه لله، فإن انتهَوا فإن الله بما يعملون بصير * وإن تولَّوا فاعلموا أنَّ الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير﴾(٣) وقال تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسولُه، ولا يدينون دينَ الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزيةَ عن يد وهم صاغرون * وقالت اليهودُ عُزَيرٌ ابن الله، وقالت النصارى المسيحُ ابن الله، ذلك قولُهم بأفواهِهم، يُضاهئون قولَ الذين كفروا من قَبْلُ، قاتلهم الله أنَّى يُؤفكون * اتَّخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً من دون الله والمسيحَ بنَ مريمَ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يُشركون * يريدون أن يُطفئوا نورَ الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتمَّ نورَه ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسولَه بالهدَى ودين الحقِّ ليظهرَه على الدين كلِّه ولو كره المشركون﴾(٤).

وعندما تحركت الرغبة عند المؤمنين أول الأمر في الفوز بأموال المشركين ردهم الله إلى الهدف الأسمى من الجهاد وهو إعلاء كلمته سبحانه بتحطيم السدود التي تقف ضد ذلك: السدود البشرية وسدود الأنظمة الكافرة، فقال تعالى: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾(٥) فالقضاء على رؤوس الفتنة وتحطيمهم هو

(١) الفتح: ٢٨.
(٢) البقرة: ١٩٣.
(٣) الأنفال ٣٩ ـ ٤٠.
(٤) التوبة: ٢٩ ـ ٣٣.
(٥) الأنفال: ٧ ـ ٨.

الأصل قال تعالى: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضَرْبَ الرقاب، حتى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوثاق، فإمَّا مَنّاً بَعْدُ وإما فداءً حتى تَضَعَ الحربُ أوزارها﴾[1] وقال: ﴿إنَّ شرَّ الدوابِّ عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين عاهدتَ منهم ثم ينقضون عهدَهم في كل مرة وهم لا يتقون * فإمَّا تثقفنَّهم في الحرب فشرِّدْ بهم مَنْ خَلْفهم لعلهم يذكَّرون﴾[2]. وبالجهاد يكف الله بأسهم وينكل بهم كما قال تعالى: ﴿فقاتِلْ في سبيل الله لا تُكَلَّف إلا نفسَك، وحرِّضِ المؤمنينَ، عسى الله أن يكفَّ بأسَ الذين كفروا، والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً﴾[3].

وقد أوضح الرسول ﷺ الهدف من الجهاد في كلمة جامعة شاملة نابذاً كل هدف لا يدخل في معناها، كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: (الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»)[4].

وعلى هذا الهدف جاهد حزب الله وبه أجابوا من سألهم عما جاء بهم إلى البلدان المختلفة: (سأل رستم قائدُ الفرس ربعي بن عامر: ما جاء بكم؟ فقال: ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله، قال وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقي)[5].

وقال ابن تيمية رحمه الله: (والجهاد مقصوده أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين لله، فمقصوده إقامة دين الله، لا استيفاء الرجل حظه، ولهذا

---

(١) محمد: ٤.

(٢) الأنفال: ٥٥ ـ ٥٧.

(٣) النساء: ٨٤.

(٤) البخاري رقم: ٢٨١٠ فتح الباري (٦ ـ ٢٧) ومسلم (٣ ـ ١٥١٢).

(٥) البداية والنهاية لابن كثير (٧ ـ ٣٩).

كان ما يصاب به المجاهد في نفسه وماله أجره فيه على الله فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)[1].

هذه هي الغاية العليا الشاملة للجهاد في سبيل الله: إعلاء كلمته في الأرض ومعنى إعلاء كلمته في الأرض أن يكون حكم الله هو الغالب وكلمته هي النافذة وأن يكون الناس كلهم أحراراً لا يذلون لأحد ولا يخضعون لأحد ولا يستعبدهم أحد ولا يصدهم عن عبادة الله أحد ولا يحول بينهم وبين الإصغاء إلى من يبلغ رسالته أحد كما لا يمنعهم من الاستجابة لدعوة الله أحد، وكذلك أن يتمتع الناس كلهم بالعدل فلا يتجبر عليهم ذو قوة ظالم يعتدي على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وغيرها من الحقوق وهذا لا يكون إلا إذا كان السلطان والقوة والحكم بأيدي المسلمين الذين لا يوجد في الأرض من هو أهل للقيام بهذه الأمور غيرهم لما حباهم الله به من هدايته الإرشادية والتوفيقية: فعندهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبهما يهدون الناس للتي هي أقوم بعد أن وفقهم الله للعمل بهما والاهتداء بنورهما.

ويدخل تحت هذا الفصل أربعة مباحث:

---

(١) الفتاوى (١٥ - ١٧٠).

المبحث الأول

إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض

تكون إقامة حكم الله بتحكيم كتابه وسنة رسوله ﷺ الذي لا يتم الإسلام إلا به بل لا إسلام بدونه، لأن الإسلام إيمان ـ أو عقيدة ـ وعبادة وشريعة، والشريعة هي الحكم بما أنزل الله، وللبشرية كلها الحق في أن تتمتع بحكم الله الذي يؤتي كل ذي حق حقه بلا نقص، وقد أنزل الله هذا الكتاب لخلقه كلهم عربهم وعجمهم قاصيهم ودانيهم، كما قال تعالى: ﴿تبارك الذي نزَّل الفرقانَ على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾[1] وهو الميهمن على جميع الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه، إذ لم يبق كتاب منها سليماً من التحريف، ولا صالحاً للبشر مثل هذا الكتاب وقد كان كل رسول يأمره الله أن يحكم بين قومه بكتابه الذي أنزله عليه ولما كانت رسالة النبي محمد ﷺ هي خاتمة الرسالات وكتابه آخر الكتب وهو مبعوث إلى الخلق أجمعين فإنه يجب الحكم به بين الناس كلهم، قال تعالى: ﴿إنَّا أنزلنا التوراةَ فيها هُدَى ونورٌ يحكم بها النبيُّون الذين أسلموا للذين هادوا، والربانيُّون والأحبارُ بما استُحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء، فلا تَخْشَوا الناس واخْشَون، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[2] إلى أن قال: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ وقال: ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بم أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾[2].

ثم خاطب الله نبيه ﷺ آمراً إياه بالحكم بما أنزل الله، فقال: ﴿وأنزلنا

---

(١) الفرقان: ١.

(٢) الآيات من سورة المائدة: ٤٤ ـ ٤٧.

إليك الكتاب بالحق مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبِّع أهواءهم عمّا جاءك من الحق﴾ إلى أن قال: ﴿وأن احْكُم بينهم بما أنزل الله ولا تتّبع أهواءَهم، واحذرهم أن يفتنوكَ عن بعض ما أنزل اللهَ إليك، فإن تولَّوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبَهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون * أفحكمَ الجاهليَّة يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾[(١)] فقد أمر الله بالحكم بكتابه والأمر للوجوب ونهى سبحانه عن اتباع أهواء الناس الذين لا يفتأون في الصد عن الحكم بما أنزل الله والنهي يقتضي التحريم، وحذر عز وجل من أن يفتن الرسول ﷺ عن بعض ما أنزل الله إليه وأنكر على من ابتغى الحكم بغير ما أنزل وسماه حكم الجاهلية والجهاد في سبيل الله من أهم أهدافه القضاء على الجاهلية وذكر سبحانه أنه عندما اختلف الناس بعث رسله وأنزل كتبه ليحكم بينهم بالحق وأنه هدى أمة محمد ﷺ للحق الذي اختلف فيه من قبلهم وفي هذا تكليف لهم بأن يحكموا بين الناس به وهم لا يتمكنون من ذلك إلا إذا كان السلطان بأيديهم وهل يأتي السلطان بدون جهاد، قال تعالى: ﴿كان الناسُ أمةً واحدةً، فبعث الله النبيين مبشِّرين ومنذِرين، وأنزل معهم الكتاب بالحقِّ ليحكم بين الناسِ فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيِّنات بَغْياً بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[(٢)].

وذكر سبحانه أنه أنزل هذا الكتاب على رسوله ﷺ ليحكم بين الناس بما أراه الله فقال: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكمَ بين الناس بما أراكَ الله ولا تَكُنْ للخائنين خصيماً﴾[(٣)].

وأمر الله عباده المؤمنين ـ الذين شرفهم بإنزال هذا الكتاب إليهم ـ أن يؤدوا الأمانات ـ وهي شاملة لكل الحقوق ـ إلى أهلها وأن يحكموا بين الناس بالعدل، وأن يردوا ما اختلفوا فيه إلى الله ورسوله، وعجب سبحانه ممن يزعم الإيمان ويتحاكم إلى الطاغوت ويصد عن الحكم بما أنزل الله، ونفى سبحانه

---

(١) الآيات من سورة المائدة: ٤٨ ـ ٥٠.

(٢) البقرة: ٢١٣.

(٣) النساء: ١٠٥.

الإيمان عمن لم يحكِّم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عن رضا وتسليم، فقال جل وعلا: ﴿إنَّ الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إنَّ الله نِعِمَّا يعظكم به، إن الله كان سميعاً بصيراً * يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً * ألَمْ تَرَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطَّاغوتِ وقد أُمروا أن يكفروا به، ويريد الشيطانُ أن يضلَّهم ضلالاً بعيداً * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدُّون عنك صدوداً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فلا وربِّك لا يُؤمنون حتى يحكِّموكَ فيما شَجَر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرَجاً ممَّا قضيتَ ويسلِّموا تسليماً﴾[١].

فإقامة حكم الله في الأرض غاية من غايات الجهاد في سبيل الله والذي يجب أن يسعى لتحقيق هذه الغاية هم المسلمون الذين آمنوا بها وذاقوا حلاوتها وعلموا أن من حق البشر عليهم أن يسعوا لإسعادهم بها، ولو كان الناس يقبلون دعوة المسلمين إلى تحكيم هذا الكتاب لكان عليهم أن يكتفوا بالدعوة إلى ذلك لأنه يحقق الهدف ولكن أكثر الناس لا يكفيهم أن يرفضوا تحكيم كتاب الله، بل إنهم ليقفون محاربين من أراد تحكيمه بكل ما أوتوا من قوة وهذا يحتم على أولياء الله أن يجاهدوا أعداءه الذين يحاربونهم من أجله.

قال سيد قطب رحمه الله: (وجاهد الإسلام ليقيم في الأرض نظامه الخاص ويقرره ويحميه، وهو وحده النظام الذي يحقق حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال ويلغي من الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها فليس هنالك فرد ولا طبقة ولا أمة تشرع الأحكام للناس وتستذلهم عن طريق التشريع، إنما هنالك رب واحد للناس جميعاً هو الذي يشرع لهم على السواء وإليه وحده يتجهون بالطاعة والخضوع كما يتجهون إليه وحده بالإيمان والعبادة سواء، فلا طاعة في هذا

---

(١) النساء: ٥٨ ـ ٦٥.

النظام لبشر إلا أن يكون منفذاً لشريعة الله موكلاً عن الجماعة ليقوم بهذا التنفيذ حيث لا يملك أن يشرع هو ابتداء لأن التشريع من شأن الألوهية وحدها، وهو مظهر الألوهية في حياة البشر فلا يجوز أن يزاوله إنسان فيدعي لنفسه مقام الألوهية وهو واحد من العبيد.. جاهد الإسلام ليقيم هذا النظام الرفيع في الأرض ويقرره ويحميه وكان من حقه أن يجاهد ليحطم النظم الطاغية التي تقوم على عبودية البشر للبشر والتي يدعي فيها العبيد مقام الألوهية ويزاولون فيها وظيفة الألوهية بغير حق، ولم يكن بد أن تقاومه تلك النظم الطاغية في الأرض كلها وتناصبه العداء، ولم يكن بد كذلك أن يسحقها الإسلام سحقاً ليعلن نظامه الرفيع في الأرض.. وما يزال هذا الجهاد لإقامة هذا النظام الرفيع مفروضاً على المسلمين ﴿حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ فلا تكون هناك ألوهية للعبيد في الأرض ولا دينونة لغير الله)[١].

---

(١) في ظلال القرآن (٣ ـ ٢٩٥).

المبحث الثاني

دفع عدوان الكافرين

الإسلام حق وأهله أهل حق، والكفر باطل وأهله أهل باطل، والكفار لا يفتأون يصدون المسلمين عن دينهم ويؤذونهم، ولو حاول المسلمون مهادنتهم ما هادنوا ما داموا قادرين على الصد والعدوان والفتنة. والمسلمون ـ ودينهم دين الحق ـ لا يجوز أن يكونوا مستضعفين لأهل الكفر، وإذا ما استضعفت طائفة منهم فإن الواجب على إخوانهم القادرين على استنقاذهم أن يهبوا لنجدتهم ويدفعوا عنهم العدوان وهذا العدوان أقسام:

القسم الأول: أن يعتدي الكفار على فئة مؤمنة مستضعفة في أرض الكفر ـ لا سيما إذا لم تتمكن من الهجرة إلى بلاد تأمن فيها على دينها ـ فإن واجب المسلمين أن يعدوا العدة ويجاهدوا الكفار الذين اعتدوا على تلك الطائفة حتى ينقذوها من عدوان الكفرة وعدوان الكافرين على المؤمنين أصيل قديم وهو كذلك مستمر وهدفهم من العدوان: الصد عن دين الله ورد المسلمين عن دينهم، قال تعالى: ﴿إنَّ فرعون عَلاَ في الأرض وجعل أهلها شيعاً، يستضعف طائفة منهم يُذبِّح أبناءهم ويَستحيي نساءهم، إنه كان من المفسدين﴾[1].

لذلك أنكر الله تعالى على المسلمين عدم قتال المعتدين لاستنقاذ المستضعفين الذين ضاقت عليهم الأرض بسبب الاعتداء والفتنة وهم يصرخون داعين الله أن يخرجهم من مساكن الظلمة ويطلبون منه سبحانه النصير فقال تعالى: ﴿فلْيقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في

---

(١) القصص: ٤.

سبيل الله فيُقتَلْ أو يَغْلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾[١].

قال القرطبي رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾.

حض على الجهاد، ويتضمن تخليص المستضعفين من أيدي الكفرة المشركين الذين يسومونهم سوء العذاب ويفتنونهم عن الدين، فأوجب تعالى الجهاد لإعلاء كلمته وإظهار دينه واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من عباده، وإن كان في ذلك تلف النفوس وتخليص الأسارى واجب على جماعة المسلمين إما بالقتال وإما بالأموال وذلك أوجب لكونها دون النفوس، إذ هي أهون منها)[٢].

إن المستضعفين الذين يفتنهم الكافرون في ديار الكفر لا يعذرون في بقائهم بديار الكفر إلا إذا أعيتهم الحيلة فلم يقدروا على الهجرة إلى بلد إسلامي يستطيعون أن يعيشوا فيه أحراراً آمنين على دينهم وعرضهم ومالهم وأنفسهم، أو بلد آخر غير إسلامي ـ إن تعذر وجود بلد إسلامي ـ يكون أكثر أمناً من بلدهم الذي يعيشون فيه مستضعفين مفتونين. هؤلاء الذين أعيتهم الحيل فلم يقدروا على الهجرة معذرون في بقائهم والواجب على إخوانهم المسلمين أن ينقذوهم من ذلك الاستضعاف وتلك الفتنة على كل حال من الأحوال.

أما إذا كانوا قادرين على الهجرة فلم يهاجروا فذلك دليل على وجود ضعف شديد في إيمانهم يخشى عليهم أن يغلبهم الكفار على دينهم فيردوهم عنه. ولذلك يموتون وهم ظالمون لأنفسهم متعرضون لسخط الله تعالى ولا يقبل الله عذرهم بأنهم كانوا مستضعفين، لأنه قد أمرهم بالهجرة إلى أرضه الواسعة. قال تعالى: ﴿إن الذين تَوَفَّاهم الملائكةُ ظالِمي أنفسِهم قالوا فيمَ كنتم؟ قالوا كنا

---

(١) النساء: ٧٤ ـ ٧٥.
(٢) جامع أحكام القرآن (٥ ـ ٢٧٩).

مُسْتضعفينَ في الأرض، قالوا أَلَم تَكُنْ أَرْضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها!! فأولئك مأواهم جهنَّمُ وساءت مصيراً * إلاّ المستضعفينَ من الرجال والنساء والوِلْدان لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوّاً غفوراً﴾[١].

وهؤلاء الذين يقدرون على الهجرة ثم لم يهاجروا وهم يتعرضون للفتنة ليسوا بمؤمنين حقاً، ولذلك حض الله المؤمنين على عدم مساواتهم بغيرهم من المؤمنين المهاجرين بدينهم أو الذين لم يقدروا على الهجرة فلا تكون ولايتهم تامة، بل تكون ناقصة من ثلاثة جوانب. الجانب الأول: في المحبة فلا تكون محبتهم كمحبة الذين هاجروا أو لم يقدروا على الهجرة ولو قدروا لهاجروا، الجانب الثاني: عدم استحقاقهم شيئاً من الفيء أو الغنيمة ما لم يحضروا القتال الجانب الثالث: إنهم لا يستحقون نصر المؤمنين على الكافرين الذين يفتنونهم إذا كان بين المسلمين وبينهم عهود ومواثيق. وقد شمل ذلك كله قوله تعالى: ﴿إنَّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آوَوا ونصروا، أولئك بعضُهم أولياءُ بعضٍ. والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من وَلَايتهم من شيء حتى يهاجروا، وإنِ استنصروكم في الدين فعليكُم النصرُ إلاَّ على قومٍ بينكم وبينهم ميثاق، والله بما تعملون بصير﴾[٢].

والخلاصة: إن من أهداف الجهاد في سبيل الله استنقاذ المؤمنين المستضعفين في ديار الكفر وهم الذين لم يقدروا على الخروج للهجرة بدينهم أو يقدرون ولكنهم تقاعسوا عن الهجرة ثم استنصروا بإخوانهم المؤمنين الذين لا يوجد بينهم وبين الكافرين الذين استضعفوهم عهود ومواثيق تمنع المؤمنين من قتالهم. والصحيح أن الهجرة باقية إلى يوم القيامة ما وجد في الأرض من يفتن المسلمين عن دينهم وما قدر هؤلاء المسلمون المستضعفون على الهجرة إلى مكان يأمنون فيه على أنفسهم ودينهم وعرضهم ومالهم.

أما حديث (لا هجرة بعد الفتح)[٣] فهو محمول على بلد يتمتع أهله

---

(١) النساء: ٩٧ - ٩٩.

(٢) الأنفال: ٧٢، راجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢ - ٣٢٨).

(٣) البخاري (٤/ ٧٢) طبع تركيا.

بالأمن والإيمان كما كان أهل مكة كذلك بعد فتحها.

وإذا تأمل المتأمل حالة المسلمين الآن وجد أنهم في حالة يرثى لها فكم مسلم مستضعف من الرجال والولدان والنساء وهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً في جميع البلدان في شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها في الشعوب الكافرة والشعوب المسلمة؟

قتل تزهق فيه الأنفس وتعذيب وحشي يقعد صاحبه ونهب لأموال وهتك لأعراض وهم ينادون إخوانهم المسلمين في الأرض يطلبون النصر والإنقاذ ويرددون: ﴿ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾ فلا يجدون أذناً صاغية ولا قلباً حانياً إلا من قلة من المسلمين تكاد تتقطع قلوبهم إشفاقاً على إخوانهم المستضعفين المستعبدين ولكنهم لا يقدرون على شيء. فأين يقع عمل المسلمين اليوم من فقههم النظري الذي يوجب عليهم إذا سبيت مسلمة في المغرب أن يهبوا لاستنقاذها من المشرق وإذا سبيت مسلمة في المشرق أن يهبوا لاستنقاذها من المغرب[١].

قال سيد قطب رحمه: (جاهد الإسلام.. ليدفع عن المؤمنين الفتنة التي كانوا يسامونها وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم وقرر ذلك المبدأ العظيم: . . . والفتنة أشد من القتل، فاعتبر الاعتداء على العقيدة والإيذاء بسببها وفتنة أهلها أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها، فالعقيدة أعظم قيمة من الحياة وفق هذا المبدأ العظيم وإذا كان المؤمن مأذوناً في القتال ليدفع عن حياته وعن ماله فهو من باب أولى مأذون في القتال ليدفع عن عقيدته ودينه، وقد كان المسلمون يسامون الفتنة في عقيدتهم ويؤذون فيها في مواطن من الأرض شتى، وقد شهدت الأندلس من بشاعة التعذيب الوحشي والتقتيل الجماعي لفتنة المسلمين عن دينهم وفتنة أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى، كما شهدت بيت المقدس وما حوله بشاعة الهجمات الصليبية التي لم تكن موجهة إلا للعقيدة والإجهاز عليها والتي خاضها المسلمون في هذه المنطقة تحت لواء

---

(١) راجع حاشية المختار لابن عابدين (٤ ـ ١٢٦) وراجع قصة المرأة الهاشمية التي صاحت وامعتصماه في الكامل لابن الأثير (٦ ـ ٤٨٠).

العقيدة وحدها فانتصروا وحموا هذه البقعة من مصير الأندلس الأليم، وما يزال المسلمون يسامون الفتنة في أرجاء المناطق الشيوعية والوثنية والصهيونية والمسيحية في أنحاء من الأرض شتى وما يزال الجهاد مفروضاً عليهم لرد هذه الفتنة إن كانوا حقاً مسلمين)[١].

القسم الثاني: أن يعتدي الكفار على ديار المسلمين، وقد نص الفقهاء على أن هذا القسم من الأقسام التي يتعين فيها الجهاد للدفاع عن الديار، لأن العدو إذا احتلها سام المسلمين عذاباً ونفذ فيها أحكام الكفر وأجبر أهلها على الخضوع له، فتصبح دار كفر بعد أن كانت دار إسلام ولا يؤمن من إخراج الأعداء المعتدين المسلمين من ديارهم وأموالهم وأهلهم أو من قتلهم وتعذيبهم كما إن ديار الإسلام تعتبر قاعدة لانطلاق المسلمين لجهاد عدوهم تحمي ظهورهم إذا غزوا وتمدهم بالمال والسلاح والرجال إذا احتاجوا فإذا ملكها العدو أصبحت قاعدة له ينطلق منها لغزو غيرها من ديار المسلمين، ولهذا أمر الله المؤمنين بقتال من قاتلهم، كما قال سبحانه: ﴿وقاتلوا في سبيل اللهِ الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنَّ الله لا يحبُّ المعتدين * واقتلوهم حيث ثَقِفْتموهم، وأخرجوهم من حَيْثُ أخرجوكم، والفتنة أشدُّ من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم، كذلك جزاء الكافرين * فإن انتهَوا فإن الله غفورٌ رحيمٌ﴾[٢].

قال ابن قدامة رحمه الله: (ويتعين الجهاد في ثلاثة مواضع... الثاني: إذا نزل الكفار ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم)[٣].

وقال في موضع آخر: (ومعناه أن النفير يعم جميع الناس ممن كان من أهل القتال حين الحاجة إلى نفيرهم لمجيء العدو إليهم)[٤].

وقال بعض علماء الحنفية: (وحاصله أن كل موضع خيف هجوم العدو منه فرض على الإمام أو على أهل ذلك الموضع حفظه، وإن لم يقدروا فرض على

---

(١) في ظلال القرآن (٣ ـ ٢٩٤).
(٢) البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٢.
(٣) المغني (٩ ـ ١٩٧).
(٤) المغني (٩ ـ ٢١٣).

الأقرب إليهم إعانتهم إلى حصول الكفاية بمقاومة العدو)[١].

القسم الثالث: أن ينشر العدو الظلم بين رعاياه ـ ولو كانوا كفاراً ـ لأن الله سبحانه حرم على عباده الظلم والعدل في الأرض واجب لكل الناس وليس خاصاً بالمسلمين، وهو من المعروف الذي كلف الله المسلمين القيام به، والظلم محرم كذلك بين كل الناس، وليس تحريمه خاصاً بالمسلمين، وهو من المنكر الذي كلف الله المسلمين دفعه وإنكاره. وإذا ترك الظلم ببقعة من الأرض انتشر في غيرها بين الناس مسلمين وغير مسلمين، لأن الظلم من الشهوات التي حفت بها النار، وذلك من الفتن التي تعم الظالم وغيره ولذلك قال تعالى: ﴿واتقوا فتنةً لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصَّة، واعلموا أنَّ اللهَ شديدُ العقاب﴾[٢].

وإذا لم يدفع المسلمون الظلم عن المظلومين أثموا لأنهم مأمورون بالجهاد في الأرض لإحقاق الحق وإبطال الباطل ونشر العدل والقضاء على الظلم ولا فلاح لهم إلا بذلك وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما كانوا خير أمة أخرجت للناس إلا بذلك كما قال تعالى: ﴿كنتم خيرَ أمة أُخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهَوْن عن المنكر وتُؤمنون بالله﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ولا يجرمنكم شَنَآن قومٍ على ألاَّ تَعْدِلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتَّقوا الله إن الله خبيرٌ بما تعملون﴾[٤].

ومن العدل كفّ الظلم عن المظلوم الكافر الذي يبغضه المسلم لكفره قال السرخسي رحمه الله: (فأما بيان المعاملة مع المشركين فنقول: الواجب دعاؤهم إلى الدين وقتال الممتنعين منهم من الإجابة لأن صفة هذه الأمة في الكتب المنزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبها كانوا خير الأمم قال الله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ الآية)[٥].

وقال في موضع آخر: (وإن كان ـ يقصد أحد ملوك أهل الحرب ـ طلب

---

(١) حاشية ابن عابدين (٤ ـ ١٢٤).
(٢) الأنفال: ٢٥.
(٣) آل عمران: ١١٠.
(٤) المائدة: ٨.
(٥) المبسوط (١٠ ـ ٢).

الذمة على أن يترك يحكم في أهل مملكته بما شاء من قتل أو صلب أو غيره بما لا يصلح في دار الإسلام لم يجب إلى ذلك، لأن التقرير على الظلم مع إمكان المنع منه حرام)[١].

وقد عقّب الله سبحانه على إذنه للمؤمنين بقتال الكافرين الذينَ ظلموهم وأخرجوهم من ديارهم بغير حق، عقب على ذلك بأنه لولا دفعه الناس بعضهم ببعض لقضى المفسدون على كل باب من أبواب التدين والتعبد الذي هو أساس دفع الظلم والعدوان، قال تعالى: ﴿أُذن للذين يُقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلاَّ أن يقولوا ربُّنا الله، ولولا دَفْعُ الله الناسَ بعضَهم ببعض لَهُدِّمتْ صوامعُ وبيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرنَّ الله من ينصره إنَّ الله لقويٌ عزيزٌ﴾[٢] ثم بين تعالى أن من استحق نصره يقيم في الأرض الدين الحق بعبادة الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي منه دفع الظلم عن المظلوم وإ كان غير مسلم قال تعالى: ﴿الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاةَ وأمروا بالمعروفِ، ونَهَوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور﴾[٣].

ومن هنا كان أعداء الله الظلمة في كل زمان ومكان حرباً على من يعبد الله حق عبادته، لأنه لا يخضع للظلم ولا يقرّه في الأرض على المظلومين. وكان من واجب المسلمين أن يجاهدوا في سبيل الله للقضاء على الظلم والظالمين.

القسم الرابع: الوقوف ضد الدعاة إلى الله ومنعهم من تبليغ الدعوة إلى الناس.

والمسلمون مكلفون ـ كرسولهم ﷺ ـ أن يبلغوا رسالات الله للناس كافة، كما قال سبحانه: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾[٤] وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الرسولُ بلِّغْ ما أُنزل

---

(١) المبسوط (١٠ ـ ٨٥).
(٢) الحج: ٣٩ ـ ٤٠.
(٣) الحج: ٤١.
(٤) يوسف: ١٠٨.

إليك من ربِّك وإن لم تفعل فما بلَّغت رسالته، والله يعصِمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾(١).

وأعداء الله لا بد صادون أولياءه عن تبليغ عباده دعوته ولا يتركون لهم سبيلاً إلى الناس كما لا يأذنون للناس أن يسمعوا الدعوة إلى الله ثم يستجيبوا أو لا يستجيبوا وإنما يصدون الدعاة عن الدعوة ويصدون الناس عن السماع والاستجابة ولا يرضون حتى بالمهادنة والمتاركة حتى يحكم الله بينهم وبين دعاة الحق، فقد طلب شعيب من قومه أن يتركوا القعود في الطرقات يتوعدون الناس ويصدون المؤمنين عن سبيل الله وطلب منهم الصبر حتى يحكم الله بينه وبينهم فلم يكن منهم إلا الاستكبار وتهديده بإخراجه من البلد أو أن يعود هو وأتباعه في الكفر قال تعالى عنه: ﴿ولا تقعُدوا بكل صراطٍ تُوعِدون وتصدُّون عن سبيل الله من آمن به وتَبغونها عوجاً، واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثَّركم، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين * وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالذي أُرسلتُ به وطائفةٌ لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين * قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنَّك يا شعيبُ والذين آمنوا معك من قريتنا، أو لتعودُنَّ في ملَّتنا، قال أَوَ لَوْ كنَّا كارهين!!﴾(٢).

وإذا كان الصادون عن سبيل الله في الأمم السابقة نالوا جزاءهم بعذاب من الله مباشرة فإن الله قد أراد أن يكون عذاب أعدائه بعد الرسالة الخاتمة على أيدي أوليائه المجاهدين في سبيله من أمة محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله أضلَّ أعمالهم * والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزِّل على محمد وهو الحقُّ من ربِّهم كفَّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم * ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحقَّ من ربهم، كذلك يضرب الله للناس أمثالهم * فإذا لقيتم الذين كفروا فضَرْبَ الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشُدُّوا الوَثاق فإما مَنّاً بعد وإمَّا فداءً حتى تضعَ الحَرْبُ أوزارَها، ذلك ولو يشاء الله لانتصرَ منهم، ولكن ليبلوَ بعضكم ببعض، والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يُضِلَّ أعمالهم﴾(٣).

(١) المائدة: ٦٧.
(٢) الأعراف: ٨٦ ـ ٨٨.
(٣) محمد: ١ ـ ٤.

قال سيد قطب رحمه الله: (وجاهد الإسلام... لتقرير حرية الدعوة ـ بعد تقرير حرية العقيدة ـ فقد جاء الإسلام بأكمل تصور للوجود والحياة وبأرقى نظام لتطور الحياة، جاء بهذا الخير ليهديه إلى البشرية كلها ويبلغ إلى أسماعها وإلى قلوبها، فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر ولا إكراه في الدين، ولكن ينبغي قبل ذلك أن تزول العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير للناس كافة كما جاء من عند الله للناس كافة وأن تزول الحواجز التي تمنع الناس أن يسمعوا وأن يقتنعوا وأن ينضموا إلى موكب الهدى إذا أرادوا، ومن هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغية في الأرض تصد الناس عن الاستماع إلى الهدى وتفتن المهتدين أيضاً فجاهد الإسلام ليحطم هذه النظم الطاغية وليقيم مكانها نظاماً عادلاً يكفل حرية الدعوة إلى الحق في كل مكان وحرية الدعاة وما يزال هذا الهدف قائماً وما يزال الجهاد مفروضاً على المسلمين ليبلغوه إن كانوا مسلمين)[1].

---

(١) في ظلال القرآن (٣ ـ ٢٩٤).

المبحث الثالث

نيل الشهادة في سبيل الله

فوز المجاهد بنيل الشهادة في سبيل الله، وهو هدف لا يصل إليه إلا من اصطفاه الله اصطفاء ورضي عنه وجعله في زمرة صفوة عباده من سالكي صراطه المستقيم: النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كما قال سبحانه: ﴿ومن يُطعِ اللهَ والرسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحينَ وحَسُنَ أولئك رفيقاً﴾[1]. وإذا كان الشهيد ممن اصطفاهم الله فإن من أعظم أهداف المجاهد أن ينال هذا الاصطفاء ليفوز بالحياة السعيدة الأبدية بعد مفارقته للحياة الفانية مباشرة. وهذا ما دعا المؤمنين الصادقي الإيمان إلى لقاء أعداء الله في ساح الوغى راغبين في إعلاء كلمة الله وفي لقاء ربهم سبحانه بدمائهم الطرية، وجعل الشهيد وحده هو الذي يتمنى أن يرجع إلى الدنيا مراراً، لا للبقاء بين الأهل والأحباب والأموال وغيرها مما تتعلق به النفوس قبل لقاء الله، بل ليقتل شهيداً في كل مرة لما رأى وذاق من رضوان الله ونعيمه لمن اصطفاه شهيداً من بين المجاهدين في سبيله. قال تعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلمَ الله الذين آمنوا ويتَّخذَ منكم شهداء، والله لا يحبُّ الظالمين * وليمحِّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمَّا يَعْلَمِ الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾[2].

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «ما أحد

(١) النساء: ٦٩.

(٢) آل عمران: ١٤٠/١٤٢.

يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة»(١).

قال ابن القيم رحمه الله: (ومنها ـ أي بعض الحكم التي وقعت في غزوة أحد ـ أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه والمقربون من عباده، وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة. وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء، تراق دماؤهم في محبته ومرضاته ويؤثرون رضاه ومَحَابَّه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو)(٢).

وقد سبق الكلام على فضل الشهادة والشهداء في أول الرسالة، وإنما ذكر هنا من حيث أن الشهادة في سبيل الله هدف من أهداف الجهاد في سبيل الله.

---

(١) البخاري رقم: ٢٨١٧ فتح الباري (٦ ـ ٣٢) ومسلم (٣ ـ ١٤٩٨).
(٢) زاد المعاد (٢ ـ ١١١).

المبحث الرابع

تصفية الصف الإسلامي من عناصر الفساد

المراد بالصف الإسلامي جماعة المسلمين الذين يطيعون الله في أمره ونهيه في وقت الرخاء ووقت الشدة، وتسميتهم بالصف للدلالة على اجتماع كلمتهم ومحبتهم ووقوفهم صفاً واحداً متراصاً مستوياً، كما هو شأنهم في صلاة الجماعة التي أمر الله فيها على لسان رسوله ﷺ بتسوية الصفوف وإقامتها ونهى عن التقدم أو التأخر فيها وعن الخلل بينها وكره ﷺ أن يصف المصلون بين السواري حتى لا تكون بينهم حواجز وفواصل من سواهم ففي حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سووا صفوفكم فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة»[1]. وفي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لتسوّن صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم»[2].

وهذه التسوية للصفوف التي أمر بها الرسول ﷺ المسلمين في صلاتهم هي التي يحبها الله سبحانه منهم في جهادهم في سبيل الله وكان ﷺ يصفهم للجهاد كما كان يصفهم في الصلاة، قال تعالى: ﴿إنَّ الله يحبُّ الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنهم بنيان مرصوص﴾[3]. قال ابن كثير رحمه الله: (فهذا إخبار من الله تعالى بمحبته عباده المؤمنين إذا صفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله لتكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر

(١) البخاري رقم: ٧٢٣ فتح الباري (٢ ـ ٢٠٩) ومسلم (١ ـ ٣٢٤).
(٢) البخاري رقم: ٧١٧ فتح الباري (٢ ـ ٢٠٦) ومسلم (١ ـ ٣٢٤).
(٣) الصف: ٤.

العالي على سائر الأديان)[1] ثم ساق حديثاً رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يضحك الله إليهم: الرجل يقوم من الليل، والقوم إذا صفوا للصلاة، والقوم إذا صفوا للقتال»[2] وصف الصلاة كصف القتال في سبيل الله، يميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، لأن المؤمن الصادق يدوم في صف الصلاة في المنشط والمكره فلا يترك الصلاة في المسجد مع الجماعة ليلاً ونهاراً، إلا لعذر شرعي بخلاف المنافق فإنه ينشط في الأوقات التي لا يثقل على الجسم فيها مفارقة الفراش والتي يعلم أن عيون الخلق تراه فيها أكثر من غيرها، لذلك كانت أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا...»[3]. وإن كان الجهاد في سبيل الله أكثر تمييزاً للمنافقين من الصلاة لأن الصلاة مهما ثقلت عليهم لا يكون ثقلها كثقل بذل النفس والمال، ولكنهما يشتركان في تمييز المنافقين في الجملة ولذلك قال سبحانه: ﴿واستعينوا بالصَّبْرِ والصلاةِ، وإنَّها لَكبيرةٌ إلاَّ على الخاشعين﴾[4] أي إن الصلاة ثقيلة على غير الخاشعين أي الخاضعين لله المطيعين له وإذا كانت ثقيلة على بعض المسلمين لضعف إيمانهم ومعاصيهم فإنها أثقل على المنافقين[5].

وشر المنافقين على المسلمين عندما يشاركونهم في صف الصلاة أخف من شرهم عندما يظهرون مشاركتهم في القتال، لأن غاية شرهم بالمشاركة في الصلاة هي أن يخدعوا المؤمنين بظنهم فيهم الخير. أما شرهم بمشاركتهم في صف القتال فإنه يتعدى إلى خذلان المسلمين وقت الحاجة وتثبيطهم عن الجهاد في سبيل الله.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤ ـ ٣٥٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤ ـ ٣٥٨) وأورد الحديث السيوطي في الجامع الصغير رقم: ٣٥٥٥ ورمز له بالصحة. وهو بشرح المناوي (٣ ـ ٣٣٦).

(٣) البخاري رقم: ٦٥٧ فتح الباري (٢ ـ ١٤١) ومسلم (١ ـ ٤٥١).

(٤) البقرة: ٤٥.

(٥) راجع جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١ ـ ٢٥٩ ـ ٢٦١).

ولهذا كان من حكمة الله سبحانه أن جعل الجهاد كاشفاً لمخبوءات صدورهم ومكنونات ضمائرهم، فبينما تراهم يتبجحون بـالإيمان وحب الله ورسوله وقت الرخاء تجدهم يشحون بالمال والنفس ويفرون من المعركة وقت القتال ويثبطون غيرهم عنه، ولا قدرة للمسلمين على كشف كفرهم الباطن ونفاقهم الماكر كشفاً كاملاً بدون ذلك، لأن الله سبحانه اختص بعلم الغيب، والنفاق من الغيب الذي تنطوي عليه الصدور فلا يعلمه إلا علّام الغيوب فكان من رحمته بعباده المؤمنين أن كلفهم الجهاد في سبيله ليمحصهم من جهة ويعلي بهم كلمته من جهة أخرى وليفضح لهم عدوهم المندس في صفوفهم من جهة ثالثة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ما كان الله ليذرَ المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميزَ الخبيثَ من الطيب، وما كان الله ليطلعَكم على الغيب، ولكنَّ الله يجتبي من رسلِه من يشاء، فآمنوا بالله ورسلِه، وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجرٌ عظيم﴾[1].

قال القرطبي رحمه الله: (وما كان الله ليطلعكم على الغيب يا معشر المؤمنين، أي ما كان الله ليعين لكم المنافقين حتى تعرفوهم، ولكن يظهر ذلك لكم بالتكليف والمحنة، وقد ظهر ذلك في يوم أحد، فإن المنافقين تخلفوا وأظهروا الشماتة، فما كنتم تعرفون هذا الغيب قبل هذا فالآن قد أطلع الله محمداً عليه السلام وصحبه على ذلك)[2].

وقال سبحانه: ﴿الم * أحَسِبَ الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون * ولقد فتَّنا الذين من قبلهم فليعلمنَّ الله الذين صدقـوا وليعلمنَّ الكاذبين﴾[3].

وقال ابن القيم رحمه الله: (ومنها أي بعض الحكم التي كانت في وقعة أحد أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر وطار لهم الصيت دخل معهم في الإسلام ظاهراً من ليس معهم فيه باطناً فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبب لعباده محنة ميزت بين

(١) آل عمران: ١٧٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤ ـ ٢٨٩).
(٣) العنكبوت: ١ ـ ٣.

المؤمن والمنافق فأطلع المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة وتكلموا بما كانوا يكتمونه وظهرت مخبآتهم وعاد تلويحهم صريحاً وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساماً ظاهراً وعرف المؤمنون أن لهم عدواً في نفس دورهم وهم معهم لا يفارقونهم، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم، قال الله تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾)[1].

ولعل من الأفضل نقل ما نبه عليه سيد قطب رحمه الله من إطالة الكلام عن المنافقين في أول سورة البقرة، بخلاف المؤمنين والكافرين، لأن كلا الفريقين واضح بخلاف المنافقين فإن ما يبطنونه يحتاج إلى كشف وبيان أكثر قال رحمه الله: (ولعلنا نلمح أن الحيز الذي استغرقه رسم هذه الصورة الثالثة أفسح من الحيز الذي استغرقه رسم الصورة الأولى والصورة الثانية، وذلك أن كلاً من الصورتين الأوليين ـ صورة المؤمنين، وصورة الكافرين ـ فيه استقامة على نحو من الأنحاء، وفيه بساطة على معنى من المعاني: الصورة الأولى صورة النفس الصافية المستقيمة في اتجاهها، والصورة الثانية صورة النفس المعتمة السادرة في اتجاهها. أما الصورة الثالثة فهي صورة النفس الملتوية المريضة المعقدة المقلقة، وهي في حاجة إلى مزيد من اللمسات ومزيد من الخطوط كيما تتحدد وتتعرف بسماتها الكثيرة، على أن هذه الإطالة توحي كذلك بضخامة الدور الذي كان يقوم به المنافقون في المدينة لإيذاء الجماعة المسلمة ومدى التعب والقلق والاضطراب الذي كانوا يحدثونه، كما توحي بضخامة الدور الذي يمكن أن يقوم به المنافقون في كل وقت داخل الصف المسلم ومدى الحاجة للكشف عن ألاعيبهم ودسهم اللئيم)[2].

وبهذا يظهر أن من أهداف الجهاد في سبيل الله تصفية صف المجاهدين من عناصر الفساد التي تكون سبباً في الخذلان والخلخلة والتثبيط إن هي بقيت في ذلك الصف الطاهر النظيف المتراص بدونها.

---

(١) زاد المعاد (٢ ـ ١١١).

(٢) في ظلال القرآن (١ ـ ٤٥).

وتصفية الصف الإسلامي من هذا العنصر تكون على مرحلتين: المرحلة الأولى معرفة صفاته التي تفضحه وتكشفه، والمرحلة الثانية طرده من صف المجاهدين والاحتراز من فساده وإفساده.

وقد منَّ الله على المؤمنين ببيان صفات المنافقين وأرشد إلى طـردهم والتحرز منهم.

بعض صفات المنافقين

إن الصفات التي تميز المنافقين كثيرة جداً في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وليس المراد هنا تتبع تلك الصفات ونصوصها كلها، وإنما المراد ذكر طرف من صفاتهم في هذا الباب خاصة: باب الجهاد في سبيل الله.

فمن صفاتهم: التهوين من شأن العدو وإظهار عدم الاكتراث به ليوحوا إلى المؤمنين عدم وجود خطر يستحق الإعداد والخروج للقتال وهذه الصفة من أخطر الصفات على المؤمنين لولا توفيق الله تعالى إياهم قال تعالى: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلمَ المؤمنين، وليعلمَ الذين نافقوا وقيل لهم تعالَوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا؛ قالوا لو نعلم قتالاً لاتَّبعناكم، هم للكفر يومئذ أقربُ منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، والله أعلم بما يكتمون﴾[1].

قال ابن كثير ـ نقلاً عن ابن إسحاق ـ : (حتى إذا كان الشوط بين المدينة وأحد انخذل عنه عبدالله بن أُبَيّ بثلث الناس وقال: أطاعهم وعصاني ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب واتبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام والد جابر بن عبدالله، فقال: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم وعندما حضر من عدوهم. قالوا لو نعلم إنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكنا لا نرى أن يكون قتال)[2].

ومن صفاتهم: الإحجام عن الخروج مع المجاهدين إذا كان في الخروج مشقة

(١) آل عمران: ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٢) البداية والنهاية (٤ ـ ١٠).

وتمحل الأعذار الكاذبة وتأكيدها بالحلف وكثرة الاستئذان، والإقدام على الخروج إذا لاح لهم مغنم بدون خطر.

قال تعالى: ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتَّبعوك، ولكن بَعُدَت عليهم الشُّقَّة، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، يُهلكون أنفسهم، والله يعلم إنهم لكاذبون * عفا الله عنك لم أذنتَ لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين * لا يستأذنُك الذين يُؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون * ولو أرادوا الخروج لأعدُّوا له عدّة﴾ الآيات إلى قوله: ﴿ومنهم من يقول ائذنْ لي ولا تَفتنّي، ألا في الفتنة سقطوا وإنَّ جهنم لمحيطة بالكافرين﴾[1].

وقال تعالى: ﴿سيقول المخلَّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها: ذَرُونا نتَّبعكم، يريدون أن يبدِّلوا كلام الله، قُلْ لن تتّبعونا، كذلكم قال الله من قَبْلُ، فسيقولون: بل تحسدوننا، بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فرح المخلَّفون بمقعدهم خِلاَفَ رسول الله، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وقالوا: لا تنفروا في الحرِّ، قُلْ نارُ جهنم أشدُّ حراً لو كانوا يفقهون﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وإذ قالت طائفةٌ منهم يا أهلَ يَثْرِب لا مُقامَ لكم فارجعوا، ويستأذنُ فريقٌ منهم النبيَّ يقولون إنَّ بيوتَنا عَوْرَة وما هي بعَوْرة، إنْ يريدون إلا فراراً﴾[4].

ومن صفاتهم: التشكيك في وعد الله المجاهدين بالنصر على أعدائهم، قال تعالى: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ ما وعدنا الله ورسولُه إلا غروراً﴾[5].

---

(١) التوبة: ٤٢ ـ ٤٩.
(٢) الفتح: ١٥.
(٣) التوبة: ٨١.
(٤) الأحزاب: ١٣.
(٥) الأحزاب: ١٢.

ومن صفاتهم ظهور الخوف الشديد على وجوههم إذا ظنوا أن الله قد فضحهم وأظهر ما في قلوبهم للمجاهدين في سبيله إما بالآيات القرآنية. وإما بالقرائن الواضحة من تصرفهم ولا سيما وقت الابتلاء، قال تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نُزِّلت سورةٌ، فإذا أُنزلت سورة محكمة وذُكر فيها القتالُ رأيت الذين في قلوبهم مرضٌ ينظرون إليك نظر المغشيِّ عليه من الموت﴾[١].

ومن صفاتهم عدم الاطمئنان ولو سمعوا أن العدو قد ذهب وابتعادهم عن ساح المعارك وتلمس الأخبار من بعيد، كما قال تعالى: ﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا، وإن يأتِ الأحزابُ يودُّوا لو أنهم بادون في الأعراب، يسألون عن أنباءكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً﴾[٢].

ومن صفاتهم تثبيط المجاهدين في سبيل الله عن الجهاد وتعويقهم وكذلك تثبيط إخوانهم من أمثالهم في النفاق أو ضعاف الإيمان، كما مضى في قول الله تعالى عنهم: ﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ وقوله بعد ذلك: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا: لو أطاعونا ما قتلوا، قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾[٣]. وكذا قوله: ﴿وقالوا لا تنفروا في الحر﴾. وقال تعالى: ﴿قد يعلمُ الله المعوِّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمَّ إلينا، ولا يأتون البأس إلا قليلاً﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿هم الذين يقولون لا تُنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضُّوا، ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون﴾[٥] وهذا من التثبيط عن الانفاق على المجاهدين في سبيل الله، فهم يثبطون عن مباشرة الجهاد بالنفس أو الإنفاق فيه من المال.

ومن صفاتهم تبجحهم بمناصرة إخوانهم الكفار وموالاتهم على الحياة والموت وهم كاذبون، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذين نافقوا يقولون

(١) محمد: ٢٩.
(٢) الأحزاب: ٢٠.
(٣) آل عمران: ١٦٨.
(٤) الأحزاب: ١٨.
(٥) المنافقون: ٧.

لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب: لئن أُخرجتم لنخرجنَّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً، وإن قوتِلتم لننصرنَّكم، والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أُخرجوا لا يخرجون معهم، ولئن قُوتلوا لا ينصرونهم، ولئن نصروهم ليولُنَّ الأدبار ثم لا ينصرون﴾[1].

وبمعرفة صفات العناصر الفاسدة يستطيع المجاهدون في سبيل الله أن يقوا أنفسهم من اندساس أهل النفاق وضعاف الإيمان في صفوفهم والنجاة من تشكيكهم وإشاعاتهم الكاذبة أو المعوقة عن الجهاد في سبيل الله، بل ويستطيعون تهديدهم وإيقافهم عند حدهم، وقد هددهم الله تعالى العالم بخفايا نفوسهم وأمر رسوله ﷺ أن يطردهم من صف المجاهدين ويشعرهم بعلمه بما هم عليه من النفاق والكذب والغش، الذي أظهره تخلفهم عن الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم بدون عذر والمنافق الذي يطرد من الصف الجهادي يحرم من الصف الذي كان سيقف على جنازته بعد موته مصلياً عليه داعياً له لو لم يفضحه الله تعالى ويظهر كفره الباطن، قال سبحانه: ﴿لئِنْ لم يَنْتَهِ المنافقون والذين في قلوبهم مَرَضٌ والمُرْجفون في المدينة لنغرينَّك بهم، ثم لا يجاورونك فيها إلاَّ قليلاً * ملعونينَ أينما ثُقِفوا أُخذوا وقُتِّلوا تقتيلاً * سنة الله في الذين خَلَوا من قَبْلُ ولن تجدَ لسنة الله تبديلاً﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿فإنْ رَجَعَك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقُلْ لن تخرجوا معي أبداً، ولن تقاتلوا معي عدواً، إنَّكم رَضِيتم بالقُعود أوَّلَ مرة فاقعُدوا مع الخالفين * ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً، ولا تَقُم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾[3].

ففي معرفة صفات المفسدين فوائد كثيرة:

منها وقاية الصف الإسلامي من اندساسهم فيه وتشكيكهم له أو لبعض أفراده في نصر الله لهم أو في مقدرته على قتال عدوه، أو التهوين من شأن العدو

(١) الحشر: ١١ ـ ١٢.
(٢) الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢.
(٣) التوبة: ٨٣ ـ ٨٤.

والقتال فلا يغتر بهم ويحسبهم من جنده ثم يندم عندما يخذلونه وقت حاجته، بل يحرمهم من تحقيق مآربهم من تثبيط المجاهدين عن الجهاد، والفوز بالغنائم والأموال عندما يرون الفرصة سانحة لذلك دون خطر عليهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿سيقول المخلَّفون إذا انطلقتم إلى مغانمَ لتأخذوها: ذَرُونا نتَّبِعْكم، يريدون أن يبدِّلوا كلامَ الله، قُلْ لن تتَّبعونا كذلكم قال الله من قَبْلُ، فسيقولون: بل تحسدوننا، بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾[١].

قال ابن قدامة رحمه الله: (ولا يستصحب الأمير مخذِّلاً وهو الذي يثبط الناس عن الغزو ويزهدهم في الخروج إليه والقتال والجهاد مثل أن يقول: الحر والبرد شديد والمشقة شديدة ولا تؤمن هزيمة هذا الجيش وأشباه هذا.

ولا مرجفاً، وهو الذي يقول: قد هلكت سرية المسلمين ومالهم مدد ولا طاقة لهم بالكفار، والكفار لهم قوة ومدد وصبر ولا يثبت لهم أحد ونحو هذا.

ولا من يعين على المسلمين بالتجسس للكفار وإطلاعهم على عورات المسلمين ومكاتبتهم بأخبارهم ودلالتهم على عوراتهم وإيواء جواسيسهم.

ولا من يوقع العداوة بين المسلمين ويسعى بالفساد، لقول الله تعالى: ﴿ولكنْ كره الله انبعاثَهم فثبَّطهم وقيل اقعُدوا مع القاعدين، لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خَبَالاً، ولأوضعوا خلالكم يَبْغُونكم الفتنة﴾[٢]. ولأن هؤلاء مضرة على المسلمين فيلزم منعهم....

وإن كان الأمير أحد هؤلاء لم يستحب الخروج معه لأنه إذا منع خروجه تابعاً فمتبوعاً أولى ولأنه لا تؤمن المضرة على من صحبه)[٣].

وإن المتأمل في أحوال المسلمين في هذا الزمان ليجد أن عناصر الفساد الموالية لأعداء الله من اليهود والنصارى والمشركين التي تثبط المسلمين عن الجهاد في سبيل الله وتزهدهم في الخروج إليه بشتى الوسائل ومختلف الأساليب والمرجفة

---

(١) الفتح: ١٥.
(٢) التوبة: ٤٦/٤٧.
(٣) المغني (٩ - ٢٠١).

بينهم والمقللة من شأن المسلمين وقوتهم والمشككة في قدرتهم على الوقوف أمام أعداء الإسلام، والمعينة للكافرين بالتجسس على المسلمين للكافرين والموقعة للعداوة بين المسلمين. إن عناصر الفساد التي هذا شأنها وهذه صفاتها أصبحت أكثر عدداً في جيوش الشعوب الإسلامية إلا ما شاء الله، وهذا من أهم الأسباب التي ذل بها المسلمون وسيطر بها عليهم الكافرون وسيكون هذا هو دأبهم إلى أن يصفي الله صف المسلمين فينفي منه الخبث، ويبقى المؤمنون الصادقون ولو قلوا متميزين عن المنافقين، والمؤمنون الصادقون ـ ولو قلوا ـ هم الذين ينصرهم الله تعالى على عدوه وعدوهم لا هذا الغثاء الذي يصعب التمييز بينه وبين أعداء الله من الكافرين.

قال تعالى: ﴿ما كان الله لِيَذَرَ المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميزَ الخبيثَ من الطيِّب﴾[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله بمناسبة الكلام على إصابة المسلمين يوم أحد: (ومنها ـ أي من الفوائد ـ أن عادة الرسل أن تبتلى وتكون لها العاقبة كما تقدم في قصة هرقل مع أبي سفيان، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائماً دخل في المؤمنين من ليس منهم ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين ليتميز الصادق من الكاذب، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفياً عن المسلمين فلما جرت هذه القصة وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول عاد التلويح تصريحاً وعرف المسلمون أن لهم عدواً في دورهم فاستعدوا لهم وتحرروا منهم)[2].
فلا بدَّ للمسلمين أن يبتلوا حتى يخلو صفهم من الخبث الذي يعوقهم عن الجهاد في سبيل الله فيواجهوا عدوهم على حقيقتهم كيفما كانوا فيثبتون كالجبال الرواسي فينالون من ربهم ما وعدهم به من النصر ويصطفي من شاء منهم شهيداً وقد خنس المثبطون والمرجفون وباءوا بالخيبة الكاملة.

---

(١) آل عمران: ١٧٩.

(٢) فتح الباري (٧ ـ ٣٤٧).

المبحث الخامس

مقارنة بين أهداف الجهاد في سبيل الله
وغيره من أنواع القتال

إن الذي رزقه الله الإنصاف والعدل إذا قارن بين الأهداف التي شرع من أجلها الجهاد، مما ذكر هنا وما لم يذكر، وبين أهداف أنواع القتال الأخرى ليظهر له جلياً أن الجهاد في سبيل الله رحمة أرسلها الله للناس كالإسلام، وكلف أولياءه القيام به لتعم رحمته العالمين، وإن العالم كله، لو علم الخير الذي أراده الله له من شرع الجهاد وعقد الألوية وإعداد العدة، لو علم العالم كله ذلك الخير الذي أراده الله وأنصف لما كان حرباً على أولياء الله المجاهدين، بل لكان عوناً ونصيراً لهم، ولو لم يدخل في دين الإسلام، لأن الغاية من الجهاد لو تحققت أسعدت البشرية كلها في الدنيا وجزاؤها عند ربها في الآخرة.

وقد حصل ذلك فعلاً عندما رأى الناس تلك السعادة تغمر شعوبهم بفتوح المسلمين ففضلوا أن يستظلوا بعدل الفاتحين وحكمهم على حكم ملوكهم وعظمائهم الذين كانوا يعتبرون الشعوب عبيداً ذليلة لهم.

فإذا ما رجع الباحث إلى الهدف العام للمجاهدين في سبيل الله، والهدف العام للمقاتلين من الكفار وجد أن هدف المجاهدين المسلمين هو إرضاء الله بسلوك سبيله وصراطه المستقيم وإعلاء كلمته، ووجد أن هدف الكفار من قتالهم هو تمكين الطاغوت في الأرض وإرضاء الشيطان وسلوك سبله التي تسخط الله وتشقي البشر، قال تعالى: ﴿الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل الله، والذين

كفروا يقاتلون في سبيلِ الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إنَّ كَيْدَ الشيطان كان ضعيفاً﴾[(١)].

والمجاهدون إنما يبذلون نفوسهم وأموالهم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن ظلم الطغاة إلى عدل الإسلام.

أما الكفار فإنهم يقاتلون لإخراج الناس من النور إلى الظلمات ومن العدل إلى الظلم، وهؤلاء أهل الكتاب الذين شرفهم الله بإنزال كتبه وإرسال رسله يكفرون بربهم ويحسدون من آمن به ويتمنون أن يخرجوا من ذاق حلاوة الإيمان وعدل الإسلام إلى مرارة الكفر وظلمه، قال تعالى: ﴿ودَّ كثير من أهلِ الكتابِ لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كفّاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبينَ لهم الحقُّ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿ومن أظلم ممَّن افترى على الله الكذب وهو يُدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القومَ الظالمين * يريدون ليطفئوا نورَ الله بأفواههم والله مُتِمُّ نورِه ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسولَه بالهُدَى ودينِ الحق ليظهرَه على الدين كلِّه ولو كره المشركون * يا أيها الذين آمنوا هل أدلُّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تُؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون * يغفرْ لكم ذنوبَكم، ويُدْخِلْكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكنَ طيبةً في جناتِ عَدْنٍ، ذلك الفوز العظيم * وأخرى تُحِبُّونها نَصْرٌ من الله وفتح قريب وبشِّر المؤمنين﴾[(٣)].

تأمل. إنَّ الكفار لا أحد أظلم منهم لأنهم يفترون الكذب على الله في حال كونهم يُدعَون إلى الإسلام. وهدفهم إطفاء نور الله والتمكين لظلمة الكفر. والمسلمون يبذلون أنفسهم وأموالهم لله تعالى لا لشيء آخر وهدفهم إظهار دين الله ولا يريدون إلا رضوان الله وثوابه في الآخرة وإذا نصرهم الله على عدوهم فهو فضل منه فأين هدف أعداء الله من هدف أوليائه.

---

(١) النساء: ٧٦.
(٢) البقرة: ١٠٩.
(٣) الصف: ٧ ـ ١٣.

المجاهد في سبيل الله يقاتل وهو يردد: الله مولانا ولا مولى لكم والمقاتل في سبيل الطاغوت يقاتل وهو يردد أعل هبل ولكل زمان هبله ـ كما في حديث البراء بن عازب: قال أبو سفيان يوم أحد: (أعل هبل)، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه» قالوا: ما نقول، قال: «قولوا الله أعلى وأجل» قال أبو سفيان لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه» قالوا ما نقول، قال: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم»[١] والمجاهدون هدفهم من جهادهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعمارة المساجد وحماية دور العبادة من التخريب والاعتداء، بخلاف المقاتلين من غير المسلمين فإن هدفهم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وإشاعة الظلم وتهديم دور العبادة في الأرض قال تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضُهم أولياءُ بعض، يأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويُؤتون الزكاة، ويُطيعون الله ورسولَه، أولئك سيرحمهم الله، إن الله عزيزٌ حكيمٌ﴾[٢]. وقال: ﴿إنما يَعْمُر مساجدَ الله من آمن بالله واليوم الآخر، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يَخْشَ إلاَّ اللهَ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾[٣] وقال: ﴿ولولا دَفْعُ الله الناسَ بعضَهم ببعضٍ لهدِّمت صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرنَّ اللهُ من ينصره إن الله لقويٌّ عزيز * الذين إن مكَّناهم في الأرض أقاموا الصلاة، وآتَوُا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونَهوا عن المنكر ولله عاقبةُ الأمور﴾[٤].

وقال عن أعدائه: ﴿ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر، أولئك حَبِطت أعمالهم وفي النار هم خالدون﴾[٥].

وقال: ﴿المنافقون والمنافقات بعضُهم من بعض، يأمرون بالمنكر وينهَوْن عن المعروف ويقبِضُون أيديَهم، نَسُوا الله فنسيَهم، إن المنافقين هم الفاسقون﴾[٦].

والمجاهدون في سبيل الله لا يدفعهم إلى الجهاد الطمع في الدنيا وأعراضها

(١) صحيح البخاري رقم ٤٠٤٣ فتح الباري (٧ ـ ٣٤٩).
(٢) التوبة: ٧١.
(٣) التوبة: ١٨.
(٤) الحج: ٤٠ ـ ٤١.
(٥) التوبة: ١٧.
(٦) التوبة: ٦٧.

ولا حب التسلط والأمجاد الشخصية والعصبيات القومية ولا غير ذلك لأنهم يجاهدون في سبيل الله لا في سبيل غيره، وإذا التفت بعضهم إلى شيء من تلك الأمور فخالط قصدها إخلاصه ذكّره الله بهدفه الأساسي زاجراً له من أن يخرج عنه إلى غيره، وكان المسلمون قبل غزوة بدر يتوقون إلى العير المحملة راغبين في أن يغتموها دون لقاء مع عدوهم الكافر ولكن الله تعالى ذكرهم بأن لقاء العدو خير لهم وإن كانوا قلة وعدوهم كثيراً قال تعالى: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنّها لكم، وتودُّون أن غيرَ ذات الشوكة تكون لكم، ويريد الله أن يحقَّ الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين﴾[1].

وعندما اختلفوا في أمر الغنائم ذكّرهم الله فأمرهم بتقواه وأسند حكم الغنائم إليه ليتجردوا من أي قصد غير قصد وجهه تعالى فقال: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسولِ، فاتَّقوا الله وأصلحوا ذاتَ بينكم، وأطيعوا الله ورسولَه إن كنتم مؤمنين﴾[2].

والمجاهد في سبيل الله يجب أن يقبل من عدوه الذي يحاربه في المعركة إسلامه بمجرد إعلانه له وليس له أن يقتله ويأخذ سلبه متأولاً إنه إنما أسلم متعوذاً، وإن كان لا بد من التثبت من صحة إسلامه بالتزام شرائعه، ولهذا نهى الله المجاهدين عن رد إسلام عدوهم في المعركة وأمرهم بالتثبت فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيَّنوا، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عَرَضَ الحياة الدنيا، فعند الله مغانمُ كثيرةٌ، كذلك كنتم من قَبْلُ فمنَّ الله عليكم، فتبينوا إنَّ الله كان بما تعملون خبيراً﴾[3] وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون، فقال السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته فأنزل الله في ذلك إلى قوله: ﴿عرض الحياة الدنيا﴾[4].

(١) الأنفال: ٧.
(٢) الأنفال: ١.
(٣) النساء: ٩٣.
(٤) الحديث رقم: ٤٥٩١ وهو في فتح الباري (٨ ـ ٢٥٨).

قال الحافظ: (وفي الآية دليل على أن من أظهر شيئاً من علامات الإسلام لم يحل دمه حتى يختبر أمره)[1] بل قال بعض فقهاء الإسلام: إن من قتل من أظهر إسلامه قتل به قصاصاً،قال القرطبي رحمه الله :(والمسلم إذا لقي الكافر ولا عهد له جاز له قتله، فإن قال: لا إله إلا الله لم يجز قتله لأنه قد اعتصم بعصام الإسلام المانع من دمه وماله وأهله، فإن قتله بعد ذلك قتل به، وإنما سقط القتل عن هؤلاء لأجل أنهم كانوا في صدر الإسلام وتأولوا أنه قالها متعوذاً وخوفاً من السلاح وأن العاصم قولها مطمئناً فأخبر النبي ﷺ أنه عاصم كيفما قالها ولذلك قال لأسامة: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟!» أخرجه مسلم)[2].

وأنكر الله سبحانه على رسوله أن يأخذ الأسرى من أعدائه قبل أن يقضي على شوكتهم قضاء لا يقدرون بعده على الصد عن سبيل الله، حتى لا يطمع المسلمون في أسر أعدائهم وتشوب نياتهم شائبة، كما قال تعالى: ﴿ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى حتى يُثخن في الأرض، تريدون عَرَضَ الدنيا والله يريدُ الآخرة، والله عزيزٌ حكيمٌ﴾[3].

وقد كان المجاهدون من السلف الصالح يلتزمون التزاماً كاملاً بهذه الأهداف التي يشملها كلها هذا القيد الملازم للجهاد: (في سبيل الله) وبقراءة هذه القصة المشتملة على الحوار الذي جرى بين بعض الصحابة رضي الله عنهم وبعض قادة الكفر يظهر هذا المعنى جلياً: (بعث رستم ـ أيام القادسية ـ إلى سعد أن يبعث إليه برجل عاقل عالم بما أسأله عنه فبعث إليه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه فلما قدم عليه جعل رستم يقول له: (إنكم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونكف الأذى عنكم فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا)، فقال له المغيرة: (إنا ليس طلبنا الدنيا وإنما همنا وطلبنا الآخرة وقد بعث الله إلينا رسولاً قال له: إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فأنا

---

(١) الفتح (٨ ـ ٢٥٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٥ ـ ٣٣٨).
(٣) الأنفال: ٦٧.

منتقم بهم منهم وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به إلا عزّ)،فقال له رستم فما هو؟ فقال: أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله والإقرار بما جاء من عند الله، فقال: ما أحسن هذا وأي شيء أيضاً، قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله قال: وحسن أيضاً، ثم قال رستم: أرأيت إن دخلنا في دينكم ترجعون عن بلادنا؟ قال إي والله لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة قال وحسن أيضاً)[1].

تأمل تفكير المسلم المجاهد في سبيل الله في أي شيء هو، وهدفه ماذا وتأمل تفكير الكافر فيم هو وخوفه علام هو؟

ظن رستم أن المسلمين جاءوا من أجل لقمة العيش وفتات الدنيا فكان أول ما وعد به المسلمين أنهم إذا رجعوا لم يمنعوا تجارتهم من الدخول في البلاد وذكرهم بأنهم كانوا يحسنون إليهم ويكفون عنهم الأذى فأجابه المجاهد أن همنا ليس الدنيا وإنما الآخرة وبين المجاهد أن هدف الجهاد هو إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، وظن الكافر أن المجاهدين قد يكون هدفهم أن يحكموا الناس إذا دخلوا في دينهم ويسيطروا على بلادهم فسأل أرأيت إن دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا فأجاب المجاهد جواباً مؤكداً بالقسم بأنهم يرجعون ولا يقربون بلادهم إلا لتجارة أو حاجة هذه هي أهداف الجهاد في سبيل الله وهكذا طبقها المجاهدون وسيطبقونها في كل وقت ما داموا مجاهدين حقاً في سبيل الله.

وهذه المعاني التي اشتملت عليها أهداف الجهاد في سبيل الله مندرجة هي وغيرها في هذا القيد: (في سبيل الله) قال المودودي رحمه الله: (لكن الجهاد الإسلامي ليس بجهاد لا غاية له، وإنما هو الجهاد في سبيل الله وقد لزمه هذا الشرط لا ينفك عنه أبداً، وذلك أيضاً من الكلمات التي اصطلح عليها الإسلام لتبيين فكرته وإيضاح تعاليمه، كما أشرت إليه آنفاً، وقد انخدع كثير من الناس بمدلوله اللغوي الظاهر وحسبوا أن إخضاع الناس لعقيدة الإسلام وإكراههم على

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٧ ـ ٣٩).

قبولها هو: (الجهاد في سبيل الله) وذلك أن ضيق صدورهم وعدم اتساع مجال تفكيرهم يعوقهم أن يسمـوا بأنفسهم فوق ذلك ويحلقوا في سماء أوسع من سمائهم، لكن الحق أن (سبيل الله) في المصطلح الإسلامي أرحب وأوسع بكثير مما يتصورون وأسمى غاية وأبعد مراماً مما يظنون بها ويزعمون، فكل عمل تقوم به للمصالح العامة وسعادة المجتمع ابتغاء لمرضاة الله لا تريد به مغنماً أو مكسباً في الحياة العاجلة فهو في سبيل الله، في نظر الإسـلام إلى أن قال: (فما قيد الشارع الجهاد بهذا الشرط إلا للدلالة على هذا المعنى فالذي يتطلبه الإسلام أنه إذا قام رجل أو جماعة من المسلمين تبذل جهودها وتستنفد مساعيها للقضاء على النظم البالية الباطلة وتكوين نظام جديد حسب الفكرة الإسلامية فعليها أن تكون مجردة عن كل غرض مبرأة من كل هوى أو نزعة شخصية لا تقصد من وراء جهودها وما تبذل في سبيل غايتها من النفوس والنفائس إلا تأسيس نظام عادل يقوم بالقسط والحق بين الناس ولا تبتغي بها بدلاً في هذه الحياة الفانية ولا يكون من هم الإنسان خلال هذا الكفاح المستمر والجهاد المتواصل لإعلاء كلمة الله أن ينال جاهاً وشرفاً أو سمعة وحسن أحدوثه)[١].

أما غير المسلمين فإنهم لا يحملون السلاح إلا للصد عن سبيل الله والاستعلاء في أرض الله على خلق الله ونهب الخيرات والاستبداد بها دون غيرهم وإكراه البشر على الخضوع لهم والذل بين يديهم وتسخيرهم لأغراضهم وأهوائهم ويشمل ذلك كله وغيره من أطماع أهل الكفر قوله تعالى: ﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾. قال السيد رشيد رضا: (والذين يقاتلون في سبيل الشيطان يطلبون الانتقام والاستعلاء في الأرض بغير الحق وتسخير الناس لشهواتهم ولذاتهم)[٢].

وقال سيد قطب رحمه الله ـ مقارناً بين أهداف المجاهد المسلم والمقاتل الكافر ـ : (فالإسلام لا يعرف قتالاً إلا في هذا السبيل لا يعرف القتال للغنيمة، ولا يعرف القتال للسيطرة، ولا يعرف القتال للمجد الشخصي والقومي، إنه لا يقاتل للاستيلاء على الأرض، ولا للاستيلاء على السكان، لا يقاتل ليجد

---

(١) الجهاد في سبيل الله ص: ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨. (٢) المنار (٥ ـ ٢٦٠).

الخامات للصناعات والأسواق للمنتجات أو لرؤوس الأموال يستثمرها في المستعمرات وشبه المستعمرات، إنه لا يقاتل لمجد شخصي ولا لمجد بيت ولا لمجد طبقة ولا لمجد دولة ولا لمجد أمة ولا لمجد جنس إنما يقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله في الأرض ولتمكين منهجه في تصريف الحياة ولتمتيع البشرية بخيرات هذا المنهج الرباني الإنساني العالمي العام.

وحين يخرج المسلم ليقاتل في سبيل الله بقصد إعلاء كلمة الله وتمكين منهجه في الحياة ثم يقتل يكون شهيداً وينال مقام الشهداء عند الله. وحين يخرج لأي هدف آخر غير هذا الهدف لا يسمى شهيداً ولا ينتظر أجره عند الله بل عند صاحب الهدف الآخر الذي خرج له. والذين يصفونه حينئذ بأنه شهيد يفترون على الله الكذب ويزكون أنفسهم أو غيرهم بغير ما يزكي به الله الناس افتراء على الله)[1].

وها هي دول الكفر تستعبد الشعوب الضعيفة في العالم وتنهب خيراتها وتربي أبناءها على السمع والطاعة لها، فإن لم تصغ لها تلك الشعوب طواعية سلطت عليها أسراب سلاحها وجيوشها وأرغمتها قهراً على الخضوع لها والاستسلام لها، بل وأكرهت أبناءها على الدخول في عقائدها عن طريق وسائل التعليم ووسائل الإعلام التي أعدتها لتحقيق أهدافها، ولا يخفى ذلك على أحد، وفي غزو روسيا الشيوعية لشعب أفغانستان ما يوضح أهداف الكفر، وفي استغلال دول الغرب كأمريكا، ما يوضح كذلك أهداف الكفر، إلا أن الأول في صورة حرب، والثاني في صورة سلم وكلاهما حرب وإن لم يشعر بها من تبلد حسه وفقد عزته.

---

(١) في ظلال القرن (٥ ـ ٧٠٧).

الفصل الثاني
انتصار الحق على الباطل

وفيه ثمانية مباحث:

المبحث الأول	قدم الصراع بين الحق والباطل ودوامه.
المبحث الثاني	حرص الدعاة إلى الله على إخراج الناس من الظلمات إلى النور.
المبحث الثالث	الابتلاء سنة ماضية.
المبحث الرابع	أنواع الابتلاء في سبيل الله.
المبحث الخامس	استعلاء الإيمان ومضاء أنصار الحق.
المبحث السادس	حزب الله هم الغالبون.
المبحث السابع	اهتزاز عروش الطغاة من الدعاة إلى الله
المبحث الثامن	موقف القوة، وموقف التضليل
المبحث التاسع	نماذج يقتدي بها السائرون.

وفيه فرعان:

الفرع الأول	أنموذج الأنبياء والرسل ومن اقتدى بهم في العصر الإسلامي الأول
الفرع الثاني	ذكر أمثلة لنماذج المجاهدين في عصور مختلفة.
المثال الأول	الإمام أحمد بن حنبل.
المثال الثاني	العز بن عبد السلام.
المثال الثالث	شيخ الإسلام بن تيمية.
المثال الرابع	الشيخ محمد بن عبد الوهاب.
المثال الخامس	الشيخ حسن البنا.
المثال السادس	الأستاذ سيد قطب.
المثال السابع	الأستاذ أبو الأعلى المودودي.

المبحث الأول

قدم الصراع بين الحق والباطل ودوامه

اقتضت حكمة الله تعالى أن يوجد للحق أهله الذين يحملونه ويعملون به ويدعون إليه ويجاهدون في سبيله، وأن يوجد للباطل ـ كذلك ـ أهله الذين يحملونه ويعملون به ويدعون إليه ويقاتلون في سبيله، وعلى رأس أهل الحق الأنبياء والرسل منذ خلق الله آدم إلى أن بعث الرسول محمد ﷺ، وعلى رأس أهل الباطل منذ أن وجد الشيطان إلى أن تقوم الساعة بعد أن يفتن أكبر أتباعه الدجال أكثر من في الأرض، فالصراع قائم بين أهل الحق وأهل الباطل قديماً وحديثاً.

ولقد اصطرع آدم وإبليس وزلت قدم آدم أمام إغراء عدوه في أول الأمر ولكنه رجع إلى ربه وندم على خطيئته فتاب الله عليه ولعن عدوه وجعل عز وجل هداه وقاية لمن اتبعه والنار جزاء وعقاباً لمن كفر به وكذبه، قال تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاَّ إبليس أبَى واستكبر وكان من الكافرين * وقلنا يا آدمُ اسكن أنت وزوجُك الجنة وكُلَا منها رغداً حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرةَ فتكونا من الظالمين * فأزلَّهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه، وقلنا اهْبِطوا بعضُكم لبعضٍ عدو ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع إلى حين * فتلقَّى آدمُ من ربِّه كلماتٍ فتابَ عليه إنه هو التواب الرحيم * قلنا اهبِطُوا منها جميعاً فإمَّا يأتينكم مني هُدَى فمَنْ تبع هُداي فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذَّبوا بآياتِنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[1].

---

(١) البقرة: ٣٤ ـ ٣٩.

واشتدت عداوة اللعين لآدم وذريته فأقسم لربه على أن يستولي عليهم ويصدهم عن سبيل الله فهدده الله هو ومن اتبعه بالعقاب الشديد وأطلق له الزمام على إخوانه من شياطين الأنس وأيأسه من عباد الله المتقين فلا سلطان له عليهم لأنه تعالى كافيهم شره، قال تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجُدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجدُ لمن خَلَقْتَ طيناً * قال أرأيتَك هذا الذي كَرَّمتَ عليَّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكنَّ ذريته إلا قليلاً * قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلِبْ عليهم بخَيْلِك ورَجِلِكَ وشاركهم في الأموال والأولاد وعِدْهم وما يَعِدُهم الشيطان إلا غروراً * إن عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ وكَفَى بربِّك وكيلاً﴾[1].

فإبليس ـ كما ترى ـ أراد أن يضلّ كل من يقدر على إضلاله من ذرية آدم ولذلك طلب أن يمد الله له في الأجل إلى يوم القيامة الذي لا ينقطع تناسل بني آدم إلا به حتى يمكنه أن يحاول صد الجميع ولا ينجو منه إلا من لم يجعل الله عليه سبيلاً.

واستمر الصراع بين الحق وأهله وبين الباطل وأهله، فلم يأت رسول من الرسل إلا وقف من يعاديه ويكفر به ويصد عن دينه، واقرأ هذه الآيات وتأمل ما جرى فيها من الحوار بين أهل الحق وأهل الباطل، قال تعالى: ﴿ألَمْ يأتِكم نبأُ الذين من قبلكم قَوْمِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين من بعدهم، لا يعلمهم إلا الله، جاءتهم رسلهم بالبيِّنات، فردُّوا أيديَهم في أفواههم وقالوا: إنّـا كفرنا بما أُرسلتُم به وإنا لفي شكٍّ ممّا تدعوننا إليه مريب * قالت رسُلُهم أفي الله شكٌّ فاطرِ السمواتِ والأرضِ يدعوكم ليغفرَ لكم من ذنـوبكم ويؤخرَكم إلى أجـلٍ مسمّىً؟! قالوا: إن أنتم إلا بشرٌ مثلُنا تريدون أن تصدُّونا عمّا كان يعبد آباؤنا، فأتونا بسلطان مبين * قالت لهم رسلُهم إن نحن إلا بشرٌ مثلُكم، ولكنّ الله يمنُّ على من يشاء من عباده، وما كان لنا أنْ نأتيَكم بسلطان إلا بإذن الله، وعلى الله فليتوكلِ المؤمنون * وما لنا ألاّ نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبـرنّ على

(١) الإسراء: ٦١ ـ ٦٥.

ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون * وقال الذين كفروا لرسلهم: لنخرجنّكم من أرضنا أو لتعودُنَّ في ملّتنا، فأوحى إليهم ربُّهم لنهلكنَّ الظالمين * ولنسكننَّكم الأرض من بعدهم، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد، واستفتحوا وخاب كل جبّار عنيد﴾[١].

وآيات القرآن المشتملة على هذا الصراع القديم الدائم يصعب على الباحث استيعابها والتعليق عليها لذلك يكفي ذكر اليسير منها.

قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رُسُلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبيِّناتِ، فانتقمنا من الذين أجرموا، وكان حقّاً علينا نصرُ المؤمنين﴾[٢].

وقال: ﴿تلك الرسل فضَّلنا بعضَهم على بعض، منهم من كلَّم الله ورفعَ بعضَهم درجاتٍ، وآتينا عيسى بن مريم البيِّنات وأيَّدْناه برُوح القُدُسِ، ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البيِّنات، ولكن اختلفوا، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكنَّ الله يفعل ما يريد﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدواً شياطينَ الإنس والجنِّ يوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرفَ القول غروراً، ولو شاء ربُّك ما فعلوه فذَرْهُم وما يفترون﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿وإن يكذِّبوك فقد كُذِّبتْ رسلٌ من قبلك، وإلى الله ترجع الأمور﴾[٥].

وقال: ﴿وإن يكذِّبوك فقد كذَّب الذين من قبلهم، جاءتهم رسلُهم بالبيِّنات وبالزُّبُر وبالكتابِ المنير﴾[٦].

وقال تعالى: ﴿يا حَسْرةً على العباد، ما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزؤن﴾[٧].

---

(١) إبراهيم: ٩ ـ ١٥.
(٢) الروم: ٤٧.
(٣) البقرة: ٢٥٣.
(٤) الأنعام: ١١٢.
(٥) فاطر: ٤.
(٦) فاطر: ٢٥.
(٧) يس: ٣٠.

وقال تعالى: ﴿قد نعلم إنه ليحزُنك الذي يقولون، فإنهم لا يكذِّبونَك ولكنِ الظالمين بآيات الله يجحدون * ولقد كذِّبت رسلٌ من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وقال الرسول يا ربِّ إنَّ قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً * وكذلك جعلنا لكل نبيءٍ عدواً من المجرمين، وكفى بربِّك هادياً ونصيراً﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿تاللهِ لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك، فزيَّن لهم الشيطانُ أعمالهم، فهو وليُّهم اليوم ولهم عذابٌ أليم﴾(٣).

هذه الآيات التي ذكرت هنا واضحة في أن أمم الرسل كلهم انقسموا إلى قسمين: قسم آمن بالحق ونصره، وقسم كفر به ونصر الباطل لذلك اختلفوا واقتتلوا والذين زين لهم الشيطان أعمالهم وتولاهم هم الذين زين لهم أعمالهم وتولاهم اليوم، وإذا ما رجعت إلى قصص الرسل عليهم السلام كل واحد منهم على حدة وجدت تفصيلاً واضحاً لذلك الصراع بين المؤمنين والمجرمين. بين الحق وأهله وبين الباطل وأهله، وهذه بعض الأمثلة:

قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيرهُ، إني أخاف عليكم عذابَ يوم عظيم * قال الملأ من قومه: إنا لنراك في ضلالٍ مبينٍ * قال يا قوم ليس بي ضلالةٌ ولكني رسولٌ من ربِّ العالمين * أبلغكم رسالاتِ ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون * أوَعجبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربِّكم على رجلٍ منكم لينذرَكم ولتتَّقوا ولعلكم تُرحمون * فكذَّبوه فأنجيناه والذين معه في الفُلْك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتِنا إنهم كانوا قوماً عَمِين﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من

(١) الأنعام: ٣٣ ـ ٣٤.
(٢) الفرقان: ٣٠ ـ ٣١.
(٣) النحل: ٦٢.
(٤) الأعراف: ٥٩ ـ ٦٤.

إلَه غيرُه إن أنتـم إلا مفترون * يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إنْ أجري إلا على الذين فَطَرني أفلا تعقلون * ويا قوم استغفروا ربَّكم ثم تُوبوا إليه يرسل السماء عليكم مِدْراراً، ويَزِدكم قوةً إلى قوتكم، ولا تتولَّوا مجرمين * قالوا يا هودُ ما جئتنا ببيِّنة، وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك، وما نحنُ لك بمؤمنين * إنْ نقولُ إلَّا اعتراكَ بعضُ آلهتنا بسوء، قال: إني أُشهد اللهَ واشهدوا أني بريء مما تُشركون * من دونه فكيـدونِ جميعاً ثم لا تُنظرون * إني توكلتُ على الله ربي وربِّكم، ما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها، إنَّ ربي على صراط مستقيم * فإن تولَّوا فقد أبلغتكم ما أُرسلتُ به إليكم، ويستخلفُ ربي قوماً غيرَكم، ولا تضرونه شيئاً، إنَّ ربي على كل شيء حفيظ * ولما جاء أمرنا نجيِّنا هوداً والذين آمنوا معه برحمةٍ منا ونجَّيناهم من عذاب غليظ * وتلك عادٌ جحدوا بآياتِ ربِّهم وعصَوا رُسُلَه واتَّبعوا أمر كل جبَّار عنيد * وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنةً ويومَ القيامة، ألا إنَّ عاداً كفروا ربَّهم، ألَا بعداً لعادٍ قوم هودٍ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى تسعَ آياتٍ بيِّنات فاسألْ بني إسرائيلَ إذ جاءهم، فقال له فرعونُ إنِّي لأظنُّك يا موسى مسحوراً * قال لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا ربُّ السمواتِ والأرضِ بصائرَ وإني لأظنُّك يا فرعونُ مثبوراً * فأراد أن يستفزَّهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿فلَّما أحسَّ عيسى منهم الكفَر قال من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريُّون: نحنِ أنصار الله آمَّنا بالله واشهد بأنا مسلمون * ربَّنا آمنا بما أنزلتَ واتَّبعنا الرسولَ فاكتبنا مع الشاهدين * ومكروا ومكر الله والله خَيْرُ الماكرينَ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليُثْبتـوكَ، أو يقتلوك، أو يُخرجوك، ويمكرونَ ويمكر الله، والله خيرُ الماكرين﴾[٤].

فالصراع كما هو واضح من النصوص السابقة قديم بدأ بين آدم وإبليس ثم استمر بين الرسل وقومهم من نوح عليه السلام إلى آخر رسول وهو محمد ﷺ

---

(١) هود: ٥٠ ـ ٦٠.
(٢) الإسراء: ١٠١ ـ ١٠٣.
(٣) آل عمران: ٥٢ ـ ٥٤.
(٤) الأنفال: ٣٠.

ولا زال بين أهل الحق من أمة محمد وأهل الباطل إلى أن تقوم الساعة قتال وقتل، ولذلك كانت الصفقة أزلية أبدية بين الله وعباده المؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأن لهم الجنةَ، يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوارةِ والإنجيلِ والقرآنِ ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيْعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾[1].

والذي يتأمل حياة البشرية يجد الصراع بين الحق والباطل في كل جيل بين كل رسول وكل أمة، وبين كل آمر بالمعروف ناه عن المنكر وأهل المنكر الذين يرتكبونه أو يأمرون به، لا بل بين الأسرة الواحدة بعضهم أهل حق يجاهدون لإحقاقه وبعضهم أهل باطل يحاربون الحق وينصرون الباطل إلا أن الباطل قد يصل إلى درجة الكفر وقد يكون معصية لا يكفر صاحبها لهذا كان لزاماً على أهل الحق أن يكونوا مستعدين دائماً لنصر حقهم ودحض باطل غيرهم ومحاربته.

قال سيد قطب رحمه الله: (إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان، والشر جامح والباطل مسلح وهو يبطش غير متحرج ويضرب غير متورع، ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهتدوا إليه وعن الحق إن تفتحت له قلوبهم، فلا بد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش وتقيها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسموم ولم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عزلاً تكافح قوى الطغيان والشر والباطل اعتماداً على قوة الإيمان في النفوس وتغلغل الحق في الفطر وعمق الخير في القلوب فالقوة المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وتزيغ الفطر وللصبر حد وللاحتمال أمد وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم ومن ثم لم يشأ أن يترك المؤمنين للفتنة إلا ريثما يستعدون للمقاومة ويتهيأون للدفاع ويتمكنون من وسائل الجهاد)[2].

---

(١) التوبة: ١١١.

(٢) في ظلال القرآن (١٧ ـ ٢٤٢٤).

المبحث الثاني

حرص الدعاة إلى الله على إخراج
الناس من الظلمات إلى النور

إن الذي يقرأ تاريخ الدعاة إلى الله وقصصهم مع قومهم وأساليبهم في الدعوة إلى الله وصبرهم على أذى قومهم ومثابرتهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يلقوا ربهم يظهر له ظهوراً جلياً حرصهم على إخراج الناس من الظلمات إلى النور وشفقتهم عليهم وشدة خوفهم عليهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة.

وهذه أمثلة من نصوص القرآن والسنة لتوضيح ذلك الحرص وتلك الشفقة من الدعـاة إلى الله على قومهم.

فرسول الله نوح عليه السلام الذي مكث في قومه داعياً لهم إلى طاعة ربهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يخاطب قومه مستعطفاً لهم بلفظ القوم مبيناً لهم ما يترتب على طاعته والإيمان به من الخير لهم في الدنيا والآخرة، وما يصيبهم على إصرارهم على الكفر مـن عذاب في الدنيا والآخرة متخذاً في دعوته شتى الأساليب طمعاً في أن تؤثر فيهم، فمرة يدعوهم علناً، ومرة يتصل بأفرادهم سراً فإذا يئس منهم اتجه إلى ربه شاكياً عدم استجابتهم لدعوته والتي تستغرق وقته كله: الليل والنهار ذاكراً وسائل دعوته لهم من ترغيب وترهيب والتذكير بالنعم والتخويف من النقم، ولا يلجأ إلى الدعاء عليهم إلا بعد أن يعلم من ربه أن القوم في غيهم سادرون، قال تعالى: ﴿إنَّا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذرْ قومَك من قَبْلِ أن يأتيَهم عذابٌ أليمٌ * قال: يا قومِ إنِّي لكم نذيرٌ مبينٌ أنِ اعبدوا الله واتّقوه وأطيعون * يغفرْ لكم من ذنوبكم ويؤخرْكُمْ إلى أجل مسمّىً

إنَّ أجلَ الله إذا جاء لا يُؤخر لو كنتم تعلمون * قال ربِّ إني دعوتُ قومي ليلاً ونهاراً * فلم يزدهم دُعائي إلا فراراً * وإني كلما دعوتُهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابَهم وأصرُّوا واستكبروا استكباراً * ثم إني دعوتُهم جهاراً * ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً * فقلت: استغفروا ربَّكم إنه كان غفاراً * يُرسلِ السماء عليكم مدراراً * ويُمدِدْكم بأموالٍ وبنينَ، ويجعلْ لكم جنَّاتٍ ويجعل لكم أنهاراً * مالكم لا تَرْجُون لله وقاراً * وقد خلقكم أطواراً * ألَم تَرَوا كيف خلق الله سبعَ سمواتٍ طباقاً * وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً * والله أنبتكم من الأرض نباتاً * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً * والله جعل لكم الأرض بِساطاً * لتسلُكوا منها سُبُلاً فِجاجاً﴾[١] إلى آخر السورة.

وقال تعالى: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال: يا قوم اعبُدوا اللهَ ما لكم من إلَه غيره، إني أخاف عليكم عذابَ يوم عظيم * قال الملأ من قومه: إنَّا لنراك في ضلال مبين * قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسولٌ من ربِّ العالمين * أبلِّغكم رسالاتِ ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾[٢].

انظر كيف يخاطبهم ﴿يا قوم﴾. ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ فيكون ردهم وصفه بالضلال البين الذي لا خفاء به ويجيبهم إجابة المهتدي الهادي المشفق الذي يكظم الغيظ فينفي عن نفسه الضلالة ويثبت لها الرسالة ويؤكد لهم نصحه لهم ويهددهم بأسلوب قد لا يفطن له من تبلد حسه بضلال الكفر: ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾.

وقال تعالى عن هود: ﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً، قال يا قوم اعبدوا الله مالَكم من إلَه غيره أفلا تتقون * قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سَفاهة وإنا لنظنُّك من الكاذبين * قال يا قوم ليس بي سَفاهةٌ ولكني رسولٌ من ربِّ العالمين * أبلِّغكم رسالاتِ ربي وأنا لكم ناصحٌ أمين﴾[٣].

---

(١) نوح: ١ - ٢٠.
(٢) الأعراف: ٥٩ - ٦٢.
(٣) الأعراف: ٦٥ - ٦٨.

إنهم - هم السفهاء - يصفونه بالسفه - وهو الرسول الحكيم الرشيد - ويصفونه بالكذب وهو الرسول الصادق الأمين، فلا يزيد على استعطافهم بقوله يا قوم: وينفي السفه والكذب الذين اتهموه بهما، وبإثبات رسالته إليهم من الله، وقيامه بما كلفه إياه وهو التبليغ، والنصح والأمانة.

وقال تعالى عن صالح: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً، قال يا قوم اعبدوا الله مالَكم من إلَه غيرُه قد جاءتكم بينة من ربِّكم﴾، إلى قوله: ﴿فتولَّى عنهم وقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالةَ ربي ونصحتُ لكم، ولكن لا تحبُّون الناصحين﴾(١).

وقال عن شعيب: ﴿وإلى مدينَ أخاهم شُعيباً، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلَه غيرُه، ولا تَنْقُصوا المكيال والميزان إنّي أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذابَ يومٍ محيطٍ * ويا قومِ أوْفوا المكيالَ والميزان بالقسط، ولا تبخَسُوا الناس أشياءهم، ولا تَعْثَوْا في الأرض مفسدين * بقيَّةُ الله خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ * قالوا يا شعيبُ أصلاتُك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعلَ في أموالنا ما نشاء، إنَّك لأنتَ الحليمُ الرشيدُ؟! * قال يا قومِ أرأيتم إنْ كنتُ على بيِّنةٍ من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً، وما أُريد أن أُخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، إن أُريد إلا الإصلاح ما استطعمت، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلتُ وإليه أُنيب * ويا قوم لا يجرمنَّكم شقاقي أن يصيبَكم مثلَ ما أصاب قومَ نوحٍ أو قوم هودٍ أو قوم صالحٍ، وما قومُ لوطٍ منكم ببعيد * واستغفروا ربَّكم ثم توبوا إليه إنَّ ربي رحيمٌ ودودٌ * قالوا يا شعيبُ ما نفقه كثيراً ممَّا تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً، ولولا رهطُك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز * قال يا قوم أرهطي أعزُّ عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظِهْرياً، إنَّ ربي بما تعملون محيط * ويا قومِ اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يُخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيبٌ * ولما جاء أمرنا نجَّينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا، وأخذتِ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾(٢).

(١) الأعراف: ٧٣ - ٧٩.

(٢) هود: ٨٤ - ٩٤.

أترى هذا الحوار الهادىء وهذا الأسلوب الحكيم وهذا الصبر الواسع وهذا التلطف في القول مع إغلاظ القول من القوم والاستخفاف به وبرسالته وخالقه وعبادته أيكون ذلك كله من رجل غير حريص كل الحرص على هداية قومه مشفق كل الإشفاق عليهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة تأمل هذه الجمل الصادرة عن قلب رحيم مشفق حريص على الخير لقومه: ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾، ﴿بقيَّةُ الله خير لكم﴾، ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾، ﴿وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾، ﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم. . .﴾، ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود﴾، ﴿قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾.

وقال تعالى: ﴿واذكُر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدِّيقاً نبياً * إذ قال لأبيه: يا أبتِ لِمَ تعبدُ ما لا يسمعُ ولا يُبصرُ ولا يُغني عنك شيئاً * يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتِك فاتَّبعني أهدِك صراطاً سوياً * يا أبت لا تعبد الشيطانَ إن الشيطانَ كان للرحمن عَصِيّاً * يا أبت إنِّي أخاف أن يمسَّك عذابٌ من الرحمن فتكونَ للشيطان ولياً * قال أراغبٌ أنت عن آلهتي يا إبراهيمُ لئن لم تنتهِ لأرجمنَّك واهجرني ملياً * قال سلامٌ عليك سأستغفر لك ربي إنَّه كان بي حفياً * وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألاَّ أكون بدعاء ربِّي شقياً﴾[١].

إن إبراهيم عليه السلام ينكر على أبيه ـ وعلى كل من سلك مسلكه ـ أن يبلغ به الضلال إلى عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر مقيماً بذلك الحجة البالغة على هذا الضلال، ثم يطرق قلبه بأنه ما فعل ذلك الضلال إلا لجهله بما منح الله إبراهيم علمه، ثم يصل به إلى دعوته بأنه يتبعه ليهديه الصراط المستقيم ويخوفه عذاب الله. . . وهكذا إذا تأملت هذه الجمل وجدتها شديدة الوضوح في الدلالة على حرص أبي الأنبياء على إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

ولقد ذكَّر الله المؤمنين بفضله عليهم إذ بعث فيهم رسوله محمداً ﷺ الذي

(١) مريم: ٤١ ـ ٤٨.

هو أشد حرصاً على أنفسهم منهم، ولولا ذلك لما نالوا ذلك الفضل وتلك المنّة ولما زكت نفوسهم بالطاعة وتطهرت من الذنوب والمعاصي وما تنورت بصائرهم بالعلم النافع الذي تضمنه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ: قال تعالى: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم، عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم، حريصٌ عليكم، بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياتِه ويزكِّيهم، ويعلِّمهم الكتابَ والحكمة وإن كانوا من قَبْلُ لفي ضلالٍ مبينٍ﴾[٢].

ولشدة حرصه ﷺ على هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور كان يحزن حزناً شديداً على صدودهم وعدم استجابتهم لدعوته حتى ليكاد يقتل نفسه أسفاً عليهم، قال تعالى: ﴿فلا تذهبْ نفسُك عليهم حسراتٍ إن الله عليم بما يصنعون﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿فلعلَّك باخعٌ نفسَك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾[٤].

قال ابن كثير رحمه الله: (قال تعالى مسلياً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ وقال: ﴿ولا تحزن عليهم﴾ وقال: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ باخع أي مهلك نفسك بحزنك عليهم ولهذا قال: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث﴾ يعني القرآن ﴿أسفاً﴾ يقول: لا تهلك نفسك أسفاً. . . أي لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تذهب نفسك عليهم حسرات)[٥].

---

(١) التوبة: ١٢٨.
(٢) آل عمران: ١٦٤.
(٣) فاطر: ٨.
(٤) الكهف: ٦.
(٥) تفسير القرآن العظيم (٣ ـ ٧٣).

وقد بين ﷺ شدة حرصه على هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور بالمثل الذي ضربه في حديث أبي هريرة ليكشف به عن رغبته في هدايتهم وحرصه على الحؤول بينهم وبين عذاب الله وسخطه فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل يزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها فأنا آخذ بحُجَزِكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها)[1].

ومن أراد الوقوف على شدة حرصه ﷺ على إخراج الناس من الظلمات إلى النور فليعد إلى سيرته ﷺ وجهاده في الدعوة إلى الله وصبره على ما ناله من أذى وتشميره عن ساعد الجد وتطوافه على الناس في منازلهم وأسواقهم ومخيماتهم مرغباً لهم في الدخول في الإسلام ومحذراً لهم من البعد عنه والصد عن سبيل الله، وكيف كان يبذل نفسه وماله وأحبابه من الأنصار والمهاجرين من قرابته وغيرهم للجهاد في سبيل الله.

ويكفي ذكر قصته ﷺ مع أهل الطائف الذين ذهب يدعوهم إلى الله ويطلب منهم نصره على قومه فآذوه بالسب من كبارهم وأغروا به سفهاءهم فرموه بالحجارة حتى سالت دماؤه ﷺ، ثم سلّاه الله بأن بعث إليه ملكاً ليطبق على أعدائه من أهل مكة الجبال فطلب إمهالهم طمعاً في إيمانهم أو إيمان ذريتهم، قال ابن القيِّم رحمه الله: (فلما نقضت الصحيفة وافق موت أبي طالب وموت خديجة وبينهما يسير فاشتد البلاء على رسول الله ﷺ من سفهاء قومه وتجرأوا عليه فكاشفوه بالأذى فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف ابتغاء أن يؤوه وينصروه على قومه ويمنعوه منهم ودعاهم إلى الله عز وجل فلم ير من يؤوي ولم ير ناصراً وآذوه مع ذلك أشد الأذى ونالوا منه ما لم ينله قومه وكان مولاه زيد بن حارثة معه فأقام بينهم عشرة أيام لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا أخرج من بلدنا وأغروا به سفهاءهم فوقفوا له سماطين وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شجاج في رأسه فانصرف

(١) البخاري رقم: ٦٤٨٣ فتح الباري (١١ ـ ٣١٦) ومسلم (٤ ـ ١٧٨٩).

راجعاً من الطائف إلى مكة محزوناً وفي مرجعه ذلك دعا بالدعاء المشهور دعاء الطائف: «اللهم أشكو إليك ضعف قوتي...» فأرسل ربه تبارك وتعالى إليه ملك الجبال يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة، وهما جبلاها اللذان هي بينهما، فقال: «لا بل أستأني بهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً»)[1].

وكان ﷺ يربي أصحابه على الحرص على إخراج الناس من الظلمات إلى النور في حياته ليقتدوا به في ذلك، ففي حديث سهل بن سعد رضي الله عنه في قصة فتح خيبر وإعطاء الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن علياً قال: (نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال ﷺ: «على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم فوالله لأن يهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم»)[2].

وهذا الحرص هو الذي جعل السلف الصالح ينشرون دين الله في كل شبر من الأرض استطاعوا الوصول إليه، ولا زال دعاة الإسلام إلى الآن وسيكونون كذلك إلى أن تقوم الساعة وهم حريصون على إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولولا هذا الحرص ما امتلأت بهم السجون وأريقت دماؤهم وانتهكت أعراضهم واصطلوا بنار التعذيب والفتنة وهم صابرون على ذلك ماضون في طريق الدعوة إلى الله ولو أن الناس علموا ما في قلوب الدعاة من حب الخير لهم وبغض الشر الذي يشقيهم في الدنيا والآخرة لفاءوا إلى رشدهم وأجابوا الدعوة ونصروا أهلها ولكن ثوابهم عند الله الذي لا يبتغون بعملهم إلا وجهه وإن الدعاة إلى الله ـ قد يختلف جنسهم ـ ولكن أسلوبهم في الدعوة وشفقتهم على قومهم وحرصهم على إخراجهم من الظلمات إلى النور لا يختلف عن غيرهم من جنس آخر، لأن الغاية واحدة والرسالة واحدة، فهؤلاء دعاة الجن يشفقون على أبناء جنسهم ويرغبونهم في الإسلام ويرهبونهم من الكفر كما هو شأن إخوانهم من دعاة الإنس ويخاطبون المدعوين بيا قوم للتلطف والتودد

(١) زاد المعاد (٢ ـ ٥٢).
(٢) البخاري رقم: ٢٩٤٢ فتح الباري (٦ ـ ١١١) ومسلم (٤ ـ ١٨٧٢).

وإظهار الرحمة بهم، كما قال تعالى: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآنَ، فلما حضروه قالوا أنصِتوا، فلمّا قَضَى ولَّوا إلى قومهم مُنْذِرين * قالوا يا قومَنا إنا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى مصدِّقاً لما بين يديه، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعِيَ الله وآمنوا به يغفرْ لكم من ذنوبِكم ويُجِرْكم من عذابٍ أليمٍ * ومن لا يُجبْ داعي الله فليس بمعجزٍ في الأرض وليس له من دونه أولياء، أولئك في ضلالٍ مبين﴾[١].

وإن الداعي إلى الله ليؤثر دعوته ويؤثر الناس بنفسه فيضحي بها ويذهب إلى ربه إذا كان في تضحيته بها إخراج الناس من الظلمات إلى النور واقرأ هذا النص من قصة الغلام في حديث صهيب الطويل وفيه: «فقال للملك إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به قال: وما هو قال تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خذ سهماً من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: باسم الله رب الغلام ثم ارمني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ـ (وكان قد استعصى عليه قتله بإذن الله) ـ فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال باسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام»[٢].

واقرأ قصة الرجل المؤمن الذي كان يكتم إيمانه وأسلوبه في الدعوة والمحاجة تر حرصه على هداية فرعون وقومه وإخراجهم من الظلمات إلى النور يبدو في كل جملة من كلامه الذي حكاه الله عنه[٣].

واقرأ هذه الجمل التي أطلقها أحد دعاة الإسلام في هذا العصر ـ وقد ذهب إلى ربه شهيداً على يد من كان يذيع لهم هذه العاطفة الجياشة المليئة بالحب والحنان والحرص على إخراجهم من الظلمات إلى النور ـ قال حسن البنا رحمه الله: (ونحب كذلك أن يعلم قومنا أنهم أحب إلينا من أنفسنا وأنه حبيب

---

(١) الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٢.

(٢) مسلم (٤ ـ ٢٣٠٠).

(٣) اقرأ الآيات من ٢٨ ـ ٤٤ من سورة غافر.

إلى هذه النفوس أن تذهب فداء لعزتهم إن كان فيها الفداء، وأن تزهق ثمناً لمجدهم وكرامتهم ودينهم وآمالهم إن كان فيها الغناء وما أوقفنا هذا الموقف منهم إلا هذه العاطفة التي استبدت بقلوبنا وملكت علينا مشاعرنا فأقضت مضاجعنا وأسالت مدامعنا وإنه لعزيز علينا جد عزيز أن نرى ما يحيط بقومنا ثم نستسلم للذل أو نرضى بالهوان أو نستكين لليأس فنحن نعمل للناس في سبيل الله أكثر مما نعمل لأنفسنا فنحن لكم لا لغيركم أيها الأحباب ولن نكون عليكم يوماً من الأيام)[1].

(١) مجموع رسائل الإمام الشهيد حسن البناص ١١.

المبحث الثالث

الابتلاء سنة ماضية

هؤلاء هم الدعاة إلى الله شديدة رحمتهم بالناس عظيم حرصهم على تبصيرهم هدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولكن طريقهم وعر ومسلكهم صعب، لأنهم يدعون الناس إلى ما لا يسهل على نفوسهم الاستجابة له وينهونهم عما يتوقون إليه ويهوونه، ويعارضهم من يصد الناس عن دعوتهم يدعو إلى ما تشتهيه النفوس وترغب فيه ويزين لهم القبيح ويأمرهم بالمنكر وينهاهم عن المعروف، ويقف ضد دعوتهم أهل السلطان الذين يخشون على سلطانهم الظالم أن يزول إذا علم الناس الحق واستجابوا له، لأن الحق والباطل لا يجتمعان إلا في ساح الوغى للحرب والعراك، لذلك كان الدعاة إلى الله من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم معرضين للابتلاء فالابتلاء سنة ماضية والفائز من نجح في هذا الابتلاء. وإن كانت أنواع الابتلاء كثيرة يثيب الله عليها كلها من صبر عليها من عباده المؤمنين، وكثير من أنواع الابتلاء تصيب الدعاة إلى الله أكثر من غيرهم، وسيأتي ذكر شيء من تلك الأنواع والمقصود هنا إيضاح أن الابتلاء سنة ماضية.

والآيات القرآنية الدالة على أن الابتلاء سنة ماضية وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة، وسِيَرُ الرسل عليهم الصلاة والسلام من نوح إلى نبينا محمد ﷺ وتاريخ البشر كله منذ خلق آدم إلى هذه اللحظة وإلى أن تقوم الساعة كل ذلك دال على هذا المعنى وكل ما سبق من النصوص في مبحث: الصراع بين الحق والباطل يتضمن ذلك ولا بد من إضافة بعض النصوص الصريحة في الابتلاء والفتنة هنا.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ * أحسبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنَّا وهم لا يُفتنون * ولقد فتنّا الذين من قبلهم، فَلَيَعلمَنَّ الله الذين صدقوا، وليعلمنَّ الكاذبين﴾[1].

فقد أنكر الله على من ظن أن الله سبحانه يتركه دون ابتلاء يظهر به صدقه أو كذبه في دعوى الإيمان بلسانه وبيّن سبحانه أن الابتلاء سنة ماضية حيث قال: ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم﴾ أي إن سنة الله في خلقه ابتلاؤهم ليظهر الصادق من الكاذب.

وأنكر سبحانه على عباده المؤمنين الذين يطمعون في مرضاته ودخول جنته ويظنون أنهم سيفوزون بذلك قبل أن يبتليهم كما ابتلى من قبلهم من الأمم ممن أصابتهم البأساء والضراء والزلزلة التي لا يثبت لها إلا الخلص من عباده قال تعالى: ﴿أم حسَبتم أن تدخلوا الجنَّة ولمَّا يأتِكم مَثَلُ الذين خلَوا من قبلكم، مسَّتهم البأساء والضرَّاء، وزُلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، ألاَ إنَّ نصرَ الله قريبٌ﴾[2].

وسلّى الله رسوله ﷺ بما ابتلى به إخوانه من الرسل قبله فقال تعالى: ﴿ما يُقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، إنَّ ربك لذو مغفرة وذو عقابٍ أليمٍ﴾[3] وقال: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسولٍ إلا قالوا ساحرٌ أو مجنونٌ * أتواصَوْا به، بل هم قومٌ طاغون﴾[4].

وفي حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»)[5].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتد

---

(١) العنكبوت: ١ ـ ٣.
(٢) البقرة: ٢١٤.
(٣) فصلت: ٤٣.
(٤) الذاريات: ٥٢ ـ ٥٣.
(٥) البخاري رقم: ٣٤٧٧ فتح الباري (٦ ـ ٥١٤) ومسلم(٣ ـ ١٤١٧)

غضب الله على قوم فعلوا بنبيه، يشير إلى رباعيته، اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله»[١].

فالابتلاء ملازم للخلق كلهم وبه يتميز الصادق من الكاذب قال ابن القيم رحمه الله: (وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، فإنه ليس منكم أحد إلا وهو مشتمل على فتنة لأن الله تعالى يقول: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾[٢] فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن). ومنه قوله تعالى: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾[٣]. وهذا عام في جميع الخلق امتحن بعضهم ببعض فامتحن الرسل بالمرسل إليهم ودعوتهم إلى الحق والصبر على أذاهم وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم وامتحن المرسل إليهم بالرسل وهل يطيعونهم وينصرونهم ويصدقونهم أو يكفرون بهم ويردون عليهم ويقاتلونهم. وامتحن العلماء بالجهال هل يعلمونهم وينصحونهم ويصبرون على تعليمهم ونصحهم وإرشادهم ولوازم ذلك وامتحن الجهال بالعلماء هل يطيعونهم ويهتدون بهم وامتحن الملوك بالرعية والرعية بالملوك وامتحن الأغنياء بالفقراء والفقراء بالأغنياء وامتحن الضعفاء بالأقوياء والأقوياء بالضعفاء والسادة بالأتباع والأتباع بالسادة وامتحن المالك بمملوكه ومملوكه به وامتحن الرجل بامرأته وامرأته به وامتحن الرجال بالنساء والنساء بالرجال والمؤمنين بالكفار والكفار بالمؤمنين، وامتحن الآمرين بالمعروف بمن يأمرونهم وامتحن المأمورين بهم، ولذلك كان فقراء المؤمنين وضعفاؤهم من أتباع الرسل فتنة لأغنيائهم ورؤسائهم امتنعوا من الإيمان بصدق الرسل وقالوا: ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾)[٤].

قال يوسف القرضاوي: (الأمل والأمن والرضا والحب والسكينة النفسية

---

(١) البخاري رقم ٤٠٧٣ فتح الباري (٧ ـ ٣٧٢) ومسلم (٣ ـ ١٤١٧).

(٢) التغابن: ١٥.

(٣) الفرقان: ٢٠.

(٤) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان (٢ ـ ١٥٥). والآية الأخيرة في النص من سورة الأحقاف ورقم الآية ١١.

ثمار شهية لغراس العقيدة في نفس المؤمن، وذخائر لا تنفد لإمداده في معركة الحياة، وإنها لمعركة طويلة الأمد كثيرة التكاليف محفوفة بالأخطار والمشقات ذلك أن طبيعة الحياة الدنيا وطبيعة البشر فيها تجعلان من المستحيل أن يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه وشدائد تحل بساحته، فكم يخفق له عمل أو يخيب له أمل أو يموت له حبيب أو يمرض له بدن أو يفقد منه مال أو... أو... إلى آخر ما يفيض به نهر الحياة حتى قال الشاعر يصف الدنيا:

جُبلتْ على كَدَر وأنت تريدها صفواً من الآلام والأكدار
ومُكلِّف الأيام ضدَّ طباعها متطلِّبٌ في الماء جَذْوة نار

وإذا كان هذا سنة الله في الحياة عامة وفي الناس كافة فإن أصحاب الرسالات خاصة أشد تعرضاً لنكبات الدنيا وويلاتها إنهم يدعون إلى الله فيحاربهم دعاة الطاغوت وينادون بالحق فيقاومهم أنصار الباطل ويهدون إلى الخير فيعاديهم أنصار الشر ويأمرون بالمعروف فيخاصمهم أهل المنكر وبهذا يحيون في دوامة من المحن وسلسلة من المؤامرات والفتن، سنة الله الذي خلق آدم وإبليس وإبراهيم ونمرود وموسى وفرعون ومحمداً وأبا جهل، ﴿وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً شياطين الإنس والجنّ يُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زخرفَ القول غروراً﴾[1] ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين﴾[2] هذا شأن الأنبياء وشأن ورثتهم والسائرين على دربهم والداعين بدعوتهم مع الطغاة الصادين عن سبيل الله: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾[3].

سئل الرسول ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ فقال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»)[4].

---

(١) الأنعام: ١١٢.
(٢) الفرقان: ٣١.
(٣) البروج: ٨.
(٤) الإيمان والحياة ص: ١٩٢ والحديث رواه الترمذي برقم: ٢٥٠٩ وقال: هذا حديث حسن صحيح، تحفة الأحوذي (٧ ـ ٧٨).

المبحث الرابع

أنواع الابتلاء

وأنواع الابتلاء كثيرة، ولعل أصولها قد جمعت في الخوف، والجوع ونقص الأموال، والأنفس، والثمرات التي أجملها الله سبحانه وتعالى وذكر جزيل ثواب من صبر عليها في هذه الآيات: ﴿ولنبلونَّكم بشيء من الخَوْف والجوع، ونَقْص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشِّر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صَلَواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون﴾[1].

وهي كما ترى عامة شاملة، فالخوف ـ أياً كان سببه ـ ولا سيما الخوف من العدو في الدين الذي قد تتوافر له أسباب القوة التي يبتلي الله بها عباده المؤمنين، والجوع ـ أياً كان سببه كذلك، كالقحط، والحروب والجوائح ـ ونقص المال ـ ونقص الأنفس والثمرات هذه الأمور يبتلي الله بها الناس فيفوز في الابتلاء المؤمن الصادق ويخفق ضعيف الإيمان والمنافق.

وعلامة الفوز في الابتلاء أن يصبر المبتلى ويتقي ربه إذا ابتلي بأي نوع من أنواع الابتلاء، قال تعالى: ﴿لتُبْلَوُنَّ في أموالكم وأنفسكم، ولتسمعنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾[2].

ومن أنواع الابتلاء مكر أعداء الله بأوليائه بحبسهم وتعذيبهم أو قتلهم أو

---

(١) البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٢) آل عمران: ١٨٦.

إخراجهم من ديارهم، كما قال تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليُثبتوك أو يقتلوك أو يُخرجوك، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فالذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم وأُوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا؛ لأكفرنَّ عنهم سيئاتِهم، ولأدخلنَّهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله، والله عنده حسن الثواب﴾[2].

وقال: ﴿وكأيِّن من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾[3].

وقال: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزنْ إن الله معنا﴾[4].

ومن أنواع الابتلاء أن يعذب أعداء الله أولياءه بقتل أبنائهم الذكور الذين هم عون لهم على العدو لو بقوا أحياء وإبقاء بناتهم وأزواجهم واسترقاقهن لما فيه من العار عليهم قال تعالى: ﴿وإذ نجَّيناكم من آل فرعون يَسُومونكم سوء العذاب، يذبِّحون أبناءكم، ويَسْتَحيُون نساءكم، وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم﴾[5].

ومنه التعذيب بالرجم أو التهديد به كما قال تعالى عن والد إبراهيم عليه السلام، وهو يهدده بالرجم ـ: ﴿قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم، لئن لم تنتهِ لأرجمنَّك واهجرني مِليّاً﴾[6].

وقال عن أهل الكهف، وبعضهم يحذر بعضاً من عدوهم ـ: ﴿إنهم أن يظهروا عليكم يرجُموكم أو يُعيدوكم في ملَّتهم، ولن تُفلحوا إذاً أبداً﴾[7].

ومنه التعذيب بقطع الأيدي والأرجل والتصليب، كما قال تعالى عن فرعون، وهو يهدد سحرته الذين نبذوا ألوهيته الكاذبة وآمنوا بالإله الواحد:

---

(١) الأنفال: ٣٠.
(٢) آل عمران: ١٩٥.
(٣) محمد: ١٣.
(٤) التوبة: ٤٠.
(٥) البقرة: ٤٩.
(٦) مريم: ٤٦.
(٧) الكهف: ٢٠.

﴿قال آمنتُم له قبل أن آذن لكم؟! إنه لَكبيركُم الذي علَّمكم السحرَ، فلأقطعنَّ أيديَكم وأرجلَكم من خلافٍ، ولأصلبنَّكم أجمعين * قالوا: لا ضَيْرَ إنَّا إلى ربِّنا منقلبون﴾[١].

ومن أنواع الابتلاء تكذيب الصادق، والاستهزاء بصاحب الحق ونسبة الجنون إلى العاقل الكامل العقل، كما قال تعالى: ﴿قد نعلمُ إنه ليحزنُك الذي يقولون، فإنهم لا يكذِّبونَك ولكن الظالمين بآياتِ الله يجحدون * ولقد كُذِّبت رسلٌ من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرُنا، ولا مبدِّل لكلمات الله، ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿إنَّ الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مرُّوا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلِهِم انقلبوا فكهين * وإذا رأوهم قالوا إنَّ هؤلاء لَضالُّون * وما أُرسلوا عليهم حافظين * فاليوم الذين آمنوا من الكفَّار يَضْحكون * على الأرائك ينظرون * هل ثُوِّب الكفَّار ما كانوا يفعلون﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وقالوا يا أيُّها الذي نُزِّل عليه الذكر إنَّك لمجنون * لو ما تأتينا بالملائكة إنْ كنتَ من الصادقين * ما نُنَزِّلُ الملائكةَ إلا بالحقِّ وما كانوا إذاً منْظَرين * إنَّا نحن نزَّلنا الذكرَ وإنا له لَحافظون * ولقد أرسلنا من قَبْلك في شِيَعِ الأولِّين * وما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزئون﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿فاصدَع بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنَّا كفيناك المستهزئين * الذين يجعلون مع الله إلَهاً آخر فسوف يعلمون * ولقد نعلم أنَّك يضيق صدرُك بما يقولون﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿وإن يكاد الذين كفروا لَيُزْلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنَّه لمجنون * وما هو إلا ذكر للعالمين﴾[٦].

ومن أشد أنواع الابتلاء أن يمتحن ولي الله بأسرته وأقاربه، بل بوالديه

---

(١) الشعراء: ٤٩ ـ ٥٠.
(٢) الأنعام: ٣٣ ـ ٣٤.
(٣) المطففين: ٢٩ إلى آخر السورة.
(٤) الحجر: ٦ ـ ١١.
(٥) الحجر: ٩٤ ـ ٩٧.
(٦) القلم: ٥١ ـ ٥٢.

يقفان ضده ليصداه عن توحيد خالقه ويدعواه إلى الشرك به وهو يعيش بينهما في منزل واحد ويشعر بفضلهما عليه منذ أن كان في بطن أمه إلى أن شب وكبر، قال تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إليّ ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾[1].

وقد ورد في الصحيح ما يدل على أن هذه الآيات نزلت في شأن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الذي ألحت أمه عليه ليترك الإسلام الذي ارتضاه دينا له ويعود إلى دينها الوثني وفي قصته ما يوضح الصبر على المحنة، فمن حديثه رضي الله عنه أنه نزلت فيه آيات من القرآن قال: حلفت أم سعد ألا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب قالت: زعمت أن الله وصاك بوالديك وأنا أمك وأنا آمرك بهذا قال: مكثت ثلاثاً حتى غشي عليها من الجهد فقام ابن لها يقال له: عمارة فسقاها فجعلت تدعو على سعد فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ إلى آخرها[2].

وإن أصحاب رسول الله ﷺ الذين هم أقدر الناس على الصبر على الابتلاء واجتيازه طمعاً في ثواب الله ورضاه ـ وقد كانوا يفضلون أن يلاقوا ربهم صابرين وألسنتهم تسبحه وتنزهه كقلوبهم، يفضلون ذلك على أن يذكروا ربهم أو نبيهم أو دينهم بسوء وقد أباح الله لهم ذلك تخليصاً لأرواحهم من إزهاقها ـ وكانت سمية زوج ياسر وأم عمار رضي الله عنهم كانت أول شهيدة في الإسلام على يد فرعون هذه الأمة أبي جهل لعنه الله، وكان بلال رضي الله عنه يعذب في حر رمضاء مكة حيث يقلب ظهراً لبطن وتوضع الصخور المحماة على صدره وبطنه ليسب دين محمد ﷺ وهو لا يزيد على قوله: (أحد أحد).

إن أصحاب رسول الله ﷺ الذين كان هذا دأبهم في مواجهة أنواع الابتلاء ليضعف بعضهم من شدة الأذى حتى يكره على قول الكفر بلسانه ـ وإن

---

(١) لقمان: ١٤ ـ ١٥.
(٢) مسلم (٤ ـ ١٨٧٧).

كان قلبه ثابتاً مطمئناً بالإيمان ـ كما فعل عمار بن ياسر رضي الله عنه الذي أنزل الله فيه قوله تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذابٌ عظيمٌ﴾[١].

قال ابن كثير رحمه الله: (وقد روى العوفي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ فوافقهم على ذلك مكرهاً وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية)[٢].

وقد بيَّن ابن عباس رضي الله عنهما بعضاً من أنواع الابتلاء التي كان المشركون يذيقون بها الصحابة رضي الله عنهم: عن سعيد بن جبير قال: قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة حتى يقولوا له: آللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم حتى إن الجعل ليمر بهم فيقولون له: أهذا الجعل إلهك من دون الله فيقول: نعم، افتداء منهم بما يبلغون من جهده[٣].

وقوله: افتداء منهم... إلخ يوضح معنى قوله: (في ترك دينهم) أي إنهم يظهرون للكفار ترك دينهم تخلصاً من العذاب وإلا فقلوبهم كقلب عمار: مطمئنة بالإيمان.

وإذا كان أصحاب رسول الله ﷺ قد تعرضوا لأشد أنواع الابتلاء التي كانت موجودة في عهدهم فإن الأساليب التي ابتكرت في العصور المتأخرة بعد أن تقدمت الصناعات وارتقت العلوم المادية قد بلغت وسائلها ما لم تبلغه في أي عصر مضى، فإذا كان المشركون الأولون يعذبون أولياء الله بالرمضاء والنار ـ في بعض الأحيان ـ فإن تعذيب آلات الكهرباء الطويل أشد، وإذا كان الكفار

(١) النحل: ١٠٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣ ـ ٥٨٧).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، وهو في الروض الأنف (٣ ـ ٢٠٢).

السابقون يصلبون أولياء الله على الجدران والأخشاب وفي جذوع النخل فإن أعداء الله يصلبون أولياءه الآن على أعمدة الحديد المتصلة بتيار الكهرباء، وإذا كان أعداء الله كانوا يقلبون أولياء على حر الرمضاء ظهراً لبطن بأيديهم أو يجرونهم بالحبال، فإن أعداءه الآن يسحبون أولياءه بالآلات السريعة كالسيارات في الشوارع ويدخلون الواحد منهم في فتحة الدولاب (عجلة السيارة) بعد أن يضموا رأسه مع رجليه ويديرونها بالآلات وهو مكشوف العورة، ويملأون الأحواض بالماء الساخن في شدة الحر أيام الصيف ويقذفون بالمؤمن فيها مجرداً من ثيابه ويبقى فيها الساعات حتى ينسلخ جلده، ويملأونها في أيام الشتاء والبرد القارس بالماء البارد ويلقونه فيها كذلك ويودعون ولي الله في حجرة ضيقة لنومه وطعامه وشرابه وفضلاته ويجيعون الكلاب المدربة ويضعونها معه في حجرته لتنهش جسمه وتكثر من العواء والنباح على رأسه ويضربونه بالسياط حتى تسيل الدماء وقد تتجاوز دفعة الضرب في المرة الواحدة خمسمائة سوط ويتركونه حتى يتورم جسمه ثم يلهبونه بالسياط في مواضع الضرب السابقة ويسيل قيحه وينتن جسمه فلا يسمحون لطبيب يداوي جراحه ويأمرونه مع زملائه من أمثاله بالجري وهم في تلك الحال لمسافات طويلة ومن أظهر التعب ضربوه حتى يغمى عليه أو يموت وهكذا[١].

وهذا أحد دعاة الإسلام الذين تعرضوا للأذى والفتنة في هذا العصر حتى قتل في سبيل الله يصف بعض أنواع الابتلاء.

قال سيد قطب رحمه الله: (ومن الفتنة أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله ثم لا يجد النصير الذي يسانده ويدفع عنه ولا يملك النصرة لنفسه ولا المنعة ولا يجد القوة التي يواجه بها الطغيان وهذه هي الصورة البارزة للفتنة المعهودة في الذهن حين تذكر الفتنة ولكنها ليس أعنف صور الفتنة، فهناك فتن كثيرة في صور شتى ربما كانت أمر وأدهى. هناك فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه وهو لا يملك عنهم دفعاً وقد يهتفون به

---

(١) راجع كتاب: أيام من حياتي لزينب الغز إلى التي تعرضت هي بنفسها لكثير من هذه الأساليب الوحشية.

ليسالم أو ليستسلم وينادونه باسم الحب والقرابة واتقاء الله في الرحم التي يعرضها للأذى أو الهلاك وقد أشير في هذه السورة إلى لون من هذه الفتنة مع الوالدين وهو شاق وعسير.

وهناك فتنة إقبال الدنيا على المبطلين ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين تهتف لهم الدنيا وتصفق لهم الجماهير وتتحطم في طريقهم العوائق وتصاغ لهم الأمجاد وتصفو لهم الحياة وهو مهمل منكر لا يحس به أحد ولا يحامي عنه أحد ولا يشعر بقيمة الحق الذي معه إلا القليلون من أمثاله الذين لا يملكون من أمر الحياة شيئاً.

وهناك فتنة الغربة في البيئة والاستيحاش بالعقيدة حين ينظر المؤمن فيرى كل ما حوله وكل من حوله غارقاً في تيار الضلالة وهو وحده موحش غريب طريد. وهناك فتنة من نوع آخر قد نراها بارزة في هذه الأيام فتنة أن يجد المؤمن أمماً ودولاً غارقة في الرذيلة وهي مع ذلك راقية في مجتمعها متحضرة في حياتها يجد الفرد فيها من الرعاية والحماية ما يناسب قيمة الإنسان ويجدها غنية قوية وهي مشاقة لله. وهنالك الفتنة الكبرى أكبر من هذا كله وأعنف: فتنة النفس والشهوة وجاذبية الأرض وثقلة اللحم والدم والرغبة في المتاع والسلطان أو في الدعة والاطمئنان وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاه مع المعوقات والمثبطات في أعماق النفس وفي ملابسات الحياة وفي منطق البيئة وفي تصورات أهل الزمان، فإذا طال الأمد وأبطأ نصر الله كانت الفتنة أشد وأقسى وكان الابتلاء أشد وأعنف ولم يثبت إلا من عصم الله وهؤلاء هم الذين يحققون في أنفسهم حقيقة الإيمان ويؤتمنون على تلك الأمانة الكبرى أمانة السماء في الأرض وأمانة الله في ضمير الإنسان)[1].

---

(١) في ظلال القرآن (٢١ ـ ٢٧٢٠..).

المبحث الخامس

استعلاء الإيمان ومضاء أنصار الحق

إذا كان الابتلاء أمراً لا مفر منه، فإن أولياء الله هم الأعلون بإيمانهم وطاعتهم لربهم هم الأعزة ولو كانت السلطة والقوة المادية بيد أعدائهم يمضون في طريقهم ناصرين الحق الذي كلفهم الله نصره، إذا كثر أعداؤهم عدداً كثروا هم بالواحد الذي لا يعطي العزة سواه ولا ناصر لمن خذله ولا خاذل لمن نصره، لذلك تجد الواحد من أوليائه أو الفئة القليلة تنظر إلى أعدائها الكثيرين نظرة ازدراء واحتقار لأن الله معها.

اقرأ ما قاله الله عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿واتْلُ عليهم نبأ نوحٍ إذ قال لقومه: يا قوم إن كان كَبُرَ عليكم مُقامي وتذكيري بآياتِ الله فعلى الله توكّلت، فأَجْمِعُوا أمركم وشركاءكم، ثُمَّ لا يَكُنْ أمركم عليكم غُمَّة، ثم اقضُوا إليَّ ولا تُنظِرون﴾[1].

لماذا هذا التحدي ولماذا هذا الاستعلاء من فرد أعزل لأمة قوية ماكرة؟ إنه استعلاء الإيمان ومضاء أنصار الحق.

وباستعلاء الإيمان ينقلب العبد الذليل أمام الطاغي المتجبر حراً يتحدى جبروته وطغيانه، لأنه اعتصم بالله العزيز الغالب: ﴿وأُلْقِيَ السَّحَرةُ ساجدين * قالوا آمنا بربِّ العالمين * ربِّ موسى وهارون * قال فرعون آمنتُم به قبل أن آذنَ لكم، إنَّ هذا لَمكْرٌ مكرتموه في المدينة لتُخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون *

(1) يونس: ٧١.

لأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلافٍ، ثم لأصلبنَّكم أجمعين * قالوا: إنَّا إلى ربِّنا مُنْقلبون * وما تَنْقِم منا إلا أنْ آمنَّا بآيات ربِّنا لمَّا جاءتنا، ربَّنا أفرغْ علينا صَبْراً وتوفَّنا مسلمين﴾[١].

ويستعلي الإيمان بالفئة القليلة الواثقة في الله فتلهج بسنة الله في نصر أوليائه وإن قلوا ثم تدعوه ليثبتها وينصرها على أعدائها ويتحقق ذلك واقعاً عملياً: ﴿قال الذين يظنُّون أنهم مُلاقو الله كم من فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذن الله، والله مع الصابرين * ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا: ربَّنا أفرغ علينا صبراً وثبِّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت﴾[٢].

ويبتلى جند الله المؤمنون بإدالة عدوهم عليهم فيقتل منهم العدد الكثير ويجرح الباقون ـ ومنهم قائدهم، وهو نبي الله ﷺ ـ ثم يدعوهم داعي الجهاد بأعيانهم ولا يؤذن لأحد غيرهم بالخروج معهم ودماؤهم تسيل وجروحهم قد أثخنتهم فلا يتقاعسون بل يلبون النداء خفافاً وثقالاً لأن إيمانهم مستعل ومضاءهم في نصر الحق ثابت، قال تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسولِ من بعدما أصابهم القَرْحُ، للذين أحسنوا منهم واتَّقوا أجْرٌ عظيمٌ * الذين قال لهم الناسُ إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشَوهم فزادهم إيماناً، وقالوا: حَسْبُنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يَمْسَسْهم سوءٌ، واتَّبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم * إنما ذلكم الشيطانُ يخوِّف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إنْ كنتم مؤمنين﴾[٣].

قال ابن كثير موضحاً قصة هذه الآيات: (قال موسى بن عقبة ـ بعد اقتصاصه وقعة أحد وذكره رجوعه عليه السلام إلى المدينة ـ : وقدم رجل من أهل مكة على رسول الله ﷺ فسأله عن أبي سفيان وأصحابه فقال: (نازلتهم فسمعتهم يتلاومون ويقول بعضهم لبعض لم تصنعوا شيئاً أصبتم شوكة القوم

(١) الأعراف: ١٢٠ ـ ١٢٦.
(٢) البقرة: ٢٤٩ ـ ٢٥١.
(٣) آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٥.

وحدهم ثم تركتموهم ولم تبتروهم فقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم) فأمر رسول الله ﷺ - وبهم أشد القرح - بطلب العدو ليسمعوا بذلك وقال: «لا ينطلقن معي إلا من شهد القتال» فقال عبدالله بن أُبيّ أنا راكب معك فقال: «لا»، فاستجابوا لله ولرسوله على الذي بهم من البلاء فانطلقوا فقال الله في كتابه: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾. قال وطلب رسول الله ﷺ العدو حتى بلغ حمراء الأسد)[١].

ولقد ذكّر الله أصحاب رسوله ﷺ في غزوة أحد عندما أصابهم ما أصابهم من القتل والجرح والهزيمة ذكرهم باستعلاء إيمان من سبقهم بإيمان من الأمم السابقة ليقتدوا بهم في هذا الاستعلاء فقال: ﴿وما محمد إلا رسولٌ قد خَلَت من قبله الرسل، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم، ومَنْ ينقلبْ على عَقِبَيْه فلن يضرَّ الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين * وما كان لنفس أن تموتَ إلا بإذن الله كتاباً مؤجّلاً، ومن يرد ثوابَ الدنيا نُؤْتِه منها، ومن يرد ثوابَ الآخرة نُؤْتِه منها وسنجزي الشاكرين * وكأيِّن من نبي قاتل معه ربيُّون كثير، فما وهَنوا لِمَا أصابهم في سبيل الله وما ضَعُفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين * وما كان قولَهم إلا أن قالوا ربَّنا اغفر لنا ذنوبَنا وإسرافَنا في أمرنا، وثبِّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فآتاهم الله ثوابَ الدنيا وحُسْن ثوابِ الآخرة، والله يحبُّ المُحْسنين﴾[٢].

ونهى الله أولياءه المجاهدين عن أن يضعفوا ويستخذوا ويطلبوا من عدوهم المعاهدة السلمية التي يظهر فيها ذلك العدو هو المنتصر الذي يملي عليهم شروط السلم والمعاهدة لأن ذلك ينافي استعلاء الإيمان ومضاء أنصار الحق وثباتهم قال تعالى: ﴿فلاتَهنوا وتَدْعُوا إلى السَّلْم وأنتم الأعلَون، والله معكم ولن يَتِرَكُم أعمالكم﴾[٣].

(١) البداية والنهاية (٤ ـ ٤٨).
(٢) آل عمران: ١٤٤ ـ ١٤٨.
(٣) محمد: ٣٥.

ويغرس الإيمان في القلب فيستعلي صاحبه به على الكفر في أول لحظة ذاق قلبه منها الإيمان فيأبى إلا أن يصدع به في صفوف صناديد الكفر في عقر دارهم وهـو يعلم قلة الناصر من الناس وجموع الأعداء الحاقدة التي لا تطيق سماع كلمة الله من أحد إلا تعرضت له بالأذى والمحنة، وفي قصة أبي ذر الغفاري التي رواها ابن عباس ما يظهر ذلك الاستعلاء ويثبت مضاء أنصار الحق، وفي تلك القصة: (حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه فسمع من قوله وأسلم مكانه، فقال له النبي ﷺ: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري» قال: والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم قام القوم فضربوه حتى اضجعوه وأتى العباس فأكب عليه قال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجاركم إلى الشام فأنقذه منهم ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا إليه فأكب العباس عليه. . .)[1].

ويستعلي الإيمان بصاحبه فيضحي بنفسه في سبيله، كما في قصـة الغلام الذي حاول الملك الكافر الظالم أن يقتله بكل وسيلة من وسائله التي يقدر عليها فلم يفلح إلى أن دله الغلام نفسه على الوسيلة التي يقدر بها على قتله وهي أن يجمع الناس في صعيد واحد ويأخذ سهماً من كنانته ـ أي من كنانة الغلام ـ ثم يقول باسم الله رب الغلام ويرميه ففعل فمات فأسلم الناس وقالوا آمنا برب الغلام وهي قصة أصحاب الأخدود وفي آخرها قال الغلام لأمه التي تقاعست عن ولوج النار خوفاً عليه: يا أمه اصبري فإنك على الحق[2].

ومضت الإشارة في موضع آخر إلى قصة بلال رضي الله عنه ويناسب إثباتها هنا: (وكان بلال مولى أبي بكر رضي الله عنهما لبعض بني جمح مولداً من مولديهم وهو بلال بن رباح وكان اسم أمه حمامة وكان صادق الإسلام طاهر القلب وكان أمية بن خلف. . إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى

---

(١) البخاري رقم: ٣٨٦١ فتح الباري (٧ ـ ١٧٣) ومسلم (٤ ـ ١٩٢٣).
(٢) راجع صحيح مسلم (٤ ـ ٢٣٠٠).

تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول وهو في ذلك البلاء: (أحد أحد)[١].

ويتألب أعداء الحق على أهله فيشتد البلاء عليهم ويشفق قائد جند الله عليهم فيعرض على أسد الله المجاهدين أن يخفف عنهم ما هم فيه من الكرب بمصالحة أعداء الله على شيء من المال ولكن إيمان المجاهدين يستعلي بهم فيأبون ذلك إلا إذا كان أمراً واجباً من الله عليهم، واقرأ هذه القصة التي وقعت في غزوة الأحزاب: (ولما طالت هذه الحال على المسلمين أراد رسول الله ﷺ أن يصالح عيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة وينصرفا بقومهما وجرت المراوضة على ذلك فاستشار السعدين في ذلك فقالا: يا رسول الله إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة وإن كان شيئاً تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه. لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وعزنا بك نعطيهم أموالنا؟! والله لا نعطيهم إلا السيف فصوب رأيهما وقال: «إنما هو شيء أصنعه لكم لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة»)[٢].

ويستعلي الإيمان بصاحبه، وهو موثق في يد أعدائه، والسيف مصلت على رقبته فيطلب منهم عندما يحين وقت تنفيذ الإعدام أن يودع دنياه بعبادة ربه، فيصلي ركعتين، ويحب أن يزيد ولكنه يخشى أن يتهم، وهو المؤمن المحب لقاء ربه، بأنه يريد الفرار من الموت فيقول لهم: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت إنه خبيب بن عدي الذي أسره المشركون في غزوة الرجيع بعد أن قتلوا رفاقه في الجهاد[٣].

ولقد قتل رضي الله عنه، وهو كالجبل الراسي، يتحدى عدوه ويصف استعلاءه بإيمانه ومضاءه مع الحق الذي آمن به، قتل وهو يشدو بهذه الأبيات:

لقد جمَّع الأحزاب حولي وألَّبوا　　قبائلهم واستجمعوا كلَّ مَجْمعِ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: وهي في الروض الأنف (٣ ـ ١٩٩).

(٢) زاد المعاد لابن القيم (٢ ـ ١٣١).

(٣) راجع صحيح البخاري، الحديث رقم ٤٠٨٦ فتح الباري (٧ ـ ٣٧٨).

وكلُّهُم مُبْدي العداوة جاهدٌ عليَّ لأني في وثاق بمضيعِ
وقد جمّعوا أبناءهم ونساءهم وقُرِّبت من جِذْع طويل مُمَنَّعِ
إلى الله أشكو غربتي ثم كربتي وما أرصد الأعداء لي عند مصرعي
فذا العرش صبِّرني على ما يُراد لي وقد بضعوا لحمي وقد يأسَ مطمعي
وذلك في ذات الإلّه وإن يشأ يُبارك على أوصال شِلْوٍ ممزَّعِ
وقد خيروني الكفر والموت دونه وقد هملت عيناي من غير مجزع
وما بي حذارُ الموت إنِّي لميت ولكن حذاري جَحْم نارٍ مُلَفَّعِ
فوالله ما أرجو إذا متُّ مسلماً على أيِّ جنب كان في الله مضجعي
فلستُ بمبدٍ للعدو تخشُّعاً ولا جَزِعاً إني إلى الله مرجعي[1]

وتتوالى العصور وتشمخ أنوف إخوان لخبيب في كل عصر ويستعلون بإيمانهم ويمضون في طريقهم المرسوم لا يبالون غير دينهم ورفع كلمة الله في الأرض ويشدو شاديهم من داخل السجون ومن وراء القضبان وهو يرى أفواج رفاقه تشنق رقابهم كل يوم وينتظر نفس المصير بين آونة وأخرى ولكنه يستعلي بإيمانه ويحض إخوانه على أن يستعلوا كذلك بإيمانهم وأن يثقوا بربهم الذي ما ذل من اعتز به وإن ابتلي وأوذي في سبيله ويذكرهم بأن الحرية هي حرية القلب الذي خلصت عبوديته لخالقه وإن كبله أعداء الله بالقيود وأحاطوه بأسوار السجون والمعتقلات فهو يقول:

أخي أنت حر وراء السدود أخي أنت حر بتلك القيود
إذا كنت بالله مستعصماً فماذا يضيرك كيد العبيد

ولا يخاف، وهو في السجن ينتظر الموت، على نفسه وإنما يخاف من أن يسأم الدعاة ويخلدوا إلى الراحة ويتركوا الجهاد والكفاح فيطلق فيهم صرخته مذكراً لهم بواجب رفع الراية ومواساة المجاهدين وضحاياهم، فيقول:

أخي هل تراك سئمت الكفاح وألقيت عن كاهليك السلاح
فمن للضحايا يواسي الجراح ويرفع رايتها من جديد

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٤ ـ ٦٦).

ثم يمضي ناصحاً إخوانه بالمضاء في الطريق الذي سالت فيه دماء الشهداء وعدم الالتفات إلى غير الغاية العليا وهي رضا الله بالجهاد في سبيله، قال:

أخي فامض لا تلتفت للوراء طريقك قد خضبته الدماء
ولا تلتفت ههنا أو هناك ولا تتطلع لغير السماء[1]

إنه استعلاء الإيمان الذي يجعل صاحبه يستهين بكل قوى الأرض المادية التي تقف في طريقه لتصده عن دينه ودعوته. ويجعله ينسى نفسه وما يذيقها أعداء الله من الفتنة ويهتم بإعلاء الراية وحض المجاهدين على المضي في طريقهم وعدم التفاتهم إلى غير ذلك الطريق.

(١) هذا الشادي هو المجاهد سيد قطب رحمه الله الذي قضى حياته مجاهداً لأعداء الإسلام راضياً بفراق المنزل والأسرة مطمئناً بنزله في السجن صابراً على التعذيب والمحنة مضحياً بنفسه في سبيل إعلاء كلمة ربه، وقد قتله أعداء الإسلام في يوم ٢٩ من شهر أغسطس سنة ١٩٦٦ بعد أن أرادوه أن يذل نفسه لهم بطلب العفو من كبير طواغيتهم ووعدوه بأن يمنحوه منصباً كبيراً في دولتهم فاستعلى به إيمانه ورفض طلبهم واعتصم بربه غير مكترث بترغيب العبيد ولا ترهيبهم، بل غير مبال بالموت الذي قادوه إلى مشنقته وهو يبتسم ابتسامة السخرية من جند الطاغوت وعبيد الشيطان الذين يصدون عن سبيل الله ويقاتلون في سبيل الطاغوت لإخراج الناس من النور إلى الظلمات ويقتلون الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وابتسامة السخرية كذلك من الجماهير المنتسبة إلى الإسلام التي تساق إلى هاوية الهلاك في الدنيا والآخرة، وهي راضية بتلك الحال مناصرة من يسوقها إليها خاذلة من يريد انقاذها منها، وابتسامة الفرح المسرور بلقاء ربه الذي جاهد في سبيله وهو رافع الرأس عزيز النفس في أشد أوقات المحنة والابتلاء التي كان أعداء الله يظنون أنه مهان ذليل تحت مطارق محنتهم وابتلائهم.

وهذا مثال لاستعلاء الإيمان ومضاء أنصار الحق في هذا العصر الذي يراه المسلمون ويلمسونه في واقع الحياة يثبت أن القافلة سائرة بلا انقطاع.

المبحث السادس

حزب الله هم الغالبون

إذا كان حزب الله المؤمنون معرّضين للابتلاء والامتحان، وإذا كانوا يستعلون على الأعداء في أشد أوقات المحنة معتزين بالله فإن الله عز وجل معهم يؤيدهم على عدوه وعدوهم ويجعل العاقبة لهم ويدافع عنهم، وقد وعد بذلك وعداً لا يخلف، قال تعالى: ﴿الٓمٓ * غُلِبتِ الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبهم سيغلبون * في بِضْعِ سنينَ لله الأمرُ من قَبْلُ ومن بَعْدُ ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصرُ من يشاء وهو العزيز الرحيم * وَعْدَ الله لا يُخلِفُ الله وعدَه ولكن أكثر الناس لا يعلمون * يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هُمْ غافلون﴾(١).

وقال تعالى: ﴿إنَّ اللهَ يدافعُ عن الذين آمنوا إنَّ اللهَ لا يحبُّ كلَّ خوَّان كفور * أُذن للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلموا وأنَّ الله على نصرهم لقدير * الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنا الله، ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لهدِّمتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرنَّ الله من ينصرُه إن الله لَقويٌّ عزيزٌ * الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاةَ وآتَوُا الزكاة وأمروا بالمعروف ونَهَوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور﴾(٢).

ولما طلب موسى عليه السلام من ربه أن يعززه بإرسال أخيه هارون معه أجاب دعوته ووعدهما بالنصر على عدوهما والغلب كما قال تعالى: ﴿وأخي

(١) الروم: ١ ـ ٧.

(٢) الحج: ٣٨ ـ ٤١.

هارونُ هو أفصح منيِّ لساناً، فأرسله معي رِدْءاً يُصَدِّقْني إنيِّ أخاف أن يكذِّبون * قال سنشدُّ عضدَك بأخيك، ونجعلُ لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتِنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾(١). ووعد سبحانه حزبه بالنصر في الدنيا على الأعداء بأن يثبتهم ويلقي الرعب في قلوب أعدائهم ويجعل العاقبة لهم وفي الآخرة بالثواب الجزيل لهم وبعقاب عدوهم بتخليدهم في النار التي وقودها الناس والحجارة قال تعالى: ﴿إنَّا لننصر رسلَنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويومَ يقوم الأشْهاد﴾(٢).

ووعد سبحانه حزبه بأن أعداءه ـ وإن حصل منهم أذى لأوليائه ـ فإنهم مخذولون غير منصورين عليهم، كما قال تعالى: ﴿لن يضروكم إلا أذىً، وإن يُقاتلوكم يولُّوكم الأدبار ثم لا يُنصرون﴾(٣).

وقال: ﴿وإن تصبروا وتتَّقوا لا يضركم كيدهم شيئاً، إنَّ الله بما يعملون محيط﴾(٤).

وأكد سبحانه لجنده المؤمنين من المرسلين وأتباعهم بأن سنته قد مضت بنصرهم وغلبتهم على عدوهم، فقال: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون﴾(٥).

وأكد لعباده المؤمنين الذين أمرهم بقتال عدوهم الكافرين أنه معهم فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ولْيَجِدوا فيكم غِلْظةً، واعلموا أنَّ الله مع المتَّقين﴾(٦).

وذكّرهم سبحانه بأنهم يقاتلون في سبيله وعدوهم يقاتل في سبيل الطاغوت فهم أولياء الله وعدوهم أولياء الشيطان وكيد الشيطان أمام نصر الله ضعيف قال تعالى: ﴿الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يُقاتلون في سبيل الطَّاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطانِ إنَّ كَيْدَ الشيطان كان ضعيفاً﴾(٧)

---

(١) القصص: ٣٤ ـ ٣٥.
(٢) غافر: ٥١.
(٣) آل عمران: ١١١.
(٤) آل عمران: ١٢٠.
(٥) الصافات: ٧١ ـ ٧٣.
(٦) التوبة: ١٢٣.
(٧) النساء: ٧٦.

ووعد سبحانه وعداً مؤكداً أن حزبه هم الغالبون، كما قال تعالى: ﴿إنَّما وليُّكم اللهُ ورسولُه والذين آمنوا، الذين يُقيمون الصلاةَ ويُؤتون الزكاةَ وهم راكعون * ومن يتولَّ الله ورسولَه والذين آمنوا فإنَّ حزبَ الله هم الغالبون﴾[١].

وقد سجل التاريخ تحقيق وعد الله لأوليائه بالنصر، فلم يلتق أولياء الله بأعدائه إلا كان النصر للمجاهدين في سبيله على أولياء الشيطان يتضح ذلك من قصص الرسل مع أممهم وتاريخ المؤمنين المجاهدين في كل عصر من العصور منهم من نصرهم الله بآياته الكونية كنوح وهود وصالح ولوط وموسى، ومنهم من نصرهم بالقتال واللقاء مع العدو كالمؤمنين الحواريين من قوم عيسى وكمحمد ﷺ وأصحابه وتابعيهم من المجاهدين.

قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريِّين: من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريُّون نحن أنصارُ الله، فآمنتْ طائفةٌ من بني إسرائيل وكفرت طائفةٌ، فأيَّدْنا الذين آمنوا على عدوِّهم فأصبحوا ظاهرين﴾[٢].

ونصر الله رسوله فأعمى أبصار عدوه الذين كانوا يجوبون الأرض للعثور عليه عندما أذن الله له بالهجرة ورافقه صديقه أبو بكر رضي الله عنه، قال تعالى: ﴿إلاَّ تنْصروه فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزنْ إن اللهَ معنا، فأنزل الله سكينته عليه وأيَّده بجنودٍ لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا والله عزيزٌ حكيمٌ﴾[٣].

وهكذا نصره الله في غزواته ومعاركه وجهاده على عدوه في معركة بدر، وغيرها، كالخندق وخيبر وحنين، بل إن الله قد نصره على عدوه في غزوة أحد التي ظاهرها هزيمة المسلمين، لأن الله صرف عدوهم عنهم وقد كاد يستأصلهم، ثم عندما تبعه الرسول ﷺ وأصحابه جبن وولَّى الأدبار وهذا هو عين النصر

(١) المائدة: ٥٥ ـ ٥٦.
(٢) آخر سورة الصف.
(٣) التوبة: ٤٠.

ويكفي سياق هذه الآيات النازلة في غزوة الأحزاب وبني قريظة ليظهر منها نصر الله لرسوله ﷺ وأصحابه، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ الله عليكم، إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها، وكان الله بما تعملون بصيراً * إذ جاءوكم من فوقِكم ومن أسفلَ منكم، وإذ زاغتِ الأبصارُ وبلغت القلوبُ الحناجرَ وتَظنُّون بالله الظُّنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزُلزلوا زلازالاً شديداً﴾[1] إلى قوله: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً * ولما رأى المؤمنون الأحزابَ قالوا: هذا ما وعدنا اللهُ ورسولُه، وصدق اللهُ ورسولُهُ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً * من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا اللهَ عليه، فمنهم من قَضَى نَحْبَه ومنهم من ينتظر، وما بدَّلوا تبديلاً * ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذبَ المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم، إن الله كان غفوراً رحيماً * وردَّ الله الذين كفروا بغَيْظِهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً * وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صَياصِيهم وقذف في قلوبهم الرُّعبَ، فريقاً تقتلون وتأسِرون فريقاً * وأورثكم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم وأرضاً لم تطأوها وكان الله على كل شيء قديراً﴾[2].

وقد وضّحت سنة الرسول ﷺ أن نصر الله لأوليائه مستمر دائم إلى يوم القيامة، كما في حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: قال: «لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهـرون» وحديث معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك»[3].

وإن المتأمل ليرى تحقيق وعد الله بنصر أوليائه على أعدائه هذه الأيام التي تقف فيها أعداد من المسلمين في الشعوب الإسلامية أمام حكومات كافرة تملك

---

(١) الأحزاب: ٩ ـ ١١.

(٢) الأحزاب: ٢١ ـ ٢٧.

(٣) البخاري رقم: ٣٦٤١ فتح الباري (٦ ـ ٦٣٢) ومسلم (٣ ـ ١٥٢٤) الحديثان متفق عليهما وهما في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٢ ـ ٤٩٩).

السلاح والمال والجيوش، ثم لا تقدر تلك الحكومات على الصمود ضد تلك الأعداد القليلة من المسلمين الذين لا يملكون سلاحاً ولا مالاً ولا نصيراً من البشر فتضطر تلك الحكومات للاستغاثة بدول مادية كبيرة ذات سلاح كاسح وجيوش مدربة وأموال طائلة لتحميها من المجاهدين الذين لا سند لهم إلا الله فكان الله معهم إذ ثبت قلوبهم وأقدامهم ورزقهم غنائم من عدوهم وأهمها السلاح الذي يأخذونه من يد العدو ثم يقضون به مضاجعه قتلاً وجرحاً وأسراً ولعل خير مثال لهذا النصر المبين قتال مجاهدي أفغانستان للشيوعيين من بلادهم وللجيوش الجرارة ذات الأسلحة الثقيلة الجوية والأرضية من روسيا وغيرها من دول المعسكر الشيوعي فإن وقوف هؤلاء المجاهدين وثباتهم مع قلة عددهم وقلة مالهم وسلاحهم وكثرة عدد عدوهم وقوته من العتاد إن ذلك لمن أعظم الدلائل على أن نصر الله لأوليائه أمر مقطوع به كما وعد الله به بشرطه ﴿إن تنصروا الله يَنْصُرْكم ويُثَبِّتْ أقدامَكم﴾[1].

بل إن الفرد الواحد من المجاهدين في سبيل الله ينجيه الله من مكر أعدائه وقد كبلوه بالحديد وألهبوا جسده بسياطهم وأجاعوه وسلطوا الكلاب عليه تنهشه في غرفته الضيقة التي لا يقدر على التمدد فيها وقد صمموا على قتله فيخرجه الله من ظلمة السجن وظلم أهله إلى سعة الأرض فيصبح قائداً للمجاهدين في سبيل الله يسيم عدوه العذاب ويصليه نار السلاح، أليس هذا من أعظم الأدلة أن الله مع عباده المجاهدين المتقين؟!

ولقد سئل أحد المجاهدين الأفغان هذا السؤال: (كيف استطاع الشعب الأفغاني حتى الآن أن يقهر أقوى دولة ـ روسيا ـ علماً بأن هذا الشعب يعاني ما يعانيه من قلة المدد والعون من بلدان العالم)؟! فأجاب قائلاً: ﴿فلم تقتلوهم ولكنَّ الله قتلهم، وما رَمَيْتَ إذ رَمَيْتَ ولكن الله رَمى﴾[2] الثبات كله من عند الله، وأما إذا أردنا إجابة الماديين فإننا نقول: إن من يفر من الموت فإن الموت في طلبه، ومن يقف في وجه الموت فإن الموت يفر منه. إننا لا نملك أسلحة كافية

---

(١) محمد: ٧.

(٢) سورة الأنفال آية: ١٧.

ولكننا والحمد لله نؤمن بأن الله هو الذي سينصرنا إن شاء الله، والمجاهد الذي يقف في وجه الأعداء لا يخاف من الموت بينما أعداؤنا يولون الأدبار خشية الموت لذلك استطاع الأفغان المسلمون الثبات في وجه العدو الغاشم وهنا لا بد من الإهابة بجميع المسلمين للثبات في وجه أعدائهم وسوف يكون لهم النصر إن شاء الله: ﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾[1] ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلَنا، وإن الله لَمَعَ المحسنين﴾[2].

---

(١) محمد: ٧.

(٢) العنكبوت: ٦٩. وهذا المجاهد هو الشيخ محمد يونس خالص رئيس الحزب الإسلامي الذي تأسس عام ١٩٥٤ م مجلة المجتمع عدد ٥١٨ في ٢٦ - ٤ - ١٤٠١.

المبحث السابع

اهتزاز عروش الطغاة من الدعاة إلى الله

المراد بالطغاة الحكام الظلمة الذين يحاربون الدين الإسلامي، ويضيقون من الدعاة إلى الله الذين يدعون إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور وإلى المساواة بين الناس وإحقاق الحق ونشر العدل والقضاء على الظلم. وفي هذا المبحث فروع:

الفرع الأول
بيان الأسس التي تقوم عليها عروش الطغاة

وعروش هؤلاء الطغاة تقوم على أسس.

الأساس الأول: أن تكون مقاليد الحكم بأيديهم ليدبروا الأمور بحسب أهوائهم ورغباتهم عن طريق القوة التي لا تدع لأحد أن يبدي رأيه أو يدعو إلى ما يخالف أهواءهم، بل ولا تترك الناس أحراراً في معتقداتهم التي توصلها إلى قلوبهم الحجج والبراهين الثابتة ثبوت الجبال الرواسي التي لا تهزها العواصف، ومن أمثلة ذلك موقف فرعون من سحرته الذين دخل الإيمان إلى قلوبهم في الوقت الذي كانوا يحاولون فيه التغلب بسحرهم على آيات موسى الإلٰهية التي جعلتهم يقليون ظهر المجن لفرعون وحكمه، كما قال تعالى: ﴿ فأُلقِيَ السَّحَرة سُجَّداً، قالوا آمنَّا بربِّ هارون وموسى * قال: آمنتم له قَبْلَ أن آذن لكم، إنَّه لَكبيركُم الذي علَّمكم السحرَ، فلأقطعنَّ أيديَكم وأرجلَكم من خِلاَف، ولأصلبنَّكم في جُذوع النخل، ولَتعلمنَّ أينا أشدُّ عذاباً وأبقى﴾[1].

(١) طه: ٧٠ ـ ٧١.

ولو لم تكن مقاليد الحكم بيد فرعون ما كان ليقدر على هذا التهديد وهكذا كل الفراعنة لولا أن القوة بأيديهم ما كانوا قادرين على فرض باطلهم على الناس والوقوف ضد الحق الواضحة حججه وضوح الشمس في كبد السماء.

الأساس الثاني: استعباد الناس من دون الله.

يعلم الطغاة أن من حقق العبودية الكاملة لله لا يخاف غير الله ولا يخضع لسواه وأنه يضحي بنفسه وماله في سبيل الله لا يغريه مال ولا جاه ولا منصب، ولا يخيفه تهديد ولا تعذيب ولا موت، يعلم الطغاة هذه الحقيقة يقيناً، ولذلك يخططون مخططاتهم ويضعون مناهجهم العقدية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية لتحقق لهم هدفاً واحداً وهو إخضاع الناس لهم عن طريق الترغيب والإغراء، وعن طريق الترهيب والإيذاء ويدأبون على تعميق ولاء الناس لهم حيث يسبحون بحمدهم ويلهجون بأمجادهم ويدافعون عنهم، وقد يصرح بعضهم بألوهيته للناس كما فعل فرعون الذي قال الله عنه: ﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾[1] وقال: ﴿فكذَّب وعَصَى * ثم أدبرَ يسعَى * فحشر فنادى * فقال: أنا ربُّكم الأعلى﴾[2].

وقد لا يصرح بذلك ولكنه يتصرف تصرف من يدعي الألوهية ويستعبد الناس فعلاً، يشرع لهم منهجاً لحياتهم يحل فيه ما يشاء ويحرم فيه ما يشاء ويخضعهم بالقوة والقهر لما شرع من دون الله وهذا هو حال عامة طغاة الأرض لا سيما المنتسبين إلى الإسلام الذين يحكمون شعوباً إسلامية فإنهم غالباً لا يصرحون بما صرح به فرعون ولكنهم ينفذون أهداف فرعون ووسائله التي تحققها. ويستعينون على ذلك بضعاف النفوس الذين يستهويهم الجاه الخادع والمنصب الكاذب والحظوة عند الطغاة، هؤلاء الضعفاء النفوس يلبون كل أمر يصدر من طاغوتهم ويحققون كل رغبة له تظهر لهم، بل إنهم ليبالغون في الأمور التي يظنون أنه يرغب في تحقيقها حتى يصيروا كأنهم هم الذين يرونها ويطالبون بها فيقربهم الطاغية منه ويضفي عليهم هالة من العظمة حتى يصبحوا هم وجوه

(١) القصص: ٣٨.
(٢) النازعات: ٢١ ـ ٢٤.

أهل الحل والعقد، وهم الذين يسمون في اصطلاح القرآن الكريم: الملأ وما هم إلا عبيد للطاغية، لأنهم لا يفكرون إلا فيما يرضيه عنهم ولو كان فيه بطر للحق وغمط للناس، بل ولو كان في ذلك إهلاك الحرث والنسل وما هو أيضاً إلا عبد لهم وإن ادعى صراحة أو ضمناً أنه ربهم الأعلى لأنه يحرص على إرضائهم أيضاً بالحق وبالباطل ليبقوا سنداً له على ظلمه والحفاظ على سلطته ألا ترى البطانة السيئة كيف تغري الطاغوت بالداعي إلى الله بأسلوب النصح والتحذير منه كما قال تعالى: ﴿قال الملأ من قوم فرعونَ: إنّ هذا لساحرٌ عليمٌ * يريد أن يخرجَكم من أرضكم فماذا تأمرون﴾[١]. وقد عبر السحرة عن أهدافهم من هذا الإغراء وهذا النصح الكاذب وهي أهداف الملأ المال الذي يأخذونه أجراً على أعمالهم والزلفى عند الطاغية، كما إن الطاغية نفسه يعلم أنهم لا يقفون في صفه إلّا للأجر والحظوة، اقرأ قوله تعالى: ﴿ فلما جاء السحرةُ قالوا لفرعونَ: أئِن لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين * قال نعم وإنَّكم إذاً لَمِنَ المقرَّبين﴾[٢] فهم يعبدونه ليحصلوا منه على الأجر من مال أو غيره كالقرب منه الذي ينال به احترام عامة الناس الذين اختلت عندهم موازين الاحترام وهو أيضاً يعبدهم ليغلب بهم عدوه الذي جاء يدعو الناس إلى عبادة الله وحده التي ينتفي بتحقيقها الطغيان والظلم وتتحطم عروش الطغاة.

قال ابن تيمية رحمه الله: (وكذلك طالب الرئاسة والعلو في الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم فيبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عنهم ليطيعوه ويعينوه فهو في الظاهر رئيس مطاع وفي الحقيقة عبد مطيع لهم. والتحقيق أن كليهما فيه عبودية للآخر، وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله، وإذا كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق فكل واحد من الشخصين لهواه الذي استعبده واسترقه يستعبده الآخر)[٣].

الأساس الثالث: إخضاع القانون والنظام لأهوائهم، وعدم التزام قواعد

---

(١) الأعراف: ١١٠ ـ ١١١.

(٢) الشعراء: ٤١ ـ ٤٢.

(٣) الفتاوى (١ ـ ١٨٩).

معينة ليتسنى لهم في كل وقت إباحة ما يهوون إباحته وتحريم ما يهوون تحريمه بلا ضابط، لأن ذلك يمكنهم من الاعتداء على النفوس والأعراض والأموال، فإذا أرادوا أمراً لا يبيحه القانون الذي سنوه من قبل ألغوا القانون السابق بقانون جديد، هذا إن كانوا يلتزمون بنصوص قانون وإن كان طاغوتياً، ولا يطيقون أن يقف أمام رغباتهم وأهوائهم أي قانون واقرأ إنكار قوم شعيب عليه دعوته إلى عقيدة تخالف عقيدتهم ومعاملة تخالف معاملتهم، كما قال تعالى: ﴿وإلى مَدْيَنَ أخاهم شعيباً قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره ولا تَنْقُصوا المكيال والميزانَ إنِّي أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يومٍ محيط * ويا قوم أوْفوا المكيالَ والميزانَ بالقسط، ولا تَبْخَسوا الناسَ أشياءهم، ولا تَعْثَوا في الأرض مُفْسدين * بقيَّةُ الله خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ * قالوا: يا شُعيبُ أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبدُ آباؤنا أو أنْ نفعل في أموالنا ما نشاء، إنَّك لأنت الحليمُ الرشيدُ!!﴾[1].

الأساس الرابع: خداع عامة الناس وغشهم بقلب الحقائق، حيث يظهـرون النصح لهم والخوف على مصالحهم إذا نجح الدعاة إلى الله في إقامة حكم الله في الأرض كما قال الله عن فرعون: ﴿وقال فرعونُ ذَرُوني أقتلْ موسى ولْيَدْعُ ربَّه، إنِّي أخاف أن يبدِّلَ دينكم أو أن يُظْهر في الأرض الفساد﴾[2].

قال ابن كثير رحمه الله: (وقوله قبحه الله: إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد يعني موسى، يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم وهذا كما يقال في المثل: صار فرعون مذكراً، يعني واعظاً يشفق على الناس من موسى عليه السلام)[3].

وقال سيد قطب رحمه الله: (ولعله من الطريف أن نقف أمام حجة فرعون في قتل موسى: إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثني عن موسى رسول الله عليه

---

(١) هود: ٨٤ ـ ٨٧.

(٢) غافر: ٢٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤ ـ ٧٦).

السلام: (إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد)؟ أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح، أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادىء؟! إنه منطق واحد يتكرر كلما التقى الحق والباطل والإيمان والكفر والصلاح والطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان، والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين)[١].

الأساس الخامس: جعل الناس شيعاً وأحزاباً.

إن من أخوف ما يخافه الطاغوت أن تجتمع كلمة الشعب الذي يحكمه وتأتلف قلوبهم ويصدرون عن رأي واحد، لأنهم إذا اجتمعت كلمتهم واتحدت آراؤهم سيقفون في وجهه يوماً ما من الأيام، وإن أظهروا له الطاعة والخضوع قبل ذلك، لذلك يحرص كل طاغية أن يصدع الناس ويفرق كلمتهم بجعل بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء وبعضهم مثقفين وبعضهم جهالاً، ويدأب على إيجاد ثقافات مختلفة لفئات الشعب بحيث تؤدي بوضع مناهجها إلى التصادم والاختلاف والتنازع، ويعمل الأسباب التي تثير النعرات والعنصريات والعصبيات ويعمق عقائد غير ذات بال عند عامة الشعب وينصب من يدعو إليها ويدعمه حتى تنتشر تلك العقائد فتصبح لها جماعة تدعو إليها وتدافع عنها وتحارب أهل العقائد الأخرى التي كانت قوية وقد تكون صالحة، والطاغوت إنما يعمل ذلك ليشغل بعض فئات الشعب ببعض ويبقى هو غير مستهدف وينافق ويداري كل فئة قوية على حدة بأنه معها ويؤيدها ويحرشها على الأخرى بطرق خفية وأساليب ماكرة، ويقضي على الفئات الضعيفة، ثم يجتهد في إضعاف الفئة الخطيرة عليه حتى يقضي عليها وهكذا حتى لا يبقى إلا من يتبادل معه المنافع، ولقد كان فرعون إماماً بارزاً من أئمة الطغاة في هذا المجال، كغيره، ولذلك سجل له القرآن الكريم ذلك كما قال تعالى: ﴿إنَّ فرعونَ علا في الأرض وجعل أهلها شِيعَاً، يستضعفُ طائفةً منهم يذبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم، إنه كان من المفسدين﴾[٢].

---

(١) في ظلال القرآن (٢٤ ـ ٣٠٧٨).

(٢) القصص: ٤.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: (وقوله: ﴿وجعل أهلها شيعاً﴾ يعني بالشيع الفرق، يقول وجعل أهلها فرقاً متفرقين، كما حدثنا بشر قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد، عن قتادة ﴿وجعل أهلها شيعاً﴾ أي فرقاً يذبح طائفة منهم، ويستحيي طائفة، ويعذب طائفة، ويستعبد طائفة)[1].

والذي يظهر من صنيع فرعون ـ وحزبه ـ أن جعلهم الناس شيعاً وأحزاباً أعم مما ذكر، فالآية تشمل كل عمل يقوم به الطغاة لتفريق الناس والهدف واحد وهو أن يبقوا متسلطين على رقاب الناس فلا يقفون ضدهم.

والذي يتأمل أحوال طغاة هذا العصر يبدو له هذا العموم جلياً فترى الحاكم المنتسب إلى الإسلام، وهو من أعدائه، يظهر للناس في دعاواه الإعلامية أنه أب حنون لكل فئات الشعب ويدعوهم إلى الوحدة ويحذرهم من التحزب، ولكنه في واقع الأمر يسعى لإضعاف أكبر الأحزاب خطراً على حكمه بدفع الأحزاب الأخرى التي قد يكون خطرها بعيداً إلى الظهور والوقوف في وجه ذلك الحزب الخطر، وقد يسر للحزب الخطر بأنه يؤيده، وإن ظهر بمظهر غير المؤيد، فإذا أضعف الحزب الخطر أقبل على الحزب الذي يليه في الخطورة فألب عليه الأحزاب الأخرى ويسعى جاداً لتفتيت الحزب الخطر بإيجاد الفرقة والنزاع بين أفراده حتى يصدعه وقد ينجح في جذب بعضهم إلى صفه باسم الشعب وهكذا دواليك.

هذه أهم الأسس التي تقوم عليها عروش الطغاة في الأرض وأي أساس منها فقد كان جديراً بتحطيم تلك العروش ولا سيما الأول منها والثاني.

الفرع الثاني
بيان الأسس التي يستهدفها الدعاة إلى الله

ودعوة الرسل وأتباعهم تستهدف أسساً تضاد تلك الأسس الطاغوتية وتهد أركانها.

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠ ـ ٢٧).

وأهمها الأسس الستة الآتية:

الأساس الأول:

أن يكون الحكم لله تعالى وحده، لأن ذلك حقه الذي لا يجوز لأحد أن يدّعيه ويعتدي عليه، ولأنه سبحانه هو وحده المنزه عن الظلم، والهوى والجهل التي لا يسلم منها أحد من خلقه إلا أن يكون رسولاً ينزل الله عليه الوحي ويعصمه من الزلل، لذلك كان الحكم بغير ما أنزل الله تعالى كفراً وظلماً وفسقاً في كتب الله المنزلة على رسله كلهم، كما قال تعالى: ﴿ومَنْ لم يحكمْ بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾[١] وذكر سبحانه أنه أنزل كتبه على رسله للحكم بها بين الناس، كما قال تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هُدَى ونور يحكم بها النبيُّون الذين أسلموا للذين هادوا﴾ وقال: ﴿ولْيَحْكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ وقال: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحقِّ مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومُهَيْمناً عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تَتَّبع أهواءهم﴾ وقال: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتَّبع أهواءهم، واحذَرْهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾[٢] وأثبت سبحانه أنه لا حكم أحسن من حكمه وأن غير حكمه حكم الجاهلية فقال: ﴿أفحكمَ الجاهليَّةِ يَبْغُون، ومن أحسنُ من الله حُكْماً لقوم يوقنون﴾[٣].

وأمر سبحانه بأن يحكم بين الناس بالعدل ـ ولا عدل إلا في حكمه ـ فقال: ﴿إنَّ الله يأمركم أنْ تُؤدوا الأماناتِ إلى أهلها، وإذا حكمتُم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾[٤] وبين سبحانه أن الإيمان لا يثبت لأحد إلا إذا حكَّم رسوله ـ الذي لا يحكم إلا بحكمه ـ راضياً مطمئناً غير ضائق الصدر بذلك، فقال: ﴿فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكموكَ فيما شَجَر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مّمّا قضيتَ ويسلِّموا تسليماً﴾[٥].

---

(١) المائدة: ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٧.
(٢) المائدة: ٤٤ ـ ٤٧ ـ ٤٨ ـ ٤٩.
(٣) المائدة: ٥٠.
(٤) النساء: ٥٨.
(٥) النساء: ٦٥.

الأساس الثاني: تحقيق ألوهية الله وحده وعبودية جميع الخلق له كذلك لا لسواه، ولتحقيق هذه العبودية وحدها خلقهم الله تعالى، كما قال: ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا ليعبدون﴾[١]، وقال: ﴿قُلْ إن صلاتي ونُسُكي، ومحياي ومماتي، لله ربِّ العالمين، لا شريكَ له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾[٢] وكل رسول بعثه الله في أي أمة من الأمم كان الهدف من رسالته تحقيق هذه العبودية، كما قال تعالى: ﴿ولقد بَعَثْنا في كل أمةٍ رسولاً أنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوتَ﴾[٣] وكل صراع حصل بين الرسل وقومهم ـ وكذلك أتباع الرسل مع قومهم ـ إنما كان بسبب هذا الأساس الذي يدعو الدعاة إلى الله إلى تحقيقه ويقف أعداء الله ضد تحقيقه وفي قصص الدعاة إلى الله من الرسل وأتباعهم ما يوضح ذلك ما جاء منه في القرآن وما جاء في السنة وما سجله التاريخ الحافل بالعبر في جميع العصور.

الأساس الثالث: إخضاع الميول والأهواء والشهوات لأمر الله ونهيه، بحيث يلتزم البشر بأوامر الله فيفعلون ما أمرهم به وإن كرهت نفوسهم فعله، ويتركون ما نهاهم عنه وإن تاقت نفوسهم لتعاطيه، ولا يتحقق الإيمان إلا بذلك، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكم، فإن تنازعتم في شيء فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾[٤]. وكل رسول بعثه الله دعا قومه إلى تقوى الله وطاعته، كما قال تعالى: ﴿كذَّبتْ قومُ نوحٍ المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوحٌ ألا تتقُون * إني لكم رسولٌ أمينٌ * فاتقوا الله وأطيعون﴾[٥].

وكذلك هود وصالح ولوط وشعيب، وكل الرسل عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلا لِيُطاع بإذن الله﴾[٦] وهذه الطاعة التي لا توجد إلا حيث يكون عصيان أعداء الله وعدم طاعتهم وكبح جماح الشهوات والأهواء، لأن طاعة أعداء الله ردة عن دينه، كما قال تعالى:

---

(١) الذاريات: ٥٦.
(٢) الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣.
(٣) النحل: ٣٦.
(٤) النساء: ٥٩.
(٥) الشعراء: ١٠٥ ـ ١٠٨.
(٦) النساء: ٦٤.

﴿يا أيُّها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردُّوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾[١] والاستسلام للشهوات ميل عن صراط الله كبير، كما قال تعالى: ﴿والله يريد أن يتوبَ عليكم، ويريد الذين يتَّبعون الشهواتِ أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾[٢].

واتباع الهوى يختم على القلب ويغلقه فلا يدخل فيه نور ولا يستقر فيه خير بل يحرم صاحبه من الهدى ويجعله في زمرة الظالمين، كما قال تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنَّما يتَّبعون أهواءهم، ومَنْ أضلُّ ممَّن اتَّبع هواه بغير هُدًى من الله، إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[٣]. بل إن اتباع الهوى يجعل صاحبه عابداً لهواه متخذه إلهاً من دون الله، كما قال تعالى: ﴿أرأيتَ من اتَّخذ إلهه هواه، أفأنتَ تكون عليه وكيلاً﴾[٤].

الأساس الرابع: نصح الناس وتبصيرهم وكشف حقائق الأمور لهم ليكونوا على وعي تام وبصيرة نافذة بما ينفعهم وما يضرهم في الدنيا والآخرة.

وهذا هو العلم الذي أوجب الله على العلماء نشره بين الناس وحذر من كتمانه وهو الهدى الذي يعتبر أحد ركني الإسلام اللذين جمعهما الله تعالى في قوله: ﴿هو الذي أرسل رسولَه بالهدى ودين الحقِّ ليظهرَه على الدين كله ولو كره المشركون﴾[٥] فالهدى هو العلم النافع ودين الحق ـ وهو الركن الثاني ـ العمل الصالح، قال تعالى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيِّنات والهُدَى من بعد ما بيَّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون * إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيَّنوا، فأولئك أتوب عليهم وأنا التَّوابُ الرحيمُ﴾[٦]. وقال: ﴿إنَّ الذينَ يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً، أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار، ولا يكلِّمُهم الله يوم القيامةِ، ولا يُزكِّيهم، ولهم عذابٌ أليمٌ * أولئك الذين اشترَوا الضلالةَ بالهُدَى والعذابَ بالمغفرةِ فما أصبرهم على النار﴾[٧].

(١) آل عمران: ١٤٩.
(٢) النساء: ٢٧.
(٣) القصص: ٥٠.
(٤) الفرقان: ٤٣.
(٥) الصف: ٩.
(٦) البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠.
(٧) البقرة: ١٧٤ ـ ١٧٥.

فقد كلف الله المجاهدين في سبيله والدعاة إليه أن ينصحوا للناس ويبينوا لهم الهدى ويدعوهم إليه ويبينوا الضلالة ويحذرهم منها ومن أعظم ما يجب عليهم بيانه ما يكيد لهم به قادتهم الذين يظهرون لهم حب الخير ويبطنون غيره ويقودونهم بسبب جهلهم وغفلتهم عن كيدهم ومكرهم إلى الشقاء في الدنيا والخسران التام في الآخرة من أجل ذلك عرض الدعاة إلى الله أنفسهم للأخطار ونصحوا لقومهم وصبروا على كل ما نالهم من أذى، فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه ـ بعد أن دعاهم إلى الله ورموه بالضلال وهو الهادي المهتدي ـ: ﴿قال يا قوم ليس بي ضلالةٌ ولكني رسولٌ من ربِّ العالمين * أبلِّغكم رسالاتِ ربِّي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾[1].

وهذا هود يقول لقومه ـ وقد دعاهم إلى الله فرموه بالكذب والسفاهة ـ: ﴿قال يا قوم ليس بي سفاهةٌ ولكني رسولٌ من ربِّ العالمين * أبلغكم رسالاتِ ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾[2].

وكذلك صالح يتحسر على قومه الذين كفروا به وكذبوه فأخذهم الله مبيناً أنه قد أدى ما يجب عليه لهم من النصح: ﴿فتولَّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلَغْتُكم رسالةَ ربي، ونصحتُ لكم، ولكن لا تُحبون الناصحين﴾[3]. وشعيب دعا قومه فكذبوه وأقام عليهم الحجة تلو الحجة فهددوه بإخراجه من أرضه ما لم يترك دينه ويعود في ملتهم فقال الله عنه ـ بعد أن أخذهم الله ـ: ﴿فتولَّى عنهم وقال يا قومِ لقد أبلغتُكم رسالاتِ ربي، ونصحتُ لكم، فكيف آسَى على قومٍ كافرين﴾[4].

وأمر الله رسوله ﷺ أن يبين للناس أنه يسير على صراط الله المستقيم فيدعو إلى الله على بصيرة ـ وكذلك أتباعه ـ ودعوته على بصيرة تبصر الناس وتعلمهم ما ينفعهم ويصلحهم وتنبههم على الخطر الذي يضرهم قال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتَّبعني، وسبحانَ الله وما أنا من المشركين﴾[5].

---

(١) الأعراف: ٦١ ـ ٦٢.
(٢) الأعراف: ٦٧ ـ ٦٨.
(٣) الأعراف: ٧٩.
(٤) الأعراف: ٩٣.
(٥) يوسف: ١٠٨.

ومن هنا أوجب الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأوجب النصيحة لعباده.

الأساس الخامس: السعي إلى وحدة المسلمين والقضاء على الخلاف والنزاع أو التخفيف منه لما في الوحدة والاتفاق من مصالح الأمن والاستقرار والنتاج الاقتصادي والقوة المعنوية والمادية والخير العميم، بخلاف النزاع والشقاق فإنهما من أهم أسباب قلق الشعوب وعدم استقرارها، ومن أهم الأسباب التي تجلب الفقر والضعف المعنوي والمادي وغير ذلك من المفاسد التي تعم البلاد والعباد وتدمر ما بناه الأجيال في قرون طويلة في فترة قصيرة.

ومن أعظم ما يحصل من مصالح الوحدة والاتفاق، تفاهم المتحدين وتقاربهم ومعرفة كل منهم ما عند الآخرين من حق ومصالح وما عندهم من باطل ومفاسد، ثم ما يتبع ذلك من أخذ الحق ونبذ الباطل، وكذلك معرفتهم جميعاً من يسعى لما فيه نفعهم وصلاحهم ومن يسعى لإنزال الضرر بهم وإفساد حياتهم، بخلاف ما لو كانوا مختلفين فإنهم إذا أدركت طائفة منهم ذلك لم تدرك الطائفة الأخرى ما أدركت تلك الطائفة، إذ جرت العادة أن يشك الخصم أو يرفض ما عند خصمه دون تأمل أو تبصر إلا ما قل وندر.

لهذا كان من أهم ما يعنى به الدعاة إلى الله الوحدة والاتفاق والقضاء على النزاع والشقاق في حدود ما شرعه الله وأذن به سبحانه مما يتحقق به الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين ـ هذا القيد يخرج ما يدعو إليه أعداء الله من الولاء للإنسانية المزعومة حيث يوالي الإنسان أخاه الإنسان بصرف النظر عن دينه ونظام حياته وسلوكه لأن الوحدة على هذا الأساس يراد بها الاتفاق على التخلي عن دين الله الذي يوجب على أهله موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه ـ وذلك أمر مستحيل، لأن إجماع الناس كلهم على الباطل ولا سيما الكفر لا يقع، إذ لا بد لدين الله من ناصر، ولا يجوز شرعاً لأن الله كلف عباده المؤمنين بالتمسك بدينهم ومخالفة من يصد عنه.

وإذا قرأت قصة شعيب مع قومه ومحاولته مع أعدائه بأن يتريثوا أو ينتظروا حكم الله الذي يفصل بينهم، وأن يتركوا الشقاق والعراك قبل ذلك لمحت من

ذلك أنه يريد المهادنة التي قد يتضح فيها الحق الذي قبلته طائفة للأخرى التي تمسكت بالباطل، كما قال تعالى: ﴿وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالذي أُرسلت به وطائفة لم يُؤمنوا فاصبروا حتى يحكمَ اللهُ بيننا وهو خير الحاكمين﴾ ولكنه ـ وهو يسعى هذا السعي ويدعو هذه الدعوة ـ يقابل بالكبر والأنفة والصد والصدود: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنَّك يا شعيبُ والذين آمنوا معك من قريتنا، أو لتعودن في ملَّتنا، قال أوَلَو كنَّا كارهين﴾[1].

قال سيد قطب رحمه الله: (لقد دعاهم إلى أعدل خطة ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة: نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذى وترك كل ما اعتنق من دين حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين، ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعة من الناس لا تدين للطاغوت)[2].

وكل رسل الله عليهم الصلاة والسلام دعوا إلى عدم التفرق في دين الله كما قال تعالى: ﴿شرع لكم من الدِّين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصَّينا به إبراهيمَ وموسى وعيسى أن أقيموا الدِّين، ولا تتفرَّقوا فيه، كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه، الله يجتبي إليه من يشاء ويَهدي إليه من يُنيب﴾[3].

وأمر الله عباده المؤمنين بالائتلاف والاتفاق والتمسك بدينه ونهاهم عن التفرق وذكرهم بنعمة الله عليهم إذ ألف بين قلوبهم وقد كانوا أعداء قبل الإسلام، قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تَفرَّقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾[4] وما أمر الله عباده المؤمنين بالجنوح إلى السلم إذا دعا إليها أعداء الله وكان فيها عز للإسلام والمسلمين إلا دليل واضح أن الإسلام يسعى إلى تحقيق التعاون والقضاء على الشقاق الذي تفسد به المعايش كما قال تعالى: ﴿وإن جَنَحوا للسَّلْم

---

(١) الأعراف: ٨٧ ـ ٨٨.
(٢) في ظلال القرآن (٨ ـ ١٣١٨).
(٣) الشورى: ١٣.
(٤) آل عمران: ١٠٣.

فاجْنَح لها وتوكَّل على الله، إنه هو السميع العليم﴾[١]. ومن ذلك أمر الله عباده المؤمنين بالوفاء بالعهد لمن وفى به من أعدائهم كما قال سبحانه: ﴿إلا الذين عاهدتُم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً، ولم يظاهروا عليكم أحداً، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم، إنَّ الله يحب المتَّقين﴾[٢].

ولقد حرص الرسول ﷺ عندما هاجر إلى المدينة على التعاون العام بين سكانها الذي يتحقق به التعايش والوقوف ضد المعتدي فكانت تلك المعاهدة التي لم ينقضها إلا أعداء الله من اليهود ومن جاراهم وما كان ذلك الحرص إلا أحد الأدلة على أن الإسلام يدعو إلى التعاون العام بين الناس كلهم مسلمهم وكافرهم إذا لم يكن فيه ما يقدح في الإسلام أو يضعف المسلمين[٣].

أما حرصه ﷺ على وحدة المسلمين واجتماع كلمتهم فإنه غير خاف على طالب العلم ونصوصه أكثر من أن تحصر وقصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار تشهد بذلك.

الأساس السادس: دعوة الناس إلى متابعة القيادة الربانية وتحذيرهم من اتباع القيادة الطاغوتية، والقيادة الربانية هي التي تجعل أمر الله ونهيه منهجها في حياتها وحياة من ولاها الله عليه والقيادة الطاغوتية هي التي تصد الناس عن أمر الله ونهيه وتنصب نفسها لتنفيذ كل ما يحقق رضا الشيطان وهذا الأساس قد يدخل في الأساس الأول والأساس الثالث ولكن إفراده هنا للاهتمام به، لأن طغاة الأرض لا يرضون بوجود القيادة الربانية وإنما يرضون بل ويدعون ويناضلون لإثبات القيادة الشيطانية والعراك بين أهل الحق وأهل الباطل مستمر بسبب هذا إلى يوم القيامة ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتِلوا أولياء الشيطانَ إنَّ كيدَ الشيطان كان ضعيفاً﴾[٤].

ولعل في ذكر أهم الأسس التي تقوم عليها عروش الطغاة وأهم الأسس التي تقوم عليها الدعوة إلى الله والمقارنة بينها ما يوضح السبب الذي يجعل

---

(١) الأنفال: ٦١.
(٢) التوبة: ٤.
(٣) راجع سيرة ابن هشام (١ ـ ٥٠١).
(٤) النساء: ٧٦.

عروش الكفر تهتز من سماع الدعوة إلى الله تعالى إن الأساس الأول الذي تقوم عليه هذه العروش هو أن تكون مقاليد الحكم بأيديهم وأن يكون الحكم لهم لا لله، وأول أساس تقوم عليه الدعوة إلى الله أن يكون الحكم لله وحده. والأساس الثاني الذي تقوم عليه عروش الكفر هو أن يكون طغاتها هم الآلهة للبشر وأن يكون البشر عبيداً لهم، أما الأساس الذي تقوم عليه الدعوة إلى الله فهو لا إله إلا الله أي أن يكون الناس كلهم عبيداً لله وحده وهو الإلّه الواحد. والأساس الثالث الذي تقوم عليه عروش الطغاة أن تكون أهواؤهم وميولهم وشهواتهم هي التي تخضع النظام والقانون ولا تخضع له أما الأساس الذي تقوم عليه الدعوة إلى الله فهي الطاعة المطلقة لله تعالى ولرسوله ولمن وليَ أمر المسلمين ممن يقوم فيهم بحكم الله لا لشهوة نفسه ولا لهواها والمعصية الكاملة لكل من أراد أن يخضع الناس لشهوته وهواه.

والأساس الرابع الذي تقوم عليه عروش الطغاة هو غش الناس وخداعهم وخيانتهم، أما الأساس الذي تقوم عليه الدعوة إلى الله فهو نصح الناس وتبصيرهم وتنبيههم على المخاطر التي قد تصيبهم وتعليمهم بكل ما ينفعهم وما يضرهم في الدنيا والآخرة.

والأساس الخامس الذي تقوم عليه عروش الطغاة هو إيجاد الفتنة بين الناس وكثرة الأحزاب المختلفة ليتسنى لهم القضاء على من أرادوا من تلك الأحزاب التي لو اجتمعت لما تمكنوا من تثبيت عروشهم، أما الأساس الذي تقوم عليه الدعوة إلى الله فهو الدعوة إلى جمع الكلمة وائتلاف القلوب والوقوف صفاً واحداً ضد الباغي.

والأساس السادس الذي تقوم عليه عروش الطغاة الإلحاح على الناس باتباع القيادة الكافرة والولاء لها والتنفير من اتباع القيادة الإسلامية الراشدة والحض على معاداتها، أما الأساس الذي تقوم عليه الدعوة إلى الله فهي: محمد رسول الله هو القدوة لا غير، إلا من اقتدى به وأمر بأمره ونهى عما نهى عنه.

ألا ترى أن طغاة الكفر لا يطيقون وجود الدعاة إلى الله بسبب أنه لا بقاء لعروشهم إذا نجح الداعية إلى الله في دعوته؟ بلى وإنه لكذلك إنهم يريدون

الحفاظ على عروشهم ليسطيروا على الناس ويتسلطوا على رقابهم ويتكبروا عليهم وكل ذلك لا يحصل لهم إلا إذا غابت الدعوة إلى الله عن عيونهم.

وبذلك يتضح سبب مواقف أعداء الله من أوليائه والدعاة إليه إنهم يعلمون أنهم طغاة ظلمة مستبدون مستعبدون عباد الله حاكمون بأهوائهم وشهواتهم خادعون غاشون مفرقون كلمة الناس باثون بينهم الفرقة والخلاف والشقاق، لا حجة لهم مقنعة بتصرفاتهم وأن الدعاة إلى الله هادون مهتدون عادلون داعون إلى تحكيم الله في حياة البشر ناصحون داعون إلى الألفة والمحبة والتعاون فكيف تكون مواقف هؤلاء الطغاة من أولئك الدعاة؟!

المبحث الثامن

موقف القوة، وموقف التضليل

تتلخص مواقف أعداء الله في هذين الموقفين: الموقف الأول موقف القوة ويستعملونه ضد الدعاة إلى الله ومن اتبعهم. الموقف الثاني موقف التضليل ويستعملونه لعامة الناس الذين لا يتبعون الدعاة إلى الله وإنما يتبعون أولئك الطغاة.

موقف القوة

لما كان الدعاة إلى الله يحملون الحق وطغاة العروش يحملون الباطل، ولما كان الدعاة إلى الله يملكون الحجة والبرهان والطغاة لا يملكون إلا سراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفى له حسابه اضطر أعداء الله إلى استعمال القوة عوضاً عن الحجة، فإذا صدع الداعي إلى الله بالحق وأقام عليه الحجة فتح أعداء الله له السجون، وأخرجوه من بلاده وسلبوه ما يملك وحالوا بينه وبين من يحب من أهله أو أشهروا السلاح في وجهه لقتله، فهؤلاء قوم نوح يهددونه بالرجم إن لم يكف عن دعوتهم وإقامة الحجة عليهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿قالوا لئن لم تَنْتهِ يا نوحُ لتكونَنَّ من المرجومين﴾[1].

وأولئك قوم إبراهيم يأتمرون بحرقه بالنار بعد أن جادلهم وأقام عليهم الحجة الباهرة، كما قال تعالى عنهم: ﴿قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾[2].

(١) الشعراء: ١١٦.

(٢) الأنبياء: ٦٨.

وقوم لوط ائتمروا بإخراجه ومن اتبعه من قريتهم كما قال تعالى عنهم: ﴿وما كان جوابَ قومه إلا أن قالوا: أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهَّرون﴾[١]. وكذلك قوم شعيب كما قال تعالى عنهم: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنُخرجنَّك يا شعيبُ والذين آمنوا معك من قريتنا، أو لتعودُنَّ في ملَّتنا، قال أوَلَو كنا كارهين﴾[٢] وفرعون هدد موسى بالسجن إن عبد إلهاً غيره كما قال تعالى عنه: ﴿قال لئنِ اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين﴾[٣] وكان هذا التهديد بعد إقامة أقوى الحجج والبراهين الدامغة على فرعون كما في الآيات التي قبل هذه الآية.

وآخر من جمع التهديد بالقتل والسجن والنفي لرسول من الرسل هم كفار قريش الذين قال الله عنهم: ﴿وإذ يمكرُ بك الذين كفروا لِيُثْبتوك، أو يَقتلوك، أو يُخرجوك، ويَمكُرون ويمكرُ الله والله خير الماكرين﴾[٤].

وهذا هو دأب أعداء الله في كل زمان إذا قام فيهم من يدعو إلى الله مقيماً الحجة والدليل على دعوته لجأ الطغاة إلى القوة من سجن وتعذيب ونفي وقتل وصلب وغير ذلك. ولعل القارىء يجول بفكره في كل عصور التاريخ ولا سيما هذا العصر ليرى هذا المعنى ماثلاً أمامه.

موقف التضليل

الموقف الثاني من مواقف الطواغيت ضد الدعاة إلى الله ودعوتهم هو موقف التضليل والخداع لعامة الناس ويسلكون لذلك سبيلين:

السبيل الأولى:

إظهار النصح لشعوبهم التي تسلطوا عليها والثناء على الأوضاع القائمة والدعوة إلى المحافظة عليها وصيانتها والإشفاق عليهم من ضياعها والاعتداء

---

(١) الأعراف: ٨٢.
(٢) الأعراف: ٨٨.
(٣) الشعراء: ٢٩.
(٤) الأنفال: ٣٠.

عليها إذا نجحت الدعوة الجديدة ـ دعوة الرسل وأتباعهم ـ ويوهمون الناس أنهم حريصون على مصالحهم التي لا بقاء لها مع الإسلام.

ألا ترى كيف قلب فرعون الحقائق فوصف ضلاله وغيه بالرشاد ووصف هدى الله الذي جاء به موسى بالغي والفساد وأظهر نفسه بمظهر الناصح لقومه، كما قال تعالى عنه: ﴿قال فرعونُ ما أُريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾[1] وقال عنه: ﴿وقال فرعون: ذَرُوني أَقتُلْ موسى وَلْيَدْعُ ربَّه، إني أخاف أن يبدِّل دينَكم أو أن يُظْهِرَ في الأرض الفساد﴾[2]. تأمل كيف يوغل في التضليل عندما يقول: ﴿ذروني أقتل موسى وليدع ربه﴾ إنه يوحي بأنه لم يكف عن قتل موسى إلا ريثما يستشير قومه حتى لا يستبد بالأمر دونهم، كما يوهمهم بأن موسى يدعو إلَهاً غير موجود، لأنه لو كان له إلّه غيره لعصمه من قتله ونصره عليه.

وفي موضع آخر يبث غوغاء الناس ليذيعوا له ما يستثير به عامة الناس من أنه هو وقومه الأكثرون وأن موسى وقومه الأقلون، ومع ذلك يأتي هؤلاء الأقلون بما يغيظون به الأكثرين، لذلك يوغر صدورهم بما يوجب الالتفاف ضد هؤلاء الأقلين والحذر منهم، قال تعالى عنه: ﴿فأرسل فرعونُ في المدائن حاشرين * إنَّ هؤلاء لَشِرْذِمةٌ قليلون * وإنَّهم لنا لَغائظون * وإنا لَجَميعٌ حاذِرون﴾[3].

ويوضح في موضع آخر شيئاً مما يغيظهم به موسى وما يحذره هو وقومه، كما قال تعالى: ﴿فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى * قالوا: إنْ هذان لساحرانَ يريدان أن يُخرجاكم من أرضكم بسحرهما، ويذهبا بطريقتكم المُثْلى * فأجْمِعُوا كيدَكم ثم ائتوا صفّاً، وقد أفلح اليوم من استعلى﴾[4] إن فرعون وقومه ليحكون نفس التضليل الذي يقوم به أعداء الله في كل عصر ولا سيما هذا العصر إنه يقول كما يقول أعداء الله في هذا الزمان إن هذا الداعية أو هؤلاء الدعاة لا يريدون لهذا الشعب خيراً وإنما يريدون تشريد أهله وإخراجهم من بيوتهم ويريدون قلب نظام الحكم: ﴿يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما

(١) غافر: ٢٩.
(٢) غافر: ٢٦.
(٣) الشعراء: ٥٣ ـ ٥٦.
(٤) طه: ٦٢ ـ ٦٤.

ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾ ويدعون عامة الناس إلى المظاهرة لتأييد الطغاة ضد الدعاة ﴿فأجْمِعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى﴾[١].

السبيل الثانية:

بث الإشاعات وإلصاق التهم الكاذبة بالدعاة إلى الله لتنفير الناس من دعوتهم وصدهم عن الاستجابة لهم ومناصرتهم.

فتارة يرمون الدعاة إلى الله بالكذب، كما قال تعالى عن قومِ نوح: ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراكَ إلاَّ بشراً مثلنا، وما نراكَ اتَّبعك إلا الذين هم أراذِلُنا باديَ الرأي، وما نَرَى لكم علينا من فَضْلٍ، بل نظنُّكم كاذبين﴾[٢] ومنهم من يزيد على التكذيب اتهام الداعية بالخلل الذي أصابته به الآلهة المعبودة من دون الله كما قال تعالى عن قوم هود: ﴿قالوا يا هودُ ما جئتَنا ببيِّنَةٍ، وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك، وما نحن لك بمؤمنين * إنْ نقول إلا اعتراكَ بعضُ آلهتنا بسوءٍ﴾[٣] ومرة يرمونهم بالسحر كما قال تعالى عن فرعون وهو يخاطب موسى عليه السلام: ﴿قال أجئتَنا لتُخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى﴾[٤] وكذلك رمى المشركون الرسول ﷺ كما قال تعالى عنهم: ﴿إنَّه فكر وقدَّر * فقُتل كيف قدَّر * ثم قُتل كيف قـدَّر * ثم نظر * ثم عَبَسَ وبَسَـرَ * ثم أدبر واستكبر * فقال إنْ هذا إلا سِحْرٌ يُؤثر﴾[٥].

وتارة يصفونهم بالجنون وأن ما جاءوا به تعلموه من بشر مثلهم وليس من عند الله، كما قال تعالى: ﴿ثم تولَّوا عنه وقالوا مُعَلَّم مجنون﴾[٦].

وفي قصة الوليد بن المغيرة مع رسول الله ﷺ ما يكفي لمعرفة كيد أعداء الله في بث الإشاعات وإلصاق التهم الكاذبة بالدعاة إلى الله وقلب الحقائق للناس تنفيراً لهم عن الإيمان بالدعوة والدعاة، ولعل نقلها كاملة أنفع من الإشارة العابرة: (ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا

---

(١) طه: ٦٣ - ٦٤.
(٢) هود: ٢٧.
(٣) هود: ٥٣ - ٥٤.
(٤) طه: ٥٧.
(٥) المدثر: ١٨ - ٢٤.
(٦) الدخان: ١٤.

سن فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم: يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويـرد قولكم بعضه بعضاً، قالوا فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم فقولوا اسمع، قالوا: نقول كاهن. قال: لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، قالوا فنقول مجنون، قال: ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته، قالوا فنقول شاعر، قال ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر، قالوا فنقول ساحر قال ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا فما نقول يا أبا عبد شمس قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة ـ قال ابن هشام ويقال لغدق ـ وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن نقول ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره فأنزل الله تعالى في الوليد ابن المغيرة وفي ذلك من قوله: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالاً ممدوداً. . .﴾ الآيات إلى قوله: (فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر)[١].

إن الوليد ـ وهو ذو الرأي عندهم ـ يطلب منهم أن يتفقوا على رأي واحد يشيعونه ضد الرسول ﷺ ودعوته ينفرون به الناس من قبول دعوته، ثم يستطلع آراءهم التي كانوا يلقونها دون روية ولا تأمل لأن القصد منها إنما هو مجرد الاتهام الكاذب ولكن الوليد رد عليهم كل تلك الاتهامات، قالوا: هو كاهن فقال ما هو بكاهن، قالوا: مجنون، فقال: ما هو بمجنون وقالوا: شاعر فقال: ما هو بشاعر، وقالوا ساحر فقال ما هو بساحر ثم وصف ما جاء به ﷺ من كلام ربه

(١) السيرة لابن هشام (١ ـ ٢٧٠) وانظر تفسير الآيات في تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤ ـ ٤٤٢).

بما شهدت به فطرته وأقرته سليقته (إن لقوله لحلاوة. . .) وأكد ذلك بقوله: (وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل) ثم نكص على عقبيه وكذب فطرته وقريحته فوصفه بالسحر لا بل قال: وإن أقرب القول فيه لأن نقول ساحر. . . وتفرقوا على هذا القول الباطل ونشروه بين الناس لقد كان الوليد بن المغيرة مديراً لوضع المنهج الإعلامي المزيف الذي يقلب الحقائق وإن واضعي مناهج الإعلام المزيفة في هذا العصر لا فرق بينهم وبينه إلا بتيسير وسائل الإعلام ووسائل التنظيم والتنسيق التي لم تكن توجد في وقته، بل إن واضعي مناهج الإعلام المزيفة في كل العصور لا يوجد بينهم فرق إلا فيما ذكر:

﴿قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾[1].

﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾[2].

---

(١) البقرة: ١١٨. (٢) الذاريات: ٥٢، ٥٣.

المبحث التاسع

نماذج يقتدي بها السائرون

الفرع الأول
أنموذج الأنبياء والرسل ومن اقتدى بهم
إلى العصر الإسلامي الأول

إن المجاهدين في سبيل الله يحتاجون دائماً إلى أئمة يقتدون بهم في بلائهم في سبيل الله، وإن النماذج التي سارت في درب الجهاد على مر التاريخ مضيئة ذلك الدرب لمن يخلفهم فيه كثيرون وعلى رأس هؤلاء الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام فهم كلهم أئمة لنماذج السائرين بهم يقتدي كل سائر ويهتدي كل حائر، ولقد أمر الله عز وجل رسوله ﷺ بعد أن ذكر كبارهم أن يقتدي بهداهم، فقال تعالى: ﴿وتلك حُجَّتُنا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفعُ درجاتٍ من نشاء، إن ربَّك حكيمٌ عليمٌ * ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ كُلًّا هَدَيْنا، ونوحاً هَدَيْنا من قَبْلُ، ومن ذريته داودَ وسليمانَ وأيوبَ ويوسفَ وموسى وهارون وكذلك نَجْزِي المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياسَ كلٌّ من الصالحين * وإسماعيل والْيَسَعَ ويُونُسَ ولُوطاً وكُلًّا فضَلنا على العالمين * ومن آبائِهم وذرياتِهم وإخوانِهم، واجتبيناهم وهديناهم إلى صراطٍ مستقيم * ذلك هُدَى الله يَهْدي به من يشاء من عباده، ولو أشركوا لَحَبِطَ عنهم ما كانوا يعملون * أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنُّبوة، فإن يَكْفُرْ بها هؤلاء فقد وكَّلْنا بها قوماً ليسُوا بها بكافرين * أولئك الذين هَدَى الله فبِهُداهم اقْتَدِهْ، قل لا أسألكم عليه أجراً، إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾[1] وبلاؤهم في سبيل الله يظهر فيما قصه الله

---
(١) الأنعام: ٨٣ ـ ٩٠

في كتابه عنهم وعن أممهم في كثير من سور القرآن الكريم لا سيما الأعراف ويونس وهود وطه والأنبياء والشعراء والقصص وغيرها.

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يقتدوا بنبيهم ﷺ كما أمره أن يقتدي بالأنبياء قبله، كما قال سبحانه: ﴿لقد كان لكم في رسولِ الله أُسوةٌ حَسَنَةٌ لمن كان يرجو اللهَ واليومَ الآخرَ وذَكَر اللهَ كثيراً﴾[1] وكان ذلك في سياق قصة الأحزاب الذين ابتلى الله بهم رسوله ﷺ وأصحابه. وما نال رسول الله ﷺ من الابتلاء من قومه أمر غير خاف لمن علم سيرته ﷺ فهو المنارة العليا لمن أراد الاقتداء به في السير في طريقه والصبر على البلاء.

وأصحاب الأنبياء الأصفياء كذلك يعدون نماذج لاقتداء السائرين بهم كما قال تعالى: ﴿وكأيِّن من نبيٍّ قاتَل معه ربيُّون كثيرٌ، فما وَهَنوا لِمَا أصابهم في سبيل الله، وما ضَعُفوا وما استكانوا، والله يحبُّ الصابرين﴾[2].

وهذه الفئة القليلة من قوم طالوت ابتلوا فكانوا قدوة للسائرين ﴿قال الذين يظنُّون أنهم مُلاقُو اللهِ: كم من فئةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فئةً كثيرةً بإذن الله والله مع الصابرين * ولما برزوا لجالوتَ وجنودِه قالوا: ربَّنا أفْرِغْ علينا صَبْراً وثبِّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فهزموهم بإذن الله، وقتل داودُ جالوتَ﴾[3].

وهؤلاء سحرة فرعون الذين أرادوا الانتصار له على موسى بسحرهم فلما خالط الإيمان قلوبهم ابتلوا فكانوا مصابيح هدى لكل سائر في الطريق المستقيم: ﴿فأُلقِيَ السَّحَرةُ سُجَّداً قالوا آمنَّا بربِّ هرون وموسى * قال: آمنتم له قَبْلَ أن آذن لكم؟! إنَّه لَكبيرُكم الذي علَّمكم السِّحْر، فلأقطِّعنَّ أيديَكم وأرجلَكم من خِلافٍ، ولأصلِّبنَّكم في جُذوعِ النَّخل، ولَتَعْلَمُنَّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى * قالوا لن نُؤْثِرَكَ على ما جاءنا من البيِّناتِ والذي فطرنا فاقضِ ما أنت قاضٍ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا * إنَّا آمنا بربنا ليغفرَ لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السِّحْر، والله خير وأبقى﴾[4].

---

(١) الأحزاب: ٢١.
(٢) آل عمران: ١٤٦.
(٣) البقرة: ٢٤٩ - ٢٥١.
(٤) طه: ٧٠ - ٧٣.

وأولئك أصحاب الأخدود الذين رأوا ذلك الغلام المؤمن يسير إلى ربه هادياً لأمته ضارباً مثالاً رائعاً ونموذجاً نادراً في التضحية والفداء من أجل نشر دينه فكانوا هم أيضاً أنموذجاً لمن وراءهم إذ خدت لهم الأخاديد وأضرمت فيها النيران وطلب منهم الرجوع عن دينهم أو الدخول في تلك الأخاديد فاقتحموا النار تأكل أجسادهم وبقي الإيمان في قلوبهم يطفيء ذلك اللهب ويسوقهم إلى الفردوس فكان ذلك كما ذكر الله فوزاً عظيماً: ﴿قُتِلَ أصحاب الأخدودِ * النارِ ذاتِ الوقود * إذ هم عليها قعودٌ * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شُهودٌ * وما نقموا منهم إلا أن يُؤمنوا بالله العزيز الحميد * الذي له مُلْكُ السمواتِ والأرض والله على كلِ شيءٍ شهيدٌ * إن الذين فتَنوا المؤمنين والمؤمناتِ ثم له يتوبوا فلهم عذابُ جهنّم ولهم عذابُ الحريق * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوزُ الكبيرُ﴾[1].

وهكذا أنار أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان من أمته دروب السائرين إلى الله فلا ينظر السائر في دربه في أي عصر من العصور إلا وجد معالم مضيئة فيه ونماذج قد سبقته إلى ربه سبحانه وتعالى تدعوه إلى مواصلة السير والصبر على البلاء الذي تكون عاقبته عز الإسلام ونصر المسلمين.

اقرأ قصة أبي بكر، وهو يأبى إلا أن يعلن كلمة الله بين مردة الكفر ومعه فئة قليلة من المسلمين وكيف انهال أعداء الله عليه وعلى رفاقه ثم إلى حرصه على أن يرى رسول الله ﷺ ليطمئن عليه، بعد أن سقط مغمى عليه فلما أفاق رفض الطعام والشراب وسأل عن حبيبه رسول الله ﷺ: قالت عائشة رضي الله عنها: (لما اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ألحَّ أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: «يا أبا بكر إنا قليل» فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسول الله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً ووطيء أبو بكر وضرب ضرباً شديداً،

---

(١) البروج: ١ ـ ١١ وراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤ ـ ٤٩٨).

ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه وجاء بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب فتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله، فمسّوا منه بألسنتهم وعذلوه ثم قاموا وقالوا لأمه: أم الخير انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه.

فلما خَلَت به ألحَّت عليه وجعل يقول ما فعل رسول الله؟ فقالت والله ما لي علم بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فأسأليها عنه فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبدالله فقالت ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبدالله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك قالت نعم فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم قال: ما فعل رسول الله قالت هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت سالم صالح، قال: أين هو قالت في دار الأرقم، قال: فإن لله عليّ ألا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكيء عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ، قال: فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله وأكب عليه المسلمون ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة، فقال أبو بكر بأبي وأمي يا رسول الله ليس بي بأس إلا ما ناله الفاسق من وجهي وهذه أمي برة بولدها وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار قال فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت وأقاموا مع رسول الله ﷺ في الدار شهراً وهم تسعة وثلاثون رجلاً وقد كان حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أسلم يوم ضرب أبو بكر رضي الله عنه)[١].

---

(١) حياة الصحابة (١ ـ ٤١٢). الطبعة الأولى.

واقتدى بأبي بكر عمر رضي الله عنه، فقد أعلن التوحيد بين طغاة الشرك ونال ما نال من الأذى وصمد كالجبل الأشم أمام جيش الكفار كما روى ذلك ابنه عبدالله، قال: (لما أسلم عمر رضي الله عنه قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي، فغدا عليه قال عبدالله وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل ـ وأنا غلام أعقل كلَّ ما رأيت ـ حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أني أسلمت ودخلت في دين محمد؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر واتبعته أنا حتى قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته يا معشر قريش ـ وهم في أنديتهم حول الكعبة ـ ألا إن ابن الخطاب قد صبأ، قال يقول عمر خلفه: كذب، ولكني قد أسلمت وشهدت ألا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله. وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، قال وطلح فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا، قال فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حِبَرة وقميص موشّى حتى وقف عليهم فقال ما شأنكم؟ فقالوا صبأ عمر، قال فمه رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون أترون بني عدي يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلوا عن الرجل قال فوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه قال فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة يا أبت من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟ قال ذاك ـ أي بني ـ العاص بن وائل السهمي...)[1].

واقتدى بهما عثمان رضي الله عنه الذي أوثق رباطاً وأريد إكراهه على ترك دين الله والرجوع إلى دين آبائه فصبر على البلاء وبقي على دين الله، فقد: (أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية فأوثقه رباطاً وقال أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث؟ والله لا أحلّك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين، فقال عثمان: والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه)[2].

---

(١) حياة الصحابة (١ ـ ٤٢٠). الطبعة الأولى.

(٢) نفس المرجع (١ ـ ٤٢٢). الطبعة الأولى.

ويبتلى أصحاب رسول الله ﷺ فيصبرون ويتفاوتون في الصبر ويبلغ بلال رضي الله عنه القمة كما روى ابن مسعود رضي الله عنه قال: (أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمار وسمية وصهيب وبلال والمقداد رضي الله عنهم فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد أتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: (أحد أحد)[١].

وكانت سمية رضي الله عنها، وهي زوج ياسر، وأم عمار نموذجاً مضيئاً في درب السائرين فقد كانت أول شهيدة في الإسلام (حيث طعنها أبو جهل لعنه الله بحربة في قبلها حتى ماتت)[٢].

ومضى سياق قصة أبي ذر الغفاري الذي يعد من نماذج السائرين في درب الإيمان[٣]، كما مضت قصة أصحاب رسول الله ﷺ الذين أبلوا في غزوة أحد وأمرهم أن يخرجوا لمطاردة عدوهم وصديد جراحهم يسيل فلبوا النداء وخرجوا وأعداء الله يحاولون تخويفهم فلم ينل ذلك التخويف منهم شيئاً حتى وصلوا إلى حمراء الأسد[٤] وكذا قصة خبيب[٥].

الفرع الثاني
ذكر أمثلة لنماذج المجاهدين في عصور مختلفة
المثال الأول
الإمام أحمد بن حنبل

وإذا تجاوزنا عصر الصحابة رضي الله عنهم إلى غيره وجدنا في كل عصر من سلك نفس الدرب وأضاف نموذجاً جديداً ينيره للسائرين ومن هؤلاء الإمام

---

(١) حياة الصحابة (١ ـ ٤٢٦) الطبعة الأولى.
(٢) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٣ ـ ٥٩).
(٣) ص: البخاري رقم (٣٨٦١)، فتح الباري (١٧٣/٧) ومسلم (١٩٢٣/٤).
(٤) ص: البداية والنهاية (٤٨/٤).
(٥) ص: ٢٢١ من هذا الجزء.

أحمد بن حنبل رضي الله عنه وأرضاه وتغمده برحمته فقد آذاه أعداؤه الذين تزعمهم ابن أبي دُؤاد في القول بخلق القرآن الكريم وقهر العلماء وإكراههم على ذلك فاستجاب كثير من العلماء مكرهين ولكن أحمد رحمه الله قاد فئة قليلة في درب الصبر والجهاد والثبات على الحق على رغم شدة الإيذاء والتعذيب الذي كان يقف على تنفيذه الخليفة المعتصم بنفسه.

وليقرأ القارىء ما رواه أحمد نفسه مما أصابه وما وفقه الله له من الثبات على الحق. قال ابن كثير في سياق القصة: (فلما لم يقم لهم معه حجة عدلوا إلى استعمال جاه الخليفة (وهذه سبيل أهل الباطل في كل زمان) فقالوا يا أمير المؤمنين هذا كافر ضال مضل وقال له إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد: يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله ويغلب خليفتين، فعند ذلك حمي واشتد غضبه، وكان ألينهم عريكة، وهو يظن أنهم على شيء، قال أحمد: فعند ذلك قال لي: لعنك الله طمعت فيك أن تجيبني فلم تجبني ثم قال: خذوه واخلعوه واسجنوه، قال أحمد: فأخذت وسجنت وخلعت، وجيء بالعاقبين والسياط وأنا أنظر... فقلت يا أمير المؤمنين: الله الله إن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم أمرىء مسلم يشهد ألا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاث» وتلوت الحديث، وإن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم» فبم تستحل دمي ولم آت شيئاً من هذا؟ يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين ـ يدي ـ الله كوقوفي بين يديك، فكأنه أمسك ثم لم يزالوا يقولون له: يا أمير المؤمنين إنه ضال مضل كافر... وجيىء بالضراب ومعهم السياط فجعل أحدهم يضربني بسوطين ويقول له ـ يعني المعتصم ـ: شد قطع الله يديك، ويجيء الآخر فيضربني سوطين، ثم الآخر كذلك، فضربوني أسواطاً فأغمي عليّ وذهب عقلي مراراً فإذا سكن الضرب يعود عليّ عقلي، وقام المعتصم إليّ يدعوني إلى قولهم فلم أجبه فأعادوا الضرب ثم جاء إليّ الثالثة فدعاني فلم أعقل ما قاله من شدة الضرب، ثم أعادوا الضرب فذهب عقلي فلم أحس بالضرب، وأرعبه ذلك من أمري، وأمر بي فأطلقت ولم أشعر إلا وأنا في حجرة من بيت وقد أطلقت الأقياد من رجلي... ثم أمر الخليفة بإطلاقه إلى أهله وكان جملة ما ضرب نيفاً وثلاثين سوطاً، وقيل

ثمانين سوطاً، لكن كان ضرباً مبرحاً شديداً جداً)[١].

الإمام أحمد بن حنبل الذي يجب أن يدعى له برضوان الله يلعن، والإمام أحمد المؤمن الصالح المهتدي يقال عنه إنه ضال مضل كافر، الإمام أحمد الذي تقطع إليه المسافات لأخذ حديث رسول الله ﷺ وفقهه والاقتداء به يسلط عليه الجلادون بالسياط، الإمام أحمد الذي لا يمرغ جبهته إلا لربه في التراب يسحب في الشوارع. الإمام أحمد الذي جاهد أهل الكفر والزيغ والبدع في ذات الله يضرب حتى يغمى عليه ويكبل بالقيود من أجل إكراهه على اعتقاد الباطل ألا إنه من النماذج الفذة التي يجب أن يقتدي بها السائرون.

المثال الثاني
العز بن عبد السلام

ومن نماذج القدوة للسائرين العز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء، ولقبه بعضهم ببائع الملوك الذي نذر نفسه لله فصدع بالحق وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فابتلي وصبر وكان النصر حليفه، ويكفي أن تذكر قصتان من قصصه مع الملوك: القصة الأولى مع الملك الصالح إسماعيل وهي كما يلي: (وأما الصالح إسماعيل فإنه قد شاهد ما اتفق للشيخ مع الملك الأشرف وما عامله به في آخر الأمر من الإكرام والاحترام، ثم شاهد أيضاً ما عامله به السلطان الملك الكامل رحمه الله، فولاه الصالح إسماعيل خطابة دمشق وبقي على ذلك مدة.

ثم إن المصريين حلفوا للملك الصالح نجم الدين أيوب وكاتبوه بذلك فوصل إليهم وملك الديار المصرية وسار في أهلها السيرة المرضية فخاف منه الصالح إسماعيل خوفاً منعه المنام والطعام والشراب، واصطلح مع الفرنج على أن ينجدوه على الملك الصالح نجم الدين أيوب، ويسلم إليهم صيدا والثقيف وغير ذلك من حصون المسلمين، ودخل الفرنج دمشق لشراء السلاح ليقاتلوا به عباد الله المؤمنين فشق ذلك على الشيخ مشقة عظيمة في مبايعة الفرنج السلاح وعلى المتدينين من المتعيشين من السلاح فاستفتوا الشيخ في مبايعة الفرنج

(١) البداية والنهاية (١٠ ـ ٣٣٤).

السلاح، فقال: يحرم عليكم مبايعتهم لأنكم تتحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين وجدد دعاءه على المنبر وكان يدعو به إذا فرغ من الخطبتين قبل نزوله من المنبر، وهو: اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً رشداً تعز فيه وليك وتذل فيه عدوك، ويعمل فيه بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك والناس يبتهلون بالتأمين والدعاء للمسلمين والنصر على أعداء الله الملحدين فكاتب أعوان الشيطان السلطان بذلك وحرفوا القول وزخرفوه فجاء كتابه باعتقال الشيخ فبقي مدة معتقلاً، ثم وصل الصالح إسماعيل وأخرج الشيخ بعد محاورات ومراجعات فأقام مدة بدمشق ثم انتزح عنها إلى بيت المقدس فوافاه الملك الناصر داود في الفور فقطع عليه الطريق وأخذه وأقام عنده بنابلس مدة وجرت له معه خطوب ثم انتقل إلى بيت المقدس وأقام به مدة ثم جاء الصالح إسماعيل والملك المنصور صاحب حمص وملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس يقصدون الديار المصرية فسير الصالح إسماعيل بعض خواصه إلى الشيخ بمنديله وقال له: تدفع منديلي إلى الشيخ وتتلطف به غاية التلطف وتستنزله وتعده بالعود إلى مناصبه على أحسن حال فإن وافقك فتدخل به عليّ وإن خالفك فاعتقله في خيمة إلى جانب خيمتي. فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع في مسايسته وملاينته ثم قال له بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير، فقال له: والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً أن أقبل يده، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به. فقال له: قد رسم لي إن لم توافق على ما يطلب منك وإلا اعتقلتك، فقال: افعلوا ما بدا لكم، فأخذه واعتقله في خيمة إلى جانب خيمة السلطان وكان الشيخ يقرأ القرآن والسلطان يسمعه، فقال يوماً لملوك الفرنج تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن قالوا نعم، قال هذا أكبر قسوس المسلمين وقد حبسته لإنكاره عليّ تسليمي لكم حصون المسلمين وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه ثم أخرجته فجاء إلى القدس وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم فقالت له ملوك الفرنج لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقها)[١].

(١) طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (٨ - ٢٤٢) طبع الحلبي.

إن هذه القصة تحتوي عبراً كثيرة، فهي تدل على عظمة سلطان العلماء وقوته في الحق وثباته عليه واستهانته بأعداء الله وإشفاقه عليهم وغبطته بنعمة الله عليه حيث عافاه من العبودية لغيره التي ابتلي بها عبيد الطغاة والجاه والمنصب.

أنكر المنكر في غير خوف لومة لائم في وقت لا يشك فيه بأن اللوم وما يتبعه من عقوبات سيصدر من ملك البلاد الذي هو أكبر مسؤول وبيده القوة المادية.

ودعا على المنبر بالدعاء الذي يزلزل عرش الطاغية.

وتعاون أعداء الله عليه مع السلطان بالزور والباطل فاعتقل وصبر وأفرج عنه فانتقل إلى مكان آخر فتلقفته أيد أخرى جرت له معها خطوب.

وامتحن بالترغيب في الجاه والمنصب والحظوة عند السلطان إذا انكسر له وقبل يده فكان جوابه: (والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً أن أقبل يده، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به). نعم إنه في وادي العبودية المحضة للإله الحق، وهم في العبودية المذلة لعبيد الملك والسلطان فشتان بين مشرق ومغرب.

ثم امتحن بالتهديد والعقاب فكان جوابه جواب عبدالله المتوكل عليه: (افعلوا ما بدالكم) ولعله قال هذه الجملة وهو يتذكر قول هود عليه السلام في تحديه لقومه: ﴿قال إني أُشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون * من دونه، فكيدوني جميعاً ثم لا تُنظرون * إني توكَّلت على الله ربي وربِّكم ما من دابة إلاَّ هو آخذٌ بناصيتها إنَّ ربي على صراطٍ مستقيمٍ﴾[1].

ومن العبر التي احتوتها القصة إذلال من طلب العزة من غير الله فهذا الملك الذي طلب النصر من الكفار وعامل الشيخ تلك المعاملة طلباً لرضاهم لم يزيدوا على أن اعترفوا بعظمة الشيخ صراحة وبنذالة السلطان ضمناً حيث قالوا له: (لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقها).

---

(١) هود: ٥٤ ـ ٥٦.

وليت حكام الشعوب الإسلامية يتعظون بهذه العبرة.

أما القصة الثانية، فهي إصراره على عدم صحة بيع أمراء الأتراك وشرائهم وغير ذلك من المعاملات التي تشترط فيها الحرية، لأن سادتهم ولوهم الإمارات وهم عبيد لبيت مال المسلمين، وعلى الرغم من وقوف السلطان معهم، ومن مناصبهم التي أرادوا استغلالها ضده ثم الدفاع عن أنفسهم فإنه صمم على بيعهم حتى بيعوا وصرفت أثمانهم في مصالح المسلمين العامة أمراء باعهم سلطان العلماء وبائع الملوك!!.

وهذه هي القصة: (ذكر كائنة الشيخ مع أمراء الدولة من الأتراك، وهم جماعة ذُكِرَ أن الشيخ لم يثبت عنده أنهم أحرار وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين فبلغهم ذلك فعظم الخطب عندهم فيه وأضرم الأمر والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعاً ولا شراء ولا نكاحاً وتعطلت مصالحهم بذلك، وكان من جملتهم نائب السلطنة، فاستشاط غضباً فاجتمعوا وأرسلوا إليه فقال نعقد لكم مجلساً وينادى عليكم لبيت مال المسلمين ويحصل عتقكم بطريق شرعي، فرفعوا الأمر إلى السلطان فبعث إليه فلم يرجع، فجرت من السلطان كلمة فيها غلظة، حاصلها الإنكار على الشيخ في دخوله في هذا الأمر وأنه لا يتعلق به، فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار وأركب عائلته على حمار آخر ومشى خلفهم خارجاً من القاهرة قاصداً نحو الشام فلم يصل إلى نحو نصف بريد إلا وقد لحقه غالب المسلمين، لا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاؤهم فبلغ السلطان الخبر، وقيل له: متى راح ذهب ملكك، فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيب قلبه فرجع واتفقوا معه على أنه ينادى على الأمراء، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه فانزعج النائب، وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض، والله لأضربنه بسيفي هذا، فركب بنفسه في جماعته وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده، فطرق الباب، فخرج ولد الشيخ، أظنه عبد اللطيف فرأى من نائب السلطنة ما رأى فعاد إلى أبيه وشرح له الحال، فما اكترث لذلك ولا تغير، قال يا ولدي أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله، ثم خرج كأنه قضاء الله قد نزل على نائب السلطنة، فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب وسقط السيف منها وأرعدت

مفاصله فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له، وقال: يا سيدي خبر أيش تعمل؟ قال: أنادي عليكم وأبيعكم، قال: ففيم تصرف ثمننا قال: في مصالح المسلمين قال: من يقبضه قال: أنا فتم له ما أراد، ونادى على الأمراء واحداً واحداً وغالى في ثمنهم وقبضه وصرفه في وجوه الخير. وهذا ما لم يسمع بمثله عن أحد رحمه الله تعالى ورضي عنه)[1].

نعم لم يسمع بمثله عن أحد ولكنه نموذج يقتدي به السائرون ونبراس يضيىء الدرب للمجاهدين وضياء ينير الصراط للصابرين.

المثال الثالث
شيخ الإسلام ابن تيمية

ومن أعلام نماذج قدوة السائرين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

ولقد قعَّد رحمه الله للجهاد في سبيل الله قاعدة عامة عرف بها الجهاد استخلصها من نصوص الكتاب والسنة والهدي النبوي وسير أصحاب الرسول ﷺ وأتباعهم بإحسان، وتعريفه للجهاد هو الذي اختاره الباحث، ويعيده هنا ليربط القارىء بين تعريف هذا المجاهد للجهاد في سبيل الله وتطبيقه العملي للجهاد فقد قال رحمه الله: (فمن كان محباً لله لزم أن يتبع الرسول فيصدقه فيما أخبر ويطيعه فيما أمر ويتأسى به فيما فعل، ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله فيحبه الله، فجعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول والجهاد في سبيله.

وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من العمل الصالح ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان)[2].

وقال بعد ذلك بقليل: (والجهاد هو بذل الوسع ـ وهو القدرة ـ في حصول محبوب الحق ودفع ما يكرهه الحق، فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٨ ـ ٢١٦).
(٢) الفتاوى (١٠ ـ ١٩١).

دليلاً على ضعف محبة الله ورسوله في قلبه)[1].

والذي يدرس سيرة هذا المجاهد يدرك أنه بذل أقصى وسعه في الجهاد في سبيل الله بمعناه الشامل الذي لا تشذ عنه شاذة، فكل ما يحبه الله ورسوله من العلم النافع والعمل الصالح بذل ابن تيمية فيه أقصى وسعه فطبقه هو بنفسه ودعا الناس إليه واجتهد في إيصاله إليهم وإقناعهم به وكل ما يبغضه الله ورسوله من الكفر والفسوق والعصيان بذل ابن تيمية أقصى جهده في الابتعاد عنه وتحذير الناس عنه بالوسائل المناسبة المتاحة له فما كان أسلوبه البيان، بالغ في بيانه، وما كان أسلوبه الزجر والتحذير بالغ في الزجر عنه والتحذير منه وما كانت وسيلته الجهاد المسلح حمل ابن تيمية لأهله السلاح وقارعهم به.

أما جهاده في تحصيل العلم النافع فقد قال عنه الحافظ عمر بن علي البزار: (ولم يزل منذ إبان صغره مستغرق الأوقات في الجد والاجتهاد وختم القرآن صغيراً، ثم اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعربية حتى برع في ذلك مع ملازمة مجالس الذكر وسماع الأحاديث والآثار، ولقد سمع غير كتاب على غير شيخ من ذوي الروايات الصحيحة العالية، أما دواوين الإسلام الكبار كمسند أحمد وصحيح البخاري ومسلم وجامع الترمذي وسنن أبي داود السجستاني والنسائي وابن ماجه والدارقطني فإنه رحمه الله ورضي عنهم وعنه فإنه سمع كل واحد منها عدة مرات وأول كتاب حفظه في الحديث: الجمع بين الصحيح للإمام الحميدي. وقلّ كتاب من فنون العلم إلا وقف عليه وكان الله قد خصه بسرعة الحفظ وإبطاء النسيان، لم يكن يقف على شيء أو يستمع لشيء غالباً إلا ويبقى على خاطره إما بلفظه أو معناه، وكان العلم كأنه قد اختلط بلحمه ودمه وسائره فإنه لم يكن له مستعاراً بل كان له شعاراً ودثاراً ولم يزل آباؤه أهل الدراية التامة والنقد والقدم الراسخة والفضل، لكن جمع الله له ما خرق بمثله العادة ووفقه في جميع أمره لأعلام السعادة وجعل مآثره لإمامته من أكبر شهادة حتى اتفق كل ذي عقل سليم أنه ممن عنى نبينا ﷺ بقوله: «إن الله يبعث على رأس

---

(١) الفتاوى (١٠ - ١٩٢).

كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها»[١]. فلقد أحيا الله به ما كان قد درس من شرائع الدين وجعله حجة على أهل عصره أجمعين والحمد لله رب العالمين)[٢] وأن العلم النافع ـ وهو الفقه في الدين ـ لهو قاعدة الجهاد في سبيل الله.

وقال الشيخ محمد أبو زهرة: (وفي الجملة إن ذلك الفتى ربى نفسه تربية عالية فتعلم العلوم التي كانت رائجة في عصره ولم يترك باباً من الأبواب إلا أتقنه ولقد قال فيه أحد معاصريه: (قد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع فيه ولا تكلم في علم من العلوم سواء أكان من علوم الشرع أم من غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه وكانت لـه اليد الـطولى في حسن التصنيف) هذه ثمرة الدراسة الواسعة التي تلقاها وعالجها في نشأته وشبابه حتى صار له شأنه وشغل عصره والأجيال وجدد الإسلام وأعاده قشيباً كما بدا غضاً، وأزال عنه غبار القرون الذي تكاثف عليه حتى حال دون إدراك حقيقته ومعرفة غايته)[٣].

وأما اجتهاده وجهاده في عبادة ربه فقد كان محافظاً مع الفرائض على النوافل المطلقة والمقيدة والأذكار والأدعية، كما كان يعود المرضى في كل أسبوع ولقد وصف تلميذه الحافظ عمر بن علي البزار عبادته ثم قال: (وكان رضي الله عنه كثيراً ما يرفع طرفه إلى السماء لا يكاد يفتر من ذلك، كأنه يرى شيئاً يثبته بنظره فكان هذا دأبه مدة إقامتي بحضرته، فسبحان الله ما أقصر ما كانت يا ليتها كانت طالت ولا والله ما مر على عمري إلى الآن زمان كان أحب إليّ من

---

(١) قال المحشي: أخرجه أبو داود والحاكم وغيرهما بسند صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة للمحدث الألباني برقم (٦٠١).

(٢) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، تحقيق زهير الشاويش ص: ١٩ ـ ٢١.

(٣) ابن تيمية حياته وعصره (ص ٢٨ فقرة ٣١).

ذلك الحين ولا رأيتني في وقت أحسن حالاً مني حينئذ)[١].

وأما دعوته إلى العلم النافع والعمل الصالح فتتضح من كثرة مجالسه وحلقاته وتطوافه للدعوة إلى الله تعالى في كل مكان نزل به حتى ولو كان ذلك المكان هو السجن، كما قال ابن كثير رحمه الله: (والمقصود أن الشيخ تقي الدين أقام بثغر الاسكندرية ثمانية أشهر مقيماً ببرج متسع مليح نظيف له شباكان أحدهما إلى جهة البحر والآخر إلى جهة المدينة وكان يدخل عليه من شاء ويتردد إليه الأكابر والأعيان والفقهاء ويقرأون عليه ويستفيدون منه وهو في أطيب عيش وانشراح صدر)[٢].

وأما تحذيره من البدع والاجتهاد في قمعها وإظهار مخالفتها للكتاب والسنة وإقامة الحجة على أهلها فإن أمثلة ذلك لا تحصى كثرة، فقد تصدى للصوفية الضالة بجميع طرقها ومن ذلك ما جرى له مع الرفاعية الذين كانوا يضلون الناس بشعوذاتهم التي يدعون أنها كرامات فقد عقد معهم جلسات حضرها جمع من الناس وضح فيها أن ما يدعونه من الكرامات إنما هو شعوذات ومن ذلك زعمهم أنهم يدخلون في النار ولا تحرقهم فطلب منهم ابن تيمية أن يغسلوا أجسامهم بما يزيل ما يعلق بها مما يدهنون به ويحتالون على الناس به وباهلهم في ذلك بل بين للناس أنهم وإن دخلوا النار على سبيل الفرض ولم تؤثر فيهم فإن ذلك لا يدل على كرامات لهم ما داموا يخالفون الإسلام قال ابن كثير: (وأظهر الله السنة على يديه وأخمد بدعتهم ولله الحمد والمنة)[٣].

وكان يتخذ لكل قضية أو حادثة ما يناسبها، يقابل فساد التصور بالإيضاح والبيان لذلك الفساد ولما هو الحق بالحجج والبراهين فإذا كان ذوو الفساد مسلحين يعيثون في الأرض فساداً اتخذ مع موقف البيان والحجة موقف الجهاد المسلح، كما فعل مع النصيرية والتتار.

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ص ٤٢ ـ ٤٣.

(٢) البداية والنهاية (١٤ ـ ٥٠).

(٣) راجع البداية والنهاية (١٤ ـ ٢٦ وما بعدها) وكذا كتاب العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية لتلميذه محمد بن أحمد بن عبد الهادي ص ١٩٤.

قال تلميذه محمد بن أحمد بن عبد الهادي: (وكان توجه الشيخ تقي الدين رضي الله عنه إلى الكسراويين في مستهل ذي الحجة سنة أربع وسبعمائة وصحبته الأمير قراقوش. . . وفي يوم الخميس سابع عشر وصل النائب والعسكر معه إلى دمشق بعد أن نصرهم الله تعالى على حزب الضلال من الروافض والنصيرية وأصحاب العقائد الفاسدة وأبادهم الله من تلك الأرض والحمد لله رب العالمين) وبعد أن جاهد ابن تيمية النصيرية وانتصر عليهم مع نائب السلطنة والأمير قراقوش كتب كتاباً للسلطان الملك الناصر يهنئه فيه بالنصر على حزب الضلال ويوضح له فيه ضلالهم وشرهم واعتداءهم على المسلمين، وتكفيرهم للسلف الصالح من الصحابة والتابعين ومشايخ الإسلام، وإنهم عندهم أكفر من اليهود والنصارى، وإن تعاونهم مع الفرنج والتتار على المسلمين مبني على هذا الاعتقاد الفاسد. وقد سجل هذه الرسالة كذلك تلميذه ابن عبد الهادي[1] ومما قاله في هذا الخطاب: (فإن ما من الله به من الفتح والنصر على هؤلاء الطغام هو من عزائم الأمور التي أنعم الله بها على السلطان وأهل الإسلام، وذلك لأن هؤلاء وجنسهم من أكابر المفسدين في أمر الدنيا والدين فإن اعتقادهم أن أبا بكر وعمر وعثمان وأهل بدر وأهل بيعة الرضوان وجمهور المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان وأئمة الإسلام وعلماءهم أهل المذاهب الأربعة وغيرهم ومشايخ الإسلام وعبادهم وملوك المسلمين وأجنادهم وعوام المسلمين وأفرادهم، كل هؤلاء عندهم كفار مرتدون أكفر من اليهود والنصارى لأنهم مرتدون عندهم والمرتد شر من الكافر الأصلي، ولهذا السبب يقدمون الفرنج والتتار على أهل القرآن والإيمان. . . ولقد كان جيرانهم من أهل البقاع وغيرهم معهم في أمر لا يضبط شره، كل ليلة تنزل عليهم منهم طائفة ويفعلون من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، كانوا في قطع الطرقات وإخافة سكان البيوتات على أقبح سيرة عرفت من أهل الجنابات يرد إليهم النصارى من أهل قبرص فيضيفونهم ويعطونهم سلاح المسلمين ويقعون بالرجل الصالح من المسلمين فإما أن يقتلوه أو يسلبوه)[2].

(١) راجع ذلك في العقود الدرية ص ١٨١ ـ ١٩٤ وهي أيضاً في مجموع الفتاوى جمع ابن قاسم (٢٨ ـ ٣٩٨ ـ ٤٠٩).

(٢) الفتاوى (٢٨ ـ ٤٠٠ ـ ٤٠٣) وكذا (٢٨ ـ ٥٥٣).

هذا الذي يصفه ابن تيمية من إفساد النصيرية كان في وقت لا دولة لهم قائمة ولذلك غزاهم هو ونائب السلطنة في دمشق وأحد الأمراء مع بعض العساكر وخضدوا شوكتهم.

أما بعد أن قامت لهم دولة في هذا العصر فقد أذاقوا المسلمين كل ما يمليه عليهم حقدهم من قتل وسجن وتعذيب وتشريد ونهب ولكن تلاميذ ابن تيمية لهم بالمرصاد والله غالب على أمره.

أما التتار فكان جهاده لهم على وجهين: الأول إهابته بالمسلمين وحضه لهم على الثبات والاستبسال والمقاومة والقتال وتحذيرهم من الجبن والفرار وكان ذلك في الشام ومصر على السواء فقد كان رحمه الله يجوب الأرض، ناصحاً للحكام وكبار رجال الدولة وأعيان البلد وعامة المسلمين داعياً لهم إلى التضحية واعداً لهم بالنصر على الأعداء مجادلاً من عنده أدنى شك في كفر التتار ووجوب قتالهم مقيماً الحجة في كل ذلك وقد نجح في تثبيت المسلمين وإقناعهم بوجوب قتال هؤلاء الأعداء فقاتلوهم حتى نصرهم الله عليهم بعد هزائم منكرة أنزلت بالمسلمين من التتار وأخذ ابن تيمية رحمه الله يذكر المسلمين بنعمة الله ونصره ويقارن بين حالهم هذه مع التتار وبين الحال التي كان عليها الرسول ﷺ وأصحابه في غزوة الأحزاب موضحاً أوجه الشبه فيها من نصر الله الذي أنزله على أوليائه بأعدائه بعد أن بلغت القلوب الحناجر وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً[١].

والوجه الثاني من جهاده رحمه الله: تصديه لأعداء الله بنفسه ينصحهم ويهددهم ويستنقذ منهم أسرى المسلمين ويباشر قتالهم ويشارك في حراسة البلد مع عامة المسلمين، قال ابن كثير رحمه الله: (وفي هذا اليوم ـ الثاني من رجب سنة ٦٩٩ للهجرة ـ خرج الشيخ تقي الدين بن تيمية إلى مخيم بولاي فاجتمع به في فكاك من كان معه من أسارى المسلمين، فاستنقذ كثيراً منهم من أيديهم وأقام عنده ثلاثة أيام. . .) إلى أن قال: (وكان الشيخ تقي الدين بن تيمية يدور كل

---

(١) راجع البداية والنهاية (١٤ ـ ١٣) وما بعدها. وراجع رسائله رحمه الله في شأن التتار في الفتاوى (٢٨ ـ ٤١٠ ـ ٥٥٣).

ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط)[١].

وقد وصف تلميذه ابن عبد الهادي بعض مواقفه في جهاده التتار فقال: (وبقي الشيخ المذكور ـ رضي الله عنه ـ هو وأخوه وأصحابه ومن معه من الغزاة قائماً بظهوره وجهاده ولأمة حربه يوصي الناس بالثبات ويعدهم بالنصر ويبشرهم بالغنيمة والفوز بإحدى الحسنيين إلى أن صدق الله وعده وأعز جنده وهزم التتار وحده ونصر المؤمنين وهزم الجمع وولوا الدبر وكانت كلمة الله هي العليا وكلمة الكفار هي السفلى وقطع دابر القوم الكفار والحمد لله رب العالمين ودخل جيش الاسلام المنصور إلى دمشق المحروسة والشيخ في أصحابه شاكياً في سلاحه داخلاً معهم عالية كلمته قائمة حجته ظاهرة ولايته مقبولة شفاعته مجابة دعوته)[٢].

وقال ابن كثير عنه رحمه الله: (وفي يوم الأثنين رابع الشهر رجع الناس من الكسوة إلى دمشق فبشروا الناس بالنصر. وفيه دخل الشيخ تقي الدين بن تيمية البلد ومعه أصحابه في الجهاد ففرح الناس به ودعوا له وهنأوه بما يسر الله على يديه من الخير، وذلك أنه ندبه العسكر الشامي أن يسير إلى السلطان يستحثه السير إلى دمشق فسار إليه فحثه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر فجاء هو وإياه جميعاً فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القتال فقال له الشيخ: السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم وحرض السلطان على القتال وبشره بالنصر وجعل يحلف بالله الذي لا إله إلا هو أنكم منصورون عليهم في هذه المرة، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله فيقول إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً وأفتى الناس بالفطر مدة قتالهم وأفطر هو أيضاً وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل شيئاً معه في يده ليعلمهم أن إفطارهم ليتقوَّوْا على القتال أفضل فيأكل الناس)[٣].

(١) البداية والنهاية (١٤ ـ ١٠ ـ ١١).
(٢) العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ص: ١٧٧.
(٣) البداية والنهاية (١٤ ـ ٢٥ ـ ٢٦).

وقال الحافظ عمر بن علي البزار: (كان رضي الله عنه من أشجع الناس وأقواهم قلباً ما رأيت أحداً أثبت جأشاً منه ولا أعظم عناء في جهاد العدو منه، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده ولا يخاف في الله لومة لائم. وأخبر غير واحد أن الشيخ رضي الله عنه كان إذا يحضر مع معسكر للمسلمين في جهاد يكون بينهم واقيتهم وقطب ثباتهم إن رأى من بعضهم هلعاً أو رقة أو جبانة شجعه وثبته وبشره ووعده بالنصر والظفر والغنيمة وبين له فضل الجهاد والمجاهدين وإنزال الله عليهم السكينة، وكان إذا ركب الخيل يتحنك ويجول في العدو كأعظم الشجعان ويقوم كأثبت الفرسان ويكبر تكبيراً أنكى في العدو من كثير من الفتك بهم ويخوض فيهم خوض رجل لا يخاف الموت)[1].

هذا الرجل العظيم الذي رزقه الله الفقه في الدين والتطبيق العملي لما فقهه فيه من عمل صالح في ذات نفسه ومن دعوة وبيان للحق وإزهاق للباطل لم يدعه الحساد والجهال والحكام يمضي في طريقه بل حاربوه وآذوه وصدوا الناس عن دعوته وعلمه بكل ما قدروا عليه فاعتقل في سنة خمس وسبعمائة في مصر وأدخل السجن وحبس كذلك سنة تسع وسبعمائة، ثم سجن سنة ٧٢٦ في قلعة دمشق حتى توفي في سجنه وهو يجاهد حسب استطاعته دون كلل أو ملل[2].

ولقد كان رحمه الله وهو في سجنه يرسل صواعق الإسلام التي يكتبها لتحرق أعلام الشرك والبدع التي كان خصومه قد تجمعوا ضده لهجومه عليها فازدادوا غيظاً وطلبوا من الحاكم عدم تمكينه من القراءة والكتابة فلم يوقفه ذلك عن عمل ما يقدر عليه فكان يكتب بالفحم حتى توفاه الله وقد نقل تلميذه ابن عبد الهادي نصاً رآه مكتوباً في ورقة بعثها إلى بعض أصحابه مكتوبة بالفحم[3].

وقال تلميذه الحافظ عمر بن علي البزار: (ولقد سجن أزماناً وأعصاراً وسنين وشهوراً ولم يولهم دبره فراراً ولقد قصد أعداؤه الفتك به مراراً وأوسعوا

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ص: ٦٩ ـ ٧٠، وراجع كتاب: الحافظ أحمد بن تيمية للأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي الهندي ص: ٤٨ ـ ٥٤.

(٢) راجع البداية والنهاية لابن كثير (١٤ ـ ٣٧ ـ ٤٩ ـ ١٢٣).

(٣) راجع العقود الدرية ص: ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

حيلهم عليه إعلاناً وإسراراً، فجعل الله حفظه منهم له شعاراً ودثاراً ولقد ظنوا أن في حبسه مشينة فجعله الله له فضيلة وزينة وظهر له يوم موته ما لو رآه واده أقرّ به عينه فإن الله تعالى لعلمه بقرب أجله ألبسه الفراغ عن الخلق للقدوم على الحق أجمل حلله كونه حبس على غير جريرة ولا جريمة بل على قوة في الحق وعزيمة)[1].

ولقد كان رحمه الله يحلم على من يجهل عليه ويعفو عمن ظلمه يوصي أصحابه بذلك وهو في سجنه وما كان يغضب إلا لله فقط أما نفسه فكل من نال منها أذى فهو في حل منه كما قال في خطاب له إلى أصحابه: (فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه عليّ أو ظلمه وعدوانه فإني قد أحللت كل مسلم وأنا أحب الخير لكل المسلمين وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي)[2] وإن دفاع الشيخ عن خصومه الذين آذوه وتسببوا في سجنه مرات، وحاولوا صد الناس عن علمه والاستفادة منه إن دفاعه عنهم وقد أراد السلطان قتلهم ـ لاحبسهم ـ معللاً ذلك بإيذائهم للشيخ ـ والواقع أنه كان يريد الانتقام منهم لسعيهم في عزله فلم يوافقه الشيخ على ذلك بل أصر على عدم التعرض لهم بسوء إن ذلك لمن أكبر الأدلة على أن هذا الشيخ كان لا يغضب إلا لله وأنه ابتلي فصبر فكان النصر حليفه.

قال ابن كثير رحمه الله: (وسمعت الشيخ تقي الدين يذكر ما كان بينه وبين السلطان من الكلام لما انفردا في ذلك الشباك الذي جلسا فيه وإن السلطان استفتى الشيخ في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموا فيه وأخرج له فتاوى بعضهم بعزله من الملك ومبايعة الجاشنكير وأنهم قاموا عليك وآذوك أنت أيضاً وأخذ يحثه بذلك على أن يفتيه في قتل بعضهم وإنما كان حنقه عليهم بسبب ما كانوا سعوا فيه من عزله ومبايعة الجاشنكير ففهم الشيخ مراد السلطان فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء وينكر أن ينال أحداً منهم بسوء وقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم فقال له: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً

---

(١) الأعلام العلية ص: ٧٨.

(٢) الفتاوي (٢٨ ـ ٥٥).

فقال الشيخ من آذاني فهو في حل ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه وأنا لا أنتصر لنفسي وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح قال: وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول: ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقدر عليه وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا)[1].

إن ابن تيمية من أعظم النماذج التي يقتدي بها السائرون. بسبب فقهه في الدين فقهاً يندر توافره لكثير من العلماء المجتهدين وشدة تعبده وإخلاصه لله الخالق، وقيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلابته في الحق وصبره على المحن والفتنة في ذات الله تعالى وصفحه عن أعدائه في كل ما نالوه من أذى وما أحوج العالم اليوم إلى هذا النموذج الفريد الذي جمع الله فيه ما فرق في غيره.

ولا يقدر على مقارعة أعداء الله من علماء الضلال وفرق البدع وطواغيت الحكم في الأرض إلا أمثال ابن تيمية الذي عرف الحرية الحقة والرق المذل، الحرية الحقة التي قد صاحبها في غياهب السجون، وخلف قضبان الحديد تحت التعذيب والحرمان من كل متع الدنيا، والرق المذل الذي قد يكون صاحبه رئيس دولة أو ذا مركز مرموق فيها، وقد قال في ذلك رحمه الله: (وكلما قوى طمع العبد في فضل الله ورحمته لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحريته مما سواه... وكل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه خضع قلبه لهم وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك وإن كان في الظاهر أميراً لهم مدبراً لأمورهم متصرفاً بهم. فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر... واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استعبد بدنه واسترق وأسر لا يبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص وأما إذا كان القلب ـ الذي هو ملك الجسم ـ رقيقاً مستعبداً متيماً لغير الله، فهذا هو الذل والأسر المحض والعبودية الذليلة لما استعبد القلب... فالحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب... وكذلك طالب الرئاسة والعلو في الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم

---

(١) البداية والنهاية (١٤ ـ ٥٤).

فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم فيبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عما يجترحونه ليطيعوه ويعينوه فهو في الظاهر رئيس مطاع وفي الحقيقة عبد مطيع.

والتحقيق أن كلاهما (هكذا) فيه عبودية للآخر وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله، وإذا كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق فكل واحد من الشخصين لهواه الذي استعبده واسترقه مستعبد للآخر...)(١).

وماذا ينتظر أعداء الدعوة إلى الله من دعاة أحرار القلوب دائماً يعتبرون أعداءهم أرقاء وإن قعدوا على العروش وحكموا وأمروا ونهوا وتجبروا. وعلوا في الأرض وعاثوا فساداً، ماذا ينتظر عبيد الدنيا وإن سادوا ـ في ظاهر الأمر ـ من عباد الله الأحرار، وإن سجنوا وأوذوا وقتلوا وأخرجوا من ديارهم؟ وها هو ابن القيم رحمه الله ينقل عن شيخه الحر ابن تيمية رحمه الله ما لو عقله عبيد الدنيا عن عباد الله لكفوا عن إيذائهم وسجنهم وقتلهم لأنهم لا يزدادون بذلك إلا فرحاً وسروراً وزلفى إلى ربهم ورفعة في الأرض وثواباً في الآخرة، قال ابن القيم رحمه الله: (وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: (إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة) وقال لي مرة: (ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة) وكان يقول في محبسه في القلعة: (لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبا ما عدل عندي شكر هذه النعمة أو قال ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير ونحو هذا) وكان يقول في سجوده: (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله) وقال لي مرة: (المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى والمأسور من أسره هواه) ولما دخل إلى القلعة، وصار داخل سورها نظر إليه وقال: (فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً

(١) الفتاوى (١٠ ـ ١٨٤ ـ ١٨٩) أخذ منها باختصار.

وأشرحهم صدراً وأقواهم قلباً وأسرّهم نفساً تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنّا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون وضاقت منا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها في دار العمل فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها...)[1].

وإن المسلمين الذين يتوقون إلى الجهاد في سبيل الله لفي أمس الحاجة، بل الضرورة إلى أمثال هذا النموذج الذي يرون فيه القدوة الحسنة في الفقه والدين والعمل الصالح والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله والصبر على البلاء والاطمئنان إلى قضاء الله وعدم الاكتراث بذوي الجبروت والطغيان عبيد الدنيا والمنصب والشهوات. ولو أن المسلمين وجدوا هذا النموذج من الدعاة إلى الله أحرار القلوب الذين إذا سمع كلامهم أو رآهم من اشتد خوفه وساءت منه الظنون وضاقت منه الأرض ذهب كل ما به وانقلب انشراحاً وسروراً وطمأنينة وقوة ويقيناً لكان للمسلمين مع طغاة الأرض شأن آخر.

نعم الأرض لا تخلو من ناصرين لدين الله يجمع الله فيهم ما تفرق في غيرهم ولكنها فترات يحصل فيها جزر ليعقبه المد الذي لا يبقي من أعداء الله ولا يذر.

وعلى من يريد أن يتصدى للدعوة إلى الله أن يكون حر القلب كامل العبودية لا تسترقه الشهوات ولا ترغيب أعداء الله أو ترهيبهم ولا سجونهم ومعتقلاتهم وليرددوا مع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قوله: (ما يصنع أعدائي بي أنا جنتي وبستاني في صدري أين رحت فهي معي لا تفارقني إن حبسي خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة) وليرددوا مع سيد قطب الداعية الحر الشهيد قوله:

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص: ٦٧٠ من مجموعة الحديث التي طبعت بمطابع الحكومة في الرياض بأمر الملك فيصل رحمه الله سنة ١٣٨٩ هـ.

أخي أنت حرٌّ وراء السدود أخي أنت حرٌّ بتلك القيود
إذا كنت بالله مستعصماً فماذا يضيرك كيد العبيد

المثال الرابع
الشيخ محمد بن عبد الوهاب

ومن النماذج التي يقتدي بها السائرون في درب الجهاد والبلاء والصبر والفوز برضا الله سبحانه الشيخ محمد بن عبد الوهاب مجدد القرن الثاني عشر الهجري رحمه الله وأسكنه فسيح جناته وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، قد نشأ رحمه الله في قلب الجزيرة العربية في وقت طمست فيه معالم التوحيد في الجزيرة وغيرها وابتعد الناس عن هدي القرآن والسنة وكادت القدوة برسول الله ﷺ في سيرته تفقد إلا ما شاء الله، اتجه الناس إلى عبادة غير الله من قبور وأشجار وجمادات، وانتشر الجهل وعمت الشعوذة، وقل العبّاد وكثرت الفوضى والظلم والاستبداد وانتهكت الأعراض، ونهبت الأموال واختل الأمن واندلعت الحروب بين القبائل مضارعة ما كان في الجاهلية التي سبقت بزوغ نور الإسلام ببعثة الرسول ﷺ. وبدا محمد بن عبد الوهاب وهو يتلقى علوم الإسلام وينتقل من بلد إلى آخر للاستفادة من العلماء ويتأمل هذه الحال المخالفة لما يتلقاه من أفواه العلماء أو من بطون الكتب ولا سيما كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله ويسأل العلماء عما يراه من ذلك ويناقشهم ويفكر في تخليص الناس من الشرك والفسوق والعصيان، فعقد العزم على القيام بالدعوة إلى الله ومجاهرة الناس بما هم عليه من الباطل وبيان الحق لهم في كل مجالات حياتهم ولا سيما ما يتعلق بالإيمان والكفر والعبادة والحلال والحرام والأخلاق بادئاً بالأهم فالأهم.

وكان يعلم رحمه الله أن الطريق وعر وأن المرتقى صعب وأن المجتمع سيقف ضد دعوته القريب منه والبعيد، ويعلم كذلك أنه لا سبيل مطلقاً للتخلي عن هذه الدعوة لأنها أصبحت فرض عين على الأمة التي لم يتحرك منهم أحد للقيام بها ـ لاسيما في الجزيرة العربية، فلا بد من القيام بها والصبر على

تكاليفها. ويعلم كذلك أن العاقبة لحزب الله وأن أعداء الله مهما علوا وطغوا فإنهم مغلوبون فشمر عن ساعد الجد وصدع بالحق منطلقاً من أصول الدعوة التي كتبها فيما بعد وعلمها تلاميذه في رسالته المسماة بالأصول الثلاثة حيث قال في مطلعها رحمه الله: (اعلم رحمك الله أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل.

الأولى: العلم وهو معرفة الله ومعرفة نبيه ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

الثانية: العمل به. والثالثة: الدعوة إليه، الرابعة: الصبر على الأذى فيه...)[١].

فقد انطلق رحمه الله من هذه الأصول التي لا تقوم الدعوة الإسلامية بدونها أو بدون بعضها.. فقد تزود بالعلم النافع والعمل الصالح ليدعو على بصيرة وليكون قدوة لمن دعاه، ثم صدع بالدعوة إلى الله وصبر على الأذى في ذات الله تعالى ولم يلقن تلاميذه هذه الأصول إلا بعد أن رأوه يتحرك بها فكانوا يحفظونها بألسنتهم ويقرأون شرحها في تصرفات الشيخ.

وأما منهجه الذي انتهجه في دعوته وقرر البدء به فكان تعريف الناس بالأصول الثلاثة التي لا يعذر أحد بجهلها لأنها فرض عين على كل مسلم ومسلمة وقد أجملها في قوله: (فإذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها فقل: معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمداً ﷺ...)[٢] وأخذ في شرح هذه الأصول الثلاثة وكان رحمه الله صريحاً في الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك بجميع أنواعه التي كان يرى الناس يرتكبونها من دعاء غير الله والذبح لغيره والنذر وغيرها كالطواف بالقبور وأخذ على عاتقه تعليم الناس ودعوتهم والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم واستجاب له من استجاب وعارضه من عارض وانتقل من بلد إلى آخر يطلب النصير اقتداء برسول الله ﷺ وأوذي في سبيل دعوته وهم أعداؤه بقتله ولكن الله نجاه ليعلي به كلمة التوحيد ويهدم بنيان الكفر والطاغوت حتى هيأ الله له من بايعه على نصر

(١) ثلاثة الأصول بحاشية عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، طبع شركة مطابع الجزيرة ١٣٩٣ ص: ٤ - ٧.

(٢) نفس الرسالة السابقة.

كلمة الله[1] فقويت الدعوة وكثر أنصارها واستقر به المقام وبدأ يعلم الناس الذين أحاطوا به من الدرعية ومن خارجها حتى عمت دعوة التوحيد بلاد نجد وما حولها وأخذ يرسل كتبه إلى الأمراء والعلماء يدعوهم فيها إلى تأييد دعوته وأخذ أعداء الدعوة يسخرون منها ومن صاحبها وأخذوا يعارضونها ويقفون ضدها ويصدون الناس عنها وعندما انتشرت في الجزيرة بدأ أعداؤها ممن يدعون العلم من دعاة الشرك والبدع ينشرون التهم واختلاق الأكاذيب ضد الشيخ ودعوته وينفرون الناس منها لا سيما حجاج بيت الله الذين يفدون من أرجاء الأرض خشية أن تؤثر فيهم الدعوة فينشروها في بلادهم.

وأخذ الشيخ ينظم مع الأمير كتائب الجهاد لمحاربة من صد عن الدعوة وأبى أن يستجيب لها بعد أن أقيمت عليه الحجة، لأن القوة لا تقف أمامها إلا القوة، فهدمت بذلك القباب وسويت القبور وقلت شوكة الأمراء المتغطرسين ورفع الله راية التوحيد وأعلاها وأهوى راية الشرك وأقصاها وأخذ الشيخ رحمه الله يتوسع في شرح مبادىء الإسلام شيئاً فشيئاً كما أخذ يوجه لتطبيق شرع الله وكان الأمير رحمه الله يسرع إلى تنفيذ ما يشير به الشيخ من الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ واشتد بذلك تنفير أعداء الدعوة منها وقوي بث الإشاعات عنها وقام الشيخ بتوضيح الحق الذي يدعو إليه ونفى التهم الكاذبة عنه كالقول بأنه يكفر جميع أمة محمد ولا يقر بالإسلام إلا لمن وافقه وبعث برسائله التي توضح أنه لا يكفر إلا من عبد غير الله أو أنكر شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة بعد أن تقوم عليه الحجة ولكن أعداء الدعوة تعاونوا على الصد عنها من داخل البلاد وخارجها وكان من أشد من أشاع ضدها الإشاعات في الداخل علماء الضلال وأمراء الظلم والطغيان ومن أشد من نشر الأكاذيب عنها في الخارج الاستعمار البريطاني في الهند وغيرها من البلدان المستعمرة متخذاً لذلك مطيته المطواعة علماء السوء من عبيد المال والجاه والمنصب ولكن الله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون فاطلع كثير من مريدي الحق من العلماء وغيرهم على حقيقة الأمر فعلموا أن الشيخ رحمه الله إنما كان يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ والأنبياء

---

(١) هو الأمير محمد بن سعود رحمه الله وكان أمير الدرعية التي نزل بها الشيخ.

قبله وأصحابه الكرام رضي الله عنهم فأخذت الدعوة في الانتشار وأخذ الشيخ في تأليف الرسائل التي تكشف الشبهة وتعمق الإيمان بالدعوة ثم استقر أمر الإسلام والحكم به وقيام دولته وتألبت قوى الشر عليها وغزي أهلها في عقر دارهم فأبلوا بلاء حسناً وأصابهم ما أصابهم من أذى ولكن الدعوة وقد ثبتت جذورها بقيت وانتشرت ولا زالت حكومة الإسلام قائمة عليها في أرض الجزيرة إلى الآن وستبقى بإذن الله إلى قيام الساعة وبها طهر الله الأرض من الشرك وأسبابه وأقر الله عيون الموحدين وأنزل بأسه بأعدائه الصادين عن دينه فكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله بذلك من كبار النماذج التي يقتدي بها السائرون فالحمد لله رب العالمين[1].

المثال الخامس
الشيخ حسن البنا

ولما كان المقصود ذكر نماذج يقتدي بها السائرون، وليس الاستقصاء لقادة الدعوة والجهاد فإن هذا العصر الذي تعيش فيه البشرية المعذبة أجدر بذكر نماذج قدوة السائرين من غيره إذ أن ذلك أكثر حفزاً لهممهم ونماذجه أقرب تمثلاً من غيرهم لأن دعوتهم لا تزال حية في النفوس ويحملها أتباع لهم ما زالوا يرفعون الراية ويهتفون بالمسلمين وبغيرهم: هلموا إلينا فإنا عليكم مشفقون وبيدنا هدي الله الذي يهدي للتي هي أقوم.

ومن هؤلاء مجدد القرن الرابع عشر الهجري الشيخ حسن البنا رحمه الله.

إن العصر الذي نشأ فيه البنا عصر كله كوارث مرعبة وعوائق مثبطة وعوامل مبطئة، عصر سقطت فيه راية الخلافة الإسلامية فانتثر بذلك عقد المسلمين فتفرقوا شذر مذر مثل الصبيان الذين فارق الحياة أبواهم وليس لهم من

(١) راجع في ترجمة الشيخ ودعوته وجهاده وبلائه الكتب التالية (الشيخ محمد بن عبد الوهاب عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية وثناء العلماء عليه لأحمد بن حجر آل أبي طامي، وكتاب سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب لأمين سعيد، ومحمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه لسعود الندوي، وكتاب دعايات مكثفة ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب لمحمد منظور النعماني وقد كتب عنه علماء كثيرون منهم المؤيد ومنهم المعارض تجد في هذه الكتب الإشارة إلى بعضهم).

يشرف على تربيتهم ويتعهدهم فيذهبون هائمين يتسكعون في أزقة ويشحتون لقمة العيش ـ هكذا أصبحت الشعوب الإسلامية ـ عصر خرجت فيه جيوش الكفر من أوربا متنافسة في احتلال أراضي المسلمين والسيطرة على شعوبهم ونهب خيراتهم وجعل تلك الشعوب أسواقاً رائجة لصناعاتهم ونشر ثقافاتهم فيها ومذاهبهم وأفكارهم في أبناء المسلمين وإبعادهم عن دينهم وأخلاقهم والقضاء على عزتهم وجعلهم أتباعاً لهم ينفذون ما يأمرونهم به حتى أصبح قادة البلدان الإسلامية ثلة من أبناء المسلمين في أسمائهم ولكنهم أوربيون في ثقافاتهم وسياستهم يفتخرون بذلك ويحملون أبناء وطنهم على الخضوع له قهراً وكانت مصر من هذه البلدان التي منيت بهذا السرطان الطاغي وكان الناس في هذه الشعوب أقساماً: قسم يؤيد المحتل ويسير تحت رايته لينال زعامة كاذبة وغنى مترفاً وهو عبد مطيع لسيده المستعمر، وقسم يصعب عليه الحصول على لقمة العيش وهي همه الوحيد، فهو يسعى ويكدح ليعيش ولا تطمح نفسه إلى غير رزقه، فإذا أوجد له المستعمر عملاً يوصله إلى بغيته طار بذلك فرحاً، وشعر بأن لهذا المحتل منة عليه، ويدخل تحت هذا القسم كثير من العمال والموظفين الصغار. وقسم آخر يكاد يحترق قلبه لما يرى من استعباد الأجنبي الكافر للشعب المسلم المغلوب على أمره ويتمنى من قرارة نفسه أن يرى اليوم الذي يضطر هذا الأجنبي إلى حزم أثاثه والخروج من هذا البلد إلى بلده يجر ثوب الهزيمة، ولكن هذا القسم كذلك مغلوب على أمره، لقلته من جهة ولوقوف أبناء بلده من عبيد المال والجاه والمنصب مع عدوه من جهة أخرى ولحيرته في سلوك السبيل الناجح الذي يوصله إلى إرغام الغاصب بأن ينصاع له من جهة ثالثة.

وقسم آخر كان جديراً بأن يبصر المسلمين بواجبهم ويقودهم إلى ما فيه عزهم وذل عدوهم، وهم العلماء الذين أخلدوا إلى الأرض ورضوا بالقعود في أروقة المساجد يعقدون حلقات العلم ويتعمقون في متون كتبه وشروحها ويمرون بآيات الله وسنة نبيه وسيرة السلف الصالح التي تدفع إلى الجهاد في سبيل الله دفعاً فلا يتأثرون بها وقسم قد أضله الله فاغتر بجهله وبسلوك سبل الشيطان المتعددة وهم أفواج الطرق الصوفية الذين يعبدون الله ـ في زعمهم ـ بأنواع من الشرك والبدع والخرافات ويقعدون في زواياهم يتمتمون ويتمايلون فإذا جاءت

مناسبة خرجوا في مواكب طويلة ترتفع على رؤوسهم الأعلام التي إذا رآها الرائي من بعيد ظن أنها أعلام جهاد تتحرك تحتها مواكب مجاهدين فإذا اقترب منها رأى تحتها مجانين يرقصون ويلعبون مخدرين بعملهم ذلك الشباب الذي لو وجد قدوة في الجهاد لكان له شأن آخر، وتكون نهاية تلك المواكب أن تحط رحالها بقبر من قبور من يسمونهم بالأولياء ليطوفوا حوله ويستغيثوا به ويجمع كبار القوم النقود التي ينفقونها على أنفسهم وهكذا.

في هذا العصر الذي امتلأ بهذه الكوارث أخرج الله مجدد القرن الرابع عشر الشيخ حسن البنا رحمه الله.

إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد بعبده خيراً هيأ له الأسباب في نفسه فرزقه خصائص يكون بها قابلاً للتوجيه والانطلاق وهيأ له من يأخذ بيده ويوجهه من المربين، وقد لا يكون المربي قادراً على تحمل أعباء الدعوة وليس على المستوى الأعلى للتربية والتوجيه ولكن ما عنده كاف لتفجير طاقات ذوي المواهب العالية والطاقات الهائلة التي لا يحتاج صاحبها إلا للإشارة والتوجيه العام.

وهيأ له زملاء صغاراً مثله يعينونه على الاتصال بالله والتقرب إليه والتخلق بالأخلاق الحسنة الفاضلة والبعد عن الأخلاق السيئة وقد هيأ الله ذلك كله لحسن البنا وهو في سن الصبا كما حكاه هو بنفسه[1] ورزقه الله حب الاطلاع والاتصال بمن يرى أنهم يدعون إلى الله وإلى طاعته، وكان الذين يتزعمون هذا السبيل هم رواد الطرق الصوفية ومنهم السلبي المخرف ومنهم المعتدل الإيجابي الذي يربي النفوس ويزكيها ويطهر القلوب ويحييها ويلتزم بمنهج الكتاب والسنة ويحذر من البدعة ـ وهذا الصنف قليل ولا يسلم من دخن إلا ما شاء الله ـ وكان البنا ـ على رغم صغر سنه ـ يترقى ويأخذ من كل طائفة أو شخص أحسن ما عنده، وها هو يصف شيخ إحدى الطرق التي انتسب إليها من خلال قراءته بعض كتبه وما سمع من الثناء عليه قال: (وفي هذه الأثناء وقع في يدي كتاب المنهل الصافي مناقب حسنين الحصافي... فأقبلت على القراءة فيه...) إلى أن قال: (ثم أخذ يدعو إلى الله بأسلوب أهل الطريق ولكن في استنارة وإشراق

---

(١) راجع مذكرات الدعوة والداعية له ص: ٤ ـ ٨.

وعلى قواعد سليمة قويمة فكانت دعوته مؤسسة على العلم والتعليم والفقه والعبادة والطاعة والذكر ومحاربة البدع والخرافات الفاشية بين أبناء هذه الطرق والانتصار للكتاب والسنة على أية حال والتحرز من التأويلات الفاسدة والشطحات الضارة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذل النصيحة على كل حال حتى أنه غيرّ كثيراً من الأوضاع التي اعتقد أنها تخالف الكتاب والسنة مما كان عليه مشايخه أنفسهم.

وكان أعظم ما أخذ بمجامع قلبي وملك عليّ لبّي من سيرته رضي الله عنه شدته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنه كان لا يخشى في ذلك لومة لائم ولا يدع الأمر والنهي مهما كان في حضرة كبير أو عظيم. . .)[١].

فأنت تراه كيف يتأثر بما ينسب إلى بعض العلماء من جد في العلم والتعليم والتحذير من البدع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم يبين بعد ذلك رأيه في التصوف وينتقد جوانب الفساد فيه فيقول: (ولكن فكرة الدعوة الصوفية لم تقف عند حد علم السلوك والتربية ولو وقفت عند هذا الحد لكان خيراً لها وللناس ولكنها جاوزت ذلك بعد العصور الأولى إلى تحليل الأذواق والمواجد ومزج ذلك بعلوم الفلسفة والمنطق ومواريث الأمم الماضية وأفكارها فخلطت بذلك الدين بما ليس منه، وفتحت الثغرات الواسعة لكل زنديق أو ملحد أو فاسد الرأي والعقيدة ليدخل من هذا الباب باسم التصوف والدعوة إلى الزهد والتقشف والرغبة في الحصول على هذه النتائج الروحية الباهرة وأصبح كل ما يكتب أو يقال في هذه الناحية يجب أن يكون محل نظر دقيق من الناظرين في دين الله والحريصين على صفائه ونقائه. . .)[٢].

وتراه يتمنى رحمه الله أن تجتمع في الدعوة إلى الله محاسن الدعوات المختلفة، فكان يود أن تجتمع القوة العلمية المسددة بالقوة الروحية الملتهبة مع

---

(١) نفس المرجع السابق ٩ ـ ١٧.

(٢) نفس المرجع السابق ص: ١٦ وبهذا يجب أن يفهم معنى قوله رحمه الله في بعض رسائله إن دعوته دعوة صوفية فليس المقصود بها صوفية المخرفين الملحدين الزنادقة وإنما المراد أن من جوانب الدعوة قوة الصلة بالله والزهد المشروع في الدنيا. . .

القوة العملية القائدة كما قال: (ولو أراد الله والتقت قوة الأزهر العلمية بقوة الطرق الروحية بقوة الجماعات الإسلامية العملية لكانت أمة لا نظير لها توجه ولا تتوجه وتقود ولا تنقاد وتؤثر في غيرها ولا يؤثر شيء فيها وترشد هذا المجتمع الضال إلى سواء السبيل)[1].

وهو بهذا يهيب بالدعاة إلى الله أن يجمعوا بين الفقه في الدين والتربية الصالحة التي تقرب إلى الله وتزكي النفوس، والجهاد العملي الذي يحقق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويحذر رحمه الله من التقصير في أي جانب من هذه الجوانب التي لا تنجح الدعوة إلى الله بدونها وإن المتأمل لسير الجماعات الإسلامية ليجد أن من أهم الأسباب التي تعوق حركتها وتحول بينها وبين الفوز في دعوتها هو عدم تكميل نفسها بأخذ ما عند غيرها من الصفات النافعة فترى هذه الجماعة تعنى بالتربية الروحية وتزكية النفوس ويفوتها الفقه في الدين والجهاد الشامل، وقد تجمع بين التربية والعلم ويفوتها الجهاد، وترى تلك الجماعة جادة في العلم مقصرة فيما عداه، وترى الأخرى مشمرة في الأمور السياسية وجهاد أعداء الله والصبر على البلاء ولكنها لم تأخذ نصيبها من الفقه في الدين والتربية الروحية، وهكذا تفرق في الجماعات الإسلامية ما يجب أن يجتمع في جماعة وصفها الله بأنها: ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. وهذه الجماعة هي التي أراد تكوينها الشيخ حسن البنا رحمه الله.

وعلى الرغم من أن البنا رحمه الله بدأ تدينه في أحضان الصوفية الداعية إلى العزلة والصمت والنفور من الناس فإن نزعته الإصلاحية كانت تغلبه وتدفعه إلى العمل والمشاركة الجادة ضد الأجنبي المحتل بالإضرابات والمظاهرات، وهذا دليل على عناية الله به وتهيئته إياه ليكون له شأن غير الصمت والعزلة[2].

وكانت مواقفه ضد موظفي الدولة ـ وهو صبي ـ تدل على قوة توكله على الله وعدم مبالاته بما يخالف رأيه الذي يرى أنه يرضي ربه، وفي قصته مع مدير التعليم الذي انتقد زيه ـ وكان البنا يلبس عمامة ذات عذبة، ونعلاً كنعل

(١) نفس المرجع السابق ١٧.
(٢) راجع المذكرات ص: ١٩ ـ ٢٢.

الإحرام في الحج ورداء أبيض فوق الجلباب ـ ما هو واضح في ثبات البنا على المبدأ الذي يؤمن به فعندما هدده مدير التعليم بعدم تعيينه مدرساً بعد تخرجه إذا بقي على هذا الزي قال له البنا: (على كل حال هذا لم يجيء وقته بعد وحين يجيء وقته يكون للمجلس الحرية ويكون لي الحرية كذلك والأرزاق بيد الله ليست بيد المجلس ولا الوزارة)[١].

ومما يدل على عناية الله بالبنا من صغره أنه كان ينظم وقته للحفظ والاستذكار وممارسة الصنعة التي تعود إليه بالفائدة، فقد كان مغرماً بصناعة الساعات والتجليد[٢].

وكان من أعمال البنا الصبي أن يتقاسم هو وبعض زملائه أحياء القرية لإيقاظ المؤذنين والمصلين قبل صلاة الفجر، وكان كما قال: (وكنت أجد سعادة كبرى وارتياحاً غريباً حين أوقظ المؤذنين لأذان الصبح، ثم أقف بعد ذلك في هذه اللحظة السحرية الشاعرة على نهر النيل وأصغي إلى الأذان ينطلق من حناجرهم في وقت واحد إذ كانت المساجد على مسافات متقاربة في القرية ويخطر ببالي أنني سأكون سبباً ليقظة هذا العدد من المصلين وأن لي مثل ثوابهم مصادقة لقول الرسول ﷺ: «من دعا إلى هدى فله أجره وأجر من عمل به إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً» وكان يضاعف هذه السعادة أن أذهب بعد ذلك إلى المسجد فأرى نفسي أصغر الجالسين فيه في هذا الوقت سناً فأحمد الله وأسأله أن يديم التوفيق)[٣].

قال الباحث: (ولعل ذلك كان تمريناً للبنا وتدريباً له على حب الإيقاظ العام للمسلمين بالدعوة إلى الله في مستقبل أيامه، وقد كان. وأخذ الصبي يبحث عن منطلقات للدعوة الإسلامية ومجالات لنشرها فاشترك في جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية الوحيدة آنذاك واستفاد من بعض المشاركين فيها)[٤] ثم نظر في جو القاهرة فرأى فيه مظاهر التحلل والبعد عن الإسلام ومبادئه ورأى المهتمين بالدعوة والإرشاد لا يطرقون بها إلا المساجد فدعا لفيفاً من أصدقائه للتدريب

(١) نفس المرجع ص: ٢٠.
(٢) نفس المرجع ص: ٥ ـ ٢٣.
(٣) المذكرات: ٢٤.
(٤) نفس المرجع ٣٩.

على الوعظ والإرشاد في المساجد والمجتمعات العامة ومنها القهاوي التي لا يطرق مجتمعاتها المساجد غالباً. وأخذ في إقناع أصدقائه بالدعوة في القهاوي فاستغربوا وكانوا يرون عدم نجاح الدعوة فيها لغرابتها ولأن أهل القهاوي سيرون في ذلك تعطيلاً لأعمالهم، وكان الصبي يرى أن النجاح سيكون وطلب منهم أن يحكموا التجربة وبدأ هو فألقى أكثر من عشرين خطبة في ليلة واحدة في القهاوي ونجحت التجربة كما قال: (مائة في المائة) وبذلك أخرج الدعوة من الأمكنة التي حبست فيها مدة طويلة إلى مجالاتها الواسعة اقتداء بالرسول ﷺ الذي كان يؤم بها المجتمعات والمنتديات والأسواق(١).

وأخذت آفاق البنا تتوسع وتأملاته تقوى فرأى موجات التحلل تزداد ودعوات أعداء الإسلام تنتشر، وقد سقطت الخلافة الإسلامية، وأخذ الشباب إعجابه بما يأتي من جديد يخالف الإسلام وأخذت بعض الأوساط المعنية بالإسلام تفكر في هذا الخطر ولكن العمل الناجح لم يكتب له الظهور، إذ العاملون أفراد والمناقشات تبدأ ثم تنتهي بالكتابة وما شابهها فاشتد قلق البنا فذهب عنه النوم وسأل نفسه: (لماذا لا أحمل هؤلاء القادة من المسلمين هذه التبعة وأدعوهم في قوة إلى أن يتكاتفوا على صد هذا التيار فإن استجابوا فذاك وإلا كان لنا شأن آخر وصح العزم على هذا وبدأ التنفيذ)(٢).

وبدأ البنا عزمه وتنفيذ ما عزم عليه فاجتمع بكبار العلماء الذين مارسوا الدعوة وأخذ يناقشهم في أمر الإسلام والمسلمين وما وصلت إليه الحال فأظهروا الأسف وعدم جدوى كل الجهود، ولكن البنا خرج عن وداعته التي ألفوها منه فقال: (إنني أخالفك يا سيدي كل المخالفة في هذا الذي تقول وأعتقد أن الأمر لا يعدو أن يكون ضعفاً فقط وقعوداً عن العمل وهروباً من التبعات من أي شيء تخافون؟ من الحكومة أو من الأزهر، يكفيكم معاشكم واقعدوا في بيوتكم واعملوا للإسلام، فالشعب معكم في الحقيقة لو واجهتموه، لأنه شعب مسلم وقد عرفته في القهاوي وفي المساجد وفي الشوارع فرأيته يفيض إيماناً ولكنه قوة

(١) نفس المرجع ص: ٤٠ ـ ٩٠.
(٢) نفس المرجع ص: ٤٣ ـ ٤٥.

مهملة من) هكـذا، ولعله: وإن (هؤلاء الملحدين والإبـاحيين وجـرائدهـم ومجلاتهم لا قيام لها إلا في غفلتكم ولو تنبهتم لدخلوا حجورهم يا أستاذ إن لم تريدوا أن تعملوا لله فاعملوا للدنيا وللرغيف الذي تأكلون فإنه إذا ضاع الإسلام في هذه الأمة ضاع الأزهر وضاع العلماء فلا تجدون ما تأكلون ولا ما تنفقون فدافعوا عن كيانكم إن لم تدافعوا عن كيان الإسلام واعملوا للدنيا إن لم تريدوا أن تعملوا للآخرة وإلا فقد ضاعت دنياكم وآخرتكم على السواء) وانقسم المجلس الذي أطلق فيه هذه الصرخة المدوية إلى قسمين قسم يؤيد البنا وآخر يرى في كلامه هذا إساءة إلى الشيخ، ولكن البنا أخذ يتابع الشيخ وينتقل معه من هذا المجلس إلى آخر، وتابع كلامه قائلاً: (يا سيدي إن الإسلام يحارب هذه الحرب العنيفة القاسية ورجاله وحماته وأئمة المسلمين يقضـون الأوقات غارقين في هذا النعيم أتظنون أن الله لا يحاسبكم على هذا الذي تصنعون؟ إن كنتم تعلمون للإسلام أئمة غيركم وحماة غيركم فدلوني عليهم لأذهب إليهم لعلّي أجد عندهم ما ليس عندكم وسادت لحظة صمت عجيبة وفاضت عينا الشيخ رحمه الله بدمع غزير بلل لحيته. . .)[١] ولم يخرج البنا من هذا المجلس حتى تكونت نواة للقيام بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانت هذه النواة فيما بعد: جمعية الشبان المسلمين. من هذه النصوص يتضح أن البنا كان يرى أن الأعمال الفردية لا تكفي بل لا بد من عمل جماعي، وإن الذين يجب أن يقودوا العمل الجماعي هم علماء الإسلام، وإن اليأس غير لائق بهم وإنْ عظم البلاء وكثرت العقبات وأن تذكير هؤلاء العلماء بالواجب والإلحاح عليهم فيه جدير بحفز هممهم وهذا ما فعله البنا رحمه الله ونجح فيه.

وهيأ الله للبنا التربة الصالحة التي يبذر فيها نواة للدعوة فتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها فانتقل إلى الإسماعيلية مدرساً وكانت كلمات الخير التي يسمعها من أصدقائه ترن على مسمعه فلا يفارقه صداها، بل يبقى مشدوداً إلى تحقيق مضمونها، وكانت من تلك الكلمات قول أحد أصدقائه، وهو يودعه: (إن

---

(١) المذكرات ٤٥ ـ ٤٨، ٦٤ وهذا الشيخ هو يوسف الدجوي الذي أسس (جمعية نهضة الإسلام) كما في ص ٤٦ من المذكرات.

الرجل الصالح يترك أثراً صالحاً في كل مكان ينزل فيه وإنا لنرجو أن يترك صديقنا أثراً صالحاً في هذا البلد الجديد عليه)[١].

ودخل البنا مدينة الإسماعيلية وباشر عمله وأخذ يدرس مجتمع المدينة فوجد الخلاف الديني يشتد في المساجد بين أهل الطرق والمذاهب، ورأى كثيراً من الناس بعيدين عن الدين وعن المساجد وخلافاتها يتجمعون في القهاوي لتزجية الوقت، كما رأى المعسكرات الأوربيـة تحيط بالبلد، وأخذ الفتى يفكر في إيجاد الأثر الصالح في هذه المدينة فاشترك مع أهل المساجد في أداء فريضته واتجه إلى القهاوي الكبيرة لأداء رسالته فألقى دروسه في الناس فترك فعلاً أثراً صالحاً فيها عبّر عنه بقوله: (كان لهذا المسلك أثره في الجمهور الإسماعيلي وأخذ الناس يتحدثون ويتساءلون وأقبلوا إلى هذه المقاهي ينتظرون وعمل هذا الوعظ عمله في نفوس المستمعين وبخاصة المواطنين منهم، فأخذوا يفيقون ويفكرون ثم تدرجوا من ذلك إلى سؤاله عما يجب أن يفعلوا ليقوموا بحق الله عليهم ويؤدوا واجبهم نحو دينهم وأمتهم وليضمنوا النجاة من العذاب والفوز بالنعيم وابتدأ هو يجيبهم إجابات غير قاطعة جذباً لانتباههم واسترعاء لقلوبهم، وانتظاراً للفرصة السانحة وتهيئة للنفوس الجانحة)[٢] وبدأ العمل فأخذ البنا يشرح للناس مبادىء الإسلام ويحثهم على أدائها فاصطحبهم إلى الماء وعلمهم الوضوء ثم أدخلهم المسجد فعلمهم الصلاة وقصار السور، فكان ناجحاً في دعوته إيما نجاح[٣].

وعندما رأى المنتسبون إلى العلم نجاح الفتى في دعوته اجتمعوا عليه ليدخلوا معه في خلاف كما هو شأنهم فأفلت منهم بحكمته وسداد رأيه بتوفيق من الله له[٤].

واتجه إلى دراسة عوامل التأثير في مجتمع الإسماعيلية، فحصرها في أربعة: العلماء وشيوخ الطرق، وأعيان البلد، والأندية ثم حدد المسلك الذي ينبغي أن يتبعه مع كل فئة وباشر العمل فعلاً فكان التوفيق حليفه معهم جميعاً[٥].

---

(١) المذكرات: ٥٤ ـ ٥٥.
(٢) المذكرات: ٥٧.
(٣) نفس المرجع ٥٥ ـ ٥٨.
(٤) نفس المرجع ٥٨ ـ ٦٠.
(٥) راجع نفس الكتاب ص ٦٠ ـ ٦٣.

وكان البنا يدعم أي عمل إسلامي تقوم به أي طائفة حتى ليبدو وكأنه واحد من تلك الطائفة[١].

وهذا هو دأب دعاة الإسلام الذين لا يعملون إلا لله قاصدين بعملهم رفع كلمة الله، فإنهم يفرحون بأعمال غيرهم الإسلامية ويدعمونها، بخلاف ذوي المدارك الضيقة والأهداف المحدودة أو من حرموا الفقه في الدين فإنهم لا يسرون إلا بأعمالهم هم أو بأعمال من يوجهونهم فإذا جاء العمل الإسلامي لغيرهم تجهموا له أو لم يعيروه اهتماماً، وهذه هي الحزبية الضيقة التي ينشئها الحسد وينميها الغرور.

وأثمرت الدعوة ثمارها وأصبحت التربة قابلة لغرس جذورها وقصد الداعية رجال قليلون اشتد تأثرهم بها إنهم ستة نفر جاءوا إلى البنا يطلبون منه أن يقودهم إلى الله، فعليه القيادة وعليهم الطاعة فقبل منهم ذلك شاكراً لهم تلك الروح العالية قائلاً لهم: (فلنبايع الله أن نكون لدعوة الإسلام جنداً وفيها حياة الوطن وعزة الأمة. وكانت بيعة وكان قسماً أن نحيا إخواناً نعمل للإسلام. ونجاهد في سبيله) وكان ذلك إيذاناً بمولد جماعة: (الإخوان المسلمون)[٢] وبعد عام من البيعة أصبح عدد الإخوان أكثر من سبعين وأخذت الدعوة تقوى وتظهر وتنتشر وبدأ الحساد يستشيطون غيظاً يحيكون الدسائس وينشرون التهم ويثبطون همة من أراد أن يبذل للدعوة ما يقويها ويأخذ بيد أصحابها واتهموا الداعية بأنه شيوعي يعمل ضد النظام وأخذ التحقيق مجراه فأخزى الله أعداء الدعوة ففضحهم وأبان كذبهم[٣] وأراد رجال الدولة من البنا أن يقف خطيباً أمام رئيس الحكومة الذي زار البلد بحجة أنه من موظفي الدولة فغضب وقال: (إنني أكتب لكم استقالتي الآن، إن كنتم تظنون أن الموظف أداة تتحرك بإرادة الناس فأنا أقدر قيمة نفسي... ولا يمكن أبداً أن أضع نفسي في هذا الموضع...) وقد جرت عادة الناس أن يتنافسوا في هذا الموضع الذي أبى البنا أن يضع نفسه

---

(١) نفس المرجع ص ٦٤.

(٢) وكان ذلك في ذي القعدة سنة ١٣٤٧ هـ، راجع المذكرات ص ٦٦.

(٣) نفس المرجع ٧٤ ـ ٨٢.

فيه: وربّى البنا أتباعه على عزة النفس وعدم الخضوع لغير الله الذي كان سائداً في المجتمع قبل أن تقوم الدعوة في هذا البلد[١]. وأخذ البنا في توسيع نشاط الدعوة بكل ألوان النشاط نشاط التعليم الشامل في معهد حراء الإسلامي الذي ضم الشعب الثلاث المناسبة للتعليم في البلد المصري كله: شعبة تهيىء الدارسين فيها للأزهر وأخرى تتمشى مع المدارس الأولية أول النهار ومع المدارس الصناعية أخره وثالثة تتمشى مع المدارس الابتدائية الأميرية التي تهيىء دارسيها للثانوي والعالي وجعل العمل في المعهد لا يتعارض مع أوقات الصلاة[٢]. ووسع قاعدة الدعوة فأنشأ لها عدة شعب في أماكن مختلفة[٣] وكان حريصاً على إقامة السنن الواردة عن الرسول ﷺ وكان أعداء هذه السنن حريصين على الكيد له وتنفير الناس منه ولكنه كان ينتصر في كل ميدان بقوة حجته وحسن أسلوبه[٤] كما كان الفشل حليف أعدائه[٥]. وأخذ في الكيد للدعوة والمؤامرة عليها من دخل في صفوفها لأغراض مادية من مال وجاه ومنصب فرد الله عن الدعوة والداعية كيد الكائدين ومؤامرة المتآمرين[٦].

ثم انتقل البنا إلى القاهرة وأخذت الدعوة تسير بتخطيط وتنظيم دقيقين وبدأ النشاط يأخذ في الانتشار عن طريق المحاضرات في الدروس والدور والمساجد، وعن طريق المجلات والنشرات والرسائل والمؤتمرات والاحتفالات المناسبة وعن طريق الرياضة والطلاب والاستعانة بعلماء الأزهر وطلابه، والتنبيه على النواحي السياسية والاجتماعية ومكاتبة الملوك والحكام وإسداء النصح لهم ومهاجمتهم إن اقتضى الأمر ذلك، ومن نماذج هذا النشاط ما نشر في مجلة النذير في العدد الأول منها يوم الاثنين ٢٩ ربيع الأول سنة ١٣٥٧، وكانت فاتحتها للبنا رحمه الله وفيها قال: (سننتقل من خير دعوة العامة إلى خير دعوة الخاصة ومن دعوة الكلام وحده إلى دعوة الكلام المصحوب بالنضال والأعمال، وسنتوجه بدعوتنا إلى المسؤولين من قادة البلد وزعمائه ووزرائه وحكامه وشيوخه ونوابه

---

(١) راجع المذكرات ص ٦٨ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠.
(٢) نفس المرجع ٨٥ - ٨٩.
(٣) نفس المرجع ص ٨٩ - ٩٩.
(٤) نفس المرجع ١٠٠ - ١٠٢.
(٥) نفس المرجع ص ١٠٤ - ١٠٥.
(٦) نفس المرجع ١٠٦ - ١١٩.

وأحزابه وسندعوهم إلى مناهجنا ونضع بين أيديهم برامجنا وسنطالبهم بأن يسيروا بهذا البلد المسلم بل زعيم الأقطار الإسلامية في طريق الأقطار[١] في جرأة لا تردد معها وفي وضوح لا لبس فيه ومن غير مواربة أو مداورة فإن الوقت لا يتسع للمداورات. فإن أجابوا الدعوة وسلكوا السبيل إلى الغاية آزرناهم وإن لجأوا إلى المواربة والروغان، وتستروا بالأعذار الواهية والحجج المردودة فنحن حرب على كل زعيم أو رئيس حزب أو هيئة لا تعمل على نصرة الإسلام ولا تسير في الطريق لاستعادة حكم الإسلام ومجد الإسلام. سنعلنها خصومة لا سِلْمَ فيها ولا هوادة معها حتى يفتح الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الفاتحين)[٢] ووقفت الدعوة ضد المبشرين الذين كانوا يسعون إلى تنصير بعض المسلمين[٣].

وأخذ البنا في تنظيم أجهزة الدعوة التي كان من أهمها مجلس الشورى العام[٤] كما أخذ يوضح منهاج الدعوة ونظمها الإدارية والمالية والتكوينية والرياضية وغيرها[٥].

وأخذت الدعوة تنتشر في الأقطار الأخرى خارج مصر[٦] وما كان البنا يحط عصا ترحاله في مكان إلا لينتقل إلى مكان آخر إما لزيارة شعب قائمة لتعهدها وتوجيه مسؤوليها وإما لافتتاح شعب جديدة وإما لإيجاد قبول لها مستقبلاً في نفوس الناس، لذلك كان يجوب القطر المصري كله في رحلات متواصلة[٧].

وتحركت قضية فلسطين فجال البنا وصال في شأنها في داخل الجماعة وفي أوساط الشعب المصري وفي الحكومة المصرية وغيرها يدعو إلى الوقوف مع الفلسطينيين ضد أعداء الله الغزاة[٨] وأخذ البنا يراسل حكام الشعوب الإسلامية مطالباً لهم بالقيام بالإصلاحات السياسية والقضائية والاجتماعية

(١) كذا ولعله: الإسلام.
(٢) المذكرات ص ١٣٦.
(٣) نفس المرجع ص ١٤١ ـ ١٤٧.
(٤) نفس المرجع ١٤٠ ـ ١٥١ ـ ١٥٣ ـ ١٧٠ ـ ١٧٢.
(٥) نفس المرجع ص ١٧٥ ـ ١٩١.
(٦) نفس المرجع ص ١٩٢ ـ ١٩٧.
(٧) راجع المذكرات ص ١٤٧ ـ ١٩٨.
(٨) راجع نفس الكتاب ص ٢٠١ ـ ٢٠٦ ـ ٢٦١.

والعلمية والاقتصادية، وقد عرفت بالمطالب الخمسين[1].

كما بعث خطاباً إلى سفير بريطانيا مستنكراً وعد بلفور ومذكراً بأن أرض فلسطين هي أرض كل مسلم وأن على بريطانيا أن تفكر في الأمر قبل فوات الأوان[2].

وامتاز جهاد البنا في هذا العصر بالعاطفة الجياشة والحب العميق الذين كان يكنهما للمسلمين، كما عبر عن ذلك هو بنفسه فقال: (ونحب كذلك أن يعلم قومنا أنهم أحب إلينا من أنفسنا وأنه حبيب إلى هذه النفوس أن تذهب فداء لعزتهم إن كان فيها الفداء وأن تزهق ثمناً لمجدهم وكرامتهم ودينهم وآمالهم إن كان فيها الغناء. وما أوقفنا هذا الموقف منهم إلا هذه العاطفة التي استبدت بقلوبنا وملكت علينا مشاعرنا فأقضت مضاجعنا وأسالت مدامعنا وإنه لعزيز علينا جد عزيز أن نرى ما يحيط بقومنا ثم نستسلم للذل أو نرضى بالهوان أو نستكين لليأس فنحن نعمل للناس في سبيل الله أكثر مما نعمل لأنفسنا فنحن لكم لا لغيركم أيها الأحباب ولن نكون عليكم يوماً من الأيام)[3].

كما امتاز رحمه الله بفقه عصره الذي عاش فيه، فعرف الدعوات المضادة للإسلام ووسائلها ودعاتها وكشف عوارها وحض على الاستعداد لها بما يناسبها، قال رحمه الله: (إن دعوة الإخوان المسلمين دعوة مبدأ وفي الشرق والغرب اليوم دعوات ومبادىء وفكر ومذاهب وآراء ومنازع كلها تتقاسم عقول الناس وتتنازع ألبابهم وكل منها يزينه أهله ويقوم بالدعاية له أبناؤه وأتباعه وعشاقه ومريدوه ويدعون له المزايا والمحاسن ويبالغون في هذا الادعاء ما يبرزه للناس جميلاً خلاباً رائعاً.

والدعاة اليوم غيرهم بالأمس فهم مثقفون مجهزون مدربون أخصائيون ولا سيما في البلاد الغربية حيث تختص بكل فكرة كتيبة مدربة توضح غامضها وتكشف عن محاسنها وتبتكر لها وسائل النشر وطرائق الدعاية وتتلمس في نفوس

---

(١) نفس المرجع ص ٢١٤ ـ ٢١٨.

(٢) نفس المرجع ص ١٨ ـ ٢٢٠.

(٣) مجموعة رسائله رحمه الله، طبع المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر بيروت ص ١١.

الناس أيسر السبل وأهونها وأقربها إلى الإقناع والاتباع.

ووسائل الدعاية الآن غيرها بالأمس كذلك فقد كانت دعاية الأمس كلمة تلقى في خطبة أو اجتماع أو كلمة تكتب في رسالة أو خطاب، أما الآن فنشرات ومجلات وجرائد ورسالات ومسارح و(خيالات) وحاك ومذياع وقد ذلل ذلك كله سبل الوصول إلى قلوب الناس جميعهم نساء ورجالاً في بيوتهم ومتاجرهم ومصانعهم ومزارعهم. لهذا كان من واجب أهل الدعوة أن يحسنوا تلك الوسائل جميعاً حتى يأتي عملهم بثمرته المطلوبة...)[١].

وامتاز كذلك بتشخيص أمراض الأمة الإسلامية وكشفها لهم ووصف الدواء النافع للقضاء على تلك الأمراض. وتأمل كل جملة من هذه الجمل التي صاغ بها تلك الأمراض، كما قال: (وقد علمتنا التجارب وعرفتنا الحوادث أن داء هذه الأمم الشرقية متشعب المناحي كثير الأعراض قد نال من كل مظاهر حياتها فهي مصابة في ناحيتها السياسية بالاستعمار من جانب أعدائها، والحزبية والخصومة والفرقة والشتات من جانب أبنائها وفي ناحيتها الاقتصادية بانتشار الربا بين كل طبقاتها واستيلاء الشركات الأجنبية على مواردها وخيراتها، وهي مصابة من ناحيتها الفكرية بالفوضى والمروق والإلحاد يهدم عقائدها ويحطم المثل العليا في نفوس أبنائها، وفي ناحيتها الاجتماعية بالإباحية في عاداتها وأخلاقها والتحلل من عقدة الفضائل الإنسانية التي ورثتها عن الغر الميامين من أسلافها وبالتقليد الغربي يسري في مناحي حياتها سريان لعاب الأفاعي فيسمم دماءها ويعكر صفو هنائها، وبالقوانين الوضعية التي لا تزجر مجرماً ولا تؤدب معتدياً ولا ترد ظالماً ولا تغني يوماً من الأيام غناء القوانين السماوية التي وضعها خالق الخلق ومالك الملك ورب النفوس وبارئها، وبفوضى في سياسة التعليم والتربية تحول دون التوجيه الصحيح لنشئها ورجال مستقبلها وحملة أمانة النهوض بها، وفي ناحيتها النفسانية بيأس قاتل وخمول مميت وجبن فاضح وذلة حقيرة خنوثة فاشية وشح وأنانية تكف الأيدي عن البذل

(١) نفس المرجع ص ٢٦.

وتقف حجاباً دون التضحية وتخرج الأمة من صفوف المجاهدين إلى اللاهين اللاعبين. . .) إلى أن قال: (إن داء واحداً من هذه الأدواء يكفي لقتل أمم متظاهرة، فكيف وقد تفشت جميعاً في كل أمة على حدة، لولا مناعة وحصانة وجلادة وشدة في هذه الأمم الشرقية التي جاذبها خصومها حبل العداء من بعيد، ودأبوا على تلقيحها بجراثيم هذه الأمراض زمناً طويلاً، حتى باضت وأفرخت، لولا ذلك لعفت آثارها ولبادت من الوجود ولكن يأبى الله ذلك والمؤمنون)[١].

وقد أوضح الداعية علاج هذه الأمراض وغيرها عن طريقين:

الطريق الأول: السعي لإيجاد مجتمع إسلامي يرسي دعائم الإسلام ويقضي على جذور الجاهلية وآثارها.

وأما الطريق الثاني: فهو طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للأفراد والجماعات والأحزاب والحكومات.

ففي الطريق الأول سعى رحمه الله لإنشاء جماعة (تؤمن بالإسلام وتجاهد لإعلاء كلمة الله، حدد لها الغاية والوسيلة وقادها بنظام دقيق حتى انتشر أعضاؤها في كل مكان فقد عرف رحمه الله غموض الغاية التي يجب على المسلمين تحقيقها عند المسلمين أنفسهم، فأخذ يجليها ويوضحها لهم فاقرأ ما قال عنها: وبما أن الغاية هي التي تدفع إلى الطريق، ولما كانت الغاية في أمتنا غامضة مضطربة كان لا بد من أن توضح وتحدد وأظننا وصلنا إلى كثير من التوضيح، واتفقنا على أن مهمتنا سيادة الدنيا وإرشاد الإنسانية كلها إلى نظم الإسلام الصالحة وتعاليمه التي لا يمكن بغيرها أن يسعد الناس)[٢].ـ

وقال في موضع آخر: (إن غاية الإخوان تنحصر في تكوين جيل جديد من المؤمنين بتعاليم الإسلام الصحيح يعمل على صبغ الأمة بالصبغة الإسلامية الكاملة في كل مظاهر حياتها ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾)[٣].

---

(١) نفس المرجع ص ٢٦.

(٢) مجموعة الرسائل ص ٣٣ ـ ٣٤.

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٦٨. والآية من سورة البقرة: ١٣٨.

وقال في موضع ثالث: (ولكن اذكروا دائماً أن لكم هدفين أساسيين:

١ ـ أن يتحرر الوطن الإسلامي من كل سلطان أجنبي، وذلك حق طبيعي لكل إنسان لا ينكره إلا ظالم جائر أو مستبد قاهر.

٢ ـ أن تقوم في هذا الموطن الحر دولة إسلامية حرة تعمل بأحكام الإسلام وتطبق نظامه الاجتماعي وتعلن مبادئه القويمة وتبلغ دعوته الحكيمة الناس، وما لم تقم هذه الدولة فإن المسلمين جميعاً آثمون مسؤولون بين يدي الله العلي الكبير عن تقصيرهم في إقامتها وقعودهم عن إيجادها)[١].

وهذا الهدف الأخير هو الذي كان يسعى له جاهداً، ولكن لما كان لا يمكن أن يتحقق إلا بالقضاء على الأجنبي الذي احتل البلاد واستذل العباد ورحيله عن بلاد المسلمين ذكر الهدف الأول كما ترى.

وكان سعيه لتحقيق هذا الهدف ـ قيام الحكومة الإسلامية ـ صادراً عن إدراك كامل بأنه لا سعادة للمسلمين، بل وللبشرية كلها إلا إذا قامت هذه الدولة، وكان يعجب رحمه الله من وجود قوى تحمي المبادىء الكافرة في الأرض ما عدا الإسلام الذي هو وحده الحق وهو وحدة القادر على تقديم الخير والسعادة والحلول لكل المشكلات المنتشرة في الأرض. قال رحمه الله: (لو كانت لنا حكومة إسلامية صحيحة الإسلام صادقة الإيمان، مستقلة التفكير والتنفيذ تعلم حق العلم عظمة الكنز الذي بين يديها، وجلال النظام الإسلامي الذي ورثته، وتؤمن بأن فيه شفاء شعبها وهداية الناس جميعاً لكان لنا أن نطلب إليها أن تدعم الدنيا باسم الإسلام، وأن تطالب غيرها من الدول بالبحث والنظر فيه، وأن تسوقها سوقاً إليه بالدعوات المتكررة والإقناع والدليل والبعثات المتتالية، وبغير ذلك من وسائل الدعوة والإبلاغ ولاستطاعت أن تجدد حيوية الشعب وتدفع به نحو المجد والنور وتثير في نفسه الحماسة والجد والعمل. عجيب أن تجد الشيوعية دولة تهتف بها وتدعو إليها وتنفق في سبيلها، وتحمل الناس عليها، وأن تجد الفاشستية والنازية أمماً تقدسها وتجاهد لها وتعز بأتباعها، وتخضع كل النظم

(١) نفس المرجع ص ١٤١.

الحيوية لتعاليمها وأن تجد المذاهب الاجتماعية والسياسية المختلفة أنصاراً أقوياء يقفون عليها أرواحهم وعقولهم وأفكارهم وأقلامهم وأموالهم وصحفهم وجهودهم ويحيون ويموتون لها، ولا نجد حكومة إسلامية تقوم بواجب الدعوة إلى الإسلام الذي جمع محاسن هذه النظم جميعاً وطرح مساوئها، وتقدم لغيرها من الشعوب كنظام عالمي فيه الحل الصحيح الواضح المريح لكل مشكلات البشرية، مع أن الإسلام جعل الدعوة فريضة لازمة، وأوجبها على المسلمين شعوباً وجماعات قبل أن تخلق هذه النظم وقبل أن يعرف منها نظام الدعايات ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾[١].

لذلك كان البنا صريحاً في رده على تساؤلات الناس: (هل في منهاج الإخوان المسلمين أن يكونوا حكومة وأن يطالبوا بالحكم وما وسيلتهم إلى ذلك؟) كان رده صريحاً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض قال: (ولا أدع هؤلاء المتسائلين أيضاً في حيرة ولا نبخل عليهم بالجواب. فالإخوان المسلمون يسيرون في جميع خطواتهم وآمالهم وأعمالهم على هدي الإسلام الحنيف كما فهموه... وهذا الإسلام الذي يؤمن به الإخوان المسلمون يجعل الحكومة ركناً من أركانه ويعتمد على التنفيذ كما يعتمد على الإرشاد، وقديماً قال الخليفة الثالث رضي الله عنه: (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن... فالإسلام حكم وتنفيذ كما هو تشريع وتعليم، كما هو قانون وقضاء لا ينفك واحد منها عن الآخر.

والمصلح الإسلامي إذا رضي لنفسه أن يكون فيها مرشداً يقرر الأحكام ويرتل التعاليم ويسرد الفروع والأصول وترك أهل التنفيذ يشرعون للأمة ما لم يأذن به الله ويحملونها بقوة التنفيذ على مخالفة أوامره فإن النتيجة الطبيعية أن صوت هذا المصلح سيكون صرخة في واد ونفخة في رماد كما يقولون)[٢].

وكذلك كان جوابه صريحاً في أمر الخلافة، حيث قال: (وبيان ذلك أن الإخوان يعتقدون أن الخلافة رمز الوحدة الإسلامية... لهذا يجعلون فكرة

(١) نفس المرجع ص ١٠٥ والآية من سورة آل عمران: ١٠٤.
(٢) نفس المرجع ص ٧٠.

الخلافة والعمل لاعادتها في رأس مناهجهم)[١] ونعى على من فصل الدين عن السياسة وبين دعائم الحكم الإسلامي في موضع آخر[٢].

ولم يترك الوسائل التي توصل إلى تلك الغايات والأهداف بدون بيان فذكر الوسائل العامة التي لا تتغير ولا تتبدل فقال: (والوسائل العامة للدعوات لا تتغير ولا تتبدل ولا تعدو هذه الأمور الثلاثة:

١ ـ الإيمان العميق.
٢ ـ التكوين الدقيق.
٣ ـ العمل المتواصل[٣]).

وذكر الوسائل المحددة التي تدور عليها فكرة الدعوة في موضع آخر فقال: (أما الوسيلة التي وعدتك الكلام عليها فهي أركان ثلاثة تدور عليها فكرة الإخوان: أولها المنهاج الصحيح وقد وجده الإخوان في كتاب الله وسنة رسوله وأحكام الإسلام حين يفهمها المسلمون على وجهها غضة نقية بعيدة عن الدخائل والمفتريات فعكفوا على دراسة الإسلام على هذا الأساس دراسة سهلة واسعة مستوعبة.

وثانيها العاملون المؤمنون، ولهذا أخذ الإخوان أنفسهم بتطبيق ما فهموه من دين الله تطبيقاً لا هوادة فيه ولا لين...

وثالثها القيادة الحازمة الموثوق بها وقد وجدها الإخوان المسلمون كذلك فهم لها مطيعون وتحت لوائها يعملون)[٤].

ووضح مراحل الدعوة ومراتبها، وجعل لكل مرحلة وسائلها، فقال: (وذلك أن مراحل هذه الدعوة ثلاث:

التعريف: بنشر الفكرة العامة بين الناس، ونظام الدعوة في هذه المرحلة نظام الجمعيات الإدارية، ومهمتها العمل للخير العام ووسيلتها، الوعظ والإرشاد تارة وإقامة المنشآت النافعة تارة أخرى...

---

(١) نفس المرجع ص ١٧٨.
(٢) نفس المرجع ٢١١ ـ ٢١٢.
(٣) نفس المرجع ص ١٤٢.
(٤) نفس المرجع ص ٢٨.

التكوين: باستخلاص العناصر الصالحة لحمل أعباء الجهاد وضم بعضها إلى بعض ونظام الدعوة في هذه المرحلة: صوفي بحت (يقصد قوة الصلة بالله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه والتقرب إليه بنوافل الطاعات) من الناحية الروحية، وعسكري بحت من الناحية العملية، وشعارها بين الناحيتين دائماً أمر وطاعة...

التنفيذ: والدعوة في هذه المرحلة جهاد لا هوادة معه وعمل متواصل في سبيل الوصول إلى الغاية وامتحان وابتلاء لا يصبر عليها إلا الصادقون)[1].

ولقد أخذ البنا أتباعه بالتدرج في الخطوات وعدم العجلة في الأمر وكبح جماح من أراد أن يسرع الخطى خارجاً عن الحدود المرسومة كما عاب القاعدين عن السير في طريق الدعوة المطلوب، فقال: (وأما التدرج والاعتماد على التربية ووضوح الخطوات في طريق الإخوان المسلمين فذلك أنهم يعتقدون أن كل دعوة لا بد لها من مراحل ثلاث وذكر المراحل الثلاث السابقة ثم قال وكثيراً ما تسير هذه المراحل الثلاث جنباً إلى جنب نظراً لوحدة الدعوة وقوة الارتباط بينها جميعاً...) إلى أن قال: (أيها الإخوان المسلمون، وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم اسمعوها مني كلمة عالية داوية من فوق هذا المنبر في مؤتمركم هذا الجامع: إن طريقكم هذا مرسومة خطواته موضوعة حدوده ولست مخالفاً هذه الحدود التي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول. أجل قد تكون طريقاً طويلة ولكن ليس هناك غيرها. إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل أوانها فلست معه في ذلك بحال...)[2].

وحدد كذلك خطوات الدعوة بالنسبة لمجالاتها فبين أن الداعية عليه أن يوجد الرجل المسلم، ثم البيت المسلم، ثم الشعب المسلم، ثم الحكومة المسلمة، ثم تحرير كل الشعوب وضمها كلها في دولة واحدة[3] تدعو العالم إلى

---

(١) نفس المرجع ص ٢٧٤.
(٢) نفس المرجع ١٥٩ - ١٦١.
(٣) نفس المرجع ٨٥.

الله تعالى ورد على الجبناء القاعدين الذين يصعب عليهم تصور تحقيق هذه الأمور[١].

وصارح البنا رجال دعوته أن تحقيق تلك الأهداف بهذه الوسائل لا ينتظر من حكام رباهم أهل الغرب على عداء الإسلام، لأنهم يفقدون الإيمان بهذه الأهداف وفاقد الشيء لا يعطيه وإنما تتحقق تلك الأهداف بتوفيق الله للمؤمنين بها الجادين في الحصول على مرضاته سبحانه، قال: (ولكن أنى لحكامنا هذا وهم جميعاً قد تربوا في أحضان الأجانب ودانوا بفكرتهم على آثارهم يهرعون وفي مرضاتهم يتنافسون... ليست هذه مهمتهم أيها الإخوان فقد أثبتت التجارب عجزهم المطلق عن أدائها ولكنها مهمة هذا النشيء الجديد فأحسنوا دعوته وجدّوا في تكوينه وعلموه استقلال النفس والقلب واستقلال الفكر والعقل واستقلال الجهاد والعمل واملأوا روحه الوثابة بجلال الإسلام وروعة القرآن وجندوه تحت لواء محمد ورايته وسترون في القريب الحاكم المسلم الذي يجاهد نفسه ويسعد غيره)[٢].

وصارحهم كذلك بأن الحق لا يبقى بدون قوة تحميه، فقال: (وما أحكم ذلك القائل: (القوة أضمن طريق لإحقاق الحق) وما أجمل أن تسير القوة والحق جنباً إلى جنب...)[٣].

وقال: (وتحتاج كذلك الأمم الناهضة إلى القوة وطبع أبنائها بطابع الجندية، ولا سيما في هذه العصور التي لا يضمن فيها السلم إلا بالاستعداد للحرب، والتي صار شعار أبنائها جميعاً: (القوة أضمن طريق لإحقاق الحق...)[٤].

وورد في موضع آخر على تساؤلات الناس: (هل في عزم الإخوان المسلمين أن يستخدموا القوة في تحقيق أغراضهم والوصول إلى غايتهم)؟ فقال:

(أما القوة فشعار الإسلام في كل نظمه وتشريعاته، فالقرآن الكريم ينادي

---

(١) ص ٨٦.
(٢) نفس المرجع ص ١٠٥.
(٣) نفس المرجع ٤٠.
(٤) نفس المرجع ٦٣.

في وضوح وجلاء: ﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾[١]، والنبي ﷺ يقول: «المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف...» فالإخوان المسلمون لا بد أن يكونوا أقوياء ولا بد أن يعملوا في قوة...) ثم يشرح معاني القوة ودرجاتها وأن قوة الساعد والسلاح تأتي في الدرجة الأخيرة لمصلحة راجحة، فقال: (ولكن الإخوان المسلمين أعمق فكراً وأبعد نظراً من أن تستهويهم سطحية الأعمال والفكر فلا يغوصوا إلى أعماقها ولا يزنوا نتائجها وما يقصد منها وما يراد بها. فهم يعلمون أن أول درجة من درجات القوة قوة العقيدة والإيمان، ويلي ذلك قوة الوحدة والارتباط، ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة حتى تتوفر لها هذه المعاني جميعاً وإنها إذا استخدمت قوة الساعد والسلاح وهي مفككة الأوصال مضطربة النظام أو ضعيفة العقيدة خامدة الإيمان فسيكون مصيرها الفناء والهلاك)[٢].

ويشرح الداعية أصناف الناس، فيذكر أنهم أربعة:

شخص آمن بالدعوة فعليه أن يبادر بتأييدها والانضمام إلى حزبها وشخص لم يستبن له وجه الحق فيها فعليه أن يتعرف عليها وعلى أهلها وسيطمئن إلى أنها حق ويؤيدها.

وشخص نفعي يريد مغنماً فيمكنه أن يعلم أن الدعوة تحتاج إلى من يضحي في سبيلها وأن أهلها يتحملون أعباءها قاصدين ثواب الله لا شيء آخر غيره.

ورابع متحامل ليس عنده استعداد للتعرف على الدعوة ولا الإيمان بها وإنما هو خصم لدود لها فهذا إن لم تداركه هداية الله فلا مطمع في هدايته وتوفيقه. ويدعو البنا الناس أن يكونوا واضحين في موقفهم من الدعوة باتخاذهم أحد هذه الأصناف الأربعة وإن كان الواجب إدراك الغاية التي تضمنتها وترك الغفلة السادرة والتقليد الأعمى[٣].

---

(١) الأنفال آية: ٦٠.

(٢) نفس المرجع ص ١٦٩.

(٣) راجع نفس المرجع ص ١٢.

ولقد وصل البنا بأتباعه في هذه الطريق ـ طريق تربية جيل يؤمن بالدعوة ويعرف غايتها ووسائلها ويسعى لإقامة حكم الله في الأرض ـ بلغ أتباعه درجة عالية كادوا يبلغون الهدف الذي رباهم من أجله وكانت هتافاتهم ترتفع مدوية: الله غايتنا، والرسول قدوتنا، والقرآن شرعتنا، والجهاد سبيلنا والشهادة أمنيتنا[١].

ولم يفارق الدنيا حتى ترنم مع جماعته قائلين:

هو الحق يحشد أجناده ويعتد للموقف الفاصل
فصفوا الكتائب آساده ودكوا به دولة الباطل

وارتعدت بذلك فرائص أعداء الله وتألبت قوى الكفر ضد الدعوة والدعاة..

وكان البنا يربي أتباعه هذه التربية، وهو ينظر إلى المستقبل الذي ينتظرهم وإلى الابتلاء الذي سيصيبهم عندما يظهر لأعداء الإسلام خطرهم على الكفر والفسوق والعصيان كما هي سنة الله في عباده، ولذلك أبان لهم الطريق وحثهم على الصبر يوم يأتي ذلك الابتلاء، الذي سيصيبهم من جهلة الشعب وزعمائه وعلمائه الرسميين وغيرهم فقال رحمه الله: (أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها وأهدافها ستلقى منهم خصومة شديدة وعداوة قاسية وستجدون أمامكم كثيراً من المشقات وسيعترضكم كثير من العقبات، وفي هذا الوقت وحده تكونون قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات. أما الآن فلا زلتم مجهولين ولا زلتم تمهدون للدعوة وتستعدون لما تتطلبه من كفاح وجهاد سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة في طريقكم، وستجدون من أهل التدين ومن العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للإسلام وينكر عليكم جهادكم في سبيله، وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان، وسيقف في وجهكم كل الحكومات على السواء وستحاول كل حكومة أن تحد من نشاطكم وأن تضع العراقيل في

---

(١) نفس المرجع ٦٣.

طريقكم...) إلى أن قال: (وستدخلون بذلك ولا شك في دور التجربة والامتحان، فتسجنون وتعتقلون وتقتلون وتشردون وتصادر مصالحكم وتعطل أعمالكم وتفتش بيوتكم وقد يطول بكم مدى هذا الامتحان: ﴿أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يُفتنون﴾ ولكن الله وعدكم بعد ذلك كله نصرة المجاهدين ومثوبة العاملين المحسنين: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلُّكم على تجارة تُنجيكم من عذاب أليم... فأيدنا الذين آمنوا على عدوِّهم فأصبحوا ظاهرين﴾[1] فهل أنتم مصرون على أن تكونوا أنصار الله)[2].

أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو الطريق الثاني الذي سلكه البنا وربّى عليه أتباعه فإنه يظهر جلياً في رسالته المسماة: نحو النور، وهو خطاب بعث به إلى الملك فاروق ورئيس وزرائه وإلى رؤساء الشعوب الإسلامية ومفكريها وفيه أوضح مزايا الإسلام وتبعة الراعي ومفاسد المدنية الغربية وقدرة الإسلام على إمداد الأمة الناهضة بما تحتاج إليه من الأمل والعزة والقوة والصحة العامة والعلم والخلق والاقتصاد والنظم العامة وحماية الأقليات وصيانة حقوق الأجانب وقيام العلاقات المفيدة مع دول الغرب كما أبان أن أصول النهضة في الشرق غير أصولها في الغرب، وأن رجال الدين الذين يسيئون إلى الدين ليسوا هم الدين وحث على الجرأة في إقامة الدين، وبيّن الخطوات العملية في النواحي السياسية والقضائية والإدارية والاجتماعية والعلمية والاقتصادية وفي آخر الخطاب بين أنه لا يريد بذلك إلا النصيحة لوجه الله لا طمعاً في حكم أو رغبة في منصب أو جاه وأنه سيكون جندياً هو وأتباعه لأية حكومة تطبق الإسلام، فقال: (وبعد فهذه رسالة الإخوان المسلمين، نتقدم بها، وإنا لنضع أنفسنا ومواهبنا وكل ما نملك تحت تصرف أي هيئة أو حكومة تريد أن تخطو بأمة إسلامية نحو الرقي والتقدم نجيب النداء ونكون الفداء، ونرجو أن نكون قد أدينا بذلك أمانتنا وقلنا كلمتنا، والدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، وحسبنا الله وكفى وسلام على عبادة الذين اصطفى)[3].

---

(١) الصف: ١٠ - ١٤.

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٣) نفس المرجع ص ٥٥ - ٧٨.

وهكذا خاطب في رسالته: مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي رئيس الحكومة، ورجال الأزهر، ورؤساء الهيآت والجماعات والأحزاب وأبناء الوطن جميعاً ثم أخذ يوجه إليهم النداء ويقول: ألا قد بلغت اللهم فأشهد[١].

إن رجلاً أخرجه الله للناس في عصر انفرط فيه عقد المسلمين وأُقصيَ حكم الله فيه من الأرض وقويت شوكة الكفر وعلا أهل الإلحاد وسقطت راية الإسلام وذل المسلمون فيه لأعدائهم ودب الخلاف بينهم وتفرقوا شذر مذر، وأخلد فيه العلماء إلى الأرض وانتشرت بينهم الخرافات وتعددت الطرق واستعمرت فيها أغلب بلاد المسلمين من قبل الكفار، إن رجلاً أخرجه الله للناس في هذا العصر الذي هذه بعض رزاياه على المسلمين فهيأ الله له أسباب التقرب إلى الله وجعله ينتقل من جماعة إلى أخرى مختاراً أحسن ما عند كل جماعة من صغره ورزقه الفقه في الدين والعمل به والدعوة إليه والغيرة على أهله والصبر على الأذى في ذات الله وآتاه قوة فكرية وتخطيطية وتنظيمية وعملية ومنحه صفات قيادية كان تأثيرها شبيهاً بخوارق العادات وجعله يتبع نهج الرسول ﷺ في إبلاغ الدعوة إلى كل الناس في مجتمعاتهم ومنتدياتهم وقهاويهم في وقت ما كان أحد يفكر في هذه المجالات للدعوة، كما منحه الله البعد عن بعث الأمور الخلافية التي استهلكت طاقات العلماء وأتباعهم وفرقت كلمتهم، كما منحه الأسلوب الجذاب والحجة المقنعة لكل طبقات المجتمع ورزقه القوة في قول الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لا يخشى في الله لومة لائم وأعلن للملأ أن الحكم ركن من أركان الإسلام لا قيام للدين بدونه وأن القوة بمراتبها الثلاث قوة الإيمان والعقيدة، وقوة الأخوة والجماعة والارتباط وقوة الساعد والسلاح أمر ضروري للدعوة إلى الله، وأن الإسلام عالمي لا يكفي أن يدين به شعب أو جنس من البشر بل هو رحمة عالمية يجب أن يبلغ إلى الناس كافة وأن الجهاد في سبيل الله وإعداد العدة لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ضرورة من ضرورات الإسلام، ورزقه الله ـ كذلك ـ معرفة كاملة بأمراض الأمة الإسلامية في هذا العصر ـ وكذلك غيرها من أمم الأرض ـ ومعرفة بالدواء والغاية من

---

(١) نفس المرجع ص ١٨٩ ـ ٢٤٥.

خلق البشر والوسيلة لتحقيق هذه الغاية، وأخذ رحمه الله يربي الشباب ـ وغير الشباب ـ على الإيمان بالمبدأ الذي آمن به ويثير فيه عاطفة جياشة وعزة وأنفة ويدفعه دفعاً إلى رفع كلمة الله في الأرض، وكشف عوار القوانين الوضعية وفضح تآمر أهلها على الشعوب الإسلامية ووقف ضد قوى الكفر والعدوان وأذنابهم مطالباً إياهم بالجلاء وإعطاء الحرية لتلك الشعوب المغلوبة على أرضها وجهز الغزاة المجاهدين ضد قوة الكفر في مصر وفلسطين من اليهود والنصارى فأذاقوا المستعمرين ناراً لا قبل لهم بها، إن رجلاً أخرجه الله للناس ومنحه تلك المواهب العظيمة التي لا توجد إلا في جيش من الصالحين متفرقة في أفرادهم، أخرجه الله في هذا العصر الذي تلك حالته لجدير أن تقف الدنيا كلها في وجهه وتصد الناس عن دعوته وتتآمر عليه وتنزل به ألواناً من الابتلاء والمحنة وبأتباعه وذلك ما كان وهو الذي صارح به قومه قبل مدة طويلة من الزمن كما مضى[١].

نعم جاء وقت المحنة، وجاء الوقت الذي علم فيه الناس دعوة هذا الرجل، وقد كانوا من قبل يجهلونها، علم الطغاة أنها تعني لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأنها تعني تبعاً لذلك القضاء على استعباد البشر للبشر وأنه لا طاعة لأحد في معصية الخالق سبحانه، وأن الدعوة لا بد لها من قوة تحميها وتزيل العقبات من طريقها فاجتمعت قوة الكفر الغربية وعبيدها الحاكمون في مصر وقرروا حل جماعة الإخوان المسلمين واعتقال الأعضاء ومصادرة الممتلكات وعندما أخذت الشرطة أعضاء الجماعة أراد الإمام أن يكون معهم في السيارة فرفض رجال الشرطة وقالوا له: ليس عندنا أمر باعتقالك فأصر ولكنهم أيضاً أصروا على عدم أخذه مع أتباعه، وخطوا الخطوة الثانية ـ بعد الحل واعتقال الأعضاء ـ فأخذوا سيارته واعتقلوا سائقها وسحبوا سلاحه الذي كان مرخصاً له كغيره من زعماء الهيئات والأحزاب وقبضوا على شقيقيه اللذين كانا يرافقانه وسلطوا عليه من اغتاله عام ١٩٤٩ م وكانت اصابته غير قاتلة كما قرر أحد الأطباء ولكن أعداء الله تركوه ـ فيما يبدو ـ ينزف دماً حتى لقي ربه[٢].

---

(١) راجع ثناء العلماء على البنا رحمه الله في كتاب: المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين لسعيد حوا ص ١٨٣ ـ ٢٠١.

(٢) راجع كتاب المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين ص ٢٠٢ لسعيد حوا وكذا كتاب: لماذا اغتيل الإمام الشهيد حسن البنا ص ١٥٧ ـ ١٦٤.

وبذلك صار الإمام حسن البنا رحمه الله من النماذج القليلة التي تكون قدوة للسائرين في الفقه في الدين والعمل والجهاد والصبر على الابتلاء في سبيل الله، فرحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته، وقد سار في دربه أبناؤه الذين رباهم فأوذوا إيذاء قل أن يوجد مثله واعتقلوا واغتيلوا وقتلوا وصمدوا صمود الجبال الرواسي ولا زالوا على العهد وفقهم الله لسلوك درب إمامهم وفقههم في الدين وأنزل عليهم سكينة الصبر والطمأنينة ونصرهم على عدوهم إنه على كل شيء قدير.

المثال السادس
سيد قطب

وإنه لجدير بالباحث والقارىء أن يريا أثر هذا الإمام في أتباعه الذين رباهم على هذا الدين ـ وقد كان كثير منهم نماذج يقتدي بها السائرون ـ ويصعب تتبع هذه النماذج وذكر خلاصة عن كل واحد منهم، لذلك يكفي نموذج واحد، وهو رائد الفكر الإسلامي المعاصر ورجل الدعوة والعمل والممتحن الصامد الصابر الذي ثبت على هذا الدين حتى لقي الله شهيداً وهو يبتسم فرحاً بلقائه: سيد قطب[1].

كان سيد شغوفاً بالحفظ والقراءة من صغره فحفظ القرآن الكريم قبل العاشرة من عمره، وكون مكتبة صغيرة كان يكثر من القراءة فيها واشتهر بذلك عند المثقفين الذين كانوا يظنون أنه سيكون له شأن في مستقبل حياته، ومر سيد بمراحل مختلفة في حياته مرحلة الطفولة هذه التي حفظ فيها القرآن وأولع بالقراءة ومن الكتب التي أولع بها في هذه الفترة بعض كتب السحر، ومرحلة الحياة الأدبية التي ضرب بسهمه في كل لون من ألوان نشاطها ومرحلة الدراسة الإسلامية وتذوق نصوص القرآن الكريم، والدعوة العامة إلى العودة إلى هذا

---

(١) هكذا اشتهر بسيد قطب، كما جرت عادة الناس من العوام أن يحذفوا كلمة (ابن) وإلا فهو سيد بن قطب، راجع كتاب: رائد الفكر الإسلامي المعاصر: الشهيد سيد قطب، ليوسف العظم ص ٢٠.

الدين قبل فوات الأوان. ثم مرحلة العمل الإسلامي المنهجي المرسومة حدوده وغاياته ووسائله، عندما اتصل بالداعية الكبير الشيخ حسن البنا رحمه الله، وفي هذه المرحلة وضحت لسيد معالم الطريق الإسلامية وصفا فكره وازداد إيمانه وقويت صلته بربه ووجد ضالته التي ينشدها، وهي وجود جماعة أخلصت عبوديتها لله ومنهج إلهي هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وقيادة تطاع في طاعة الله تقود الجماعة إلى الجهاد في سبيل الله بتخطيط ونظام دقيقين، فدخل جندياً مطيعاً في هذه الجماعة، مفكراً إسلامياً يغوص في معاني آي القرآن الكريم والسنة النبوية وينشر ما فتح الله به عليه من فقه في الدين لإخوانه من أعضاء الجماعة وإخوانه المسلمين عامة، مع فقه عميق لجميع المذاهب المعاصرة في الشرق والغرب ومقدرة على تعرية مساوئها وإظهار مخازيها[1].

وكان ابتلاء سيد رحمه الله بالسجن والتعذيب إلى أن قتله أعداء الله ناشئاً من معرفة أعداء الإسلام بخطره عليهم، ليس بما ادعوا من أنه أراد قلب نظام الحكم بالقوة، فما كان لسيد وإخوانه آنذاك من قوة مادية لفعل ذلك، وإنما لمنهجه الذي كتبه وأخذ يربي عليه أعضاء الجماعة وينشره في كتبه ـ لا سيما في ظلال القرآن ومعالم في الطريق ـ ويقف أمام الطغاة مطبقاً ذلك المنهج فعلاً، وليس قولاً فقط.

والأسس التي حددها سيد قطب لمنهجه تعود كلها إلى قاعدة واحدة، وهي ما تضمنته الشهادتان: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) من أن العبودية المطلقة لله وحده، والطاعة لرسوله ﷺ ثم ما تبع ذلك من تفسيره للإسلام بمعناه الشامل، وللجاهلية ـ كذلك ـ بمعناها الشامل، وتوضيحه المجتمع الإسلامي، والمجتمع الجاهلي وعدم الانخداع باللافتات الإسلامية التي تتحرك تحتها المجتمعات بمعان جاهلية، ودعوته إلى الجهاد في سبيل الله وألا يخاف المسلم لومة لائم في الحق ولا يثنيه عن القيام بدعوته ترغيب ولا ترهيب، وأن يصبر على الأذى ويطمئن إلى ما قدره الله.

---

(١) راجع المرجع السابق لبيان مراحل حياة سيد ٧٣ ـ ١٤٩.

ولعل في نقل بعض النصوص من كتب سيد قطب في هذه الموضوعات ما يبين سبب الابتلاء الذي صبه الطغاة عليه، ويظهر كذلك ثباته وسخريته بما فعله السفهاء به ويثبت لمن أراد السير في طريق الدعوة إلى الله أن سيداً رحمه الله كان من أقطاب النماذج التي يقتدي بها السائرون.

فهو يقول في قاعدة العبودية: (العبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية المتمثل في شهادة ألا إلَه إلا الله. والتلقي عن رسول الله ﷺ في كيفية هذه العبودية، هو شطرها الثاني المتمثل في شهادة أن محمداً رسول الله. والقلب المؤمن المسلم هو الذي تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها، لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان، وأركان الإسلام إنما هو مقتضى لهما... والمجتمع المسلم هو الذي تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضياتها جميعاً، لأنه بغير تمثل تلك القاعدة ومقتضياتها فيه لا يكون مسلماً. ومن ثم تصبح شهادة ألا إلَه إلا الله وأن محمداً رسول الله قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها، فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة كما إنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة أو قامت على قاعدة أخرى معها أو عدة قواعد أجنبية منها..)[1].

وقال في مكان آخر: (والقاعدة النظرية التي يقوم عليها الإسلام على مدار التاريخ البشري هي قاعدة شهادة ألا إلَه إلا الله، أي إفراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والسلطان والحاكمية، إفراده بها اعتقاداً في الضمير وعبادة في الشعائر وشريعة في واقع الحياة...)[2].

وبعد أن قرر قاعدة العبودية نظرياً قرر أنه لا بد من التطبيق العملي الشامل لمقتضى الشهادتين في جميع نواحي النشاط الإنساني ولا يكفي أن يتلفظ بها الإنسان ثم يقول إنه مسلم وهو يعبد هواه أو غيره من أهواء البشر قال: (ولن يكون الإسلام إذن هو النطق بالشهادتين دون أن يتبع شهادة ألا إلَه إلا الله معناها وحقيقتها، وهي توحيد الألوهية، وتوحيد القوامة ثم توحيد العبودية

(١) معالم في الطريق ص ٨٢.
(٢) معالم في الطريق ٤٧.

وتوحيد الاتجاه، ودون أن يتبع شهادة أن محمداً رسول الله معناها وحقيقتها. وهي التقيد بالمنهج الذي جاء به من عند ربه للحياة واتباع الشريعة التي أرسله بها والتحاكم إلى الكتاب الذي حمله إلى العباد. . .)[١].

وقد لا يفهم من قرأ هذه الجمل ما أراده سيد بإتباع الشهادتين حقيقتهما ومعناهما، فهو لا يريد أن يحقق المسلم ذلك في نفسه فحسب بل يريد ما هو أشمل، نعم إنه يريد من كل فرد أن يحقق معناهما وحقيقتهما في نفسه ولكنه أيضاً يريد مـن أفراد المسلمين الذين حققوا ذلك أن يتحركوا مجتمعين لتحرير الناس من عبوديتهم لغير الله لينعموا بالعبودية له وحده سبحانه وأن يواجهوا كل قوة بما يناسبها بل بما يزيلهـا قال: (السمة الأولى: هي الواقعية الجدية في منهج هذا الدين فهو حركة تواجه واقعاً بشرياً، وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي، إنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية تقوم عليها أنظمة واقعية عملية تسندها سلطات ذات قوة مادية، ومن ثم تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات، وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها، تلك التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبدهم لغير ربهم الجليل، إنها حركة لا تكتفي بالبيان في وجه السلطان المادي، كما إنها لا تستخدم القهر المادي لضمائر الأفراد. . .)[٢].

وقال في مكان آخر: (والإسلام ليس مجرد عقيدة حتى يقنع بإبلاغ عقيدته للناس بوسيلة البيان، إنما هو منهج يتمثل في تجمع تنظيمي حركي يزحف لتحرير كل الناس، والتجمعات الأخرى لا تمكنه من تنظيم حياة رعاياها وفق منهجه هـو ومن ثم يتحتم على الإسلام أن يزيل هذه الأنظمة بوصفها معوقات للتحرير العام، وهذا ـ كما قلنا من قبل ـ معنى أن يكون الدين كله لله فلا تكون هناك دينونة ولا طاعة لعبد من العباد لذاته كما هو الشأن في سائر الأنظمة التي تقوم على عبودية العباد للعباد)[٣].

---

(١) في ظلال القرآن (٣ ـ ٤٢٣).

(٢) معالم في الطريق ص ٥٦.

(٣) نفس المرجع ص ٨٠ وراجع ص ٣٩ ـ ٤٩ منه.

لأن العبودية لله لا تقوم في الأرض بدون تجمع تنظيمي حركي يدعو إلى هذه العبودية ـ بعد أن يطبقها هذا التجمع في واقع الحياة بنفسه ـ ويجاهد من صد عنها ويزيل كل العقبات التي تعترض من أراد تحقيقها من البشر ولا شك أن هذا التصور لحقيقة الإسلام وحقيقة العمل به يصطدم اصطداماً مباشراً بطواغيت الكفر الذي يستعبدون الناس لأنفسهم بالقوة، وهو يقابل ذلك بأن العبودية لا تكون إلا لله وأن الواجب على المسلمين أن يجاهدوا بالقوة كل من ادعى حق الألوهية لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد.

وأضاف سيد قطب إلى ذلك أمراً آخر أشد خطورة على أعداء الله الماكرين الذين يظهرون للناس أنهم مسلمون ويرفعون شعارات باسم الإسلام وهم يتحركون تحت تلك الشعارات بالكفر والفسوق والعصيان فبين رحمه الله أن ذلك لا يجوز أن يخدع المسلمين ويجب أن يسقطوا كل لافتة ترفع باسم الإسلام وهي في الواقع لافتة خداع وغش يريدون بها تخدير المسلمين وإيهامهم بأن الإسلام قائم، وهذا من أشد العوائق المانعة لتحطيم عروش الطواغيت، لذلك حمل سيد قطب حملة عنيفة على هذه اللافتات وعلى المخدوعين بها وأهاب بدعاة الحق أن ينزلوها ويعروا الأوضاع الجاهلية التي تتستر بها، قال: (وأعداء هذا الدين الراصدون لحركات البعث الإسلامي الجديدة في هذا الجيل يرصدونها عن خبرة واسعة بطبيعة النفس البشرية وبتاريخ الحركة الإسلامية على السواء، وهم من أجل ذلك حريصون كل الحرص على رفع (لافتة إسلامية) على الأوضاع والحركات والاتجاهات والقيم والتقاليد والأفكار التي يعدونها ويقيمونها ويطلقونها لسحق حركات البعث الإسلامي الجديد في أرجاء الأرض جميعاً، ذلك لتكون هذه اللافتة الخادعة مانعة من الانطلاق الحقيقي لمواجهة الجاهلية الحقيقية القابعة وراء تلك اللافتة الكاذبة.

والسذّج ممن يدعون أنفسهم مسلمين يخدعون في هذه اللافتة ومن هؤلاء السذج كثير من الدعاة إلى الإسلام في الأرض، فيتحرجون من إنزالها عن الجاهلية القائمة تحتها، ويتحرجون من وصف هذه الأوضاع بصفتها الحقيقية التي تحجبها هذه اللافتة الخادعة. صفة الشرك والكفر الصريحة. ويتحرجون من

وصف الناس الراضين بهذه الأوضاع بصفتهم الحقيقية كذلك. وكل هذا يحول دون الانطلاق الحقيقي الكامل لمواجهة هذه الجاهلية مواجهة صريحة لا تحرج فيها ولا تأثم من وصفها بصفتها الحقيقية الواقعة بذلك تقوم تلك اللافتة بعملية تخدير خطرة لحركات البعث الإسلامي كما تقوم حاجزاً دون الوعي الحقيقي، ودون الانطلاق الحقيقي لمواجهة جاهلية القرن العشرين التي تتصدى لسحق الجذور الباقية لهذا الدين. . .) إلى أن قال: (إن الواجب الأول للدعاة إلى هذا الدين في الأرض أن ينزلوا تلك اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع الجاهلية والتي تحمي هذه الأوضاع المقامة لسحق جذور هذا الدين في الأرض جميعاً، وإن نقطة البدء في أية حركة إسلامية هي تعرية الجاهلية من ردائها الزائف وإظهارها على حقيقتها شركاً وكفراً ووصف الناس بالوصف الذي يمثل واقعهم كيما تواجههم الحركة الإسلامية بالطلاقة الكاملة. . .)[1].

وأشد ما يؤذي أعداء الله ويخيفهم أن ينكشف عوارهم ويظهر للناس خداعهم الذي يموهون عليهم به. لذلك كانت هذه الجملة على لافتاتهم الخادعة قاصمة لظهورهم. وقصده من تلك اللافتات إقامة بعض الحكومات المعادية للإسلام المحاربة للحكم بكتاب الله بعض المؤسسات التي تطلق عليها أسماء إسلامية ويشرف عليها علماء رسميون يطلق عليهم رجال الدين يقتاتون بسبب ذلك من فتات الحكام ويتملقونهم ويعظمونهم في نفوس عامة الناس ويطلقون عليهم ألقاباً إسلامية ويثنون عليهم بما يقومون به من أعمال جليلة في سبيل رفعة الإسلام وهم في الواقع يحاربونه ويسحقون دعاة الحق سحقاً، ويجدون من موظفيهم في تلك اللافتات فتاوى تسوغ لهم أعمالهم الإجرامية.

ويظهر ذلك من كلامه على الآيات الكريمة من سورة الأعراف: ﴿واتْلُ عليهم نبأَ الذي آتيناه آياتنا، فانسلخَ منها فأتْبَعه الشيطانُ فكان من الغاوين * ولو شِئْنا لرفعناه بها، ولكنّه أخلَدَ إلى الأرض واتّبع هواه، فمَثَلُه كَمَثَلِ الكلب إنْ تحمل عليه يَلْهَثْ أو تَتْركه يلهث، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتِنا

---

(١) في ظلال القرآن (١٠ - ١٦٤٨ - ١٦٥٠).

فاقصُص القَصَص لعلَّهم يتفكرون﴾[١].

قال رحمه الله: (فهو يمثل حال الذين يكذبون بآيات الله بعد أن تبين لهم فيعرفوها ثم لا يستقيموا عليها، وما أكثر ما يتكرر هذا النبأ في حياة البشر، وما أكثر الذين يعطون علم دين الله ثم لا يهتدون به إنما يتخذون هذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه، واتباع الهوى به... هواهم وهوى المتسلطين الذين يملكون لهم ـ في وهمهم ـ عرض الحياة الدنيا. وكم عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها، ويعلن غيرها ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعاً. لقد رأينا من هؤلاء من يعلم ويقول: إن التشريع حق من حقوق الله ـ سبحانه ـ من ادعاه فقد ادعى الألوهية ومن ادعى الألوهية فقد كفر، ومن أقر له بهذا الحق وتابعه عليه فقد كفر أيضاً ومع ذلك.. مع علمه بهذه الحقيقة التي يعلمها من الدين بالضرورة فإنه يدعو للطواغيت الذين يدعون حق التشريع ويدعون الألوهية بادعاء هذا الحق ممن حكم عليهم هو بالكفر، ويسميهم المسلمين ويسمي ما يزاولونه إسلاماً لا إسلام بعده. ولقد رأينا من هؤلاء من يكتب في تحريم الربا كله عاماً ثم يكتب في حله كذلك عاماً آخر، ورأينا منهم من يبارك الفجور وإشاعة الفاحشة بين الناس ويخلع على هذا الوحل رداء الدين وشارته وعناوينه)[٢].

وفي هذا تعرية لعلماء السوء الذين يتخذون علمهم وسيلة لتحريف دين الله لينالوا الزلفى لدى أعداء الله وأعداء حكمه في الأرض، كما عُري هؤلاء قبلهم.

ثم نظر سيد قطب إلى أصناف الناس في الأرض ـ وبعض هذه الأصناف يزعم أنه مسلم ـ فحدد طبيعة المجتمع المسلم، وطبيعة المجتمع الجاهلي لينزل اللافتات الكاذبة تطبيقاً لما نصح به الدعاة من وجوب تصديهم لتلك اللافتات

(١) الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦.
(٢) في ظلال القرآن (١٩ ـ ١٣٩٧) وما بعدها، وراجع كذلك (٣ ـ ٤١٩).

وإنزالها ليكون ما تحتها مكشوفاً لا يخدع عامة المسلمين، فقال عن المجتمع الإسلامي: (إن السمة الأولى المميزة لطبيعة المجتمع المسلم هي أن هذا المجتمع يقوم على قاعدة العبودية لله وحده في أمره كله، هذه العبودية التي تمثلها وتكفيها شهادة أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتتمثل هذه العبودية في التصور الاعتقادي، كما تتمثل في الشعائر التعبدية، كما تتمثل في الشرائع القانونية سواء. . .) إلى أن قال: (وأيما جانب من هذه الجوانب تخلف عن الوجود فقد تخلف الإسلام نفسه عن الوجود لتخلف ركنه الأول وهو شهادة إن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله. .) ثم قال: (وطبيعي أن المجتمع المسلم الجديد لا ينشأ ولا يتقرر وجوده إلا إذا بلغ درجة من القوة يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي القديم: قوة الاعتقاد والتصور، وقوة الخلق والبناء النفسي، وقوة التنظيم والبناء الاجتماعي وسائر أنواع القوة التي يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي ويتغلب عليه أو على الأقل يصمد له. .)[1].

وقال عن المجتمع الجاهلي: (إنه هو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده، متمثلة هذه العبودية في التصور الاعتقادي وفي الشعائر التعبدية، وفي الشرائع القانونية، وبهذا التعريف الموضوعي تدخل في إطار المجتمع الجاهلي جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض فعلاً. . .) ثم أخذ يعدد تلك المجتمعات، فذكر المجتمعات الشيوعية والمجتمعات الوثنية، والمجتمعات اليهودية، والمجتمعات النصرانية، والمجتمعات التي تصف نفسها بأنها إسلامية وهي لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها، بل تحارب تحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولصعوبة حكمه هذا على نفوس كثير ممن يدعون الإسلام بادر فقال: (إن الإسلام لا ينظر إلى العنوانات واللافتات والشارات التي تحملها هذه المجتمعات على اختلافها. إنها كلها تلتقي في حقيقة واحدة، وهي أن الحياة فيها لا تقوم على العبودية الكاملة لله وحده، وهي من ثم تلتقي مع سائر المجتمعات الأخرى في صفة واحدة.. صفة الجاهلية)[2].

---

(١) معالم في الطريق ص ٨٣ ـ ٨٧.

(٢) راجع نفس الكتاب ص ٨٧ ـ ٩٢.

ومن هذا التحديد للمجتمع الإسلامي والمجتمع الجاهلي يظهر أن المجتمع الإسلامي هو الذي يطبق فيه أهل الحل والعقد حكم الله عقيدة وعبادة وشريعة، وأن المجتمع الجاهلي هو الذي يطبق فيه أهل الحل والعقد حكم الجاهلية عقيدة وعبادة وشرعاً، ويؤخذ هذا ـ أي كون أهل الحل والعقد معتبرين في ذلك ـ من قوله: (وطبيعي أن المجتمع المسلم الجديد لا ينشأ ولا يتقرر وجوده إلا إذا بلغ درجة من القوة يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي القديم. . . وهو بذلك لا يحكم على الأفراد الذين يوجدون في هذا المجتمع أو ذاك إلا إذا تبين أن الفرد يعطي ولاءه للمجتمع الذي هو فيه أو يعتقد اعتقاده.

وهذا التحديد ـ كما هو واضح ـ يغيظ كل المجتمعات المنتسبة إلى الإسلام وهي لا تدين بألوهية الله وحده إما لمعتقدها في عدم ألوهية الله، كالشيوعيين الصرحاء في ذلك، وكذلك الوثنيون الموغلون في الوثنية الذين يتوجهون بشعائر العبادات لغير الله كعباد القبور ونحوها، وإما لإعطاء حق التشريع في الحلال والحرام لغير الله وهذا يشمل كل الحكومات التي تعارض حكم الله وتحكم بغيره، ويظهر بذلك كثرة الأعداء واتفاقهم على عداء سيد قطب: الكتلة الرأسمالية ـ ومموالوها في الشعوب الإسلامية، والكتلة الشيوعية أو الاشتراكية ومموالوها كذلك في الشعوب الإسلامية، وكتلة المنحرفين والمبتدعين ممن ينتسبون إلى العلم.

واغتر تلاميذ الغرب من أبناء الشعوب الإسلامية بحضارة الغرب المادية وأخذوا يلهثون وراء مساوىء أوربا وأمريكا وغيرهما من دول الكفر ويقلدونهم في تلك المساوىء في العقيدة والسلوك والسياسة والاجتماع، ولم يحققوا شيئاً يذكر من العلوم النافعة إلا ما ندر وغرسوا في نفوس الشعوب الإسلامية حب الغرب وعاداته وتقاليده في كل شيء وأصبحت الحضارة إذا ذكرت تعني الرقي والتقدم فكل ما جاء من الغرب فهو حضارة ورقي وتقدم وكل ما كان في بلاد المسلمين غير ما جاء من الغرب فهو تخلف ورجعية وجمود أراد أذناب الغرب أن يصطادوا سيد قطب ليكون رائداً من رواد الحضارة الغربية وداعية من دعاتها لما رأوا منه من ذكاء ومقدرة على الإقناع بأساليبه الراقية فأوفدوه إلى أمريكا التي بقي فيها سنتين فرأى بعينيه العقائد الفاسدة والأخلاق السيئة والضياع الذي مني به أهل

الغرب، فرجع معولاً من معاول هدم الدعاية الكاذبة لريادة الغرب وسيادته، وكشف عوار هذه الحضارة المدعاة وحدد معنى الحضارة ومعنى الجاهلية عن فقه في الدين من جهة وتجربة واقعية للغرب من جهة أخرى وكتب كتاباً عما رأى وجرب في أمريكا بعنوان (أمريكا كما رأيت) ولم يظهر هذا الكتاب إلى الآن، ولكن ظهر له كتاب: الإسلام ومشكلات الحضارة، والكتاب كما قال يوسف العظم: (عرض هادف للحضارة الإسلامية، ورفض إيجابي للسلبيات المدمرة التي تفرزها لنا حضارة العري والضياع والأفيون. . .)[١].

وعقد فصلاً خاصاً في كتابه معالم في الطريق بعنوان: الإسلام هـو الحضارة. أي إذا أطلقت الحضارة التي تعني الرقي والتقدم في هذه الحياة فإنها تعني الإسلام، لأن الإسلام هو الحضارة، وفيه الرقي والتقدم، وما عدا الإسلام فهو جاهلية وإن شيد أهلها القصور والأهرامات ومدوا الجسور واستخدموا الجو والبر والبحر واستغلوا ثروات الأرض وغزوا الفضاء بدون أن يكونوا مسلمين فإنهم أهل جاهلية وليسوا أهل حضارة، قال رحمه الله محملاً هذا المعنى: (حين تكون الحاكمية العليا في مجتمع لله وحده متمثلة في سيادة الشريعة الإلٓهية تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحرراً كاملاً من العبودية للبشر، وتكون هذه هي الحضارة الإنسانية لأن حضارة الإنسان تقتضي قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي الكامل للإنسان، ومن الكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع ولا حرية في الحقيقة، ولا كرامة للإنسان ـ ممثلاً في كل فرد من أفراده ـ في مجتمع بعضه أرباب يشرعون وبعضه عبيد يطيعون ولا بد أن نبادر فنبين أن التشريع لا ينحصر فقط في الأحكام القانونية ـ كما هو المفهوم الضيق في الأذهان اليوم لكلمة الشريعة، فالتصورات والمناهج والقيم والموازين والعادات والتقاليد كلها تشريع يخضع الأفراد لضغطه.

وحين يضع الناس ـ بعضهم لبعض ـ هذه الضغوط ويخضع لها البعض الآخر منهم في مجتمع لا يكون هذا المجتمع متحرراً، إنما هو مجتمع بعضه أرباب

---

(١) كتاب رائد الفكر الإسلامي المعاصر الشهيد سيد قطب ص ١٧٨.

ويعضه عبيد... وهو من ثم مجتمع متخلف أو بالمصطلح الإسلامي مجتمع جاهلي...)[١].

وكان في هذا التحديد ضربة قاصمة لأبواق الغرب ودعاة القوميات العرقية، كالفرعونية والفينيقية والآشورية ونحوها، لأنها كلها تعد مجتمعات متخلفة وليست متحضرة وخشي أن يفهم أذناب الغرب أن الإسلام يحتقر المادة ويحاربها فنفى ذلك بقوله: (ولكن الإسلام لا يحتقر المادة ولا يحتقر الإبداع المادي، إنما هو يجعل هذا اللون من التقدم ـ في ظلٍ منهج الله ـ نعمة من نعم الله على عباده يبشرهم به جزاء على طاعته: ﴿فقلتُ استغفروا ربَّكم إنَّه كان غفّاراً * يرسل السماء عليكم مِدْراراً * ويُمْدِدْكم بأموالٍ وبنينَ ويجعلْ لكم جنّاتٍ ويجعل لكم أنهاراً﴾[٢].

وكان سيد قطب رحمه الله واعياً وعياً كاملاً لجميع المذاهب والشعارات المنتشرة في الأرض، خبيراً بعيوبها مقيماً على تلك العيوب الحجج من الواقع الذي يعيش فيه الجيل المعاصر فلم يدع أي مذهب من المذاهب الجاهلية إلا تعرض له وبين زيفه وعيوبه فكانت أفكاره التي يكتبها وينشرها لسد الأبواب في وجوه دعاة تلك المذاهب لذلك أحس أعداء الله بالخطر وأجمعوا كلهم السادة الكفرة في الشرق والغرب وتلاميذهم في الشعوب الإسلامية على الوقوف في وجه هذا الخطر ـ بعد أن حاولوا إغراءه بالمناصب الوزارية ففشلوا ـ جعلوه مشرفاً على مكاتب هيئة التحرير المصرية يقوم بتنظيمها وتصريف أمورها، فانسحب منها، لأنه عرف أن هدف هذه الهيئة هو تمجيد الطغاة، وأرادوه أن يكون وزيراً للمعارف فرفض، لأنه يعلم أنه لا يدعون له المجال في تنفيذ ما يريد من مناهج وتربية إسلامية[٣].

ولو أنه سايرهم وانتظم في سلكهم لكان أجدر من غيره لتولي مناصب أعلى في الدولة ولكنه لم تكن المناصب والجاه والمال هي أهدافه بل كان هدفه

---

(١) معالم في الطريق ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٢) نفس الكتاب ص ١١٦. والآيات من سورة نوح (١٠ ـ ١٢).

(٣) راجع الكتاب: رائد الفكر الإسلامي المعاصر الشهيد سيد قطب ص ٥١ ـ ٥٢.

يتلخص في الجهاد لإعلاء كلمة الله.

فاعتقله أعداء الله وزجوا به في غياهب السجون والمعتقلات وأجهدوا أنفسهم في إيذائه وإرهابه علّه يخضع أو يلين فلم يزده ذلك إلا صلابة في الحق وسيراً في الطريق وسخرية من الطغاة وتوكلاً على الله وصبراً على بلواه.

وهناك وجد ظلالاً يتفيأها من حر سياط الجلادين وجحيم عذابهم وأنياب كلابهم وجد ظلال كتاب الله الذي كان يستعذب معاني آياته التي عاشها إيماناً وعلماً وعملاً وبلاء وصبراً ورحمة ونوراً لعباده المؤمنين، وفتح الله عليه فتوحاً وهو وراء القضبان الحديدية في غرف هي أشبه باللحود داخل القبور إن لم تكن أشد ضيقاً، بالإضافة إلى أنواع الابتلاء الأخرى، فتح الله عليه فتوحاً ما كان لينالها لو كان ينام على فراش وثير ويسكن في مكان فسيح نظيف منظم فيه جميع وسائل الراحة ويتناول الطعام اللذيذ ويجتمع بأفراد الأسرة والأحبة بدون إزعاج، وإنك لتقرأ ذلك في كتاباته.

واقرأ هذه الجمل التي كتبها تحت ظلال قوله تعالى: ﴿إذ يُغَشِّيكم النعاسَ أَمَنَةً منه﴾[1] لترى مدى ما فتح الله عليه في كتاباته وهو يحس تلك المعاني في ذات نفسه، قال: (ولقد كنت أمر على هذه الآيات وأقرأ أخبار هذا النعاس، فأدركه كحادث وقع، يعلم الله سره ويحكي لنا خبره، ثم إذا بي أقع في شدة (ولم يفسر رحمه الله الشدائد التي مرت به ولكن القارىء يلمس من عباراته أنها كانت شدائد لا يصبر عليها إلا أولو العزم من الرجال). وتمر عليّ لحظات من الضيق المكتوم، والتوجس والقلق في ساعة غروب، ثم تدركني سنة من النوم لا تتعدى بضع دقائق وأصحو إنساناً جديداً غير الذي كان، ساكن النفس مطمئن القلب مستغرقاً في الطمأنينة الواثقة العميقة. كيف تم هذا؟ كيف وقع هذا التحول المفاجىء؟ لست أدري ولكني بعدها أدرك قصة بدر وأحد أدركها في هذه المرة بكياني كله لا بعقلي واستشعرها حية في حسي لا مجرد تصور، وأرى فيها يد الله وهي تعمل عملها الخفي المباشر ويطمئن قلبي...)[2].

---

(١) الأنفال آية: ١١.

(٢) في ظلال القرآن (٩ ـ ١٤٨٤).

ترى لو فسر هذه الكلمة في غير ذلك الظرف الذي كان فيه أكان يحس هذا المعنى كما أحسه وهو في ذلك الظرف الحرج؟ كلا وهو نفسه قد قال: (فأدركه كحادث وقع يعلم الله سره، ويحكي لنا خبره).

ثم اقرأ ما فتح الله به عليه في ظلال قوله تعالى: ﴿ما يفتحِ الله للناس من رحمةٍ فلا مُمْسِكَ لها، وما يمسكْ فلا مُرْسِلَ له من بعده، وهو العزيز الحكيم﴾[1].

وكلامه يقع في ثلاث صفحات من القطع الكبيرة ختمه بقوله: (وبقي أن أتوجه أنا بالحمد لله على رحمة منه خاصة عرفتها منه في هذه الآية لقد واجهتني هذه الآية في هذه اللحظة وأنا في عسر وجهد وضيق ومشقة واجهتني في لحظة جفاف روحي وشقاء نفسي وضيق بضائقة وعسر من مشقة واجهتني في ذات اللحظة ويسر الله لي أن أطلع منها على حقيقتها وأن تسكب حقيقتها في روحي، كأنما هي رحيق أرشفة وأحس سريانه ودبيبه في كياني، حقيقة أذوقها، لا معنى أدركه، فكانت رحمة بذاتها تقدم نفسها لي تفسيراً واقعياً لحقيقة الآية التي تفتحت لي تفتحها هذا وقد قرأتها من قبل كثيراً ومررت بها من قبل كثيراً، ولكنها اللحظة تسكب رحيقها وتحقق معناها وتنزل بحقيقتها المجردة، وتقول: ها أنذا نموذجاً من رحمة الله حين يفتحها فانظر كيف تكون. إنه لم يتغير شيء مما حولي ولكن لقد تغير كل شيء في حسي إنها نعمة ضخمة أن ينفتح القلب لحقيقة كبرى من حقائق هذا الوجود كالحقيقة الكبرى التي تتضمنها هذه الآية نعمة يتذوقها الإنسان ويعيشها، ولكنه قلما يقدر على تصويرها أو نقلها للآخرين عن طريق الكتابة، وقد عشتها وتذوقتها وعرفتها، وتم هذا كله في أشد لحظات الضيق والجفاف التي مرت بي في حياتي، وها أنذا أجد الفرج والفرح والري والاسترواح والانطلاق من كل قيد ومن كل كرب ومن كل ضيق وأنا في مكاني. إنها رحمة الله يفتح الله بابها ويسكب فيضها في آية من آياته، آية من القرآن تفتح كوة من النور وتفجر ينبوعاً من الرحمة، وتشق طريقاً ممهوداً إلى الرضا والثقة والطمأنينة والراحة في ومضة عين، وفي نبضة قلب وفي خفقة جنان. اللهم حمداً

---

(١) فاطر: ٢.

لك اللهم منزل هذا القرآن هدى ورحمة للمؤمنين)[١].

ترى في أي مكان فتح الله باب رحمته على سيد قطب، ولو كان في غير هذا المكان مع ما أحاط به فيه من ضيق وشدة وعسر أيفتح له هذا الباب؟ ربنا قادر أن يفتح له باب رحمته في أي مكان، ولكن باب رحمته للمجاهد في سبيله المبتلى من أجل إعلاء كلمته ليكون نبراساً يهدي الأمة ونموذجاً يقتدي به السائرون غير الباب الذي يفتحه لعامة المسلمين لا سيما القاعد عن الجهاد في سبيل الله، فإنه يحرم من كثير من تلك الأبواب.

واقرأ له الجمل التالية عن الفتنة والابتلاء لترى فهمه الواسع لمعنى الفتنة والابتلاء وتحس في تعبيره أنه يكتب وهو يعاني من أنواع الفتنة والابتلاء ويجتهد في الصبر عليهما ليفوز برضا ربه الذي اختاره لذلك من أجل أن يحمل الأمانة أمانة هذا الدين وأداء واجبه وهو عزيز عليه غير رخيص لأنه أدى ثمنه غالياً ـ وإن كان لا يتحدث عن نفسه بذلك.

قال رحمه الله في ظل الآية الكريمة: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾: (إن الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف وأمانة ذات أعباء وجهاد يحتاج إلى صبر وجهد يحتاج إلى احتمال، فلا يكفي أن يقول الناس: (آمنا) وهم لا يتركون لهذه الدعوى حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به... إن الإيمان أمانة الله في الأرض لا يحملها إلا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص، وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة وعلى الأمن والسلامة وعلى المتاع والإغراء، وإنها لأمـانـة الخلافة في الأرض، وقيادة الناس إلى طريق الله وتحقيق كلمته في عالم الحياة فهي أمانة كريمة وهي أمانة ثقيلة وهي من أمر الله يضطلع بها الناس ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء...) ثم أخذ يعدد بعض أنواع الفتنة: فتنة الأذى من الباطل وأهله مع عدم التبصر وفتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه وفتنة إقبال

(١) في ظلال القرآن (٢٢ ـ ٢٩٢٤).

الدنيا على المبطلين وهتاف عامة الناس لهم والمفتون مهمل لا يحس به أحد وهو صاحب الحق، وفتنة الغربة في البيئة والاستيحاش بالعقيدة، وفتنة وجود دول كافرة يجد فيها الفرد من الرعاية ما لا يجده في غيرها وهي غنية قوية مع مشاقتها لله، وفتنة النفس والشهوة والرغبة في المتاع والسلطان وصعوبة الاستقامة على الصراط المستقيم وفتنة إبطاء النصر واشتداد الابتلاء ثم قال: (والنفس تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات فلا يبقى صامداً إلا أصلبها عوداً وأقواها طبيعة وأشدها اتصالاً بالله وثقة فيما عنده من الحسنيين النصر أو الأجر وهؤلاء هم الذين يسلمون الراية في النهاية مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار)[١].

وقال ـ وهو يتحدث عن أصحاب الأخدود وفتنتهم ـ : (إن الناس جميعاً يموتون وتختلف الأسباب، ولكن الناس جميعاً لا ينتصرون هذا الانتصار ولا يرتفعون هذا الارتفاع، ولا يتحررون هذا التحرر ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق. إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده لتشارك الناس في الموت وتنفرد دون الناس في المجد.. المجد في الملأ الأعلى وفي دنيا الناس أيضاً إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال...)[٢].

إن القارىء ليدرك من تعبير سيد قطب أنه يكتب عن واقع يعيشه وإن كانت نماذج قدوة السائرين التي يتحدث عنها قد سبقته بأزمان، وإنك لو قرأت لكاتب آخر ممن يتحدثون عن نفس هذه المعاني التي يتحدث عنها سيد لوجدت الفرق بعيداً بعداً عظيماً بين كاتب يكتب واقعاً يعيشه وآخر يكتب ما قرأه في الكتب أو سمع عنه الأخبار المتناقلة بين الناس.

سيد قطب كان يكتب، وهو حي يرزق، ولكن أساليبه تشعر بأنها صورة رثاء لنفسه ، ليس رثاء المتحسر على ملاقاة القتل بعد التعذيب ولا النادم على فراق هذه الحياة، ولكنه رثاء الفرح المسرور الذي إذا فارق الحياة بسبب دعوته

(١) في ظلال القرآن (٢٠ ـ ٢٧٢٠)، وراجع كذلك (٢ ـ ١٤٥).
(٢) معالم في الطريق ص ١٧١.

أثرت كلماته في نفوس الناس فاهتدوا بها وعاشت بينهم حية إلى أن تقوم الساعة اقرأ هذه القطعة وتأمل كل كلمة منها تجدها ناطقة بتلك العاطفة المسرورة بلقاء الله الذي يكون سبباً في هداية الناس بجهاده وكلماته، قال: (إنه ليست كل كلمة تبلغ إلى قلوب الآخرين فتحركها وتجمعها وتدفعها، إنها الكلمات التي تقطر دماً لأنها تقتات قلب إنسان حي. كل كلمة عاشت قد اقتاتت قلب إنسان إن الكلمات التي ولدت في الأفواه وقذفت بها الألسنة ولم تتصل بذلك النبع الإلهي الحي فقد ولدت ميتة ولم تدفع بالبشرية شبراً واحداً إلى الأمام، وإن أحداً لن يتبناها لأنها ولدت ميتة. والناس لا يتبنون الأموات. إن أصحاب الأقلام يستطيعون أن يصنعوا شيئاً كثيراً ولكن بشرط واحد أن يموتوا هم لتعيش أفكارهم، أن يطعموا أفكارهم من لحومهم ودمائهم وأن يقولوا ما يعتقدون أنه حق ويقدموا دماءهم فداء لكلمة الحق.

إن أفكارنا وكلماتنا تظل جثثاً هامدة حتى إذا متنا في سبيلها أو غذيناها بالدماء انتفضت حية وعاشت بين الأحياء)[١]. والذي يظهر أن سيد قطب كتب هذا قبل الدخول في الفتنة مباشرة لأن بعض مقالات هذا الكتاب كتبت فيما يبدو عام ١٩٥٢[٢] أي قبل اعتقاله بسنتين، ولكن الرجل كان يشعر بأن وقت الامتحان قد أزف لأنه كان قد انخرط في سلك الدعوة وأخذ في فضح مبادىء أعداء الله ومؤامراتهم مع المستعمرين، وهو يعلم أن عاقبة الوقوف ضد طغاة العروش هو الابتلاء والامتحان. وهذا ما حصل لا سيما بعد أن قتل الإمام حسن البنا رحمه الله، وقال سيد قطب كلمته المشهورة في ولاة الأمور الذين أهدروا دمه وتآمروا عليه: (إن أكبر الرؤوس في ذلك العهد الآثم رؤوس ولاة الأمور كما يعبر عنهم ممثل الاتهام في احتقار، إن أكبر الرؤوس يوم ذلك مجتمعة لا تصلح أن تكون موطئاً لقدم ذلك الشهيد الكريم...)[٣].

(١) دراسات إسلامية ص ١٣٨. وانظر كتاب: رائد الفكر الإسلامي المعاصر الشهيد سيد قطب يوسف العظم ص ٦٧.
(٢) راجع ص ١٤٧ من كتاب دراسات إسلامية (أدب الانحلال).
(٣) دراسات إسلامية ص ٢٣٢.

وهذه الكلمات يصعب سماعها على طغاة الحكم، وإن كانوا ليسوا المعنيين مباشرة، لأن البنا قتل في العهد الملكي، ولكنهم ـ أي طغاة الحكم في الوقت الذي كتب سيد قطب هذه العبارة ـ يشعرون أنها تعني أي ولاة أمر في أي وقت ما داموا يسيرون في نفس طريق ولاة الأمر السابقين والطيور على أشباهها تقع.

وجاء الوقت الذي زاد فيه غيظ أعداء هذا الدين وحملته فاقتادوا داعية الإسلام ورائد الفكر الإسلامي الذي لم تجد الإغراءات في شراء قلمه أو إسكاته عن فضح كفر الكافرين وفسوق الفاسقين وعصيان العاصين ووضع في حجرات الاعتقال ونوعوا تعذيبه، وحكم عليه قضاة الظلم بالسجن لمدة خمسة عشرة سنة مع الأشغال الشاقة وهذه خلاصة لسجن سيد قطب وتعذيبه وصبره: قال يوسف العظم: (وهنا سيق الرجل العالم والمفكر الإسلامي الصابر إلى حجرات التعذيب وسراديب الجريمة، وزج به في زنازين السجون: (القلعة) و(السجن الحربي) و(أبي زعبل) و(ليمان طرة)، ولكنه ظل صابراً محتسباً لا يخضع لظالم ولا يلين لطاغية مما أثار دهشة الجلادين وأوغر صدورهم عليه بالحقد والكراهية. وفي اليوم الثالث من شهر أيار سنة ١٩٥٥ نقل إلى المستشفى العسكري للمعالجة مما أصابه من آثار التعذيب والأمراض المختلفة التي خلفها سجنه الرهيب في جسده الطاهر: مرضاً صدرياً وأزمة قلبية و(روماتزم) في معظم أعضاء جسمه المعذب المكدود وفي الثالث عشر من تموز سنة ١٩٥٥ حكمت محكمة الشعب، أو قل: (مهزلة الشعب) على الرجل المبتلى والعالم الرباني بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً مع الأشغال الشاقة وكان الحكم غيابياً لعدم استطاعته حضور الجلسة من جراء ما أصابه من أعياء ومرض وتعذيب... ثم قال: (وفي السجون كان العالم الممتحن يقسم وقته حين يخف عنه التعذيب ويرتفع البلاء بين تنظيم صلته بالجماعة التي آمن بأهدافها وعمل على تحقيقها والتأليف أو تنقيح ما كتب من قبل مما يحتاج إلى تنقيح وتوضيح حين يلين الموقف بعض الشيء وتخف وطأة العذاب على أيدي جلادي الكرامة والحرية. وبعد مضي عشر سنوات من سجنه أفرجت عنه السلطات المصرية سنة

١٩٦٤...)[1] ولم تمض على الإفراج عن سيد إلا سنة خاف أعداء الإسلام خلالها أن تظهر لسيد قطب معالم أخرى من معالم الطريق التي كتبها موضحاً فيها قواعد العمل الإسلامي لتحطيم الكفر وإزالة عروش الظلم في كل مكان فلم يمهلوه حتى يفعل وأمروا عبيدهم البررة الذين كانوا وكلاء عنهم في إنزال الظلم بالشعب والقضاء على مفكريه ورواد تحريره أمروهم أن يسرعوا بإزالة هذا الخطر بقتل سيد قطب فأعادوه إلى السجن، بحجة أنه كان يعد لانقلاب مسلح.. وهي حجة كل الفراعنة على أولياء الله من دعاة الإسلام، كما قال فرعون الأول عن موسى وهارون: ﴿قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾[2].

وفي محاكم الكفر والظلم كان سيد قطب يقف مثل الجبل الأشم مستعلياً بإيمانه، وكانوا لشدة خوفهم من قوة بيانه وكثرة حججه ومن كونه على الحق وهم على الباطل لا يسمحون له أن يتكلم بل إذا سألوه وأراد أن يجيب قاطعه أعداء الله. ولذلك وقف مرة وأجابهم بالفعل لا بالقول وكان جواباً أقسى على قضاة الظلم وحكامه من لاذع القول. قال يوسف العظم: (وحين أصر قضاة المحكمة المهزلة التي حاكمته في القاهرة على أن يقول الحقيقة كما يريدونها هم أقدم على تمزيق قميصه بجرأة في قاعة المحكمة وكشف عن آثار السياط والكي بالنار وموضع أسنان الكلاب البوليسية المتوحشة في ظهره وأدار ظهره للجمهور والقضاة معاً ليقول لهم بسخرية وتهكم: (تريدون الحقيقة هذه هي الحقيقة إن كنتم تبحثون عنها يا طغاة)[3]) واستمر أعداء الإسلام في تعذيب الداعية الكبير وهو صابر محتسب يرجو لقاء الله وهو مستقيم على صراطه.

ولما كان أعداء الدعوة والدعاة لا يقصدون من إيذاء الصالحين وقتلهم إلا إخضاع الناس لأنفسهم واتخاذهم آلهة من دون الله فقد قرروا قتله بعد محاكمة ظالمة، ثم أوعزوا إلى بعض المقربين إلى سيد قطب ليطلبوا منه أن يكتب اعتذاراً

---

(١) رائد الفكر الإسلامي المعاصر الشهيد سيد قطب ص ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) طه: ٦٣.

(٣) رائد الفكر الإسلامي المعاصر الشهيد سيد قطب ص ٤٦، وراجع مجلة المجتمع الكويتية عدد (٥٢٦) ٢٣ جمادي الأخرة ١٤٠١ هـ ـ ص ٢٣.

فيه مجاملة للطاغوت فقال لهم في عزة المؤمن واستعلائه: (إن السبابة التي أشهد بها في كل صلاة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لا يمكن أن تكتب سطراً فيه ذل أو عبارة استخذاء.. فإن كنت مسجوناً بحق فأنا أرضى حكم الحق، وإن كنت مسجوناً بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل)[١] فلما يئس أعداء الله من أن يخضع لهم من أعزه الله بعبادته وحده لا بترغيب ولا بترهيب ساقوه إلى لقاء ربه وهو راض مطمئن مسرور بالشهادة في سبيل الله على يد أعداء الله، وفارق هذه الحياة الفانية المحدودة إلى الحياة الباقية الواسعة مستبشراً برفيق الدرب من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وإن وجود هذا النموذج من نماذج قدوة السائرين بهذا الفقه في الدين والمعرفة لواقع العصر ومبادىء الأمم وأفكارها ومساوىء تلك المبادىء والأفكار والقدرة على كشفها وبيان زيفها والتصدي لها بالحجج المقنعة والبراهين الواضحة والوقوف في وجه الطغاة والصبر على أذاهم وتقديم نفسه في سبيل إعلاء كلمة ربه حتى لقيه، إن وجود هذا النموذج في هذا العصر الذي قل فيه أمثاله يبشر بخير ويدل أن دعاة الحق الصابرين الذين يطلبون الموت في سبيل الله لإقامة دينه في الأرض لا تخلو منهم هذه الأرض وأن دين الله لا بد أن ترتفع رايته مرة أخرى كما ارتفعت من قبل[٢].

المثال السابع
أبو الأعلى المودودي

ومن نماذج قدوة السائرين عملاق الفكر الإسلامي العظيم أبو الأعلى بن السيد أحمد حسن المودودي رحمه الله، هذا الرجل الذي مر في حياته بمراحل كانت آخرها القيادة الربانية الواعية المجاهدة الصابرة المربية لأمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتجاهد لإعلاء كلمة الله.

---

(١) نفس المرجع ص ٤٦.

(٢) كان استشهاده في ٢٩ آب أغسطس عام ١٩٦٦ وإذا شاء القارىء الاطلاع على نموذج آخر من تلاميذ هذه الدعوة فليراجع كتاب: أيام من حياتي لزينب الغزالي.

وقد جرت سنة الله في الكون أن يهيىء لبعض أفراد البشر من عباده أسباباً تدفعهم دفعاً إلى أن يكونوا قادة للمسلمين مجددين الدعوة إلى الله، وقد لا تكون بعض تلك الأسباب ذا بال في ظاهر الأمر ولكن حكمة الله تظهره في مكانه فيما بعد.

فقد هيأ الله لأبي الأعلى أباً صالحاً رباه تربية حسنة في صغره ذكرها هو في كبره، فقال: (وكان يلقي عليّ في الليالي حكايات الأنبياء وأحداث تاريخ الإسلام والوقائع الشهيرة من تاريخ الهند والحكايات التي كانت تتضمن دروساً وعبراً لا أزال أشعر بفائدة تلك التربية حتى اليوم..)[١].

وهيأ الله له ـ محنة الفقر ووفاة والده، وهو صغير، فأخذ يكابد الحياة وحيداً، عانى بسبب ذلك مصاعب جمة، كانت سبباً في تقشفه وتجلده وانخرط في مهنة الصحافة والسياسة واشترك في بعض الجمعيات واختلط بمفكريها وأصبح له شأنه ولم يزل عمره في السابعة عشرة حيث أسندت إليه جمعية العلماء بالهند ـ وهي جميعة موالية لزعيم الحركة الهندية: غاندي ـ أسندت إليه رئاسة تحرير جريدة المسلم وكذلك أسندت إليه رئاسة تحرير جريدة أخرى اسمها الجمعية وكان جاداً في الاطلاع والمعرفة في كل علم تعلماً وقراءة... ثم أخذ يفكر في ولاء علماء المسلمين الذين انخرط في سلكهم للهندوس، ودفعه تفكيره إلى البحث والتنقيب والمقارنة فكانت النتيجة التي توصل إليها هي أن المسلمين ليسوا عبارة عن قومية حتى ينخرطوا مع الهندوك في شعب واحد يسمى الشعب الهندي ينالون بذلك بعض الحقوق الدستورية، لأن الهندوك أغلبية وستكون هذه الأغلبية هي القوة التي تتحكم في مصالح المسلمين. وإنما المسلمون أمة عقائدية غايتها التي أخرجت لأجلها الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطعن بعض الهندوك في رسول الله ﷺ وفي دين الإسلام ولا سيما الجهاد وانتشر ذلك الطعن الذي جعل بعض العلماء يتمنون أن يقوم أحد من المسلمين بالرد عليه فانبرى لذلك المودودي وألف كتاب الجهاد في الإسلام الذي حطم

---

(١) الإمام أبو الأعلى المودودي: حياته ـ دعوته ـ جهاده، لخليل الحامدي ص ٦ طبع المكتبة العلية ـ لاهور.

تلك المزاعم وغرس في نفوس المسلمين المعاني الشرعية وألهب حماسهم لدينهم وكان سبباً لزيادة فقه المودودي في دين الله، كما كان سبباً في اشتهاره وإقبال الناس عليه[١].

قال المودودي عن اغتباطه بكتاب الجهاد: (وإن كتاب الجهاد في الإسلام) نفعني أكثر من أي شخص آخر، دخلت في تأليفه، وكنت على حمية القومية، وخرجت منه، وأنا على حمية الإسلام، عرفت الإسلام وعرفت طريقة إحيائه، وقررت ألا أدخل عالم الصحافة في المستقبل إلا لأن أجعلها وسيلة لخدمة الإسلام وإحيائه)[٢].

ثم عكف المجاهد ـ بعد رحلته في كتاب الجهاد في الإسلام ـ على القراءة والمطالعة معداً نفسه لمهمة الدعوة إلى الله فكان كما وصف نفسه: (أفرغت من عام **١٩٢٩** إلى عام **١٩٣٢** العديد من خزانات الكتب والمراجع في ذهني استعداداً للمهمة الجديدة، مهمة الدعوة إلى الإسلام في عصر مليء بالأفكار والتيارات عصر يفرض على الداعية أن يتزود بزاد علمي شامل، وإن يحظى بعصا من البرهان يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه ويحقق بها مآرب أخرى)[٣].

وهذا سر من أسرار نجاح المودودي في دعوته وقيادته، لأن القائد الذي تكون معلوماته محصورة محدودة ضيقة يمل أتباعه مما يردده لهم ويتطلعون إلى المزيد فلا يجدونه عنده فيلتفتون إلى غيره ويدعونه أو يتجمدون في أماكنهم، وتواجههم المشكلات الشرعية والعلمية والعصرية فلا يجدون لها عنده حلاً. والجماعات دائماً لا ترتقي إلا إذا كان سلم القيادة أطول من خطواتها أما إذا انقطعت بها درجات السلم فإنها تقف على آخر درجة حتى تتعب ثم تعود هابطة إلى الأرض فليفهم دعاة الحق هذا المعنى الذي قد يكون من أهم أسباب ضعف تربيتهم وتأثيرهم في أتباعهم.

---

(١) نفس الكتاب من ص ٨ ـ ١٧، ٢٥ والكتاب عند الباحث، ولكنه باللغة الأردية يقع في ٦٠٠ صفحة، ولم يتمكن من الاستفادة منه لتأخر الحصول عليه ولكونه بغير لغته.

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٨.

(٣) نفس المرجع ص ١٨.

وشمر المودودي عن ساعد الجد وأقام بنفسه مؤسسة كاملة لمجلة دعوته ترجمان القرآن التي لم يكن معه أحد يساعده في أي عمل من أعمالها بل (كان وحده يكتب الافتتاحيات والمقالات والمساجلات والردود والأسئلة الواردة، وهو الذي كان يذهب إلى المطابع لطبعها ويراجع ويصحح الأخطاء ويربط الطرود، ويلصق الطوابع على الطرود، وهو وحده كان يحمل الطرود إلى البريد، وهو وحده كان يسجل العناوين ويراسل المشتركين، وكانت الدعوة في مرحلتها البدائية عبارة عن كائنين: المودودي والمجلة) ويقول المودودي: (إنه كان يصلي صلاة العشاء ويجلس للمطالعة والكتابة إلى أن يصلي صلاة الفجر في مسجد الحي ثم ينام سويعات ليعود إليه النشاط ويعود هو إلى عمله في المكتب)[1].

وقد جرت العادة أن يساوم الحكام من بدأ يشتهر من دعاة الإسلام بالمال والمنصب والجاه لتكون لهم يد عنده يشعر بعدها بحاجته إلى رد الجميل إليهم وقد لا يرضون أي جميل منه ما لم يكن تنازلاً عن حق، وكان المودودي فقيراً فظن بعض الحكام أنه قادر على اصطياده فعرض عليه تعيينه أستاذاً في الكلية العثمانية براتب عظيم فقال المودودي: (لاتباع الدعوة ولا يساوم على الإسلام) ونصحه بعض إخوانه بالعمل لجمع المال لينفق على الدعوة، لأن الناس يظنون الظنون بدعوة رجل جيبه فارغ مهما بذل من جهد وإخلاص فأجابه المودودي بقوله: (لقد اضطربت الظروف في بلدي وأحاطت بشعبي الأخطار الجسيمة كأني أرى رأي العين سيلاً زاحفاً نحو شعبي أكثر تدميراً وأشد خطراً من ذلك السيل الذي أصيب به المسلمون في القرن الماضي عام ١٨٥٧ م حينما كان الاستعمار الإنجليزي يأتي على كل شيء من الدين والحرية فيتركه هشيماً تذروه الرياح ومن مسؤوليتي أن أنبه المسلمين على هذا الخطر الداهم قبل أوانه وسوف أبذل لذلك ما أملك من النفس والمهجة، ولا أحب أن أضيع من لحظاتي ولو دقيقة واحدة واستيقن كل الاستيقان بأن الله عز وجل لا يضيعني ولا يخيب أملي إذا خلصت نيتي وصدقت عزيمتي وأفوض أمري إلى الله والله رؤوف بالعباد)[2].

(١) نفس المرجع ص ١٩ ـ ٢٠.
(٢) نفس المرجع ص ٢١ ـ ٢٣.

وحدد الداعية المربي المجاهد لكتاباته وبحوثه هدفين عامين:

الهدف الأول: شرح نظام الحياة في الإسلام من جميع جوانبه وجزئياته منطلقاً من العبودية المطلقة لله وحده.

والهدف الثاني سبر كل النظم الجاهلية التي وضعها أعداء الإسلام من الكفرة وشرح عيوبها ومضارها، وانتقاد من انحرف عن صراط الله من أدعياء الإسلام سواء أكان من الجامدين المقلدين أو من مدعي الاجتهاد المطلق أو دعاة التحرر الكاذب الذين أرادوا الانفلات من دائرة دين الإسلام، كما انتقد من أنكروا السنة أو تساهلوا فيها.

وكانت بحوثه وكتبه علمية عقلية مبنية على الاستدلال وموضوعة لتحقيق أهداف مرسومة وليست مجرد موضوعات تكتب وتطبع وتنشر للتسلية أو جمع المال أو الشهرة، وإنما كانت كل رسالة أو كتاب تهدي الضال وتزيل الشبه وتبني الجيل على مبادىء الإسلام. وقد قال عنها المودودي نفسه: (لم أقصد إصدار بحوث علمية في المواضيع الإسلامية فقط، بل استهدفت من ذلك أن يؤمن الإنسان العصري بالإسلام بالشعور والقناعة لا بالقشور والعاطفة ثم يندفع تلقائياً إلى إقامته وتغليبه ويستميت في سبيل تنكيس كلمة الباطل ورفع كلمة الحق وفي سبيل استئصال إمامة الكفر ونصب إمامة الإسلام)[١].

وكافح المودودي حتى آتى كفاحه وجهاده الثمار التي كان يستهدفها وأخذ الناس في تأييده بمقابلاتهم له وبرسائلهم الشخصية ووعدوه أنهم معه وعلى طاعته في المنشط والمكره إذا قرر قراراً لانتهاج سبيل مرسومة للدعوة والجهاد، فلم تغلبه العاطفة ليدعو الناس إلى الالتفاف حوله بدون أن يوضح لهم مخاطر الطريق ونوعية السائرين بل نبههم على صعوبة الطريق وصفات السالكين، وحذر ذوي العواطف الآنية أو أهل الأهواء والميول المتقلبة من أن يلقوا بأنفسهم في لجج بحار لا يقدر على السباحة فيها إلا المهرة الصابرون، قال: (إن الشريعة الربانية لم تنزل للأقزام الخائفين ولا لعبدة الأهواء وهواة الدنيا ولا للذين مَثَلُهم

---

(١) نفس المرجع ص ٢٤ ـ ٢٥.

كَمَثَلِ الريشة في مهب الرياح أو كالغثـاء الجاري مع تيار الماء ولا للحربائيين الذين يتلونون بكل لون من ألوان الظروف، وإنما أنزلت لأولئك الليوث الأبطال الذين يملكون بشجاعتهم تغيير مهب الرياح وتحويل مجرى الحياة إلى ما يريدون ويحبون صبغة الله على سائر الأصباغ والألوان وقد عزموا على أن يصبغوا بها جميع العالم ومن هو على هذا النمط فلي معه همسات وأشواق وأما من سواه فأنا منه على عذر)[١].

وهاجر المودودي إلى بنجاب التي نصحه بالهجرة إليها محمد إقبال لأنها مهد جميع الحركات والدعوات، وأخذ يجول في المدن والقرى يلقي محاضراته في المجتمعات وفي كلية حماية الإسلام بلاهور وغيرها من الجامعات ويواصل نشر أفكاره في مجلته ورسائله[٢].

وتحمست طائفة ممن يريدون تغيير مهب الرياح وتحويل مجرى الحياة ـ كما قال المودودي ـ واجتمعوا به لتدارس إنشاء جماعة تنهض بتلك الدعوة التي كرس الرجل وقته كله لنشرها وإقناع الناس بها واتفقوا معه على قيام هذه الجماعة ووضعوا قانونها الأساسي الذي تضمن أهدافها وعقيدتها ونشأت الجمـاعة بخمسة وسبعين عضواً وبمال قدره سبعون روبية وأربع عشرة آنة[٣].

وضع المودودي لدعوته ثلاث قواعد تقوم عليها:

القاعدة الأولى:

أن يكون الأعضاء أقوياء في عقيدتهم وسلوكهم الفردي وقال في ذلك: (مما تدل عليه مشاهداتي أن الشيء الذي ضرب في النهاية الحركات والدعوات هو انضمام رجال إليها غير مستقيمي السيرة) إلى أن قال: (إنه ليس من المهم أن نكثر من رجال الدعوة، وإنما المهم أن نستجمع أفراداً يصيرون مضرب المثل

(١) نفس المرجع ص ٢٧.
(٢) راجع نفس المرجع السابق ص ٢٨ ـ ٣١.
(٣) راجع نفس الكتاب ص ٣٢ ـ ٣٧ وكان تأسيس الجماعة عام ١٩٤١ م.

في طهارة الذيل ونظافة التصرف ونسلمهم ما نشاء من الأمانات ثم نطمئن بأننا أدينا الأمانة إلى أهلها)[١].

القاعدة الثانية:

أن يكون النظام محكماً قوياً، كما قال: (من أسباب انهيار الدعوات أيضاً تخلخل نظامها، فقررنا أن يكون نظام دعوتنا في غاية الشدة. ولا نتحمل ولا شيئاً يسيراً من الضعف والتخلخل، نقبل أن ينفصل عنا أعز عزيز لدينا ولا نقبل أن يدخل إلى نظامنا ولو أبسط جانب من الاسترخاء، إن فئة قليلة في عددها قوية في نظامها مرصوصة في صفها، تغلب الحشد الهائل من غثاء السيل...)[٢].

القاعدة الثالثة:

صهر العنصرين المتنافرين في بوتقة الدعوة الإسلامية ـ هذان العنصران هما العلماء بالثقافة الإسلامية القديمة والمثقفون ثقافة عصرية ـ ليتعاونوا جميعاً في إقامة النظام الإسلامي، وفي ذلك قضاء على دعوة فصل الدين عن الدولة وإيجاد حاجز بين علماء الإسلام الذين يسمون برجال الدين والمثقفين ثقافة عصرية ممن يديرون دفة حياة الشعوب ويحكمونها بالقوانين الوضعية: (وذلك أن المثقفين بالثقافة العصرية مهما يكونوا على إخلاص وصدق للإسلام ما داموا هم لا يلمون بالإسلام لا يقدرون وحدهم على إقامة النظام الإسلامي، وكذلك العلماء والمشايخ، وإن كانوا مضطلعين بالعلوم الإسلامية، ولكنهم كذلك وحدهم لا يتمكنون من تسيير دفة دولة إسلامية تكون في مواجهة التحديات المعاصرة، فلا بد من انصهار النوعين من الثقافة في بوتقة الحركة لتجعل الحركة منها مزيجاً ثقافياً جديداً يستعمل في بناء الصرح الحضاري المتكامل القائم على دين الله القويم)[٣].

---

(١) نفس المرجع ص ٤٢.
(٢) نفس المرجع ص ٤٣.
(٣) نفس المرجع ص ٤٤.

وأجمل أسلوب دعوته في خمسة أمور:

الأمر الأول:

أن يبذر كل داعية دعوته في دائرته ثم يتعاهدها بطريقة متصلة منظمة حتى ينتهي إلى نتيجة معلومة، مثل الفلاح الذي يختار قطعة الأرض الصالحة للزراعة فيلقي فيها بذوره ويتعهدها بالسقي والتنقية حتى يحصد ثمرتها، ومعنى هذا المحافظة على ما بذل من جهد والترقي بالمدعوين في سلم الدعوة[1].

الأمر الثاني:

أن يكون الداعية مثل الطبيب في معرفة الداء واختيار الدواء المناسب فلا يجعل الناس كلهم مصابين بمرض واحد، يعطيهم دواء واحداً كمية ونوعاً، بل عليه أن يعلم جوانب النقص في الأفراد ثم يقدم الأسلوب المناسب لتكميل كل واحد منهم ـ وكذا الجماعات ـ ، كما إن عليه أن يحارب المرض وليس المريض، كذلك الداعية يحارب الصفات السيئة التي يتصف بها المدعو مع إشعاره بالحب والمواساة والإيثار.

الأمر الثالث:

اتباع أسلوب الانتشار في كل طبقات الشعب بالدعوة العامة حيث تشمل الجميع وتدخل كل بيت، ثم تصنيف الناس إلى قطاعات مختلفة يوضع لكل قطاع من يناسبه من رجال الدعوة أو نسائها وكل عامل في مجاله يضع في ذهنه أن يحدث في أفراد الأمة جميعها من العامة إلى الخاصة الفكرة الإسلامية الصحيحة والمسيرة الإسلامية الرشيدة والحياة العملية الخالصة التي ينبغي أن يكون عليها كل مؤمن بالله ورسوله مع العناية بمساعدة المدعوين وحل مشكلاتهم قدر المستطاع.

---

(١) راجع، نفس المرجع ص ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨ ـ ٤٩.

وفي القطاعات التي عنيت بها الدعوة: قطاع الطلبة والشباب وقطاع التعليم والتربية، وقطاع العمال، وقطاع الفلاحين، وقطاع رجال القانون والمحاماة، وقطاع جمعية الطالبات المسلمات، وقطاع مجتمع المعارف الإسلامية، مع مجالات أخرى مثل مجال المهندسين والأطباء وموظفي الحكومة والعلماء والمعاهد الدينية[١]. . .

الأمر الرابع:

البدء بالأهم فالأهم من المدعوين، بحيث يبدأ بمن نفعه أكثر من نفع غيره ما دام مستعداً للاستجابة للدعوة، كالمثقفين وكذلك من المبادىء الإسلامية، والمصدر الرئيسي الذي يقتضي العناية التامة قبل غيره عند المودودي هو الحكم بما أنزل الله، والحكم بما أنزل الله كما يفهم المودودي وهو فهم صحيح ـ لب الدعوة الإسلامية وأصل صلاح البشرية، كما إن الحكم بغير ما أنزل الله مبعث كل فساد في الأرض ومنه تنفجر ينابيع الشر والطغيان، فهو يقصد من ذلك أن يرضي الناس بتشريع غيره سبحانه والتشريع يشمل وضع منهج للعقيدة والسلوك والقضاء وجميع الأنظمة، فالوثنية والنصرانية واليهودية وجميع الأنظمة الأرضية هي حكم بغير ما أنزل الله نابع من الرضا بتشريع المخلوقين[٢] وقد أراد بعض الحكام أن يثني المودودي عن الدخول في النواحي السياسية بأسلوب شيطاني ماكر فقال له: (أيها الشيخ الفاضل أقترح عليك التفرغ للدعوة والتبليغ دون التورط في إدخال السياسة وتدنيس الأذيال فيها لعل بذلك تكون أكثر نفعاً لقومك ووطنك) فرد عليه ـ قائلاً ـ: (كما تفضلت يا سيادة الرئيس إن السياسة أصبحت أوحالاً فدخلتها لأطهرها من الأوساخ وأجعلها نظيفة سديدة لا تدنس الأذيال بل تعود رحمة على الوطن وأهله)[٣].

الأمر الخامس:

أن يكون الداعية قدوة حسنة لمن يدعوهم، فالقدوة قبل الكلمة، وقد قال

---

(١) راجع نفس المرجع ص: ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩.

(٢) يراجع الجهاد في سبيل الله ٢٣.

(٣) الإمام المودودي، حياته ـ دعوته ـ جهاده ص ٥٠ ـ ٥٢.

في هذا المعنى: (لا تنقص الأمة الإسلامية كلمات عن الإسلام متلألئة، وأحاديث في الخلق ممتعة، وبحوث عن حكمة الدين تضحك على اللؤلؤ والمرجان وحكايات عن أبطال الإسلام تأخذ باللب والجنان، وإنما تنقصها النماذج الحية للمثل العليا، ينقصها رجال جسدوا في حياتهم تلك الكلمات وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وتنقصها جماعات تصدق أعمالها دعاويها فلا ينطبق عليها قول الله عز وجل: ﴿لِمَ تقولون ما لا تفعلون﴾[1]) وقال: (وإنما الطريق الحقيقي المجدي للدعوة أن تكونوا مظاهر مجسدة ونماذج حية للدعوة فحيثما يقع عليكم نظر الناس فليعرفوا من سمو سيرتكم وطهارة أخلاقكم أن هؤلاء هم السالكون لسبيل الله. . .)[2].

وأخذ المودودي يواصل جهاده في جميع ميادين الجهاد: يربي المسلمين عامة وأعضاء الجماعة خاصة على قوة الصلة بالله والبذل والتضحية في سبيل هذا الدين وتبصيرهم بنظم الإسلام ومزاياها وكشف النظم الأخرى وبيان ضررها وخطرها، ودخل المعترك السياسي منذراً بالخطر الذي سيحيط بالشعب الباكستاني من انحراف قادته الذين ظهرت منهم بوادر تدل على أنهم يبيتون نية ضد الحكم بالإسلام في هذا الشعب الذي لم يقم إلا على أساس الرغبة في تمتعه بالإسلام الحنيف، وقال المودودي: (إن قادة الشعب الباكستاني أصبحوا يبدون الأراء المتضاربة حول منهج الدولة في المستقبل، مع أن الأمر كان مقرراً أن يكون الإسلام هو منهج دولة باكستان ولكن الذي سمعناه منذ شهور يوضح لنا أن أزمَّة الأمور في شعب ينقصه الوعي الإسلامي الصحيح تحولت إلى طبقة لا تقيم للإسلام وزنا، وواجبنا اليوم أن نتدارك الأمر قبل فوات الأوان، لأن هؤلاء القوم لو تمكنوا من وضع قواعد الدولة الباكستانية الناشئة على نظريات منحرفة، ولا قدر الله، يستحيل تغييرها بعد ذلك إلا بالتضحيات التي تكون أكبر حجماً ألف مرة بالنسبة للوضع الحالي. .)[3].

---

(١) الإمام المودودي حياته دعوته ـ جهاده ص ٥٠ ـ ٥٢ والآية من سورة الصف: ٢.
(٢) تذكرة دعاة الإسلام ٣٣.
(٣) الإمام المودودي لخليل الحامدي ص ٥٤.

ولم يقف المودودي عند التحذير من هؤلاء القادة والدعوة العامة إلى تدارك الأمر قبل فوات الأوان، بل قام بوضع قواعد الدولة الإسلامية وكتب عن القانون الإسلامي والدستور وحقوق أهل الذمة وكتب في موضوعات في أصول الإسلام وفروعه وألقى في ذلك محاضرات وضح فيها للناس ما يجب أن يقوموا به وأقام الحجج المقنعة على قدرة الإسلام الفائقة على إدارة شؤون الحياة وتوجيهها الوجهة التي تحقق للبشر السعادة في الدنيا والآخرة ووضع للدولة أهدافاً رئيسية وألح على إصدارها وإقرارها، وهي:

١ - إن الحاكمية في باكستان لله وحده، وإن الحكومة الباكستانية ليس لها إلا تنفيذ مرضاة الله.

٢ - إن الشريعة الإسلامية هي القانون الأساسي للدولة.

٣ - تلغى جميع القوانين الرائجة المخالفة للشريعة الإسلامية ولا يوضع في المستقبل قانون ينافي الشريعة.

٤ - إن حكومة باكستان تمارس سلطاتها ضمن حدود حددتها الشريعة الإسلامية.

وأيد الشعب هذه القواعد. ولكن أعداء الإسلام أخذوا يختلقون التهم والدسائس للإمام المجاهد. فاعتقلوه[١] وهو في حلقة الدرس وكان مريضاً، وطلب منه بعض أصدقائه في رسالة من خارج السجن أن يطلب من المسؤولين تسهيلات للعلاج، فأجابه قائلاً: (إن طلب التسهيلات من الظالم أمر ينافي المبادىء التي أؤمن بها، أموت ولا أطلب التسهيلات) وحكم عليه الأعداء بالأشغال الشاقة التي يعدونها إهانة وإنزال ضرر بالمجاهد، ولكنه هو عدها فروسية يستعين بها إذا خرج من سجنه لمزاولة الدعوة والجهاد، فكتب رسالة إلى ابنه قال فيها: (إنه يزاول العديد من الأعمال الشاقة في السجن، لعلها تقوي صحته فيضاعف نشاطه في سبيل الإسلام إذا قدر الله له الخروج من السجن) واستمر مع الأعمال الشاقة في الكتابة والقراءة والبحث، وكان على اتصال سري بالجمعية التأسيسية فيما يتعلق بالدستور[٢].

---

(١) سنة ١٩٤١ م.

(٢) راجع نفس الكتاب ص ٥٤ - ٥٧.

وبعد عشرين شهراً من اعتقاله أفرج عنه فانطلق يجوب البلاد شرقاً وغرباً يوضح مهمته ويدعو إلى تأييدها ويزيل الشبهات التي يثيرها المشككون[١].

واتخذ المودودي في جهاده لإقامة الدولة على مبادىء الإسلام مسلكين المسلك الأول الاتصال بجميع طبقات الشعب من علماء ومحامين ومثقفين وغيرهم لشرح ما يجب أن تقوم عليه هذه الدولة.

والمسلك الثاني التصدي للتيار المضاد الذي كان يستند إلى الحكومة التي لم تكن تجرؤ هي أن تعلن رفضها للإسلام، ونجح المودودي في جمع كلمة العلماء والمشايخ وكثير من المحامين والمثقفين على المبادىء الإسلامية التي نادى بها، كما نجح في التصدي لمعارضي تلك المبادىء بالحجة والبرهان، فقد أعلن أحد المحامين في تحد سافر قائلاً: (إن الذي يبين لي أن هناك دستوراً إسلامياً في القرآن أجازيه بخمسة آلاف روبية) وأدخل هذا الإعلان السرور على رجال الحكومة كما أدخل قول السحرة الذين أرادوا الوقوف ضد موسى وعصاه السرور على فرعون ﴿وجاء السَّحرةُ فرعونَ قالوا إنَّ لَنَا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين * قال نعم وإنَّكم لَمِنَ المقرَّبين﴾[٢].

ولكن المودودي ألف كتاباً أسماه: (الدستور الإسلامي في القرآن) وألقى محاضرة بعنوان: (تدوين الدستور الإسلامي) فلما اطلع على الكتاب الأول المحامي المتحدي سجد لله كما سجد سحرة فرعون وأعلن للملأ وعصا الإسلام فوق رأسه قائلاً: (إني لست عضواً في الجماعة الإسلامية ولكن أحب الإمام المودودي حباً جما وإنه قد عمل في باكستان ما لم يستطع عمله أي حزب من الأحزاب وعلى الشعب الباكستاني أن يعترف له بهذا الجميل) كما أعلن على الملأ بأن القرآن كتاب هداية في جميع نواحي الحياة وأن فيه دستوراً إسلامياً متكاملاً تقوم عليه الدولة في العصر الحديث وتبنى هو بنفسه أسس الدستور الإسلامي وقواعده[٣].

---

(١) نفس الكتاب ص ٥٧.
(٢) الأعراف: ١١٣ ـ ١١٤.
(٣) الإمام المودودي لخليل الحامدي ٥٧ ـ ٥٩.

ولم يثنِ المودودي تهديد ولا ترغيب ولا افتراء أو تشويه، بل مضى في طريقه متوكلاً على ربه شجاعاً يتصدى لجميع الطوائف المضادة للدين الحق بالمحاضرات والرسائل والتربية، وألقى أعداء الدعوة القبض عليه مرة أخرى ووقف أمام محكمة عسكرية ليسمع قراراً بقتله، وعندما سلم له الضابط ورقة القرار قال له: (يا شيخ يمكنك أن تقدم الاسترحام خلال الأسبوع)، فاحمر وجه الإمام مثل النار وأجاب بمنتهى الرزانة (لا أسترحم أحداً، لأن أحكام الموت أو الحياة لا تصدر في الأرض وإنما تصدر في السماء، إذا قررت السماء موتي فلا يستطيع أحد إنقاذي من الموت، وإذا كانت السماء لم تصدر لي الحكم بالموت لا يستطيع أحد أن يضرني قيد شعرة. . .)[1].

ثم خفف حكم الإعدام إلى السجن لمدة واحدة وعشرين سنة وأفرج عنه بعد أن قضى ما يقارب سنتين.

وكان المودودي يعلم أن هذا الابتلاء أمر طبيعي لم يفاجأ به لذلك قال عندما خرج من السجن في أحد الاحتفالات الشعبية بخروجه: (وأحب أن أقول لكم إن هذه الأحداث لم تحدث عفوياً لم نكن نحتسبها بل إني لما وضعت أول خطوة في هذا الطريق قبل اثنين وعشرين عاماً استشعرت تماماً أن هذا الطريق يمر بألوان من المحن والفتن، بل من خصائص العقيدة التي نؤمن بها أن تواجهنا تلك المحن، ويشهد التاريخ بأن الدعوة امتحنت في الماضي، وسوف تتكرر نفس السنَّة الربانية في المستقبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً)[2].

وابتليت البلاد بعد ذلك بحكم عسكري[3] فتح فيه الباب على مصراعيه لأعداء الدعوة من جميع الطوائف وأصدرت قوانين جديدة فيها حرب للإسلام ـ لا سيما في الأحوال الشخصية التي لم تمس في عهد الانجليز ـ وقام المودودي، كعادته ببيان الحق ومحاربة الباطل وإنكار المنكر ونال من المحن والفتن ما نال، ولكنه صمد صمود الجبال وأبدى شجاعة المؤمن وحكمة القائد وعقد احتفال

---

(١) نفس الكتاب ٦٣.

(٢) نفس الكتاب ٦٥.

(٣) قاد الانقلاب فيه أيوب خان.

شعبي كبير لشرح وجهة نظر الجماعة في الدستور الحكومي الذي يخالف الإسلام مخالفة صريحة وأرادت الحكومة منع هذا الاحتفال ولكنها لم تجرؤ على الإقدام على المنع فمنعت مكبرات الصوت وكان الجمع ألوفاً مؤلفة فكان الإمام يلفظ الجملة ويتلقاها القريب منه فيرفع بها صوته ثم يتلقاها الآخر وهكذا حتى تصل إلى أسماع الحاضرين كلهم وهي طريقة قديمة للتبليغ، ثم أطلق أحد المجرمين الرصاص على المودودي في هذه الحال فلم يصبه وبقي واقفاً يخطب وأنصاره يحاولون أن يجلس فلم يفعل، بل قال: (من ذا الذي يبقى واقفاً إذا جلست) وأراد المناوئون أن يشوشوا وكادت تحصل ضوضاء وفتنة عامة ولكن الرجل المتوكل الشجاع كان قائداً حكيماً فتصرف تصرفاً أخرج به المشاغبين وأعلن ذلك ثم أعطى الحاضرين درساً في الحكمة فقال: (إن الحركة الإسلامية مثلها كمثل الماء الجاري، وهو إذا وجد صخرة في طريقه لا يحطم عليها رأسه، وإنما ينعطف بطبيعته يميناً أو يساراً ليتابع جريانه ويترك الصخرة وراءه تعض أناملها بالغيظ والندم وهكذا مكره سوف يبور والله خير الماكرين)[١].

واعتقل بعد ذلك المودودي وعدد من أنصاره وقدموا للمحاكمة فبرأتهم المحكمة وأفرج عنهم[٢] واعتقل مرة أخرى[٣].

وهكذا كانت حياة هذا الإمام كلها كفاح وجهاد في العلم والعمل والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسجون والمعتقلات والأعمال الشاقة وهو صابر محتسب سائر في الطريق لا يخاف في الله لومة لائم[٤].

وهنا لا بد من التنبيه على أمرين: الأمر الأول أن هذا الإمام من النماذج القليلة التي ينبغي بأن يقتدي بها السائرون في العلم والعمل والدعوة والجهاد والصبر على البلاء، وكان الباحث راغباً في استعراض كتبه التي ترجمت إلى اللغة العربية لإبراز قدر أكبر من موضع القدوة في هذا الإمام، ولكن خشية الإطالة حالت دون ذلك وعلى من أراد أن يستبين هذا النموذج أكثر أن يعود إلى كتبه ليرى أن المودودي أكبر بكثير مما أشير إليه هنا.

---

(١) نفس الكتاب ص ٦٥ ـ ٦٩.
(٢) كان الاعتقال والافراج سنة ١٩٦٤.
(٣) سنة ١٩٦٧ وأفرج عنه.
(٤) راجع نفس الكتاب ص ٧٠.

الأمر الثاني: إن من أهم الأسباب التي يهيئها الله لنشر الدعوة الإسلامية واقبال الناس إليها والانضمام إلى أهلها ولرفع شأن الدعاة إلى الله وإلقاء محبتهم في نفوس الناس وتكثير أنصارهم من أهم تلك الأسباب التي يهيئها الله للدعوة والدعاة تلك المواقف التي يقفها أعداء الدعوة والدعاة من الدعوة والدعاة من الصد عن الدعوة وإيذاء أهلها والزج بهم في السجون وإنزال المحن بهم من تعذيب وسلب أموال، ثم من إزهاق نفوسهم في سبيل الله، لأن تلك المواقف تنبه عامة الناس إلى الحق الذي تتضمنه تلك الدعوة وإلى صدق أولئك الدعاة وثباتهم وكونهم يقدمون أنفسهم للموت ليحيا الناس بالدين حياة سعيدة وكلما زاد البلاء برجال الدعوة من سجون وتعذيب وقتل كان تأثير دعوتهم في نفوس الناس أكثر والداعية إلى الله الذي يطول مكثه في السجن يخرج إلى الناس وقد أصبح في نفوسهم أكبر وأعظم من ذوي المناصب والجاه من رجال الدولة. وكم من رجل كان عدواً للداعية إلى الله أصبح من أنصاره بعد أن شاهد استبساله في سبيل دعوته وصدقه فيما يدعو إليه.

ولو أن أعداء الإسلام وأعداء الحكم بكتاب الله وسنة رسوله يعلمون أن مواقفهم تلك تزيد الدعاة شرفاً ورفعة ومحبة وتكون سبباً لنشر دعوة الإسلام وإقبال الناس إليها، وأنهم هم يصغرون في نفوس الناس وتنكشف نياتهم ويظهر ظلمهم وتفاهتهم أمام أبطال الدعوة الإسلامية لو أن أعداء الإسلام وأعداء الحكم بكتاب الله وسنة رسوله علموا ذلك الذي هو أكثر خطراً عليهم من ترك الدعاة وشأنهم، لو أنهم علموا ذلك لبخلوا بسجن الدعاة واعتقالهم وتعذيبهم وقتلهم ولكن الله تعالى يعمي أبصارهم فيندفعون إلى تلك الأعمال ليخزيهم الله بها ويحطم عروشهم ويذيقهم وبال أمرهم، فهنيئاً لدعاة الحق وتعساً لأعدائهم[1].

---

(١) ولقد ضرب الأعداء برؤوس أهوائهم في صخرة إيمان المودودي حتى تكسرت تلك الرؤوس وذهب أصحابها مغضوباً عليهم من شعوبهم التي حرموها التمتع برحمة الإسلام التي كان المودودي يجاهد من أجلها وبقي الداعية المجاهد يؤدي ما عليه حتى لقي ربه في ٢٢ سبتمبر عام ١٩٧٩ م وقد التقى به كاتب البحث في داره بلاهور قبل وفاته بسنة تقريباً، وهو يعاني من آلام أقعدته في منزله ولكنه على الرغم من ذلك كان يعمل في اليوم والليلة ما لا يقل عن ثمان عشرة ساعة، ما بين

هذا ولا بد أن يهيىء الله للسائرين نماذج يقتدون بها في كل عصر من العصور، لأن ذلك من سنته سبحانه ألا يدع الناس يهيمون في الأرض مكبين على وجوههم دون حداة يدعونهم للاستقامة على طريق الحق والدين، وكل نموذج من هذه النماذج قدوة لمن بعده وهكذا حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

= قراءة وكتابة ومشورة لأعضاء جماعته التي تخلى عن رئاستها رسمياً ولكنه بقي يوجهها في مسيرتها، واستقبال لضيوف فرحمه الله رحمة واسعة.

الباب الثالث

السبيل إلى إعادة الروح الجهادية إلى المسلمين

وفيه فصلان:

الفصل الأول : اقتفاء أثر الرسول ﷺ في الدعوة إلى الله.

الفصل الثاني : السعي إلى إقامة الخلافة الإسلامية التي تجمع شمل المسلمين تحت راية الجهاد في سبيل الله.

لقد ابتعد المسلمون عن صراط الله المستقيم ابتعاداً ينذر بالخطر الداهم، الذي لم يكن ما أصاب المسلمين من مصائب وما نزل بهم من شقاء في العصور المتأخرة ولا سيما هذا العصر ـ إلا جزءاً يسيراً منه. وابتعاد المسلمين عن صراط الله المستقيم يوجب على الدعاة إلى الله أن يجاهدوا جهاداً متواصلاً لردِّهم إلى ذلك الصراط، فإذا عادوا إليه عادت إليهم الروح الجهاديَّة التي لا عزَّ لهم إلا بها.

الفصل الأول

اقتفاء أثر الرسول ﷺ

في الدعوة إلى الله

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول : البدء بغرس الإيمان وتقويته في نفوس المسلمين والبدء بالأهم فالأهم من الفروع مع ربطها بالإيمان.

المبحث الثاني : العمل بمقتضى عالمية الدعوة وتبليغها للعالم كله.

المبحث الثالث : إعداد القاعدة الصلبة التي تتحمل تكاليف الدعوة إلى دين الله ومشقاتها.

المبحث الرابع : تحقيق معنى الولاء والبراء في نفوس المسلمين.

المبحث الخامس : بث العزة في نفوسهم وتنفيرهم من الذل والاستخذاء.

المبحث السادس : الحؤول بين المسلمين وبين الترف والاسترخاء.

المبحث الأول

البدء بغرس الإيمان وتقويته في نفوس المسلمين

إن السنة التي سار عليها الأنبياء والرسل في دعوة الأمم هي البدء بالدعوة إلى الإيمان وغرسه في النفوس وتوطيد العقيدة الإسلامية في القلوب، وهذا واضح في قصص الرسل في القرآن الكريم، وأول صفات المتقين الإيمان بالغيب.

ولقد جاهد الرسول ﷺ ثلاث عشرة سنة في مكة في الدعوة إلى هذا الأصل: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، وما كلفه الله أن يدعو الناس إلى غير ذلك من أحكام الإسلام الأخرى إلا ما يقوي ذلك الأصل بالنسبة لمن دخل في دين الله، كإقام الصلاة ـ مثلاً ـ وهذه الطريق وحدها هي طريق الدعوة الناجحة وإن طالت، وإن أي طريق سوى هذه الطريق فليست بطريق الدعوة إلى الله وليست بمؤدية إلى صلاح البشرية، ولو كانت هنالك طريق غيرها أفضل منها لما قصر الرسول ﷺ نفسه ـ وكذا الرسل قبله ـ على هذه الطريق، وقد كانت دواعي سلوك طريق أخرى موجودة، إذ كان المجتمع الجاهلي يرتكس في كل أنواع الفساد، الخلقي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري، فلم يجعل الرسول ﷺ شيئاً من ذلك همه في الدعوة والتبليغ وإنما جعل كل همه في الدعوة إلى أصل الإسلام: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ وقد علم الله تعالى أن قيادة البشر إلى السعادة والخير والصلاح لا تكون بغير هذا الأصل، وإن هذا الأصل وحده هو الذي ييسر سبيل قيادة الناس إلى السعادة والخير والصلاح، والواقع شاهد على ذلك، فإن

كل دعوة انطلقت من غير هذا الأصل لم يكتب لها البقاء، بل لم يكتب لها إلا الزوال أو الشقاء والفساد.

قال سيد قطب رحمه الله: (ظل القرآن المكي ينزل على رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً كاملة يحدثه فيها عن قضية واحدة لا تتغير، ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر... لقد كان يعالج القضية الأولى والقضية الكبرى، والقضية الأساسية، في هذا الدين الجديد قضية العقيدة، ممثلة في قاعدتها الرئيسية: الألوهية والعبودية وما بينهما من علاقة.. ولم يتجاوز القرآن المكي هذه القضية الأساسية إلى شيء مما يقوم عليها من التفريعات المتعلقة بنظام الحياة إلا بعد أن علم الله أنها قد استوفت ما تستحقه من البيان وأنها استقرت استقراراً متيناً ثابتاً في قلوب العصبة المختارة من بني الإنسان التي قدر الله أن يقوم هذا الدين عليها، وأن تتولى هي إنشاء النظام الواقعي الذي يتمثل فيه هذا الدين)[1].

وإذا ثبت هذا الأصل في نفس الفرد أو في نفوس الجماعة كان جديراً باستجابة من استقر في قلبه لدعوة الحق وتطبيق كل ما فيه صلاحه وصلاح الخلق كلهم من خلق فاضل وإيثار وطهارة قلب وثبات وشجاعة وغير ذلك من خصال الخير، والبعد عن كل فساد وشر وهذا هو السر الذي جعل الجيل الإسلامي الأول يستسلم استسلاماً كاملاً لأوامر الله ورسوله وتطبيق أحكامه في المنشط والمكره حتى زكت نفوسهم وطهرت قلوبهم ورفعوا علم الجهاد مستبسلين في سبيل الله وكانوا يتمنون الشهادة في سبيل الله أشد من تمني عباد الدنيا الحياة فيها.

ولقد كان الرسول ﷺ يوصي أصحابه إذا بعثهم للدعوة إلى الله ويأمرهم بالبدء بهذا الأصل، كما قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه عندما أرسله إلى اليمن: «إنك تأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلٰه إلا الله...» الحديث[2] وهكذا كانوا يبدأون بالدعوة إلى هذا الأصل قبل قتالهم الكفار[3].

---

(١) معالم في الطريق ٢٠ ـ ٢١.

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٥/١)، طبع الكويت.

(٣) راجع صحيح مسلم (١٣٥٦/٣) وما بعدها.

وهذا هو السبيل الذي يجب أن يسلكه الدعاة إلى الله: البدء بالدعوة إلى هذا الأصل وغرسه في نفوس الناس، وإلا فإن الجهود تذهب دون جدوى وإذا ظهرت لها جدوى بادىء ذي بدء فإن ذلك لا يدوم.

قال سيد قطب رحمه الله: (كذلك ينبغي أن يكون مفهوماً لأصحاب الدعوة الإسلامية أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين يجب أن يدعوهم أولاً إلى اعتناق العقيدة ـ حتى لو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين وتشهد شهادات الميلاد بأنهم مسلمون ـ يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو أولاً إقرار عقيدة: (لا إله إلا الله) بمدلولها الحقيقي وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كله... ولتكن هذه القضية هي أساس دعوة الناس إلى الإسلام كما كانت هي أساس دعوتهم إلى الإسلام أول مرة.. هذه الدعوة التي تكفل بها القرآن المكي طوال ثلاثة عشر عاماً كاملة)[1].

وقال المودودي رحمه الله: (فأول وأهم ما أمر النبي ﷺ أن نؤمن به هو: (لا إله إلا الله) وهذه الكلمة هي التي يقوم عليها بناء الإسلام، وهي التي تميز المسلم من الكافر والمشرك والملحد وهي التي تحدث الفرق العظيم بين الإنسان المؤمن بها والإنسان المعرض عنها، فالذين يؤمنون بها طائفة لهم الفلاح والسعادة والفوز والرقي في الدنيا والآخرة والذين يعرضون عنها طائفة أخرى لهم الخسران والخزي والخذلان في الدنيا والآخرة)[2].

وإذا ثبت هذا الأصل في النفوس كانت قابلة لتنفيذ أحكام الله التي يأمر بها والبعد عما ينهى عنه سبحانه، لذلك جاء التشريع للحلال والحرام والنهي عن الأمور المكروهة متأخراً، بعد الهجرة إلى المدينة ونزلت الأحكام متدرجة ولم تنزل دفعة واحدة، وليس معنى هذا أن من آمن واستقر الإيمان في قلبه انقطع التذكير له بالإيمان وأصبح يتلقى الأوامر والنواهي الشرعية فقط، فإنه مهما بلغ الإنسان من الإيمان لا يستغني عن التذكير به والازدياد منه.

---

(١) معالم في الطريق ص ٢٤ ـ ٣٥.

(٢) مبادىء الإسلام طبع الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ص ٨٠.

قال محمد قطب: (ومما له دلالة بارزة في منهج التربية الإسلامية أن درس العقيدة لم ينقطع بانتهاء الفترة المكية، بل استمر حتى بعد تكون الدولة المسلمة في المدينة، وبعد رسوخ الإيمان في قلوب المؤمنين إلى حد القتال والاستشهاد في سبيل الله. كل الفرق أنه بعد أن كان الدرس الوحيد في السور المكية صارت معه دروس أخرى في المدينة من تشريعات وتوجيهات وتنظيمات وتوعية سياسية وإعدادات لمعركة لا إلّه إلا الله وأنه بعد أن كان الدرس يلقن هناك على سبيل التأسيس صار يلقن هنا على سبيل التذكير بعد أن ترسخت قواعده هناك.

ولكن استمرار تلقين الدرس للمؤمنين بعد أن آمنوا هو الأمر ذو الدلالة الهامة، لأن معناه أن هذا درس لا ينتهي أبداً مهما كانت حالة المؤمن من الإيمان، فلا بد من التذكير الدائم حتى للمؤمنين والله هو خالق هذه الفطرة والعليم بمساربها ومسالكها وما هي في حاجة إليه لتقويمها وإصلاح ما ينحرف منها، فإذا ظل يذكر المؤمنين بالعقيدة وهم مؤمنون فلأنه يعلم ثقلة الأرض وجاذبيتها وحاجة الناس إلى الجهد الدائب والتذكير الدائم لموازنة ثقلتها، ولأنه يعلم أن الشياطين إنما تتلقف الغافلين)[1].

وإن القارىء ليلمس هذا المعنى في ذكر لفظ الجلالة مع الأحكام التي يأمر الله بها أو ينهى عنها في كتاب الله، لأن في ذلك تذكيراً للمؤمن بأن امتثال أمر الله واجتناب نهيه من مقتضى الإيمان بالله وهذه بعض الأمثلة التي توضح ذلك: ﴿وما تُنفقوا من خيرٍ فإن الله به عليم﴾[2]، وفي آية الربا قال: ﴿فمن جاءه موعظةٌ من ربِّه فانتهى فله ما سلف وأمرُه إلى الله، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يمحق الله الربا ويُربي الصَّدَقاتِ والله لا يحب كل كَفَّار أثيم﴾[3]وقال في آية الدين: ﴿ولا يأبَ الشهداء إذا ما دُعوا، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله، ذلكم أقسط عند الله﴾[4].

وفي الميراث: ﴿يُوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظِّ الأنثيين﴾[5].

---

(١) منهج التربية الإسلامية (٢ ـ ٣٠) طبع دار الشروق.

(٢) البقرة: ٢٧٣.

(٣) البقرة: ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٤) البقرة: ٢٨٢.

(٥) النساء: ١١.

وفي قطع يد السارق: ﴿والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهما جزاءً بما كسبا، نكالاً من الله والله عزيزٌ حكيمٌ * فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإنَّ الله يتوب عليه إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾(١).

وقال في أمر المؤمنين بالثبات: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تُفلحون﴾(٢).

بهذا يظهر بأن البدء بغرس الإيمان في النفوس وتقويته وهو طريق الرسول ﷺ وطريق الدعاة إلى الله تعالى وأن ذلك أهم ما يعيد إلى المسلمين الروح الجهادية التي فقدها أكثرهم.

هذا وليعلم أن الداعي إلى الله يجب أن يراعي في ذلك ما يقتضيه الحال فإن كان يدعو قوماً ليسوا بمسلمين فإن عليه أن يدعوهم إلى العقيدة أولاً فقط كما فعل الرسول ﷺ في مكة، وإن كان يدعو مسلمين فإن عليه أن يبدأ بالأهم فالأهم مما يراهم مقصرين فيه من أمور الإسلام مع التذكير بالإيمان، وإن كانوا لا يعترفون بإله ولا دين فإن عليه أن يجتهد في إقامة الحجج والبراهين على الإيمان بالله وغير ذلك من الإيمان بالغيب وهكذا... ولا ينبغي أن يترك الداعي إلى الله في صفوف المسلمين الذين في إيمانهم ضعف أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فيما يتعلق بالأحكام الشرعية من الحلال والحرام وإن كان يجب أن تكون تقوية إيمانهم في الدرجة الأولى من دعوته، وإذا أمرهم بواجب أو نهاهم عن فعل محرم فإنه يجب أن يربط ذلك بالإيمان بالله حتى يكون التذكير بالله مستمراً. وما كانت تلك الروح الجهادية في نفوس أصحاب رسول الله ﷺ والسلف الصالح إلا ثمرة من ثمار قوة إيمانهم رضي الله عنهم.

---

(١) المائدة: ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) الأنفال: ٤٥.

المبحث الثاني

العمل بمقتضى عالمية الدعوة وتبليغها للعالم كله

الإسلام عالمي ـ أي إن الله سبحانه وتعالى بعث رسوله ﷺ وأنزل هذا الكتاب ـ القرآن الكريم ـ للناس كافة، كما قال سبحانه: ﴿تبارَكَ الذي نزَّل الفُرْقَانَ على عبده ليكونَ للعالمين نذيراً﴾[1]. وتتدرج هذه العالمية من دعوة الأسرة والقبيلة وأهل البلد كلهم ثم تأخذ في التوسع الأقرب فالأقرب إلى أن تبلغ البشر كلهم حسب قدرة الداعي والوسائل المتاحة له، وقد صار رسول الله ﷺ على ذلك بتوجيه من ربه فأنذر عشيرته الأقربين ثم أنذر العرب من قريش ثم العرب كلهم ثم كاتب الملوك والرؤساء ودعاهم إلى الإسلام ثم بعث أمراءه للدعوة والجهاد واستمر على ذلك أصحابه رضي الله عنهم لأن من حق الناس كلهم في الأرض كلها أن يتمتعوا بهذا الدين، والواجب على دعاة الإسلام أن يسعوا بكل ما أوتوا من قدرة لإيصال كلمة الله إلى كل فرد في أي قطعة من الأرض. وهذا السعي من قبل الدعاة إلى الله يمنحهم روحاً جهادية عالية، لأنهم يسرون بدخول الناس في الإسلام وفهمهم لمبادئه وتطبيقها بسبب دعوتهم لأنهم دلوا هؤلاء الناس على الإسلام والدال على الخير كفاعله، ثم إن المسلمين عندما يرون الدعوة تنتشر في الأرض ويدخل غير المسلمين في الإسلام ترتفع معنوياتهم ويعتزون بدينهم ويتحمسون له ويدأبون على الجهاد في سبيله، وهذا هو السر الذي جعل أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم من السلف الصالح يفتحون بلاد كسرى وقيصر ويدخلون فيها رحمة الإسلام في برهة قصيرة من الزمن ويتطلعون إلى المزيد من هداية العالم وكانوا على روح جهادية عالية

(١) الفرقان: ١.

رغبة في إعلاء كلمة الله وطلباً لمرضاته والحصول على أجر من اهتدى بدعوتهم إلى يوم القيامة.

وهذا هو الأساس الذي يجب أن يسير الدعاة إلى الله عليه وهذه هي الغاية التي يجب أن يسعوا إليها بدعوتهم: إبلاغها إلى العالم كله وهذا المقصد النبيل يبقي المسلمين في حالة جهاد دائب، من بذل المال في سبيل الله، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن إعداد العدة ومقارعة أعداء الله الذين يصدون عن سبيله.

والدعوة المحلية في أسرة أو بلدة أو قطر من الأقطار لا يجوز أن تكون هي الهدف الذي لا هدف بعده بل يجب أن تكون بداية ومنطلقاً إلى أسرة أخرى أو قطر آخر وهكذا.

لذلك كان الأصل في الدعوة إلى الإسلام أن تكون علنية يغشى بها الداعي إلى الله الناس في منازلهم ومجتمعاتهم وأسواقهم ومساجدهم ويبين لهم ما يجب عليهم، والإسرار أمر استثنائي لا يجوز إلا في الحالات التي لا يتأتى فيها الجهر في أمور جزئية من الإسلام، ثم لا يكون إلا لهدف تجاوزه إلى الجهر بتلك الجزئيات عندما تسنح الفرصة للجهر بها. وجعل العمل السري هو القاعدة في الدعوة إلى الله أو تغليب السرية على الجهرية بدون ضرورة ملجئة أمر خارج عن أسلوب الرسل كلهم وبخاصة رسول الله ﷺ، بل إن ذلك من تقليد الأحزاب المعادية للإسلام التي تتضمن مبادئها ما فيه خطر على البشرية.

وإذا فرضت حكومة من الحكومات على الدعاة إلى الله الامتناع عن دعوة الناس وتعليمهم الإسلام في الظاهر فإن الدعاة عندئذ يعذرون في دعوة الناس وتعليمهم في السر، ولكن ذلك ليس من مصلحة تلك الدولة فإن العمل في السر أخطر عليها من العمل في العلن، ومنع صاحب المبدأ الحق من إظهاره والدعوة إليه ظلم له وللناس الذين يجب أن يعلموه ويعملوا به، كما إن في ذلك تسويغاً لمناوأة صاحب المبدأ من منعه من إظهاره والدعوة إليه وإلجائه إلى سلوك أي سبيل يتاح له بها إيصال دعوته إلى الناس، وإلجاء الناس إلى الدعوة إلى مبادئهم الحقة في السر يتيح الفرصة لنشر الأفكار الشاذة ـ ولو باسم ذلك المبدأ

الحق ـ التي قد يكون خطرها عظيماً على العامة.

وفي ذلك ـ علاوة على ما مضى ـ قتل للروح الجهادية في المسلمين وتسبب في حقد بعضهم على بعض، وتوجيه لطاقات بعضهم ضد بعض.

المبحث الثالث

إعداد القيادات المتتابعة
(أو إعداد القاعدة الصلبة التي تتحمل تكاليف الدعوة)

كثير من الناس يستجيبون لنداء الحق ولتطبيق هذا الدين على أنفسهم فينفذون أوامر الله ويجتنبون ما نهى عنه وقد يخلطون العمل الصالح بآخر سيء ولكن قليل هم الذين يستجيبون لهذا الدين فيطبقونه على أنفسهم ويحملون غيرهم من قريب أو بعيد على تطبيقه بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذل المال والجاه والمنصب في سبيل الله وتقديم النفس في ساح الوغى لجهاد أعداء الله وإعلاء كلمة الله.

هذا القليل يجب أن يأخذ حظاً أوفر من الدعوة والتوجيه والتزكية والتطهير والإعداد لتحمل أعباء الدعوة وتكاليفها ويعنى به أكثر من غيره لأن هذا الصنف هو الذي يثبت وقت الشدائد والمحن وهو الذي يلتف حوله من لم يبلغ مثله في إيمانه وتحمله ولولا أن الله تعالى يهيىء لعامة الناس رجالاً يلتفون حولهم ويقتدون بهم ويرون فيهم ما يجذبهم إلى الثبات معهم لما كان لأولئك العامة من شأن يذكر بل لكانوا في مهب الرياح أينما تميلها تمل.

لذلك كان من الواجب على الدعاة أن يختاروا ذوي المواهب العالية في العلم والعمل والذكاء والقدرة على الاستيعاب والصبر والجلد والقيادة يولوهم من العناية ما يأخذ بأيديهم إلى المستوى اللائق بهم ويدربوهم على تحمل مسؤولياتهم كل فيما يظهر أنه أنفع فيه من غيره، وذلك هو الذي يضمن بتوفيق الله استمرار صفوف الدعاة إلى الله وقادتها لأن القائد الواحد يربي قادة والصف يربي صفوفاً، كلما ذهب قائد حل قائد آخر محله وكلما ذهب صف تقدم إلى

مكانه الصف الذي يليه، كما يضمن بقاء الروح الجهادية في النفوس.

ولعل هذا المعنى يظهر شيئاً من حكمة الله تعالى في ابتلاء عباده وتمحيصهم وتصفية صفوف المؤمنين بذلك الابتلاء من عناصر الفساد حتى يكون الصف المؤمن ثابتاً متراصاً، كما قال سبحانه: ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنَّا وهم لا يُفتنون * ولقد فتَنَّا الذين من قبلهم، فلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صدقوا ولَيَعْلَمَنَّ الكاذبين﴾[١].

وقال: ﴿أم حسبتم أن تُتركوا ولمَّا يعلم اللهُ الذين جاهدوا منكم ولم يتَّخذوا من دون اللهِ ولا رسولِه ولا المؤمنين وَليجةً، والله خبيرٌ بما تعملون﴾[٢].

ولما كانت القاعدة الصلبة هي محور الجيش المجاهد كان لا بد للقائد من اختبار جنوده ليعلم أشدهم صلابة وأعظمهم شجاعة وإقداماً وإخلاصاً وتوكلاً على الله، وهذا ما فعله طالوت الذي قال الله عنه: ﴿فلما فصَلَ طالوتُ بالجنود قال إنَّ الله مُبْتليكم بنَهَر، فمن شرب منه فليس مني، ومن لم يَطْعَمْه فإنه مني؛ إلا من اغترف غُرْفة بيده، فشربوا منه إلا قليلاً منهم، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقةَ لنا اليوم بجالوتَ وجنوده، قال الذين يظنُّون أنَّهم مُلاقو اللهِ: كم من فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذن الله، واللهُ مع الصابرين﴾[٣].

قال سيد قطب رحمه الله ـ وهو يقرر ضرورة إعداد هذه القاعدة: (لقد كان الله سبحانه يعلم أن هذا هو المنهج ـ تعرض الفئة المؤمنة للأذى الطويل ـ القويم لتربية الجماعة الأولى وتكوين القاعدة الصلبة لهذه العقيدة وأنه بدون هذه المحنة الطويلة لا تصلب الأعواد ولا تثبت للضغوط، وإن هذه الدرجة من الصلابة والخلوص والتجرد والإصرار والمضي في سبيل الله على الأذى والعذاب والقتل والتنكيل والتشريد والتجويع وقلة العدد وانعدام النصير الأرضي، إن هذه الدرجة هي وحدها التي تصلح للقاعدة الأصيلة الثابتة عند نقطة

(١) العنكبوت: ١ ـ ٣.
(٢) التوبة: ١٦.
(٣) البقرة: ٢٤٩.

الانطلاق... إنه ابتداء يجب توجيه الحرص كله لإقامة القاعدة الصلبة من المؤمنين الخلص الذين تصهرهم المحنة فيثبتون عليها، والعناية بتربيتهم تربية إيمانية عميقة تزيدهم صلابة وقوة ووعياً، ذلك مع الحذر الشديد من التوسع الأفقي قبل الاطمئنان إلى قيام هذه القاعدة الصلبة الخالصة الواعية المستنيرة. فالتوسع الأفقي قبل قيام هذه القاعدة خطر ماحق يهدد وجود أية حركة لا تسلك طريقة الدعوة الأولى من هذه الناحية ولا تراعي طبيعة المنهج الحركي الرباني النبوي الذي سارت عليه الجماعة الأولى)[١].

وأجمل ذلك في مكان آخر بقوله: (لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة لا بالزبد الذي يذهب جفاء ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح)[٢].

وهذا الإعداد يكون بتقوية الإيمان وتزكية الأخلاق الفاضلة وكثرة الطاعة لله ولرسوله، والبعد عن المعصية والتوعية الكاملة والفقه في الدين ومعرفة مشكلات العصر وحلها، والتدريب العملي على البذل والإنفاق وإيثار الدعوة الإسلامية بالنفس والنفيس والإخلاص الكامل والتجرد لله وحده.

وهذا الإعداد مع صعوبته وطول مدته التي تحتاج إلى صبر وجلد خير من العجلة في جمع جماهير ذوي عواطف تبهج النفس وتنعشها عواطف يظهر أصحابها الطاعة والحب والتفاني في سبيل العقيدة ولكن وقت الرخاء، أما وقت الشدة فإنها كما قال سيد قطب آنفاً: (الزبد الذي يذهب جفاء و... الهشيم الذي تذروه الرياح).

---

(١) في ظلال القرآن (١٠ ـ ١٥٧٧).

(٢) في ظلال القرآن (١٦١٨).

المبحث الرابع

تحقيق معنى الولاء والبراء في نفوس المسلمين

المخلوقون من المكلفين ينقسمون إلى قسمين: قسم يعبد الله ولا يشرك به شيئاً أقر بعبوديته التامة للإلّه الواحد فشهد أن لا إلّه إلا الله وآمن بالغيب الذي أخبر الله به وأمر بالإيمان به من ملائكة وكتب ورسل وبعث وجزاء وحساب وجنة ونار... واستسلم لله فأطاعه وأطاع رسوله وترك ما نهى الله عنه، ويطلق على هذا القسم: المسلمون، أو المؤمنون، ويشمل الملائكة الذين جبلوا على طاعة الله وعدم معصيته: ﴿لا يَعْصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤمرون﴾[1] وأهل الطاعة من الأنس والجن في الأرض، وهؤلاء معرضون للمعصية لأنهم بشر ولكنهم يذكرون الله فيستغفرونه ويتوبون إليه. هؤلاء كلهم الملائكة والمسلمون من الأنس والجن هم أولياء الله تعالى كما قال تعالى عنهم: ﴿ألآ إنَّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا تبديلَ لكلماتِ الله، ذلك هو الفوز العظيم﴾[2] وهم أهل الصراط المستقيم الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه. وبعضهم ولي لبعض لأنهم أهل عقيدة واحدة يقرون بالعبودية التامة لربهم وبالألوهية المطلقة له تعالى، كما يقرون برسله وكتبه ويستسلمون له استسلاماً كاملاً في أمره ونهيه، ولا سيما أمة محمد ﷺ التي رسولها واحد لا رسول بعده وكتابها واحد لا كتاب بعده.

---

(١) التحريم: ٦.

(٢) يونس: ٦٢ ـ ٦٤.

وقسم لا يعبد الله وحده، بل إما أن يعبد غيره أو يعبده مع غيره أو يزعم أنه يعبده ولكنه يكفر ببعض ما أنزله في كتابه كما هو صنيع اليهود الذين لا يؤمنون برسالة الرسول ﷺ، ويدخل في هذا القسم من لم يدخل في دين الله من الجن، وهؤلاء أعداء الله وأهل معصيته وبعضهم ولي بعض.

وقد أوجب الله سبحانه على عباده المؤمنين أن يكون ولاؤهم لله ولرسوله وللمؤمنين وأوجب عليهم أن يكونوا أعداء لأعدائه الكافرين وحرم عليهم موالاتهم أي موادتهم ومناصرتهم ومناصحتهم.

والذي يستعرض القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة يجد نصوصاً كثيرة جداً في هذا المعنى.

وإذا تأملت سورة الفاتحة التي هي أول سور القرآن الكريم وسورة الناس التي هي آخر سور القرآن الكريم وجدت هذا المعنى واضحاً فيهما فقارىء الفاتحة الذي يثني على الله، ويمجده ويقر بعبوديته له ويخصه بالاستعانة به، يطلب منه أن يرشده ويوفقه إلى سلوك سبيل من هم أولياء لله وأولياء له وهو ولي لهم ممن أنعم الله عليهم من عباده منذ خلق الله البشر إلى يوم القيامة، كما يطلب من ربه أن يجنبه سبيل أعدائه الكافرين الذي أنزل بهم غضبه منذ خلق الله البشر إلى يوم القيامة اقرأ سورة الفاتحة بتأمل تجد الولاء والبراء فيها ظاهراً كالشمس قال تعالى: ﴿الحمدُ لله ربِّ العالمين * الرحمنِ الرحيمِ * مالكِ يوم الدين * إيَّاكَ نعبدُ وإيَّاكَ نستعين * اهدنا الصراطَ المستقيمَ صراط الذين أنعَمت عليهم، غيرِ المغضوب عليهم ولا الضَّالِّين﴾[1].

وكذلك سورة الناس التي يطلب المؤمن فيها من ربه أن يعيذه ويعصمه من شر عدو الله وعدوه من الجن والإنس على السواء، قال تعالى: ﴿قل أعوذ بربِ الناسِ * ملكِ الناسِ * إله الناسِ * من شَرِّ الوسواس الخنَّاسِ * الذي يُوَسْوِسُ في صدور الناس * من الجِنَّة والناس﴾[2].

---

(١) سورة الفاتحة.

(٢) سورة الناس.

وقد استجاب الله تعالى لعباده المؤمنين الذين سألوه في سورة الفاتحة أن يهديهم صراطه المستقيم الذي أنعم به على من شاء من عباده فقال: ﴿ وَمَنْ يُطعِ الله والرسولَ فأولئك مع الذين أَنْعَمَ اللهُ عليهم من النبيِّين والصدِّيقين والشهداءِ والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً﴾[1].

وربط الله سبحانه بهذا الولاء سكان السماء بسكان الأرض من المؤمنين إذ جعل ملائكته من حملة عرشه وغيرهم يستغفرونه لمشاركيهم في الإيمان به المنفردين عنهم في أنهم يخطئون ويذنبون ولكنهم يتوبون ويدعونه بأن يدخلهم الجنة ويقيهم النار ويعصمهم من الزلل والذنوب والمعاصي كما قال تعالى: ﴿الذين يحملون العرش ومَنْ حَوْلَه يُسبِّحون بحمد ربهم، ويؤمنون به، ويستغفرون للذين آمنوا: ربَّنا وَسِعْتَ كلَّ شيء رحمةً وعلماً، فاغفر للذين تابوا واتَّبعوا سبيلك، وقِهِم عذاب الجحيم * ربَّنا وأدخلهم جنَّات عَدْنٍ التي وعَدْتَهم ومن صَلَحَ من آبائِهم وأزواجِهم وذرياتهم، إنَّك أنت العزيز الحكيم * وقِهِمُ السَّيئاتِ ومن تَقِ السيِّئات يومئذ فقد رحمته، وذلك هو الفوز العظيم﴾[2].

ووعد سبحانه برحمته وثوابه ورضوانه عباده المؤمنين الذين أقاموا على طاعته وطاعة رسوله ووالى بعضهم بعضاً وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر: فقال: ﴿والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضُهم أولياء بعضٍ، يأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر، ويُقيمون الصلاة ويُؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسولَه، أولئك سيرحمهم الله إنَّ الله عزيزٌ حكيمٌ * وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمناتِ جنَّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ومساكنَ طيبةً في جنات عَدْنٍ ورضوانٌ من الله أكبر، ذلك هو الفوز العظيم﴾[3].

وإذا كان المؤمنون بعضهم أولياء بعض فإن أعداء الله وأعداءهم بعضهم أولياء بعض، كما قال تعالى: ﴿ثم جعلناكَ على شريعةٍ من الأمر فاتَّبعْها، ولا تتَّبعِ أهواءَ الذين لا يعلمون * إنهم لن يُغْنوا عنك من الله شيئاً، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعضٍ، والله وليُّ المتقين﴾[1].

---

(١) النساء: ٦٩ ـ ٧٠.
(٢) غافر: ٧ ـ ٩.
(٣) التوبة: ٧١ ـ ٧٢.
(٤) الجاثية: ١٨ ـ ١٩.

وعندما تنافس أهل الأديان في دعوى توليهم إبراهيم عليه السلام وأنهم أهل ملته، فصل الله في الأمر بأن الأَوْلَيْنَ به ليسوا هم الذين يدّعون دعوى بدون برهان، وإنما هم الذين اتبعوه حقاً والرسول ﷺ والمؤمنون به من هذه الأمة، أما أهل الكتاب الذين تركوا الهدى واتبعوا الضلال ورغبوا في إضلال أهل الهدى فليسوا بأولياء لله ولا لإبراهيم، كما قال تعالى: ﴿إنَّ أولى الناس بإبراهيمَ للَّذين اتَّبعوه وهذا النبيُّ والذين آمنوا والله وليُّ المؤمنين * ودَّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يُضِلُّون إلا أنفسَهم وما يشعرون﴾[1].

وربط الله أمة محمد ﷺ المؤمنة بأبيهم إبراهيم حيث جعله أسوة صالحة لهم في الولاء والبراء، كما قال تعالى: ﴿قد كانتْ لكم أُسْوةٌ حسنةٌ في إبراهيم والذين معه، إذ قالوا لقومِهِم: إنا برآء منكم ومِمَّا تعبدون من دون الله، كفرنا بكم، وبدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاءُ أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾[2].

وولاء المؤمن لله ولرسوله وللمؤمنين وعداؤه للكافرين يترتب عليه أن يكون في صف أوليائه مهما تباعدت الأنساب واختلفت الألوان واللغات ضد عدوه الكافر ولو كان أقرب قريب إليه وإلا كان ظالماً فاسقاً يستحق وعيد الله سبحانه، قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تتَّخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إنِ استحبُّوا الكفر على الإيمان، ومن يتولَّهم منكم فأولئك هم الظالمون * قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تَخْشَون كسادها ومساكن ترضَوْنها أحبَّ إليكم من اللهِ ورسولهِ وجهادٍ في سبيله فتربَّصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[3].

وكلما كان المؤمنون متعاونين على طاعة الله أكثر كان ولاء بعضهم لبعض أشد وأوثق، وكلما بعد بعضهم عن بعض في ذلك ضعف الولاء أو فقد شيء منه. فالمؤمنون الذين يبقون بين أهل الشرك وهم قادرون على الهجرة إلى المؤمنين الذين تجمعوا في دار خاصة بهم يقيمون فيها دين الله ويجاهدون في سبيل الله، أولئك المؤمنون الذين بقوا بين المشركين ولم يهاجروا وهم قادرون، لا ولاية لهم

(١) آل عمران: ٦٨ - ٦٩.
(٢) الممتحنة: ٤.
(٣) التوبة: ٢٣ - ٢٤.

على إخوانهم المجاهدين، أي ليسوا مستحقين عليهم كل ما يستحقه بعض المجاهدين من بعض من النصرة الكاملة وقسم الغنائم أو خمسها وغير ذلك مما يجب للمجاهد على أخيه المجاهد الذين تجمعوا في دار الإسلام.

قال سبحانه: ﴿إنَّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آوَوْا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من وَلَايتهم من شيء حتى يهاجروا، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصرُ إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق، والله بما تعملون بصير﴾[1] قال ابن كثير: (يقول تعالى وإن استنصركم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدوهم فإنه واجب عليكم نصرهم لأنهم إخوانكم في الدين إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار بينكم وبينهم ميثاق أي مهادنة إلى مدة فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم، وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنه)[2] وفي حديث بريدة عن النبي ﷺ: «ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا فاختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين»[3].

ثم قال سبحانه: ﴿والذين كفروا بعضُهم أولياء بعض إلَّا تفعلوه تَكُنْ فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبيرٌ﴾[4] قال ابن كثير: (أي إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين وإلا وقعت فتنة في الناس وهو التباس الأمر واختلاط المؤمنين بالكافرين فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل)[5].

وفي هذا ـ أي في حرمان المسلم الذي لم يكن ولاؤه لإخوانه تاماً لعدم

(١) الأنفال: ٧٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم (٢ ـ ٣٢٩).
(٣) مسلم وأورده ابن كثير في تفسير الآية السابقة، وقد تقدم.
(٤) الأنفال: ٧٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم (٢ ـ ٣٣٠).

انتقاله من بين المشركين إلى المسلمين مهاجراً مجاهداً معهم، في حرمانه من النصرة التامة ومن الغنيمة والفيء ونحو ذلك ما يحفز المسلم على تحقيق الولاء التام لله ولرسوله وللمؤمنين وإن هذا الولاء يرفع الروح الجهادية عند المسلم، لأن الجهاد هو مقارعة العدو وقتاله مع المؤمنين وذلك يستلزم مفارقة هذا العدو وعدم السكنى معه والانضمام إلى المجتمع المسلم المجاهد.

ومفاصلة الكافر وإظهار البراءة منه ومن دينه هي سنة المجاهدين التي شرعها الله لهم، وهذا إمام المجاهدين أمره الله سبحانه بذلك كما في سورة الكافرون، كما قال تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين﴾[1]. وبدون هذه المفاصلة تموت الروح الجهادية ويألف من لم يعاد أعداء الله ويظهر لهم تلك العداوة، يألف أولئك الأعداء ويهادنهم وقد يوادهم ويناصرهم فيكون منهم، كما قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهودَ والنصارى أولياء، بعضُهم أولياء بعضٍ، ومن يتولَّهم منكم فإنه منهم، إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين * فترى الذين في قلوبهم مَرَضٌ يُسارعون فيهم يقولون نخشَى أن تصيبنا دائرةٌ، فعسى الله أنْ يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده، فيصبحوا على ما أسرُّوا في أنفسهم نادمين﴾[2].

وكيف يجتمع حب الله ورسوله والمؤمنين مع موالاة أعداء الله، بل كيف ينفذ المسلم أمر الله في جهاد أعداء الله الذين قد يكون منهم أبوه وأخوه وأقرباؤه كما قاتل أصحاب الرسول ﷺ أقرباءهم في المعركة وسجل القرآن لهم تلك الروح العالية كما سجل رضا الله عنهم، قال تعالى: ﴿لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيَّدهم برُوحٍ منه، ويدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضي الله عنهم ورضوا عنه، أولئك حزبُ الله، ألاَ إنَّ حزبَ الله هم المفلحون﴾[3].

(١) الكافرون: ١ ـ ٦.
(٢) المائدة: ٥٧ ـ ٥٨.
(٣) المجادلة: ٢٢.

قال ابن كثير: (وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره أنزلت هذه الآية... في أبي عبيدة عامر بن عبدالله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر... وقيل في قوله تعالى: ﴿ولو كانوا آباءهم﴾ نزلت في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر، (أو أبناءهم) في الصديق همَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن، (أو إخوانهم) في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير (أو عشيرتهم) في عمر قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة فالله أعلم)[1].

وقد يوسوس الشيطان للمسلم الذي ضعف إيمانه فيزين له موالاة أعداء الله لما قد ينال منهم من نفع مادي، كبقاء حكمه أو كثرة ماله أو علو منصبه وعظمة جاهه، كما هو شأن كثير من الذين يوالون الكفار ويوادونهم فأنكر الله ذلك وبين سبحانه أن الأمر بيده والعزة له يهبها هو فقط لمن يستحقها، كما قال تعالى: ﴿الذين يتَّخذون الكافرينَ أولياء من دون المؤمنين، أيبتغونَ عندهم العزَّةَ، فإن العزةَ لله جميعاً﴾[2].

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللهمَّ مالكَ المُلْك تُؤتي الملكَ من تشاء وتنزع الملكَ ممَّن تشاء، وتعزُّ من تشاء وتذلُّ من تشاء، بيدك الخير إنَّك على كل شيءٍ قديرٌ * تُولج الليلَ في النهار وتولج النهارَ في الليل، وتُخرج الحيَّ من الميت وتخرج الميِّتَ من الحي، وترزق من تشاء بغير حساب * لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلاَّ أن تتقوا منهم تقاة، ويحذِّركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾[3].

بل إن الكفار الذين لا يعاديهم المسلم ولا يجاهدهم في ذات الله يطمعون في إعادة ذلك المسلم الذي والاهم إلى الكفر فيسعون أن يطيعهم ويعصي ربه، قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردُّوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين * بل الله مولاكم وهو خيرُ الناصرين﴾[4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤ ـ ٣٢٩).

(٢) النساء: ١٣٩.

(٣) آل عمران: ٢٦ ـ ٢٨.

(٤) آل عمران: ١٤٩ ـ ١٥٠.

ومن عجب أن يتخذ المؤمنون من غيرهم من أعداء الله من يأمنونه على أسرارهم ويستشيرونه في أخطر أمورهم، وهو يود إفساد أمور المسلمين، وعلامات بغضه لهم تظهر على لسانه مما يدل على شدة حقده وانطوائه على شر كبير، ويظهر هؤلاء المنتسبون للإسلام محبة هذا العدو مع بغضه هو لهم، وقد يتظاهر بأن دين الإسلام حق ولكنه إذا خلا بمن يأمنه على نفسه أظهر غير ذلك من الغضب والقدح في المسلمين وفي دينهم، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتَّخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خَبَالاً، ودُّوا ما عنتُّم قد بَدِتِ البغضاءُ من أفواههم وما تُخْفي صدورهم أكبر، قد بيَّنا لكم الآياتِ إنْ كنتم تعقلون * ها أنتم أولاء تحبُّونهم ولا يحبُّونكم، وتؤمنون بالكتاب كلِّه، وإذا لَقُوكم قالوا آمنَّا، وإذا خَلَوا عضُّوا عليكم الأنامل من الغيظ، قل موتوا بغَيْظكم إن الله عليمٌ بذات الصدور * إن تَمْسَسْكم حسنةٌ تَسُؤْهم، وإن تُصِبْكم سيئةٌ يفرحوا بها، وإن تصبروا وتتَّقوا لا يضركم كيدهم شيئاً، إن الله بما يعملون محيط﴾[1].

هذا ومن أعظم الأضرار التي تحدث للمسلم من جراء موالاة أعداء الله تقليدهم والسير في ركابهم فيما يخالف هذا الدين الحق وقد أوجز ذلك رسول الله ﷺ في بعض جوامع كلمه كما في حديث أبي سعيد الخدري عنه ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ تبعتموهم»[2]. والمتأمل في حياة المسلمين اليوم يرى هذا الاتباع بينا في كل تصرفاتهم، فكيف تعود الروح الجهادية إلى المسلمين وهم معجبون بأعدائهم يقلدونهم ويرون فيهم المثل الذي يحتذى ويتبع؟.

وقد يظن بعض من لا علم له بأن الموالاة المحظورة المراد بها موافقتهم في دينهم واتباعهم فيه وترك دين الإسلام وهذا الظن ينبني عليه أن موالاتهم بمعنى التحالف معهم ومناصرتهم لا مانع منها، هذا ظن خاطىء بني عليه حكم فاسد والتعلل به أو جعله مسوغاً للتحالف مع أعداء الله ومناصرتهم لا يتمسك به إلا من ضعف إيمانه وقل علمه، فالولاية المحظورة بين المسلم والعدو من اليهود

---

(١) آل عمران: ١١٨ - ١٢٠.

(٢) متفق عليه، وهو في اللؤلؤ والمرجان.

والنصارى وغيرهم هي ولاية التحالف والتناصر، أما ولاية الاتباع في الدين فهذه لا تكون بين مؤمن وكافر وإنما تكون بين كافر قد يدعي الإيمان وكافر آخر. وقد نبه سيد قطب رحمه الله على هذا المعنى فقال: (ويحسن أن نبين أولاً معنى الولاية التي نهى الله الذين آمنوا أن تكون بينهم وبين اليهود والنصارى، إنها تعني التناصر والتحالف معهم ولا تتعلق بمعنى اتباعهم في دينهم، فبعيد جداً أن يكون بين المسلمين من يميل إلى اتباع اليهود والنصارى في الدين إنما هو ولاء التحالف والتناصر الذي كان يلتبس عند المسلمين أمره فيحسبون أنه جائز لهم بحكم ما كان واقعاً من تشابك المصالح والأواصر ومن قيام هذا الولاء بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام وفي أوائل العهد بقيام الإسلام في المدينة حتى نهاهم الله عنه وأمر بإبطاله بعدما تبين عدم إمكان قيام الولاء والتحالف والتناصر بين المسلمين واليهود في المدينة، وهذا المعنى معروف محدد في التعبيرات القرآنية وقد جاء في صدد الكلام عن العلاقة بين المسلمين في المدينة والمسلمين الذين لم يهاجروا: ﴿ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ وطبيعي أن المقصود هنا ليس الولاية في الدين فالمسلم ولي المسلم في الدين على كل حال، إنما المقصود هو ولاية التناصر والتعاون. وهذا اللون من الولاية هو الذي تمنع هذه الآيات أن يقوم بين الذين آمنوا وبين اليهود والنصارى بحال بعدما كان قائماً بينهم في أول العهد بالمدينة)[1].

ولا يدخل في هذا الحظر إحسان المؤمن إلى أقاربه من الأبوين وغيرهم إذا لم يكونوا حرباً على المسلمين، بل أمر الله الولد المؤمن بمصاحبة أبويه الكافرين بالمعروف وعدم طاعتهما في معصية الله، كما قال تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالَديه حملته أُمُه وَهْناً على وَهْنٍ، وفصاله في عامَيْنْ، أنِ اشكرْ لي ولوالديك إليَّ المصير * وإن جاهداك على أن تشركَ بي ما ليس لك به علمٌ فلا تُطِعْهما، وصاحبهما في الدنيا معروفاً، واتَّبع سبيل من أناب إليَّ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يُقاتلوكم في الدين ولم

---

(١) في ظلال القرآن (٦ ـ ٩٠٩).

(٢) لقمان: ١٤ ـ ١٥.

يخرجوكم من دياركم أن تبرُّوهم وتُقْسِطوا إليهم، إنَّ الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم عن الذين قاتلوكم في الدِّين، وأخرجوكم من دياركم، وظاهروا على إخراجكم أن تولَّوْهم، ومن يتولَّهم فأولئك هم الظالمون﴾(١).

وفي حديث عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ جهاراً غير سر يقول: «إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما وليِّـي الله وصالح المؤمنين، ولكن لهم رحم أبلها ببلاها ـ يعني أصلها بصلتها»(٢).

هذا عندما لا يكون بين المؤمنين وذوي قراباتهم حرب وخصومه في الدين أما عندما تكون حرب في الدين فلا صحبة ولا إحسان بل مفاصلة ومقاطعة ومسايفة، قال سيد قطب: (فروابط الدم والقرابة هذه تنقطع عند حد الإيمان إنها يمكن أن ترعى إذا لم تكن هناك محادة وخصومة بين اللوائين: لواء الله ولواء الشيطان، والصحبة بالمعروف للوالدين المشركين مأمور بها حين لا يكون هناك حرب بين حزب الله وحزب الشيطان، فأما إذا كانت المحادة والمشاقة والحرب والخصومة فقد تقطعت تلك الأواصر التي لا ترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد ولقد قتل أبو عبيدة أباه يوم بدر وهمَّ الصديق أبو بكر بقتل ولده عبد الرحمن، وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير، وقتل عمر وحمزة وعلي وعبيدة والحارث [هكذا ولعله ابن الحارث كما سبق في ص ٣٥٦] أقرباءهم وعشيرتهم متجردين من علائق الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة، وكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصور الروابط والقيم في ميزان الله)(٣).

ولا بد هنا من توضيح أمرين لكل منهما صلة بالآخر:

الأمر الأول: يتعلق بتفريق الله بين اليهود والمشركين، وبين النصارى في عداوة المؤمنين ومودتهم في قوله سبحانه: ﴿لتجدنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدنَّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنَّا نصارى، ذلك بأنَّ منهم قسِّيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾(٤).

---

(١) الممتحنة: ٨ ـ ٩.

(٢) اللؤلؤ والمرجان (١ ـ).

(٣) في ظلال القرآن (٢٨ ـ ٣٥١٤ ـ ٣٥١٥).

(٤) المائدة: ٨٢.

هذه الآية صريحة في أمرين:

الأمر الأول: إن اليهود والمشركين أشد الناس عداوة وحقداً وكيداً للمسلمين وهذا الأمر واضح جلي في كثير من آي القرآن الكريم وقد سجله التاريخ من يوم بعث محمد ﷺ إلى الآن وسيبقى إلى أن تقوم الساعة، لأن اليهود ذوو أثرة وأنانية وحقد على كل من خالفهم بله من نافسهم وظهر عليهم بما معه من حق دفع به باطلهم، كالمسلمين. وكذلك المشركون الذين يغلب عليهم الجهل والجلافة وغلظ الطباع، ولا داعي للتفصيل في هذا الأمر لأن شدة عداوة هذين الصنفين واضحة مقررة، ولا يدخل في ذلك كل فرد من أفراد اليهود وأفراد المشركين، بل المراد المجموع في كل منهما، ولم تعلل الآية شدة عداوتهما بشيء.

الأمر الثاني: إن الذين قالوا إنهم نصارى أقرب مودة للمؤمنين من غيرهم وعلّل ذلك بوجود خطباء ومرشدين يربونهم على التواضع وعدم الكبرياء على غيرهم.

ومما لا شك فيه أن الفرق بين اليهود والمشركين من جهة، وبين النصارى من جهة أخرى في عداوة المسلمين واقع، وإن كانوا يشتركون كلهم في العداء والكيد للمسلمين في الجملة، وقد قرر الله ذلك في قوله تعالى: ﴿ولن ترضَى عنك اليهودُ ولا النصارى حتى تتَّبع ملَّتهم﴾[(١)]. وقال عن المشركين: ﴿كيفَ وإن يَظْهروا عليكم لا يرقُبوا فيكم إلاًّ ولا ذمَّة، يُرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبُهم وأكثرهم فاسقون﴾[(٢)].

ومما يدل على هذا الفرق كثرة النصارى الذين يتركون دينهم ويدخلون في دين الإسلام في كل العصور، ومنها هذا العصر، وقلة اليهود الذين يدخلون في دين الإسلام، وكثير منهم يدخلون في دين الإسلام نفاقاً ليفسدوا كما يفعلون ذلك بالنسبة للدين المسيحي، ولكن هذا الفرق لا يجوز أن يفهم المسلم منه

---

(١) البقرة: ١٢٠.

(٢) التوبة: ٨.

قرب النصراني منه قرباً يقلل من العداوة التي أوجبها الله سبحانه على المسلم للكافرين كلهم: اليهودي، والمشرك والنصراني، لأن العداوة عداوة عقيدة ودين وليست عداوة تعامل دنيوي مشترك، والنصارى يقولون بالتثليث الذي ينافي التوحيد، وينكرون رسالة محمد ﷺ فهم يزيدون على اليهود الذين يقرون بالتوحيد في الجملة وينكرون الرسالة وإذا أثنى بعض النصارى على الإسلام أو ذكروا المسلمين بخير ودعوا إلى التحابب بينهم وبين المسلمين وسموا العداء تعصباً يجب تركه وزعموا أن التناقض بين المسلمين والنصارى مفتعل، ولم يكن في الأصل إلا عن سوء تفاهم إذا فعل ذلك بعض النصارى هل يجوز أن ينطلي على المسلمين فيصدقوه ويقول قائلهم ـ عن غشاوة وعدم بصيرة وليست عن سوء قصد ـ: (وليس قصدي من إيراد هذه النصوص الخوض في مناقشات دينية أو التسليم بكل ما احتوته، بل أردت أن أعلل وأفسر رواسب الكراهية المفتعلة للإسلام بأقلام مفكرين مسيحيين، بينما يقف الإسلام من المسيحية موقف الصديق والظهير، خلا نزوات طارئة لا يعتد بها في بعض عصور التخلف بالقياس إلى المؤامرات المستمرة التي تخطط في السر والعلن لتقويض الإسلام وطعن المسلمين. فالقرآن الكريم يقول: ﴿ولتجدنَّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأنَّ منهم قسِّيسينَ ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾)[1] ويقول في موضع آخر مشيداً ببعض كلمات زعيم النصارى الذي هنأ المسلمين بمناسبة عيد الأضحى ورد عليه أحد شيوخ المسلمين: (وأي شيء يبلغ من الصدق مبلغ دعوة قداسته الكريمة إلى التخلص من أوهام رواسب الماضي لتمهيد السبيل لتعانق المسيحية والإسلام من خلال إيمانهما المشترك بالله لتحطيم الأصنام العصرية وهي المال والتسلط واللذة، لأن الإيمان المخلص بالله هو وحده مصدر الثقة لتوفير المزيد من الحق والعدل والسلام، وعندما نتلاقى نكتشف مع التعجب والفرح أن بعضنا قريب من بعض)[2].

في النص الأول يزعم أن رواسب كراهية المسيحية للإسلام مفتعلة

---

(١) الله أو الدمار لسعد جمعة ص ٨٨ والآية من سورة المائدة (٨٢).

(٢) نفس الكتاب ص ٧٢.

ويقول: بينما يقف الإسلام من المسيحية موقف الصديق والظهير ويستشهد بالآية الكريمة التي يدور الكلام حولها.

وفي النص الثاني يشيد بدعوة الزعيم المسيحي للتخلص من أوهام رواسب الماضي لتمهيد السبيل لتعانق المسيحية والإسلام ويعلل بأن الإيمان المخلص بالله هو وحده مصدر الثقة . . . إلى آخره.

الكراهية بين الإسلام والمسيحية ليست مفتعلة ـ وإن ألهبها بعض الكتاب ـ فالإسلام دين الله الحق والمسيحية دين محرف مبدل مشرك لأنه يقول الله ثالث ثلاثة، فكيف تكون الكراهية مفتعلة، والإسلام لا يقف من المسيحية موقف الصديق والظهير بل إنه ينسفها نسفاً كما ينسف اليهودية والوثنية، لأنها كلها أديان باطلة، لذلك يستحيل أن يعانق الإسلام المسيحية والإيمان المخلص لا يمكن قطعاً أن يدخل فيه إيمان المسيحي التثليثي، لأن الإخلاص وصف للإيمان بالله الواحد والآية الكريمة لا تعني شيئاً من ذلك، وسيتضح معناها قريباً إن شاء الله[1].

أما الآية الكريمة التي تفرق بين عداوة اليهود والمشركين وبين عداوة النصارى فلا بد من بيان ما ذكره المفسرون في معناها باختصار.

إن صدر الآية: ﴿ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ إذا أخذ وحده بدون ما بعده في نفس الآية والآيات التي تلتها يفهم منه أن النصارى ـ في جملتهم ـ كذلك بدون سبب، ولكن ما تلا ذلك يدل أن هناك سبباً لهذا القرب، يؤدي إلى تواضع هؤلاء النصارى وعدم استكبارهم ومعنى هذا أنهم إذا ظهر لهم الحق ـ وهو دين الإسلام ـ قبلوه، لأن الكبر هو المانع من طاعة الله، فإذا انتفى من طائفة وجدت الطاعة التي كان يمنع منها هذا الكبر،

---

(١) هذا ويعلم أن الكاتب (سعد جمعة) مسلم فاضل غيور على دينه كما هو واضح من كتاباته ومن مواقفه السياسية عندما كان رئيساً لوزراء الحكومة الأردنية، ولكنه ينقصه الوعي الكامل لنصوص القرآن الواردة في هذا المجال كما إنه اغتر بكتابات بعض النصارى الذين يخطبون ود المسلمين تحت شعار الوطن والقومية كما نقل نصوصهم هو في نفس الكتاب.

وكون الكبر مانعاً من قبول الحق ظاهر في القرآن الكريم، وأول الممتنعين عن قبول الحق بسبب الكبر هو إبليس لعنه الله كما قال تعالى: ﴿وإذ قُلْنا للملائكة اسجدوا لآدمَ فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾[١] وكذلك فرعون وقومه، كما قال الله عنهم: ﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنُّوا أنهم إلينا لا يُرجعون﴾[٢]. وكذلك عاد كما قال تعالى: ﴿فأمَّا عادٌ فاستكبروا في الأرض بغير الحق﴾[٣]. وقال عن المشركين: ﴿إنَّهم كانوا إذا قيل لهم لا إلَه إلا الله يستكبرون﴾[٤].

فالله عز وجل إذا وصف طائفة في كتابه بصفة أو نفى عنها صفة وكانت تلك الصفة التي نفاها عنها لها أثرها في القرآن الكريم وجب تفسيرها بالقرآن الكريم نفسه، فالكبر مانع من قبول الحق وعدمه داع لقبول الحق فهذه الطائفة إذا بلغها الحق قبلته لأنها لا تستكبر عنه. هذا إذا أخذت الآية منفصلة عما بعدها. أما إذا أخذت الآيات التي بعدها على أنها صفات زائدة على هذه الصفة فإن هذه الطائفة يقصد بها طائفة معينة من النصارى آمنت بالله وبرسوله، واقرأ الآيات كاملة لترى أن الصفات التي فيها تدل على هذا المعنى، قال تعالى: ﴿وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مِمَّا عرفوا من الحق، يقولون ربَّنا آمنَّا فاكتبنا مع الشاهدين، وما لنا لا نؤمنُ بالله وما جاءنا من الحق، ونطمعُ أن يدخلَنا ربُّنا مع القوم الصالحين، فأثابهم الله بما قالوا جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدينَ فيها وذلك جزاءُ المحسنين﴾[٥].

والذي يظهر من السياق أن الضمائر عائدة إلى مرجع واحد هو الذي يعود إليه الضمير في قوله: (لا يستكبرون) أي الذين قالوا إنا نصارى ومعنى هذا أن هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل على الرسول وهو القرآن ـ تفيض أعينهم من الدمع، مما عرفوا من الحق، وهم الذين يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين، والشاهدون هم المؤمنون من أمة

---

(١) البقرة: ٣٤.
(٢) القصص: ٣٩.
(٣) فصلت: ١٥.
(٤) الصافات: ٣٥.
(٥) المائدة: ٨٣ ـ ٨٥.

محمد ﷺ، ويقولون أيضاً. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ـ وهذا يوضح أن أولئك الذين لا يستكبرون قبلوا الحق فعلاً ـ ثم هم الذين قالوا: ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين، وهم الذين أثابهم الله وهم المحسنون.

وقد قال بهذا القول جماعة من السلف والخلف وحملوها على طائفة أو طوائف من النصارى نزلت الآيات في شأنهم، وإذا قيل العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب أجيب: نعم ولكن بالقيد أو القيود التي ذكرها الله سبحانه في الآية الأولى أو الآيات التالية، وأهمها أن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون. ثم إن الآية لم تقل إنهم يودون المسلمين وإنما ذكرت أنهم أقرب مودة من غيرهم، ثم إنهم لو فرض أنهم يودون المسلمين مع بقائهم على كفرهم فإنه لا يجوز للمسلمين أن يودوهم.

قال ابن جرير: (﴿الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ عن قبول الحق واتباعه والإذعان به. وقيل أن هذه الآية والتي بعدها نزلت في نفر قدموا على رسول الله ﷺ من نصارى الحبشة، فلما سمعوا القرآن أسلموا واتبعوا رسول الله ﷺ. .) وساق بإسناده ذكر من قال ذلك، ثم قال: (وقال آخرون بل هذه صفة قوم كانوا على شريعة عيسى من أهل الإيمان فلما بعث الله تعالى ذكره محمداً ﷺ آمنوا به) ثم ساق بإسناده ذكر من قال ذلك ثم قال: (والصواب في ذلك القول عندي أن الله تعالى وصف صفة قوم قالوا إنا نصارى أن نبي الله ﷺ يجدهم أقرب الناس وداداً لأهل الإيمان بالله ورسوله ولم يسم لنا أسماءهم وقد يجوز أن يكون أريد بذلك أصحاب النجاشي ويجوز أن يكون أريد به قوم كانوا على شريعة عيسى فأدركهم الإسلام فأسلموا لما سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق ولم يستكبروا عنه)[1].

وأكد هذا المعنى سيد قطب رحمه الله حيث قال: (إن هذه الآيات تصور حالة وتقرر حكماً في هذه الحالة، تصور حالة فريق من أتباع عيسى عليه السلام: ﴿الذين قالوا إنا نصارى﴾، وتقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا، ومع أن متابعة مجموع الآيات لا تدع مجالاً للشك في أنها تصور حالة معينة هي التي

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧ ـ ١ ـ ٣).

ينطبق عليها هذا التقرير المعين، فإن الكثيرين يخطئون فهم مدلولها، ويجعلون منها مادة للتميع المؤدي في تقدير المسلمين لموقفهم من المعسكرات المختلفة وموقف هذه المعسكرات منهم، لذلك نجد من الضروري في ظلال القرآن ـ أن نتابع بالدقة تصوير هذه الآيات في حالة فئة من الناس قالوا إنا نصارى هي أقرب مودة للذين آمنوا: ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾، فمنهم من يعرفون حقيقية دين النصارى، فلا يستكبرون على الحق حين يتبين لهم. لكن السياق القرآني لا يقف عند هذا الحد، ولا يدع الأمر مجهلاً ومعمياً على كل من قالوا: إنا نصارى، إنما هو يمضي فيصور موقف هذه الفئة التي يعنيها).

ثم أخذ سيد يذكر الآيات التي صورت صفات هـذه الفئـة مؤكداً أنها فئة مؤمنة. . . إلى أن قال: (وليس كل من قالوا إنهم نصارى إذن داخلين في ذلك الحكم: ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا﴾ كما يحاول من يقتطعون آيات القرآن دون تمامها، إنما هذا الحكم مقصور على حالة معينة لم يدع السياق القرآني أمرها غامضاً ولا ملامحها مجهلة ولا موقفها متلبساً بموقف سواها في كثير ولا قليل. .) ثم أخذ يسرد ما أثر عن السلف من كتب التفسير يؤيد ذلك. ثم أيد ذلك بالواقع التاريخي الذي دل على أن عامة النصارى كادوا ولا يزالون يكيدون للمسلمين متعاونين مع اليهود والوثنيين والحركات المعادية للإسلام من أبناء المسلمين، ثم ختم كلامه بقوله: (وهذا ما ينبغي أن يعيه الواعون اليوم وغداً فلا ينساقون وراء حركات التمييع الخادعة أو المخدوعة التي تنظر إلى أوائل مثل هذا النص القرآني دون متابعة لبقيته ودون متابعة لسياق السورة كله ودون متابعة لتقريرات القرآن عامة، ودون متابعة للواقع التاريخي الذي يصدق هذا كله، ثم تتخذ من ذلك وسيلة لتخدير مشاعر المسلمين تجاه المعسكرات التي تضمر لهم الحقد وتبيت لهم الكيد، الأمر الذي تبذل فيه هذه المعسكرات جهدها، وهي بصدد الضربة الأخيرة الموجهة إلى جذور العقيدة. إن هذه المعسكرات لا تخشى شيئاً أكثر مما تخشى الوعي في قلوب العصبة المؤمنة مهما قل عددها وعدتها فالذين ينمون هذا الوعي هم أعدى أعداء هذه العقيدة، وقد يكون بعضهم من الفرائس المخدوعة، ولكن ضررهم لا يقل ـ حينئذ ـ عن

ضرر أعدى الأعداء، بل إنه ليكون أشد أذى وضرراً. إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم وهو لا يناقض بعضه بعضاً فلتقرأه إذن على بصيرة)[١].

نعم عندما لا يعلم المسلم خطر بعض المعسكرات المعادية للإسلام على حقيقته تموت روحه الجهادية تجاه ذلك المعسكر ولا يعد له العدة، لذلك كان لزاماً على دعاة الإسلام أن يوضحوا للمسلمين أعداءهم على حقيقتهم من نصوص القرآن والسنة ومن الواقع التاريخي منذ بدأ الإسلام ببعثة رسول الله ﷺ إلى الساعة، بل إلى يوم القيامة.

والذي يتأمل مخططات النصارى مع اليهود والشيوعيين والوثنيين في هذا العصر ضد المسلمين يعلم أن الذين قالوا إنهم نصارى وكانوا أقرب مودة ليسوا كل النصارى وإنما هي فئة معينة لها سماتها وصفاتها وإذا جاءت أي فئة لها تلك الصفات فهي داخلة في النص وإلا فلا. وكيف ترفع الروح الجهادية عند المسلمين أو تعود إليهم ضد عدوهم ـ وهم النصارى هنا ـ إذا وقر في أذهانهم أنهم كلهم أقرب مودة لهم من غيرهم؟.

أما الأمر الثاني الذي يجب توضيحه، وله صلة بالأمر الأول فهو الخلط بين سماحة الإسلام مع أهل الكتاب، حيث خصهم ببعض الأحكام والمعاملات التي لم ينلها غيرهم، كأخذ الجزية منهم وعدم قبولها من غيرهم ـ على قول ـ وإباحة نكاح نسائهم وذبائحهم للمسلمين ونحوها، الخلط بين ذلك وبين اتخاذهم أولياء، فالسماحة معهم مشروعة والتعامل معهم بما أذن الله فيه مطلوب في حدود ما أذن الله به، ولكن تلك السماحة وذلك التعامل لا يجيز للمسلمين أن يتخذوا هؤلاء الكتابيين، وهم أعداء لهم وقد أمر الله بمعاداتهم، لا يجيز ذلك التعامل للمسلمين أن يتخذوهم أولياء يوادونهم ويناصرونهم بل يجب أن يظهروا لهم عداوتهم وبغضهم وبغض دينهم. قال سيد قطب رحمه الله: (إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء واتخاذهم أولياء شيء آخر ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤيا الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته بوصفه حركة منهجية واقعية تتجه إلى إنشاء واقع في الأرض وفق

---

(١) أنظر هذه النصوص، وراجع ما كتبه سيد قطب في كتابه في ظلال القرآن (٧ ـ ٩٥٩ ـ ٩٦٧).

التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية وتصطدم من ثم بالتصورات والأوضاع المخالفة كما تصطدم بشهوات الناس وانحرافهم وفسوقهم عن منهج الله ويدخل في معركة لا حيلة فيها ولا بد منها لإنشاء ذلك الواقع الجديد الذي تريده وتتحرك إليه حركة إيجابية فاعلة منشئة... إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب ولكنه منهي عن الولاء لهم بمعنى التناصر والتحالف معهم، وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقي مع طريقة أهل الكتاب، ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه ولن يكفهم عنه موالاة بعضهم لبعض في حربه والكيد له)[1].

ولعل معنى الولاء والبراء قد ظهر أنه من أعظم ما يعيد الروح الجهادية في نفوس المسلمين ضد أعدائهم الذين يجب عليهم معاداتهم في الله عز وجل.

---

(١) في ظلال القرآن (٦ ـ ٩٠٩)

المبحث الخامس

بث العزة في نفوس المسلمين وتنفيرهم من الذل والاستخذاء

لا تعيش أي أمة في الأرض قوية الجانب مرفوعة الرأس محافظة على كرامتها طامعة في قيادة البشرية إلا إذا كانت روح العزة تسري في دمها مغذية فيها الطموح والعظمة منفِّـرة لها من التبعية والذلة والاستخذاء والأمة التي ترغب في القيادة وهي تفقد العزة الحقيقية تلجأ إلى محاكاة إبليس في التلبس برداء العلو والإفساد في الأرض وتسمي ذلك زوراً وبهتاناً: عزة تبثها في نفوس أفرادها لتقتحم بهم عقبات الحياة بالحق وبالباطل.

أما الأمة التي تفقد هذه وتلك فهي من القطعان البشرية الضائعة التي تقاد ولا تقود.

فالناس بالنسبة للعزة ثلاثة أقسام: أمة عزيزة عزة حقيقية وهي الأمة التي تحقق الذلة الكاملة والعبودية المحضة في نفسها للخالق سبحانه وتعالى، وتستعز به وبدينه، وتستعلي به على جميع قوى الأرض المادية ويقودها طموح العزة إلى إقامة دين الله وإعلاء كلمته في الأرض وتبلغ رسالته إلى العالم بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله. ولا وجود للأمة الإسلامية بدون هذه العزة، بل إذا فقدتها ذلت وسلط الله عليها عدوها الذي لا يرقب فيها إلاً ولا ذمة. لذلك عني القرآن الكريم الذي أنزله الله لها لقيادة البشر ببث العزة في نفوس المسلمين وإلهاب عواطفهم بها، كما قال تعالى: ﴿كنتم خيرَ أمة أُخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[1].

---

(١) آل عمران: ١١٠.

وهل يليق بأمة اصطفاها الله لهداية البشر وقيادته بالإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تتخلى عن وظيفتها هذه، وإذا تخلت عنها فهل تكون عزيزة؟ كلا.

ولقد جعل الله الأمة المؤمنة العزيزة في صفه سبحانه مع رسوله وكرمها بمنحها هذه العزة التي اختصها الله بها دون سائر الأمم، كما قال سبحانه: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾[1]، وهو سبحانه رب العزة وحده كما قال: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾[2].

وهل يسهل على أمة أن تفقد هذا التكريم إلا أن تكون ذليلة مهانة وبفقد هذه العزة لا تكون هذه الأمة أهلاً للبقاء، لأنها لم تعد الأمة المؤمنة، بل هي القطعان المرتدة وحكمة الله تقتضي استبدال غيرها بها ممن يحرص على هذه العزة ويحافظ عليها ويدفع ثمنها، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقومٍ يحبُّهم ويحبُّونه، أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾[3] ولا عزة بدون جهاد في سبيل الله كما لا عزة بدون محبة الله والتواضع للمؤمنين والعزة على الكافرين.

ويستثير القرآن الكريم هذه العزة ويبثها في نفوس المؤمنين في الوقت الذي يكاد الوهن يثبط هممهم ويضعف عزائمهم، ويكاد الأسى والحزن يقضي على روح الجهاد فيهم بعد أن انتصر عليهم المشركون في معركة أحد، قال تعالى: ﴿ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنوا وأنتم الأعلَون إن كنتم مؤمنين﴾[4]. فالعزة واستعلاء الإيمان لا يجتمع معهما الوهن والحزن اللذان يثبطان الهمم، لأن الوهن يدعو إلى الذلة والرضا بالدون وإظهار الضعف للعدو والبدء بطلب المهادنة الذي يجرئه ويغريه بالمسلمين، ولذلك نهى الله المسلمين أن يهنوا ويدعوا العدو إلى المهادنة والمسالمة، بل يجب أن يستعلوا بإيمانهم ويستعزوا بعزة الله، كما قال تعالى: ﴿فلا

---

(١) المنافقون: ٨.
(٢) الصافات: ١٨١.
(٣) المائدة: ٥٤.
(٤) آل عمران: ١٣٩.

تَهنوا وتَدْعوا إلى السَّلْم وأنتم الأعلَون، والله معكم ولن يَتِرَكم أعمالكم ﴾[١].

قارن بين قوله هنا: ﴿وأنتم الأعلون والله معكم﴾ وبين قوله فيما مضى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ تر كيف يستثير الله العزة في نفوس عباده.

ولا بد من سلوك هذا المنهج الذي تضمنه كتاب الله تعالى وهو بث العزة في نفوس المسلمين لتعود إليهم الروح الجهادية التي لا عزة لهم إلا بها وهذه هي العزة الحقيقية. وقد قال عنها ابن تيمية رحمه الله: (وأما القسم الرابع فهم أهل الجنة الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً مع أنهم قد يكونون أعلى من غيرهم، كما قال الله تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ وقال تعالى: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنت الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم﴾ وقال: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾[٢] كما قال عنها سيد قطب رحمه الله: (والعزة الصحيحة حقيقة تستقر في القلب قبل أن يكون لها مظهر في دنيا الناس حقيقة تستقر في القلب، فيستعلي بها على كل أسباب الذلة والانحناء لغير الله حقيقة يستعلي بها على نفسه أول ما يستعلي يستعلي بها على شهواته المذلة ورغائبه القاهرة ومخاوفه ومطامعه من الناس وغير الناس، ومتى استعلى على هذه فلن يملك أحد وسيلة لإذلاله وإخضاعه، فإنما تذل الناس شهواتهم ورغباتهم ومخاوفهم ومطامعهم، ومن استعلى عليها فقد استعلى عل كل وضع وعلى كل شيء وعلى كل إنسان، وهذه هي العزة الحقيقية ذات القوة والاستعلاء والسلطان)[٣].

القسم الثاني: أمة عندها حب الاستعلاء واستذلال الناس واستعبادهم، وليس عندها استعداد لقبول الحق واتباع أهله، وهذه الأمة تبث في نفوس أفرادها ما تزعم أنه عزة، وهو العلو في الأرض بغير الحق وتستضعف الناس وتقهرهم بالقوة وتخضع من تقدر على إخضاعه من البشر بالقتل والتشريد والاعتقال ونهب الأموال وانتهاك الأعراض، هذه الأمة أمة ظالمة مفسدة تنتظر إنزال الله سخطه

---

(١) محمد: ٣٥.

(٢) سبقت الإشارة إلى أرقام هذه الآيات، وانظر الفتاوى (٢٨ ـ ٣٩٣).

(٣) في ظلال القرآن (٢٢ ـ ٢٩٣١).

وعقوبته عليها، وعزتها عزة ظلم وكبرياء وليست عزة عدل وإصلاح. تأبى الحق وتحاربه أفرادها يجمعون على تطبيق هذه القاعدة: ﴿ومن الناس من يُعجبك قولُه في الحياة الدنيا، ويُشهدُ اللهَ على ما في قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولَّى سَعَى في الأرض ليُفسدَ فيها ويهلكَ الحرثَ والنسلَ والله لا يحبُّ الفسادَ * وإذا قيل لـه اتَّقِ الله أخذتُه العزَّةُ بالإثم فحَسْبُه جهنَّمُ ولبئس المهادُ﴾[1].

قال ابن تيمية رحمه الله في بيان هذا القسم: (القسم الأول يريدون العلو على الناس والفساد في الأرض، وهو معصية الله، وهؤلاء الملوك والرؤساء المفسدون، كفرعون وحزبه، وهؤلاء هم شرار الخلق قال الله تعالى: ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شِيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾[2]. وروى مسلم في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان»، فقال رجل يا رسول الله إني أحب أن يكون ثوبي حسناً ونعلي حسناً أفمن الكبر ذاك؟ قال: «إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس»[3].

فبطر الحق دفعه وجحده، وغمط الناس احتقارهم وازدراؤهم وهذا حال من يريد العلو والفساد)[4].

وقال سيد قطب في هذا القسم ـ أيضاً ـ: (إن العزَّة ليست عناداً جامحاً يستكبر على الحق ويتشامخ بالباطل، وليست طغياناً فادحاً يضرب في عتو وتجبر وإصرار، وليست اندفاعاً باغياً يخضع للنزوة ويذل للشهوة وليست قوة عمياء تبطش بلا حق ولا عدل ولا صلاح، كلا)[5].

وواجب أهل العزة الصحيحة أن يقضوا بعزتهم على ذوي العناد الجامح والاستكبار على الحق والتشامخ بالباطل والطغيان العاتي المتجبر والمصر والاندفاع الباغي الخاضع للنزوة والذليل للشهوة وأن يضربوا بعزتهم القوة العمياء التي

---

(١) البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦.
(٢) القصص: ٤.
(٣) مسلم (١ ـ ٩٣).
(٤) الفتاوى (٢٨ ـ ٣٩٢).
(٥) في ظلال القرآن (٢٢ ـ ٢٩٣١).

تبطش بلا حق ولا عدل ولا صلاح، لأنه لا يوجد من يقضي على أولئك أو يضرب هؤلاء بحق سواهم. وعاقبة ذوي العلو والفساد في الأرض عقوبة الله بهم في الدنيا والآخرة.

أما القسم الثالث فهو القطعان البشرية الضائعة التي استساغت الذل والمهانة والتقليد الأعمى وأصبحت تؤمر فتطيع لا همٌّ لها إلا لقمة العيش والتمتع بما أتيح لها من شهوات الدنيا لا فرق بين حلال أو حرام ترضى بالضيم وتستنيم للاستعباد.

ولقد انطبق هذا الوصف على أبناء الأمة الإسلامية الذين أضاعوا مجد آبائهم فحق عليهم من ربهم الخزي والعار إلا من شاء ربك ممن نذروا أنفسهم للدعوة والجهاد في سبيل الله وقليل ما هم.

المبحث السادس

الحؤول بين المسلمين وبين الترف والاسترخاء

الأمة المجاهدة لا تكون مترفة، والأمة المترفة لا تكون مجاهدة فلا يجتمع ترف وجهاد، لأن الترف نعومة وراحة واسترخاء وإغراق في الشهوات والملذات يصعب على صاحبه مفارقة ما ألفه منه، بل إنه يعيش وهو يفكر في إضافة المزيد منه ويخاف أن يحال بينه وبين ذلك الترف والنعيم. والجهاد بذل وتضحية ومشقة وبعد عن الملذات والشهوات ومفارقة للمحبوبات واقتحام للمكاره والعقبات، المترف يخاف كل شيء يعكر عليه صفو ترفه، والمجاهد لا يخاف في الله لومة لائم، المترف يتلهف للفسق والفجور والفواحش، والمجاهد يتطلع لقيادة البشر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالمترفون فاسقون والمجاهدون مصلحون.

ولهذا كانت سنة الله في المترفين الفاسقين تدميرهم، والتدمير قد يكون بالاستئصال بعذاب الله كما كان في الأمم الماضية، وقد يكون بإنزال البأس الذي يحول بين المترف وما كان يتمتع به من شهوات، وهو عذاب وتدمير وقد يكون أشق عليه من مفارقة ترفه بالموت والعقوبة تعم المترفين ومن لم يقف في وجه ترفهم، قال تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نُهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها، فحقَّ عليها القول فدمَّرناها تدميراً﴾[1].

قال سيد قطب رحمه الله: (والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة فينعمون بالدعة

---

(١) الإسراء: ١٦.

وبالراحة وبالسيادة حتى تترهل نفوسهم وتأسن وترتع في الفسق والمجانة وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات وتلغ في الأعراض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلاّ بها ولها، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها فتهلك وتطوي صفحتها. والآية تقرر سنة الله هذه، فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة أخذت بأسباب الهلاك، فكثر فيها المترفون، فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم سلط الله عليها هؤلاء المترفين ففسقوا فيها فعم فيها الفسق فتحللت وترهلت فحقت عليها سنة الله وأصابها الدمار والهلاك، وهي المسؤولة عما يحل بها، لأنها لم تضرب على أيدي المترفين ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين، فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك وما سلط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيسوقها إلى الهلاك)[١].

ولقد تجلت حكمة الله تعالى في اختياره للعصبة المؤمنة ذات الشوكة، لقاءَ العدو في ساحة المعركة على ما بِهِم من قلة في العدد وضعف في العدة مع تفوق عدوهم في ذلك كله في أول معركة فاصلة بين الإسلام والكفر، تجلت حكمته تعالى في اختياره لهم ذلك على تمكينهم من العير الغنية بدون قتال ولا مشقة منحهم سبحانه مما اختاره لهم ـ وكانوا حريصين على غيره كارهين له ـ ما لم يكن في حسبانهم من النصر والغنائم، ولكن بكد وتعب وجهد ومشقة ليدربهم سبحانه على الجد والإعداد للجهاد ويجنبهم الترهل والاسترخاء والميل إلى السهل من الأمور والإخلاد إلى الأرض، لأنهم بذلك ينصرون الحق ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وبهذا يترفون وينامون عن معالي الأمور قال تعالى: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لَكارهون * يُجادلونك في الحقِّ بعدما تبين كأنَّما يُساقون إلى الموتِ وهم ينظرون * وإذ يَعِدُكم اللهُ إحدى الطائفتين أنَّها لكم وتودُّون أنَّ غيرَ ذات الشوكةِ تكون لكم، ويريدُ الله أن يحقَّ

---

(١) في ظلال القرآن (٥/٢٢١٧).

الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليحقَّ الحقَّ ويبطلَ الباطلَ ولو كره المجرمون﴾[١].

ولقد كان الله تعالى قادراً أن يغني ذلك الجيل الذي حمل راية الإسلام من أول ما حمل الراية، لأنه أولى بفضل الله من غيره، ولكنه تعالى يعلم أن الخير في تدريبه على تحمل المشاق وعلى التقشف والبعد عن التنعم والترف استعداداً للبذل والتضحية والجهاد، فقد كانوا يقاتلون أعداءهم وهم حفاة تنقب أقدامهم من الحر والحصى والشوك وتسقط أظفارهم، ولا يجدون الظهر الذي يحملهم كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: (خرجنا مع النبي ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر، بيننا بعير نتعقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي وسقطت أظفاري، وكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت غزوة ذات الرقاع، لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا، وحدث أبو موسى بهذا ثم كره ذاك، قال: ما كنت أصنع بأن أذكره، كأنه كره أن يكون شيء من عمله أفشاه)[٢].

وكانوا رضي الله عنهم يجاهدون، ويأكلون أوراق الشجر، كما في حديث سعد قال: (إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله، ورأيتنا نغزو ومالنا طعام إلا ورق الحبلة، وهذا السمر، وإن أحدنا ليضع كما تضع الشاه ماله خلط، ثم أصبحت بنو سعد تعزرني على الإسلام، خبتُ إذن وضل سعيي[٣] بل لقد كانت تتشقق أشداقهم من أكل أوراق الشجر وإذا وجد قليل من التمر لا ينال الواحد منهم، وهم في الغزو، إلا حبة تمر واحدة يقتات بها، وإذا أخطأت رجلاً منهم لا يحصل عليها إلا بشهود يثبتون أنه لم ينل تلك الثمرة حرصاً على العدل وعلى ادخار شيء لمستقبل أيام الجهاد، كما في حديث جابر ـ وفيه ـ : (سرنا مع رسول الله ﷺ وكان قوت كل رجل منا في كل يوم تمرة يمصها ثم يصرها في ثوبه، وكنا نختبط بقسينا ونأكل حتى قرحت أشداقنا. فأقسم أخطئها رجل منا يوماً فانطلقنا به ننعشه فشهدنا أنه لم يعطها فأعطيها فقام فأخذها)[٤] وجعل الله

---

(١) الأنفال: ٥ ـ ٨.

(٢) متفق عليه، البخاري رقم ٤١٢٨ فتح الباري (٧ ـ ٤١٧) ومسلم (٣ ـ ١٤٤٩).

(٣) البخاري رقم ٣٧٢٨ فتح الباري (٧ ـ ٨٣) ومسلم (٤ ـ ٢٢٧٧).

(٤) مسلم (٤ ـ ٢٣٠٦).

لتلك العصابة المؤمنة رسولها ﷺ وقائدها قدوة لها، فما كان يشبع هو- بأبي وأمي - وآله من طعام البر ثلاث ليال تباعاً كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض)[1].

ولقد أباح الله لعباده الطيبات وأباح لهم جمع المال من أبواب مباحة وإنفاقه في أبواب مباحة ومن ذلك استعمال وسائل الراحة في المسكن والمنزل والمركب والملبس وغيرها، ولكن الإسراف في ذلك سبب لحب الدنيا والغفلة عن الآخرة بنعيمها وعذابها، وسبب في القعود عن الجهاد في سبيل الله بل في قتل الهمم العالية كلها، وإذا كان النعيم أثر في بعض أصحاب رسول الله ﷺ في حياته فكاد يحول بين بعضهم وبين النفير مع الرسول ﷺ، وحال فعلاً بين بعضهم وبين ذلك ولم ينفعه من عقاب الله وسخطه وسخط رسوله ﷺ إلا التوبة، فكيف بمن بعدهم؟.

فهذا كعب بن مالك رضي الله عنه يتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ويعرض في سياق حديثه ببعض الأسباب التي أغرته بذلك التخلف، منها المشقات التي استقبلت المجاهدين كما قال: (فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً، فجلّىٰ للمسلمين أمرهم...)

ومنها النعيم ووسائل الراحة المتاحة في المدينة التي كان يميل إليها كما قال: (وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فأنا إليها أصعر)[2]. أي أميل.

وذاك أبو خيثمة رضي الله عنه كاد يتخلف- مثل كعب -عن رسول الله ﷺ في نفس الغزوة- غزوة تبوك -بسبب البستان الوارف والماء البارد والطعام اللذيذ والمنزل المهيأ للراحة والمرأة الحسناء ولم ينتصر على نفسه وإخلادها إلى الراحة إلا بعد جهادها في ذات الله.

---

(١) البخاري رقم ٥٤١٦ فتح الباري (٩ - ٥٤٩). ومسلم (٤ - ٢٢٨٢).
(٢) البخاري رقم ٤٤١٨، فتح الباري (٨ - ١١٣) ومسلم (٤ - ٢١٢١...).

كما قال ابن إسحاق: (ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أياماً إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له فيه ماء وهيأت له فيه طعاماً، فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله ﷺ في الضح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء، في ماله مقيم، ما هذا بالنَّصَف ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيئا لي زاداً ففعلتا ثم قدم ناضحه فارتحله ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك. . .)[1].

وقال الحافظ ابن حجر: (قلت واسم أبي خيثمة هذا سعد بن خيثمة، كذا أخرجه الطبراني من حديثه ولفظه: (تخلفت عن رسول الله ﷺ فدخلت حائطاً فرأيت عريشاً قد رش بالماء ورأيت زوجتي فقلت ما هذا بإنصاف رسول الله ﷺ في السموم والحرور وأنا في الظل والنعيم فقمت إلى ناضح لي وثمرات فخرجت. . .)[2].

وهذه الوقائع توضح قول الرسول ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[3] وكذلك تحذيره أصحابه من الغنى والتنافس في الدنيا عندما بدأت الأموال ترد عليه ﷺ ويرى أصحابه وهم محتاجون يتطلعون إليها، كما في حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه ـ وفيه ـ : (فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافقت صلاة الصبح مع النبي ﷺ فلما صلى بهم الفجر انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله حين رآهم، وقال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء» قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «فأبشروا وأملوا ما يسركم فوالله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»[4].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢ ـ ٥٢٠) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٥ ـ ٧) وزاد المعاد (٣ ـ ٤).

(٢) فتح الباري (٨ ـ ١١٩).

(٣) مسلم (٤ ـ ٢١٧٤).

(٤) البخاري، رقم الحديث ٣١١٨، فتح الباري (٦ ـ ٢٥٧).

وما خشيه الرسول ﷺ وقع بعد انتهاء الخلافة الراشدة إذ كان المجاهدون يقارعون الأعداء والشباب الناعم يتباهى بالتنعم ويظهر عدم المبالاة بما يصيب المجاهدين من نَصَب ومشقة ولكن ملوك المسلمين آنذاك ما زالوا يغارون على دين الله ولا يرضون بالتبجح السافر والمجاهرة المفضوحة فأخذوا على أيدي المترفين وأجبروهم على مشاركة المجاهدين في جهادهم قال ابن الأثير: (في هذه السنة (يعني سنة ٤٩ هـ) سير معاوية جيشاً كثيفاً إلى بلاد الروم للغزاة وجعل عليهم سفيان بن عوف وأمر ابنه يزيد بالغزاة معهم فتثاقل واعتل فأمسك عنه أبوه، فأصاب الناس في غزاتهم جوع ومرض شديد فأنشأ يزيد يقول:

ما أن أبالي بما لاقت جموعهم بالفرقدونة من حمى ومن موم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً بدير مران عندي أم كلثوم

.... فبلغ معاوية شعره فأقسم عليه ليلحقن بسفيان في أرض الروم ليصيبه ما أصاب الناس فسار...)[1].

وقد عرف أعداء الإسلام والمسلمين أن داء الترف من أهم الأسباب التي يمكن أن تبعد عنهم شبح الخطر القاضي عليهم من قبل الأمة الإسلامية فسعوا جاهدين في إغراق المسلمين بكل ما يحتاجونه لمتع حياتهم في المسكن والمآكل والمركب والملبس والاتصالات البعيدة وأنواع المغريات من الشهوات وتواصوا فيما بينهم بعدم تمكين المسلمين من التفكير بأي عمل جاد يغنيهم عن الغرب من صناعة ونحوها حتى يبقوا مترفين مسترخين متثاقلين واقرأ ما قاله أحد المسؤولين في وزارة الخارجية الفرنسية سنة ١٩٥٢ م: (... فلنعطِ هذا العالم ما يشاء ولنقوّ في نفسه عدم الرغبة في الإنتاج الصناعي والفني، فإذا عجزنا عن تحقيق هذه الخطة وتحرر العملاق من قيود جهله وعقدة الشعور بعجزه عن مجاراة الغرب في الإنتاج فقد بؤنا بالإخفاق الذريع وأصبح خطر العالم العربي وما وراءه

---

(١) الكامل (٣ - ٤٥٨). والموم مرض وقد ورد في صحيح مسلم في قصة العرنيين الذين اجتووا المدينة: (وقد وقع بالمدينة الموم، وهو البرسام). قال النووي: (وهو نوع من اختلال العقل، ويطلق على ورم الراس وورم الصدر، وهو معرب، وأصل اللفظة سريانية أ هـ (١١ - ١٥٦) شرح النووي على مسلم، وفي اللسان: (والموم الحمى مع البرسام).

من الطاقات الإسلامية الضخمة خطراً داهماً يتعرض به التراث الحضاري الغربي لكارثة تاريخية ينتهي بها الغرب وتنتهي معه وظيفته القيادية)[١].

وإن الترف الذي غرق فيه كثير من المسلمين ـ وكثير منهم يموتون جوعاً ويمشون عرايا ولا يجدون المأوى الذي يقيهم الحر والبرد ـ إن هذا الترف قد أوقعهم في الفسق والفجور وأورثهم التثاقل عن النهوض للمعاني السامية ومعالي الأمور، وقد نجح أعداء الله في إغراقهم بجميع وسائل الترف حتى أصبح أكثر المسلمين لا يفكرون إلا في المزيد من الفسق والمتع المباحة والمحرمة تدنت نفوسهم وضعفت هممهم وفقدت عزتهم فما عادوا أمة، بل أمسَوا قطعاناً يسوقها أعداؤها إلى مهاوي هلاكها المحقق، وهي تسير إلى تلك المهاوي في فرح ونشوة، كمجنون رأى لهب النيران يتتابع كالأمواج فأعجبه منظره وأخذ يجري ويقهقه حتى ألقى نفسه فيه فاحترق.

وهذا أحد أعلام هذا العصر يشكو من تخطيط أعداء الإسلام الماكر لإغراق المسلمين في الترف والفسق والتحلل، واستجابة أبناء المسلمين لأعدائهم، قال حسن البنا رحمه الله: (وقد عمل الأوربيون جاهدين على أن تغمر موجة هذه الحياة المادية بمظاهرها الفاسدة وجراثيمها القتالة جميع البلاد الإسلامية التي امتدت إليها أيديهم وأوقعها سوء الطالع تحت سلطانهم، مع حرصهم الشديد على أن يحتجزوا دون هذه الأمم عناصر الصلاح والقوة من العلوم والمعارف والصناعات والنظم النافعة، وقد أحكموا خطة هذا الغزو الاجتماعي إحكاماً شديداً واستعانوا بدهائهم السياسي وسلطانهم العسكري حتى تم لهم ما أرادوا)... إلى أن قال: (وجلبوا إلى هذه الديار نساءهم الكاسيات العاريات وخمورهم ومسارحهم ومراقصهم وملاهيهم وقصصهم وجرائدهم ورواياتهم وخيالاتهم وعبثهم ومجونهم، وأباحوا فيها من الجرائم ما لم يبيحوه في ديارهم، وزينوا هذه الدنيا الصاخبة العابثة التي تعج بالإثم وتطفح بالفجور في أعين البسطاء الأغرار من المسلمين الأغنياء وذوي الرأي فيهم والمكانة والسلطان)[٢] وذكر عوامل التحلل في موضع آخر فعدّ منها: (الانغماس

(١) جند الله ثقافة وأخلاقاً لسعيد حوا ص ٢١.

(٢) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ص ٣٨.

في ألوان الترف والنعيم والإقبال على المتعة والشهوات حتى أثر عن حكام المسلمين في كثير من العصور ما لم يؤثر على غيرهم مع أنهم يقرأون قول الله تبارك وتعالى: ﴿وإذا أردنا أن نُهلك قرية أمرنا مُتْرفيها ففسقوا فيها، فحقَّ عليها القول، فدمَّرناها تدميراً﴾[1].

وبهذا يعلم أن الذين يسهلون سبل الترف للمسلمين هم أعداء المسلمين لأنهم بذلك يقضون على معنوياتهم ورجولتهم وعزتهم وأن الواجب على كل قادر أن يسعى جاهداً في الحؤول بين المسلمين والترف والتثاقل والاسترخاء حتى تعود إليهم الروح الجهادية التي فقدوها كغيرها من المعاني الإسلامية العظيمة.

والسعي لذلك يحقق أمر الله سبحانه بإعداد العدة التي أهمها وجود الروح الجهادية في نفوس المسلمين وهذه الروح لا يمكن أن توجد مع الترف والاسترخاء والتثاقل.

قال تعالى: ﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيل، تُرهبونَ به عدوَّ الله وعدوَّكم، وآخرين من دونهم لا تَعلمونهم الله يعلمهم، وما تُنفقوا من شيءٍ في سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾[2].

وهل يرهب عدوَّ الله مترف متنعم يكاد ينطبق عليه قوله سبحانه: ﴿أوَ مَنْ يُنَشَّأ في الحِلْية وهو في الخصام غيرُ مُبينٍ﴾[3]؟

ومن أراد أن يربي أمة مجاهدة فليكن مثل طالوت: ﴿فلما فَصَلَ طالوت بالجنود قال إنَّ الله مُبْتَليكم بنَهَرٍ، فمن شرب منه فليس مني، ومن لم يَطْعَمْه فإنه مني إلا من اغترف غُرْفة بيده، فشربوا منه إلا قليلاً منهم﴾[4] يختبر جنده بالصبر عن شهوات النفس المباحة فضلاً عن المحرمة فمن فاز في ذلك الاختبار كان أهلاً للجهاد ومن سقط فيه فليس من أهل الجهاد ودعوة المترفين إلى الجهاد كمن يصنع سفينة تجري به على اليابسة.

قال سيد قطب رحمه الله: (هنا ينجلي لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء

---

(١) نفس المرجع ص ١٣١.
(٢) الأنفال: ٦٠.
(٣) الزخرف: ١٨.
(٤) البقرة: ٢٤٩.

هذا الرجل، إنه مقدم على معركة، ومعه جيش من أمة مغلوبة عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة، وهو يواجه جيش أمة غالبة فلا بد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهـرة الغالبة، هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة، الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات وتصمد للحرمان والمشاق وتستعلي على الضرورات والحاجات تؤثر الطاعة وتستحمل تكاليفها فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلـو إرادة جيشه وصبـره وصموده أولاً للرغبـات والشهوات، وصبـره ثانيـاً عـلى الحـرمـان والمتاعب)[1].

(١) في ظلال القرآن (٢ ـ ٢٦٨).

الفصل الثاني

السعي إلى إقامة الخلافة الإسلامية

التي تجمع شمل المسلمين

وفيه مبحثان:

المبحث الأول : المحافظة على أصول وحدة المسلمين وفروعها.

وفيه فرعان:

الفرع الأول : أصول وحدة المسلمين.

الفرع الثاني : ذكر بعض فروع وحدة المسلمين.

المبحث الثاني : الخلافة هي قمة الوحدة الإسلامية ويجب السعي لإقامتها.

المبحث الأول

المحافظة على أصول وحدة المسلمين وفروعها

إن الجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على أكتاف أمة معتصمة بحبل الله مجتمعة الكلمة متحدة الهدف والغاية، ولا يمكن أن يقوم على كواهل طوائف متفرقة مختلفة في عقيدتها وأهدافها وغاياتها، بل إن هذه الطوائف جديرة بفتح سوق النزاع والشقاق والحروب بعضها مع بعض بدلاً من حربها مجتمعة، مع غيرها. فلا جهاد بدون وحدة واجتماع ولا وحدة بدون أصول تجمع الشتات وتلم الشعث وفروع وارفة لتلك الأصول تمد ظلالها على المتحدين تنزل على قلوبهم الطمأنينة والرضا.

وقد منح الله الأمة الإسلامية قواعد لوحدتهم وأصولاً ثابتة لا تحركها عواصف الخلاف والفرقة ما حافظوا على تلك القواعد والأصول وأمدهم بفروع لها تأبى على نار النزاع أن تصل إلى ظلالها.

وهذه خلاصة لتلك القواعد والأصول وفروعها:

وفي هذا البحث فرعان:

الفرع الأول
أصول وحدة المسلمين

أما أصول وحدة المسلمين فإنها تجتمع في الأمور الثلاثة الآتية:

الأمر الأول: وحدة العقيدة.

الأمر الثاني: وحدة المنهج.
الأمر الثالث: وحدة القيادة.

الأصل الأول وحدة العقيدة:

العقيدة هي التي وحدت بين عباد الله من الأنبياء والرسل وأتباعهم على تباعد أزمانهم، وهي الدين الذي أمرهم الله به جميعاً، كما قال تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصَّينا به إبراهيمَ وموسى وعيسى أن أقيموا الدِّين ولا تتفرَّقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه، الله يَجْتبي إليه من يشاء ويُهدي إليه من يُنيب﴾[1].

ولو أن الأمم التي تتابعت الرسل على دعوتهم في كل العصور اعتصموا بهذه العقيدة وهذا الدين ولم يحملهم البغي على رد الحق وعدم قبوله لكانت الوحدة عامة للبشر كلهم ولكن البغي أصمّ أغلب الأمم وأعماها فلم تقبل ذلك الدين الحق بعد أن أقام الله عليهم الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب فتفرقوا واختلفوا، كما قال تعالى: ﴿وما تفرَّقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بَغْياً بينهم، ولولا كلمةٌ سبقت من ربِّك إلى أجل مُسمّىً لقُضِي بينهم، وإن الذين أُورثوا الكتابَ من بعدهم لفي شكٍّ منه مُريب﴾[2].

فوحدة العقيدة هي أعظم داع لوحدة الأمة بل هي الأصل الأول والأساس لأصول الوحدة وفروعها، قال سيد قطب رحمه الله:

(ثم يدعو المسلمين لإعلان الوحدة الكبرى للدين من لدن إبراهيم أبي الأنبياء إلى عيسى بن مريم إلى الإسلام الأخير ودعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بهذا الدين الواحد: ﴿قولوا آمنَّا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيمَ وإسماعيل وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيُّون من ربِّهم، لا نُفرِّق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون﴾[3]. تلك هي الوحدة الكبرى بين الرسالات جميعاً وبين الرسل جميعاً هي قاعدة التصور

(١) الشورى: ١٣.
(٢) الشورى: ١٤.
(٣) البقرة: ١٣٥ ـ ١٣٦.

الإسلامي وهي التي تجعل من الأمة المسلمة الأمة الوارثة لتراث العقيدة القائمة على دين الله في الأرض الموصولة بهذا الأصل العريق السائرة في الدرب على هدى ونور والتي تجعل من النظام الإسلامي النظام العالمي الذي يملك الجميعُ الحياة في ظله دون تعصب ولا اضطهاد والتي تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعاً مفتوحاً للناس جميعاً في مودة وسلام)[١].

وإذا كانت وحدة الأمة الإسلامية ضرورة فإن ذلك يحتّم على دعاة الإسلام والقادرين على مناصرتهم أن يجاهدوا أولاً في وحدة عقيدتهم على ضوء ما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لأن هذا التصدع والتشتت الذي أصاب المسلمين أساسه عدم وحدة العقيدة عندهم ـ أي إنهم لم يتفقوا كلهم على العقيدة الصحيحة التي جاء بها الإسلام ـ من الناحية العملية على الأقل. نعم العقيدة الإسلامية واحدة تضمنها إجمالاً حديث جبريل المشهور وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره وكل هذه الأصول الإيمانية وما تفرع عنها فصلت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تفصيلاً كاملاً.

ولكن المتأمل في حال المسلمين يجد بوناً شاسعاً بين اثنين أو فريقين كل منهما يقر بالإيمان بالله وبرسوله وكتابه مثلاً فيقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ولكن أحدهما يلتزم بذلك فلا يصرف من عبادته شيئاً لغير الله ولا يتبع أحداً غير رسول الله ﷺ ويصر على تحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.. وتجد الآخر غارقاً في عبادة غير الله مثل عباد الأوثان، ولكن في صورة قبور وأضرحة وما شابه ذلك، وتجد من يرفض الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويرى في تشريع البشر ما هو أولى بالتحكيم وهكذا... وما ذلك إلا لأن قاعدة التصور الإسلامي والعقيدة التي كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه لم يدركها الجميع على حقيقتها، بل أدركها بعض المسلمين فالتزموا بها وأخطأ في تصورها بعضهم الآخر فحاربوها عملياً لذلك كان الواجب على دعاة الإسلام والقادرين على مناصرتهم أن يولوا عنايتهم هذا الأمر وأن يعيدوا المسلمين كلهم إلى العقيدة

---

(١) في ظلال القرآن (١ ـ ١١٧ ـ ١١٨).

الصافية التي جاء بها رسول الله ﷺ وكان عليها السلف الصالح في كل الجوانب. وإلا فإنه لا أمل مطلقاً في وحدة المسلمين، والذي يدعو إلى وحدتهم وهم مختلفون في العقيدة مثل الذي يتعب نفسه بالرقم على الماء. ولو أن المسلمين متحدون في تصور العقيدة الإسلامية الصحيحة لما وفدت على أبنائهم عقائد أجنبية عن دينهم فاتبعها كثير منهم ولا زال يزعم أنه مسلم فتجد الشيوعي يزعم أنه مسلم والوثني القبوري يزعم أنه مسلم والمحارب لحكم الله الذي يجيز لنفسه أن يشرع للبشر يزعم أنه مسلم وقد يصلي بعض هؤلاء ويصوم ويحج ويقرأ القرآن ويؤدي كثيراً من شعائر الإسلام ولكنه فاسد العقيدة فلم يجد أداء تلك الشعائر من هذه الفرق في وحدتهم شيئاً لتفرقهم في تصور العقيدة وتطبيق مقتضاها.

والعقيدة الإسلامية عقيدة سهلة لا تعقيد فيها يجب أن تؤخذ مباشرة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ سواء منها ما يتعلق بالله سبحانه في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته أو ما يتعلق بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر كل ذلك بحب الإيمان به إيماناً مستيقناً بلا فلسفات أجنبية ولا تأويلات محتملة بل الواجب الاقتداء بالسلف الصالح في الإيمان بذلك ولا مانع بل يجب إذا وردت شبهة في أي باب من هذه الأبواب أن تقام الحجج العقلية والنقلية والكونية على صحة الإيمان بذلك الباب ودحض الشبه الواردة عليه.

الأصل الثاني: وحدة المنهج:

المقصود بالمنهج النظام الذي يكفل للبشر رسم السبيل التي يجب أن يسلكوها في تصرفاتهم ونشاطهم ليحققوا بذلك السعادة المنشودة في الدنيا والآخرة. ولا يمكن ذلك إلا إذا كان ذلك النظام صادراً عن عالم حكيم عادل قادر على مجازاة من خالفه، ولا يتحقق هذا إلا في منهج الله الذي أنزله على رسوله ﷺ وبعثه به رحمة للعالمين.

ويمتاز هذا المنهج على سواه من المناهج بما مضى من كونه صادراً عن علم وحكمة وعدل. ويتبع ذلك أنه صالح لكل زمان ومكان، وصالح لكل البشر كما أنه غير قابل للتحريف والتبديل، لأن الله تعالى حفظه بنفسه: ﴿إنا نحن نزّلنا

الذِّكْرَ وإنا له لَحَافظونَ﴾(١) والذكر يشمل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومعانيهما كذلك وقد قيض الله لهما من يتوارثهما جيلاً عن جيل ويذب عنهما ويدفع الشبه التي يكيد بها أعداء الله لهما.

والمسلمون كلهم فرض عليهم الالتزام بهذا المنهج في حياة الأفراد والجماعة في حياة الحاكم والمحكوم لا يجوز لأحد العدول عنه أو الاحتكام إلى غيره، لأنه هو الصراط المستقيم الذي من سلك غيره ضل: ﴿وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبعوه ولا تتَّبعوا السُّبَل فَتَفرَّق بكم عن سبيله﴾(٢).

ولا يكون الإنسان في عداد المؤمنين إلا إذا آمن بهذا المنهج ورضي حكمه واحتكم إليه ولم يجد في نفسه حرجاً مما قضاه الله تعالى:

﴿فلا وربِّك لا يُؤمنون حتى يحكِّموكَ فيما شَجَر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرَجاً مِمَّا قضيتَ ويسلِّموا تسليماً﴾(٣). والمسلم ملزم بذلك بمجرد قوله لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ. وهو بذلك منهج واحد ثابت صالح ملزم على طول الزمن ولا يوجد منهج في الأرض له تلك الصفات والسمات. ولو أن المسلمين التزموا هذا المنهج لتمكنوا من قيام وحدة بينهم يستحيل أن تدانيها وحدة أي أمة من الأمم، وقد كانت تلك الوحدة في زمن طويل من وقت قيام دولة الإسلام في المدينة المنورة التي ارتفعت رايتها بعد ذلك في شرق الأرض وغربها إلى أن سقطت الخلافة الإسلامية في أوائل القرن الرابع عشر من الهجرة، وكانت تلك الوحدة تقوى وتضعف بحسب الالتزام بذلك المنهج، كلما كان الالتزام به أكثر كانت الوحدة أقوى، وكلما كان الالتزام به أقل كانت الوحدة أضعف وهكذا. ولقد كان ترك شيء من منهج الله سبباً في إلقاء العداوة والبغضاء بين أمم سبقت أمة محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقَهم فنَسُوا حظاً مِمَّا ذُكِّروا به، فأغرينا بينهم العداوةَ والبغضاء إلى يوم القيامة، وسوف يُنبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾(٤).

---

(١) الحجر: ٩.
(٢) الأنعام: ١٥٣.
(٣) النساء: ٦٥.
(٤) المائدة: ١٤٥.

قال ابن جرير رحمه الله: (يقول عز ذكره: وأخذنا من النصارى الميثاق على طاعتي واتباع رسلي والتصديق بهم، فسلكوا في ميثاقي الذي أخذته عليهم منهاج الأمة الضالة من اليهود، فبدلوا كذلك دينهم ونقضوا نقضهم وتركوا حظهم من ميثاقي الذي أخذته عليهم بالوفاء بعهدي، وضيعوا أمري. .) - إلى أن قال: (- يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿فأغرينا بينهم﴾ حرشنا بينهم وألقينا، كما تغري الشيء بالشيء، يقول جل ثناؤه: لما ترك هؤلاء النصارى الذين أخذت ميثاقهم بالوفاء بعهدي حظهم، مما عهدت إليهم من أمري ونهي، أغريت بينهم العداوة والبغضاء)[1].

ثم قال: (فإن قال قائل: وما العداوة التي بين النصارى، فتكون مخصوصة بمعنى ذلك؟ قيل ذلك عداوة النسطورية واليعقوبية والملكية النسطورية واليعقوبية)[2].

وقال ابن كثير رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم. . .﴾ كذلك أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ ومناصرته ومؤازرته واقتفاء آثاره وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض، ففعلوا كما فعل اليهود خالفوا المواثيق ونقضوا العهود، ولهذا قال تعالى: ﴿فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ أي فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضاً ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة، وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً)[3]. ولا يزال الواقع يشهد بتلك العداوة، والبغضاء في هذا العصر وسيستمر كما قال الله إلى يوم القيامة قال سيد قطب رحمه الله:

(ولقد وقع بين الذين قالوا: إنا نصارى من الخلاف والشقاق والعداوة والبغضاء في التاريخ القديم والحديث مصداق ما قصه الله - سبحانه - في كتابه

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦ - ١٥٨).
(٢) نفس المصدر السابق (٦ - ١٦٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٢ - ٣٣).

الصادق الكريم، وسال من دمائهم على أيدي بعضهم مع بعض ما لم يسل من حروبهم مع غيرهم في التاريخ كله، سواء كان ذلك بسبب الخلافات الدينية حول العقيدة أو بسبب الخلافات على الرياسة الدينية أو بسبب الخلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وفي خلال القرون الطويلة لم تسكن هذه العداوات والخلافات ولم تخمد هذه الحروب والجراحات وهي ماضية إلى يوم القيامة كما قال أصدق القائلين جزاء على نقضهم ميثاقهم ونسيانهم حظاً مما ذكروا به من عهد الله، وأول بند فيه هو بند التوحيد الذي انحرفوا عنه بعد فترة من وفاة المسيح عليه السلام)(١).

ولقد أمر الله عباده المؤمنين بالاعتصام بحبله ـ الذي هو كتابه وسنة رسوله ـ ونهاهم عن التفرق والاختلاف، وذلك لا يكون إلا بتركهم أو ترك بعضهم منهجه سبحانه، وذكرهم بما امتن به عليهم من جمعهم بعد التفرق بذلك المنهج الرباني ونهاهم أن يقعوا فيما وقع فيه غيرهم من الأمم الماضية الذين اختلفوا بعدما جاءتهم البينات فتركوها قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبلِ الله جميعاً ولا تَفرَّقوا، واذكروا نعمةَ الله عليكم إذ كنتُم أعداءً فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتُم على شَفَا حُفْرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبيِّنُ الله لكم آياتِه لعلكم تهتدون * ولْتَكُنْ منكم أمّة يَدْعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرَّقوا واختلفوا من بَعْدِ ما جاءهم البيناتُ وأولئك لهم عذابٌ عظيمٌ﴾(٢).

فسنته تعالى في أمة محمد ﷺ كسنته في غيرها من الأمم لا فرق بينها وبين تلك الأمم، إن اعتصمت بحبله والتزمت منهجه جمع شتاتها ووقاها الفرقة والعداوة والاختلاف، وإن زاغت عن منهجه إلى مناهج أخرى شتت الله شملها وألقى بينها العداوة والبغضاء حتى تعود إلى منهج الله تعالى، وقد أنكر الله على من ظن أن الكفار من هذه الأمة خير من الكفار الذين سبقوا في الأمم الماضية أو أن يكون لهم براءة تحول بينهم وبين ما أصاب كفار الأمم الماضية، كما قال

---

(١) في ظلال القرآن(٦ ـ ٨٦٠).

(٢) آل عمران: ١٠٣ ـ ١٠٥.

تعالى: ﴿أكفاركُم خيرٌ من أولئكم، أم لكم براءةٌ في الزُّبُر﴾(١).

وهذا ما يشهد به واقع المنتسبين إلى الإسلام فقد فرق الله شملهم وشتت جمعهم وجعل بعضهم يقاتل بعضاً كما يلعن بعضهم بعضاً، على الرغم من كثرة المحاولات التي قصد بها إيجاد نوع من التقارب بينهم باسم الإسلام ـ ولكن بدون تطبيق ـ وباسم غيره من قومية، ومذاهب أخرى كالشيوعية والرأسمالية وما تفرع عنهما، وسيبقى المنتسبون إلى الإسلام متفرقين متعادين متباغضين حتى يعودوا إلى منهج الله ويتركوا منهج غيره.

الأصل الثالث
وحدة القيادة

لقد كانت قيادة المسلمين عندما جاء الإسلام واحدة ـ كعقيدتهم الواحدة، ومنهجهم الواحد ـ وكان الرسول ﷺ هو قائدهم فينزل عليه الوحي، فيبلغهم إياه ويوجههم به في أمور دينهم ودنياهم كان إمامهم في الصلاة ومعلمهم في المسجد، وقائدهم الأعلى في الغزوات وعاقد ألويتهم في السرايا والبعوث، وباعثهم للدعوة ومموليهم في الإمارات يأمرهم بالوحي فيأتمرون، وينهاهم فينتهون، فإذا كان في أمور اجتهادية للرأي فيها مجال جعل الأمر شورى بينهم بأمر من ربه، يقنعهم بالحجة فيقتنعون أو يرون الرأي ـ وليس فيه نص من ربه يخالف رأيهم ـ فينزل عن رأيه لرأي أصحابه، وقد يشير عليهم بأمر من أمور الدنيا ـ كترك تأبير النخل ـ فيشكون إليه عدم تمامه فيقول لهم: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم».

وهكذا كان ﷺ هو القاضي والمفتي وقاسم المال قيادة واحدة لأمة واحدة، وعندما توفي ﷺ انتقلت القيادة إلى خلفائه الراشدين، فكانوا مثله في كل شيء ما عدا الرسالة التي انقطعت بموته ﷺ، وأكمل الله دينه بذلك فكان الخليفة كذلك القائد في الحرب أو عاقد ألويتها وباعث غزاتها ومولّي أمراءها أو أمراء الجهات وكان القاضي والمفتي ـ وإن استعان بغيره في كل ذلك ولكن جهة الأمر

(١) القمر: ٤٣.

والنهي واحدة مقيدة بما في كتاب الله وسنة رسوله ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق فكان الخليفة ينفذ حكم الله الذي فيه نص ويعقد مجالس شورى فيما لا نص فيه ولم تظهر المصلحة في الأخذ بأحد وجوهه فهو كبير ولاة الأمر، وولاة الأمر هم الخلفاء وذوو الرأي والعلم من الأمة ـ وكان الخلفاء قمة في العلم والرأي في الأمة ـ وإن كانوا غير محيطين بما عند الأمة كلها، ولذلك كانوا يستفتون من يظنون أن عنده ما ليس عندهم من كتاب الله وسنة رسوله نصاً أو فقهاً فيه ويستشيرون ذوي الرأي فيما لا نص فيه، أو فيه نص ولكن لا يظهر منه صفة تطبيق الحكم أو تنفيذه، هكذا كان الخلفاء رضي الله عنهم.

وكانت وحدة الأمة في هذا الوقت أرقى وحدة شهدتها البشرية على وجه الأرض تحت قيادة غير معصومة ـ عصمة الرسل عليهم السلام ـ وغير متعددة، على الرغم من سعة رقعة الأرض التي رفرفت عليها راية الإسلام وتعدد الأجناس البشرية التي كانت مختلفة العادات والتقاليد والأنظمة قبل الإسلام. وما ذلك إلا لوحدة القيادة ثم وحدة التوجيه تبعاً لذلك وصدور توجيهات تلك القيادة عن المنهج الرباني الذي جعل تلك الأجناس البشرية ترضى بتلك القيادة وتجتمع تحت راية الخلافة الإسلامية الراشدة.

وعندما بدأت القيادة تتعدد في أول العهد الملكي ـ بعد الخلافة الراشدة ـ حيث وجدت قيادة سياسية عسكرية يدير دفتها الملوك والأمراء وهي السلطة التنفيذية التي بيدها القـوة، وقيادة دينية روحية يتولاها علماء المسلمين، ومن هنا اختلفت التوجيهات: توجيهات تصدر من الملوك والأمراء وأخرى تصدر من العلماء، ولم يكن في أول الأمر الخطر واضحاً في هذا التعدد، لأن الملوك والأمراء لم يكونوا يقفون في وجه حكم الله ومبادىء دينه بل كانوا يتولون شؤون السياسة والحرب بما لا يتصادم مع توجيهات العلماء ـ في الجملة ـ ولكن الهوة بعد ذلك اتسعت عندما لم يلق الملوك والأمراء لتوجيهات العلماء ولفقهاء بالاً، بل أخذوا ينفذون ما يرون ولو خالفوا العلماء فانصدع صف المسلمين إلى: ملوك وأمراء ومن وازرهم وسار في ركابهم منفذاً رغباتهم ومرضياً أهواءهم، وعلماء وفقهاء معهم طلبة العلم الذين يتلقون عنهم ويعملون بتوجيهاتهم فحصل بذلك ضرر

عظيم ازداد اتساعاً على مر الزمن حتى انفرط عقد المسلمين بسقوط آخر ملك واحد كان يسمى الخليفة ـ تجاوزاً ـ في أول القرن الرابع عشر الهجري، وبذلك فقد المسلمون القيادة السياسية الواحدة أيضاً فكانت ظلمات بعضها فوق بعض إذ أصبح لكل شعب قائد، وفي كل شعب عدد من الأحزاب، وفي كل حزب عدة خلايا مختلفة كما هو مشاهد اليوم في كل بلاد المسلمين، وإذا أراد المسلمون ـ ولا سيما دعاة الإصلاح والجهاد ـ أن يعيدوا للمسلمين وحدتهم السليبة فعليهم أن يسعوا سعياً حثيثاً إلى إعادة وحدة القيادة تدريجياً حتى تعاد الخلافة الإسلامية وإلا فإن الفرقة والخلاف يزدادان اتساعاً.

قال المودودي رحمه الله: (إن أول ضرر من الأضرار الرئيسية التي نكبت بها الأمة الإسلامية من جراء النظام الملكي هو أن انقسمت قيادة الأمة المسلمة إلى قسمين بعد أن كانت هذه القيادة في عهد النبي ﷺ وعهد خلفائه الراشدين رضي الله عنهم موحدة تستقطب جميع نواحي الحياة: الروحية والعلمية والفكرية والسياسية حول محور واحد، بحيث كانت التوجيهات السياسية والتدابير القضائية والتعليمات الإدارية والتنظيمات العسكرية وشؤون الحرب أو الصلح تنطلق من مصدر بعينه، ونفس القادة الذين كانوا يوجهون هذه النواحي هم الذين كانوا في الوقت نفسه قادة المسلمين في إصلاح الاختلاف وقادتهم في الفكر والعلم وقادتهم في التربية الروحية.

إن هذه القيادة بجميع نواحيها كانت تدور حول محور بعينه إلا أنه لما نجم قرن الملكية اعترى القيادة الانقسام وانشقت إلى شقين ففيما يتعلق، بالشؤون السياسية استأثر به الحكام، وفيما يرجع إلى النواحي الخلقية والفكرية والروحية انتقلت أزمَّته إلى رجال العلم والفقه والتصوف. أصبح الفقهاء المسلمين[1] وعلماؤهم روادهم في الشؤون الروحية والخلقية والدينية، وأصبح الملوك والأمراء قادتهم في الشؤون السياسية، وكان هذا الانقسام في حد ذاته فتنة مدمرة كان من المحتوم أن تعكس آثارها السيئة في المجتمع، ثم زادت الطين بلة طبيعة القيادة السياسية، إذ من مقتضاها الطبيعي أن تقحم نفسها في كل

(١) كذا ولعله فقهاء المسلمين.

شيء من شؤون الحياة وتدس أنفها في كل أمر من أمورها، وانطلاقاً من هذه الطبيعة هبت القيادة السياسية تفرض سلطانها على كلتا الناحيتين من الناحية الدينية والخلقية في الوقت الذي كان فيه أصحاب العلم والفقه والتصوف لم يكونوا ليرضوا ـ وما كان ينبغي لهم أن يرضوا بحال من الأحوال ـ تدخل القيادة السياسية في شؤون الدين والأخلاق كيلا يشوه وجه الدين ولا يغير الفكر الإسلامي ولا يمسخ المبادىء الخلقية، فنجم عن كل ذلك التباعد في هاتين القيادتين، واتسع الصدع بينهما ثم شرع التناحر والتصارع بينهما بدلاً من التعاون والتلاحم ولانزال نشاهد هذه الظاهرة الغريبة على قدم وساق في تاريخ الإسلام المعاصر[١].

هذه هي أصول وحدة المسلمين التي إذا حافظ عليها المسلمون وسعوا إلى إعادتها اتحدوا واستقامت وحدتهم على ساقها وإن فرطوا فيها أو في بعضها كان التفرق والخلاف والشقاق حليفهم.

وهي تمثل القاعدة الإسلامية التي تنطلق منها جميع النظم الإسلامية من أصول الدين وفروعه، وهي شهادة أن لا إلٓه إلا الله وأن محمداً رسول الله. وإذا كان محمد ﷺ قائداً برسالة فإن خلفاءه قادة لشريعته فقط وإلا فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

الفرع الثاني
ذكر بعض فروع وحدة المسلمين

ويجانب هذه الأصول هنالك فروع وضعها الله بجانبها وشرعها للأمة الإسلامية فروعاً أخرى، تمد تلك الأصول بالبقاء والنماء في توحيد الأمة ورأب صدعها، منها ما لا يؤدى ـ وهو عبادة ـ إلا بعمل جماعي، كصلاة الجماعة اليومية، وهي خمس صلوات يلزم المسلمين أن يدعوا بيوتهم أو أسواقهم، أو مزارعهم، أو مصانعهم، أو أي عمل آخر ليسيروا كلهم ـ الذكور منهم، ويباح

---

(١) الإسلام اليوم ص ٢٩ ـ ٣٠ من مطبوعات الجماعة الإسلامية بباكستان.

أيضاً للأناث بشروط ـ إلى المسجد يصلي بهم إمام واحد ويقفون صفوفاً متراصة يلصق أحدهم كتفه بكتف جاره الذي عن يمينه والآخر الذي عن يساره وكعبه بكعب كل منهما لا يكون بينهما خلل يدخل الشيطان منه، ولا سارية تحقيقاً للإخاء الكامل والوحدة الكاملة يتبعون كلهم إمامهم في حركاته وسكناته وتكبيراته لا يسبقونه ولا يسبقه بعضهم ولا يتأخرون عنه أكثر من الاطمئنان اليسير وصلاة الجمعة، وهي تؤدى مرة كل أسبوع يجب على كل قادر غير معذور حضور الخطبتين والصلاة، وصلاة العيدين: عيد الفطر في أول يوم من شوال كل عام، وعيد الأضحى، في اليوم العاشر من شهر ذي الحجة كل عام أيضاً، مع ما فيهما من سماع الخطبة كذلك، وصلاة الكسوف التي ينادى لها كلما كسفت الشمس أو خسف القمر، وصلاة الاستسقاء كلما أجدبت الأرض ومنع الله القطر من السماء، وسماع خطبة الإمام في كل منهما.

وأوجب الله على كل مسلم حج بيت الله الحرام ما دام قادراً بالغاً ولم يحج، وكذا العمرة على القول بوجوبها، وحث على نفلهما، والحج لا يكون إلا في وقت واحد يجتمع فيه ألوف المسلمين، بل ملايينهم، وهو ذو نظام معين يؤدون شعائره في زمان واحد ومكان واحد بلباس واحد وذكر واحد، وفرض سبحانه على جميع المسلمين رجالاً ونساء قادرين غير معذورين صيام شهر واحد في السنة هو شهر رمضان، مع ما فيه من قيام وتهجد واعتكاف وأغراهم بليلة فيه جعلهم يتنافسون كلهم لمصادفتها وأوجب سبحانه على كل غني إخراج جزء من ماله للفقراء تختلف مقاديره باختلاف المال أو الكسب ولا تختلف بحسب الغنى نفسه.

كما شرع سبحانه كل ما يحقق الألفة والمواساة من البدء بالتحية وردها وعيادة المريض وتشييع الجنازة، وتعزية المصاب وإعداد الطعام لأهل الميت وتشميت العاطس وغير ذلك من إعانة المحتاج والابتسام في وجه المسلم والكلمة الطيبة وكلها تتحقق بها الألفة والمحبة والوئام ويعين على وحدة الكلمة.

وهناك أسباب تدعو إلى الاختلاف والفرقة والبغضاء حذر الشارع منها وشرع ما يقي المسلمين وقوعها أو التخفيف منها، فحرم الاعتداء على النفوس

وشرع للوقاية منه القصاص، وحرم الاعتداء على الأعراض والعقول والأموال وشرع للوقاية منها الحدود، وكذلك التعزير وحرم البغي وشرع قتال الباغي وهكذا لم يترك الخالق سبحانه أي باب من أبواب الألفة إلا شرعه وفتحه ودعا إلى الولوج فيه، ولم يدع باباً من أبواب العداء والبغضاء والخلاف إلا سده وأحكمه ونهى عن فتحه أو الولوج فيه وشرع الثواب لمن أطاعه والعقاب لمن عصاه، كل ذلك مما يؤلف القلوب ويجمع الشمل ويرأب الصدع ويقضي على الفرقة.

وكل هذه الأمور وغيرها امتلأ به كتاب الله وسنة رسوله وكتب الفقه وكتب الأخلاق يصعب على المرء استقصاء نصوصه في مثل هذا البحث ويكفي هنا نقل بعض الأحاديث، بعضها فيه فروع تدعو إلى الألفة والوحدة وبعضها فيه صفات تدعو إلى الفرقة والاختلاف، رغب الشارع في الأولى وحذر من الثانية.

ففي حديث أبي موسى عن النبي ﷺ، قال: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه»[1].

وفي حديث النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[2].

وفي حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[3].

وفي هذه الأحاديث حث للمسلم على أن يتراحم مع أخيه المسلم وعلى

---

(١) البخاري رقم ٤٨١ فتح الباري (١ ـ ٥٦٥)، ومسلم (٤ ـ ١٩٩٩).
(٢) البخاري رقم ٦٠١١ فتح الباري (١٠ ـ ٤٣٨) ومسلم (٤ ـ ١٩٩٩).
(٣) البخاري رقم ٢٤٤٢ فتح الباري (٥ ـ ٩٧) ومسلم (٤ ـ ١٩٩٦).

التوادد والتعاطف والعدل وعدم خذلان بعضهم بعضاً وقت حاجته إليه.

كما نهى ﷺ عن ظن السوء والتجسس والتنافس على الدنيا والتحاسد والتباغض والتدابر، لأن هذه الأمور كلها تقضي على معنى الأخوة وتورث الاختلاف والشقاق.

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»[1].

ولقد ابتعد المسلمون على مر العصور عن المحافظة على أصول وحدتهم وفروعها وابتعدوا عن دين الله فأذاقهم الله عذاب الفرقة والاختلاف فيما بينهم حتى أصبح العدو لا يحتاج إلى مباشرة حربهم بنفسه وإنما يصنع لهم السلاح وينهب خيراتهم ثمناً له ـ ولغيره ـ ويحرش بعضهم على بعض فحصلت بينهم فرقة واختلاف وتصدع ـ ولا سيما في هذا العصر ـ وأسالوا دماء بعضهم بعضاً وسلبوا حرية بعضهم بعضاً، ولو أنهم تمسكوا بهذا الدين وحرصوا على تطبيقه والتزموا أصوله وفروعه لكانوا أعظم أمة في هذه الأرض كما كانوا كذلك من قبل.

ويحسن أن يختم هذا المبحث بصرخة أحد دعاة العصر من هداة الخير الذين أقضت مضاجعهم اختلافات المسلمين التي أضعفتهم وأطمعت فيهم عدوهم، وهاله سكوت المسلمين وتخاذلهم وخنوعهم لتلك الاختلافات التي أذلتهم لأعدائهم.

قال عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي القصيمي رحمه الله: (الجهاد المتعلق بالمسلمين بقيام الألفة واتفاق الكلمة، قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبلِ الله جميعاً ولا تفرَّقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾[2] وقال تعالى: ﴿هو الذي أيَّدك بنصره وبالمؤمنين *

---

(١) البخاري رقم ٦٠٦٦ فتح الباري (١٠ ـ ٤٨٤) ومسلم (٤ ـ ١٩٨٥).
(٢) آل عمران: ١٠٣.

وألَّف بين قلوبهم، لو أنفقتَ ما في الأرض جميعاً ما ألَّفتَ بين قلوبهم، ولكنَّ الله ألَّف بينهم﴾[١] وقال: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تَبْغي حتى تفيء إلى أمرِ الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدلِ وأقسطوا إن الله يحبُّ المقسطين * إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخوَيكم﴾[٢]. وقال ﷺ: «وكونوا عباد الله إخواناً المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يكذبه ولا يخذله»[٣]. وقال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد»[٤] إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على هذا الأصل العظيم، فإنه من أعظم الجهاد السعي في تحقيق هذا الأصل في تأليف قلوب المسلمين واجتماعهم على دينهم ومصالحهم الدينية والدنيوية في جميع أفرادهم وشعوبهم وفي ربط الصداقة والمعاهدات بين حكوماتهم بكل وسيلة. . .

ومن أنفع الأمور أن يتصدى لهذا الأمر جميع طبقات المسلمين من العلماء والأمراء والكبراء وسائر الأفراد منهم كل أحد يجد بحسب إمكانه. فمتى كانت غاية المسلمين واحدة (وهي الوحدة الإسلامية) وسلكوا السبل الموصلة إليها ودافعوا جميع الموانع المعوقة والحائلة دونها فلا بد أن يصلوا إلى النجاح، ومما يعين على هذا الإخلاص وحسن القصد فيها عند الله من الخير والثواب، وأن يعلموا أن كل سعي في هذا الأمر من الجهاد في سبيل الله ومما يقرب إليه وإلى ثوابه، وأن المصلحة في ذلك مشتركة فالمصالح الكليات العامة تقدم على المصالح الجزئيات الخاصة، ولهذا يتعين عليهم ألا يجعلوا الاختلاف في المذاهب والأنساب والأوطان داعياً إلى التفرق والاختلاف. فالرب واحد والدين واحد، والطريق لإصلاح الدين وصلاح جميع طبقات المسلمين واحد، والرسول المرشد للعباد واحد فلهذا يتعين أن تكون الغاية المقصودة واحدة، فالواجب على جميع المسلمين السعي التام لتحقيق الأخوة الدينية والرابطة الإيمانية فمتى علموا وتحققوا ذلك وسعى كل منهم بحسب مقدوره واستعانوا بالله وتوكلوا عليه

---

(١) الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣.
(٢) الحجرات: ٩ ـ ١٠.
(٣) راجع ما سبق ص ٣٩٥ من هذا الجزء.
(٤) انظر نفس الصفحة والجزء.

وسلكوا طرق المنافع وأبوابها ولم يخلدوا إلى الكسل والخور واليأس نجحوا وأفلحوا، فإن الكسل والخور واليأس من أعظم موانع الخير، فإنها منافية للدين وللجهاد الحقيقي فمن استولى عليه الكسل والخور لم ينهض لمكرمة، ومن أيس من تحصيل مطالبه انشلت حركاته ومات وهو حي، وهل أخّر المسلمين في هذه الأوقات إلا تفرقهم والتعادي بينهم وخورهم وتقاعدهم عن مصالحهم والقيام بشؤونهم حتى صاروا عالة على غيرهم، ودينهم قد حذرهم من هذا أشد التحذير، وحثهم على أن يكونوا في مقدمة الأمم في القوة والشجاعة والصبر والمصابرة والمثابرة على الخير والطمع في إدراكه وقوة الثقة بالله في تحقيق مطالبهم ودفع مضارهم وكمال التصديق بوعد الله لهم بالنصر إذا نصروه وبالنجاح إذا سلكوا سبله وبالإعانة والتسديد إذا كمل اعتمادهم عليه: ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون﴾)[1].

هذا ومما يجب أن يحذره دعاة الإسلام خلايا التناجي في صفوفهم، فإن خطرها أعظم عليهم من الأعداء الذين يكيدون لهم خارج صفوفهم، لأن هذه الخلايا الداخلية تصطاد ما تريد من العثرات، أو ما قد يظن بأنه عثرات وتأخذ سبيل النصح في الظاهر وهي لا تريد إلا خلخلة الصف وشق الوحدة والقضاء على الجماعة وقد يكون الأصل في هذه الخلايا المتناجية الصلاح وإرادة الخير ولكن ضعف الإيمان يجعلها تتصف بصفة الحسد والحقد على من أوتي الحكمة والعلم وقوة التأثير والصبر على المحن ومقارعة الأعداء والحب بين صفوف الجماعة الحب الذي يجعل كلمته مسموعة ورأيه مقبولاً، ويجعل كلمة خلايا التناجي هزيلة غير ذات شأن فلا يسع تلك الخلايا وقد ضعف إيمانها إلا جمع أشباهها حولها وحبك الدسائس والمؤامرات وتلبيسها بلباس النصيحة والتحذير واتخاذها وسيلة لتفريق الكلمة وصدع الصفوف، إن هؤلاء أخطر على صف الجماعة من أي عدو آخر فليكن المسلمون منهم على حذر وليفطنوا لدسائسهم ومؤامراتهم حتى لا يقعوا في شباك مكرهم. ومن العلامات البارزة لهذه الخلايا الخوف الشديد الذي يجعلهم يسكتون ويتوارون عندما تجتمع كلمة المسلمين على

(١) الآية في سورة النساء ١٠٤ رسالة وجوب التعاون بين المسلمين طبع السلفية ص ٥ ـ ٦.

غير ما يهوون، والبروز والظهور ودفع غيرهم إلى المعارضة عندما يرون غيرهم يرغب في تلك المعارضة ولو كانت رغبته عن حسن نية وإرادة خير، وتبييت أسباب الشقاق والنزاع من وراء الجماعة لإلقائها في الوقت المناسب، والتذمر الشديد من اكتشاف مؤامراتهم والإسراع في إبداء الأعذار ونفي التهمة عن أنفسهم بأي وسيلة، والغالب في هذه الخلايا المتناجية أن تتخذ سياسة ذي الوجهين: الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، وهو النمام الذي حذر منه الرسول ﷺ غاية التحذير فإذا حذرهم المسلمون وفضحوا دسائسهم ذهبوا جفاء وأصبحوا من سقط المتاع وشواهد التاريخ على هذا كثيرة.

المبحث الثاني

الخلافة هي قمة الوحدة الإسلامية
ويجب على المسلمين السعي لإقامتها

إن المسلمين بدون خلافة كالأطفال الذين فقدوا آباءهم في الصغر ولم يجدوا من يعطف عليهم ويحسن تربيتهم، بل وجدوا من يقسو عليهم ويجيعهم ويذلهم، إن هؤلاء الأطفال يكبرون وقلوبهم قد ملئت حقداً وكراهية ورعباً من كل شيء، ألفت نفوسهم الذلة والمهانة والتشرد وعدم المبالاة.

الخلافة الإسلامية ضرورة من ضرورات وجود الأمة الإسلامية، لأنها هي التي تحقق الوحدة الكاملة للمسلمين وتجمع طاقاتهم كلها في اتجاه واحد وتشعر جميع الشعوب والأفراد في ظل الخلافة الإسلامية بأنهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى مهما تباعدت الأوطان واختلفت الأجناس وتعددت اللغات وتباينت الألوان لأنهم كلهم يعيش في ظل علم واحد شعاره: لا إله إلا الله محمد رسول الله ومنهجهم واحد وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإمامهم واحد وهو الخليفة المسلم المستكمل للشروط الشرعية يشتركون كلهم في السراء والضراء يقتسمون الخيرات التي أنعم الله بها عليهم أينما كانت من بلادهم ويتعاونون على البر والتقوى لا يشعر أحد منهم بغربة إذا انتقل من بلد إلى آخر لأنه بلده أيضاً، عدوهم واحد وجيشهم واحد وهم يد على من سواهم. وإذا كانت الأمم كلها لا تستغني عن راع يرعاها ويدبر شؤونها ويفصل في نزاعها بالعدل والنظام اللذين تتعارف عليهما أي أمة وإلا كانت بدون ذلك الراعي همجية فوضوية يعتدي كل فرد على الآخر أو كل مجموعة منها على مجموعة أخرى بلا رادع ولا زاجر إذا كانت أمم الأرض كلها لا تستغني عن ذلك، فكيف يستغني المسلمون عن راع عام يرعى مصالحهم ويدبر شؤونهم على

منهج الله الذي أنزله ليطاع وينفذ وتساس الأمة الإسلامية به في سلمها وحربها وفي سلوكها واقتصادها، وسياستها وصلات بعضها ببعض، لذلك كان السعي لإيجاد منصب الخلافة ضرورة لا يستقيم أمر الأمة الإسلامية بدونه.

قال ابن تيمية رحمه الله: (وكل بني آدم لا تتم مصلحتهم، لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر، فالتعاون والتناصر على جلب منافعهم والتناصر لدفع مضارهم، ولهذا يقال: الإنسان مدني بالطبع، فإذا اجتمعوا فلا بد لهم من أمور يفعلونها يجتلبون بها المصلحة، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد والناهي عن تلك المفاسد، فجميع بني آدم لا بد لهم من طاعة آمر وناه. . .) إلى أن قال: (وإذا كان لا بد من طاعة آمر وناه فمعلوم أن دخول المرء في طاعة الله ورسوله خير له)[1].

وقال في موضع آخر محتجاً على وجوب الإمارة صغرت أم كبرت بل على أن الولاية كلما كانت أعظم كانت أوجب، وأعظم إمارة في الإسلام هي الخلافة أو الإمامة العظمى، قال: (يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبي ﷺ: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم» رواه أبو داود[2]. وروى الإمام أحمد في المسند عن عبدالله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم»[3]. فأوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة،

---

(١) الفتاوى (٢٨ - ٦٢).
(٢) (٢ - ٣٤).
(٣) ٢ - ١٧٧).

ولهذا روى: (أن السلطان ظل الله في الأرض) ويقال: (ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان)... إلى أن قال: (فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله، فإن التقرب إليه فيها بطاعته، وطاعة رسوله من أفضل القربات)(١).

ولما كانت الخلافة الإسلامية ضرورة ولا قيام للأمة الإسلامية إلا بها أجمع المسلمون على وجوب القيام بها وتأثيم كل قادر على القيام بها من أهل الاختيار ومن أهل الخلافة إذا لم يسعوا لإقامتها قال الماوردي رحمه الله: (الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع، وإن شذ عنهم الأصم...) إلى أن قال: (فإذا ثبت وجوب الإمامة ففرضها على الكفاية كالجهاد وطلب العلم، فإذا قام بها من هو من أهلها سقط فرضها عن الكافة، وإن لم يقم بها أحد خرج من الناس فريقان: أحدهما أهل الاختيار حتى يختاروا إماماً للأمة والثاني أهل الإمامة حتى ينتصب أحدهم للإمامة. وليس على من عدا هذين الفريقين من الأمة في تأخر الإمامة حرج ولا مأثم)(٢).

ومن هنا كان اهتمام أصحاب رسول الله ﷺ بهذا الأمر ـ أمر نصب خليفة للمسلمين ـ إذ تركوا تجهيز رسول الله ﷺ وهو مسجى على سريره وقد فارق الحياة الدنيا ولم يدفنوه إلا بعد أن بايع المسلمون أبا بكر رضي الله عنه خليفة له ﷺ(٣).

وقد اشتمل حديث ابن عباس على ما دار بين الصحابة في هذا الأمر في سقيفة بني ساعدة(٤).

وليس المراد مجرد إقامة الخلافة فحسب، بل يجب كذلك أن يكون خليفة المسلمين واحداً فقط، ولذلك أمر الرسول ﷺ المسلمين أن يقتلوا من طلب الخلافة

(١) الفتاوى (٢٨ ـ ٣٩٠ ـ ٣٩١).
(٢) الأحكام السلطانية ص ٥ ـ ٦.
(٣) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٥ ـ ٢٤٤) فما بعدها، والكامل لابن الأثير (٢ ـ ٣٢٥).
(٤) راجع جامع الأصول (٤ ـ ٩٠ ـ ٩٦).

بعد أن بويع غيره بها، حرصاً على وحدة الجماعة بوحدة القيادة، كما في حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»[١] وفي حديث عرفجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من آتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه»[٢] وفي رواية: «إنه ستكون هنات وهنات[٣] فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان»[٤].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي وستكون خلفاء فتكثر» قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «فوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم»[٥].

وفي هذا الحديث أمر بحق الأول وهو الوفاء ببيعته، وفي الحديثين الذين قبله أمر بما يجب في حق الآخر وهو قتله. وفي ذلك غاية الحرص على وحدة الأمة بوحدة الراعي العام.

وقد ذكّر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصحاب رسول الله ﷺ في اليوم التالي لوفاة رسول الله ﷺ بما يعصمهم من الزلل ويجمع كلمتهم، وهما أمران: الأول التمسك بمنهج الله الذي هو باق إلى قيام الساعة، وإن كان رسول الله ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى والثاني الخليفة الواحد (وحدة القيادة) فقال رضي الله عنه: (وإن يكن رسول الله ﷺ قد مات فإن الله جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به، به هدى الله محمداً ﷺ فاعتصموا به تهتدوا بما هدى الله به محمداً، وإن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين وإنه أولى الناس بأموركم فقوموا إليه فبايعوه، وكانت طائفة منهم قد بايعوه قبل ذلك في سقيفة بني ساعدة، وكانت بيعة العامة عند المنبر..)[٦] وفي فعل عمر هذا ـ أي دعوة عامة الصحابة لمبايعة

---

(١) مسلم (٣ ـ ١٤٨٠).
(٢) نفس المصدر (٣ ـ ١٤٨٠).
(٣) أي فتن.
(٤) نفس المصدر (٣ ـ ١٤٧٩).
(٥) نفس المصدر (٣ ـ ١٤٧١).
(٦) البخاري رقم الحديث ٧٢١٩ فتح الباري (١٣ ـ ٢٠٦).

أبي بكر رضي الله عنه بعد أن بايعه بعضهم في السقيفة ـ تدارك لما حصل من بيعة أبي بكر على غير مشورة كاملة، وقد صرح عمر رضي الله عنه بذلك، كما في حديث عبدالله بـن عباس رضي الله عنهما، وفيه: (قال عمر: وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمرنا أقوى من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلاً منهم بعدنا، فإما تابعناهم على ما لا نرضى وإما أن نخالفهم فيكون فساد، فمن بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذي بايعه تَغِرَّةً أن يتقتلا)[١] أراد عمر رضي الله عنه أن يظهر السبب في الإسراع ببيعة أبي بكر وعدم التريث إلى أن يجتمع أهل الحل والعقد كلهم لمبايعته كما هو الأصل وقد تداركه بالدعوة إلى البيعة العامة في اليوم الثاني، وإن ما فعله هو وبعض الصحابة من المبايعة في السقيفة لا يجوز اتخاذه أصلاً وقدوة، لأنه كان لضرورة رأوها رضي الله عنهم.

واستمر اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بهذا الأمر العظيم لفقههم مضمون نتائجه، فقد استخلف أبو بكر عند وفاته عمر، وعهد عمر عند وفاته إلى ستة من كبار أصحاب رسول الله ﷺ، وهم علي وعثمان والزبير وطلحة وسعد وعبد الرحمن وانتهت مشورتهم إلى بيعة عثمان رضي الله عنه قال الحافظ ابن حجر: (فعينهم ومكنهم من المشاورة في ذلك والمناظرة فيه لتقع ولاية من يتولى بعده عن اتفاق من معظم الموجودين حينئذ ببلده التي هي دار الهجرة وبها معظم الصحابة، وكل من كان ساكناً غيرهم في بلد غيرها كان تبعاً لهم فيما يتفقون عليه)[٢].

ولا يظنن ظان أن المشورة اقتصرت على هؤلاء الستة فقط بل كانت المشورة عامة استمرت ليالي وعبد الرحمن الذي تنازل هو عن الأمر يشاور الناس والناس يشاورونه، كما قال المِسْوَر بن مخرمة: (طرقني عبد الرحمن بعد هجع من الليل فضرب الباب حتى استيقظت فقال: أراك نائماً فوالله ما اكتحلت هذه الثلاث بكثير نوم، انطلق فادع الزبير وسعد فدعوتهما له فشاورهما ثم دعاني فقال

---

(١) البخاري رقم ٦٨٣٠ فتح الباري (١٢ ـ ١٤٤).
(٢) فتح الباري (٧ ـ ٦٩).

ادع لي عليا فدعوته فناجاه حتى ابهارَّ الليل ثم قام علي من عنده... ثم قال ادع لي عثمان فدعوته فناجاه حتى فرق بينهما المؤذن بالصبح فلما صلى الناس الصبح واجتمع أولئك الرهط عند المنبر فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين والأنصار وأرسل إلى أمراء الأجناد ـ وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر ـ. فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن ثم قال: أما بعد يا علي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان فلا تجعلن على نفسك سبيلاً فقال: أبايعك على سنة الله وسنة رسوله والخليفتين من بعده فبايعه عبد الرحمن وبايعه الناس: المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون) وقبل ذلك قال المسور: (ومال الناس على عبد الرحمن يشاورونه تلك الليالي...)[1] قال الحافظ: (وفيه أن من أسند إليه ذلك يبذل وسعه في الاختيار ويهجر أهله وليله اهتماماً بما هو فيه حتى يكمله..)[2].

وإن الخلافة الإسلامية لهي قمة الوحدة الإسلامية التي تعيد للمسلمين الروح الجهادية الحقة التي فقدوها بفقد محافظتهم على أصول وحدتهم وفروعها وقد نوه الرسول ﷺ بهذا المعنى: وهو أن الخلافة تحافظ ـ على روح الجهاد في نفوس المسلمين كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنما الإمام جُنَّة يقاتل من ورائه ويتقى به فإن أمر بتقوى الله عز وجل وعدل كان له بذلك أجر، وإن يأمر بغيره كان عليه منه»[3].

ولما كانت الخلافة قمة الوحدة الإسلامية التي تكسب المسلمين في جميع أنحاء الأرض القوة والمنعة والعزة، وتجعل الفرد المسلم الضعيف بنفسه قوياً بأمته، وتجعل الأمة الإسلامية ذات مهابة ورعب في قلوب أعداء الله تغزوهم في عقر دارهم ولا يجرؤون هم على غزوها، وتخضعهم لكلمة الله وسلطانه وتردعهم عن استعباد رعاياهم وظلمهم ـ لما كانت الخلافة كذلك ـ كبر على أهل الكفر وجودها واستمرارها وقد ذاقوا ضرباتها منذ بدأت رايتها ترتفع على وجه

---

(١) البخاري رقم ٧٢٠٧، فتح الباري (١٣ ـ ١٩٣).
(٢) فتح الباري (١٣ ـ ١٩٩).
(٣) مسلم (٣ ـ ١٤٧١).

الأرض، لأن الإسلام ينتشر كل يوم ويقوى والكفر يتقلص ويضعف، والناس يدخلون في دين الله أفواجاً لما يرون من محاسن الإسلام التي تطبق في واقع الحياة من أمة قوية الجانب تخرج الناس من الظلمات إلى النور وترفع عنهم ظلم الطغاة وتمتعهم بعدل الإسلام إذا استصرخ الضعيف في شرق الدنيا من ظلم نزل به أجابته سيوف المجاهدين من غربها، إذا دعا داعي الخليفة إلى النفير العام تسابق الرجال والنساء والشيوخ والصبيان إلى ساح الوغى كل فيما يقدر عليه. يحمي أطراف أرض الخلافة المرابطون، ويفتح أرض الكفر الغزاة المجاهدون، تجبى خيرات الأرض كلها إلى الأمة الإسلامية زكاة وغنيمة وخراجاً وجزية، لما كانت الخلافة الإسلامية تعطي المسلمين هذا العطاء وتكسبهم هذه القوة، وتذل لهم جبابرة الكفر وطغاة الأرض لم يخف إلا أعداء الإسلام خطرها على عروشهم ومعاقل ظلمهم فكانت أشد أعمدة الإسلام غيظاً لهم هي وما يمت إليها بصلة تزداد بها قوة من وسائل وحدتهم كالحج فأخذوا يكيدون لها ويدبرون التدابير الماكرة للقضاء عليها وهدمها، وكان أول كيد ظهر ضد الخلافة الإسلامية كيد اليهودي الماكر عبدالله بن سبأ الذي أقض مضجعه ومضجع إخوانه استقرار الأمة الإسلامية وقوتها وتوسيع دائرة الدعوة إلى الله بها في أرض الله فأخذ يدس الدسائس وينشر الفتن في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي راح ضحية ذلك الدس وتلك الفتن التي انطلت على من ضعف إيمانه وضعفت بصيرته، وكان ذلك فتحاً لباب الفتن والتفرق والمصائب على المسلمين[١]. ولكن وحدة قيادة المسلمين استمرت بعد ذلك حتى بعد انتهاء الخلافة الراشدة بوفاة علي رضي الله عنه وبدء الحكم الملكي من عهد معاوية رضي الله عنه، وكانت هذه القيادة تقوى وتضعف حسب التمسك بالإسلام قوة وضعفاً، وكادت حوادث التتار تقضي على تلك الوحدة ولكن الله سلم فاستمرت إلى آخر ملوك الأتراك من آل عثمان السلطان عبد الحميد الثاني الذي ورث دولة منهارة في الثقافة والعلم والاقتصاد والصناعة والتجارة والزراعة والنواحي الاجتماعية والسياسية بسبب سوء تدبير من سبقه من ولاة الأمر

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٧ - ١٦٧).

وبعض العلماء، وكان التفكك قد دب في الشعوب الإسلامية وكان أعداء الإسلام من النصارى واليهود ومن تربى في أحضانهم يخططون للقضاء على الخلافة التي لم يبق إلا اسمها، والسلطان يقف في وجه ذلك التخطيط الماكر وينذر قومه بخطره ولكن الحملة ضده كانت شديدة وبث الدعاية كان واسعاً وتحالف الكفرة من اليهود والنصارى والمنافقين في الدولة كان دقيقاً محكماً.

وسعى اليهود والنصارى معاً لإخضاع السلطان لمطالبهم فوقف مثل الجبل الأشم لا تلين له قناة ولا يطأطأ رأس، وكان من مطالب اليهود أن يأذن لهم بالهجرة إلى فلسطين أرض ميعادهم كما يزعمون ووعدوه بمكافأة مغرية من الذهب الذي اعتادوا شراء الذمم به وكان في أشد الحاجة إليه بسبب الديون التي أثقلت كاهل دولته فما كان منه إلا أن أخرج المفاوض اليهودي صاغراً، وقد قال السلطان في مذكراته السياسية في هذا الصدد:

(لليهود قوة في أوربا أكثر من قوتهم في الشرق، لهذا فإن أكثر الدول الأوربية تحبذ هجرة اليهود إلى فلسطين لتتخلص من العرق السامي الذي زاد كثيراً ولكن لدينا عدد كاف من اليهود، فإذا كنا نريد أن نبقي العنصر العربي متفوقاً علينا أن نصرف النظر عن فكرة توطين المهاجرين في فلسطين، وإلا فإن اليهود إذا استوطنوا أرضاً تملكوا كافة قدراتها خلال وقت قصير، وبذا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدين بالموت المحتم، لن يستطيع رئيس الصهاينة (هرتزل) أن يقنعني بأفكاره، وقد يكون قوله: (ستحل المشكلة اليهودية يوم يقوى فيه اليهودي على قيادة محراثه بيده) صحيحاً في رأيه لكنه ينسى أن الذكاء ليس كافياً لحل جميع المشاكل. لن يكتفي الصهاينة بممارسة الأعمال الزراعية في فلسطين، بل يريدون أموراً أخرى مثل تشكيل حكومة وانتخاب ممثلين إنني أدرك أطماعهم جيداً، لكن اليهود سطحيون في ظنهم أنني سأقبل بمحاولاتهم، وكما إني أقدر في رعايانا من اليهود خدماتهم لدى الباب العالي فإني أعادي أمانيهم وأطماعهم في فلسطين)[1].

فكانت نتيجة هذا الموقف الإسلامي الرائع أن اشتدت المؤامرة اليهودية

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني: مذكراتي السياسية ص ٣٤ - ٣٥.

النصرانية النفاقية في الجمعية المعروفة بجمعية الاتحاد والترقي التي أصر رؤساؤها ـ بعد أن أصبحت القوة بأيديهم ـ فطلبوا منه الموافقة على تأسيس وطن قومي لليهود ووعدوه بتقديم خمسين ومائة مليون ليرة ذهبية فقال: (إنكم لو دفعتم لي ملء الدنيا ذهباً ـ فضلاً عن ١٥٠ مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهباً ـ فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين، لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضاً) قال: (وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي وأبلغوني أنهم سيعيدونني إلى سلانيك فقبلت بهذا التكليف الأخير، وهذا وقد حمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشىء عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة فلسطين وقد كان بعد ذلك ما كان)[1].

نعم لم يقبل السلطان أن يستوطن اليهود في فلسطين لأن ذلك عار على الدولة والمسلمين، وكان عبد الحميد غير عربي ولكنه مسلم، أما دعاة القومية العربية الذين انسلخوا من إسلامهم مثل العصابة التي ثارت على السلطان فقد سلموا اليهود أرض فلسطين بدون خجل ولا حياء بل إنهم لا زالوا يتزحزحون لهم عن أراضي أخرى غير فلسطين ولا يدرى ماذا سيجري في المستقبل إن لم يهيىء الله للمسلمين من ينقذهم من هذا الذل الذي هم فيه.

وهذه المحاولات الجادة لإسقاط أعداء الله الخلافة الإسلامية سبقها وعي كامل عندهم وتوعية شاملة بخطرها وأنها ركن وحدة المسلمين قال لوثروب ستودارد الأمريكي: (إن الوحدة الإسلامية قائمة على ركنين هما أساساها ولا ثالث لهما: الحج إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة والخلافة. . .)[2]

وقد أدرك عقلاء المسلمين وعلماؤهم تدبير الكفرة لإسقاط الخلافة وسعيهم لهدمها وقد نقل محمد محمد حسين عن مصطفى كامل نموذجاً لهذا الإدراك والتحذير مما يبيتونه للخلافة وسبب ذلك فقال: ويقول ـ يعني مصطفى

(١) السلطان عبد الحميد الثاني: مذكراتي السياسية ص ٣٧.

(٢) حاضر العالم الإسلامي (١ ـ ٢٨٩).

كامل ـ في سعي إنجلترا لهدم الخلافة التركية وتعضيدهم لكل خارج عليها: (وقد علمت إنجلترا أن احتلالها لمصر كان ـ ولا يزال يكون دائماً قائماً ـ سبباً للعداوة بينها وبين الدولة العلية وإن المملكة العثمانية لا تقبل مطلقاً الاتفاق مع إنجلترا على بقائها في مصر ولذلك رأت إنجلترا أن بقاء السلطنة العثمانية يكون عقبة أبدية في طريقها ومنشأ للمشاكل والعقبات في سبيل امتلاكها مصر، وإن خير وسيلة تضمن لها البقاء في مصر ووضع يدها على وادي النيل هي هدم السلطنة العثمانية ونقل الخلافة الإسلامية إلى أيدي رجل يكون تحت وصاية الإنكليز وبمثابة آلة في أيديهم ولذلك أخرج ساسة بريطانيا مشروع الخلافة العربية مؤملين به استمالة العرب لهم وقيامهم بالعصبيات في وجه الدولة العلية. . .) إلى أن قال: (والذي يبغض الإنكليز على الخصوص في جلالة السلطان الحالي هو ميله الشديد إلى جمع كلمة المسلمين حول راية الخلافة الإسلامية، ومن ذلك يفهم القارىء سبب اهتمام الإنكليز بالأفراد القليلين الذين قاموا من المسلمين ضد جلالة السلطان الأعظم وسبب مساعدتهم لهم بكل ما في وسعهم)[1].

ولقد حقق الكفرة أكبر أمنية يحلمون بها وهي تنحية الخلافة الإسلامية والقضاء على آخر صورة لها في الأرض منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً وقفت فيه صخرة تكسرت فيها قرون أعدائها. وانقسمت الأمة الإسلامية إلى شعوب ودويلات، بل إلى قرى سميت إمارات، وأخذ الأعداء يتقاسمون التركة التي لم يصنها أهلها وتعددت الأعلام، كل علم رفع على قطعة من الأرض له شعاره الخاص الذي تبذل المحاولات الجادة من قبل رجال دولته لإقناع الكتلة البشرية التي رفع فوق رؤوسها بالولاء له واحترامه والذود عن حماه ولكن كل علم رفع فوق نظام يعادي الإسلام والحكم بالقرآن من طبيعته أن يظلم حكامه ويستبدوا ويستأثروا بالخيرات ويحولوا بين غيرهم وبين التمتع بما يتمتعون والناس لا يرون لهم حقاً في ذلك، لأنهم إنما يحكمون بأهوائهم ويتمتعون بشهواتهم تمتعاً غير مشروع فأخذ المحروم يدبر المؤامرات لمن حرمه ويدس له الكيد فإذا سنحت له

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (١ ـ ٢٤).

فرصة وثب عليه فضربه ضربة قاصمة وفاقه في الاستبداد والظلم والاستئثار وهكذا دواليك حتى أصبحت الشعوب الإسلامية تتصارع كل شعب يصارع الآخر بل أصبح الناس في كل شعب يتحزبون كل حزب يحاول القضاء على الآخر والعدو يغذي فيهم نار الحقد والعداء ويصنع لهم السلاح الذي يضرب به بعضهم بعضاً وينهب خيراتهم ويحتل أرضهم ويغزوهم في عقر دارهم وهم لا يزيدون على أن يشكوا بثهم وحزنهم من هذا العدو إلى عدو آخر يمده بالسلاح والمال ويدعمه سياسياً واقتصادياً ويأذن له بالعدوان فإذا اعتدى وشكا منه المنتسبون إلى الإسلام أعلن احتجاجه في الإذاعة أو الصحافة وانتهى الأمر عند ذلك.

فإذا أراد المسلمون أن تعود إليهم روح الجهاد الذي رفع شأنهم من قبل فعليهم أن يسعوا إلى وحدتهم وائتلافهم وجمع كلمتهم تدريجياً إلى أن يصلوا إلى قمة الوحدة الإسلامية المفروضة عليهم الآن كلهم فرض عين لعدم قيام جماعة كافية بهذا الفرض ألا وهي الخلافة الإسلامية وإذا لم يفعلوا فإنهم سيبقون مثل قطعان الغنم الذي لا راعي له يحميه، تأكله الذئاب واحدة بعد الأخرى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقوا الله حقَّ تُقاته ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تَفَرَّقوا، واذكروا نعمةَ الله عليكم إذ كنتُم أعداءً فألَّف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتُم على شَفَا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبيِّنُ الله لكم آياتِه لعلَّكم تهتدون * وَلْتَكُنْ منكم أمةٌ يَدْعُون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهونَ عن المكر وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرَّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيناتُ وأولئك لهم عذاب عظيم﴾[1].

(١) آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٥.

البَابُ الرَّابِعُ

ثَمَرَاتُ إِقَامَةِ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ

وأضرار القعود عنه

وفيه فصلان:

الفصل الأول : ثمرات إقامة الجهاد في سبيل الله.

الفصل الثاني : أضرار القعود عن الجهاد في سبيل الله.

ثمرات إقامة الجهاد في سبيل الله
وأضرار القعود عنه

سبق أن الجهاد في سبيل الله يعد ضرورة من ضرورات بقاء الأمة الإسلامية ما دام يوجد في الأرض كفر وإيمان، ووجود الكفر والإيمان في الأرض أمر لازم إلى أن تقوم الساعة.

وسبق كذلك أن الجهاد فرض كفاية إذا قامت به طائفة كافية من المسلمين سقط عن الباقين، وأنه في هذا الزمان فرض عين على كل مسلم لعدم قيام طائفة كافية به.

وفي الأبواب الثلاثة الماضية ما يقيم الحجة على المسلمين بأن الجهاد ضرورة لا مناص عنها، وهذا الباب يتضمن زيادة بيان لإقامة هذه الحجة، لأنه يشرح الثمرات الطيبة العظيمة الناتجة عن إقامة الجهاد في سبيل الله، والأضرار الخطيرة المترتبة على القعود عنه، وفيه فصلان:

الفصل الأول: ثمرات إقامة الجهاد في سبيل الله.
الفصل الثاني: أضرار القعود عن الجهاد في سبل الله.

الفصل الأول

ثمرات إقامة الجهاد

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول : إعزاز المسلمين وإذلال الكافرين.
المبحث الثاني : دخول الناس في هذا الدين أفواجاً عندما يعز أهله.
المبحث الثالث : وحدة صفوف المسلمين.
المبحث الرابع : هداية المجاهدين وتسديد خطواتهم.
المبحث الخامس : التزام المسلمين بالإسلام والحرص على حمايته وعدم التفريط فيه.
المبحث السادس : إسعاد الناس بنور الإسلام وعدله.

المبحث الأول

إعزاز المسلمين وإذلال الكافرين

وفيه ثلاثة فروع:

الفرع الأول: تأهيل الأمة الإسلامية لقيادة البشرية.
الفرع الثاني: القضاء على شوكة الكفار وإذلالهم وإنزال الرعب في قلوبهم.
الفرع الثالث: ظهور صدق الدعوة للناس لما فيه من حفزهم على الاستجابة لها والإيمان بها.

الفرع الأول
تأهيل الأمة الإسلامية لقيادة البشرية

لا بد للبشر من أمة قائدة، وقيادة البشر يجب أن تكون بيد أمة تتوافر فيها صفات القيادة الرشيدة، وهذه الصفات هي التي تجعل الأمة التي تتوافر فيها أهلاً للقيادة الرشيدة التي تحقق للناس السعادة في الدنيا والآخرة، وإلا كانت غير أهل للقيادة، وإذا قادت فإن قيادتها للناس تكون وبالاً عليهم وخسارة في الدنيا والآخرة، ويجمع صفات القيادة الرشيدة صفتان عظيمتان هما: الإيمان بالله المتضمن طاعته وطاعة رسوله في الأمر والنهي والثانية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿كنتُم خيرَ أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهَون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾[1]، والجهاد في سبيل الله يعدّ قمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد جرت العادة أن يكون لربان

---

(١) آل عمران: ١١٠.

السفينة وأعوانه السيطرة الكاملة على إدارة الركاب وشؤونهم يحيطونهم بعنايتهم ويدفعون عنهم الأذى ويحرصون على تحقيق كل أمر يؤدي إلى سلامتهم ووصولهم إلى شاطىء السلامة، فإذا ما أراد بعض ركابها إلحاق الأذى بالركاب فإن الواجب على ربان السفينة وأعوانه أن يحولوا بينهم وبين إحداث ذلك الأذى وأن يستعينوا بمن شاؤوا من ركاب السفينة لمساعدتهم في القيام بواجبهم، وإذا لم يقوموا بذلك فإنهم يصبحون ليسوا أهلاً لقيادة تلك السفينة ويجب على ركاب السفينة أن يخرجوا من بينهم من يقود السفينة ممن هم أهل لقيادتها وصيانتها ودفع الضرر عن ركابها وإلا تعرضوا جميعاً للأذى الذي قد يكون غرق السفينة ومن فيها.

ويظهر هذا جلياً من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»[1].

والحديث يشمل الأفراد والجماعات والدول والأمم، ولا توجد أمة على ظهر الأرض تقوم على حدود الله غير الأمة الإسلامية، وجميع الأمم غير الأمة الإسلامية واقعة في حدود الله، فالأمة الإسلامية هي ربان السفينة وهي التي يجب أن تمنع الأذى من أن يلحق بركاب السفينة، وهي لا تكون أهلاً لذلك إلا بالإيمان المتضمن للعمل الصالح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا فقدت هذه الأهلية قاد السفينة غيرها من الأمم التي لا تؤدي قيادتها إلا إلى شقاء البشرية وخسرانها كما هو الحال في هذا الزمان، وفي كل زمان تولى زمام أمور الناس فيه طغاة الجاهلية والكفر الذين لا يسلمون هذا الزمام لقادة الخير إلا بالجهاد في سبيل الله الذي يحطم عروشهم.

قال القرطبي رحمه الله: (قوله: ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾

---

(١) البخاري رقم ٢٤٩٣، فتح الباري (٥ ـ ١٣٢).

مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم وكان ذلك سبباً لهلاكهم)[1].

وقال سيد قطب رحمه الله ـ وهو يتفيأ ظلال هذه الآية الكريمة: ﴿كنتم خير أمة﴾ (وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة لتعرف حقيقتها وقيمتها وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة ولتكون لها القيادة بما أنها هي خير أمة والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض، ومن ثم لا ينبغي لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية، إنما ينبغي دائماً أن تعطي هذه الأمم مما لديها وأن يكون لديها دائماً ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح، والتصور الصحيح، والنظام الصحيح، والخلق الصحيح، والمعرفة الصحيحة والعلم الصحيح، هذا واجبها الذي يحتمه عليها مكانها وتحتمه عليها غاية وجودها واجبها أن تكون في الطليعة دائماً وفي مركز القيادة دائماً، ولهذا المركز تبعاته فهو لا يؤخذ ادعاء ولا يسلم لها به إلا أن تكون هي أهلاً له، وهي بتصورها الاعتقادي وبنظامها الاجتماعي أهل له، فيبقى عليها أن تكون بتقدمها العلمي وبعمارتها للأرض ـ قياماً بحق الخلافة ـ أهلاً له كذلك.

ومن هذا يتبين أن المنهج الذي تقوم عليه هذه الأمة يطالبها بالشيء الكثير ويدفعها إلى السبق في كل مجال، لو أنها تتبعه وتلتزم به وتدرك مقتضياته وتكاليفه. وفي أول مقتضيات هذا المكان أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد وأن تكون لها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهي خير أمة أخرجت للناس لا عن مجاملة أو محاباة ولا عن مصادفة أو جزاف ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ . . . فهو النهوض بتكاليف الأمة الخيرة بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب، وبكل ما في طريقها من أشواك إنه التعرض للشر والتحريض على الخير وصيانة المجتمع من عوامل الفساد وكل هذا متعب وشاق، ولكنه كذلك ضروري لإقامة المجتمع الصالح وصيانته ولتحقيق الصورة التي يحب الله أن تكون عليها الحياة ولا بد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر فإن اصطلاح الجماعة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤ ـ ١٧٣).

وحده لا يكفي، فقد يعم الفساد وتضطرب الموازين وتختل ولا بد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير وللشر وللفضيلة وللرذيلة وللمعروف والمنكر يستند إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس في جيل من الأجيال، وهـذا ما يحققـه الإيمان)[١].

وقال السرخسي رحمه الله: (فأما بيان المعاملة مع المشركين فنقول: الواجب دعاؤهم إلى الدين وقتال الممتنعين منهم من الإجابة لأن صفة هذه الأمة في الكتب المنزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبها كانوا خير أمة، قال الله تعالى: ﴿كنتم خير أمة خرجت للناس﴾ الآية)[٢].

وبأخذِ الأمة الإسلامية زمام القيادة يوضع كل شيء في نصابه الصحيح.

الفرع الثاني
القضاء على شوكة الكفار وإذلالهم
وإنزال الرعب في قلوبهم

لا عزة للمسلمين مع وجود عزة الكافرين في الأرض، لأن الإسلام الذي هو الحق وما عداه الباطل لا يقبل أن يرى الكفر قوياً عزيز الجانب، والكفر الذي هو باطل لا يقبل كذلك أن يتخلى عن قوته للإسلام، بل إنه يعد العدة ويبذل جهده للقضاء على الإسلام والمسلمين، والمسلمون لا ينالـون العزة لأنفسهم إلا بإذلال عدوهم وإذلال عدوهم لا يكون إلا بالجهاد في سبيل الله لذلك كان من ثمرات الجهاد في سبيل الله القضاء على شوكة الكفار وإذلالهم وإنزال الرعب في قلوبهم وتطهير الأرض من سيطرتهم.

وشواهد التاريخ على هذه القاعدة لا تحصى كثرة ويكفي من أراد الوقوف عليها أن يطالع أوثق مصدر بقي على وجه الأرض وهو القرآن الكريم فيما قصه الله سبحانه من قصص الأنبياء وأتباعهم مع أعداء الله الكافرين، من عهد نوح

---

(١) في ظلال القرآن (١ ـ ٤٤٧).
(٢) المبسوط (١٠ ـ ٢).

عليه السلام إلى محمد ﷺ بأن الكافرين لا يرضون أن يهادنوا المسلمين، ولو أراد المسلمون أن يهادنوا في فترة من الفترات إلا إذا ألجأت أولئك الكفار الضرورة التي إذا زالت نكثوا عهودهم ومواثيقهم ولم يراعوا في المسلمين إذا قدروا على إيذائهم عهداً ولا قرابة، كما قال تعالى: ﴿كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقُبوا فيكم إلًّا ولا ذمَّة﴾(١) وقال: ﴿لا يرقُبون في مؤمنٍ إلًّا ولا ذمَّة، وأولئك هم المعتدون﴾(١).

وقال: ﴿ولن ترضى عنك اليهودُ ولا النَّصارى حتى تتَّبعَ ملتهم﴾(٢) لهذا كان الجهاد في سبيل الله هو الفيصل بين المسلمين وأعدائهم لأنه يثمر ـ بإذن الله ـ القضاء على قوة الكفر وإذلال طغاته وخزيهم وإلقاء الرعب في قلوبهم وتطهير أرض الإسلام من رجسهم وجعل أرضهم وأموالهم ورقابهم غنيمة للمسلمين المجاهدين، كما قال تعالى: ﴿وردَّ الله الذين كفروا بغَيْظِهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنينَ القتالَ، وكان الله قوياً عزيزاً * وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صَياصيهم، وقذف في قلوبهم الرعبَ، فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً * وأورثكم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم وأرضاً لم تطأوها، وكان الله على كل شيء قديراً﴾(٣).

ورتب سبحانه على أمره المؤمنين بقتال الكافرين تعذيب أعداء الله وخزيهم ونصر المجاهدين عليهم وشفاء صدور المؤمنين الذين أوغر أعداء الله صدورهم وإذهاب غيظ قلوبهم بما يدخل عليها من السرور بكسر شوكة أعداء الله والقضاء على قوتهم، كما قال تعالى: ﴿قاتلوهم يُعذِّبْهم الله بأيديكم، ويُخْزِهِم وينْصُرْكم عليهم ويَشْفِ صدورَ قوم مؤمنين * ويُذْهِبْ غيظَ قلوبهم، ويتوبُ الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾(٤).

ولولا الجهاد في سبيل الله لكان خلفاء أبي جهل يسيطرون على بيت الله الحرام إلى الآن، ولولا الجهاد في سبيل الله ما أنزل ذلك الذل بصناديد الكفر في بدر التي ذلت فيها رقاب الكفرة الطغاة المتجبرين للذين كانوا يستضعفون في

(١ ـ ١) التوبة: ٨ ـ ١٠.
(٢) البقرة: ١٢٠.
(٣) الأحزاب: ٢٥ ـ ٢٧.
(٤) التوبة: ١٤ ـ ١٥.

مكة من أمثال بلال وابن مسعود ومن كان يظن أن ابن مسعود «الاكار» الذي كان مستضعفاً في مكة يمسك بلحية زعيم كبير من زعماء الكفر، كأبي جهل، وهو يتمرغ في التراب ويتشحط في دمائه ويقول له يا عدو الله يا أبا جهل ويضربه بسيفه فلم يغن شيئاً فيناوله أبو جهل سيفه ليجتز به رأسه حتى لا يبقى معذباً ومن كان يظن أن أمية بن خلف ـ أحد قادة الكفر والفتنة والتعذيب الذي آذى بلالاً الحبشي الضعيف إيذاء شديداً في مكة ـ سيبرك تحت من يجيره من بلال وينال حتفه وهو صاغر مهين.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر «من ينظر لنا ما صنع أبو جهل» فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، قال فأخذ بلحيته، فقال: أنت أبو جهل...؟ فقال: وهل فوق رجل قتلتموه.. وفي رواية: (فلو غير أكّار قتلني)[1].

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: كاتبت أمية بن خلف كتاباً أن يحفظني في صياغتي بمكة، واحفظه في صياغته بالمدينة... فلما كان يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه من القتل، فأبصره بلال فخرج حتى وقف على مجلس من مجالس الأنصار، فقال: يا معشر الأنصار أمية بن خلف لا نجوت إن نجا أمية فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم به فقتلوه ثم أتونا حتى يتبعونا وكان أمية رجلاً ثقيلاً فلما أدركونا قلت له ابرك فبرك فألقيت عليه نفسي لأمنعه فتخللوه بالسيوف من تحتي حتى قتلوه فأصاب أحدهم رجلي بسيفه، وكان عبد الرحمن يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه، وفي رواية فلما كان يوم بدر حصل لي درعان فلقيني أمية فقال: خذني وابني فأنا خير لك من الدرعين أفتدي منك فرآه بلال فقال أمية رأس الكفر لا نجوت إن نجا أمية فقتلهما فكان ابن عوف يقول: يرحم الله بلالاً فلا درعيّ ولا أسيريّ)[2].

---

(١) الأكّار هو الفلاّح، قال ذلك استصغاراً لابن مسعود، واستعظاماً لنفسه التي ما كان يتوقع أن فلاحاً يقضي عليها، وراجع تعليق ابن كثير على قتل أبي جهل وما فعله به عبدالله بن مسعود في البداية والنهاية (٣ ـ ٢٩٦).

(٢) انظر قصة أبي جهل وأمية بن خلف في جامع الأصول (٨ ـ ١٩٢ ـ ١٩٥).

ومن كان يظن لولا الجهاد في سبيل الله أن يخزي الله صناديد قريش ذلك الخزي الذي نزل بهم في بدر حيث قتلوا وسحبوا جيفا مثل الكلاب ليلقوا في بئر من آبار بدر خبيث مُخْبِث ثم يقف عليهم رسول الله ﷺ فيناديهم بأسمائهم مبكتاً لهم على ما جنوا على أنفسهم.

كما في حديث أبي طلحة رضي الله عنه قال: (لما كان يوم بدر وظهر عليهم نبي الله ﷺ أمر ببضعة وعشرين رجلاً... من صناديد قريش فألقوا في طَويّ من أطواء بدر خبيث مُخْبِث وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه قالوا ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الرَّكيّ فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم «يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟» فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم». قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً)[1].

ولولا الجهاد في سبيل الله ما رجع الرسول ﷺ إلى بلده مكة التي أوذي فيها هو وأصحابه وهاجروا منها مكرهين لإقامة دينهم لولا الجهاد ما رجع إليها ﷺ منصوراً مظفراً مهاباً في جيش لجب من أولياء الله المجاهدين من المهاجرين والأنصار، وأعداؤه في أشد الرعب والوجل مطأطئين رؤوسهم هاربين إلى بيوتهم مستجيرين ببيت الله الحرام، فدخل ﷺ مكة وأقام فيها دين الله وطهرها من أرجاس الشرك والمعاصي.

وفي قراءة قصة فتح مكة التي رواها عروة بن الزبير رضي الله عنهما ما يكفي لإظهار هذه الثمرة الطيبة الناتجة عن الجهاد في سبيل الله، وهي القضاء على شوكة الكفار وإذلالهم وإنزال الرعب في قلوبهم التي لا ينالها المسلمون إلا بالجهاد في سبيل الله.

---

(١) نفس الكتاب (٨ ـ ٢٠٣).

قال عروة بن الزبير رضي الله عنهما: (لما سار رسول الله ﷺ عام الفتح فبلغ ذلك قريشاً، خرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله ﷺ، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مر الظهران، فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة، فقال أبو سفيان: ما هذه؟ لكأنها نيران عرفة، فقال بديل بن ورقاء: نيران بني عمرو، فقال أبو سفيان: عمرو أقل من ذلك، فرآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم، فأتوا بهم رسول الله ﷺ، فأسلم أبو سفيان فلما سار قال للعباس: احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين، فحبسه العباس، فجعلت القبائل تمر مع النبي ﷺ تمر كتيبةً كتيبةً على أبي سفيان، فمرت كتيبة فقال: يا عباس من هذه؟ قال: هذه غفار، قال: ما لي ولغفار، ثم مرت جهينة فقال مثل ذلك، ثم مرت سعد ابن هذيم، فقال مثل ذلك، ثم مرت سليم فقال مثل ذلك، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، قال: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية، فقال سعد بن عبادة: يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال أبو سفيان: يا عباس حبذا يوم الذمار، ثم جاءت كتيبة وهي أجلُّ الكتائب، فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وراية النبي ﷺ مع الزبير، فلما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ قال: ما قال؟ قال: قال: كذا وكذا، فقال: كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة (ويوم تكسى فيه الكعبة) قال: وأمر رسول الله ﷺ أن تركز رايته بالحجون، قال عروة فأخبرني نافع بن جبير بن مطعم، قال: سمعت العباس يقول للزبير (بن العوام): يا أبا عبدالله أهمنا أمرك رسول الله ﷺ أن تركز الراية؟ قال: نعم: وأمر رسول الله ﷺ يومئذ خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة من كَداء ودخل النبي ﷺ من كُدَىً، فقتل من خيل خالد بن الوليد يومئذ رجلان. . .)[1] وكان هذا مصادقاً لقول الرسول ﷺ في غزوة الخندق: «الآن نغزوهم ولا يغزونا»[2].

إن هذه الكتائب المرعبة لم توجد إلا بالجهاد في سبيل الله الذي تربت عليه

---

(١) جامع الأصول (٨ ـ ٣٦٣).

(٢) راجع جامع الأصول (٨ ـ ٢٧١).

خلال ثمان سنوات وكان الذي يربيها عليه هو رسول الله ﷺ الذي باشر معها كثيراً من الغزوات ووجهها توجيهاً يؤدي بها إلى تلك القمة السامقة من الجندية والطاعة والتضحية متجردة في ذلك كله لله وحده.

وإن تلك الهيبة التي دخلت في قلوب أهل مكة وجعلتهم يسلمون ويستسلمون ويطلبون العفو من رسول الله ﷺ ويغلقون أبوابهم على أنفسهم ما كانت لتوجد لولا الجهاد في سبيل الله.

وهكذا كان الجهاد في سبيل الله قاضياً على أعداء الإسلام في الجزيرة العربية كلها في عهد رسول الله ﷺ من المشركين واليهود والنصارى وقد كانت شوكة اليهود قوية في المدينة حيث حاكوا المؤامرات على رسول الله ﷺ ونقضوا العهود والمواثيق فكان الجهاد في سبيل الله هو الفيصل بينه وبينهم فقتل من يستحق القتل وأسر من يستحق الأسر وأخرج من يستحق الإخراج وملكه الله أرضهم وديارهم ولولا الجهاد في سبيل الله لما كان من ذلك شيء، كما قال تعالى: ﴿وردَّ الله الذين كفروا بغَيْظِهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنينَ القتالَ وكان الله قوياً عزيزاً * وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صَيَاصيهم، وقذف في قلوبهم الرُّعْبَ فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً * وأورثكم أرضهم وديارهم وأرضاً لم تطأوها، وكان الله على كل شيء قديراً﴾[1].

وهذه الآيات نزلت في بني قريظة الذين غدروا بالرسول ﷺ وأصحابه في غزوة الأحزاب[2].

وقد نالوا جزاء غدرهم فقتل رسول الله ﷺ مقاتلتهم وسبى ذراريهم وقسم أموالهم كما حكم فيهم سعد بن معاذ بحكم الله تعالى[3].

وقال تعالى: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم أن يخرجوا، وظنُّوا أنهم ما نعتُهم حصونُهم من الله،

---

(١) الأحزاب: ٢٥ ـ ٢٧.
(٢) راجع تفسير ابن جرير الطبري (٢١ ـ ١٤٩ ـ ١٥٥).
(٣) راجع جامع الأصول (٨ ـ ٢٧٢).

فأتاهم الله من حَيْثُ لم يحتسبوا، وقذفَ في قلوبهم الرعبَ، يُخْرِبون بيوتَهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾[١].

وهذه الآيات نزلت في بني النضير الغادرين الذين أرادوا اغتيال رسول الله ﷺ، ولولا الجهاد في سبيل الله لما طهرت منهم مدينة رسول الله ﷺ ولما خرجوا يجرون أذيال الهزيمة وخربوا بيوتهم بأيديهم[٢].

ولولا الجهاد في سبيل الله لما قُضي على الردة التي عمت الجزيرة بعد وفاة رسول الله ﷺ ولما أنزل الذل والرعب في قلوب المرتدين من أتباع مسيلمة الكذاب وسجاح وغيرهما[٣] قال ابن كثير في قصة مواجهة أبي بكر أعداءه من بني عبس، وبني مرة وذبيان بعد وفاة النبي ﷺ: (فكانت هذه الوقعة من أكبر العون على نصر الإسلام وأهله وذلك أنه عز المسلمون في كل قبيلة وذل الكفار في كل قبيلة ورجع أبو بكر إلى المدينة مؤيداً منصوراً سالماً غانماً)[٤].

ولقد كانت دولتا فارس والروم مسيطرتين على العالم لاتساع رقعتهما ولما تتمتعان به من قوة مادية وبشرية وتنظيم إداري ومعارف وعلوم وثقافة، وكان عدد المسلمين وعدتهم ليسا شيئاً بجانب ما لدى كل واحدة من الدولتين، ولكن المسلمين بالجهاد في سبيل الله أخضعوا طغاة الدولتين وأزالوا عروشهما الظالمة وأذلوا جبابرة حكامهما وأنزلوا الرعب في قلوب أعداء الله وفي فترة قصيرة رفرفت راية الإسلام فوق نجودهما ووهادهما وارتفع التكبير في كل صقع من أصقاعهما.

وامتدت رقعة الإسلام من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً وأخذت جيوش الإسلام تدك معاقل النصرانية في أوربا وبسطت نفوذها على بلدان كثيرة منها.

ولولا الجهاد في سبيل الله لما كان من ذلك شيء وقد كان أهل الكفر

---

(١) الحشر: ٢.

(٢) راجع قصتهم في تفسير ابن جرير الطبري أول سورة الحشر وراجع كذلك جامع الأصول (٨ ـ ٢١٨) وكذا السيرة النبوية لابن هشام (٢ ـ ١٩٠).

(٣) راجع جامع الأصول (٨ ـ ٦٠٥).

(٤) البداية والنهاية (٦ ـ ٣١٤).

يقسمون على عدم زوال ملكهم ما داموا يعيشون، ولكن الله أزال ملكهم بالجهاد في سبيله، قال ابن كثير: (ثم قدم سعد زهرة بين يديه من كوثي إلى نهر شهر فمضى إلى المقدمة وتلقاه شيرزاد إلى ساباط بالصلح والجزية فبعثه إلى سعد فأمضاه، ووصل سعد بالجنود إلى مكان يقال له مظلم ساباط، فوجدوا هنالك كتائب كثيرة لكسرى يسمونها بوران، وهم يقسمون كل يوم لا يزول ملك فارس ما عشنا، ومعهم أسد كبير لكسرى، يقال له المُقَرَّط قد أرصدوه في طريق المسلمين فتقدم إليه ابن أخي سعد وهو هاشم بن عتبة فقتل الأسد والناس ينظرون... وحمل هاشم على الفرس فأزالهم عن أماكنهم وهزمهم وهو يتلو قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ تكونوا أقسمتم من قَبْلُ ما لكم من زوال﴾[1] إلى أن قال في فتح المدائن: (ولما استقل المسلمون على وجه الأرض خرجت الخيول تنفض أعرافها[2] صاهلة فساقوا وراء الأعاجم حتى دخلوا المدائن فلم يجدوا بها أحداً، بل قد أخذ كسرى أهله وما قدروا عليه من الأموال والأمتعة والحواصل وتركوا ما عجزوا عنه من الأنعام والثياب والمتاع والآنية والألطاف، والأدهان ما لا يدرى قيمته... فلما جاء سعد بالجيش دعا أهل القصر الأبيض ثلاثة أيام على لسان سلمان الفارسي، فلما كان اليوم الثالث نزلوا منه وسكنه سعد، واتخذوا الإيوان مصلى، وحين دخله تلا قوله تعالى: ﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك أورثناها قوماً آخرين﴾... ثم أرسل السرايا في أثر كسرى يزدجرد فلحق بهم طائفة فقتلوهم وشردوهم واستلبوا منهم أموالاً عظيمة ـ إلى أن قال ـ : (فلما جاء قدر الله زالت تلك الأيدي عن تلك الممالك والأراضي وتسلمها المسلمون من أيديهم قسراً وكسروا شوكتهم عنها وأخذوها بأمر الله صافية ضافية)[3].

---

(١) إبراهيم: ٤٤.

(٢) من ماء النهر الذي خاضوه بها فذلله الله لهم وكانوا يسيرون فيه كما يسيرون على وجه اليابسة نصراً من الله تعالى لهم.

(٣) البداية والنهاية (٧ ـ ٦١ ـ ٦٦ ـ ٦٧) اختصر المقصود من هذه الصفحات.

الفرع الثالث
ظهور صدق الدعوة للناس الذي يجعلهم يدخلون في دين الله أفواجاً فيزداد المسلمون بذلك عزا ويزداد الكفار ذلاً

إن المسلمين لو بقوا قابعين في بقعة من الأرض يقيمون فيها شعائر دينهم ـ لو مكّنوا من ذلك وهو بعيد ـ ويذهب أفرادهم لدعوة الناس إلى هذا الدين فإذا وقفت في وجوههم عقبات الكفر سكتوا وأووا إلى بقعتهم تلك، إنهم لو فعلوا ذلك قد يظهر لمن قصدهم واستمع إليهم وخالطهم صدق دعوتهم فيؤمن بذلك أو لا يؤمن، ولكن ظهور صدق دعوتهم للناس كافة ـ ودعوتهم دعوة عالمية ـ لا يتحقق بذلك، وإنما يتحقق ظهور صدق الدعوة للناس كافة بالأمور الآتية:

الأمر الأول:

أن يشاهد الناس الدعاة إلى هذا الدين وهم يبذلون من أجله المال والنفس والجاه والمنصب ووسائل الراحة كلها، إن الناس عندما يرون دعاة الإسلام يبذلون هذا البذل ويضحون هذه التضحية وليس لهم مطمع في أي أمر من أمور الدنيا يأخذون في مساءلة أنفسهم ترى لماذا هؤلاء الناس يضحون هذه التضحية ويبذلون هذا البذل الذي لا يرجون من ورائه مغنماً من مغانم الدنيا حتى يكون الجواب لو لم يكن ما عندهم حق نعمت به نفوسهم واطمأنت إليه قلوبهم لما ضحوا بأنفسهم وأموالهم وجاههم وكل متع الحياة الدنيا في سبيله.

ولهذا يبدأ أهل الباطل يساومون أهل الحق ويغرونهم بالأموال والمناصب والمغريات الأخرى، كما فعلت قريش مع رسول الله ﷺ إذ أرسلوا إليه وفداً يفاوضه ويعرض عليه من أمور الدنيا ما لو كان يسعى لها لأجاب، قال له عتبة ابن ربيعة: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة والمكان في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع»، قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت

تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاسمع مني» قال: أفعل، فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿حمٓ * تنزيلٌ من الرحمن الرحيم * كتاب فُصِّلت آياتُه قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبُنا في أكنَّةٍ ممَّا تدعونا إليه﴾[1]». ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرأها عليه فلما سمع منه عتبه أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك»[2].

وهـذه الأمـور التي عرضها عتبة على رسول الله ﷺ وهي التي ألف الناس السعي إلى تحصيلها والجد في طلبها، فإذا برز شخص يخالف عادات الناس ويتزعم دعوة ما فالغالب أنه يسعى ليكون غنياً أو ذا وجاهة في القوم وشرف أو آمراً ناهياً بالملك والرئاسة، وعندما رفض الرسول ﷺ هذه الأمور التافهة وجاهد في الله حق جهاده وربى من استجاب لدعوته على البذل والتضحية فهجروا الأهل والمال والوطن وبذلوا نفوسهم وكل ما يملكون لربهم علم الناس أن هؤلاء لا يفعلون ذلك إلا لشيء أغلى من كل ما يسعى الناس لتحصيله في الحياة الدنيا ولا بد أن يكون حقاً فظهر بذلك صدق هذا الدين.

الأمر الثاني:

أن يرى الناس معاني تلك الدعوة تتحرك في أهلها يرون أهل الدعوة يطبقون ما يدعون الناس إليه في عقيدتهم وعبادتهم وسلوكهم ومعاملاتهم، وهذا الأمر لا يتحقق إلا بقوة تحرس أهل الحق الذين يطبقونه لأن أهل الباطل لا

---

(١) فصّلت: ١ ـ ٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١ ـ ٢٩٣) وراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤ ـ ٩٠).

يتركون أهل الحق وما أرادوا بل يقفون في وجوههم ويحاربونهم ويصدونهم عن دينهم ويصدون الناس عنهم.. وكان هذا هو السبب الذي جعل الرسول ﷺ وأصحابه يهجرون بلدهم مكة ويهاجرون إلى المدينة ليقيموا دينهم وهم أقوياء يحرسون الحق من المعتدين ونشأ هنالك المجتمع الإسلامي الأول الذي ما كان جبريل ينزل بالأمر أو النهي الربانيين على رسول الله ﷺ حتى يبتدره الرسول ﷺ وأصحابه بالامتثال للأمر واجتناب النهي فرأى الناس الإسلام أمام أعينهم فظهرت محاسنه كما ظهرت بالمقارنة مساوىء الكفر والفسوق والعصيان، فظهر للناس بذلك صدق هذا الدين وكونه الحق وما سواه الباطل.

ولو كان أداء بعض شعائر الإسلام خُفْية كافياً في أداء حق الله تعالى على المسلم لما كان القاعد عن الهجرة بين ظهراني المشركين آثماً كما قال تعالى: ﴿إنَّ الذين تَوَفَّاهم الملائكةُ ظالمي أنفسِهم، قالوا: فيمَ كنتم؟ قالوا؟ كنّا مستضعفينَ في الأرض، قالوا ألَم تَكُنْ أرضُ اللهِ واسعةً فتهاجروا فيها!! فأولئك مأواهُم جهنمُ وساءت مصيراً * إلا المستضعفين من الرجال والنساء والوِلْدان لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً * فأولئك عسى الله أن يعفوَ عنهم، وكان الله عفواً غفوراً﴾[1].

فالآيات تدل على أن القادر على الهجرة القاعد عنها يستضعفه أهل الكفر عاص لله تعالى جزاؤه جهنم والقاعد بعذر معفو عنه لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

ومعلوم أنه لا يظهر للناس صدق الدعوة وكونها حقاً إلا إذا رأوها في سلوك أهلها ولا يمكن ظهورها في سلوكهم إلا إذا كانت عندهم قوة تحرسها وترد كيد الأعداء عنها.

الأمر الثالث:

ما يمنحه الله تعالى لعباده المجاهدين من أسباب النصر التي تخرق الأسباب المادية المألوفة.

---

(١) النساء: ٩٧ ـ ٩٩.

إن صاحب الحق الذي يدعو إليه الناس يعلن للناس أن هذا الحق هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده وأنه مكلف إبلاغ هذا الدين إلى الناس إن كان رسولاً فبمقتضى بعث الله إياه وإنزاله الوحي إليه، وإن كان من أتباع الرسل فبمقتضى ما كلفه من الأمر بالمعــروف والنهي عن المنكر وتبليغ ما علمه من أمور هذا الدين عن طريق الكتاب الذي أنزله الله على رسوله أو السنة التي علمها الرسول ﷺ أتباعه، وهي وحي كالقرآن وقد جرت سنة الله أن يكون أهل الكفر أكثر من أهل الإسلام وأن يكون الصراع بينهم وبين جند الله وحزبه مستمراً إلى أن تقوم الساعة.

وجرت سنته سبحانه أن ينصر الحق وأهله ويخذل الباطل وأهله وقد كان نصره لرسله وأنبيائه السابقين بإنزال عذابه الذي يدمر أهل الباطل ويستأصلهم، أو بالآيات الكونية القاهرة كقلب العصا حية، وإخراج الناقة من الصخرة ورفع الجبل فوق رؤوس المعاندين وغير ذلك.

أما هذه الأمة التي بعث الله فيها محمداً ﷺ فقد اقتضت مشيئته سبحانه أن لا يستأصل المكذبين منها بعذاب كوني عام كما كان يفعل بالأمم المكذبة قبلها، وأن لا تكون الحجة عليها هي الآيات القاهرة التي كان يقهر بها الأمم السابقة، وإنما كتب سبحانه تعذيب المكذبين من أمة محمد ﷺ بأيدي المؤمنين المجاهدين وربط نصره عباده المؤمنين بنصرهم هم لدينه، كما قال تعالى: ﴿قاتلوهم يعذِّبهم الله بأيديكم، ويُخْزِهم وينصركم عليهم﴾[1] وقال تعالى: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[2].

وإذا كان هذا الدين هو الحق الذي ارتضاه الله وكلف عباده المؤمنين تبليغه والجهاد عليه، وأهل الكفر أكثر منهم وأقوى عدداً وكانت الغلبة ـ كالمعتاد عند البشر ـ للأكثر عدداً والأقوى عُدداً، فإن الناس لا يقبلون على هذا الدين ولا يلقون له بالاً، بل ينفرون منه، ويشكون في صدق من دعا إليه ونسبه إلى الله، لأن الله قوي قادر أن ينصر دينه ـ ولو بأيدي عباده المؤمنين ـ فإذا لم ينصره فكيف ينسب إليه ويدعى أنه دينه.

---

(١) التوبة: ١٤. (٢) محمد: ٧.

لذلك أمر الله عباده المؤمنين بقوة معنوية يتفوقون بها على القوى المادية التي يملكها أعداؤهم: قوة الإيمان في نفوسهم وقوة الاعتماد عليه سبحانه التي تجعلهم يحتقرون كل قوى الأرض المادية ويستهينون بها، وإن أعدوا لها ما استطاعوا من قوة مادية امتثالاً لأمر الله تعالى لهم بذلك: ﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، ترهُبون به عدوَّ الله وعدوَّكم﴾[١] ويمدهم كذلك بأسباب أخرى كونية إذا دعت الحاجة إليها كإنزال المطر والرياح ويمدهم بأهل السماء من الملائكة وينزل بأعدائهم الرعب الذي يزلزل أقدامهم حتى تكون الغلبة للقلة المؤمنة المخلصة الملتزمة على الكثرة الكافرة، فيظهر بذلك للناس صدق هذه الدعوة وصدق دعاتها فيدخلون في دين الله أفواجاً.

والأمثلة على إمداد الله عباده المجاهدين على أعدائه الكافرين كثيرة ثابتة هذه بعضها:

في غزوة بدر:

كان عدد المسلمين ثلثمائة وأربعة عشر رجلاً وكان الثلاثة منهم والأربعة يعتقبون بعيراً واحداً فلم يكن معهم إلا سبعون بعيراً وثلاثة أفراس[٢].

وكان عدد المشركين ما بين التسعمائة والألف، وكان معهم مائة فرس وقيل مائتان أما الإبل فكانت كثيرة جداً قال ابن كثير: وقال يونس عن ابن إسحاق خرجت قريش على الصعب والذلول في تسعمائة وخمسين مقاتلاً[٣]. ويكفي أن يعلم أن ما نحر لهم من الإبل لأكلهم من وقت خروجهم من مكة حتى نزلوا ببدر يقارب ثمانين ناقة أو جملاً[٤].

وقد كان قادة قريش مغرورين بهذه القوة المادية التي لا قبل لقوة المسلمين

(١) الأنفال: ٦٠.

(٢) راجع السيرة النبوية لابن هشام (١ ـ ٦١٣ ـ ٦٦٦ ـ ٧٠٦).

(٣) راجع السيرة النبوية لابن هشام (١ ـ ٦١٧ ـ ٦٦٦) والبداية والنهاية لابن كثير (٣ ـ ٢٦٠) والرسول القائد ص ٨٩.

(٤) البداية والنهاية (٣ ـ ٢٦٠).

المادية بها وقد وصف الله غرورهم ذاك في سياق نهيه للمؤمنين أن يكونوا مثلهم في قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بَطَراً ورئاء الناس ويصدُّون عن سبيل الله، والله بما يعملون محيطٌ﴾[١] قال ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم (بطراً) أي دفعاً للحق (ورئاء الناس) وهو المفاخرة والتكبر عليهم كما قال أبو جهل لما قيل له: إن العير قد نجت فارجعوا فقال: لا والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر وننحر الجزور ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً)[٢].

وكان المشركون يظنون أنهم أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين وأن هذه هي مؤهلات النصر وأن محمداً ﷺ وأصحابه كانوا أقطع للرحم وأتوا بما لا يعرفه العرب وأن هذا من أسباب الهزيمة فدعوا الله أن ينصرهم بذلك وأن يهلك المسلمين بهذا. قال ابن كثير: وقال الإمام أحمد ـ وساق سنده إلى ـ عبدالله بن ثعلبة أن أبا جهل قال حين التقى القوم: (اللهم أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة فكان المستفتح)[٣] أي الذي قال الله فيه: ﴿إن تَسْتَفْتِحوا فقد جاءكم الفتح، وإن تَنْتَهوا فهو خيرٌ لكم﴾[٤]. ثم قال ابن كثير: (وقال السدي كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدرٍ أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين)[٥].

وكان المشركون قد بلغوا أقصى غرورهم عندما أظهروا الاستهانة بجيش الرسول ﷺ، والاستغناء عن أي عون مادي لما عندهم من القوة التي لا تقهر ـ كما يقول اليهود الآن ـ فقد بعث خفاف بن إيماء بن رحضة الغفاري ـ أو أبوه ـ إلى قريش يعرض عليهم أن يمدهم بالسلاح والرجال فأرسلوا إليه قائلين:

---

(١) الأنفال: ٤٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم (٢ ـ ٣١٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٢ ـ ٢٩٦).
(٤) الأنفال: ١٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم (٢ ـ ٢٩٦) وراجع السيرة النبوية لابن هشام (١ ـ ٦٢٨).

. . . فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم، ولئن كنا إنما نقاتل الله، كما يزعم محمد، فما لأحد بالله من طاقة)[١]. ولقد صدقوا وكذبوا: صدقوا بأنهم إن كانوا إنما يقاتلون الله فما لأحد بالله من طاقة، وكذبوا في ظنهم بأنهم إنما يقاتلون محمداً وقومه وأن زعمه بأن الله معه غير صحيح.

فكيف كانت نتيجة غرور الجيش المشرك القوي العاتي الذي واجه جيشاً قليلاً عدده قليلة عدته وما الأسباب التي منحها الله لجنده المجاهدين لقد أمد الله جنده المؤمنين بإخوانهم من أهل السماء، وغشاهم بالنعاس الذي أحدث به الأمن في نفوسهم، وأنزل عليهم المطر الذي يشربون منه ويتطهرون ويسقون أنعامهم ويثبت لهم الأرض التي يمشون عليها، وأوقع الرعب في قلوب أعدائهم، كل ذلك منحهم الله إياه ليستبشروا وتطمئن قلوبهم وتكون هزيمة عدوهم على أيديهم وإن كان الله قادراً على أن يهزمهم بغير قتال قال تعالى: ﴿إذ تستغيثون ربَّكم فاستجاب لكم أني مُمدُّكم بألفٍ من الملائكة مردفين *وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئنَّ به قلوبُكم، وما النصر إلا من عند الله إنّ الله عزيز حكيم * إذ يُغَشِّيكم النُّعاسَ أمنةً منه، ويُنَزِّلُ عليكم من السماء ماءً ليطهرَكم به ويذهب عنكم رِجْزَ الشيطان، وليَرْبِط على قلوبكم ويثبتَ به الأقدام * إذ يُوحي ربُّك إلى الملائكة أني معكم فثبِّتوا الذين آمنوا، سألقي في قلوب الذين كفروا الرُّعْبَ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلَّ بنان * ذلك بأنَّهم شاقُّوا الله ورسولَه ومن يشاقِق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾[٢].

وامتن سبحانه على عباده المجاهدين الذين باشروا القتال بأن النصر كان من عنده وأنهم لو وكلوا إلى قوتهم لما كان ذلك النصر المبين فقال: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميتَ إذ رميتَ ولكنَّ الله رَمَى، وليُبْلِي المؤمنين منه بلاءً حسناً، إن الله سميعٌ عليمٌ * ذلكم وأنَّ الله مُوهِنُ كيدِ الكافرين﴾[٣].

وقد كان الرسول ﷺ رمى الكفار بقبضة من تراب فلم يبق أحد من

---

(١) السيرة النبوية (١ ـ ٦٢١).
(٢) الأنفال: ٩ ـ ١٣.
(٣) الأنفال: ١٧ ـ ١٨.

المشركين إلا ناله منها شيء فكانت من أسباب هزيمتهم [١].

ونصر الله القلة المؤمنة على الفئة الكافرة.

وقد أخبر الرسول ﷺ عن ضعف المسلمين المادي في دعائه الذي رواه عبدالله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن الرسول ﷺ (خرج يوم بدر في ثلاثمائة وخمسة عشر رجلاً، فلما انتهى إليها قال رسول الله ﷺ: «اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم اللهم إنهم جياع فأشبعهم» ففتح الله يوم بدر فانقلبوا ـ حين انقلبوا ـ وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين واكتسوا وشبعوا) أخرجه أبو داود[٢].

ويظهر من هـذا الحديث كثرة جمال المشركين التي حضروا بها المعركة لأنه إذا كان كل رجل من الصحابة رجع بجمل واحد فإنهم رجعوا بما لا يقل عن ثلاثمائة فإذا كان منهم من رجع بجمل ومنهم من رجع بجملين فإن عددها قد يصل إلى ما يقارب خمسمائة جمل.

وقد رأى بعض المجاهدين أثر قتال الملائكة معهم في المعركة وأخبر به النبي ﷺ، لأنه لم يكن من الأسباب العادية المألوفة، فأخبرهم النبي ﷺ أن ذلك من مدد السماء، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه خر مستلقياً، فنظر إليه، فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه، كضربة السوط، فاخضرّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة» فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين)[٣].

وقد كان لهذا النصر المبين أثره في نفوس الناس الذين تنوقلت إليهم أخبار المعركة التي سماها الله يوم الفرقان فرق الله بها بين الحق والباطل، لأن الناس

---

(١) راجع تفسير الآية في تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢ ـ ٢٩٥).

(٢) جامع الأصول (٨ ـ ١٨٨) قال المحشي: وإسناده حسن.

(٣) نفس المرجع (٨ ـ ١٨٣).

تيقنوا أن أهل الكفر الذين يقاتلون محمداً رسول الله وصحبه إنما يقاتلون الله وأن الذي يقاتل الله لا طاقة له به.

قال محمد أبو زهرة رحمه الله: (كان أثر المعركة في العرب عامة بعيد المدى فقد سارت الركبان في الصحراء العربية بهزيمة قريش على يد طريدها الذي أخرجته وأصحابه من ديارهم وأموالهم، لأنه ينكر الوثنية ويدعو إلى الوحدانية ويقول أنه يوحى إليه من عند الله تعالى، فكان ذلك النصر منبهاً للعرب بحقيقة الدعوة المحمدية وسلامتها وقوتها، فوهنت العقيدة الوثنية بين العرب وأخذت عقول تدرك الحقائق وتطرح الأوهام التي نسجها الخيال الضال حول الأحجار، وبذلك صارت كلمة الله تعالى هي العليا وكلمة الشرك السفلى، وكان يوم الغزوة بحق يوم الفرقان إذ فرق فيه الناس وانتقل المسلمون من مستضعفين في الأرض إلى أقوياء يكاثرون الناس بقوتهم كما قال تعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم قليلٌ مُسْتَضْعفون في الأرض تخافون أن يتخطَّفكم الناسُ، فآواكم وأيَّدكم بنصره، ورزقكم من الطيِّبات لعلكم تشكرون﴾[1]. هذه إشارة إلى أثر ذلك النصر المبين في البلاد العربية لقد نظر إليه العرب على أن الإسلام هو القوة الحقيقية في البلاد العربية وكان من ذلك أن أخذ الناس يفكرون)[2].

ولقد أثار هذا النصر استغراب الناس الذين لم يكن الميزان الرباني موجوداً في أذهانهم للنصر والهزيمة، وإنما الميزان المادي الذي اختل أمام أعينهم، قال ابن كثير رحمه الله: (وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة قباث ابن أشيم الليثي من طريق الواقدي وغيره بإسنادهم إليه أنه شهد يوم بدر مع المشركين فذكر هزيمتهم مع قلة أصحاب رسول الله ﷺ قال: وجعلت أقول في نفسي ما رأيت مثل هذا الأمر فر منه إلا النساء والله لو خرجت نساء قريش بالها[3] ردت محمداً وأصحابه، فلما كان بعد الخندق قلت لو قدمت المدينة فنظرت إلى ما يقول محمد وقد وقع في نفسي الإسلام، قال: فقدمتها فسألت عنه فقالوا: هو ذاك في ظل

---

(١) الأنفال: ٢٦.

(٢) خاتم النبيين ﷺ (٢ - ١٤٢).

(٣) قال في الحاشية: في الأصلين هكذا (بالها) ولعلها بآلتها، أي بسلاحها.

المسجد في ملأ من أصحابه فأتيته وأنا لا أعرفه من بين أصحابه فسلمت فقال: يا قباث بن أشيم أنت القائل يوم بدر ما رأيت مثل هذا الأمر فرمنه إلا النساء، فقلت أشهد أنك رسول الله فإن هذا الأمر ما خرج مني إلى أحد قط ولا تزمزمت به إلا شيئاً حدثت به نفسي فلولا أنك نبي ما أطلعك عليه هلم أبايعك على الإسلام فأسلمت)[1].

والشاهد من هذه القضية أن قباثاً استغرب انتصار فئة قليلة ضعيفة على فئة كثيرة قوية، ولكن هذا الأمر بقي يحوك في نفسه وأخذ يفكر حتى هداه ذلك إلى الاتصال بالرسول ﷺ ثم إلى الإسلام.

في الخندق «غزوة الأحزاب»:

قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً * إذ جاءوكم من فوقِكم ومن أسفلَ منكم، وإذ زاغتِ الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ وتظنُّون بالله الظنونَ * هنالك ابتُلِي المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً﴾[2].

فقد حرض اليهود المشركين من أهل مكة ونجد على غزو رسول الله ﷺ وأصحابه للقضاء عليهم فاجتمعوا وغزوا المدينة وعددهم يقارب عشرة آلاف وكانوا أسفل المدينة، ونقضت بنو قريظة عهدها مع الرسول ﷺ وعددهم ثمانمائة مقاتل، وتواطأت مع الأحزاب وكانوا في أعلى المدينة، وكان المسلمون لا يزيد عدد الذين خرجوا لقتال المشركين عن ثلاثة آلاف، يحيط بهم المشركون من الأسفل وبنو قريظة من الأعلى قليل طعامهم شديد عليهم البرد وهم في العراء واضطروا أن يحفروا خندقاً بينهم وبين المشركين ليكون حاجزاً بينهم واشتد عليهم البلاء كما ذكر الله وبلغت القلوب الحناجر من شدة الخوف والجوع والبرد وغدر بني قريظة، وماذا عسى أن يفعل عددهم القليل أمام ذلك العدد الضخم الحاقد الذي عزم على استئصال شأفة المسلمين ودام حصار المشركين قريباً من شهر والمسلمون على تلك الحال.

---

(١) البداية والنهاية (٣ ـ ٣٠١).

(٢) الأحزاب: ٩ ـ ١١.

وقد أكرم الله تعالى رسوله ﷺ بأمور كثيرة خارقة للأسباب المألوفة عوناً منه سبحانه لهم ونصراً على عدوهم.

من ذلك تكثير تمر ابنة بشير بن سعد، كما قال ابن إسحاق: (وحدثني سعيد بن مينا أنه حدث أن ابنة لبشير بن سعد أخت النعمان بن بشير قالت: دعتني أمي عمرة بنت رواحة فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي، ثم قالت: أي بنية اذهبي إلى أبيك وخالك عبدالله بن رواحة بغدائهما، قالت: فأخذتها فانطلقت بها فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبي وخالي فقال: تعالي يا بنية، ما هذا معك؟ قالت: فقلت يا رسول الله هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبدالله بن رواحة يتغديانه قال: «هاتيه»، قالت فصببته في كفيّ رسول الله ﷺ فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط له ثم دحا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب ثم قال لإنسان عنده: «اصرخ في أهل الخندق أن هلم إلى الغداء، فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه)[1].

ومن ذلك تيسير الله لنبيه ﷺ إزالة الصخرة التي عرضت للصحابة وهم يحفرون الخندق فلم يقدروا على إزالتها.

ومن ذلك تكثير الله تعالى له عليه الصلاة والسلام صاعاً من شعير وعناق صنعهـا جابر له فدعا أهل الخندق فأكلوا حتى شبعوا.

وقد ذكر القصتين جابر رضي الله عنه قال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجاءوا النبي ﷺ، فقالوا هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازل» ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب في الكدية فعاد كثيباً أهيل أو أهيم. فقلت يا رسول الله ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ فقالت عندي شعير وعناق فذبحتُ العناق وطحنتِ الشعير حتى جعلنا اللحم بالبرمة ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافيّ قد كادت أن تَنضَجَ فقلت طُعيِّم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان

---

(١) سيرة ابن هشام (٢ ـ ٢١٨).

قال: كم هو ؟ فذكرت له، فقال: كثير طيب قال: قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي، فقال: قوموا فقام المهاجرون والأنصار فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت هل سألك؟ قلت: نعم فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال: كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة)[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (ووقع عند أحمد والنسائي في هذه القصة زيادة بإسناد حسن من حديث البراء بن عازب قال: لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول فاشتكينا ذلك إلى النبي ﷺ فجاء فأخذ المعول فقال بسم الله فضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة وقال بسم الله فقطع بقية الحجر فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة)[2].

ومن الأمور التي أكرم الله بها جنده ما منحه حذيفة من الدفء في ليلة شديدة الريح والبرد عندما انتدبه الرسول ﷺ لينظر ما فعل الأحزاب ويعود بخبرهم قال حذيفة: (لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقر، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة» فسكتنا فلم يجبه منا أحد ثم قال: «ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، فقال: «قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم» فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي إلّا أن أقوم، قال: «اذهب فأتني بخبر القوم ولا تذعرهم عليّ»[3] فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام

(١) البخاري رقم ٤١٠١ ورقم ٤١٠٢ فتح الباري (٧ ـ ٣٩٥).
(٢) فتح الباري (٧ ـ ٣٩٧).
(٣) أي لا تفزعهم ولا تحركهم عليّ.

حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار فوضعت سهماً في كبد القوس فأردت أن أرميه فذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تذعرهم عليّ» ولو رميته لأصبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام فلما أتيته فأخبرته خبر القوم وفرغت قَرَرْتُ فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها فلم أزل نائماً حتى أصبحت فلما أصبحت قال: «قم يا نَوْمان»)[1].

تأمل قوله: (وأخذتنا ريح شديدة وقر) وتأمل سكوت جميع الصحابة الحاضرين عن إجابة طلبه ﷺ الذي لم يعين فيه أحداً مع قوله ﷺ: «جعله الله معي يوم القيامة» يردد ذلك ثلاث مرات مع ما عرف من حرص الصحابة رضي الله عنهم من المسابقة في أعمال الخير التي فيها ثواب مطلق فكيف وهو يدعو بذلك لأي فرد منهم لبى طلبه إن ذلك يدل على أن الريح والبرد الشديدين قد بلغا مدى يصعب على النفس البشرية أن تتحمل الخروج فيهما، وتأمل قول حذيفة رضي الله عنه في ذهابه وعودته: (كأنما أمشي في حمام) (وأنا أمشي في مثل الحمام) إن هذا الأمر عندما يتناقله الناس وقد وقع ليجعل الناس يفكرون في أمر هذا الدين.

ومن أهم ما أكرم الله به جنده المجاهدين في هذه الغزوة هو ما أمدهم به من الريح الشديدة التي زلزلت أقدام المشركين وأرعبت قلوبهم واقتلعت خيامهم ولم يثبت لهم شيء معها في معسكرهم، وكذلك ما منحهم من جنوده من الملأ الأعلى الذين زلزلوا المشركين وأرعبوهم كما قال سبحانه: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾[2] فجعلهم سبحانه يسرعون في الارتحال قلقين خائفين ويظهر ذلك في حال أبي سفيان زعيم قريش التي وصفها حذيفة: (ثم قال أبو سفيان يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فوالله ما

(١) جامع الأصول (٢ - ٢٧٠).
(٢) الأحزاب: ٩.

أطلق عقاله إلا وهو قائم. ولولا عهد رسول الله ﷺ إليّ أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني ثم شئت لقتلته)(١).

وقال الرسول ﷺ بعد ذلك: «الآن نغزوهم ولا يغزونا»(٢).

وقال الحافظ ابن حجر: (وفيه إشارة بأنهم رجعوا بغير اختيارهم بل بصنع الله تعالى لرسوله.

وذكر الواقدي أنه ﷺ قال ذلك بعد أن انصرفوا وذلك لسبع بقين من ذي القعدة، وفيه علم من أعلام النبوة فإنه ﷺ اعتمر في السنة المقبلة فصدته قريش عن البيت ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها فكان ذلك سبب فتح مكة فوقع الأمر كما قال ﷺ وأخرج البزار بإسناد حسن صحيح من حديث جابر شاهداً لهذا الحديث ولفظه أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب وقد جمعوا له جموعاً كثيرة «لا يغزونكم بعد هذا أبداً ولكن أنتم تغزونهم»)(٣).

قال ابن القيِّم رحمه الله: (وأرسل الله عز وجل على المشركين جنداً من الريح فجعلت تقوض خيامهم ولا تدع لهم قدراً إلا كفأتها ولا طنباً إلا قلعته ولا يقر لهم قرار، وجند الله من الملائكة يزلزلونهم ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف)(٤).

في غزوة حنين:

قال تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين﴾(٥).

كان عدد المسلمين في هذه المعركة اثني عشر ألفاً: عشرة آلاف من

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢ ـ ٢٣٢).
(٢) جامع الأصول (٨ ـ ٢٧١).
(٣) فتح الباري (٧ ـ ٤٠٥).
(٤) زاد المعاد (٢ ـ ١٣٢).
(٥) التوبة: ٢٥ ـ ٢٦.

المهاجرين والأنصار الذين فتح بهم الرسول ﷺ مكة، وألفان من الطلقاء من أهل مكة، وقد أثرت هذه الكثرة في نفوسهم، كما ذكر الله: ﴿إذ أعجبتكم كثرتكم﴾ وعبر عن ذلك أحدهم كما قال الحافظ ابن حجر: (روى يونس بن بكير في زيادات المغازي عن الربيع بن أنس قال: قال رجل يوم حنين: لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على النبي ﷺ فكانت الهزيمة)[1].

ولقد ولّى أكثر الصحابة رضي الله عنهم عن رسول الله ﷺ في أول المعركة عندما فاجأتهم هوازن فرشقتهم بالنبال وأصلتوا عليهم السيوف وحملوا عليهم حملة رجل واحد في غلس الصبح ولم يبق مع الرسول ﷺ إلا عدد قليل اختلف فيه، فقيل اثنا عشر، وقيل ثمانون وقيل أقل من مائة، قال الحافظ ابن حجر: (وروى الترمذي من حديث ابن عمر بإسناد حسن، قال: لقد رأيتنا يوم حنين وإن الناس لمولين[2] وما مع رسول الله ﷺ مائة رجل). وهذا أكثر ما وقفت عليه من عدد من ثبت يوم حنين، وروى أحمد والحاكم من حديث عبد الرحمن بن عبدالله بن مسعود عن أبيه، قال: كنت مع النبي ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس، وثبت معه ثمانون رجلاً من المهاجرين والأنصار، فكنا على أقدامنا ولم نولهم الدبر وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة... وهذا لا يخالف حديث ابن عمر فإنه نفى أن يكونوا مائة وابن مسعود أثبت أنهم كانوا ثمانين.

---

(١) فتح الباري (٨ ـ ٢٩).

(٢) هكذا هو في الفتح وقد راجعت الحديث في متن سنن الترمذي (٤ ـ ٢٠٠) بتحقيق إبراهيم عطوة عوض مطبعة مصطفى البابي الحلبي الطبعة الثانية سنة ١٣٩٥ هـ فوجدته هكذا: (وإن الفئتين لموليتين) وفيه إشكال، والأصل أن يكون: (لمولّون) أو (موليتان) لأنه خبر إن وهو مرفوع، ثم رجعت إلى تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي للمباركفوري، الناشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة (٥ ـ ٣٣٦) فوجدته هكذا: (وإن الفئتين لموليتان) وهو يوافق القاعدة النحوية المشار إليها سابقاً.

وقال الشارح: (كذا في النسخ الحاضرة، وأورد الحافظ هذا الحديث في الفتح نقلاً عن الترمذي، وفيه: (وإن الناس لمولين) مكان: (وإن الفئتين لموليتان...) أ هـ.

قلت: قال الترمذي عقب سياقه هذا الحديث في المتن المشار إليه سابقاً: (قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث عبيد الله إلا من هذا الوجه). أما لفظه في كتاب تحفة الأحوذي فهو: (هذا حديث حسن صحيح غريب...) بزيادة (صحيح).

وقد راجعت الطبعة الهندية فوجدت هذه الزيادة فيها أيضاً.

وأما ما ذكره النووي في شرح مسلم أنه ثبت معه اثنا عشر رجلاً فكأنه أخذ بما ذكره ابن إسحاق في حديثه أنه ثبت معه العباس وابنه الفضل وعلي وأبو سفيان بن الحارث، وأخوه ربيعة وأسامة بن زيد وأخوه من أمه أيمن بن أم أيمن ومن المهاجرين أبو بكر وعمر، فهؤلاء تسعة، وقد تقدم ذكر ابن مسعود في مرسل الحاكم فهؤلاء عشرة ووقع في شعر العباس بن عبد المطلب أن الذين ثبتوا كانوا عشرة فقط... ولعل هذا هو الثبت ومن زاد على ذلك يكون عجل في الرجوع فعد فيمن لم ينهزم)[١].

وسواء كان العدد الذي ثبت مع رسول الله ﷺ هو أقل من مائة وأكثر من الثمانين أو كان ثمانين فقط، أو اثني عشر أو عشرة فإن ذلك يدل أن القوة المادية التي حصل الإعجاب بها قد ضعفت وانهزمت كما عبر الله عنها بقوله: ﴿فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾. فكانت في ميزان النظرة البشرية الصرفة هزيمة عاقبتها أن يتبع العدو المنتصر الجيش المنهزم فيقتل من يقتل منه ويأسر من يأسر وترتفع راية الكفر في هذه المعركة ويبدأ الناس يفكرون في تجمع قوى الشرك ورفع لوائه لسحق المسلمين.

ولكن الأمر لم يسر على هذا الميزان، وإنما سار على ميزان آخر هو نزول المدد على جيش الإسلام، بعد أن تلقى درساً في إعجابه بكثرته ونسيانه أن النصر الحقيقي ليس بالكثرة العددية ولا بالقوة وإن كانا مطلوبين وإنما النصر الحقيقي من عند الله وحده.

لذلك عقَّب سبحانه على الإدبار الانهزامي الذي حصل لأصحاب رسول الله ﷺ بقوله: ﴿ثم أنزل سكينتَه على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تَرْوها وعذَّب الذين كفروا، وذلك جزاء الكافرين﴾[٢] عقب بثم التي فصلت فصلاً كاملاً بين القوة المادية المنهزمة وبين ما منحه الله لحزبه من أسباب النصر الخارقة للأسباب المادية: إنزال السكينة على المجاهدين من عنده، وإنزال الجنود السماوية وظهر أثر ذلك في الأوبة السريعة، والتلبية العالية والالتفاف العظيم

---

(١) فتح الباري (٨ - ٢٩ - ٣٠).
(٢) التوبة: ٢٦.

حول رسول الله ﷺ والاستبسال الرفيع والشجاعة النادرة كما ظهر في إيصال الحصيات التي رماها رسول الله ﷺ إلى وجوه القوم وقال بعدها: «انهزموا ورب محمد» ففي حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال:

(شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، أهداها له فَروةُ بن نُفاثة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَلَ الكفار، قال عباس وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة ألا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس ناد أصحاب السمرة»، فقال عباس وكان رجلاً صيّتاً فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟، قال فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك، قال فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار، ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج، فنظر النبي ﷺ، وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى إقبالهم، فقال رسول الله ﷺ هذا حين حمي الوطيس، قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه القوم ثم قال: «انهزموا ورب محمد» قال فذهبت أنظر وإذا القتال على هيئته قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً)[1].

كما ظهر ذلك فيما رآه المشركون الذين بعثهم مالك بن عوف رئيس هوازن عيوناً على رسول الله ﷺ وأصحابه، قال ابن إسحاق: (وحدثني أمية بن عبدالله ابن عمرو بن عثمان أنه حدث أن مالك بن عوف بعث عيوناً من رجاله فأتوه وقد تفرقت أوصالهم، فقال ويلكم ما شأنكم؟ فقالوا رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى فوالله ما رده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد[2].

---

(١) جامع الأصول (٨ ـ ٣٩٢) وقال: أخرجه مسلم.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢ ـ ٤٣٩).

إن هذه الأسباب الخارقة للعادة التي كان يمنحها الله حزبه المجاهدين كان يشاهدها المؤمنون فيزدادون إيماناً ويشاهدها أعداء الله فتملأ قلوبهم رهبة ورعباً وتجعلهم يفكرون في أمر هذا الدين ثم يدخلون فيه فيزداد المسلمون عزاً ويزداد الكفار قلة وذلاً.

قال الحافظ: (ولأحمد وأبي داود والترمذي من حديث أبي عبد الرحمن الفهري في قصة حنين، قال: فولى المسلمون مدبرين كما قال الله تعالى فقال رسول الله ﷺ: «أيا عباد الله أنا عبد الله ورسوله ثم اقتحم عن فرسه فأخذ كفاً من تراب قال فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني أنه ضرب به وجوههم وقال: شاهت الوجوه فهزمهم..» قال يعلى بن عطاء رواية عن أبي همام عن أبي عبد الرحمن الفهري، قال: فحدثني أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً)[1].

فقد رأى الصحابة رميَ الرسول ﷺ التراب في وجوه القوم وسمعوا دعاءه ورأوا على أثر ذلك هزيمة الكفار، وأقر المشركون أن التراب الذي رماه الرسول ﷺ أصاب عين كل واحد وفمه، فسبحان من أعز جنده وهزم الأحزاب وحده.

يا سارية الجبل:

لقد تقدمت العلوم المادية الآن، وأصبح من السهل اليسير أن يتصل من في أقصى الأرض بالمشرق بمن في أقصاها بالمغرب والعكس صحيح، بل يستطيع أن يتصل أهل الأرض بمن صعد من إخوانهم على بعض كواكب السماء كالقمر بالأجهزة غير السلكية وبالأجهزة السلكية، وأصبح الناس يسمعون صوت البعيد ويرون صورته وهو يتحدث من أي مكان في العالم هذه الأمور أصبحت من الأمور العادية للناس كلهم. أما أجهزة الحرب فأمرها أعظم من ذلك بكثير.

ولكن هذه الأمور قبل هذا العصر كانت من الأمور الخيالية التي لو تحدث

---

(١) فتح الباري (٨ - ٣٢).

عنها أحد لوصفوه بالجنون، فكيف بعصر النبوة والخلافة الراشدة الذي لم يكن فيه أصلاً تفكير في مثل هذه الأمور؟

في هذا الوقت يمنح الله حزبه وسيلة كشف الخطر الآتي من عدوهم وكشف المكان الذي يجب أن يلجأوا إليه لأنه أحصن لهم من غيره ويمنحهم كذلك إيصال صوت قائدهم الأعلى من المدينة المنورة إلى بلاد فارس، ويجعل ذلك سبباً في نصر جنده وهزيمة عدوه.

فقد كان سارية بن زنيم على رأس جيش من المسلمين لمحاربة الفرس عبدة النار، وكان الجيش الكافر عظيماً لو أحاط بسارية وجيشه لأفناهم، وكان جيش سارية في عراء فأطلع الله عمر بن الخطاب على ذلك وهو على المنبر يخطب الناس فأخذ يصيح: يا سارية الجبل ثلاثاً فوصل صوته إلى الجيش الإسلامي فأسندوا ظهورهم إلى جبل كان قريباً منهم فنصرهم الله وهزم عدوهم.

قال ابن كثير رحمه الله: (وقال عبدالله بن وهب عن يحيى بن أيوب عن ابن عجلان عن نافع عن ابن عمر أن عمر وجه جيشاً ورأس عليهم رجلاً يقال له سارية، قال: فبينما عمر يخطب فجعل ينادي يا ساري الجبل يا ساري الجبل ثلاثاً، ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر، فقال: يا أمير المؤمنين هزمنا فبينما نحن كذلك إذ سمعنا منادياً يا سارية الجبل ثلاثاً، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله قال: فقيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك. وهذا إسناد جيد حسن) ثم ساق ابن كثير طرقاً أخرى وقال بعد ذلك: (فهذه طرق يشد بعضها بعضاً)[1].

قصة العلاء بن الحضرمي:

أفرغت السماء ماءها للمجاهدين واستقبل البحر خيلهم مثل اليابسة.

قال ابن كثير ـ ناقلاً عن البيهقي: (قال: ثم جهز عمر بن الخطاب جيشـاً واستعمل عليهم العلاء بن الحضرمي، قال أنس: وكنت في غزاته،

(١) البداية والنهاية (٧ ـ ١٣٠ ـ ١٣٢).

فأتينا مغازينا فوجدنا القوم قد بدروا بنا، فعفوا آثار الماء، والحر شديد، فجهدنا العطش ودوابنا وذلك يوم الجمعة، فلما مالت الشمس لغروبها صلى بنا ركعتين ثم مد يده إلى السماء، وما نرى في السماء شيئاً، قال: فوالله ما حط يده حتى بعث الله ريحاً وأنشأ سحاباً وأفرغت حتى ملأت الغدر والشعاب فشربنا وسقينا ركابنا واستقينا، ثم أتينا عدونا وقد جاوزوا خليجاً في البحر إلى جزيرة، فوقف على الخليج وقال: يا عليّ يا عظيم يا حليم يا كريم، ثم قال: أجيزوا بسم الله قال: فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا، فلم نلبث إلا يسيراً فأصبنا العدو عليه فقتلنا وأسرنا وسبينا، ثم أتينا الخليج فقال: مثل مقالته فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا. . .) ـ إلى أن قال ابن كثير ـ : (قال البيهقي رحمه الله: وقد روي عن أبي هريرة قصة العلاء بن الحضرمي في استسقائه ومشيهم على الماء. . . بنحو من هذا. وذكر البخاري في التاريخ لهذه القصة إسناداً آخر. وقد أسنده ابن أبي الدنيا عن أبي كريب عن محمد بن فضيل عن الصلت بن مطر العجلي عن عبدالله بن سهم بن منجاب، قال: غزونا مع العلاء بن الحضرمي، فذكره)(١).

في فتح المدائن (كأنما يسيرون على وجه الأرض)

إن قصة سعد بن أبي وقاص التي عزم فيها أن يقتحم نهر دجلة بجيشه على خيولهم لعدم وجود السفن من أعظم قصص الكرامات التي منح الله بها عباده المجاهدين، وإنها على طولها لجديرة بالنقل في هذا الموضع من هذا البحث وقد ساقها ابن كثير رحمه الله سياقاً يغري بقراءتها، وها هي بطولها:

قال رحمه الله: (لما فتح سعد نهر شير واستقر بها وذلك في صفة لم يجد فيها أحداً ولا شيئاً مما يغنم، بل قد تحولوا بكمالهم إلى المدائن، وركبوا السفن وضموا السفن إليهم، ولم يجد سعد رضي الله عنه شيئاً من السفن وتعذر عليه تحصيل شيء منها بالكلية وقد زادت دجلة زيادة عظيمة واسود ماؤها ورمت بالزبد من كثرة الماء بها، وأخبر سعد بأن كسرى يزدجرد عازم على أخذ الأموال

(١) البداية والنهاية (٦ ـ ١٥٥).

والأمتعة من المدائن إلى حلوان، وإنك إن لم تدركه قبل ثلاث فات عليك وتفارط الأمر. فخطب سعد المسلمين على شاطىء دجله، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلصون إليهم معه وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فيناوشونكم في سفنهم، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه. وقد رأيت أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا، ألا أني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم، فقالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرشد، فافعل، فعند ذلك ندب سعد الناس إلى العبور، ويقول: من يبدأ فيحمي لنا الفراض ـ يعني ثغرة المخاضة من الناحية الأخرى ـ ليجوز الناس إليهم آمنين، فانتدب عاصم بن عمرو، وذو البأس من الناس قريب من ستمائة فأمّر سعد عليهم عاصم بن عمرو، فوقفوا على حافة دجلة، فقال عاصم: من ينتدب معي لنكون قبل الناس دخولاً في هذا البحر فنحمي الفراض من الجانب الآخر، فانتدب له ستون من الشجعان المذكورين، والأعاجم وقوف صفوفاً من الجانب الآخر، فتقدم رجل من المسلمين وقد أحجم الناس عن الخوض في دجلة فقال: أتخافون من هذه النطفة؟ ثم تلا قوله تعالى: ﴿وما كان لنفسٍ أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجّلاً﴾[1]. ثم أقحم فرسه فيها واقتحم الناس.

وقد افترق الستون فرقتين أصحاب الخيل الذكور وأصحاب الخيل الإناث فلما رآهم الفرس يطفون على وجه الماء قالوا: ديوانا ديوانا. يقولون: مجانين مجانين، ثم قالوا: والله ما تقاتلون إنساً بل تقاتلون جناً، ثم أرسلوا فرساناً منهم في الماء يلتقون أول المسلمين ليمنعوهم من الخروج من الماء، فأمر عاصم ابن عمرو أصحابه أن يشرعوا لهم الرماح ويتوخوا الأعين، ففعلوا ذلك بالفرس فقلعوا عيون خيولهم فرجفوا أمام المسلمين لا يملكون كف خيولهم حتى خرجوا من الماء، واتبعهم عاصم وأصحابه فساقوا وراءهم حتى طردوهم عن الجانب الآخر ووقفوا على حافة الدجلة من الجانب الآخر، ونزل بقية أصحاب عاصم من الستمائة في دجلة فخاضوها حتى وصلوا إلى أصحابهم من الجانب الآخر،

---

(١) ال عمران: ١٤٥.

فقاتلوا مع أصحابهم حتى نفوا الفرس عن ذلك الجانب وكانوا يسمون الكتيبة الأولى كتيبة الأهوال، وأميرها عاصم بن عمرو والكتبة الثانية الكتيبة الخرساء، وأميرها القعقاع بن عمرو، وهذا كله وسعد والمسلمون ينظرون إلى ما يصنع هؤلاء الفرسان بالفرس وسعد واقف على شاطىء دجله ثم نزل سعد ببقية الجيش، وذلك حين نظروا إلى الجانب الآخر قد تحصن بمن حصل فيه من الفرسان المسلمين، وقد أمر سعد المسلمين عند دخول الماء أن يقولوا: نستعين بالله ونتوكل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم اقتحم بفرسه دجلة واقتحم الناس لم يتخلف عنه أحد، فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملأوا ما بين الجانبين فلا يرى وجه الماء من الفرسان والرجالة وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض وذلك لما حصل لهم من الطمأنينة والأمن والوثوق بأمر الله ووعده ونصره وتأييده، ولأن أميرهم سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وقد توفي رسول الله ﷺ، وهو عنه راض، ودعا له، فقال: (اللهم أجب دعوته وسدد رميته)[1].

والمقطوع به أن سعداً دعا لجيشه هذا في هذا اليوم بالسلامة والنصر، وقد رمى بهم في هذا اليم فسددهم الله وسلمهم فلم يفقد من المسلمين رجل واحد، غير أن رجلاً واحداً يقال له فرقدة البارقي زل عن فرس له شقراء، فأخذ القعقاع بن عمرو بلجامها، وأخذ بيد الرجل حتى عدله على فرسه، وكان من الشجعان فقال: عجز النساء أن يلدن مثل القعقاع بن عمرو، ولم يعدم للمسلمين شيء من أمتعتهم غير قدح من خشب لرجل يقال له مالك بن عامر، كانت علاقته رثة فأخذه الموج فدعا صاحبه الله عز وجل، وقال: اللهم لا تجعلني من بينهم يذهب متاعي، فرده الموج إلى الجانب الذي يقصدونه فأخذه الناس ثم ردوه على صاحبه بعينه وكان الفرس إذا أعيا وهو في الماء يقيض الله له مثل النشز المرتفع فيقف عليه فيستريح وحتى أن بعض الخيل ليسير وما يصل الماء إلى حزامها.

---

(١) تحفة الأحوذي (١٠ ـ ٢٥٤).

وكان يوماً عظيماً وأمراً هائلاً وخطباً جليلاً وخارقاً باهراً ومعجزة لرسول الله ﷺ خلقها الله لأصحابه لم ير مثلها في تلك البلاد ولا في بقعة من البقاع سوى قضية العلاء بن الحضرمي المتقدمة بل هذا أجل وأعظم، فإن هذا الجيش كان أضعاف ذلك، قالوا: وكان الذي يساير سعد بن أبي وقاص في الماء سلمان الفارسي فجعل سعد يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل. والله لينصرن الله وليه وليظهرن الله دينه وليهزمن الله عدوه، إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات، فقال له سلمان: (إن الإسلام جديد ذللت لهم والله البحور كما ذلل لهم البر، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوا أفواجاً)، فخرجوا منه كما قال سلمان لم يغرق منهم أحد ولم يفقدوا شيئا ولما استقل المسلمون على وجه الأرض خرجت الخيول تنفض أعرافها صاهلة فساقوا وراء الأعاجم حتى دخلوا المدائن فلم يجدوا بها أحداً)[1].

ترى هذا الحدث عندما يقع للمسلمين أنفسهم ألا يزداد يقينهم ويقوى إيمانهم وتثبت به قلوبهم فيزدادون عزاً وقوة ومنعة؟.

وعندما يراه أعداء الإسلام الذين يقولون لأول وهلة: مجانين ثم تكون النتائج النصر المبين للمجاهدين والهزيمة والخذلان والمهانة لأعدائهم ألا يكون ذلك داعياً لهم إلى التفكير في أمر هذا الدين ثم الدخول فيه فيزداد المسلمون قوة على قوتهم وعزاً على عزهم؟ بلى وهذا ما حصل فقد دخل أهل البلدان المفتوحة في دين الله وأعز الله بهم الإسلام بعد أن أذلهم بالكفر.

والذي يراجع معارك المسلمين مع أعدائهم في كل زمان ومكان يرى تنزيل نصر الله على أوليائه وإنزال الهزيمة بأعدائه إذ أن العدو في أغلب المعارك يكون عدده أضعاف عدد المسلمين وعدده المادية تفوق عدد المسلمين بكثير ومع ذلك يكون النصر للمسلمين على الكافرين.

قال القرطبي: (وقد وقف جيش مؤته، وهم ثلاثة آلاف، في مقابلة مائتي ألف...) إلى أن قال: (قلت: ووقع في تاريخ فتح الأندلس أن طارقاً مولى

---

(١) البداية والنهاية (٧ - ٦٤ - ٦٦).

موسى بن نصير سار في ألف وسبعمائة رجل إلى الأندلس، وذلك في رجب سنة ثلاث وتسعين من الهجرة فالتقى وملك الأندلس لذريق وكان في سبعين ألف عنان فزحف إليه طارق وصبر له فهزم الله الطاغية لذريق وكان الفتح)[١].

ولكن نزول نصر الله على عباده المؤمنين الذي يخرق لهم الأسباب المادية مشروط باستنفاد المسلمين طاقاتهم وقيامهم بكل سبب يقدرون عليه فإذا تقاعسوا عن ذلك فإنهم لا يستحقون نصره وهم نيام قال تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾[٢].

ولو كان الله ينصر المسلمين بالخوارق وحدها وهم قاعدون لكان أحق الناس بذلك رسول الله ﷺ الذي قضى وقته كله مجاهداً وتعرض للأذى والجروح والتعب، فخرق الأسباب المادية عند الله قريب لمن قام بالأسباب المادية المأمور بها، مع الإيمان والعمل الصالح. . .

وتأمل كيف يقارن ابن تيمية رحمه الله بين ما وقع للمشركين في الخندق من الهزيمة التي أنزلها الله بهم، وما وقع للتتار في عهده، يظهر لك استمرار نصر الله لأوليائه على أعدائه بأسباب خارقة للعادة إذا علم صدق المجاهدين في سبيله وقيامهم بما يطيقون من الأسباب، قال رحمه الله: (وكان عام الخندق برد شديد وريح شديدة منكرة بها صرف الله الأحزاب عن المدينة، كما قال تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تَرَوْها﴾[٣]. وهكذا هذا العام أكثر الله فيه الثلج والمطر والبرد على خلاف أكثر العادات حتى كره أكثر الناس ذلك وكنا نقول لهم: لا تكرهوا ذلك فإن لله فيه حكمة ورحمة وكان ذلك من أعظم الأسباب التي صرف الله بها العدو فإنه كثر عليهم الثلج والمطر والبرد حتى هلك من خيلهم ما شاء الله وهلك أيضاً منهم من شاء الله، وظهر فيهم وفي بقية

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧ ـ ٣٨١).

(٢) الأنفال: ٦٠.

(٣) الأحزاب: ٩.

خيلهم من الضعف والعجز بسبب البرد والجوع ما رأوا أنهم لا طاقة لهم معه بقتال حتى بلغني عن بعض كبار المقدمين في أرض الشام أنه قال: لا بيض الله وجوهنا أعدونا في الثلج إلى شعره ونحن قعود لا نأخذهم، وحتى علموا أنهم كانوا صيداً للمسلمين لو يصطادونهم لكن في تأخير الله اصطيادهم حكمة عظيمة)[1].

(١) الفتاوى (٢٨ ـ ٤٤٥).

المبحث الثاني

دخول الناس أفواجاً في هذا الدين عندما يعز أهله

وفيه فرعان:

الفرع الأول : بيان أن أهل الباطل يستهينون بأهل الحق ويستضعفونهم ما لم يكونوا أعزة.

الفرع الثاني : شهادة الواقع التاريخي باحترام الحق الذي تحرسه القوة ودخول الناس في دين الله أفواجاً إذا كان أهله أعزة.

الفرع الأول
بيان استضعاف أهل الباطل لأهل الحق إذا كانوا أذلة

قال تعالى: ﴿قالوا يا شعيبُ ما نَفْقَه كثيراً مما تقول، وإنا لنراك فينا ضعيفاً، ولولا رهطُك لرجمناك، وما أنت علينا بعزيزٍ * قال يا قومِ أرهطي أعزُّ عليكم من الله واتخذتُموه وراءكم ظِهْرِيّاً، إنَّ ربي بما تعملون محيط﴾[1].

فقوم شعيب ـ كما هو واضح من الآيتين ـ لا يقيمون وزناً له ولدعوته ولا يحترمونه، ويجاهرونه بأنه ضعيف لديهم لا عزة له ولا منعه، وإنهم يريدون أن يقتلوه شر قتلة وهي قتله بالرجم بالحجارة، ولا يردهم عن ذلك إلا احترامهم لعشيرته التي هي على دينهم، ولو كان هذا الرهط الذي أبدى قوم شعيب

(١) هود: ٩١ ـ ٩٢.

احترامهم على دين شعيب لما حصل لهم هذا الاحترام إلا إذا كانوا قادرين على رد عدوانهم وكبح جماحهم[١].

وقد تمنى لوط عليه السلام عندما أراد قومه الاعتداء على ضيفه أن تكون له قوة يدفع بها عن ضيفه، ولولا ضعفه ما قدروا أن يعتدوا عليهم وما ردهم عن الاعتداء إلا عذاب الله، قال تعالى: ﴿ولما جاءت رُسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً، وقال هذا يوم عصيبٌ * وجاءه قومه يُهرعون إليه ومن قَبْلُ كانوا يعملون السيئاتِ، قال يا قوم هؤلاء بناتي هُنَّ أطهرُ لكم فاتّقوا الله ولا تخزونِ في ضيفي أليسَ منكم رجلٌ رشيدٌ * قالوا لقد علمتَ ما لنا في بناتِك من حقٍّ وإنك لتعلم ما نريد * قال لو أنَّ لي بكم قوةً أو آوي إلى ركنٍ شديدٍ﴾[٢].

تأمل حال لوط عليه السلام وقد ساءه أن ينزل عليه ضيفه الذين أراد قومه الاعتداء عليهم، وهو يستعطف قومه ويعرض عليهم بناته ليتزوجوهن بدلاً من فعل الفاحشة في ضيفه ويأمرهم بتقوى الله ويطلب منهم النخوة الإنسانية في احترام الضيف ويتعجب أن يكونوا جميعهم على هذا الضلال ولا يوجد واحد منهم يقف في وجهه من أهل الرشد والرأي، ثم يظهر حسرته وألمه ويتمنى أن تكون عنده قوة مادية يدفع بها عن ضيفه.

وذكر الله سبحانه في موضع آخر أنهم أرادوا إخراجه هو ومن اتبعه من ديارهم بسبب نهيهم عن الفاحشة ولولا أن الله دمرهم ونجاه لفعلوا كما قال تعالى: ﴿وما كان جوابَ قومه إلاَّ أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنّهم أناس يتطهَّرون * فأنجيناه وأهلَه إلا امرأته كانت من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطراً، فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾[٣].

وقال تعالى عن فرعون: ﴿فأُلقي السَّحَرةُ سُجَّداً قالوا آمنا بربِّ هارون وموسى * قال آمنتُم له قَبْلَ أن آذن لكم؟ إنَّه لكبيركُم الذي علَّمكم السحرَ،

---

(١) راجع تفسير الآيتين في تفسير ابن جرير الطبري وتفسير المنار وتفسير في ظلال القرآن.

(٢) هود: ٧٧ ـ ٨٠.

(٣) الأعراف: ٨٢ ـ ٨٤.

فلأقَطِعَنَّ أيديَكم وأرجلَكم من خِلافٍ، ولأصلِّبَنَّكم في جذوعِ النَّخْلِ، ولَتَعْلَمُنَّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى﴾[١].

فالحق الذي وقر في نفوس السحرة فجعلهم يؤمنون به يرى فرعون أن الإيمان بهذا الحق لا يجوز بدون إذنه وهدد المؤمنين به بشتى أنواع التعذيب لأن أهله ضعاف أذلة لا قوة مادية تردعه عنهم وهكذا كل الأمم مع جميع الأنبياء والدعاة إلى الله لا يحترمون الحق والدعاة إليه وإنما يستضعفونهم ويستهينون بهم.

وما ناله الرسول ﷺ وأصحابه في مكة قبل الهجرة كاف لإثبات هذه القاعدة[٢].

الفرع الثاني
شهادة الواقع التاريخي باحترام الحق الذي تحرسه القوة ودخول الناس أفواجاً في دين الله عز وجل

يكفي في هذا الفرع المقارنة بين حالة الرسول ﷺ وأصحابه في مكة قبل الهجرة وحالتهم بعد ذلك في المدينة بعد الهجرة فقد كانوا في مكة مستضعفين يفتنون ويعذبون كما مضى في فصل الابتلاء في سبيل الله. أما في المدينة فقد أسس ﷺ دولة للإسلام اكتملت لها المقومات اللازمة. أرض تؤيهم وشعب آمن بمنهج يسكن تلك الأرض ويحميها وحكومة تصرف شؤون ذلك الشعب، وبدأت سرايا الرسول ﷺ وغزواته تنطلق من المدينة المنورة لمناوأة أعداء الإسلام المشركين ووقعت بينهم وبين المسلمين معارك كان الانتصار في الغالب للمسلمين على المشركين وبلغت قوة المسلمين ذروتها عندما وقع الصلح بينهم وبين المشركين في الحديبية حيث اعترف أهل الكفر بدولة تعقد المعاهدات وتفاوض وتصالح وكثر الداخلون في الإسلام. وعندما نقضت قريش الصلح غزا رسول الله ﷺ

---

(١) طه: ٧٠ ـ ٧١.

(٢) راجع فصل: الابتلاء في سبيل الله في الباب الثاني من هذا البحث.

مكة ففتحها ودخلها منتصراً مظفراً فماذا كان بعد هذا الفتح المبين؟

قال محمد بن إسحاق: (لما افتتح الرسول ﷺ مكة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، قال ابن هشام: حدثني أبو عبيدة أن ذلك في سنة تسع وأنها كانت تسمى سنة الوفود، قال ابن إسحاق وإنما كانت العرب تربص بإسلامها أمر هذا الحي من قريش لأن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديتهم وأهل البيت والحرم وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت الحرب لرسول الله ﷺ وخلافه فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوخها الإسلام عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته فدخلوا في دين الله كما قال عز وجل أفواجاً يضربون إليه من كل وجه)[1].

وقد روى عمرو بن سلمة حديثاً صريحاً في تربص العرب بإسلامهم وانتظارهم ما يؤول إليه أمر الرسول ﷺ من قوة يسيطر بها على قريش أو ضعف، وذلك بسيطرة قريش عليه وعلى أصحابه قال عمرو بن سلمة: (كنا بمَمَرٍّ الناس وكان يمر بنا الركبان فنسألهم ما للناس ما للناس ما هذا الرجل فيقولون: يزعم أن الله أرسله، أوحى إليه أو أوحى الله بكذا فكنت أحفظ ذاك الكلام فكأنما يقر في صدري، وكانت العرب تَلَوَّم بإسلامهم الفتح، فيقولون اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبدر أبي قومي بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم والله من عند النبي ﷺ حقاً...) الحديث[2].

واستمر الحال كذلك بعد وفاة رسول الله ﷺ فكان الجهاد هو الذي يؤدب العصاة والكفرة ويجبرهم على الخضوع للإسلام واحترام أهله ولقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه مدركاً ذلك تمام الإدراك فكان له موقفان في حادثتين أعز الله بهما الإسلام والمسلمين وجمع أهل الجزيرة العربية بعد فرقة وردهم إلى سبيل الله بعد أن ضل عنه أكثرهم.

---

(١) البداية والنهاية (٥ ـ ٤٠).

(٢) البخاري رقم ٤٣٠٢ فتح الباري (٨ ـ ٢٢).

الموقف الأول: تصميمه على إنفاذ بعث جيش أسامة الذي عقده رسول الله ﷺ قبل وفاته على الرغم من أن غيره من الصحابة كانوا يرون عدم إنفاذه ليكون سنداً للمسلمين في المدينة بعد وفاة الرسول ﷺ وما نجم بسبب ذلك من ارتداد الناس والخوف من تألب المرتدين والمنافقين على أصحاب رسول الله ﷺ الذين أصبحوا بعد وفاة نبيهم كالأيتام الذين فقدوا أباهم وهم صغار، وقد كان لهذا الموقف الجهادي الذي وقفه الصديق رضي الله عنه أثره الفعال في إنزال الرعب بالقبائل العربية التي مر بها والتي سمعت به فثبتوا على الإسلام بعد أن عزموا على الارتداد.

قال ابن كثير رحمه الله: فصل في تنفيذ جيش أسامة بن زيد (الذين كانوا قد أمرهم رسول الله ﷺ بالمسير إلى تخوم البلقاء من الشام حيث قتل زيد بن حارثة وابن رواحة، فيغتزوا على تلك الأراضي فخرجوا إلى الجرف فخيموا به، وكان بينهم عمر بن الخطاب، ويقال أبو بكر فاستثناه رسول الله ﷺ منهم للصلاة، فلما ثقل رسول الله ﷺ أقاموا هنالك، فلما مات عظم الخطب واشتد الحال ونجم النفاق بالمدينة وارتد من ارتد من أحياء العرب حول المدينة... والمقصود أنه لما وقعت هذه الأمور أشار كثير من الناس على الصديق ألا ينفذ جيش أسامة لاحتياجه إليه فيما هو أهم لأن ما جهز بسببه في حال السلامة، وكان من جملة من أشار بذلك عمر بن الخطاب فامتنع الصديق من ذلك وأبى أشد الإباء إلا أن ينفذ جيش أسامة، وقال: والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ ولو أن الطير تخطفنا والسباع من حول المدينة ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة وآمر الحرس يكونون حول المدينة، فكان خروجه في ذلك الوقت من أكبر المصالح والحالة تلك، فساروا لا يمرون بحي من أحياء العرب إلا أرعبوا منهم وقالوا ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة فقاموا أربعين يوماً ويقال سبعين يوماً ثم أتوا سالمين غانمين ثم رجعوا فجهزهم حينئذ مع الأحياء الذين أخرجهم لقتال المرتدة وما نعى الزكاة على ما سيأتي تفصيله.

قال سيف بن عمر: عن هشام بن عروة عن أبيه قال: لما بويع أبو بكر الصديق وجمع الأنصار في الأمر الذي افترقوا فيه، قال: ليتم بعث أسامة وقد

ارتدت العرب إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة ونجم النفاق واشرأبت اليهودية والنصرانية والمسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ وقلتهم وكثرة عدوهم، فقال له الناس: إن هؤلاء جل المسلمين، والعرب على ما ترى قد انتقصت بك وليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين فقال: والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته ثم ذكر ابن كثير عن طريق البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله: (والله الذي لا إلّه إلا هو لولا أن أبا بكر استخلف ما عبدالله) ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة، فقيل له: مه يا أبا هريرة؟ فقال: إن رسول الله ﷺ وجه أسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشام فلما نزل بذي خشب قبض رسول الله ﷺ وارتدت العرب حول المدينة، فاجتمع إليه أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا بكر رد هؤلاء، توجه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة؟ فقال: والذي لا إلّه غيره لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله ﷺ ما رددت جيشاً وجهه رسول الله ﷺ ولا حللت لواء عقده رسول الله، فوجه أسامة فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم، فلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين فثبتوا على الإسلام)[١].

رضي الله عنك يا أبا بكر لقد كان يدرك ما وراء خروج هذا الجيش بعد وفاة رسول الله ﷺ التي جعلت أعداء الإسلام يتطلعون للقضاء على الإسلام، كان يدرك رضي الله عنه ما في طاعة الله ورسوله من الخير من جهة، وما في إظهار القوة التي لا يحترم الأعداء سواها من جهة أخرى فكانت هذه النتيجة العظيمة لذلك القرار التاريخي العظيم.

أما الموقف الثاني: فكان إصراره على جهاد أعداء الله الذين ارتدوا عن الإسلام أو منعوا الزكاة مخالفاً بذلك جمهور الصحابة رضي الله عنهم وعلى رأسهم ـ كذلك ـ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي ندم على رأيه الذي

---

(١) البداية والنهاية (٦ ـ ٣٠٤ ـ ٣٠٥).

خالف فيه أبا بكر في أول الأمر، وكان يتمنى أن يكون صاحب هذا القرار الفذ الذي كانت نتائجه عظيمة في نصر الإسلام وإعزاز أهله وخذلان أعداء الله وإذلالهم، فقد قال رضي الله عنه: ـ وقد ذكر عنده أبو بكر فبكى ـ : (وددت أن عملي كله مثل عمله يوماً واحداً من أيامه، وليلة واحدة من لياليه. أما ليلته فالليلة التي سار مع النبي ﷺ إلى الغار، فلما انتهيا إليه، قال: والله لا تدخله حتى أدخله قبلك، فإن كان فيه شيء أصابني دونك، فدخل فكسحه، فوجد في جانبه ثقباً فشق أزاره وسد به، فبقي منها اثنان فألقمهما رجليه ثم قال لرسول الله: أدخل، فدخل النبي ﷺ، ووضع رأسه في حجره ونام، فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر، ولم يتحرك مخافة أن ينتبه النبي ﷺ، فسقطت دموعه على وجه النبي ﷺ، فقال: مالك يا أبا بكر؟ قال: لدغت فداك أبي وأمي، فتفل عليه النبي ﷺ فذهب ما يجده ثم انتقض عليه وكان سبب موته، وأما يومه فلما قبض النبي ﷺ ارتدت العرب وقالوا لا نؤدي زكاة فقال: لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه فقلت يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم فقال لي: أجبار في الجاهلية وخوار في الإسلام إنه قد انقطع الوحي وتم الدين أينقص وأنا حي..)[١].

وقام أبو بكر رضي الله عنه بحرب المرتدين وجهز الجيوش لكل ناحية من نواحي الجزيرة العربية فنصر الله الإسلام وأذل الكفر وكانت النتيجة خلال سنة واحدة كما قال ابن كثير رحمه الله: (استهلت هذه السنة ـ يعني سنة اثنتي عشرة للهجرة ـ وجيوش الصديق وأمراؤه الذين بعثهم لقتال أهل الردة جوالون في البلاد يميناً وشمالاً لتمهيد قواعد الإسلام وقتال الطغاة من الأنام حتى رد شارد الدين بعد ذهابه ورجع الحق إلى نصابه وتمهدت جزيرة العرب وصار البعيد الأقصى كالقريب الأدنى...)[٢].

ترى لو أن الصديق تأخر قليلاً عن تأديب الطغاة الكافرين والعصاة المعاندين أكان هؤلاء يحترمون الإسلام ـ ولو تركوا على كفرهم وعصيانهم ـ أم يتواطأون على حربه وتدمير أهله؟.

---

(١) جامع الأصول (٨ ـ ٦٠٥).

(٢) البداية والنهاية (٦ ـ ٣٤٢).

لقد تجمع أعداء الله وغزوا المدينة وأرادوا القضاء على المسلمين ولكن خليفة رسول الله الذي قرر الجهاد العاجل فشرح الله صدور جنده لقراره كان لهم بالمرصاد فهزمهم شر هزيمة، وكان كما قال ابن كثير: (فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد فما سمعوا للمسلمين حساً ولا همساً حتى وضعوا فيهم السيوف فما طلعت الشمس حتى ولوهم الأدبار وغلبوهم على عامة ظهرهم... واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة وكان أول الفتح، وذل بها المشركون وعزّ بها المسلمون..)(١).

ومن أراد أن يعلم شهادة هذا الحدث بأن أهل الباطل لا يحترمون أهل الحق إلا بالقوة والجهاد فليراجع كل وقعة من حروب الردة ونتائجها فإنه واجد ذلك واضحاً فيها.

ومن أصرح شهادة الواقع التاريخي بهذا وقعة القادسية التي بعث كل أهل بلد من يستوضح أمرها وما تؤول إليه من نصر أو هزيمة لبقاء ملك العرب أو زواله، ثم رجوع من نقض العهد بعد انتصار المسلمين في هذه المعركة، واقرأ هذا النص الذي ذكره ابن كثير رحمه الله: (وكانت العرب من العذيب إلى عدن أبين يتربصون وقعة القادسية هذه يرون أن ثبات ملكهم وزواله بها، وقد بعث أهل كل بلدة قاصداً يكشف ما يكون من خبرهم، فلما كان ما كان من الفتح... وسمع ذلك في سائر بلاد العرب وقد كانت بلاد العراق بكمالها التي فتحها خالد نقضت العهود والذمم والمواثيق التي كانوا أعطوها خالداً، سوى أهل بانقيا وبرسما وأهل أليس الآخرة، ثم عاد الجميع بعد هذه الموقعة التي أوردناها وادعوا أن الفرس أجبروهم على نقض العهود وأخذوا منهم الخراج وغير ذلك، فصدقوهم في ذلك تألفاً لقلوبهم..)(٢).

ولقد شهد التاريخ ـ كذلك ـ بأن الناس يدخلون في دين الله أفواجاً إذا كان أهله أعزة.

ولقد كان عدد المسلمين في غزوة الحديبية: ألفاً وأربعمائة وكانت سنة

---

(١) نفس المرجع (٦ ـ ٣١٣).   (٢) البداية والنهاية (٧ ـ ٤٦).

ست من الهجرة ولكنهم كانوا في غزوة الفتح عشرة آلاف مقاتل. وكانت سنة ثمان من الهجرة.

وقد بلغ عدد الوفود الذين وفدوا على الرسول ﷺ بعد الفتح قريباً من خمسين وفداً، هذه أسماؤها كما ذكرها ابن كثير رحمه الله: وفد مضر، وفد مزينة، وفد بني تميم، وفد عبد القيس وفد بنى حنيفة، وفد أهل نجران، وفد بني عامر، وفد بني سعد بن بكر، وفد طيء، وفد دوس، وفد الأشعريين، وفود فروة المرادي، وفود عمر بن معد يكرب الزبيدي، وفد كنده، قدوم أعشى بن مازن قدوم رسول ملوك حمير، قدوم جرير بن عبدالله البجلي، قدوم وائل بن حجر الحضرمي، قدوم لقيط بن عامر العقيلي قدوم زيد بن الحارث، قدوم الحارث بن حسان البكري، قدوم عبد الرحمن بن أبي عقيل مع قومه، قدوم طارق بن عبدالله مع قومه، قدوم وافد فروة الجذامي من معان، وفد بني أسد، وفد بني مرة، وفد بني محارب، وفد بني كلاب وفد بني رواس، وفد بني عقيل ابن كعب، وفد بني البكاء، وفد كنانة، وفد أشجع، وفد باهلة، وفد بني سليم.

وفادات اليمن: وفد نجيب، وفد خولان، وفد جعفر، وفد الأزد، وفد الصدف، وفد خشين، وفد بني سعيد..)[١].

ودانت بعد ذلك الجزيرة العربية كلها بالإسلام وأخذ الرسول ﷺ يبعث أمراءه إلى كل البلدان، كما أخذ يبعث رسله وكتبه إلى رؤساء الدول خارج الجزيرة: رؤساء الفرس، والروم، والقبط، والأحباش وغيرهم، يدعوهم إلى الإسلام ويرغبهم فيه ويحذرهم مغبة عدم الاستجابة له.

وهذا كله يدل أن مبادىء الحق إذا أسندتها القوة احترمها الناس وفكروا في الإيمان بها وتأييدها، وإذا كان أهلها ضعافاً استهان بهم الناس واستضعفوهم فليدرك ذلك المسلمون وليعدوا للحق عدته على الباطل وأهله.

---

(١) راجع البداية والنهاية (٥ ـ ٤١ ـ ٩٥).

المبحث الثالث

وحدة صفوف المسلمين

وفيه ثلاثة فروع:

الفرع الأول : واقع التاريخ يدل أن الجهاد في سبيل الله يوحد صفوف المسلمين ويضيق باب الخلاف بينهم.

الفرع الثاني : ذكر بعض الحوادث الدالة على أن الجهاد يوحد صفوف المسلمين.

الفرع الثالث : تنبه السلف الصالح في القرن الأول لهذه القاعدة.

الفرع الأول
واقع التاريخ يدل أن الجهاد في سبيل الله يوحد صفوف المجاهدين ويضيق باب الخلاف بينهم

إن الذي يتأمل الآيات الآتية يلمس منها أن الأمة المجاهدة لا بد أن تكون موحدة الصفوف، وأن صفوفها إذا صدعت لا تكون أهلاً للجهاد.

قال تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفالِ قُلِ الأنفالُ لله والرسول، فاتَّقوا الله وأصلحوا ذاتَ بينكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾[1].

فقد حسم الله الأمر في هذه الآية الكريمة عندما اختلف الصحابة رضي

(1) الأنفال: ١.

الله عنهم في غنائم بدر، فجعل حكمها إلى الله والرسول ولم يعطهم فرصة للأخذ والرد، ووجههم سبحانه إلى ما يجب أن يحرصوا عليه وهو تقوى الله وإصلاح ذات البين التي لا جهاد بدونها.

وقال تعالى: ﴿وأطيعوا الله ورسولَه ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحُكم، واصبروا إنَّ الله مع الصابرين﴾[1].

نهاهم عن التنازع الذي يترتب عليه الفشل والخسارة وذهاب الهيبة من قلوب الأعداء، فلا جهاد مع الفرقة والتنازع إلا كانت نتيجته الفشل.

وقال سبحانه: ﴿هو الذي أيَّدك بنصره وبالمؤمنين * وألَّف بين قلوبهم، لو أنفقتَ ما في الأرض جميعاً ما ألَّفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيزٌ حكيمٌ﴾[2].

امتن الله على رسوله بنصره له الذي أيده به من عنده وبالمؤمنين الذين جاهدوا معه بعد أن وحد الله صفوفهم، ولو لم يكونوا موحدي الصفوف لما نصره الله بهم، لأن مآل الفرقة والتنازع الفشل كما مضى.

والذي يستعرض تاريخ المسلمين يرى بوضوح أنهم كانوا في غاية من الإخاء والتآلف والاتحاد في الأوقات التي كانوا فيها يقارعون الأعداء يفرغون من غزوة فيدخلون في أخرى وينتهون من سرية فيبدأون بغيرها وما كان الخلاف يجد إليهم سبيلاً.

وعندما قدم الرسول ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار وربطهم ربطاً محكماً بذلك الإخاء الذي أثمر المحبة والإيثار، ولكنه لم يتركهم يخلدون إلى الأرض ويقعدون لحرث الأرض وزراعتها مع حاجتهم إلى ذلك، وإنما بثهم في أنحاء الجزيرة العربية على صفة غزوات شارك فيها بنفسه أو سرايا أمر عليها بعض أصحابه، فبلغت غزواته ﷺ بعد هجرته سبعاً وعشرين غزوة ـ أي بمعدل أكثر من غزوتين في السنة الواحدة ـ وبلغت سراياه ثمانياً وثلاثين ـ أي بمعدل

(١) الأنفال: ٤٦.
(٢) الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣.

قريب من عشر سرايا في كل سنة ـ[1] وكان الإعداد للغزوة الواحدة وزمن حصارها قد يستغرق قريباً من شهرين كغزوة الخندق. وكذلك بعض السرايا تأخذ وقتاً طويلاً.

فما كان الصحابة رضي الله عنهم يفكرون إلا في الغزو والجهاد والإعداد لهما مادياً ومعنوياً حتى مات الرسول ﷺ والراية الجهادية معقودة لأسامة بن زيد لغزو الروم.

وعندما توفي ﷺ وقع النزاع بين الصحابة في أمر الخلافة الذي حسم ببيعة أبي بكر رضي الله عنه، ولو بقي الصحابة رضي الله عنهم قابعين في المدينة، قاعدين عن الجهاد في سبيل الله لدب الخلاف بينهم في أمر ما من الأمور، ولكن الصديق رضي الله عنه وجه جهودهم وطاقاتهم إلى أعدائهم بدلاً من صدعها صفوفهم فأصر على إنفاذ جيش أسامة ثم على عقد الألوية لمحاربة المرتدين وكانت النتيجة ـ مع بقاء وحدة صفوفهم ـ أن أخمد نيران فتنة الردة وأخضع كل قبائل العرب للإسلام.

وبعد أن انتهت حروب الردة وجه رضي الله عنه المجاهدين من أمرائه وغيرهم من الصحابة أو ممن خضعوا للإسلام بعد ارتدادهم وجههم إلى العراق وفارس والشام، وتبعه على ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه واتسعت رقعة الإسلام شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً.

ثم جاء عثمان رضي الله عنه وقد بسط الإسلام جرانه على الأرض، فأكمل ما بقي من الفتوحات في أول عهده، وبدأ التنافس على المناصب وجمع المال وأخذ الإيمان يضعف واندس من يغيظهم قوة الإسلام واجتماع كلمة أهله في صفوف المسلمين وانتشرت الوشاية والتحريض على النزاع ونمقت لذلك مسوغات، وتجمع العصاة والفسقة والمخدوعون ضد عثمان رضي الله عنه فثاروا عليه وقتلوه، فكانت كارثة انتهاء الخلافة الراشدة وابتداء الملك العضوض.

وسجل التاريخ بعد ذلك اتساع الخلاف بين المسلمين، لأنهم رجعوا إلى أنفسهم بضرب بعضهم رقاب بعض، وما كانت آثاره ظاهرة التدمير لقرب

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام (٢ ـ ٦٠٨ ـ ٦٠٩).

العهد النبوي والخلافة الراشدة، ولكنه أخذ في الاتساع حتى انفرط آخر عقد للمسلمين بسقوط آخر خلفاء الأتراك السلطان عبد الحميد.

وكان المسلمون خلال عصورهم تلك تتقارب كلمتهم إذا ارتفعت راية الجهاد وتنشق صفوفهم إذا سقطت تلك الراية.

وإذا نظر المرء إلى الجماعات الإسلامية المنتشرة في الأرض يرى أن الجماعة التي يكون أعضاؤها أكثر عملاً وتربية وانشغالاً بالدعوة إلى الله تكون صفوفها أكثر تراصاً واتحاداً من غيرها بل إن الجماعة التي انصدعت صفوفها إذا اضطرت لحمل السلاح ضد عدوها تتوحد كلمتها وتنسى خلافاتها ومطامعها الشخصية.

الفرع الثاني
ذكر بعض الحوادث الدالة على أن الجهاد يوحد صفوف المسلمين

الحادثة الأولى: في غزوة بني المصطلق

فقد اختلف أجير عمر بن الخطاب، واسمه جهجاه بن مسعود، وهو من المهاجرين وسنان بن وبر الجهني، وهو من الأنصار، فاقتتلا، وصرخ جهجاه: يا للمهاجرين، وصرخ سنان: يا للأنصار، وكان عبدالله بن أُبَيّ رأس النفاق قد قال عندما بلغه ذلك: أوَقد فعلوها... والله ما أعدنا وجلابيب قريش[1] إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فسمعها منه زيد بن أرقم فبلغ رسول الله ﷺ فطلب منه عمر ابن الخطاب أن يأمر عباد بن بشر بقتله فقال ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، لا ولكن أذن بالرحيل، فارتحل ﷺ بالناس في ساعة لم يكن يرتحل بهم فيها فقال له أسيد بن حضير يا نبي الله والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها فقال له رسول الله ﷺ: «أو ما بلغك ما

(١) لقب أطلقه المشركون على المسلمين الذين هاجروا، إذ كانوا يلتحفون بأزر غلاظ فلقبوا بها.

قال صاحبكم؟» قال: وأيّ صاحب يا رسول الله؟ قال: «عبد الله بـن أُبيّ»، قال: وما قال؟ قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»، قال: فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت هو والله الذليل وأنت العزيز... ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبدالله بن أُبيّ)[١].

لقد مشى الرسول ﷺ بأصحابه قريباً من أربع وعشرين ساعة حتى أنهكهم التعب حتى إذا مست أجسادهم الأرض وقعوا نياماً ليشغلهم عن حديث عبدالله ابن أبي الذي كان يخشى منه أن يوقع بينهم الخلاف والفرقة فيؤخذ من ذلك أن شغل المسلمين بالجهاد من أعظم ما يدفع عنهم الخلاف ويوحد صفوفهم[٢].

الحادثة الثانية:

كانت في سنة ثمان وخمسين وستمائة، حيث كان سلطان دمشق وحلـب، وملك بلاد الكرك والشوبك في حرب مع سلطان ديار مصر الملك المظفر سيف الدين قطز، وكانا عازمين مع أتباعهما على قتال أهل مصر وانتزاعها من قطز، وفي هذا الوقت تواترت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام وأنهم حاصروا حلب وافتتحوها وقتلوا أهلها وسبوا نساءهم وذراريهم وجعلوا أعزة أهلها أذلة، ثم زحفوا إلى دمشق فاستباحوا بها الحرمات وتعاون معهم النصارى ضد المسلمين،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢ ـ ٢٩٠ ـ ٢٩٢) مع شيء من التصرف والاختصار، وراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤ ـ ٣٦٩) وكذا البداية والنهاية له (٤ ـ ١٥٧).

(٢) قال إبراهيم القريبي في رسالته: غزوة بني المصطلق عن هذه القصة: (الحديث رجاله ثقات، ولكنه مرسل وأورده ابن جرير الطبري من هذه الطريق نفسها، وله شاهد عند ابن أبي حاتم من مرسل عروة بـن الزبير وعمرو بن ثابت الأنصاري، وهو مرسل جيد كما قال ابن حجر، وهو أيضاً عند ابن أبي شيبة من مرسل عروة وحده، وأصله في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم وجابر بن عبدالله وبهذا يكون الحديث حسناً لغيره) أ هـ ص ١٩٠ ـ ١٩١ نسخة أهداها المؤلف لكاتب هذا البحث.

وبلغ سلطان مصر أن التتار قد وصلوا إلى غزة وفر الملك الناصر إلى مصر ثم تركها خوفاً من سلطانها لما بينهما من العداوة وتحصن في الكرك حتى قبض عليه التتار وقتلوه، ولما علم سلطان مصر أمر التتار: (بادرهم قبل أن يبادروه. . . فخرج في عساكره وقد اجتمعت الكلمة عليه. . . فكان اجتماعهم على عين جالوت يوم الجمعة الخامس والعشرون من رمضان فاقتتلوا قتالاً عظيماً فكانت النصرة ولله الحمد للإسلام وأهله فهزمهم المسلمون هزيمة هائلة. . . وقد قاتل الملك المنصور صاحب حماة مع الملك المظفر قتالاً شديداً. . . واتبع الأمير بيبرس البندقداري وجماعة من الشجعان التتار يقتلونهم في كل مكان إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب وهرب من بدمشق منهم يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون فيهم ويستفكون الأسارى من أيديهم وجاءت بذلك البشارة ولله الحمد على جبره إياهم بلطفه فجاوبتها دق البشائر من القلعة وفرح المؤمنون بنصر الله فرحاً شديداً وأيد الله الإسلام وأهله تأييداً وكبت الله النصارى واليهود والمنافقين وظهر دين الله وهم كارهون. . .)[١].

تأمل كيف انقلب الأمر من تربص أهل الشام من المسلمين بأهل مصر منهم وتربص أهل مصر بأهل الشام حيث كان كل منهم يعد العدة للقضاء على الآخر فلما فاجأهم ما يقتضي الجهاد في سبيل الله اجتمعوا كلهم لقتال عدوهم فكان النصر المؤزر.

الحادثة الثالثة:

كانت سنة اثنتين وسبعمائة من الهجرة حيث أنزل التتار الرعب في قلوب المسلمين الذين تفرقت كلمتهم وضعفت نفوسهم، وكان ابن تيمية رحمه الله يحثهم على الاجتماع ويحضهم على القتال، وعندما اشتد الخطب وعاث التتار فساداً جمع الله الشمل وحقق الله به من النصر ما لم يكن الناس يظنون، قال ابن كثير رحمه الله: (ووصل التتار إلى حمص وبعلبك وعاثوا في تلك الأراضي فساداً

---

(١) البداية والنهاية (١٣ ـ ٢١٨ ـ ٢٢١) مع تصرف وتلخيص.

وقلق الناس قلقاً عظيماً وخافوا خوفاً شديداً، واختبط البلد لتأخر قدوم السلطان ببقية الجيش، وقال الناس لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لكثرتهم، وإنما سبيلهم أن يتأخروا عنهم مرحلة مرحلة، وتحدث الناس بالأراجيف، فاجتمع الأمراء يوم الأحد المذكور بالميدان وتحالفوا على لقاء العدو وشجعوا أنفسهم، ونودي بالبلد ألا يرحل أحد منه فسكن الناس وجلس القضاة بالجامع وحلفوا جماعة من الفقهاء والعامة على القتال، وتوجه الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم في القطيفة فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم. . .) إلى أن قال:

(فلما كان بعد الظهر قرئت بطاقة بالجامع تتضمن أن الساعة الثانية من نهار السبت هذا اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية مع السلطان في مرج الصفر وفيها طلب الدعاء من الناس والأمر بحفظ القلعة والتحرز على الأسوار فدعا الناس في المآذن والبلد وانقضى النهار وكان يوماً مزعجاً هائلاً وأصبح الناس يوم الأحد يتحدثون بكسر التتر وصارت كسرة التتار تقوى وتتزايد قليلاً حتى اتضحت جملة ولكن الناس لما عندهم من شدة الخوف وكثرة التتر لا يصدقون. فلما كان بعد الظهر قرىء كتاب السلطان إلى متولي القلعة يخبر فيه باجتماع الجيش ظهر يوم السبت بشقحب وبالكسوة ثم جاءت بطاقة بعد العصر من نائب السلطان جمال الدين آقوش الأفرم إلى نائب القلعة مضمونها أن الوقعة كانت من العصر يوم السبت إلى الساعة الثانية يوم الأحد وأن السيف كان يعمل في رقاب التتر ليلاً ونهاراً وأنهم هربوا وفروا واعتصموا بالجبال والتلال وأنه لم يسلم منهم إلا القليل فأمسى الناس وقد استقرت خواطرهم وتباشروا لهذا الفتح العظيم والنصر المبارك ودقت البشائر بالقلعة من أول النهار المذكور)[1].

تأمل قول الناس من أهل الشام: لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لكثرتهم الذي يدل على الخلاف والفرقة بين الشاميين والمصريين، ولكن الخطر الذي لا يدفعه إلا الجهاد جعلهم يجتمعون فحصل

---

(١) البداية والنهاية (١٤ ـ ٢٣ ـ ٢٥).

الاجتماع والتحالف، وذهب ابن تيمية للجيش الحموي فأخبره بما جرى من الاجتماع وحثه على الكون معهم فأجاب وحلف معهم.

ولولا الجهاد لما كان هذا الاجتماع السريع، فالجهاد في سبيل الله يوحد صفوف المسلمين وبذلك ينتصرون على عدوهم.

الفرع الثالث
معرفة السلف الصالح من القرن الأول هذه القاعدة وهي أن الجهاد في سبيل الله هو السبيل إلى توحيد صفوف المسلمين

لقد وعى السلف الصالح هذا المعنى في الجهاد في سبيل الله بثاقب نظرهم وبالتجارب التي مرت بهم من حين أذن الله لرسوله والمؤمنين بالجهاد في سبيله إلى أن بدأت الفرقة تدب في صفوفهم في أواخر زمن الخلافة الراشدة فقد ضاق ذو النورين الخليفة الثالث ذرعاً بالمتألبين عليه الذين حاصروه وأملوا عليه مطالبهم وهددوه إن لم ينفذها، ضاق بهم ذرعاً واستقدم أمراء الأجناد إليه ليستشيرهم في الأمر، فاجتمع إليه معاوية بن أبي سفيان أمير الشام، وعمرو بن العاص أمير مصر، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح أمير المغرب، وسعيد بن العاص أمير الكوفة وعبدالله بن عامر أمير البصرة. فاستشارهم، فأشار كل واحد بما ظهر له أو رآه، وكان عبدالله بن عامر هو الذي أصاب كبد الحقيقية: (فأشار... أن يشغلهم بالغزو عما هم فيه من الشر فلا يكون همّ أحدهم إلا نفسه، وما هو فيه من دبر دابته وحمل فروته).

نعم كان هذا هو الرأي الصائب، ولكنه قد جاء القدر وقضى الله ما قضى فكان قتل عثمان وما تبعه من المصائب التي دارت بين أصحاب رسول الله ﷺ أنفسهم.

ولقد فهم هذا المعنى بعض أعداء الإسلام الذين عنوا بدراسة السيرة الإسلامية وتحليل أسباب عظمتهم وانحطاطهم، قال غوستاف لوبون ذاكراً بعض أسباب انتصار المسلمين: (ولم تكن جزيرة العرب قبل ظهور محمد ﷺ

سوى ميدان حرب دائم واسع لما تأصل في العرب من الطبائع الحربية. ولما جاء الإسلام وألف بين قلوب العرب وجهوا جميع قواتهم إلى البلاد الأجنبية وكانت طبائعهم الحربية من أسباب انتصاراتهم، ولما خلا الميدان من أعداء يحاربونهم صوبوا أسلحتهم نحو أنفسهم بفعل صفاتهم الحربية المتأصلة. . .)(١) وقال بعد ذلك: (ولقد بينت سابقاً كيف أن غرائز العرب في الحرب والخصام التي كانت نافعة في دور فتوحهم، لم تلبث أن أصبحت ضارة بعد انقضائه وخلو الميدان من أعداء يحاربونهم، وذلك أن العرب بعد أن تمت فتوحهم أخذ ميلهم المتأصل إلى الانقسام يبدو، وصارت دولتهم تتجزأ حتى سقطت. .)(٢).

من هذين النصين يظهر أن هذا المستشرق استطاع أن يصل إلى نتيجة هي بعينها التي وصل إليها عبدالله بن عامر، وهي أنه لا بد أن يشغل المسلمون بالجهاد في سبيل الله الذي هو وظيفتهم والعالم كله في أمس الحاجة إليه ليتمتع بهذا الدين: إلا أن غوستاف لوبون ابتعد عن الحقيقة في أمرين قاصداً أو غير قاصد.

الأمر الأول: كونه يعزو الانقسام والتطاحن الذي وقع بين المسلمين إلى خلو الميدان من أعداء يحاربونهم، فالميدان لم يخل من أعداء للمسلمين يجب حربهم في كل لحظة من لحظاتهم، لأن رسالة المسلمين عالمية والكفر لا يخلو منه زمان من الأزمنة، والأولى أن يقال إن ذلك كان بسبب عدم مواصلة المسلمين مسيرة الجهاد كما واصلها سلفهم في العهد النبوي والخلافة الراشدة، فالفتوحات لم تتم كما قال لوبون ولم ينته دورها وإنما وقفت في آخر الأمر وقلّت في أوله.

الأمر الثاني: قول غوستاف لوبون: (بفعل صفاتهم الحربية المتأصلة) فالاختلاف الحاصل في أي أمة من الأمم سواء كانت مسلمة أو كافرة عربية وغير عربية إنما يحصل بسبب جمودها وانطوائها على نفسها وقعودها عن توجيه طاقاتها إلى خارج دائرتها، سواء كان هذا التوجيه عادلاً أو ظالماً وغوستاف لوبون نفسه يعلم ما جرت من حروب وفتن في شعوب أوربـا بل في كل قطعة منها أو من

(١) حضارة العرب ص ٦٠٣.
(٢) نفس المرجع ص ٦٠٧.

غيرها من بلاد النصارى قديماً وحديثاً، فهل كان ذلك بفعل صفاتهم الحربية المتأصلة أو لبعدهم عن الله وترك دينه وعدم اتفاقهم على هدف مشترك يناضلون من أجله[١] ولم تقف تلك الحروب في أوربا إلا بعد أن وجهوا عنايتهم إلى استعمار بلاد العالم ونهب خيراتها.

وإذا كان المسلمون منقسمين على أنفسهم بسبب توقفهم عن الجهاد في سبيل الله فإن ذلك من عقاب الله تعالى لهم على قعودهم عما فرضه الله عليهم.

والحاصل أن المسلمين والكفار فهموا جميعاً أن من أهم الأسباب التي توحد صفوف المسلمين هو الجهاد في سبيل الله، وإن انطلق كل منهم من منطلق غير منطلق الآخر بسبب صحة تصور المسلم وفساد تصور الكافر.

---

(١) راجع كتاب في ظلال القرآن (٦ - ٨٦٠).

المبحث الرابع

هداية المجاهدين وتسديد خطواتهم

وفيه فرعان:

الفرع الأول : بيان عناية الله بالمجاهدين وتسديدهم بصفة عامة.

الفرع الثاني : بيان تسديد الله للمجاهد في قتال العدو وأساليبه.

الفرع الأول
بيان عناية الله بالمجاهدين وتسديدهم بصفة عامة

قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهم سُبُلَنا، وإنَّ الله لَمَعَ المحسنين﴾[1] فقد وعد الله تعالى من جاهد فيه أن يهديه سبله - أي الطرق الموصلة إلى مرضاته وأنه تعالى مع المحسنين، والمحسنون هم الذين جاهدوا فيه تعالى والجهاد فيه عام شامل لجهاد النفس على طاعة الله وترك معصيته وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله وإعداد العدة لجهاد الأعداء بالقتال وغير ذلك مما يدخل تحت طاعة الله تعالى، والسبل التي يهدي تعالى المجاهد إياها شاملة كذلك لكل أمر يرضيه سبحانه من طاعته وترك معصيته وتبليغ جناته. قال القرطبي: (وقال أبو سليمان الداراني ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصر الدين والرد على المبطلين وقمع الظالمين، وعِظمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفس في طاعة الله وهو الجهاد الأكبر، وقال سفيان بن عينية لابن المبارك: إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك

(١) العنكبوت: ٦٩.

بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله تعالى يقول: ﴿لنهدينهم﴾)[١].

وقال ابن جرير: (لنهدينهم سبلنا يقول: لنوفقنهم لإصابة الطرق المستقيمة، وذلك إصابة دين الله الذي هو الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ)[٢].

وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى لي ولياً، فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه ولئن استعاذ بي لأعيذنه»[٣].

ففي هذا الحديث بيان لتوفيق الله وتسديده لمن جاهد في الله فلزم طاعته فيما افترضه عليه وما شرع له من الطاعات غير المفروضة حيث يوفق الله كل جوارحه فلا تتحرك ولا تسكن إلا في مرضاته[٤].

الفرع الثاني
بيان تسديد الله للمجاهدين في قتال العدو وأساليب قتاله

وفي هذا الفرع مسائل:

المسألة الأولى: ذكر أمثلة من تسديد الله للمجاهدين في غزوة بدر:

المثال الأول: هدايتهم لذات الشوكة واختيارها لهم.

فقد خرج الرسول ﷺ وأصحابه لأخذ عير أبي سفيان التي كانت محملة بالأموال التي جاء بها من الشام، ولكن الله سبحانه وتعالى صرفها عنهم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٣ ـ ٣٦٤).
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١ ـ ١٥).
(٣) البخاري رقم ٦٥٠٢، فتح الباري (١١ ـ ٣٤٠).
(٤) راجع فتح الباري (١١ ـ ٣٤٤).

ووضعهم أمام الأمر الواقع لقتال قريش الذي كان فيه فتحاً مبيناً ونصراً عظيماً وجمع الله لهم فيه بين الغنائم الكثيرة وبين إذلال الكفار وإهانتهم بقتلهم وأسرهم وإرهاب أهل الكفر كلهم بتلك الغزوة، قال تعالى: ﴿وإذ يعدُكم الله إحدى الطائفتين أنَّها لكم، وتودُّون أنَّ غيرَ ذات الشوكة تكون لكم، ويريدُ الله أن يحقَّ الحقَّ بكلماته ويقطعَ دابر الكافرين ✱ ليحقَّ الحقَّ ويبطلَ الباطل ولو كره المجرمون﴾[1].

المثال الثاني: إن الله سبحانه أغرى المشركين بمواصلة السير إلى بدر وجعل الشيطان يزين لهم عملهم على الرغم من أن العير التي خرجوا لنجدتها قد نجت وحض بعض زعماء قريش الناس على الرجوع ما دامت العير قد نجت ولكن الله تعالى أراد أن يقطع دابرهم فأصر أبو جهل على ورود بدر بفخر وخيلاء ليلقى هو وقومه حتفهم. قال الله تعالى: ﴿إذ أنتم بالعُدْوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والرَّكْبُ أسفلَ منكم، ولو تواعَدْتُم لاختلفتم في الميعاد، ولكن ليقضيَ الله أمراً كان مفعولاً ليهلَك من هَلَكَ عن بيِّنةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عن بيِّنة، وإن الله لسميع عليم﴾[2].

المثال الثالث: تسديد الله نبيه لاختيار أسلوب الصف في القتال الذي لم تكن العرب تعرفه، وإنما كانوا يعرفون أسلوب الكر والفر وفرق بين الأمرين، فإن أسلوب الصف يمتاز بالانضباط وسيطرة القائد فيه على جيشه وتوجيههم للتقدم والتأخر، بخلاف أسلوب الكر والفر فإنه يتسم بالفوضى وعدم الانضباط وعدم قدرة القائد على السيطرة فيه على جنده، وقد أثنى الله على هذا الأسلوب بقوله: ﴿إنَّ الله يحبُّ الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنهم بُنْيانٌ مرصوص﴾[3].

وكان في هذا الأسلوب مباغتة للعدو بأسلوب غير معروف لديه، وهو من عوامل النصر.

قال ابن خلدون رحمه الله: (وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر

---

(١) الأنفال: ٧ ـ ٨.
(٢) الأنفال: ٤٢.
(٣) الصف: ٤.

والفر، وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح، أو صفوف الصلاة، ويمشون بصفوفهم إلى العدو قدماً فلذلك يكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو، لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع في إزالته وفي التنزيل: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾. أي يشد بعضهم بعضاً بالثبات، وفي الحديث الكريم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» ومن هنا يظهر لك حكمة إيجاب الثبات وتحريم التولي في الزحف، فإن المقصود من الصف في القتال حفظ النظام)[١].

وقال محمود شيث خطاب: (إن تطبيق الرسول ﷺ لأسلوب الصفوف في معركة بدر عامل مهم من عوامل انتصاره على المشركين والتاريخ العسكري يحدثنا بأن سر انتصار القادة العظام كالاسكندر وهينبال قديماً ونابليون ومولتكه ورومل ورونشتد حديثاً هو أنهم طبقوا أسلوباً جديداً في القتال غير معروف أو قاتلوا بأسلحة جديدة غير معروفة)[٢].

المسألة الثانية: تسديد الله للمجاهدين في غزوة أحد:

إن ما أصاب المسلمين يوم أحد من الفشل والهزيمة الظاهرة للمشركين جعل أبا سفيان وقومه يختالون ويحسون بنشوة النصر وأدبروا وهم يظنون أن قد حققوا مرادهم من كسر شوكة الإسلام والمسلمين ولو أنهم استمروا على هذا الاعتقاد إلى أن يصلوا مكة لربما أخذوا يعدون العدة لجولة قادمة سريعة، لا بل إنهم فكروا وهم في الطريق أن يعودوا لاستئصال المسلمين والقضاء عليهم، ولكن الله تعالى هدى رسوله والمؤمنين وسددهم للقضاء على نشوة النصر التي ذهب بها المشركون من غزوة أحد فانتدب ﷺ ممن حضر غزوة أحد سبعين للخروج في أثر المشركين لإشعارهم بأن المسلمين لازالوا أقوياء قادرين على مواصلة الجهاد في سبيل الله، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: (﴿الذين

---

(١) المقدمة ص ٢٧١.

(٢) الرسول القائد ص ١٠٥.

استجابوا لله والرسولِ من بَعْدِ ما أصابهم القَرْحُ، للذين أحسنوا منهم واتَّقَوا أجرٌ عظيم﴾ قالت لعروة: يا ابن أختي كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال من يذهب في أثرهم، فانتدب منهم سبعون رجلاً، قال كان منهم أبو بكر والزبير)(١).

قال الحافظ: نقلاً عن ابن إسحاق: (وإنما خرج مرهباً للعدو وليظنوا أن الذي أصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوهم، فلما بلغ حمراء الأسد لقيه سعيد بن أبي معبد الخزاعي فيما حدثني عبدالله بن أبي بكر فعزاه بمصاب أصحابه فأعلمه أنه لقي أبا سفيان ومن معه وهم بالروحاء وقد تلوموا في أنفسهم وقالوا: أصبنا جل أصحاب محمد وأشرافهم وانصرفنا قبل أن نستأصلهم وهموا بالعودة إلى المدينة فأخبرهم معبد أن محمداً قد خرج في طلبكم في جمع لم أر مثله ممن تخلف عنه بالمدينة قال فثناهم ذلك عن رأيهم فرجعوا إلى مكة)(٢).

المسألة الثالثة: تسديد الله للمجاهدين في غزوة الأحزاب:

وفيها مثالان:

المثال الأول: حفر الخندق:

كان من تسديد الله لرسوله ﷺ وصحبه أن وفقهم لحفر الخندق شمال المدينة الجهة المكشوفة منها التي قصدها المشركون فعلاً وكان ذلك بإشارة من سلمان الفارسي رضي الله عنه.

وقد فوجىء المشركون بذلك لأنهم لم يكونوا يعرفونه فهو أسلوب حرب جديد كان من أهم عوامل نصر الله لحزبه(٣).

---

(١) البخاري رقم ٤٠٧٧ فتح الباري (٧ ـ ٣٧٣). والآية من آل عمران: ١٧٢.
(٢) الفتح (٧ ـ ٣٧٣) وراجع ص ٣٧ من هذا الجزء.
(٣) راجع السيرة النبوية لابن هشام (٢ ـ ٢١٦ ـ ٢٢٤).

قال محمود شيث خطاب: (لقد كان حفر الخندق مباغتة تامة للأحزاب فلم تكن العرب تعرف هذا الأسلوب، كما لم تكن تعرف أسلوب القتال المناسب للتغلب على مثل هذا الموقف، لذلك بقي القتال مستكناً طول مدة الحصار، عدا محاولات قليلة قام بها المشركون لمحاولة اجتياز الخندق باءت كلها بالفشل)[١].

المثال الثاني:

قصة نعيم الذي أسلم لتوه وأشعل نار الفتنة بين المشركين من قريش وغطفان من جهة وبين بني قريظة الذين كانوا نقضوا عهد الرسول ﷺ وغدروا به من جهة أخرى[٢].

المسألة الرابعة:

تسديد الله للمجاهدين في مقتل مسيلمة الكذاب.

وفيها مثال واحد:

اشتد القتال بين خالد قائد جيش المسلمين ومسيلمة الكذاب حتى لجأ هو وقومه إلى حديقة الموت التي أغلقوها على أنفسهم، فهدى الله البراء بن مالك إلى أسلوب فتح الله به على حزبه حيث قال رضي الله عنه: (يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة، فاحتملوه فوق الجحف ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم من فوق سورها، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه، ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها يقتلون من فيها من المرتدة من أهل اليمامة حتى خلصوا إلى مسيلمة لعنه الله... فتقدم إليه وحشي بن حرب مولى جبير بن مطعم ـ قاتل حمزة ـ فرماه بحربته فأصابه وخرجت من الجانب الآخر

---

(١) الرسول القائد ص ٢٢٥.

(٢) راجع السيرة النبوية لابن هشام (٢ ـ ٢٢٩) وقد مضى ذكر قصة نعيم في فصل صفات المجاهدين (ص ٧٤ من هذا الجزء).

وسارع إليه أبو دجانة سماك بن خرشه فضربه بالسيف فسقط)[١].

ولو لم يوفق الله البراء لهذا الأسلوب لاحتاجوا إلى البقاء مدة طويلة لحصار من في الحديقة الذين بلغ من قتل منهم فيها قريباً من عشرة آلاف مقاتل.

المسألة الخامسة:

تسديد الله للمجاهدين في أفغانستان ضد الملحدين من الروس وأتباعهم.

وفيها مثال واحد:

كان عدد قليل من المجاهدين مختبئين في أحد الجبال، فرأوا زحف الجنود الشيوعيين إلى الجبل وكان عندهم قطيع من الأغنام فعلقوا في عنق كل واحدة من الأغنام سراجاً مضيئاً ووزعوا الأغنام في جهات متعددة من الجبل في جنح الليل ورموا بالبنادق من جهات متفرقة وانتشرت الأغنام بسرجها وأخذ جنود الكفر طول الليل يطلقون ذخيرتهم على ذلك الجبل، والمجاهدون يرمون بعد كل فترة لاستدراج العدو.

وذهب بعض المجاهدين متسللين حتى جاءوا العدو من الوراء فأطلقوا عليهم الرصاص واختلفوا فكان ذلك سبباً في جعل الله بأس الشيوعيين بينهم حيث أخذ بعضهم يرمي بعضاً ظناً منهم أنهم يقاتلون المجاهدين فحصد الله منهم عدداً كثيراً وعندما أصبحوا علموا أنهم إنما كانوا يقاتل بعضهم بعضاً وهذا من فضل الله وهدايته وتسديده لعباده الذين يجاهدون في سبيله[٢].

---

(١) البداية والنهاية (٦ - ٣٢٣ - ٣٢٧).

(٢) أخبرني بعض علماء المجاهدين بهذه القصة وغيرها في المدينة المنورة سنة ١٤٠٠ للهجرة. وقد سمعنا أمثلة كثيرة تروى في هذه الأمور في قتال مجاهدي أفغانستان للشيوعيين، وكفاهم تسديداً من ربهم صمودهم أكثر من أربع سنوات أمام الغزو الروسي ذي الإمكانات المادية الهائلة مع قلة إمكانات المجاهدين المادية. وكنت أود لو تمكنت من ضرب أمثلة كثيرة عن جهاد الأفغان بحضوري الميدان مباشرة، لأن أمثلتهم حية يعيشها العالم في هذه الأيام ولم يتيسر لي ذلك ولعل الله ييسره ولكن أعظم تسديد وكرامة يؤيد الله بها مجاهدي أفغانستان انتصارهم على روسيا الشيوعية التي خرجت جيوشها من أفغانستان يجرون أذيال الهزيمة ولعل الله ينصر هؤلاء المجاهدين على أنفسهم فيجمع كلمتهم على الحق ويخزي المتآمرين عليهم في الداخل والخارج.

المبحث الخامس

التزام المسلمين بالإسلام والحرص على حمايته وعدم التفريط فيه لما بذلوا في سبيل إقامته من تضحيات

إن المسلم من حيث هو مسلم يجب أن يطيع ربه ونبيه ويعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإذا نشأ في مجتمع مسلم يجب أن يبقى هذا المجتمع المسلم قائماً بدين الله، ولكن هناك فرقاً بعيداً بين مسلم نشأ في مجتمع إسلامي يطبق الإسلام بدون جهد من هذا الناشيء وبين مسلم بذل نفسه وماله وقارع الأعداء لإقرار هذا الدين ورفع كلمته في الأرض، فالأول قد يحرص على تطبيق هذا الدين ولكنه قد يتساهل فيما يثقل على نفسه الصبر عليه، كما إنه إذا اعتدى أعداء الله على مجتمعه أو وطنه الذي يقام فيه الإسلام لا يكون قوياً في حماية دينه ـ في الغالب ـ لأنه لم يتعب في إقامة هذا الدين ولم يضح بشيء في سبيل الله وجرت العادة أن الذي لا يبذل جهداً في شيء يسهل عليه أن يفرط فيه بخلاف الثاني الذي ضحى بنفسه وماله في سبيل الله واقتحم العقبات في سبيل الله وقارع الأعداء حتى ذاق استقرار هذا الدين في الأرض وعاش حلاوته ورايته مرفوعة فإنه يكون شديد الالتزام به في نفسه وفي عشيرته، وفي مجتمعه وشديد الحرص على حمايته ونشره في الأرض فلا يفرط في شيء منه، ولعل هذا من حكم ابتلاء عباده المؤمنين بأعدائه الكافرين الذين هو قادر سبحانه على هزيمتهم بغير جهاد من أحد من خلقه، كما قال تعالى: ﴿فإذا لقيتُم الذين كفروا فضَرْبَ الرِّقابِ، حتى إذا أثخَنْتُموهم فشدُّوا الوثاقَ، فإما مَنّاً بعدُ وإما فداءً حتى تضعَ الحربُ أوزارَها، ذلك ولو يشاء الله لانتصرَ منهم، ولكنْ ليبلوَ بعضَكم ببعضٍ، والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يضلَّ أعمالَهم﴾[1].

---

(1) محمد: ٤.

قال سيد قطب رحمه الله: (ولا بد من تربية النفوس بالبلاء ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، لا بد من هذا البلاء، ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة، كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف.

والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى، فالتكاليف هنا هي الثمن الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين)[1].

وقال في موضع آخر: (وما بالله ـ حاشا لله ـ أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وإن يؤذيهم بالفتنة، ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة...) إلى أن قال: (وإنهم ليتسلمون الأمانة وهي عزيزة على نفوسهم بما أدوا لها من غالي الثمن وبما بذلوا لها من الصبر على المحن، وبما ذاقوا في سبيلها من الآلام والتضحيات والذي يبذل من دمه وأعصابه ومن راحته واطمئنانه ومن رغائبه ولذاته ثم يصبر على الأذى والحرمان يشعر ولا شك بقيمة الأمانة التي بذل فيها ما بذل فلا يسلمها رخيصة بعد كل هذه التضحيات والآلام)[2].

---

(١) في ظلال القرآن (٢ ـ ١٤٥).

(٢) في ظلال القرآن (٢٠ ـ ٢٧٢١).

المبحث السادس

إسعاد الناس بنور الإسلام وعدله ورحمته

قال تعالى: ﴿اللهُ وليُّ الذين آمنوا، يُخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوتُ يُخرجونهم من النور إلى الظلماتِ، أولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون﴾[1].

وقال تعالى: ﴿الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يُقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطانِ إنَّ كيدَ الشيطان كان ضعيفاً﴾[2].

في الآية الأولى أخبر سبحانه أن الإسلام نور، وأن الكفر ظلمات وأنه عز وجل ولي المؤمنين يخرجهم من الكفر الذي هو ظلمات إلى الإسلام الذي هو نور، وأن الطواغيت هم أولياء الكفار يخرجونهم من الإسلام الذي هو نور إلى الكفر الذي هو ظلمات، فالله يريد لعباده النور، والطواغيت يريدون لهم الظلمات.

وفي الآية الثانية ـ آية النساء ـ أخبر سبحانه أن عباده المؤمنين الذين هو وليهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور يجاهدون في سبيل إخراج الناس من الظلمات التي يريدها لهم الطغاة إلى النور الذي يريده لهم الله وأن الكفار يقاتلون لتحقيق هدف الطغاة وهو إخراج الناس من النور إلى الظلمات إلا أنه عبر هنا عن النور بسبيل الله، وعن الظلمات بسبيل الطاغوت.

فالجهاد في سبيل الله يسعد الناس بهذا الدين الذي هو نور لأنه يحطم

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) النساء: ٧٦.

عروش الطغاة الذين يحرمونهم من هذه السعادة التي لا تعدلها سعادة.

ويلازم الإسلام العدل، كما يلازم الكفر الظلم، لذلك كان الجهاد في سبيل الله الذي يسعد الناس بالإسلام يسعدهم كذلك بالعدل وقد حاول اليهود لعنهم الله أن يفسدوا حياة المسلمين السعيدة بتطبيق العدل الذي أرادوا أن يسعدوا به البشرية كلها ففشلوا في محاولتهم واعترفوا بأن السماوات والأرض إنما قامت به.

فقد أمر رسول الله ﷺ عبدالله بن رواحة أن يأتي إلى مزارع اليهود التي أقرهم عليها بخيبر يقومون عليها ولهم الشطر فيخرصها واليهود مشهورون بالشح والحرص على المال فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرص ابن رواحة، ثم أرادوا أن يرشوه ليقلل ما يخرصه عليهم فقال لهم رضي الله عنه: (تطعمونني بالسحت، والله لقد جئتكم من أحب الناس إليّ، ولأنتم أبغض إليّ من عدتكم من القردة والخنازير ولا يحملني بغضي إياكم على ألا أعدل عليكم، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض)[1].

تأمل هذا التطبيق العملي للقرآن الكريم الذي قال الله تعالى في بعض آيه: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداءَ بالقسط، ولا يَجْرِمَنَّكم شَنَآنُ قومٍ علىٰ ألَّا تعدلوا، اعدِلوا هو أقربُ للتقوى، واتَّقوا الله إنَّ الله خبيرٌ بما تعملون﴾[2].

والجهاد في سبيل الله هو الذي يحقق للبشرية هذه الثمرة الطيبة كما قال ربعي بن عامر وقد سأله رستم قائد الفرس: ما جاء بكم؟ قال: (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام..)[3].

والبشرية دائماً تتطلع إلى المجاهدين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن

---

(١) جامع الأصول (٢ ـ ٦٤٣).

(٢) المائدة: ٨.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٧ ـ ٣٩).

المنكر لينقذوهم من ظلم الظالمين، فذو القرنين الذي مكّن الله له في الأرض فطاف في مشارقها ومغاربها يؤدب الظالمين ويؤيد ذوي العدل المحسنين كما قال الله تعالى عنه: ﴿قال أمَّا من ظلم فسوف نعذِّبه ثم يُرَدُّ إلى ربِّه فيُعذِّبُه عذاباً نُكْراً * وأمَّا من آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحُسْنى، وسنقول له من أمرنا يُسْراً﴾(١).

هذا الرجل المجاهد الذي بعثه الله لإسعاد الناس بجهاده تلقاه الناس بشكاواهم طالبين منه رفع ظلم الظالمين عنهم. ففعل واحتسب ما فعله عند ربه، لأن المجاهد إنما يجاهد في سبيل الله واعتبر جهاده ذاك رحمة من الله تعالى بعباده، كما قال تعالى: ﴿حتى إذا بلغ بين السَّدَّيْن وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً * قالوا: يا ذا القَرْنين إنَّ يأجوج ومأجوجَ مفسدون في الأرض، فهل نجعلُ لك خَرْجاً على أن تجعلَ بيننا وبينهم سدّاً * قال ما مكَّني فيه ربي خير، فأعينوني بقوةٍ أجعل بينكم وبينهم رَدْماً * آتوني زُبُرَ الحديد حتى إذا ساوى بين الصَّدَفَين قال انفُخوا، حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أُفرغْ عليه قِطْراً * فما اسطاعـوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً * قال هذا رحمةٌ من ربي فإذا جاء وعدُ ربِّي جعله دكاءَ، وكان وَعْدُ ربي حقاً﴾(٢).

فالجهاد في سبيل الله يحقق الرحمة للبشرية في الأرض ودفع الظلم والاعتداء.

ترى لو أن علم الجهاد مرفوع الآن أتبقى البشرية تحت وطأة الظالمين الذين يملكون القوة والأسلحة الفتاكة يسيمونها سوء العذاب؟

الجواب في هذه الآيات: ﴿إنَّ الله يُدافع عن الذين آمنوا إنَّ الله لا يحبُّ كلَّ خوَّانٍ كفورٍ * أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وإنَّ الله على نصرهم لَقديرٌ * الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنا الله، ولولا دَفْعُ الله الناسَ بعضَهم ببعض لَهُدِّمَتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكر فيها اسمُ الله كثيراً، ولَيَنْصُرنَّ اللهُ مَنْ ينصره، إنَّ الله لَقويٌّ عزيزٌ * الذين إن مكنّاهم في

(١) الكهف: ٨٧ ـ ٨٨.

(٢) الكهف: ٩٣ ـ ٩٨.

الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهَوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور﴾[١].

واقرأ هذه المقارنة بين الجهاد في سبيل الله الذي استمر ثماني سنوات في عهد الرسول ﷺ والحرب العالمية الأولى التي استمرت أربع سنوات فقط وما حققه الجهاد في سبيل الله من سعادة أبدية للبشرية كلها إن هي أرادت هذه السعادة، مع قلة الخسائر الناتجة عنه وما كان من آثار الحرب المذكورة من خسائر في النفوس والأموال عدا خسائرها الاجتماعية وما إليها. قال أبو الحسن علي الحسني الندوي: (وقد قسم الإسلام العالم البشري إلى قسمين فقط: أولياء الله وأولياء الشيطان، وأنصار الحق وأنصار الباطل، ولم يشرع حرباً ولا جهاداً إلا ضد أنصار الباطل وأولياء الشيطان أينما كانوا ومن كانوا، فقال: ﴿الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يُقاتلون في سبيل الطّاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إنَّ كَيْدَ الشيطان كان ضعيفاً﴾)[٢].

وهذه الحروب التي لم يشهد التاريخ أيمن منها وأقل إراقة للدماء وذهاباً بالنفس ولا أعود منها على الإنسانية بالصالح العام والخير المشترك والسعادة جمعاء فلا يربو عدد المقتولين من الفريقين (المسلم والكافر) في جميع الغزوات والسرايا والمناوشات التي ابتدأت من السنة الثانية للهجرة ودامت إلى السنة التاسعة على ألف وثمانية عشر نفساً، المسلمون منهم ٢٥٩، والكفار ٧٥٩[٣].
أما المصابون في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ الكونية، فبلغ عددهم على الأصح واحداً وعشرين مليون نسمة، عدد المقتولين منهم سبعة ملايين، وقدر المستر مكستن (-) عضو البرلمان الإنجليزي أن المصابين في الحرب الثانية الكبرى ١٩٣٩ لا يقل عددهم عن خمسين مليوناً وقد كلف قتل رجل واحد في الحرب

---

(١) الحج: ٣٨ - ٤١.

(٢) النساء: ٧٦.

(٣) قال المؤلف في الحاشية: (عولنا في هذه الأعداد على إحصاء مؤلف السيرة النبوية الشهير القاضي محمد سليمان المنصور فوري في المجلد الثاني من كتاب: سيرة رحمة للعالمين ولم يغادر من الغزوات والبعوث والمناوشات صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، أما إحصاءات غيره من المؤلفين فإنها تمثل عدداً أقل من هذه الأعداد) أ هـ.

الأولى عشرة آلاف جنيه، أما نفقات الحرب الثانية لساعة واحدة فمليون من الجنيهات.

ثم كانت الحروب الدينية الإسلامية حاقنة للدماء عاصمة للنفوس والأموال وفاتحة عهد السعادة والغبطة في العالم. أما حرب التنافس والحمية الجاهلية التي تدعى الحرب الكبرى، فقد كانت مقدمة حروب متسلسلة..)[١].

والخلاصة إن للجهاد في سبيل الله ثمرات تسعد المسلمين وغيرهم من أهل الأرض وتحقق رضا الله بإعلاء كلمته ورفع رايته وتحكيم كتابه وسنة رسوله ﷺ وتنشر الأمن والعدل والسلام وتقضي على الظلم وتمحص المؤمنين ويتخذ الله الصفوة منهم شهداء يحقق لهم الحياة الأبدية العاجلة ويفضح المنافقين الذين يندسون في صفوف المؤمنين للإفساد والغدر فيظهرون بالجهاد في سبيل الله على حقيقتهم الخبيثة الماكرة. وكل أهداف الجهاد في سبيل الله التي ذكرت في الفصل الأول من الباب الثاني من هذا البحث تعد من ثمرات إقامة الجهاد في سبيل الله.

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٢٣ وما بعدها.

الفصل الثاني

أضرار القعود عن الجهاد

وفي هذا الفصل ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : علو الكفار وهيمنتهم.
المبحث الثاني : ذلّ المسلمين واستضعافهم.
المبحث الثالث : شقاء العالم وفقده العدل والسلام.

المبحث الأول

علوُّ الكفار وهيمنتهم

وفيه أربعة فروع:

الفرع الأول : **إقصاء حكم الله والتمكين لحكم الطاغوت.**

الفرع الثاني : **استعباد الناس.**

الفرع الثالث : **إفساد الحياة البشرية بالكفر والفسوق والعصيان.**

الفرع الرابع : **استيلاء الكفار على خيرات الأرض واستغلالها في تحقيق مآربهم.**

الفرع الأول
إقصاء حكم الله والتمكين لحكم الطاغوت

إن قادة الكفر يريدون العلو في الأرض، وحكم الله يحارب هذا العلو وكان النهي عن العلو في كتاب سليمان إلى ملكة سبأ تالياً لذكر اسم الله تعالى كما قال: ﴿قالت يا أيُّها الملأ إنِّي أُلقي إليَّ كتابٌ كريمٌ * إنَّه من سليمانَ وإنَّه بسم الله الرحمن الرحيم * ألَّا تَعلُوا عليَّ وأتوني مُسْلِمين﴾[1].

وحكم الله يرفض أي حكم غيره يخالفه، والطغاة إنما يحكمون بأهوائهم التي هي آلهتهم من دون الله، وأي شيء يخالف أهواءهم تضيق به نفوسهم ويحاربونه حرباً شعواء لهذا كان أول خطوة يخطونها في تمكين حكم الطاغوت إقصاء حكم الله تعالى بالقوة ومحاربة من يدعو إليه والقضاء عليهم، فإذا لم

(١) النمل: ٢٩ ـ ٣١.

يجدوا من يقف في وجوههم بقوة تردعهم وتجبرهم على الخضوع لحكم الله مكنوا لحكم الطاغوت بقوتهم وشددوا في حمايته وحراسته وكانت له الهيمنة في الأرض، ومن هذا الباب ينبعث الفساد في الأرض، وهو من أعظم أضرار القعود عن الجهاد في سبيل الله.

قال المودودي رحمه الله: (فليس لأحد من بني آدم أن ينصب نفسه ملكاً على الناس ومسيطراً عليهم، يأمرهم بما يشاء وينهاهم عما يريد، ولا جرم أن استقلال فرد من أفراد البشر بالأمر والنهي من غير أن يكون له سلطان من الملك الأعلى هو تكبر في أرض الله بغير الحق وعتو عن أمره وطموح إلى مقام الألوهية والذين يرضون أمثال هؤلاء الطواغيت لهم ملوكاً وأمراء إنما يشركونهم بالله وذلك مبعث الفساد في الأرض ومنه تنفجر ينابيع الشر والطغيان)[1].

الفرع الثاني
استعباد الناس

إن إقصاء حكم الله تعالى ـ وذلك يكون بإقصاء منهجه الذي تضمن كتابه وسنة رسوله ﷺ ـ يتبعه حتماً استعباد الطبقة الحاكمة عامة الناس لأنها تحكم الناس بأهوائها وتنفذ فيهم رغباتها وشهواتها.

وقد قالها طاغية مصر فرعون الأول قولاً صريحاً لا غموض فيه عندما دعاه موسى عليه السلام إلى الله، كما قال تعالى: ﴿هل أتاك حديثُ موسى * إذ ناداه ربُّه بالوادي المقدَّس طُوَى * اذهبْ إلى فرعونَ إنَّه طَغَى * فقُلْ هل لك إلى أن تَزَكَّى * وأهدِيَكَ إلى ربِّك فتَخْشَى * فأراه الآية الكبرى * فكذَّب وعَصَى * ثم أدبر يَسْعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربُّكم الأعلى﴾[2].

وليس من شرط هذا الاستعباد أن يكون دائماً بهذه الصراحة وبالقوة المادية كسل السيوف على الرؤوس ونحو ذلك مما فعله فرعون.

---

(١) الجهاد في سبيل الله ص ٢٣ طبع الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية الطبعة الثانية.
(٢) النازعات: ١٥ ـ ٢٤.

بل يكون بذلك ويكون بوضع الأنظمة والقوانين التي يضعها فرد أو جماعة أو دولة من البشر يخضع لها عامة الناس، فإن ذلك استعباد من ذلك الفرد أو تلك الجماعة أو هذه الدولة لمن انصاع لأنظمتها وقوانينها.

فقد قرن الله سبحانه عبادة المسيح عليه السلام، وطاعة من أحل ما حرم الله أو حرم ما أحل الله من الأحبار والرهبان، وجعل الأمرين من اتخاذ أرباب من دون الله، كما قال تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورُهْبانهم أرباباً من دون الله والمسيحَ بنَ مريم، وما أُمروا إلا ليعبدوا إلَهاً واحداً لا إلَه إلا هو سبحانه عما يشركون﴾[1].

(روى ابن جرير بسنده عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك» قال: فطرحته وانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة فقرأ هذه الآية: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ قال: قلت يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم، فقال: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلّونه؟» قال: قلت بلى قال: «فتلك عبادتهم...»)[2].

وقال سيد قطب رحمه الله: (إن النص القرآني يسوي في الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون الله بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوهم واتبعوهم وبين النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح وقدموا إليه الشعائر في العبادة، فهذه كتلك سواء في اعتبار فاعلها مشركاً بالله الشرك الذي يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله في عداد الكافرين..)[3].

والجهاد شرع لإعلاء كلمة الله وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، والقعود عنه يجعل الناس يستعبد بعضهم بعضاً وهو من أعظم أضرار القعود عن الجهاد في سبيل الله.

---

(١) التوبة: ٣١.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠ ـ ١١٤).

(٣) في ظلال القرآن (١٠ ـ ١٦٤٢) وسبب التسوية بين الأمرين أن التحليل والتحريم من حق الله كالشعائر التعبدية فإذا اعتقد أحد أن لأحد الحق أن يحل ما حرم الله أو يحرم ما أحل الله فإنه يكون بذلك مشركاً.

ولعل استعباد الطغاة الظلمة للناس قد بلغ مداه في هذا العصر الذي تخلى فيه المسلمون عن الجهاد في سبيل الله، بل كثير منهم حاربوا الإسلام في شعوبهم ليستعبدوها من دون الله وليكونوا هم عبيداً لطغاة الكفر خارج تلك الشعوب، فاتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.

الفرع الثالث
إفساد الحياة البشرية بالكفر والفسوق والعصيان

إذا غابت راية الجهاد وغشى ظلام الكفر نور الإسلام وتسلط الكفرة أعداء الله على البشر فإن منهج حياة الناس يتحول من منهج الإسلام الذي رضيه الله ديناً لهم إلى منهج الكفر والفسوق والعصيان الذي كرهه الله ورضيه الشيطان ودعا إليه وأقسم على إغوائهم عن صراط الله المستقيم الذي هو دينه بكل وسيلة، كما قال تعالى: ﴿ولقد خلقناكم، ثم صوّرناكم، ثم قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين * قال: ما منعك ألاَّ تسجدَ إذ أمرتُك، قال: أنا خيرٌ منه خلقتَني من نار وخلقتَه من طين * قال فاهبِطْ منها فما يكون لك أن تتكبر فيها، فاخرج إنك من الصاغرين * قال أنظرني إلى يوم يُبعثون * قال إنَّك من المنظَرين * قال فبما أغويتَني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينَّهم من بين أيديهم ومِنْ خَلَفِهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجدُ أكثرهم شاكرين﴾[١].

فإبليس هو الذي يوحي لأوليائه الكفرة بمنهج حياتهم ويحضهم على تطبيقه وإرغام الناس عليه، ومنطلق إفساد الحياة البشرية هو الكفر بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر، لأن الذي يكفر بالغيب لا يضبطه ضابط في نشاط حياته في هذه الدنيا، فهو لا يقر بأمر الله ونهيه، ولا بطاعة رسوله، ولا بتوجيهات كتابه، ولا بثوابه وعقابه فنشر الكفر والإلحاد بين الناس هو أول ما يسعى أعداء الله إليه، لأنه كفيل بإفساد حياة الناس بكل شر، إذ بالكفر والإلحاد تختل جميع الموازين والقيم وتنقلب الحقائق، وبالإيمان تستقيم الموازين وتثبت القيم وتظهر

---

(١) الأعراف: ١١ ـ ١٧.

الحقائق، وهذا ما يفقد أعداء الله سيطرتهم على الناس ويفسد خططهم ويجعلهم يضيقون ذرعاً ويفقدهم وعيهم ألا ترى فرعون كيف يزعجه إيمان السحرة بموسى عليه السلام فيقول: ﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾.

وهذا ما يفسر للمسلمين مواقف كثير من زعمائهم الذين يكرهون ذكر الإسلام وأهله فضلاً عن تطبيقه ـ حيث يضيقون الخناق على دعاة الإسلام من ذوي الفقه في الدين ويفتحون الأبواب على مصراعيها لدعوات الكفر الصريحة كالشيوعية، والنصرانية والوثنية، والمبطنة في اسم الإسلام كالقاديانية والبهائية والخرافات الباطنية، حتى لا يفقه الناس الإسلام الذي أراده الله وبينه في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ.

ومن هنا يدخل أعداء الله إلى إفساد حياة الناس.

ويتلو ذلك سقوط الهمم وهبوط الأهداف، فإذا كان المؤمن هدفه رضا الله سبحانه وسعيه كله منصب في هذا السبيل الذي يحكم تصرفاته فإن أعداء الله تتعدد أهدافهم بتعدد شهواتهم وأهوائهم وميولهم فتهبط إلى أدنى من مستوى أهداف الحيوان، وتتدنى هممهم إلى حضيض أهدافهم وقد أجمل الله أهدافهم تلك في قوله: ﴿والذين كفروا يتمتَّعون ويأكلون كما تأكلُ الأنعامُ، والنار مَثْوىً لهم﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿مَنْ يَهْدِ الله فهو المهتدي، ومن يُضْلِلْ فأولئك هم الخاسرون * ولقد ذرأنا لجهنَّم كثيراً من الجنِّ والإنس، لهم قلوبٌ لا يفقهون بها، ولهم أعينٌ لا يُبصرون بها، ولهم آذانٌ لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون﴾[2]. وما ذلك إلا لهبوط أهدافهم وسقوط هممهم.

وما قيمة أمة لا يفكر أفرادها إلا في الطعام والشراب واللباس والسكن والمركب والجنس والشهوات المادية الهابطة ويسيرون كالحيوانات لا تدري ماذا وراء طعامها وشرابها الذي تتمتع به.

---

(١) محمد: ١٢.

(٢) الأعراف: ١٧٨ ـ ١٧٩.

ومن هنا يتخذ من سقطت هممهم وهبطت أهدافهم كل وسيلة خسيسة لتحقيق أهدافهم. فهم لا يتقيدون بحلال أو حرام ولا يرعون حرمة لأحد ومتع الحياة عندهم شبيهة بميتة رماها أهلها وهم مثل الكلاب من غلب على تلك الميتة ملأ بطنه منها وكلما اشتهاها رجع إليها وهكذا هؤلاء في مأكلهم ومشربهم ومنكحهم وغيرها يأتون ذلك ما حل منه وما حرم.

وهذه حال العالم الذي فقد من يأخذ بيده إلى الهدف السامي ويرتفع بهمته إلى معالي الأمور، ومن يأخذ بيد البشر إلى ذلك، ويرتفع بهممهم إلى هذه، غير المجاهدين في سبيل الله؟

وعندما تهبط الأهداف وتسقط الهمم وترخص الوسائل يكون نشر الفاحشة هو السبيل لحياة البشر، وبماذا عسى أن يتمتع من هو أضل من الأنعام بغير الفواحش والشهوات؟ والطغاة لا يكتفون بالتمتع بالفاحشة والشهوات فقط، بل إنهم ليجاهدون في نشرها حتى تعم الأرض ويحمونها ويبذلون في نشرها وحمايتها كل ما يقدرون عليه حتى يكون فعل الفاحشة والولوغ في الشهوات المحرمة هو المعتاد والبعد عنها هو المنكر في نظر الناس.

والسبب في ذلك أن هؤلاء الطغاة لا يريدون أن يظهروا بين الناس غرباء شاذين بفعل الفاحشة وارتكاب الشهوات المحرمة فيهيئون مجتمعاً يقبل كل ما يحدث فيه من الفواحش والمنكرات وإن كان زعماؤهم أقدر على تعاطيها من غيرهم لما اختصوا به من المال والسلطة والجاه.

وتأمل قول الله تعالى: ﴿والله يريدُ أن يتوبَ عليكم، ويريد الذين يتّبعون الشهواتِ أن تميلوا مَيْلاً عظيماً﴾[١].

الله يريد لعباده الأوبة إليه ليقبل توبتهم ويطهرهم ويزكيهم من الدنس وعباد الشهوات الذين عبر النص عنهم بأنهم ﴿يتبعون الشهوات﴾ يريدون غير ما أراد الله يريدون الوقوع في المعاصي والشهوات بل يريدون أن يميل المؤمنون الذين قد استقاموا على صراط الله ميلاً عظيماً عن هذا الصراط إلى الشهوات

---

(١) النساء: ٢٧.

حتى لا يبقى في الأرض طاهر من دنس تلك الشهوات.

وإذا لم يقم هؤلاء المؤمنون بجهاد أنفسهم وجهاد متبعي الشهوات فإن ميلهم إلى الشهوات قليلاً أو كثيراً سيحصل. وها هي البشرية اليوم قد انغمست في الشهوات والفواحش إلى أذقانها لغياب الجهاد في سبيل الله الذي لا ينتشلها غيره من ذلك الوحل النتن.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله ـ بعد أن ذكر أقوال العلماء في الذين وصفهم الله بأنهم يتبعون الشهوات: (قال أبو جعفر وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك ويريد الذين يتبعون شهوات أنفسهم من أهل الباطل وطلاب الزنا ونكاح الأخوات من الآباء وغير ذلك مما حرمه الله أن تميلوا ميلاً عظيماً عن الحق وعما أذن الله لكم فيه فتجوروا عن طاعته إلى معصيته وتكونوا أمثالهم في اتباع شهوات أنفسكم فيما حرم الله وترك طاعته ميلاً عظيماً)[1].

وقال سيد قطب رحمه الله وهو يتفيأ ظلال هذه الآية: ﴿والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾، قال: (وتكشف الآية الواحدة القصيرة عن حقيقة ما يريده الله للناس بمنهجه وطريقته، وحقيقة ما يريده بهم الذين يتبعون الشهوات، ويحيدون عن منهج الله ـ وكل من يحيد عن منهج الله إنما يتبع الشهوات ـ فليس هنالك إلا منهج واحد هو الجد والاستقامة والالتزام، وكل ما عداه إنْ هو إلا هوى يتبع وشهوة تطاع وانحراف وفسوق وضلال.

فماذا يريد الله بالناس حين يبين لهم منهجه ويشرع لهم سننه؟ إنه يريد أن يتوب عليهم، يريد أن يهديهم، يريد أن يجنبهم المزالق، يريد أن يعينهم على التسامي في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة.

وماذا يريد الذين يتبعون الشهوات ويزينون للناس منابع ومذاهب لم يأذن بها الله ولم يشرعها لعباده؟ إنهم يريدون لهم أن يميلوا ميلاً عظيماً عن المنهج

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥ ـ ٢٩).

الراشد والمرتقى الصاعد والطريق المستقيم...

فأما ما يريده الله فقد بينته الآيات السابقة في السورة، وفيها إرادة التنظيم وإرادة التطهير، وإرادة التيسير، وإرادة الخير بالجماعة المسلمة على كل حال.

وأما ما يريده الذين يتبعون الشهوات، فهو أن يطلقوا الغرائز من كل عقال: ديني، أو أخلاقي، أو اجتماعي، يريدون أن ينطلق السعار الجنسي المحموم بلا حاجز ولا كابح، من أي لون كان، السعار المحموم الذي لا يقر معه قلب، ولا يسكن معه عصب، ولا يطمئن معه بيت، ولا يسلم معه عرض، ولا تقوم معه أسرة، يريدون أن يعود الآدميون قطعاناً من البهائم، ينزو فيها الذكران على الإناث، بلا ضابط إلا ضابط القوة أو الحيلة أو مطلق الوسيلة، كل هذا الدمار وكل هذا الفساد وكل هذا الشر باسم الحرية وهي ـ في هذا الوضع ـ ليست سوى اسم آخر للشهوة والنزوة.

وهذا الميل العظيم الذي يحذر الله المؤمنين إياه، وهو يحذرهم ما يريده لهم الذين يتبعون الشهوات، وقد كانوا يبذلون جهدهم لرد المجتمع المسلم إلى الجاهلية في هذا المجال الأخلاقي الذي تفوقوا فيه وتفردوا بفعل المنهج الإلهي القويم النظيف، وهو ذاته ما تريده اليوم الأقلام الهابطة والأجهزة الموجهة لتحطيم ما بقي من الحواجز في المجتمع دون الانطلاق البهيمي الذي لا عاصم منه إلا منهج الله حين تقره العصبة المؤمنة في الأرض إن شاء الله)[1].

وإقرار العصبة المؤمنة لهذا المنهج لا يتأتى إلا بالجهاد في سبيل الله.

ومما يفسد حياة البشر بفقد الجهاد في سبيل الله كثرة الخلاف والنزاع بين الأفراد والجماعات والشعوب والدول، لعدم وجود كفء يعود الناس إليه لفض النزاع والحكم المقبول فيما اختلف فيه الناس لعدالة الحاكم وأمانته وخبرته وعدم تحيزه وميله لفرد أو طائفة أو دولة، ولعدم وجود قوة عادلة تقف المتنازعين عند حدودهم.

فتجد القوي يعتدي على الضعيف ويحتل أرضه ويغتصب حقوقه فإذا

---

(١) في ظلال القرآن (٥ ـ ٦٣١) وما بعدها.

قوي هذا الضعيف وضعف ذلك القوي انعكس الأمر فيأخذ القوي الجديد بثأره من الضعيف الجديد وهكذا حتى تضحى الأرض ميداناً للحروب والقتل والثارات والنهب والغصب والاعتداء فيختل الأمن ويخاف الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.

والذي يراجع ما سجله التاريخ عن الأمم قبل الإسلام سواء كانت ذات ديانات سماوية أو وثنية، من الحروب والقتال بين أمة وأخرى كالفارسية والرومية، أو بين الأمة نفسها كالنزاع بين الفرس واقتتالهم أو النزاع بين الروم واقتتالهم وكذلك الحبش. والعرب الذي يراجع تاريخ هذه الأمم وغيرها قبل الإسلام يرى ما وقع بها من دمار وفوضى قروناً من الزمان.

والذي ينظر إلى حالة الناس في مطلع هذا القرن وما وقع فيه من حروب مدمرة ونزاعات يرى كذلك أمراً مهولاً من الفظائع، ولا زال الأمر حتى هذه الساعة يزداد سوءاً الخلاف يتسع والتطاحن يتصاعد ونار الفتنة من طغاة الأرض تشتعل في كل مكان حتى أصبحت شعوب الأرض كلها في خوف وهلع شديد من حروب داخلية أو اعتداء خارجي وأصبحت الدول القوية المادية تتربص بمثيلاتها وتبتكر في كل يوم يمر سلاحاً جديداً مدمراً تريد أن تتفوق به على غيرها.

ولكن إذا راجع الإنسان تاريخ الإسلام منذ بزوغ شمسه إلى أن سقطت راية الخلافة في مطلع هذا القرن يرى أن الإسلام صان البشرية من الحروب والخلافات ووقف المعتدي عند حده ـ ما عدا بعض الحالات التي حالت بعض الأسباب دون وقفها ـ وأن البشرية ستبقى معذبة بالخلاف والنزاع والحروب والقتل والتدمير حتى ترتفع راية الجهاد في سبيل الله لتضع كل شيء في موضعه وبهذا يظهر الضرر العظيم الذي لحق بالبشر من فقد الراية الجهادية العادلة التي تأمر وتنهى وتقود إلى الخير والصلاح.

قال سيد قطب رحمه الله على قوله تعالى: ﴿قُلْ هو القادرُ على أن يبعثَ عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم، أو يَلْبِسَكم شِيَعاً ويذيقَ بعضَكم

بأس بعضٍ، انظر كيف نُصَرِّف الآيات لعلّهم يفقهون﴾[١].

قال: (ولقد عرفت البشرية في فترات كثيرة من تاريخها ذلك اللون من العذاب كلما انحرفت عن منهج الله وتركت لأهواء البشر ونزواتهم وشهواتهم وجهالتهم وضعفهم وقصورهم... تصريف الحياة وفق تلك الأهواء والنزوات والشهوات والجهالة والضعف والقصور وكلما تخبط الناس وهم يضعون أنظمة للحياة وأوضاعاً وشرائع وقوانين وقيماً وموازين من عند أنفسهم، يتعبد بها الناس بعضهم بعضاً، ويريد بعضهم أن يخضع لأنظمته وأوضاعه وشرائعه وقوانينه البعض الآخر والبعض الآخر يأبى ويعارض، وأولئك يبطشون بمن يأبى ويعارض وتتصارع رغباتهم وشهواتهم وأطماعهم وتصوراتهم، فيذوق بعضهم بأس بعض ويحقد بعضهم على بعض وينكر بعضهم بعضاً، لأنهم لا يفيئون جميعاً إلى ميزان واحد يضعه لهم المعبود الذي يعنو له كل العبيد حيث لا يجد أحدهم في نفسه استكباراً عن الخضوع له ولا يحس في نفسه صغاراً حين يخضع له...)[٢].

وهذا الميزان الواحد لا يقيمه إلا المجاهدون في سبيل الله، وإن فقد راية الجهاد في سبيل الله لهو الذي أنزل هذه المحن بالبشر في هذه الحياة ولو لم يكن من أضرار القعود عن الجهاد في سبيل الله إلا هذا النزاع وهذا التناحر لكفى به ضرراً.

والخلاصة إن حياة البشر تفسد بفقد الجهاد في سبيل الله في كل ناحية من نواحيها فيصبح كل شيء فيها في غير موضعه.

ولو علمت البشرية أن الدواء الناجح للقضاء على فرقتها وخلافها وتطاحنها هو رفع المسلمين راية الجهاد في سبيل الله لتأديب الطاغي ونصر المظلوم ونشر العدل والسلام لهتفت من كل صقع: يا مسلمون جاهدوا.

ولكن أنَّى لها أن تعلم ذلك، وهي لم تر القدوة الحسنة التي رأتها الأمم في

---

(١) الأنعام: ٦٥.

(٢) في ظلال القرآن (٧ ـ ١١٢٤) وما بعدها.

صدر الإسلام ففتحت قلوبها للقرآن والسنة، وفتحت قلاعها للمجاهـدين وحاربت تحت رايتهم طغاتها حتى غابوا عن الوجود؟

الفرع الرابع
استيلاء الكفار على خيرات الأرض واستغلالها لتحقيق مآربهم وأطماعهم

لقد سخر الله سبحانه للناس ما في السموات والأرض ليشكروه لا ليكفروه، ويعبدوه لا ليجحدوه أو يشركوا به غيره، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض رحمة منه ونعمة ليسعدوا به، لا ليشقوا.

والمؤمنون من عباده هم الذي شكروا نعمة الله، وهم الذين استغلوا ما سخره في طاعته وفي عمارة الأرض وإسعاد أهلها، يوجهون قوتهم إذا مكنهم الله في الأرض إلى عبادة الله والإحسان إلى عباده والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة، وآتَوُا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهَوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور﴾[1].

وهذا هو شكر الله على نعمه وتذكرها والاهتداء بها، اقرأ الآيات التالية في تسخير الله تعالى خيرات الأرض لعباده وما يجب أن تثمره فيهم: ﴿هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شرابٌ ومنه شجر فيه تُسيمون * يُنْبِتُ لكم به الزرعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ ومن كلِّ الثمـرات، إنَّ في ذلك لآيةً لقومٍ يتفكّرون * وسخَّر لكم الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ والنجومُ مُسَخّراتٌ بأمره، إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون * وما ذَرَأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه، إنَّ في ذلك لآيةً لقوم يذَّكّرون * وهو الذي سَخَّر البحر لتأكلوا منه لحماً طريّاً، وتستخرجوا منه حليةً تلبسونها، وترى الفُلْكَ مواخرَ فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وألقى في الأرضَ رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسُبُلاً لعلكم تهتدون﴾[2]. فالمسلمون وحدهم هم الذين يؤدون ما أراد الله من إسباغ هذه

---

(١) الحج: ٤١.
(٢) النحل: ١٠ ـ ١٥.

النعم على عباده، فهم الـذين يتفكرون، وهم الـذين يعقلون وهم الذين يشكرون، وهم الذين يهتدون، ومن عداهم فإنما يتمتع بهذه النعم ويزداد ضلالاً لا يهديه تفكيره ولا عقله إلى شكر المنعم والاهتداء بهديه.

قال تعالى مخبراً عن أن المؤمنين هم الذين يعقلون ويتفكرون ويذكرون الله شكراً له على نعمه: ﴿إنَّ في خَلْق السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خَلْق السمواتِ والأرض ربَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار *﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربُّهم أني لا أُضيع عملَ عاملٍ منكم من ذَكَرٍ أو أنثى، بعضُكم من بعضٍ، فالذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم، وأُوذوا في سبيلي، وقاتلوا وقُتلوا لأُكفرنَّ عنهم سيآتِهم، ولأُدخلنَّهم جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، ثواباً من عند الله، والله عنده حُسْنُ الثواب﴾[1].

وقال مخبراً عن الكفار: ﴿ولقد ذرأنا لجهنَّم كثيراً من الجنِّ والإنس، لهم قلوبٌ لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يُبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ، أولئك هم الغافلون﴾[2].

لهذا تجد أعداء الله الكافرين ـ إذا خلا لهم الجو بفقد راية الجهاد التي تؤدبهم ـ يستغلون خيرات الأرض والسماء التي مكنوا منها في تحقيق مآربهم من التمتع بكل ما تصل إليه أيديهم لا فرق بين حلال وحرام ومن العلو بها في الأرض على البشر.

انظر كيف يستخف فرعون قومه ويقيم الحجة على أنه هو خير من موسى الذي دعاه إلى الله، لما يملك فرعون من خيرات الأرض: أنهار وبساتين وقصور وأساور كما قال تعالى عنه: ﴿ونادى فرعون في قومه قال: يا قوم أليسَ لي مُلْكُ مصرَ وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون * أم أنا خيرٌ من هَذا الذي هو مَهِين ولا يكاد يُبين * فلولا أُلقي عليه أسْوِرَةٌ من ذهب أو جاء معه الملائكةُ

(١) آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩٥.
(٢) الأعراف: ١٧٩.

مقترنين * فاستخفَّ قومَه فأطاعوه، إنَّهم كانوا قوماً فاسقين﴾[١].

وكذلك يستغلون خيرات الأرض في استئجار غوغاء الناس من الطامعين في المال والجاه ليؤيدوا باطلهم على رجال الدعوة إلى الله من الأنبياء والرسل، وقد يكون هؤلاء المؤيدون سحرة كما كانوا في عهد فرعون، وقد يكونون محامين وقضاة كما في عهود أخرى وكما هو في هذا العصر وقد يكونون على هيئة مجلس شورى وهو ما يسمى بالبرلمانات، وقد يكونون كذلك جواسيس وهم الأحزاب المستأجرة الخفية لأعداء الإسلام، قال تعالى: ﴿قال الملأ من قوم فرعونَ إنَّ هذا لَساحرٌ عليمٌ * يريدُ أن يخرجَكم من أرضِكم فماذا تأمرون * قالوا أرْجِه وأخاه وأرسلْ في المدائنِ حاشرين * يأتوك بكل ساحر عليم * وجاء السحرة فرعون قالوا إنَّ لنا لأجراً إنْ كُنَّا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم لمن المقرَّبين﴾[٢].

فالملأ الذين أشاروا إلى فرعون هم مجلس شوراه الذي اشترى ذممهم والسحرة فيهم شبه بالمحامين في هذا العصر الذين يقيمون الحجة على أهل الحق بقلب الحقائق وكذلك القضاة ولم يبدأوا عملهم الذي طلبهم من أجله حتى علموا الحقيقة من فرعون ليعطيهم أجرة على قلبهم الحقائق إن قدروا فزادهم فرعون أمراً آخر وهو الجاه ﴿قال: نعم وإنكم لمن المقربين﴾.

وقد يستغلونها في الفخر والخيلاء والعبث كالقصور العالية التي يتطاولون بها على الناس والأبراج ومباني اللهو والمجون، تأمل كيف ينكر نبي الله هود على قومه عاد بناء الأبراج العالية التي لا هدف لهم منها إلا الفخر والخيلاء والعبث بالأموال التي صاحبها اتخاذ مصانع عظيمة وبطش بالضعفاء: ﴿أَتَبْنُونَ بكل ريعٍ آيةً تَعْبَثُون * وتتَّخذون مصانعَ لعلكم تَخْلُدون * وإذا بَطَشْتُم بطشتم جبارين﴾[٣] ومثل ذلك بناء الأهرامات في مصر وقد يستغلون خيرات الأرض في ظلم الناس واحتكار أموالهم وسلبها بأي وسيلة ـ كما هو شأن بنوك الربا في هذا العصر ـ فهؤلاء قوم شعيب عندما نهاهم عن نقص المكيال، وبخس الناس

---

(١) الزخرف: ٥١ ـ ٥٤.

(٢) الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٤.

(٣) الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٠.

أشياءهم أنكروا عليه ذلك كما حكى الله عنهم: ﴿قالوا يا شعيبُ أصلاتُك تأمُرك أن نترك ما يعبدُ آباؤنا أوْ أنْ نفعل في أموالنا ما نشاء؛ إنَّك لأنت الحليمُ الرشيدُ﴾(١).

وأعظم من ذلك كله استغلالها في الصد عن سبيل الله: يشترون بها السلاح لقتال الدعاة إلى الله ويبنون بها المعتقلات والسجون للزج بهم فيها ويشترون أجهزة إعلام يبثون بها المنكر الذي يصد عن دين الله وغير ذلك من السبل التي يستطيعون الحصول عليها عن طريق الأموال قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا يُنفقون أموالهم ليصدُّوا عن سبيل الله، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلبون، والذين كفروا إلى جهنَّم يحشرون﴾(٢).

وهذا ما فعله أصحاب الأخدود بالمؤمنين وكذلك قوم إبراهيم وهو الذي يفعله أعداء الله الآن حيث يستغلون خيرات الأرض في الصد عن سبيل الله بكل وسيلة.

وبهذا يظهر أن من أضرار القعود عن الجهاد في سبيل الله علو الكفار في الأرض وهيمنتهم وأنهم بذلك يقصون حكم الله ويمكنون لحكم الطاغوت ويستعبدون الناس ويفسدون الحياة البشرية ويستغلون خيرات الأرض في تحقيق مآربهم الخبيثة.

---

(١) هود: ٨٧.

(٢) الأنفال: ٣٦.

المبحث الثاني

ذل المسلمين واستضعافهم

وفيه فروع:

الفرع الأول : فقد المسلمين عرش الخلافة الممنوح لهم.
الفرع الثاني : استعباد العدو لهم وفتنتهم في دينهم.
الفرع الثالث : إلقاء العداوة والبغضاء بينهم.
الفرع الرابع : فقدهم الحرية في كل شيء (صعوبة تطبيق دينهم).
الفرع الخامس : الرضا بالدون.
الفرع السادس : استحقاقهم العذاب الأخروي لتفريطهم في فريضة الجهاد في سبيل الله.

الفرع الأول
فقد المسلمين عرش الخلافة الممنوح لهم

أرأيت رجلاً أتيح له أن يتعلم ويحوز أعلى شهادة في العالم في علم من العلوم التي تسوغ له ارتقاء أعلى منصب في العالم أيضاً كرئيس دولة عظمى ومنح هذه الثقة ونصب على العرش، ثم فوجىء الناس به بعد تنصيبه وقد نزل مع الخدم الذين يكنسون الشوارع تاركاً ذلك المنصب الكبير أرأيت رجلاً كهذا، أو سمعت أنه وجد في العالم؟

أهذا أمر غريب أم مألوف؟ إنه غريب حقاً. ولكنه وقع لأمة، وليس لفرد وليست أمة عادية، وإنما هي خير أمة أخرجت للناس، إنها الأمة الإسلامية.

لقد اختارها الله لقيادة الناس، وعلمها المنهج الذي تقود به وسلمها مقاليد الأمور، وسادت العالم فعلاً، وسعد العالم بتلك السيادة وقتاً ليس بالقصير، وشرط عليها شروطاً لتبقى على عرش الخلافة: الإيمان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. (وقمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الجهاد في سبيل الله).

كما قال تعالى: ﴿كنتُم خيرَ أمةٍ أُخرجتْ للنَّاس، تأمرونَ بالمعروف، وتنهَون عن المنكر، وتُؤمنون بالله﴾[1].

لقد كانت هذه الأمة التي وصفها الله بأنها خير أمة أخرجت للناس قبل قيامها بالجهاد في سبيل الله طائفة ذليلة مهانة خائفة ولم تنل السيادة والتمكين إلا بعد أن جاهدت وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر، قال تعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم قليلٌ مُسْتَضْعفون في الأرضِ تخافون أن يتخطَّفكم الناسُ، فآواكم وأيَّدكم بنصره، ورزقكم من الطيِّبات لعلَّكم تشكرون﴾[2].

وبعد أن أيدهم الله ونصرهم وأصبحوا خير أمة أخرجت للناس حذرهم الله سبحانه من عدم الوفاء بالشروط التي سلمهم الخلافة والسيادة عليها وأخبرهم سبحانه بأن ترك الجهاد في سبيله يترتب عليه إنزال العذاب بالمؤمنين أنفسهم كما أن قيامهم بالجهاد في سبيله يترتب عليه تعذيب أعدائهم الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إلَّا تَنْفِروا يُعَذِّبْكم عذاباً أليماً، ويستبدلْ قوماً غيركم، ولا تَضُرُّوه شيئاً، والله على كل شيء قدير﴾[3].

قارن بين هذه الآية وقوله تعالى في آية سابقة: ﴿قاتلوهم يُعَذِّبْهم الله بأيديكم، ويُخْزِهم ويَنْصُرْكم عليهم، ويَشْفِ صدور قوم مؤمنين * ويذهبْ غَيْظَ قلوبهم ويتوبُ الله على من يشاء، والله عليم حكيم﴾[4].

إن في الجهاد عذاباً للكفار، وفي القعود عنه عذاباً للمؤمنين بل وفيه ـ أيضاً ـ القضاء عليهم ومحوهم من الوجود، وهو يعني فقدهم عرش الخلافة

---

(١) آل عمران: ١١٠.
(٢) الأنفال: ٢٦.
(٣) التوبة: ٣٩.
(٤) التوبة: ١٤ ـ ١٥.

والسيادة والتوجيه، وذوبان شخصيتهم في شخصية غيرهم.

وحذرهم الله سبحانه وتعالى من أن يقدموا على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله قريباً أو مالاً أو متعة من متع الحياة الدنيا، وأمرهم بانتظار جزائهم، إن هم فعلوا ذلك، وهو شامل لجزاء الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكن ترضونها، أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربَّصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[1].

ومن أمره سبحانه الذي يأتي به لمن قعد عن الجهاد في سبيله الله أن يفقده قيادة البشر التي منحها الله إياه وأمره بحمايتها والحفاظ عليها، فإذا فرط فيها نزعها الله منه لأنه لم يعد يستحقها.

والله سبحانه وتعالى حكيم لا يضع الأمور في غير موضعها، ولا يعطي زمام الأمر لأمة تدعي أنها على هديه وهي بعيدة عنه لضعف إيمانها وسوء إدارتها وإقرارها المنكر في الأرض الذي ما كانت خير أمة إلا لإزالته وإقرار المعروف الذي تسعد به الخليقة.

ولهذا قال سيد قطب رحمه، ـ وهو يتفيأ ظلال هذه الآية: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس. . .﴾ قال: (وفي أول مقتضيات هذا المكان أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد وأن تكون لها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهي خير أمة أخرجت للناس لا عن مجاملة، ولا عن مصادفة أو جزاف ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ وليس توزيع الاختصاصات والكرامات كما كان أهل الكتاب يقولون: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ كلا إنما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر وإقامتها على المعروف، مع الإيمان الذي يحدد المعروف والمنكر: ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾)[2].

---

(١) التوبة: ٢٤.

(٢) في ظلال القرآن (٤ ـ ٤٤٧).

وإذا فقدت الأمة الإسلامية منصب القيادة هذا، فإنه لا يبقى شاغراً بل لا بد أن يتربع عليه من توافرت لديه أسس الزعامة المادية، وهي: (قوة الإرادة والمضاء في الأمر والعزم والإقدام والصبر والثبات والأناة ورباطة الجأش وتحمل الشدائد والهمة والشجاعة والبسالة والنشاط والشدة والبأس والولوع بالغاية والاستعداد للتضحية بكل شيء في سبيل تحقيقها والحزم والحيطة وإدراك العواقب والقدرة على العمل المنظم والشعور بالواجب والإحساس بالمسؤولية والقدرة على تقدير المواقف المختلفة، والقدرة على صوغه وإفراغه في قوالب مناسبة حسب الظروف المتبدلة والقدرة على تدبير الشؤون وفق تلك الأحوال والظروف، وكان ملّاكاً لعواطفه ورغباته ونزعاته النفسية وكذلك كان قادراً على استمالة أهواء الناس والأخذ بمجامع قلوبهم وتحبيب نفسه إليهم ـ مع التحلي بالأخلاق التي تضمن له الوقار في هذه الدنيا ـ كالإباء والسخاء والرأفة والمواساة وسعة القلب والنظر والصدق والأمانة والنزاهة والوفاء بالعهد وكمال الرزانة والاعتدال والتهذيب والطهارة والنظافة وضبط النفس والذهن..

هذه الصفات التي إذا حازها واستوعبها معظم أفراد أمة من الأمم أو جماعة من الجماعات فكأنها عندها ثروة الإنسانية ورأس مالها فإن هذه الثروة هي التي تتكون على أثرها قوة جماعية قوية فعالة)[1].

فإذا اتفق أفراد تلك الأمة أو الجماعة على غاية مشتركة محبوبة عند الجميع حباً يجعلهم يضحون في سبيلها بكل شيء وأسندوا أمرهم إلى قائد متميز عنهم في حسن التدبير وبقية الصفات المؤهلة للقيادة فإن هذه الأمة أو تلك الجماعة تتسلم زمام قيادة البشرية ولو كانت غير مسلمة ما دامت تحلت بهذه الصفات ولم توجد أمامها أمة أخرى متحلية بهذه الصفات مع التمسك بالدين الذي ارتضاه الله لعباده وإذا قاد الأمم في الأرض أهل الكفر والإجرام فحدّث عن البلاء والشر والفساد الذي ينتشر في الأرض بسبب ذلك ولا حرج.

قال المودودي رحمه الله: (وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية لا يخفى عليه أن المسألة التي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية

---

(١) انظر الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية ص ٢١ وما بعدها.

وفسادها إنما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام أمرها. . .) ـ إلى أن قال ـ : (وأما إذا كانت هذه السلطة سلطة الزعامة والقيادة والإمامة بأيدي رجال انحرفوا عن الله ورسوله واتبعوا الشهوات وانغمسوا في الفجور والطغيان فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء ويدب دبيب الفساد والفوضى في الأفكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والأخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمتها وتنمو السيئات ويستفحل أمرها وتأبى الأرض أن ترحب بالحسنات ويضن الماء والهواء أن يفيضا عليها شيئاً من القوت وتمتلىء الأرض ظلماً وفجوراً)[١].

وهذا ما يعيشه الناس اليوم بسبب فقد الأمة الإسلامية منصب القيادة والتوجيه واستيلاء أمم الكفر على ذلك المنصب.

الفرع الثاني
استعباد الأعداء للمسلمين وفتنتهم في دينهم

إن المسلمين الذين أعزهم الله بالإسلام، إذا تخلوا عن الجهاد في سبيل الله الذي يعز به الإسلام والمسلمون يقعون في استعباد أعدائهم لهم وفتنتهم في دينهم، إضافة إلى استعباد غيرهم من البشر من غير المسلمين، وذلك من العذاب الذي توعدهم الله به في كتابه : ﴿إلاَّ تَنْفِروا يُعَذِّبْكم عذاباً أليماً، ويستبدلْ قوماً غيركم، ولا تضروه شيئاً، والله على كل شيءٍ قديرٌ﴾[٢].

قال القرطبي رحمه الله: (يعذبكم قال ابن عباس: هو حبس المطر عنهم. قال ابن العربي: فإن صح ذلك عنه فهو أعلم من أين قاله، وإلا فالعذاب الأليم هو في الدنيا باستيلاء العدو، وبالنار في الآخرة)[٣].

والذي يراجع تاريخ المسلمين في جميع العصور يرى أنهم إذا تخلوا عن الجهاد أذلهم الله لأذل خلقه وجعلهم في أسوأ حال لتخليهم عن أمره سبحانه

---

(١) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية ص ٨ ـ ٩.
(٢) التوبة: ٣٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٨ ـ ١٤٢).

لهم بقتال عدوهم وإذلاله بالجهاد في سبيل الله، وهذا مصداق ما أخبر به الرسول ﷺ من إنزال البلاء بهم بتركهم الجهاد، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يعني إذا ضن الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله أنزل الله بهم بلاء فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم»[1].

ففي هذا الحديث بيان أن انصراف المسلمين عن دينهم والتنافس في أمور الدنيا وترك الجهاد في سبيل الله، كل ذلك يكون سبباً في إنزال الله البلاء بهم وأن هذا البلاء يستمر بهم حتى يعودوا إلى الله تعالى بأداء أمره واجتناب نهيه ولا تكون الدنيا هي همهم الذي يستوعب نشاطهم في الحياة وإنما الجهاد في سبيل الله الذي يرفعهم الله به ويعزهم ويذل عدوهم.

وقد ذكر الرسول ﷺ في هذا الحديث أربعة أمور إذا فعلها المسلمون استحقوا البلاء، وهي: الشح بالمال عن إنفاقه في الأمور المشروعة.

والعينة، وهي نوع من أنواع البيع المحرم[2].

وهو كناية عن عدم التزام المسلمين بما أحله الله أو حرمه في كتابه وسنة رسوله ﷺ.

واتباع أذناب البقر، وهو كناية عن الاهتمام البالغ بالدنيا وزخارفها ولذلك عبر عنه بالاتباع الذي يستغرق أوقات الإنسان كله.

وهو شامل للانشغال بالحرث أو البيع والشراء أو غيرهما من الأمور التي تصرف المسلمين عن طاعة الله والجهاد في سبيله، وليس هو ذماً للعمل وجمع المال من وجهه الحلال وصرفه في طاعة الله والأمور المباحة وإنما هو ذم

---

(١) رواه أحمد، وهو في الفتح الرباني ترتيب أحمد عبد الرحمن البنا والد الشهيد حسن البنا رحمهما الله (١٤ ـ ٢٥) وقال في الحاشية: (ورجال الإمام أحمد ثقات، وصححه ابن القطان أيضاً، وللحديث شواهد وطرق مختلفة تعضده. والله أعلم).

(٢) قال في حاشية الفتح الرباني: (بكسر العين المهملة، ثم ياء تحتية ساكنة ثم نون، قال الجوهري: العينة بالكسر السلف أ هـ، قال الرافعي: وبيع العينة أن يبيع شيئاً من غيره بثمن مؤجل ويسلمه إلى المشترى، ثم يشتريه قبل قبض الثمن بثمن نقد أقل من ذلك القدر).

للانصراف عن طاعة الله والجهاد في سبيل الله.

وترك الجهاد في سبيل الله الذي يعد نتيجة لفعل الأمور الثلاثة المذكورة قبله.

فهذا البلاء الذي يترتب على هذه الأمور الأربعة لا يرفعه الله إلا إذا زالت وحل محلها أمور أربعة أخرى، وهي البذل والتضحية بالنفس والمال واجتناب ما حرم سبحانه وفعل ما أمر، وعدم الاهتمام بالدنيا وزخرفها والانصراف إلى طاعة الله واتخاذ الدنيا بما فيها وسيلة إلى مرضاته وإقامة علم الجهاد في سبيل الله.

وإن البلاء الذي أنزله الله تعالى على المسلمين الآن لهو من أشد البلاء وأعظمه فإن أعداء الله قد استعمروهم واستعبدوهم وأصبحوا يأمرونهم وينهونهم ويوجهون سياستهم واقتصادهم وسلوكهم ويسفكون دماءهم وينهبون خيراتهم ويسيمونهم الذل والهوان في عقر دارهم.

وكفى بهم ذلاً واستعباداً ومهانة أن أصبحوا يخافون أعداءهم أشد من خوفهم من الله سبحانه ونزل في قلوبهم من الرعب من أعدائهم ما كان ينزل بهؤلاء الأعداء عندما كان المسلمون رافعين راية الجهاد في سبيل الله لا بل إن المسلمين الذين بلغ عددهم الآن قريباً من ألف مليون ليخافون من شذاذ الآفاق اليهود الذين كتب الله عليهم الذلة ولم يرفعوا عقيرتهم إلا بعد أن تنحى المسلمون عن مجدهم وأذلوا أنفسهم راضين ببعدهم عن دين الله وها هي دولة اليهود تغزوهم في عقر دارهم في الأرض والبحر والجو وتحطم ما بنوا من قوة في أحصن بقعة في أراضيهم ولا يزيد عدد هؤلاء اليهود الآن عن ثلاثة ملايين نسمة، والعرب وحدهم أكثر من مائة مليون يحيطون بها من كل جهة وهي قد احتلت أراضيهم وملأتها بالسلاح وحملته وتتربص باحتلال أراضي أخرى حسب مخططها الذي وضعته لنفسها، فهل بعد هذا الذل من ذل وهل فوق هذا الاستعباد من استعباد؟!.

وهكذا تجد المسلمين في كل مكان مستعبدين مهانين أذلاء يسحقهم أعداؤهم ويفتتنوهم عن دينهم بدون هوادة ولا تراخ.

وإن الأمم الكافرة لتتداعى على المسلمين في كل وقت يحبون فيه الدنيا ويكرهون الموت كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لثوبان: «كيف أنت يا ثوبان إذا تداعت عليكم الأمم كتداعيكم على قصعة الطعام تصيبون منه، قال ثوبان: بأبي وأمي يا رسول الله، أمن قلة بنا؟ قال: لا أنتم يومئذ كثير ولكن يلقى في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حبكم الدنيا وكراهيتكم القتال»(١).

قال أحمد بن عبد الرحمن البنا في الحاشية: (وقد تحقق ذلك الآن، ووقع المسلمون فيما حذرهم منه رسول الله ﷺ، فصاروا غنيمة للأجانب ـ أعني الكفار ـ فكل دولة أخذت نصيبها منهم تسخرهم كيف شاءت وذلك بسبب حبهم الدنيا وتركهم للقتال والاستعداد له فلا حول ولا قوة إلا بالله)(٢).

وإذا كان كثير من الشعوب الإسلامية قد جلا عنها جيوش الأعداء وبعضها يغزى الآن، فإن الاستعباد الحقيقي والذل قد وقعا عليها بعد ذلك الجلاء لأنها لم تغادرها إلا بعد أن استعبدت العقول وشحنتها بأفكارها وصار قادة تلك البلدان عبيداً طائعين لسادتهم الكفرة ينفذون لهم ما لم يقدروا هم على تنفيذه عندما كانوا يحتلون أراضي المسلمين.

ولقد وعى أصحاب رسول الله ﷺ هذا المعنى وعياً كاملاً، وهو أن ترك الجهاد في سبيل الله فيه ذل المسلمين.

وقد كان أحد موضوعات خطاب أبي بكر الصديق السياسي المهم الذي ألقاه بعد بيعة المسلمين له بالخلافة، قال رضي الله عنه:

(أما بعد أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة والضعيف منكم قوي عندي حتى أزيح علته إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا

---

(١) أخرجه أحمد، وهو في الفتح الرباني (١٤ ـ ٢٦) وقال في تخريجه... وفي إسناده من لا يعرف.
(٢) نفس الكتاب والجزء والصفحة.

يشيع قوم قط الفاحشة إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قومـوا إلى صلاتكم يرحمكم الله)[١].

وقد تبع هذا الوعي ما سار عليه الصديق من إقامة الجهاد في سبيل الله بعد توليه الخلافة مباشرة، كما مضى في قصة إنفاذ جيش أسامة وقتال المرتدين ثم تجهيز المجاهدين لبلاد فارس، وهكذا سار عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان وكانوا أعزة بذلك فلما ترك المسلمون الجهاد ضربهم الله بالذل كما قال الصديق رضي الله عنه.

وقال ابن قُدامة رحمه الله: (ويغزى مع كل بر وفاجر): يعني مع كل إمام قال أبو عبدالله، وسئل عن الرجل يقول: أنا لا أغزو ويأخذه ولد العباس إنما يوفر الفيء عليهم؟ فقال: سبحان الله هؤلاء قوم سوء، هؤلاء الْقَعَـدَة مثبطون جهال، فقال: أرأيتم لو أن الناس كلهم قعدوا كما قعدتم، من كان يغزو؟ أليس كان قد ذهب الإسلام؟ ما كانت تصنع الروم؟

ثم ذكر الأحاديث الدالة على وجوب الجهاد مع كل بر وفاجر، ثم قال: (ولأن ترك الجهاد مع الفاجر يفضي إلى قطع الجهاد وظهور الكفار على المسلمين واستئصالهم وظهور كلمة الكفر، وفيه فساد عظيم، قال الله تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾)[٢].

تأمل قول الإمام أحمد رحمه الله: (أرأيتم لو أن الناس كلهم قعدوا كما قعدتم من كان يغزو؟ أليس قد ذهب الإسلام؟ ما كانت تصنع الروم؟) - يعني كانت تغزو المسلمين وتذهب دولة الإسلام.

وتأمل كذلك قول ابن قدامة إن ترك الجهاد يفضي إلى ظهور الكفار على المسلمين واستئصالهم وظهور كلمة الكفر.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٥ ـ ٢٤٨) وقال: (وهذا إسناد صحيح).
(٢) المغني (٩ ـ ٢٠٠) وما بعدها، والآية في سورة البقرة ٢٥١.

هكذا فقه السلف الصالح ما يفضي إليه ترك الجهاد في سبيل الله وأيد الواقع هذا الفقه البصير.

ويحسن ضرب أمثلة للواقع الذي يشهد بأن المسلمين لا يتركون الجهاد في سبيل الله في أي زمان من الأزمان إلا ضربهم الله بالذل كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

المثال الأول: المسلمون الذين لم يهاجروا من مكة إلى المدينة في عهد رسول الله ﷺ.

فقد أذن الله للمسلمين بالهجرة من مكة إلى المدينة، فهاجروا قبل الرسول ﷺ وبعده، وبقي بعضهم في مكة، وهم قادرون على الهجرة بقوا تحت سيطرة أعداء الله من الكافرين يذلونهم ويعذبونهم ويستضعفونهم، وذلك ينافي عزة الإسلام والمسلمين.

قال تعالى عنهم: ﴿إنَّ الذين توفَّاهم الملائكةُ ظالمي أنفسِهم قالوا فيم كنتم؟ قالوا كنَّا مستضعفينَ في الأرض، قالوا ألَمْ تَكُنْ أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنَّمُ وساءت مصيراً * إلا المستضعفينَ من الرجال والنساء والوِلْدان لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً * فأولئك عسى اللهُ أن يعفوَ عنهم وكان الله عفواً غفوراً﴾[1].

ففي الآية الأولى ذكر تعالى أن الذين دخلوا في دين الله وكانوا قادرين على الهجرة من مكة إلى المدينة ـ والهجرة نوع من أنواع الجهاد وهي هنا فرض عين، لأن كل مسلم كان يفتن في دينه وهي كذلك في كل زمان ما دام هذا الوصف محققاً ـ ولكنهم لم يهاجروا فماتوا وهم ظالمون لأنفسهم، وعندما سألتهم الملائكة عما كانوا فيه اعتذروا عذراً كاذباً لا ينفعهم شيئاً قالوا: كنا مستضعفين في الأرض فالذي يرضى لنفسه بالهوان والمضايقة في دينه ولا يهاجر وهو قادر فإن الاستضعاف الذي يحصل له لا يكون عذراً مقبولاً منه عند الله. ولذلك استحقوا هذا الجزاء وذلك التبكيت.

---

(١) النساء: ٩٧ ـ ٩٩.

أما في الآيتين الأخريين فقد عذر الله فيهما من لم يجد حيلة لمفارقة ديار المشركين إلى دار المسلمين من جميع الأصناف رجالاً ونساء وولداناً، وهي شبيهة بقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ليسَ على الضعفاءِ ولا على المرضَى ولا على الذين لا يجدون ما يُنفقون حَرَجٌ إذا نصحوا لله ورسوله، ما على المُحْسنين من سبيل، والله غفور رحيم﴾[1].

قال ابن جرير رحمه الله في الذين لم يهاجروا وهم قادرون: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة﴾: إن الذين تقبض أرواحهم الملائكة ﴿ظالمي أنفسهم﴾يعني مكسبي أنفسهم غضب الله وسخطه... ﴿قالوا: فيم كنتم﴾ يقول: قالت الملائكة فيم كنتم؟ أي في أي شيء كنتم من دينكم﴿قالوا: كنا مستضعفين في الأرض﴾(يعني قال: الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم: كنا مستضعفين في الأرض، يستضعفنا أهل الشرك بالله في أرضنا وبلادنا بكثرة عددهم وقوتهم فيمنعونا من الإيمان بالله واتباع رسوله ﷺ. معذرة ضعيفة وحجة واهية)[2].

المثال الثاني: ما فعله التتار في بغداد سنة ٦٥٦ للهجرة.

وكان حكام المسلمين آنذاك قد وصلوا إلى قمة الترف واللهو والمجون، وسقطت هممهم فلم يعودوا يفكرون في الإسلام والمسلمين فضلاً عن جهاد الأعداء لرفع كلمة الله في الأرض.

وهذه مقتطفات توضح الذل والخزي والعار والدمار الذي أصاب المسلمين في هذه الوقعة، قال ابن كثير رحمه الله: (وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه... جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك انزعاجاً شديداً.... ووصل (يعني هولاكو) بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الظالمة الغاشمة ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم

(١) التوبة: ٩١.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥ ـ ٢٣٣) وراجع فتح الباري (١٣ ـ ٣٧).

بقية الجيش، وكلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله...

ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون.

وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي[1] وطائفة من التجار أخذوا لهم أماناً بذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم.

وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا قليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة...

وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بني العباس فيخرج بأولاده ونسائه فيذهب به إلى مقبرة الخلال تجاه المنظرة فيذبح كما تذبح الشاة، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه.

وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد... ولما انقضى الأمر المقدر وانقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على عروشها، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت

---

(١) لاحظ أن أعداء الله من اليهود والنصارى يتحالفون مع ذوي العقائد الفاسدة من المنتسبين إلى الإسلام في كل زمان ضد أهل الإسلام الصادقين، فلا يجوز الاغترار بالروافض وأشباههم، وإن ادعوا أنهم أنصار الإسلام لأن الإسلام الحق يعاديه الكفار الصرحاء ويعاديه من يتحالف معهم من ذوي المعتقدات الفاسدة وشواهد التاريخ كثيرة على هذا الأمر.

من جيفهم البلد وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع الناس على الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذي يعلم السر وأخفى الله لا إلّه إلا هو له الأسماء الحسنى . .)(١).

وليس للباحث على هذا الدمار والخزي والذل إلا قول الحكيم العليم سبحانه وتعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انِفُروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل * إلا تَنْفِروا يُعذِّبْكم عذاباً أليماً، ويستبدل قوماً غيركم، ولا تضروه شيئاً، والله على كل شيء قدير﴾(٢).

وإلا ما كرره ابن كثير وهو يسرد هذه الفظائع: (فإنا لله وإنا إليه راجعون).

المثال الثالث: في القرن الرابع عشر الهجري (وهو القرن العشرون قرن التقدم والرقي والحضارة والحرية المزعومة).

ما ذاقه المسلمون في بلادهم التي اغتصبها الروس الملحدون عندما خلا الجو من راية الجهاد الإسلامية الرادعة لأعداء الله.

قال سيد قطب رحمه الله: (فلندع كاتباً أخذ يحدثنا عن وسائل التعذيب الجهنمية التي سلطت على العنصر الإسلامي في التركستان الغربية الخاضعة لروسيا والتركستان الشرقية التابعة للصين الشيوعية اسماً ولروسيا الشيوعية فعلاً. إنه الأستاذ عيسى يوسف آلب تكين الذي قُدِّرت له الحياة من جديد بعد فراره

---

(١) البداية والنهاية (١٣ ـ ٢٠٠ ـ ٢٠٣).
(٢) التوبة: ٣٨ ـ ٣٩.

من الإدارة الجهنمية الرهيبة ليكتب كتابه: (المسلمون وراء الستار الحديدي) يحدثنا فيه عن صور من التعذيب والقتل[١] وسنضطر أن نغفل ذكر بعضها هنا لأنها من القذارة بحيث يخرس ذكرها كل أدب إنساني مكتفين بما تطيق الآداب أن نذكره للناس، وهذه هي:

١ ـ دق مسامير طويلة في الرأس حتى تصل إلى المخ.
٢ ـ إحراق المسجون بعد صب البترول عليه، وإشعال النار فيه.
٣ ـ جعل المسجون هدفاً لرصاص الجنود يتمرنون عليه.
٤ ـ حبس المسجون في سجون لا ينفذ إليها هواء ولا نور وتجويعهم إلى أن يموتوا.
٥ ـ وضع خوذات معدنية على الرأس وإمرار التيار الكهربائي فيها.
٦ ـ ربط الرأس في طرف آلة ميكانيكية، وباقي الجسم في ماكينة أخرى ثم تدار كل من الماكينتين في اتجاهات متضادة فتعمل كل واحدة مقتربة من أختها حيناً ومبتعدة حيناً آخر، حتى يتمدد الجزء من الجسم الذي بين الآلتين فإما أن يقر المعذب وإما أن يموت.
٧ ـ كي كل عضو من الجسم بقطعة من الحديد مسخنة إلى درجة الاحمرار.
٨ ـ صب زيت مغلي على جسم المعذب.
٩ ـ دق مسمار حديدي أو أبر الجراموفون في الجسم.
١٠ ـ تسمير الأظافر بمسمار حديدي حتى يخرج من الجانب الآخر.
١١ ـ ربط المسجون على سرير ربطاً محكماً ثم تركه لأيام عديدة.
١٢ ـ إجبار المسجون على أن ينام عارياً فوق قطعة من الثلج أيام الشتاء.
١٣ ـ نتف كتل من شعر الرأس بعنف مما يسبب اقتلاع جزء من جلد الرأس.
١٤ ـ تمشيط جسم المسجون بأمشاط حديدية حادة.
١٥ ـ صب المواد الحارقة والكاوية في فم المسجونين وأنوفهم وعيونهم بعد ربطهم ربطاً محكماً.
١٦ ـ وضع صخرة على ظهر المسجون بعد أن توثق يداه إلى ظهره.

---

(١) لقد ذاق شيئاً من تلك الصور دعاة الإسلام على أيدي طغاة يدعون الإسلام، ومنهم سيد قطب الذي يتحدث عن هذه الصور رحمه الله.

١٧ ـ ربط يدي المسجون وتعليقه بهما إلى السقف وتركه ليلة كاملة أو أكثر.
١٨ ـ ضرب أجزاء الجسم بعصا فيها مسامير حادة.
١٩ ـ ضرب الجسم بالكرباج حتى يدميه ثم يقطع الجسم إلى قطع بالسيف أو بالسكين.
٢٠ ـ إحداث ثقب في الجسم وإدخال حبل ذي عقد واستعماله بعد يومين كمنشار لتقطيع قطع من أطراف الجرح المتآكل.
٢١ ـ ولكي يضمنوا أن يظل المسجون واقفاً على قدميه طويلاً يلجأون إلى تسمير أذنيه في الجدار.
٢٢ ـ وضع المسجون في برميل مملوء بالماء في فصل الشتاء.
٢٣ ـ خياطة أصابع اليدين والرجلين وشبك بعضهما إلى بعض.
٢٤ ـ والنساء حظهنّ من مثل هذا العذاب أنهن يعرين ويضربن ضرباً مبرحاً على ثديهن وصدورهن. أما بقية تعذيب النساء فإننا نمسك عنه)[١].

هذا ما وصل عن طريق الكاتب المذكور والذي لم يصل أكثر مما وصل، وها هي روسيا الآن تحتل أفغانستان وتذيق أهلها أشد التنكيل في حرب سافرة بقوات هائلة وشعب أفغانستان يقف أمامها ببسالة نادرة مجاهداً في سبيل الله مدافعاً عن حرماته ودينه ووطنه والمسلمون لا يزيدون على الاحتجاج إلا مساعدات مالية قليلة للاجئين منهم في باكستان.

بل وبعض طغاة الحكم في شعوب إسلامية يؤيدون الشيوعيين الروس في احتلالهم لأفغانستان.

المثال الرابع: في هذا القرن أيضاً، وهو حالة المسلمين في الفلبين لقد أوجز أحد شباب الفلبين حالة المسلمين هناك في هذه الجمل: (إن حالة مسلمي الفلبين اليوم، كانت ولا تزال في غاية البؤس والشدة والاضطراب، لأنه لما علمت الحكومة والنصارى أن مخططاتهم التي حددوها بعشرين سنة بتنصير جميع

---

(١) دراسات إسلامية ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥، وإذا شئت فراجع كتاب زينب الغزالي أيام من حياتي لتقارن بين هنا وهناك.

المسلمين، وقد انتهى هذا التحديد في سنة ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م لم تنجح غيروا أساليبهم إلى أسلوب آخر، فنظموا منظمات إرهابية نصرانية تعمل الآن على محاولة تصفية المسلمين فتقوم بعمليات القتل والإرهاب ضد مسلمي الفلبين والجيش الفيلبيني وبإمداد حكومة جولدا مائير رئيسة الوزراء لليهود[١] بالمال والسلاح والذخيرة وأكبر هذه المنظمات الإرهابية المنظمة التي تطلق على نفسها عصابة (إبلاغاً) أي جماعة الفئران، وقد قيل في بعض الصحف إن الرئيس ماركوس رئيس جمهورية الفلبين هو الذي أسسها لتنفيذ مخططه.

وأهم الجرائم التي يرتكبها أفراد العصابات النصرانية ضد المسلمين أنهم يطردون المسلمين من أراضيهم ويحرقون بيوتهم ومساجدهم ومدارسهم ومزارعهم، ويهتمون بإحراق القرآن الكريم وبقتل أئمة المساجد ويهتكون أعراض النساء قبل قتلهن ويمثلون بالشهداء من المسلمين وذلك بقطع ثدي النساء وقطع رؤوس الأطفال وآذان الرجال. . .)[١].

المثال الخامس: ما وقع لبعض الجماعات الإسلامية في هذا العصر في بعض الشعوب الإسلامية من طغاة يدعون الإسلام[٢] ولا تعليق للباحث على هذه الأمثلة إلا قول الله عز وجل: ﴿وما لكم لا تُقاتلون في سبيل الله والمستضعفينَ من الرجال والنساء والولْدان، الذين يقولون: ربَّنا أخرجنا من هذه القريةِ الظالمِ أهلُها، واجعل لنا من لدنك وليّاً، واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾[٣].

---

(١)، (١) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد الثالث من السنة الخامسة ١٣٩٣ هـ ص ١١٢ وفي المقال المذكور ذكر بعض الحوادث التي ارتكبها النصارى مع المسلمين.

وراجع كتاب: جولة في ربوع جزر مورو لمحمد أسد شهاب نشر هيئة البحوث الإسلامية ـ جاكرتا ـ أندونيسيا.

(٢) راجع في ذلك الكتب الآتية: وثيقة خطيرة تفضح مخطط الناصرية لإبادة الحركة الإسلامية في مصر، لماذا أعدم سيد قطب، حقائق عن الحكم والمحاكمات في مصر، نافذة على الجحيم، أيام من حياتي لزينب الغزالي على سبيل المثال. . .

(٣) النساء: ٧٥.

الفرع الثالث
إلقاء العداوة والبغضاء بين المسلمين

المسلمون إذا طبقوا دينهم وجاهدوا في سبيل الله يؤلف الله بين قلوبهم ويعينهم على التآخي في ذاته عز وجل ويحصل بينهم من الترابط والتكاتف والتعاون ما يجعلهم خير أمة أخرجت للناس كما مضى ذلك.

قال تعالى: ﴿واعتصموا بحَبْل الله جميعاً ولا تفرَّقوا، واذكروا نعمةَ الله عليكم إذ كنتُم أعداء فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شَفَا حُفْرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياتِه لعلَّكم تهتدون * ولْتَكُن منكم أمة يَدْعُون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرَّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيِّناتُ، وأولئك لهم عذابٌ عظيمٌ﴾[1].

أمر الله في هذه الآيات بالاعتصام بحبل الله أي التمسك بدينه وكتابه وسنة رسوله ﷺ والعمل بها والاجتماع عليها، وأمرهم بأن يذكروا نعمته عليهم بتأليف قلوبهم بعد أن كانوا متفرقين مختلفين في أيام كفرهم ثم أصبحوا إخواناً بعد إسلامهم، وأمرهم بالقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير التي لا فلاح لهم بدونها، ولعل في هذا تنبيهاً على السبب الذي يستطيعون به أن يستديموا اعتصامهم وائتلاف قلوبهم وأخوتهم، وهو توجيه طاقاتهم إلى الجهاد في سبيل الله ـ ومنه تآمرهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر ـ ودعوة أعدائهم إلى هذا الدين وقتالهم عليه ثم نهاهم سبحانه أن يقلدوا الكفار من الأمم السابقة الذين تفرقوا واختلفوا من بعد أن قامت عليهم حجة الله بإنزال كتبه وإرسال رسله، وما كان ذلك التفرق والاختلاف إلا بسبب تركهم دينهم والقيام به.

كما قال تعالى: ﴿ومن الذين قالوا إنَّا نصارى أخذنا ميثاقَهم، فنَسُوا حظّاً ممَّا ذُكِّروا به، فأغرينا بينهم العداوةَ والبغضاءَ إلى يومِ القيامة، وسوف ينبئهم

---

(١) آل عمران: ١٠٣ ـ ١٠٥.

الله بما كانوا يصنعون﴾[١].

وهكذا كل أمة تتنكب صراط الله المستقيم فإن الله يجعل بأسها بينها بدلاً من توجيه ذلك البأس إلى عدوها إذا هي استقامت وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر، وقد قال تعالى للمشركين الذين كانوا يصدون الناس عن دعوة الرسول ﷺ: ﴿قل هو القادرُ على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقِكم أو من تَحتِ أرجلكم، أو يَلْبِسَكم شِيَعاً ويذيقَ بعضَكم بأس بعض، انظرُ كيف نُصَرِّف الآياتِ لعلّهم يفقهون﴾[٢].

وقد سبق أن كلمة أصحاب الرسول ﷺ كانت مجتمعة وقلوبهم مؤتلفة عندما كانوا جادين في الجهاد في سبيل الله، فلما فتحت الدنيا وبدأ يظهر شيء من التنافس في الدنيا وهدأت الفتوحات دب الخلاف بينهم، وفي مقتل عثمان رضي الله عنه، ثم ما أعقب ذلك من وقعة الجمل وصفين دليل واضح على هذا المعنى.

وقد أشار إلى ذلك أبو برزة الأسلمي رضي الله عنه، كما في حديث أبي المنهال قال: لما كان ابن زياد ومروان بالشام، وثب ابن الزبير بمكة ووثب القرّاء بالبصرة فانطلقت مع أبي إلى أبي برزة الأسلمي، حتى دخلنا عليه في داره وهو جالس في ظل عُلِّيَّةٍ له من قصب فجلسنا إليه، فأنشأ أبي يستطعمه الحديث فقال: يا أبا برزة ألا ترى ما وقع فيه الناس؟ فأول شيء سمعته تكلم فيه: إني احتسبت عند الله أني أصبحت ساخطاً على أحياء قريش. إنكم يا معشر العرب كنتم على الحال الذي علمتم من الذلة والقلة والضلالة وإن الله أنقذكم بالإسلام وبمحمد ﷺ حتى بلغ بكم ما ترون وهذه الدنيا التي أفسدت بينكم. إن ذاك الذي بالشام والله إنْ يقاتل إلا على دنيا، وإن هؤلاء الذين بين أظهركم والله إنْ يقاتلون إلا على دنيا وإن ذاك الذي بمكة والله إنْ يقاتل إلا على الدنيا)[٣].

---

(١) المائدة: ١٤.

(٢) الأنعام: ٦٥، وراجع في ظلال القرآن (٧ ـ ١١٢٤).

(٣) البخاري رقم ٧١١٢، فتح الباري (١٣ ـ ٦٨).

فقوله: (من الذلة والقلة والضلالة وأن الله أنقذكم بالإسلام وبمحمد ﷺ حتى بلغ بكم ما ترون) يفسر معنى قولـه تعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾[1].

وكانت هذه النعمة التي أنعم بها عليهم فكثرهم بعد قلة وأعزهم بعد ذلة وأغناهم بعد فقر وأشبعهم بعد جوع بما رزقهم من حمل الأمانة ورفع راية الجهاد في سبيل الله استجابة لدعاء الرسول ﷺ في أول معركة فاصلة بين المسلمين والمشركين كما في حديث عبدالله بن عمرو بـن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ . . . قال: «اللهم أنهم حفاة فاحملهم، اللهم أنه عُراة فاكسهم، اللهم إنهم جياع فأشبعهم، ففتح الله له يوم بدر، فانقلبوا حين انقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين واكتسوا وشبعوا»[2].

وإذا قعد المسلمون عن الجهاد واختلفوا فيما بينهم اهتبل الطواغيت ذلك وأججوا نار الخلاف والفرقة بينهم بالإغراء والتحريش ليزداد انقسامهم على أنفسهم ويشتد نزاعهم وخصامهم حتى يضرب بعضهم رقاب بعض، وهو الذي حذر منه الرسول ﷺ أمته ونهاهم أشد النهي، كما في حديث ابن عمر وأبي بكرة، وابن عباس، وجرير: «لا ترجعوا ـ وفي رواية لا ترتدوا ـ بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[3]. بدلاً من ضربهم رقاب أعدائهم الذين أمرهم الله بجهادهم في سبيله، كما قال تعالى: ﴿فإذا لقيتُم الذين كفروا فضَرْبَ الرقاب﴾ الآية[4].

ولقد حل بالمسلمين هذا البلاء وألقى الله بينهم العداوة والبغضاء لأنهم ـ أغلبهم ـ نسوا حظاً مما ذكروا به، كأهل الكتاب، وسنة الله واحدة لا تتغير ولا تتبدل، والكفار من هذه الأمة، أو الفساق، أو الظلمة منها، لا ميزة لهم على

---

(١) الأنفال: ٢٦.

(٢) جامع الأصول (٨ ـ ١٨٨).

(٣) البخاري رقم ٧٠٧٧ ـ ٧٠٧٨ ـ ٧٠٧٩ ـ ٧٠٨٠ ـ فتح الباري (١٣ ـ ٢٦).

(٤) محمد: ٤.

كفار الأمم السابقة وفساقها وظلمتها والله تعالى قال في كتابه: ﴿أكفارُكم خيرٌ من أولئكم، أم لكم براءة في الزُّبر﴾[١].

فانتثر عقد الأمة الإسلامية وانقسموا إلى دول وشعوب وجماعات وأحزاب اختلفوا في عقائدهم وفي سياساتهم وفي ولاءاتهم حتى إنك لترى الولاءات لغير الله في أكثرهم، هذا شيوعي متطرف يتبع الصين ـ مثلاً ـ وهذا شيوعي معتدل، يتبع روسيا ـ مثلاً ـ وهذا اشتراكي، وهذا قومي، وهذا يميني وذاك يساري، وهذا رأسمالي. كل دولة تلعن الأخرى وتحاربها وكل شعب يفتخر على الآخر ويحتقره وكل جماعة تعادي الأخرى وتشهر بها وتذكر مساويها، وكل حزب يقاتل نده، وأعداء الله من دول الكفر يشعلون نار الفتنة بين تلك الدول والشعوب والجماعات والأحزاب ويضعون لهم المناهج والخطط التي توسع الخلاف بينهم يمدونهم بالأسلحة التي يدمر بها بعضهم بعضاً، حتى أصبحت الدول تنام برئاسة فلان وبقيادة الحزب الفلاني فتصبح وقد تغير زعماؤها وزج بهم في السجون أو دفنوا تحت أنقاض قصورهم بالأسلحة المدمرة.

وهكذا الحزب الواحد ينقسم أعضاؤه حتى يصبح عدداً من الأحزاب لا بل إن الأسرة الواحدة في البيت الواحد تجد كل واحد منهم تابعاً لحزب وهو يتجسس على أخيه أو أبيه أو أي قريب له آخر ينتمي إلى حزب آخر ويتربص به ويهدده بيوم النصر المنتظر لحزبه.

ولو أراد الباحث أن يضرب أمثلة لتلك العداوات والبغضاء التي ألقاها الله بين الدول الحاكمة لبلاد المسلمين، وتلك الشعوب الإسلامية، والجماعات والأحزاب لملأ كراريس عديدة، ولكن المسلم ـ أو غير المسلم ـ المعاصر إذا استعرض بلاد المسلمين كلها يظهر له ما نزل بها بعضها مع بعض أو في داخل كل بلاد من بلاء.

وما بقي إلا أن ينتظر المسلمون وعد الله سبحانه: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقومٍ يحبُّهم ويحبونه، أذلةٍ على المؤمنين،

---

(١) القمر: ٤٣.

أعزةٍ على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومةَ لائم، ذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء والله واسعٌ عليمٌ * إنَّما وليُّكم اللهُ ورسولُه والذين آمنوا، الذين يُقيمون الصلاة ويُؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يَتَوَلَّ اللَّهَ ورسولَه والذين آمنوا فإن حِزْبَ الله هم الغالبون﴾[1].

بعد أن أذاقهم الله ما هددهم به وحذرهم منه في قوله: ﴿إلَّا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير﴾[2].

الفرع الرابع
فقد المسلمين الحرية في شؤونهم الدينية والدنيوية

عندما تكون الهيمنة للإسلام ويكون المجتمع مجتمعاً إسلامياً يتساوي فيه الناس في حقوقهم فلا يهضم أحد ولا تظلم طائفة، ولا يكون لأحد فضل على أحد إلا بتقوى الله سبحانه، فمن كان أكثر تقوى كان أكرم عند الله تعالى: ﴿يا أيُّها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إنَّ الله عليمٌ خبيرٌ﴾[3].

فالمسلم في ظل المجتمع الإسلامي الذي تحرسه قوة الحق الجهادية يكون كامل الحرية في نشاطه وتصرفه في الشؤون الدينية والدنيوية في نطاق ما أذن الله به شرعاً بل إن غير المسلم من أهل الذمة ينال حرية لا يجدها في ظل المجتمع الكافر الذي يدين بدينه.

ولكن هذه الحرية التي يتمتع بها المسلم في ظل مجتمعه الإسلامي المجاهد

---

(١) المائدة: ٥٤ ـ ٥٦.

(٢) التوبة: ٣٩.

ويمكن للقارىء مراجعة الكتب التالية لمعرفة خطط أعداء الله في تفريق المسلمين وتأجيج العداوة بينهم واستجابة المسلمين لذلك: موسكو وإسرائيل لعمر حليف والصراع السوفياتي ـ الأمريكي في الشرق الأوسط لج. بس. هورتيز ولعبة الأمم لمايلزكوبلاند، والدوبلوماسية والمكيافلية في العلاقات العربية الأمريكية خلال عشرين عاماً للدكتور صادق أمين.

(٣) الحجرات: ١٣.

في معتقده وفي رأيه وفي تفكيره وفي شؤونه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتعليمية يفقدها عندما تفقد راية الجهاد في سبيل الله وتنتقل قيادة البشر من أيدي المجاهدين إلى أيدي الكفرة والظلمة والفاسقين.

إذ أنه قد يفتن في دينه وعقيدته، كما فعل فرعون مع السحرة الذين آمنوا بموسى: ﴿قال آمنتُم له قبل أن آذنَ لكم؟ إنَّه لكبيركُم الذي علَّمكم السِّحْرَ، فلأقطِّعَنَّ أيديَكم وأرجلَكم من خِلافٍ، ولأصلِّبنَّكم في جُذوعِ النَّخْلِ، ولَتَعْلَمُنَّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى﴾[1]. وكذلك قوم شعيب قالوا له: ﴿قال الملأُ الذين استكبروا من قومه لنُخرجنَّك يا شعيبُ والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودُنَّ في ملَّتنا، قال أوَ لَو كنَّا كارهين﴾[2].

وهكذا فعل المشركون من أهل مكة مع الذين لم يهاجروا بدينهم سواء منهم المعذور أو غيره كما مضى، بل أجبروهم على الخروج معهم في معركة بدر لقتال أهل دينهم من المسلمين: الرسول ﷺ وأصحابه، قال البخاري رحمه الله: (باب من كره أن يكثر سواد الفتن والظلم) وساق بسنده عن ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ، فيأتي السهم فيرمى به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضربه فيقتله، فأنزل الله تعالى: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾[3].

بل إنهم أكرهوا بعض الصحابة على النطق بالكفر وإن اطمأن قلبه بالإيمان قبل الهجرة، كما فعلوا مع عمار بن ياسر، كما قال تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكره وقلبُه مطمئنٌ بالإيمان، ولكنْ من شَرَحَ بالكفر صَدْراً فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذابٌ عظيمٌ﴾[4].

وكما فعل طغاة الأخدود في إكراه المؤمنين على التخلي عن إيمانهم فلما صمدوا أحرقوهم بالنار[5].

---

(١) طه: ٧١.
(٢) الأعراف: ٨٨.
(٣) النساء: ٩٧.
(٤) النحل: ١٠٦.
(٥) راجع تفسير سورة الأخدود في تفسير ابن جرير الطبري أو غيره.

وكما فعل النصارى في الأندلس بالمسلمين الذين قتلوهم وأخرجوهم من ديارهم مهانين ولم يبق إلا من تنصر[١].

وكما فعل الشيوعيون في روسيا والصين وألبانيا وكمبوديا في هذا العصر وغيرها من دول الكفر. لا بل ما فعله بعض حكام الشعوب الإسلامية بدعاة الإسلام.

ويفقد المسلم حريته في أداء شعائر دينه، بل وفي حمله كتاب ربه والقراءة فيه، وفي الصلاة في مسجده مع الجماعة أو وحده وفي رفع المؤذن الأذان داعياً إلى الصلاة، كما هو الحال في كثير من الشعوب الإسلامية التي تسلط عليها الشيوعيون في روسيا، وهكذا في الصين[٢].

ويفقد المسلم حريته في قول كلمة الحق في ظل الكفر الذي خلا له الميدان لأن الباطل لا يأذن له بذلك، ويفقد المسلم حريته السياسية حيث يحظر عليه العمل السياسي ما دام أساسه الإسلام، وليس في دول الكفر الصريحة فقط بل في الشعوب الإسلامية التي يحكمها أعداء الإسلام من المنتسبين إليه.

ويفقد المسلم حريته الاقتصادية الإسلامية، لأن الحياة الاقتصادية إما شيوعية تصادر الأموال ولا تسمح إلا بالقليل منها، وإما رأسمالية تطلق أيدي الناس لكسب المال بكل وجه حلالاً أو حراماً وتنفقه في كل وجه حلالاً أو حراماً وقلما ينجو من يعيش في ظل هذا النظام من الوقوع في محرم.

ويفقد المسلم حريته الاجتماعية في ظل الكفر، إذ تسري عليه الأنظمة الاجتماعية الكافرة فقد يجبر بحكم القانون على مخالفة دينه في ذلك كأن تزوج ابنته أو قريبته المسلمة بالرجل الكافر، وقد يجبر بحكم الأوضاع والعادات الضاغطة على أسرته وأهله بارتكاب محرمات كالاختلاط بالأجانب والسفور وغير ذلك.

---

(١) راجع التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبي (٤ ـ ١٢٦) وكتاب مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس لعبد الكريم التواتي ص ٥٨٩.

(٢) ويقال إن الصين بدأت تتسامح قليلاً مع المسلمين بعد موت زعيمهم اللعين ماوتسي تونج.

ويفقد المسلم حريته في التعليم، فلا يجد إلا التعليم الذي يضع مناهجه أهل الكفر الذين وضعوها لتحقيق أهداف كفرهم وبنوها على أساس معتقدهم إلحادياً أو نصرانياً أو يهودياً أو وثنياً وكلها تخالف مبادىء الدين الإسلامي ويجبر ابن المسلم وبنته على تعلّم هذه العلوم ولا يجدون غيرها من العلوم الإسلامية التي تصحح لهم مفهوماتهم بل إن مناهج الكفر تطعن في دينهم وتلقي عليهم شبهات كاذبة تملأ بها أدمغتهم وتشككهم في دينهم.

ويفقد المسلم الحرية في تطبيق مبادىء دينه على نفسه لصعوبة تطبيقها في مجتمع كافر أو تحت ظل حكم كافر، فالعامل المسلم في مصنع أو متجر لكافر قد يستمر عمله اثنتي عشرة ساعة أو أكثر وتمر به أوقات الصلاة فلا يؤذن له بترك عمله وأداء صلواته، فيضطر إذا كان حريصاً على أدائها أن يصليها كلها في وقت واحد بعد انصرافه من العمل، ويمر وقت صلاة الجمعة فلا يقدر على حضورها، وإذا تمرد وحضر الصلاة لوقتها عوقب وقد يكون عقابه حرمانه من العمل الذي يجلب له لقمة العيش[1].

ويصعب على المسلم تربية أولاده على تطبيق الإسلام، لأن ما يبنيه هو يهدمه أعداء الله في المدرسة والشارع ودور اللهو، أو بأجهزة الإعلام المختلفة من إذاعة وتلفاز وصحف ومجلات ومسجلات وغيرها.

ويفقد المسلم حريته في التنقل في الأرض التي سخرها الله لعباده كلهم، فإذا أراد أعـــداء الله أن يسجنوه في بلد ما حظروا عليه جواز السفر، أو الإذن بسفره[2] وإذا أرادوا منعه من البقاء في بلد أخرجوه منه بالقوة.

ويفقد المسلم حريته في حق الدفاع عن نفسه في المحاكم الظالمة إذا اتهم بشيء وحكم عليه بسجن أو إعدام أو غيرهما.

---

(١) هذا ما شكا منه العمال المسلمون في أمريكا ـ بلاد الحريات، وسمعته بأذني منهم في مدينة ديترويت المدينة الصناعية الشهيرة.

(٢) ومن عجائب الأمور أن بعض علماء المسلمين في بعض الشعوب الإسلامية يسكن في منزله باسم بعض أسرته، لأنه محروم من جنسية بلده الذي ولد فيه فلا يستطيع أن يتصرف في شيء بسبب ذلك، وإن حكام الدول الكافرة على الرغم من أنهم أساتذة حكام بعض الشعوب الإسلامية لأخف وطأة من تلامذتهم المتسبين إلى الإسلام.

ولا يفقد ذلك المجرمون من الجواسيس والقتلة والمخربين.

والخلاصة إن المسلم يفقد حريته في كل شيء إلا ما يأذن له به أعداء الله سواء في بلدان الكفر الأصلية أو في الشعوب الإسلامية التي يحكمها من لا يؤمنون بهدي الله ولا يحكمون بكتابه.

إلا أن حرية المسلم في بعض بلاد الكفر أفضل من حريته في بعض بلدان المسلمين، وهذه الأمور كلها واضحة يعلمها القاصي والداني.

وذلك كله بسبب القعود عن الجهاد في سبيل الله الذي لا توجد الحرية الصحيحة إلا في ظل رايته.

وهذه الحرية لم يفقدها الأفراد فقط بل إن الدول في الشعوب الإسلامية قد فقدتها فهي لم ترسم سياساتها ـ في كل شيء ـ بحرية، وإنما ترسمها تحت إشراف دول الكفر الأصلية، إما في الظاهر أو في الخفاء بسبب التهديد الذي تتلقاه باستمرار بإسقاطها إن هي لم تفعل ذلك.

الفرع الخامس
الرضا بالدون

هذا الفرع يعد أخطر الفروع في هذا الباب، لأن المسلم إذا وقع تحت سيطرة الكفار واستعبد جسمه وانتهك عرضه واحتلت أرضه واغتصب ماله وهو مكره في ذلك كله، فإن الضرر الذي يلحقه من ذلك ضرر مادي مؤقت ـ وإن طالت مدته ـ لأن عزته وكرامته وعلو قدره ما زالت تملأ قلبه وتحرك أحاسيسه ومشاعره وهو ماض في سبيل ربه عازم على إعادة دولة الكفر إلى وضعها الطبيعي، سقوطها وإذلال أهلها والقضاء على رؤوسها وعلى إعادة دولة الإسلام إلى وضعها الطبيعي كذلك: إقامتها وإعلاء شأنها ورفع رايتها وقوة أهلها وقيادتهم للبشر إلى الله.

الناس يظنونه ـ وهو تحت وطأة الكفار ـ عبداً، وهو حر حرية خالصة لا تشوبها شائبة، لأن قلبه مملوء بالإيمان بالله، ويظنونه ضعيفاً، وهو يشعر بقوة لا

تعدلها قوة، لأنه يعتمد على الله والله غالب على أمره ولا مغالب له ويحسبونه فقيراً، وهو على يقين بأنه غني، لأن خزائن الغنى بيد الله وليست بيد الطغاة، وإن بدوا في ظاهر الأمر هم أرباب الغنى والقوة والسيادة في الأرض. هذا هو شأن المسلم الحق الذي لا زال معتزاً بربه متمسكاً بدينه مستهيناً بقوى الأرض وإن كَبِّلَت يديه وقيدت رجليه ووضعته في مكان ضيق لا يطيق الحركة بجسده فيه، فإن آفاقه التي يعيش فيها ويأمل من ربه أن ينالها أوسع من أرض الطغيان، ولا بد أن يتحرك يوماً ويكسر القيود ويقطع الأغلال ويقضي على ذوي الظلم ويتسلم القيادة ليقود الناس إلى النور الرباني: الإسلام.

ولكن الكارثة ـ كل الكارثة ـ والطامة ـ كل الطامة ـ أن يفقد استعلاء الإيمان في نفسه، وعزته بربه وبدينه، وتسكن في قلبه الهزيمة النفسية فيشعر بأن عدوه عزيز وأنه هو ذليل، وأن تلك العزة الكافرة لا تغلب وأن هذه المذلة لا تزول، وأن الخنوع للواقع أمر لا بد منه، وذلك هو عين الرضا بالدون، وهنا يصبح الجسم حياً والقلب ميتاً، وما لجرح بميت إيلام؟

إن الأول لا زال حراً عزيزاً يعد العدة ليوم اللقاء الذي ينصره الله على عدوه، وإن الثاني أصبح ذليلاً مستعبد الجسم والقلب رضيت نفسه بالواقع، وإن كان مؤلماً فإنه لا قدرة له في مقاومته ـ في زعمه ـ وسيبقى كذلك ما لم يغير ما بنفسه من هزيمة.

الأول يقول دائماً: ﴿كم من فئةٍ قليلة غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله، والله مع الصابرين﴾ والثاني: يقول: ﴿لا طاقةَ لنا اليوم بجالوتَ وجنوده﴾[1].

الأول: يقول: ﴿قال رجلان من الذين يخافون أنْعَمَ اللهُ عليهما: ادخلوا عليهم البابَ فإذا دخلتموه فإنكم غالبون * وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين﴾[2].

والثاني: يقول: ﴿قالوا يا موسى إنا لن ندخلَها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربُّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون﴾[3].

---

(١) البقرة: ٢٤٩.

(٢) المائدة: ٢٣.

(٣) المائدة: ٢٤.

لهذا قال ابن تيمية رحمه الله مبيناً ضرر الرضا بالدون، وهو أن يسترق القلب: (فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استعبد بدنه واسترق لا يبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص، وأما إذا كان القلب الذي هو الملك رقيقاً مستعبداً متيَّماً لغير الله، فهذا هو الذل والأسر المحض والعبودية لما استعبد القلب...) إلى أن قال: (فالحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب)[1].

ومن مظاهر الرضا بالدون إكبار أعداء الله والنظر إليهم بعين الاحترام وتقليدهم في ملبسهم وطريقة أكلهم وشربهم وأساليب حياتهم والولوع بها وكذلك سلوك سبلهم في الأخلاق والمعاملات التي لا يقرها دينه أو حضور أعيادهم وإظهار الرضا عنهم أو بتصرفاتهم، وهذا التقليد يدل على اعتقاد المقلد الكمال فيمن قلده.

قال ابن خلدون رحمه الله: (ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه، وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله...) إلى أن قال: (وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زي الحامية وجند السلطان في الأكثر لأنهم الغالبون لهم، حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء والأمر لله.

وتأمل في هذا سر قولتهم العامة على دين الملك فإنه من بابه إذا الملك غالب لمن تحت يده والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الأبناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم والله العليم الحكيم وبه سبحانه وتعالى التوفيق)[2].

والذي يتأمل أحوال المسلمين اليوم دولاً وشعوباً ـ إلا ما شاء ربك وقليل

(١) الفتاوى (١٠ ـ ١٨٦).

(٢) المقدمة ص ١٤٧.

ما هم - يرى ولوعهم بأعداء الله وتقليدهم في كل شيء - إلا الجد في الأمور والحرص على الاستقلال والقوة - وما ذلك إلا لذل المسلمين واعتقادهم الكمال في غيرهم. حتى إنك لتسمع زعماء الشعوب الإسلامية إذا اختلفوا في أمر من الأمور قال أحدهم: هذا الأمر قد سبقتنا إليه الدول العظمى أو الدول المتحضرة ولكن هذا الأمر يعد طبيعياً ما دام المسلمون غير متمسكين بدينهم وما داموا قاعدين عن الجهاد في سبيل الله.

وقد أخبر به الرسول ﷺ قبل أربعة عشر قرناً من الزمان فجاء كما أخبر ﷺ، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم» قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟ وفي رواية من حديث أبي هريرة: «فقيل يا رسول الله كفارس والروم؟ قال: ومن الناس إلا أولئك»[1].

قال ابن حجر رحمه الله: (وأخرج ابن أبي خيثمة من طريق مكحول عن أنس) قيل يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر في بني إسرائيل، إذا ظهر الأدهان في خياركم، والفحش في شراركم، والملك في صغاركم، والفقه في رذالكم»[2].

ومعنى هذا أن تقليد الأعداء يلازم القعود عن الجهاد في سبيل الله، لأن قمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الجهاد في سبيل الله.

الفرع السادس
استحقاق المسلمين العذاب الأخروي لتفريطهم في هذه الفريضة التي كلفهم الله القيام بها

الذي يراجع الأدلة الواردة في وجوب الجهاد من الكتاب والسنة والإجماع التي أيدها القياس والواقع لا يبقى معه أدنى شك في أن فريضة الجهاد من ألزم

(١) البخاري رقم ٧٣١٩ فتح الباري (١٣ - ٣٠١) ومسلم (٤ - ٢٠٥٤).
(٢) فتح الباري (١٣ - ٣٠١).

الفرائض التي فرضها الله سبحانه وتعالى على عباده.

فقد ورد الأمر بقتل المشركين، كما قال تعالى: ﴿فإذا انسلخ الأشهرُ الحُرُمُ فاقتلوا المشركين حيثُ وجدتموهم، وخُذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مَرْصَدٍ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة فخلُّوا سبيلهم، إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾[١] وأمر بقتالهم فقال: ﴿قاتلوهم يُعَذِّبْهم الله بأيديكم ويُخْزِهْم ويَنْصُرْكم عليهم ويَشْفِ صدورَ قوم مؤمنين﴾[٢].

وقال: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسولُه، ولا يدينون دين الحق من الذين أُوتوا الكتاب حتى يُعْطوا الجِزْية عن يَدٍ وهم صاغرون﴾[٣].

وأنكر الله سبحانه التثاقل عن النفير والرضا بالحياة الدنيا من الآخرة وتوعد من قعد عن الجهاد بالعذاب الأليم وهو شامل لعذاب الدنيا والآخرة فقال: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انْفِروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض، أرضيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاعُ الحياة الدنيا في الآخرة إلاَّ قليلٌ * إلاّ تَنْفِروا يُعَذِّبْكم عذاباً أليماً، ويستبدلْ قوماً غيركَم، ولا تضرُّوه شيئاً، والله على كل شيء قدير﴾[٤].

وقال: ﴿انفروا خفافاً وثِقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون﴾[٥].

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» أخرجه أبو داود والنسائي، وفي أخرى للنسائي: «جاهدوا بأيديكم وألسنتكم وأموالكم»[٦].

---

(١) التوبة: ٥.
(٢) التوبة: ١٤.
(٣) التوبة: ٢٩.
(٤) التوبة: ٣٨ ـ ٣٩.
(٥) التوبة: ٤١.
(٦) جامع الأصول (٢ ـ ٥٦٤) وقال المحقق: أبو داود رقم (٢٥٠٤) في الجهاد باب كراهية ترك الغزو النسائي في الجهاد ٦ ـ ٧، باب وجوب الجهاد، وأخرجه الدارمي في سننه (٢ ـ ٢١٣).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق» أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي[١].

والذي يظهر أن قوله: ولم يغز المراد به القادر الذي تعين عليه، وقوله ولم يحدث به نفسه والمراد به غير القادر، أو القادر الذي لم يتعين عليه وتحديث نفسه بالنسبة لغير القادر أن يعزم أنه لو قدر لما تأخر والقادر أنه لو تعين عليه ما تأخر..

وعلى كل فهذه النصوص فيها الأمر بالجهاد في سبيل الله وقتال الأعداء وفيها الإنكار على من تثاقل عن داعي الجهاد في سبيل الله، وفيها تهديد ووعيد له، وفيها إثبات شعبة من النفاق لمن مات ولم يجاهد أو يحدث نفسه به وكلها واضحة في الوجوب والواجب إذا ترك أثم صاحبه كما هو معروف وهذا بالإضافة إلى إثم من لم يحاول المسلمون إنقاذه من الكفر فإنهم يتحملون إثماً بسببه[٢]. وهذا من أضرار القعود عن الجهاد في سبيل الله.

---

(١) جامع الأصول (٢ ـ ٥٦٦).
(٢) راجع حكم الجهاد في الفصل الأول من الباب الأول من هذا البحث.

المبحث الثالث

شقاء العالم كله وفقده العدل والسلام

وفيه أربعة فروع:

الفرع الأول : حرمان العالم من تبليغ الدعوة إلى الله.
الفرع الثاني : زهد العالم في هذا الدين لذل أهله.
الفرع الثالث : فقد العالم القيادة الهادية العادلة.
الفرع الرابع : بذل العالم جهوده وطاقاته فيما يعود عليه بالشقاء.

الفرع الأول
حرمان العالم من تبليغ الدعوة إلى الله

إن الذي يحول بين العالم الذي أنزل الله له هذا الكتاب وبعث إليه هذا الرسول، ورضي له هذا الدين يعد مجرماً وعدواً لله ولدينه وكتابه ورسوله ﷺ، لأنه يحرمه آنذاك من أغلى ما منحه الله سبحانه وتعالى إياه وهو الهدي الرباني الذي به سعادته في الدنيا والآخرة.

لكن الأمر يكون سهلاً عندما يقف من يصد الناس عن دين الله، فيجد قوة تسند هذا الدين وتدعو إليه وتجاهد في سبيله، حتى يسمع أهل الأرض أن هناك ديناً تدعو إليه أمة من البشر وتضحي بكل ما تملك في سبيل نشره من مال وجاه ومنصب ونفس. إنهم ـ أي أهل الأرض ـ سيتجهون إلى صوت الداعي يسمعون إلى ما يدعو إليه وينظرون إلى هذا الدين وهو يطبق في الأرض فيسمعون محاسنه بآذانهم ويرونها مطبقة فعلاً في أعمال الذين يدعون إليه فيهدي

الله من شاء من عباده فينضم إلى أهل هذا الدين عاملاً مجاهداً فيكثر أنصاره وينتشر في الأرض وهذا ما كان عليه الإسلام في عهد رسول الله ﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

أما أن يتصدى أعداء الإسلام لمضايقة من آمن بهذا الدين ويشوهون معانيه وينشرون أدياناً فاسدة ومذاهب ملحدة تخالف هذا الدين وتضاده، ثم يقعد المسلمون الذين كلفهم الله حمل أمانة الإسلام والعمل به والدعوة إليه والجهاد لإعلائه، فإنهم عندما يقعدون عن الجهاد في سبيل الله والحالة هذه يكونون أشد إجراماً وأعظم ظلماً للعالم، إذ يحرمونه من دين الله الذي يشقى بفقده في الدنيا والآخرة، وقد تعين عليهم أن يبلغوه إياه، لأنه لا توجد أمة في الأرض تستطيع أن تبلغ هذا الدين للعالم غير الأمة الإسلامية

والله سبحانه وتعالى قد قال لرسوله ﷺ: ﴿يا أيُّها الرسول بلِّغْ ما أُنزل إليك من ربِّك، وإن لم تَفْعَلْ فما بلَّغت رسالَته، والله يعصمُك من الناس، إنَّ الله لا يهدي القوم الكافرين﴾(١).

أي وإن لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك فإنك لم تقم بوظيفة الرسالة التي اصطفاك الله وخصك بها.

وأمره سبحانه أن يعلن لأمته أن سبيله هي الدعوة إلى الله على بصيرة هو وأتباعه، كما قال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتَّبعني، وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾(٢).

وكان ﷺ لشدة حرصه على فهم الناس تبليغه عن ربه يكرر عليهم مثل قوله: «ألا هل بلغت» ثلاثاً، وهم يجيبونه: ألا نعم، لا سيما إذا كان في جمع عظيم، قد يخفى على بعض الحاضرين شيء من كلامه، كما في حديث عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا أي شهر تعلمونه أعظم حرمة»؟ قالوا: ألا شهرنا هذا، قال: «ألا أي بلد تعلمونه أعظم حرمة»؟ قالوا: ألا بلدنا هذا، قال: «ألا أي يوم تعلمونه أعظم حرمة»؟

---

(١) المائدة: ٦٧.
(٢) يوسف: ١٠٨.

قالوا: ألا يومنا هذا، قال: «فإن الله تبارك وتعالى قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم - إلا بحقها - كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، ألا هل بلغت؟» (ثلاثاً) كل ذلك يجيبونه: ألا نعم قال: «ويحكم - أو ويلكم - لا ترجعُنَّ بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[١].

وإذا بلغ أصحابه ﷺ أمر حاضرهم أن يبلغ غائبهم، كما في حديث أبي بكرة في خطبته ﷺ يوم النحر - هو قريب من حديث ابن عمر السابق - وفيه: «ليبلغ الشاهد الغائب...» الحديث[٢].

وأمر ﷺ أمته أن يبلغوا عنه ما جاءهم به قل أو كثر عند أحدهم كما في حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عني بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[٣]

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله نقلاً عن المعافى النهرواني: (وقال في الحديث: ولو آية، أي واحدة ليسارع كل سامع إلى تبليغ ما وقع له من الآي ولو قل، ليتصل بذلك نقل جميع ما جاء به)[٤].

وإذا كانت أمة محمد ﷺ يشهدون - مع نبيهم - على الأمم السابقة أن أنبياءهم بلغوهم فهل تعذر هي في القعود عن تبليغ الناس هذا الدين؟ لا سيما وقد أمرها الله ورسوله بهذا التبليغ؟.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بنوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب فتسأل أمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول: من شهودك فيقول: محمد وأمته، فيجاء بكم فتشهدون. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً...

---

(١) البخاري رقم ٦٧٨٥، فتح الباري (١٢ - ٨٥).
(٢) البخاري، رقم ٦٧، فتح الباري (١ - ١٥٧) وراجع صحيح مسلم (٢ - ٩٨٨).
(٣) البخاري رقم ٣٤٦١، فتح الباري (٦ - ٤٩٦).
(٤) الفتح (٦ - ٤٩٨).

لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾»[1].

هذه الأمة التي اختارها الله لحمل هذا الدين وتبليغه إذا لم تقم بالجهاد في سبيل الله لا يتم تبليغها الناس. فإن التبليغ لهذا الدين ليس بالخطب والمواعظ وحدها، وإنما بها وبإخضاع الطواغيت للإسلام إما بإسلامهم وإما بدفعهم الجزية مع الصَّغار وترك الناس أحراراً يعتقدون ما يريدون دون استعباد ولا ظلم، وذلك لا يكون إلا بالجهاد في سبيل الله، لأن الطواغيت لا يتركون الدعوة إلى الله تسير في طريقها يسمعها من يشاء ويهتدي بها من شاء ويتركها من شاء، بل يصدون دعاة الإسلام ويصدون الناس عن سماع دعوتهم، فلا بد أن تظهر الدعوة للناس في أمة مهابة الجانب عندها قوة تحمي نفسها وتحمي من استجاب لها وتؤدب من اعتدى عليها أو صدها وإلا فإن العالم سيحرم من تبليغ هذه الدعوة والتمتع بهذا الدين بدون الجهاد في سبيل الله.

ولا يغرنك ما يوجد في بعض دول الكفر الغربية، كأوربا وأمريكا من فتح الباب للدعاة إلى أي دين يعظون ويرشدون دون أن تتعرض لهم الدولة بمكروه في هذا الزمن، فإن سبب سكوتها وعدم معارضتها ثقتها بهيمنة الكفر وأنظمته وقوانينه، وقلة الدعاة وضعف تأثيرهم في الناس، لأن المحيط الذي يدعون فيه قد كثرت فيه وسائل الصد عن سبيل الله من الشهوات والمغريات والسعي وراء المادة وعدم الاكتراث بشؤون الدين إلا من النزر اليسير الذي يعد كالشعرة البيضاء في الثور الأسود أو العكس.

ثم إن أسلوب الدعوة من أفراد لا دولة لهم ولا يتصدون لزعماء تلك البلاد بالدعوة إلى الإسلام أو أداء الجزية أو القتال كما كان ذلك أسلوب رسول الله ﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان هذه هي الدعوة الصحيحة والتبليغ الشرعي الذي حرمه العالم بسبب قعود المسلمين عن الجهاد في سبيل الله.

ويحسن هنا نقل هذه الصيحة من العالم الجليل أبي الحسن علي الحسني الندوي يذكر بها المسلمين إنقاذ آبائهم في الماضي العالم بالدعوة إلى الله والجهاد

---

(١) البخاري رقم ٧٣٤٩، فتح الباري (١٣ ـ ٣١٦). والآية من سورة البقرة ١٤٣.

في سبيله ويدعوهم إلى الاقتداء لإنقاذ العالم اليوم بتلك الدعوة وذلك الجهاد وإلا فإنه سيبقى في الشقاء والتعاسة لحرمانه من هذه الدعوة وذلك الجهاد. قال: (وقد وقف العالم في القرن السادس المسيحي على مفترق الطرق إما أن يتقدم العرب، ويعرضوا نفوسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما يعز عليهم للخطر، ويزهدوا في مطامع الدنيا، ويضحوا في سبيل المصلحة الاجتماعية بأنانيتهم فيسعد العالم وتستقيم البشرية، وتقوم سوق الجنة، وتروج بضاعة الإيمان، وإما أن يؤثروا شهواتهم ومطامعهم وحظوظهم الفردية على سعادة البشرية وصلاح العالم، فيبقى العالم في حمأ الضلال والشقاء إلى ما شاء الله، وقد أراد الله بالإنسانية خيراً، وتشجيع العرب بما نفخ فيهم محمد ﷺ من روح الإيمان والإيثار وحبب إليهم الدار الآخرة وثوابها. فقدموا أنفسهم فداء للإنسانية كلها، وزهدوا في مطامع الدنيا طمعاً في ثواب الله وسعادة النوع الإنساني، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وضحوا بكل ما يحرص عليه الناس من مطامع وشهوات وآمال وأحلام، وأخلصوا لله العمل والجهاد، فآتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين.

وقد استدار الزمان كهيئته يوم بعث الرسول، ووقف العالم على مفترق الطرق مرة ثانية، إما أن يتقدم العرب ـ وهم أمة الرسول وعشيرته ـ إلى الميدان ويغامروا بنفوسهم وإمكانياتهم ومطامحهم ويخاطروا فيما هم فيه من رخاء وثراء ودنيا واسعة وفرص متاحة للعيش وأسباب ميسورة، فينهض العالم من أساره وتتبدل الأرض غير الأرض، وإما أن يستمروا فيما هم فيه من طمع وطموح وتنافس في الوظائف والمرتبات وتفكر في كثرة الدخل والإيراد وزيادة غلة الأملاك وربح التجارات والحصول على أسباب الترف والتنعم فيبقى العالم في هذا المستنقع الذي يتردى فيه منذ قرون.

إن العالم لا يسعد وخيرة الشباب في العواصم العربية عاكفون على شهواتهم، تدور حياتهم حول المادة والمعدة، لا يفكرون في غيرهما ولا يترفعون عن الجهاد في سبيلهما، ولقد كان شباب بعض الأمم الجاهلية الذين ضحوا بمستقبلهم في سبيل المبادىء التي اعتنقوها أكبر منهم نفساً وأوسع منهم فكراً بل كان الشاعر الجاهلي: (امرؤ القيس) أعلى منهم همة، إذ قال:

ولو أنني أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

إن العالم لا يمكن أن يصل إلى السعادة إلا على قنطرة من جهاد ومتاعب يقدمها الشباب المسلم، إن الأرض لفي حاجة إلى سماد، وسماد أرض البشرية الذي تصلح به وتنبت زرع الإسلام الكريم هي الشهوات والمطامع الفردية التي يضحي بها الشباب العربي في سبيل علو الإسلام وبسط الأمن والسلام وانتقال الناس من الطريق المؤدية إلى جهنم إلى الطريق المؤدية إلى الجنة إنه لثمن قليل جداً لسلعة غالية جداً)(١).

ولعل الأستاذ الندوي كان قد تأمل عندما كتب هذه الجمل قول الله تعالى: ﴿وإذ يَعِدُكم الله إحدى الطائفتين أنَّها لكم، وتودُّون أنَّ غيرَ ذاتِ الشوكةِ تكون لكم، ويريدُ الله أن يحقَّ الحقَّ بكلماته ويقطعَ دابر الكافرين * ليحقَّ الحقَ ويُبْطلَ الباطلَ ولو كره المجرمون﴾(٢).

فإن المسلمين ضحوا بغير ذات الشوكة ـ عير أبي سفيان وغيرها من مطامع الدنيا ـ وضحوا بأنفسهم وأموالهم كما أراد الله لإحقاق الحق وإبطال الباطل. والمسلمون اليوم مدعوون للتضحية بغير ذات الشوكة من متع الحياة التي أخلدوا بها إلى الأرض وتركوا الجهاد في سبيل الله فحرموا البشرية تبليغ هذا الدين.

الفرع الثاني
زهد العالم في هذا الدين لذل أهله

قليل من الناس يصغون لدعوة الحق التي يحملها من لا قوة له ويسمعون حججها ويستجيبون لها، لأنها حق واضح الحجة، ومن هؤلاء تلك القلة التي استجابت للرسول ﷺ في أول الإسلام بمكة، كأبي بكر وعلي وبلال وخديجة وآل ياسر وعثمان بن عفان رضي الله عنهم، والذين يستجيبون للحق مع ضعف أهله وقوة أعدائه قوم رزقوا فطرة صافية تجعلهم كذلك، ثم لا يبالون ما وراء

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (ص ٣٠٣ ـ ٣٠٥).
(٢) الأنفال: ٧ ـ ٨.

تلك الاستجابة من متاعب وعقبات وإيذاء وفتنة، لأن الحق عندهم أعلى من أنفسهم وأموالهم وأكبر من كل شيء في هذه الحياة.

وكثير من الناس قد يظهر لهم أن هذه الدعوة حق، ولكن ضعف أهلها وقوة أعدائها تجعلهم يحجمون ويتريثون خوفاً على أنفسهم من بطش القوي المعارض وانتظاراً لصاحب الغلب في النهاية.

وكثير من الناس تظهر لهم دعوة الحق أنها حق ولكن كبرهم يصدهم عن الإقرار بها والاستجابة لها، لا سيما إذا رأوا أن أتباعها من الضعفاء الذين لا مال لهم ولا جاه ولا منصب زهداً منهم في دعوة ـ ولو كانت حقاً ـ أتباعها ضعاف غير أقوياء.

قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذيرٌ مبينٌ * ألاَّ تعبدوا إلا الله إنِّي أخاف عليكم عذابَ يومٍ أليمٍ * فقال الملأ الذين كفروا من قومه: ما نراك إلا بشراً مثلَنَا، وما نراك اتَّبعك إلاَّ الذين هم أراذِلُنا بادي الرأيِ، وما نرى لكم علينا من فَضْلٍ، بل نظنُّكم كاذبين * قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بيِّنة من ربِّي وآتاني رحمةً من عنده، فعُمِّيتْ عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون * ويا قومِ لا أسألكم عليه مالاً إنْ أجري إلاَّ على الله، وما أنا بطاردِ الذين آمنوا إنَّهم مُلاقُو ربِّهم ولكنِّي أراكم قوماً تجهلون * ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتُهم أفلا تذكَّرون * ولا أقول لكم عندي خزائنُ الله، ولا أعلم الغيبَ، ولا أقول إني ملك، ولا أقول للذين تزدري أعينُكم لن يؤتيهم الله خيراً، الله أعلم بما في أنفسهم إنِّي إذاً لمن الظالمين﴾[1].

فقد كفر الملأ من قوم نوح وأبدوا بعض الأسباب التي اقتضت كفرهم ـ في زعمهم ـ:

السبب الأول: أن نوحاً عليه السلام بشر مثلهم.
السبب الثاني: أن أتباعه هم ضعاف الناس وفقراؤهم.

---

(١) هود: ٢٥ ـ ٣١.

وما دام مدعي الرسالة بشراً، وليس بملك، وأتباعه هم مساكين الناس وفقراؤهم، فلا فضل لنوح ولا لأتباعه عليهم حتى يؤمنوا بدعوته، لذلك زهدوا في هذه الدعوة وأصروا على كفرهم.

ويجادلهم نوح بالحجة ليقنعهم بها فيقول: إن الحق هو ما قامت عليه الحجة والبينة لا فرق أن يأتي به بشر رزقه الله إياه أو ملك ولا فرق بين أن يتبع هذا الحق سادة الناس أو ضعفاؤهم.

والذي يظهر أن الملأ طلبوا من نوح أن يطرد هؤلاء الأراذل ـ في زعمهم ـ إن أراد أن يدعوهم إلى ما جاء به، لأنه لا يليق في ميزانهم أن يستوي أشراف الناس وضعفاؤهم في مبدأ واحد ودين واحد لذلك رفض نوح أن يطرد قوماً استجابوا للإسلام الذي جاء به، وإن احتقرتهم أعين الملأ الكافرين.

وقال تعالى عن مشركي العرب: ﴿ولما جاءهم الحق قالوا: هذا سحرٌ وإنّا به كافرون * وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم * أهمْ يقسِمون رحمةَ ربك، نحن قسمنا بينهم معيشتَهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضَهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ ليتخذَ بعضُهم بعضاً سِخْرِيّاً، ورحمةُ ربك خيرٌ مما يجمعون﴾[1].

فقد كفروا بالحق الذي جاء به محمد ﷺ ووصفوه بالسحر، ولكنهم قالوا: لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، يعنون لو كان قرآناً حقاً كان ينزل على ذوي المال والجاه من أهل القريتين: مكة والطائف، لأن هؤلاء في نظرهم هم الأولى بأن تكون الأمور العظيمة عندهم لأنهم عظام بسبب غناهم ورئاستهم في قومهم. أما نزوله على فقير غير زعيم فأمر مستبعد فهم زهدوا في القرآن للضعف المادي فيمن نزل عليه.

قال ابن كثير رحمه الله ـ بعد أن ذكر مقالتهم هذه ـ : (قال الله تبارك وتعالى راداً عليهم في هذا الاعتراض: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾: أي ليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلى الله عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه

(١) الزخرف: ٣٠ ـ ٣٢.

لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً وأشرفهم بيتاً وأطهرهم أصلاً)[١].

نعم ولكن أعداء الله يؤدبهم الحديد قبل الحجج والبراهين، لذلك قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن).

وقال سبحانه: ﴿ولا تَطْرِدِ الذين يَدْعون ربَّهم بالغَدَاة والعَشِيِّ يُريدون وَجْهَه، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء، فتطرُدَهم فتكونَ من الظالمين﴾[٢].

وهذه الآية نزلت رداً على قريش الذين أنكروا على الرسول ﷺ أن يدني منه من آمن به من الفقراء والضعفاء ـ ومنهم ابن مسعود رضي الله عنه ـ دونهم احتقاراً لهم[٣].

إن هؤلاء الذين زهدوا في الدعوة واحتقروا الرسول ﷺ الذي جاء بها واحتقروا أصحابه الفقراء الضعفاء في زعمهم كان لهم موقف آخر عندما قويت شوكة الإسلام، فبلال وابن مسعود كانا من سادة بدر ونظرة قريش والعرب للرسول ﷺ وأصحابه والدعوة التي جاء بها كانت مختلفة بعد أن انتصر الإسلام وفتحت مكة فقد دخلوا كلهم في دين الله وأصبحوا من أنصاره لأنهم رأوا ذلك الدين عزيزاً ورأوا أهله أعزة أقوياء يملأ القلوب رعباً هيبتهم وقوتهم.

وإن زهد العالم اليوم في هذا الدين هو من هذا القبيل حيث يسمع دعوة إلى العز والسؤدد والقوة والكمال في كل شيء، ولكنه ينظر إلى أهل هذه الدعوة فيجدهم بعيدين عن العزة، بل إن الأمم تستذلهم وتستضعفهم وتسيطر عليهم فيظن كثير منهم أن هذه دعوة خيال وليست دعوة حقيقية ولو كانت دعوة حقيقية فلماذا لا يطبقها أهلها ولماذا لا يكونون قادة للعالم بها؟ لذلك يزهدون فيها وفي أهلها. وهذا من أضرار القعود عن الجهاد في سبيل الله.

ولو أن أهلها تمسكوا بدينهم وجاهدوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله كما

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤ ـ ١٢٧).

(٢) الأنعام: ٥٢.

(٣) راجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢ ـ ١٣٤).

أراد الله وأروا الناس الذين مطبقاً في سلوكهم، لما زهدوا فيه هذا الزهد.

ويوم يجمع المسلمون بين الكتاب والحديد كما جمع الله بينهما سيزول زهد العالم في دينهم وسيدخلون فيه أفواجاً: ﴿لقد أرسلنا رسُلَنا بالبيِّناتِ وأنزلنا معهم الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناس بالقِسْط، وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناس، وليعلمَ الله من ينصره ورسُلَه بالغَيْب، إنَّ الله قويٌّ عزيزٌ﴾[1].

الفرع الثالث
فقد العالم القيادة الهادية العادلة

إذا قعد المسلمون عن الجهاد في سبيل الله فإنهم يفقدون بذلك الإمامة التي منحهم الله إياها، بإيمانهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وفقدهم هذه الإمامة ينزل بالعالم كله خسارة فادحة، لأن الإمامة الإسلامية إمامة هدى وعدل تسعد العالم كله وتنشر فيه العدل الذي قامت عليه السموات والأرض وتقوده إلى الخير وتوصله إلى رضا الله سبحانه، بخلاف قيادة الكفر فإنها قيادة ضلال وظلم تشقي بهما العالم كله.

قال أبو الحسن علي الحسني الندوي ـ مبيناً تأثير الإمامة الإسلامية في حياة العالم العامة. .

(إن هذا الرعيل من أتباع محمد ﷺ كان خليقاً بأن يسعد النوع الإنساني في ظله وتحت حكمه، وأن يسير بقيادته سديد الخطى، ورشيد الغاية مستقيم السير وأن يعمر ويطمئن العالم في دوره، وتخصب الأرض وتأخذ زخرفها، فإنهم كانوا خير القائمين على مصالحها حارسين لها، ولا ينظرون إلى هذه الحياة كقفص من حديد أوغل في عنق فيعادونه ويكسرونه، ولا ينظرون إليها كفرصة من لهو ونعيم ومتعة لا تعود أبداً، فينتهزونها ويبتبلونها، ولا يضيعون منها ساعة ولا يدخرون من طيباتها، وكذلك لا يعدونها عذاباً وعقوبة بجريمة فيتخلصون منها ولا ينظرون إلى الدنيا كمائدة ممدودة فيتهالكون عليها وإلى ما في الأرض من نعماء

---

(١) الحديد: ٢٥.

وخزائن وخيرات كأنها مال سائب يتقاتلون عليه وإلى الأمم الضعيفة كفريسة يتسابقون في اقتناصها.

بل يعدون هذه الحياة نعمة من الله هي أصل كل خير وسبب كل بر، يتقربون فيها إلى الله ويصلون إلى كمالهم الإنساني الذي قدر لهم، وفرصة من عملٍ وجهاد لا فرصة بعدها: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾[1] ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾[2].

ويعدون هذا العالم مملكة الله التي استخلفهم فيها ـ أولاً ـ من حيث أصل الإنسان الذي جعله خليفة في الأرض: ﴿إنِّي جاعلٌ في الأرض خليفة﴾[3] ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾[4] ﴿ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيِّبات وفضَّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾[5] ـ وثانياً ـ من حيث إنه إنسان أسلم لأمر الله وانقاد لحكمه، فاستخلفه في الأرض واسترعاه أهلها ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيستخلفنَّهم في الأرض كما استخلفَ الذين من قَبْلهم، وَلَيُمَكِنَنَّ لهم دينَهم الذي ارتضى لهم، وَلَيُبَدِّلَنَّهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يُشركون بي شيئاً﴾[6] ومنحهم حق التمتع بخيرات الأرض من غير إسراف وتبذير: ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾[7] ﴿كُلوا واشربوا ولا تُسرفوا، إنَّه لا يحب المسرفين﴾[8] ﴿قُلْ من حرَّم زينةَ الله التي أخرج لعباده والطيِّباتِ من الرزق، قُلْ هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة﴾[9].

وجعل لهم الولاية على أمم الأرض وجماعات البشر يراقبون سيرها ورغباتها فيرشدون الضال ويردون الغاوي ويصلحون الفاسد ويقيمون الأود ويرأبون الصدع، ويأخذون للضعيف من القوي وينتصفون للمظلوم من الظالم ويقيمون في الأرض القسط ويبسطون على العالم جناح الأمن ﴿كنتم خيرَ أمةٍ

(١) الملك: ٢.
(٢) الكهف: ٧.
(٣) البقرة: ٣٠.
(٤) البقرة: ٢٩.
(٥) الإسراء: ٧٠.
(٦) النور: ٥٥.
(٧) البقرة: ٢٩.
(٨) الأعراف: ٣١.
(٩) الأعراف: ٣٢.

أُخرِجتْ للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهَون عن المنكر، وتُؤمنون بالله﴾[١] ﴿يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوَّامين بالقِسْط شُهَداءَ لله﴾[٢].

هذه الولاية التي جعلها الله لهم على أمم الأرض وجماعات البشر لهدايتها من الضلالة ونشر العدل والأمن عليها يفقدها العالم بقعود هذه الأمة عن الجهاد في سبيل الله، وفقدها من أعظم الأضرار والخسران على هذا العالم. لأن هذه القيادة إذا فقدها المسلمون الهداة العدول تولاها الكافرون المضلون الظلمة.

الفرع الرابع
بذل العالم جهوده وطاقاته فيما يعود عليه بالشقاء

إن القعود عن الجهاد في سبيل الله يفلت به زمام البشرية فيختل نظامها وتسيطر عليها الفوضى، لأنها تصبح بدون راع ـ وإن كثر من يدعون رعايتها ـ فيكثر الصراع بين الدول والشعوب والجماعات والأسر والأفراد، حتى يصبح هو القاعدة في الأرض والاتفاق يكون أمراً استثنائياً شاذاً.

صراع لنشر العقائد الكافرة والفاسدة دول الإلحاد وشعوبه ومفكروه وفلاسفته يبذلون كل جهودهم لنشره وتوضيح مزاياه والاقناع به وإقامة الحجج الزجاجية عليه، تؤلف في هذا الإلحاد الكتب وينفق على طبعها وتوزيعها الملايين من الأموال، ولا يبالون بمخالفته الفطر والبراهين.

والدول النصرانية يبذلون كل طاقاتهم لدعم عقيدة التثليث ويشيدون المدارس والكنائس والملاجيء والجامعات والمراكز الثقافية ويعدون رجال الدعوة إليه والتبشير به من ذوي الكفاءات العالية في العلوم المختلفة من طب وهندسة وغيرهما ليكونوا سبباً في نفاق هذه العقيدة الفاسدة المخالفة للفطر، ويدعم كل ذلك كثرة الأموال والمعونات والمنح الدراسية والأساليب السياسية وغيرها.

والدول الوثنية تبذل كذلك وسعها وطاقاتها في الحفاظ على وثنيتها ونشرها

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) النساء: ١٣٥، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٣١ ـ ١٣٢.

وسيطرتها في بلادها على الأقل سواء كانت هندوكية أو بوذية أو غيرهما وهكذا أهل العقائد الباطنية الذين قد ينتسبون إلى الإسلام لا يألون جهداً في تقوية باطنيتهم وسيطرتها على ما سواها..

وصراع سياسي هـذا ملكي، وذاك جمهوري، هـذا ديمقراطي وذاك استبدادي ديكتاتوري، هذا محافظ يميني وذاك عمالي يساري وصراع اقتصادي: شيوعي متطرف وشيوعي معتدل، واشتراكية علمية واشتراكية عربية، ورأسمالية.

وصراع عسكري بين الدول الكبرى ـ كما تسمى ـ كل دولة تدعي أن الأخرى بالغت في تطوير سلاحها ورفعت ميزانيته، حتى أصبحت البشرية تنتظر الدمار ببراكين تلك الأسلحة المدمرة وصواعقها بين لحظة وأخرى أما الدول الصغيرة فإنها كذلك في صراع مع بعضها، بل إن الشعوب في صراع دائم وحروب لا تنقطع وانقلابات متتالية، كلما قوي حزب ضرب عدوه وكلما قويت جماعة أطاحت بأختها وهكذا..

وصراع تعليمي وثقافي كل دولة تبذل جهدها في نشر ثقافتها ومناهج تعليمها التي تخدم مصالحها تنشر عقائدها وأفكارها وتقام لذلك مدارس ومراكز ثقافية وجامعات كل منها تصارع الأخرى.

وصراع على غزو الفضاء تنفق فيه الأموال التي لو أنفقت على فقراء الأرض لأصبحوا أغنياء.

ثم إن هناك اتفاقات خفية بين المعسكرات المادية الكبيرة على الاستيلاء على العالم ونهب خيراته توضع لها خطط ومناهج تنفق عليها الأموال الطائلة لإبرازها في صفة الخلاف والنزاع واحتجاج كل معسكر على الآخر. هذه الدولة ـ كروسيا مثلاً ـ تحتل إحدى دول العالم بالقوة العسكرية، وتلك الدولة ـ كأمريكا مثلاً ـ تحتج وتهدد وتعاقب بقطع بعض المساعدات المالية.

وتلك الدولة ـ كأمريكا مثلاً ـ تظهر حرصها الشديد على مصالح الدول الموالية لها وخوفها من الاعتداء عليها من دولة أخرى ـ كروسيا ـ فتجتهد في

الحصول على قواعد عسكرية جوية أو برية أو بحرية بطريقة سلمية، والدولة الأخرى تحتج على ذلك كما احتجت هذه على احتلال تلك. وهو اتفاق ماكر خبيث للاستيلاء على العالم والسيطرة عليه ولكنه اتفاق يأخذ شكل الصراع الذي تبذل فيه جهود وطاقات وهذه الصراعات الكثيرة تستهلك طاقات العالم وجهوده وتعود عليه بالشقاء والخسران. وقد بلغ الصراع قمته في هذا العصر ولا يعلم إلا الله مدى الشقاء والخسران الذي سيكون في آخر الأمر، وإن كان العقلاء قد ظهر لهم منه الشيء الكثير.

والسبب في ذلك غيبة الجهاد في سبيل الله الذي شرع لإعلاء كلمة الله وإقرار منهجه في الأرض وحمايته وحمل الناس عليه وإسقاط جميع المناهج البشرية التي تخالفه، لأنه هو المنهج الوحيد الذي يضمن إسعاد البشرية وإيجاد السبل التي تجعلهم يعيشون في ظل ذلك المنهج على الإيثار والوحدة والإخاء والعدل وإعطاء كل ذي حق حقه ورحمة القوي الضعيف والبعد عن الغش والظلم والطغيان والحيل والخداع، ثم القيام بنصر المظلوم ومعاقبة الظالم لا فرق بين مسلم وكافر في ذلك، لأن العدل حق للجميع والظلم حرام على الجميع. وهذه المعاني هي التي تقضي على الصراع المستفحل الذي عم الأرض كلها اليوم لأنها تنفذ فيها المناهج البشرية والأهواء والرغبات[١].

هذا وليعلم أن جميع الأضرار التي تنشأ من القعود عن الجهاد في سبيل الله ما ذكر منها ـ هنا وما لم يذكر ـ قد شملتها كلمة واحدة في كتاب الله، وهي (الفتنة) التي شرع الجهاد من أجل دفعها ومطاردتها في الأرض، كما إن جميع الثمرات الطيبة التي تنشأ من إقامة الجهاد في الأرض في جملة واحدة، وهما معاً في قوله سبحانه: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدين لله﴾[٢]. وكذلك قوله: ﴿والفتنةُ أشدُّ من القتل﴾[٣] وقوله: ﴿والفتنة أكبرُ من القتل﴾[٤].

---

(١) يمكن مراجعة كتاب: الإسلام ومشكلات الحضارة لسيد قطب الذي نقل فيه شهادة بعض كبار علماء الغرب وفلاسفتهم على إفلاس الحضارة المادية في سعادة الإنسان، بل على تدميرها هذا الإنسان لعدم معرفتها طبيعته حتى توجد حلاً لمشكلاته.

(٢) البقرة: ١٩٣.

(٣) البقرة: ٩١.

(٤) البقرة: ٢١٧.

فقعود المسلمين عن الجهاد في سبيل الله سبب في فقد الثمار الطيبة وفي وجود الأضرار المحيطة بالعالم.

فكم ترى يكلف المسلمين قعودهم عن الجهاد من تكاليف ومشقات وكم تخسر البشرية بسبب ذلك[1].

﴿كتب عليكم القتالُ وهو كُرْهٌ لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، وعسى أن تحبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[2].

(١) راجع كتاب في ظلال القرآن (٨ ـ ١٣١٩).
(٢) البقرة: ٢١٦.

الخاتمة

وفيها مبحثان:

المبحث الأول : تلخيص نتائج البحث.
المبحث الثاني : الواقع المر والأمل الأغر.

المبحث الأول

تلخيص نتائج البحث

يتبين لقارىء هذا البحث أن هذا الدين أشد ضرورة للعالم كله من ضرورات الطعام والشراب والهواء التي لا حياة بدونها، لأن فقد هذه الضرورات غاية ما يصيب فاقدها من ضرر أن يموت، والموت حتم لا مفر منه وإن تعددت أسبابه، أما هذا الدين فإن فاقده ينزل به الشقاء في الدنيا والآخرة: ﴿والعَصْرِ * إنَّ الإنسان لفي خُسْر * إلَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصَوا بالحق وتواصَوا بالصبر﴾[1]، ولأن هذا الدين هو الدين العالمي الحق الذي لم يبق في الأرض حق سواه وهو آخر الأديان الذي لا ينتظر بعده دين ولا نزول وحي ولا بعث رسول: ﴿ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم، ولكن رسولَ الله وخاتمَ النبيِّين﴾[2] ﴿تبارك الذي نزَّل الفرقانَ على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾[3] ﴿ومن يَبْتَغِ غيرَ الإسلام ديناً فلن يُقْبَلَ منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[4].

وتبين كذلك أنه لا قيام لهذا الدين إلا بالجهاد في سبيل الله فالجهاد في سبيل الله، كذلك ضرورة للعالم كضرورة هذا الدين.

ومن هنا يظهر فضل الجهاد في سبيل الله وكونه رحمة للعالمين كالإسلام وأن الجهاد في سبيل الله يشمل نشاط الإسلام كله، فلا يخلو وقت المسلم كله من مشروعية الجهاد في سبيل الله إما واجباً عينياً وإما كفائياً وإما مسنوناً ـ على ما

---

(١) العصر.
(٢) الأحزاب: ٤٠.
(٣) الفرقان: ١.
(٤) آل عمران: ٨٥.

اختير من تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ـ[1] وإن الجهاد بمفهومه الخاص ـ وهو قتال الكفار ـ يقوم على إعداد المجاهدين والمال والسلاح واستغلال جميع الطاقات المتاحة ولا يتحقق إلا لمن جاهد نفسه في ذات الله عز وجل.

ويظهر من البحث أن للجهاد بواعث تدفع المؤمنين للقيام به ولا تقوم سوقه وتربح تجارته إلا بتلك البواعث، كما أن له معوقات تثبط عنه من تمكنت منه.

وأن للمجاهدين ـ قادة وجنوداً، أفراداً وجيشاً مجتمعاً ـ صفات لا بد من توافرها فيهم للقيام بالجهاد في سبيل الله.

وأن للنصر أسباباً أناطه الله بها يجب على المجاهدين أن يسعوا لتحقيقها وأن للهزيمة ـ كذلك ـ أسباباً علقها الله بها يجب على المجاهدين أن يبتعدوا عنها.

ويظهر ـ كذلك ـ أن للجهاد في سبيل الله غاية عليا تشمل كل الغايات المتفرعة عنها، وتلك الغاية العليا هي إعلاء كلمة الله في الكون، وبها تتحقق كل الأهداف الفرعية للجهاد في سبيل الله من دفع العدوان ونشر العدل والسلام في العالم وغيرها.

وأن الله سبحانه اقتضت حكمته أن يبتلي عباده بالجهاد في سبيل الله فيمحص المؤمنين الصادقين الذين يفوزون بتقواه ورضاه ونصره وبالانتقال السريع إلى الحياة الأبدية حياة الشهداء الذين يختارهم الله ويصطفيهم لها من بين خلقه. ويكشف سبحانه بالجهاد في سبيله المنافقين الذين يندسون في صفوف المؤمنين للمكر والكيد والخداع والتثبيط عن طاعته.

ويبدو كذلك من البحث أن المسلمين ابتعدوا كثيراً عن دين الله حتى فقدوا روح الجهاد والتضحية بالنفس والمال في سبيل الله وأنه لا بد من إعادة هذه الروح إليهم بغرس الإيمان في قلوبهم وبث العزة في نفوسهم، وبناء نخبة منهم قوية تتحمل أعباء هذا الدين ومشقات الجهاد في سبيل الله، وإبعاد المسلمين عن الترف والاسترخاء المهلكين.

(١) راجع تعريف الجهاد في أول الكتاب.

وإن ابتعاد المسلمين عن دينهم كان سبباً في تفرقهم فلا بد من السعي المتواصل لجمع كلمتهم بتعميق معنى الولاء والبراء في نفوسهم وإعادة الخلافة الإسلامية المفقودة التي هي قمة وحدتهم، بل لا وحدة لهم بدونها.

ويتبين ـ كذلك ـ أن للجهاد في سبيل الله ثمراته الطيبة العظيمة التي يعم نفعها المسلمين بتوحيد صفوفهم وتسديد خطاهم وحرصهم على حماية دينهم الذي لم يقم إلا بتضحيات منهم وكفاح، وإعزازهم وتبوئهم منصب قيادة البشرية الذي وعدها الله إياه: ﴿كنتم خيرَ أمة أُخرجتْ للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهَون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾[1] كما يعم العالم أجمع بإبلاغ الدعوة إليه ودخوله في دين الله أفواجاً بعد أن يحقق الله لأهله النصر والتأييد والغلبة وبذلك تتحقق للناس السعادة الكاملة بإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وبنشر العدل والسلام في الأرض.

وللقعود عن الجهاد في سبيل الله أضرار خطيرة على المسلمين وعلى العالم كله، إذ تعلو بذلك كلمة الكفر ويهيمن قادة الكفر على الأرض، ويذل المسلمون ويستضعفون ويفتنون في دينهم ويفقدون حريتهم وعزتهم، ويشقى العالم كله بحرمانه تبليغ هذا الدين قولاً وعملاً وهو قوي الجانب مهاب، ويفقده القيادة الهادية العادلة.

وهذا هو واقع المسلمين والعالم اليوم، وهو يقتضي إثم كل مسلم على وجه الأرض لا يقوم بالجهاد في سبيل الله وهو قادر عليه، لعدم قيام طائفة أو طوائف به قياماً كافياً يعلي كلمة الله ويذل كلمة الكفر.

---

(١) آل عمران: ١١٠.

المبحث الثاني

الواقع المر والأمل الأغر

إن الواقع الذي يعيشه العالم اليوم واقع مر مدمر، واقع علت فيه كلمة الكفر وهيمن فيه أعداء الله على الأرض وعاثوا في الأرض فساداً بنشر العقائد الفاسدة ودعمها والترويج للأعمال القبيحة والأخلاق الضارة والتمكين للشهوات ونشر الظلم والقلق بالحروب المدمرة وغيرها.

ومحاربة كلمة الله ودينه وأوامره ونواهيه ونصب العداء لدعاة الخير والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وصد الناس عن هذا الدين بكل وسيلة متاحة: الترغيب والترهيب، ومناهج التعليم والإعلام ورسم السياسات المحلية والدولية: السياسة الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والقانونية.

إنه واقع مر مدمر أفسد الحياة وأنزل بالعالم البؤس والشقاء حتى أصبحت الأرض على سعتها سجناً ضاق بأهله من ذوي الإجرام والظلم ومن المظلومين المعتدى عليهم وعلى حقوقهم كلها.

قال محمد قطب: (لم تدع الجاهلية الحديثة شيئاً في عالم التصور بلا فساد، فلقد أفسدت كل تصورات الإنسان وارتباطاته بالله والكون والحياة والإنسان، هناك انحراف رئيسي في تصور الحقيقة الإلهية وعلاقة الإنسان بالله، وانحراف في تصور الكون وعلاقته بالله وعلاقة الإنسان به وعلاقته بالإنسان، وانحراف في تصور الحياة وارتباطاتها وأهدافها وانحراف في تصور النفس البشرية وارتباطات الإنسان بالإنسان فرداً وجماعة وجنسين. وباختصار: انحراف يشمل كل حياة الإنسان)[1].

---

(١) جاهلية القرن العشرين ٦٣.

وقال في موضع آخر: (ماذا بقي في هذه الجاهلية بلا انحراف لقد تتبعناها في كل مجال من مجالاتها في النفس والمجتمع، في السياسة والاقتصاد والاجتماع، في الأخلاق والفن، في التصور والسلوك. فهل أبقت شيئاً من حياة الإنسان لم يتطرق له الفساد؟)[١].

والذي يعيش في هذا العصر ليس في حاجة إلى من يصف له واقع البشرية المر اليوم لأنه يراه رأي العين: (وما راءٍ كمن سمع).

ولكن هذا الواقع المر المدمر على الرغم من قوته وتوافر أسباب سيطرته المادية وبقائه في الأرض لا بد أن يزول، لأنه باطل والباطل إلى زوال لا محالة.

والذي سيزيل هذا الباطل هو الحق الذي يريد الله إحقاقه بجنده المؤمنين، وما أراده الله فلا بد أن يكون ـ مهما طال الزمن في نظر الخلق ـ ﴿وإذ يَعِدُكم اللهُ إحدى الطائفتين أنَّها لكم، وتودُّون أنَّ غيرَ ذات الشوكة تكون لكم، ويريد الله أن يحقَّ الحقَّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليحقَّ الحقَّ ويبطلَ الباطلَ ولو كره المجرمون﴾[٢]. ﴿بل نَقْذِفُ بالحقِّ على الباطل فيدمَغُه فإذا هو زاهقٌ، ولكم الويلُ مما تصفون﴾[٣].

وإن بشريات إبطال الباطل وإزهاقه ودفعه، وإحقاق الحق وإعلائه في الأرض لماثلة أمام أعين ذوي البصائر من جهات كثيرة:

من جهة أن الباطل بكل أساليبه ومذاهبه ومؤيديه قد أخذ يولي الزحف من كل ميدان بعد لمعانه واغترار الناس به برهة من الزمن، بعد أن كشف زيفه وظهرت آثاره المدمرة في العالم كله، ولم يبق إلا بحراسة القوة له: قوة التخطيط والتنفيذ وقوة الساعد والسلاح. ومن جهة أخرى فإن الحق الذي يرى أعزل أخذ ينتشر في أنحاء الأرض بجهود فردية ضعيفة وأخذ يدخل إلى قلوب من يسمون علماء ومفكرين وبدأ العالم يتطلع إلى منقذ غير مذاهب الباطل التي

---

(١) نفس المرجع ص ٢٣٥.
(٢) الأنفال: ٧ ـ ٨.
(٣) الأنبياء: ١٨.

أصبحت وصمة عار في جبين البشرية، فمنهم من يبحث عن المنقذ دون أن يضع يده على المنقذ الحق وهو الإسلام، وإنما يصفه بأوصاف لا توجد إلا في الإسلام.

تأمل قول ألكسيس كاريل، وهو يصف الحضارة المادية الحديثة (التي سماها محمد قطب: جاهلية القرن العشرين) بأنها غير صالحة للإنسان: (إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب، لأنها لا تلائمنا، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ إنها ولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا..)، ويرى أنه لا بد من قلب الحضارة الصناعية وظهور فكرة أخرى للتقدم البشرى، فيقول: (إنه كذلك كتب لأولئك الذين يجدون من أنفسهم شجاعة كافية ليدركوا - ليس فقط ضرورة إحداث تغييرات عقلية وسياسية واجتماعية - بل أيضاً ضرورة قلب الحضارة الصناعية وظهور فكرة أخرى للتقدم البشري)[1].

إذا كانت الحضارة العصرية غير صالحة للبشر الذي أنشأها - كما قال ألكسيس كاريل - بمجهوداته، وإذا كان لا بد من قلب هذه الحضارة الصناعية وظهور فكرة جديدة للتقدم البشري فأي فكرة تقدر على قلب هذه الحضارة ومنح العالم التقدم البشري غير الإسلام الذي منحه الله هذا العالم من أربعة عشر قرناً.

ومنهم من يبحث عن المنقذ فيهتدي في بحثه إلى المنقذ والحق ويستضيء بنوره وينادي العالم بأعلى صوته أنه وجد السبيل الذي لا سبيل غيره لهداية الإنسان وإنقاذه من الشقاء الذي يعيش فيه، قال محمد أسد: (نحن نعد الإسلام أسمى من سائر النظم المدنية، لأنه يشمل الحياة بأسرها: إنه يهتم اهتماماً واحداً بالدنيا والآخرة، وبالنفس والجسد، وبالفرد والمجتمع، إنه لا يهتم فقط لما في الطبيعة الإنسانية من وجود الإمكان إلى السمو بل يهتم، أيضاً لما

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة لسيد قطب ص ١٠٧ - ١١٣.

فيها من قيود طبيعية، إنه لا يحملنا على طلب المحال ولكنه يهدينا إلى أن نستفيد أحسن الاستفادة مما فينا من استعداد وإلى أن نصل إلى مستوى أسمى من الحقيقة، حيث لا شقاق ولا عداء بين الرأي وبين العمل، إنه ليس سبيلاً من السبل ولكنه السبيل. وإن الرجل الذي جاء بهذه التعاليم ليس هادياً من الهداة، ولكنه الهادي، فاتباعه في كل ما فعل وما أمر اتباع للإسلام عينه، وأما اطراح سنته فهو اطراح لحقيقة الإسلام)[1].

ومن جهة ثالثة ما بدا في الأفق من شعاع يقظة شباب الإسلام وعودتهم إلى هذا الدين وشغفهم به وتحمسهم له على الرغم من التيارات التي تحاول أن تجرفهم في اتجاه معاكس لاتجاههم، وكثير من الشباب العائد إلى الله من مؤسسات لا تهتم بالإسلام، بل كثير من روادها ومفكريها يعادونه ويقفون ضد دعاته ولكن قوة الإسلام أعظم من كل السدود والعقبات التي تقف في طريقه.

لذلك ترى طغاة الأرض يجهدون أنفسهم في تعذيب دعاة الإسلام وشبابه وسجنهم واعتقالهم وقتلهم ويجندون لذلك طاقات الشعوب الإسلامية بشرية ومالية وغيرها ولكن أفواج الحق سائرة لا تقف ولا تني، بل أصبحت تهدد عروش الكفر بالزوال.

وإن مما يبشر بخير لمستقبل هذا الدين وقوف الشعوب الإسلامية الصغيرة الفقيرة العزلاء من القوى المادية في وجه الدول المسماة بالدول الكبرى كما هو حال الشعب الأفغاني ضد القوات الروسية الحمقاء.

وما من شعب من الشعوب الإسلامية إلا وجدت فيه نواة لتحطيم عروش الطغيان والكفر وإقامة دين الله فيه، وهي تقوى وتزداد على مر الأيام، وإن بدا لأعداء الله عكس ذلك، فهو من تقليل الله لأوليائه في أعين أعدائه لأمر يقضيه سبحانه وتعالى، كما هي سنته: ﴿وإذ يُريكُموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً، ويُقلِّلكم في أعينهم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وإلى الله تُرجع الأمور﴾[2].

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ١٠٢ ـ الناشر مكتبة المنار بالكويت.
(٢) الأنفال: ٤٤.

وسيأتي اليوم الذي يكثرهم الله في أعين أولئك الأعداء ويؤيدهم بنصره عليهم: ﴿قد كان لكم آيةٌ في فئتَيْن التقتا، فئةٌ تُقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونَهم مثلَيْهم رأيَ العين، والله يؤيِّد بنصره من يشاء، إنَّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار﴾[1].

إن هذه الأمور: كون الباطل إلى زوال والحق إلى انتصار وثبات، ووجود يقظة المسلمين وعودتهم إلى دينهم ووقوف أنصار الحق في وجه طغاة الباطل، إنها كلها تبشر بخير وتشير إلى الأمل المنشود الأغر وتذهب اليأس من قلوب المؤمنين، وسيكون المستقبل لهذا الدين بإذن الله وإن كان ذلك يقتضي استعداداً شاقاً وكفاحاً مريراً من أهل هذا الدين.

قال سيد قطب رحمه الله: (إلا أن هذه الحرب المشبوبة على الإسلام لا تفقدنا الثقة المطلقة في أن المستقبل لهذا الدين، لقد صمد الإسلام في حياته المديدة لما هو أعنف وأقسى من هذه الضربات الوحشية التي توجه اليوم إلى طلائع البعث الإسلامي في كل مكان، وكافح ـ وهو مجرد من كل قوة غير قوته الذاتية ـ وانتصر وبقي وأبقى على شخصية الجماعات التي كان يحميها وهو مجرد من السلاح). وبعد أن ضرب سيد قطب رحمه الله أمثلة لكفاح الإسلام وصموده في وجه المعتدين في كل زمان، قال: (لقد كافح الإسلام وهو أعزل لأن عنصر القوة كامن في طبيعته كامن في بساطته ووضوحه وشموله وملاءمته للفطرة البشرية وتلبيته لحاجاته الحقيقية، كامن في الاستعلاء عن العبودية للعباد بالعبودية لله رب العباد وفي رفض التلقي إلا منه ورفض الخضوع إلا له من دون العالمين، كامن كذلك في الاستعلاء بأهله على الملابسات العارضة كالوقوع تحت سلطان المتسلطين، فهذا السلطان يظل خارج نطاق الضمير مهما اشتدت وطأته، ومن ثم لا تقع الهزيمة الروحية طالما عمر الإسلام القلب والضمير وإن

---

(١) آل عمران: ١٣. ولقد أخبرني بعض علماء مجاهدي أفغانستان أن سبعة من المجاهدين هزموا أربعمائة من جنود الشيوعيين في إحدى المواقع وهم مدججون بالسلاح الثقيل والخفيف، وقتلوا منهم عدداً كبيراً وأجبروهم على نقل سلاحهم لهم وقتلوا من علموا أنه شيوعي من الأسرى وانضم الباقون إليهم وعندما سئل بعضهم كيف انهزمتم أمام سبعة وعددكم أربعمائة أجاب لقد كنا نرى في الجبل ما يقارب سبعة آلاف عمامة، مما أدخل الرعب في قلوبنا.

وقعت الهزيمة الظاهرية في بعض الأحايين)[١].

وما دام سلطان المتسلطين لا يصل إلى القلب والضمير مهما اشتدت وطأته فإن ما يصيب المسلمين اليوم في داخل شعوبهم من طغاة الحكم بغير ما أنزل الله، أو ما يصيب الشعوب الإسلامية من دول الكفر الملحدة أو النصرانية، أو اليهودية أو الوثنية، إن ما يصيبهم من عدوان وتسلط وجبروت لا يزيدهم إلا صموداً واستعداداً للمعركة الفاصلة بين الكفر والإيمان التي سيفرق الله بها بين الحق والباطل ويحق بها الحق ويبطل الباطل ولو كره الكافرون.

فليثق دعاة الإسلام في موعود ربهم وليتجردوا له في أعمالهم وليرابطوا في محراب طاعته وطاعة رسولهﷺ، وليعدوا الْعُـدَّة التي يستطيعون إعدادها لإرهاب عدوهم وليصبروا على المحنة كما صبر من قبلهم من الأنبياء والرسل والدعاة إلى الله وليحملوا راية الجهاد في سبيل الله ولينتظروا تأييد الله ونصره لهم وإنزال العذاب والنكال بعدوهم بأيديهم ولا يجوز أن يدخل إبطاء النصر عنهم اليأس في قلوبهم، بل يجب أن يعودوا إلى أنفسهم ليعرفوا أسباب ذلك الإبطاء فيها، فإذا عرفوا ذلك وقضوا على تلك الأسباب في أنفسهم جاءهم نصر الله لا محالة.

﴿يا أيُّها الذين آمنوا إن تَنْصُروا الله يَنْصُرْكُم ويثبِّتْ أقدامَكم * والذين كفروا فَتَعْساً لهم وأضلَّ أعمالَهم﴾[٢].

(١) المستقبل لهذا الدين ص ١١٠ - ١١٣.
(٢) محمد: ٧ - ٨.

المـــــراجع

حسب بدايات الحروف

١ ـ **ابن تيمية حياته وعصره**، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.
٢ ـ **آثار الحرب في الفقه الإسلامي**، وهبة الزحيلي، دار الفكر، بيروت الطبعة الثانية.
٣ ـ **أجنحة المكر الثلاثة**، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم.
٤ ـ **الأحكام السلطانية**، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
٥ ـ **إحياء علوم الدين**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.
٦ ـ **أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية**، حامد سلطان، دار النهضة العربية، القاهرة.
٧ ـ **أحكام القرآن**، أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، دار الكتاب العربي، بيروت.
٨ ـ **إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام بحاشية العدة**، محمد بن علي المشهور بابن دقيق العيد، المطبعة السلفية لمحب الدين الخطيب بمصر.
٩ ـ **إرادة القتال**، محمود شيث خطاب.
١٠ ـ **الإسلام اليوم**، أبو الأعلى المودودي، مطبوعات الجماعة الإسلامية في باكستان.
١١ ـ **الإسلام ومشكلات الحضارة**، سيد قطب.
١٢ ـ **الإسلام على مفترق الطرق**، محمد أسد، مكتبة المنار بالكويت.
١٣ ـ **الإسلام والاستبداد السياسي**، محمد الغزالي.
١٤ ـ **الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية**، أبو الأعلى المودودي، دار الفكر، دمشق.
١٥ ـ **الإسلام والخلافة في العصر الحديث**، محمد ضياء الدين الريس.
١٦ ـ **الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه**، عبد القادر عودة.
١٧ ـ **أساس البلاغة**، الزمخشري.

١٨ ـ الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن حجر العسقلاني، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
١٩ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، مطبعة المدني بالقاهرة.
٢٠ ـ الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، عمر بن علي البزار، المكتب الإسلامي.
٢١ ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم الجوزية، مصطفى البابي الحلبي وشركاه بمصر.
٢٢ ـ اقتصاديات العالم الإسلامي، محمود شاكر، مؤسسة الرسالة.
٢٣ ـ الله أو الدمار، سعد جمعة، دار الكاتب العربي.
٢٤ ـ الإمام أبو الأعلى المودودي حياته ودعوته وجهاده، خليل الحامدي، المكتبة العلمية ـ لاهور.
٢٥ ـ الأمير، مكيافللي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع.
٢٦ ـ أيام من حياتي، زينب الغزالي، دار الشروق.
٢٧ ـ الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين، دار الإرشاد بيروت.
٢٨ ـ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبو بكر بن مسعود الكاساني مطبعة الإمام بالقاهرة.
٢٩ ـ البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، مطبعة كردستان العلمية، ومطبعة السعادة بمصر.
٣٠ ـ بداية المجتهد ونهاية المقتصد، محمد بن أحمد بن رشيد القرطبي، مكتبة الكليات الأزهرية.
٣١ ـ بذل المجهود في حل أبي داود، خليل أحمد السهارنفوري، توزيع الشؤون الدينية في أبو ظبي.
٣٢ ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.
٣٣ ـ بين الدعوة القومية والرابطة الإسلامية، أبو الأعلى المودودي، دار العربية بيروت.
٣٤ ـ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية.
٣٥ ـ تاج العروس، الزبيدي.
٣٦ ـ التبشير والاستعمار، مصطفى خالدي وعمر فروخ، الطبعة الرابعة.

٣٧ ـ تحفة الأحوذي على جامع الترمذي، المباركفوري، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
٣٨ ـ تذكرة دعاة الإسلام، أبو الأعلى المودودي، الطبعة الباكستانية.
٣٩ ـ التشريع الجنائي الإسلامي، عبد القادر عودة، مطبعة المدني ـ القاهرة ط ٢.
٤٠ ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، المطبعة السلفية ومكتبتها بمصر.
٤١ ـ تفسير أبي السعود، أبو السعود بن محمد العمادي الحنفي، مكتبة الرياض الحديثة ـ الرياض.
٤٢ ـ تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، عيسى البابي الحلبي وشركاه.
٤٣ ـ التفسير الكبير، الفخر الرازي، دار الكتب العلمية الطبعة الثانية طهران.
٤٤ ـ تفسير المنار، السيد محمد رشيد رضا، مكتبة القاهرة.
٤٥ ـ تكملة المجموع، محمد حسين العقبي، مطبعة الإمام ـ القاهرة.
٤٦ ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبد البر، المطبعة المكية ـ الرباط.
٤٧ ـ الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.
٤٨ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
٤٩ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول، المبارك بن محمد بن الأثير الجزري، مطبعة الملاح ـ بيروت.
٥٠ ـ الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
٥١ ـ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن رجب الحنبلي، مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
٥٢ ـ جاهلية القرن العشرين، محمد قطب، مكتبة وهبة القاهرة.
٥٣ ـ جند الله ثقافة وأخلاقاً، سعيد حوا، الطبعة الأولى.
٥٤ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن القيم الجوزية، محمد علي صبيح وأولاده بمصر.
٥٥ ـ الجواهر في تفسير القرآن الكريم، طنطاوي جوهري، مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

٥٦ ـ **جولة في ربوع جزر مورو**، محمد أسد شهاب، هيئة البحوث الإسلامية جاكرتا.

٥٧ ـ **الجهاد طريق النصر**، عبدالله غوشه، وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية عمان.

٥٨ ـ **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن**، صالح أبو نصر، دار الفتح، بيروت.

٥٩ ـ **الجهاد في سبيل الله**، أبو الأعلى المودودي، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية.

٦٠ ـ **الجهاد**، عبدالله بن المبارك، دار النور، بيروت.

٦١ ـ **الحجاب**، أبو الأعلى المودودي، دار الفكر.

٦٢ ـ **حاشية رد المحتار**، محمد أمين بن عابدين، مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

٦٣ ـ **حاشية الدسوقي على الشرح الكبير**، محمد بن عرفه الدسوقي، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٦٤ ـ **حصوننا مهددة من داخلها**، محمد محمد حسين، مكتبة المنار الإسلامية الطبعة الثانية، الكويت.

٦٥ ـ **حضارة العرب (تعريب عادل زعيتر)**، غوستاف لوبون، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٦٦ ـ **حاضر العالم الإسلامي**، لوثروب ستودارد الأمريكي والأمير شكيب أرسلان، دار الفكر.

٦٧ ـ **الحافظ أحمد بن تيمية**، أبو الحسن الندوي، شركة مطابع الجزيرة.

٦٨ ـ **حقائق عن الحكم والمحاكمات في مصر.**

٦٩ ـ **حواشي تحفة المحتاج**، أحمد بن حجر الهيثمي وعبد الحميد الشرواني وأحمد بن قاسم العبادي، دار صادر.

٧٠ ـ **حياة الصحابة**، محمد يوسف الكاندهلوي، دار القلم دمشق.

٧١ ـ **الخطر الصهيوني على العالم الإسلامي**، ماجد كيلاني، الدار السعودية للنشر والتوزيع الكويت.

٧٢ ـ الدبلوماسية والمكيافللية في العلاقات العربية الأمريكية خلال عشرين عاماً، صادق أمين، منشورات العصر الحديث.

٧٣ ـ دراسات إسلامية، سيد قطب.

٧٤ ـ دعايات مكثفة ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، محمد منظور النعماني.
٧٥ ـ رائد الفكر الإسلامي المعاصر الشهيد سيد قطب، يوسف العظم، دار القلم بيروت.
٧٦ ـ الردة عن الإسلام وخطرها على العالم الإسلامي، عبدالله بن أحمد قادري.
٧٧ ـ رسالة المؤتمر الخامس، حسن البنا، ضمن مجموع الرسائل.
٧٨ ـ الرسول القائد، محمود شيث خطاب، دار القلم ـ الطبعة الثالثة.
٧٩ ـ روضة الطالبين، الإمام يحيى بن شرف النووي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر بيروت.
٨٠ ـ روح المعاني، السيد محمد الألوسي، دار إحياء التراث العربي بيروت.
٨١ ـ رياض الصالحين، الإمام يحيى بن شرف النووي، دار المأمون للتراث ـ دمشق.
٨٢ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
٨٣ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.
٨٤ ـ السلطان عبد الحميد ـ مذكراتي السياسية، السلطان عبد الحميد، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٨٥ ـ سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني، عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.
٨٦ ـ سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
٨٧ ـ سنن الدارمي، أبو محمد عبدالله بن عبد الرحمن الدارمي، السيد عبدالله هاشم اليماني المدني.
٨٨ ـ سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الحديث حمص ـ سوريا.
٨٩ ـ السيرة النبوية، محمد بن عبد الملك بن هشام، مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
٩٠ ـ سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أمين سعيد.
٩١ ـ الشخصية العسكرية، محمد عاطف السعيد، دار المعارف بمصر.
٩٢ ـ شرح التوضيح على التنقيح، صدر الشريعة عبدالله بن مسعود، المطبعة الخيرية بمصر الطبعة الأولى.

٩٣ ـ شرح النووي على صحيح مسلم، الإمام يحيى بن شرف النووي، المطبعة العربية بالأزهر، الطبعة الأولى.
٩٤ ـ الشرح الصغير على أقرب المسالك، أحمد بن محمد الدردير، دار المعارف.
٩٥ ـ الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، علي علي منصور، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة.
٩٦ ـ الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية وثناء العلماء عليه، أحمد بن حجر آل أبي طامي.
٩٧ ـ الصحاح، الجوهري.
٩٨ ـ صحيح البخاري بشرحه فتح الباري، الإمام محمد بن إسماعيل، المطبعة السلفية بالقاهرة.
٩٩ ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.
١٠٠ ـ صحيح مسلم، بترتيب محمد فؤاد عبد الباقي الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري دار إحياء الكتب العربية «عيسى البابي الحلبي وشركاه».
١٠١ ـ الصراع السوفياتي الأمريكي في الشرق الأوسط ج. س. هورنير، دار النفائس، بيروت.
١٠٢ ـ الطبقات الكبرى، محمد بن سعد البصري، دار صابر، بيروت.
١٠٣ ـ طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، طبع الحلبي.
١٠٤ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم، طبع الشؤون الدينية في قطر.
١٠٥ ـ العبودية، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، المكتب الإسلامي - بيروت.
١٠٦ ـ العسكرية الإسرائيلية، محمود شيث خطاب، دار الطليعة، بيروت.
١٠٧ ـ العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، محمد بن أحمد بن عبد الهادي، دار القلم.
١٠٨ ـ العلاقات الدولية في الإسلام، محمد أبو زهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.
١٠٩ ـ العلاقات الدولية في الإسلام على ضوء الإعجاز البياني في سورة التوبة، محمد كامل سلامة الدقس، دار الشروق.
١١٠ ـ عون المعبود شرح سنن أبي داود، أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم

آبادي، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
١١١ ـ غزوة بني المصطلق، إبراهيم القريبي، مطبوع على الآلة الكاتبة، مخطوط.
١١٢ ـ فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية بالقاهرة.
١١٣ ـ الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، أحمد بن عبد الرحمن البنا الساعاتي، مطبعة الفتح الرباني ـ مصر.
١١٤ ـ فتح القدير، كمال الدين محمد بن عبد الواحد بن الهمام، مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
١١٥ ـ فتوح البلدان، البلاذري.
١١٦ ـ الفروسية، ابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.
١١٧ ـ فقه السيرة، محمد الغزالي، طبع قطر.
١١٨ ـ الفن الحربي في صدر الإسلام، عبد الرؤوف عون، دار المعارف بمصر.
١١٩ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد عبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية بمصر.
١٢٠ ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق.
١٢١ ـ القاديانية، أبو الحسن علي الحسني الندوي، مكتبة دار البيان.
١٢٢ ـ الكافي، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر، مكتبة الرياض الحديثة الطبعة الأولى.
١٢٣ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني الدمشقي، دار إحياء التراث العربي بيروت.
١٢٤ ـ الكامل في التاريخ، علي بن أبي الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير، دار صادر ودار بيروت.
١٢٥ ـ لسان العرب، ابن منظور.
١٢٦ ـ لعبة الأمم، مايلز كوبلاند.
١٢٧ ـ لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم، الأمير شكيب أرسلان.
١٢٨ ـ لماذا أعدم سيد قطب.
١٢٩ ـ لماذا اغتيل الإمام الشهيد حسن البنا، عبد المتعال الجبري، دار الاعتصام.
١٣٠ ـ مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس، عبد الكريم التواني، مكتبة الرشاد الدار البيضاء.

١٣١ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، طبع علي بن علي الدوحة.
١٣٢ ـ المبسوط، شمس الدين السرخسي، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى.
١٣٣ ـ مبادىء الإسلام، أبو الأعلي المودودي، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الإسلامية.
١٣٤ ـ مجموع رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، حسن البنا، المؤسسة الإسلامية، بيروت.
١٣٥ ـ مجالي الإسلام ـ تعريب عادل زعيتر، حيدر بأمات، عيسى البابي الحلبي وشركاه.
١٣٦ ـ مجلة الدعوة المصرية.
١٣٧ ـ مجلة الدعوة السعودية.
١٣٨ ـ مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
١٣٩ ـ مجلة المجتمع الكويتية، جمعية الإصلاح الاجتماعي.
١٤٠ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتاب، بيروت.
١٤١ ـ مجموع الفتاوى (جمع ابن قاسم) شيخ الإسلام ابن تيمية، الطبعة الأولى.
١٤٢ ـ المحكم والمحيط الأعظم.
١٤٣ ـ المحلى، أبو محمد علي بن أحمد بن حزم، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت.
١٤٤ ـ مع العقيدة والحركة والمنهج في خير أمة أخرجت للناس، علي عبد الحليم محمود، جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية.
١٤٥ ـ المعجم الوسيط.
١٤٦ ـ مشكاة المصابيح، محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي، المكتب الإسلامي دمشق.
١٤٧ ـ المغني، أبو محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي، مكتبة القاهرة ـ الطبعة الأولى.
١٤٨ ـ المفردات، حسن بن محمد الراغب الأصفهاني، نور محمد أصح المطابع ـ كراتشي.
١٤٩ ـ مقدمة ابن خلدون، العلامة ابن خلدون، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.
١٥٠ ـ منهج الشريعة الإسلامية، الجزء الثاني، محمد قطب، دار الشروق.

١٥١ ـ من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك، سعيد حوا، الطبعة الأولى.
١٥٢ ـ منهج التربية الإسلامية الجزء الأول، محمد قطب، الطبعة الثانية.
١٥٣ ـ موسكو وإسرائيل، عمر حليق، الدار السعودية للنشر.
١٥٤ ـ المؤتمر الرابع، مجمع البحوث الإسلامية.
١٥٥ ـ الموطأ، الإمام مالك بن أنس، عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.
١٥٦ ـ نافذة على الجحيم.
١٥٧ ـ نحن والحضارة الغربية، أبو الأعلى المودودي، دار الفكر.
١٥٨ ـ نيل الأوطار، محمد بن علي الشوكاني، مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
١٥٩ ـ النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، عيسى البابي الحلبي وشركاه.
١٦٠ ـ الوابل الصيّب من الكلم الطيب، ابن القيم، ضمن مجموعة الحديث ـ مطابع الحكومة الرياض.
١٦١ ـ وجوب التعاون بين المسلمين، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة.
١٦٢ ـ الوحدة العسكرية العربية، محمود شيث خطاب، دار الإرشاد بيروت.
١٦٣ ـ الوحي المحمدي، السيد محمد رشيد رضا، المكتب الإسلامي.
١٦٤ ـ وثيقة خطيرة توضح مخطط الناصرية لإبادة الحركة الإسلامية في مصر.

الفهـرس

الموضوع الصفحـة

الفصل الرابع: (صفات المجاهدين في سبيل الله) ....
وفيه تمهيد وثلاثة مباحث: ٣
تمهيـد ٤

المبحث الأول: في صفات القائد
وفيه أربعة عشر فرعاً: ٦
الفرع الأول: الإكثار من طـاعة الله وإعـداد النفس لتحمل المشـاق ٧
الفرع الثاني: القدوة الحسنة ٩
الفرع الثالث: تزكية جنوده وتطهيرهم والارتقاء بهم في طاعة الله ١٠
الفرع الرابع: الخبرة بأمور الحرب والقوة فيها ١٢
الفرع الخامس: لين القائد وشفقته على جنده وإكرامهم وتعهدهم ١٤
الفرع السادس: البعد عن طلب القيادة ابتغاء الرئاسة.......... ١٨
الفرع السابع: إسناد الأمور إلى أهلها........................ ٢١
الفرع الثامن: تـربـية الـجنـدي على الـتسليم المطلق لله لا لشخص القائد................................ ٢٦
الفرع التاسع: تطبيق قاعدة الشورى.................... ٣٥
الفـرع العـاشـر: الحـرص على تحقـيق الأهـداف، والضبط

الإداري وقـوة التأثير ٤٥
الفرع الحادي عشر: اختبار إرادة القتال لدى الجيش ٥٢
الفرع الثاني عشر: الشجاعة والكرم ٥٤
الفرع الثالث عشـر: مراقبة الجند وزجرهـم عن جمـع المال من غير حقـه ٥٦
الفرع الرابع عشر: التصرف الحكيم السريع أمام المفاجآت ٥٨

المبحث الثاني: الصفـات التي يجب أن يتحلّ بها أفراد الجيش وفيه تمهيد وستة فروع ٦٣
تمهـيـد ٦٣
الفرع الأول: الصـدق ٦٤
الفرع الثاني: الطـاعـة ٦٦
الفرع الثالث: الحرص على التوبة لا سيما عن القعود عن الجهاد والتفريط فيه ٧٢
الفرع الرابع: الدهاء وقوة المكر بالأعداء ٧٤
الفرع الخامس: الشجاعة والكرم ٧٥
الفرع السادس: الثقة في القائد ٨٢

المبحث الثالث: الصفات التي يتحلّ بها الجيش جماعيّاً وفيه أربعة فروع ٨٦
الفرع الأول: الأخوة الإسلامية ٨٦
الفرع الثاني: التواصي بالحق والتواصي بالصبر ٩٠
الفرع الثالث: إصلاح ذات البين ٩٢
الفرع الرابع: نصر الحق والثبات عليه ٩٤

الفصل الخامس: (عوامل النصر والهزيمة) وفيه تمهيد وسبعة مباحث ٩٦
تمهـيـد ٩٧

المبحث الأول: التجرد الكامل لله تعالى أو القتال لغرض آخر..... ١٠٦

المبحث الثاني: قوة الصلة بالله أو ضعفها ١١١
المبحث الثالث: التوكل على الله أو الاعتماد على سواه ١٢٣
المبحث الرابع: الصبر والمصابرة أو الجزع وعدم الثبات ١٣٥
المبحث الخامس: العدل ١٤١
المبحث السادس: صحة الولاء أو فساده ١٤٥
المبحث السابع: الحذر واليقظة أو التساهل والغفلة ١٤٧

الباب الثاني

غاية الجهاد في سبيل الله وابتلاء المجاهدين

وفيه فصلان: ١٥١

الفصل الأول: (أهداف الجهاد في سبيل الله)

وفيه تمهيد وخمسة مباحث ١٥٢
تمهيد ١٥٣

المبحث الأول: إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض ١٥٧
المبحث الثاني: دفع عدوان الكافرين ١٦١
المبحث الثالث: نيل الشهادة في سبيل الله ١٧٠
المبحث الرابع: تصفية الصف الإسلامي من عناصر الفساد ١٧٢
المبحث الخامس: مقارنة بين أهداف الجهاد في سبيل الله وغيره من أنواع القتال: ١٨٢

الفصل الثاني: (انتصار الحق على الباطل)

وفيه ثمانية مباحث ١٩٠

المبحث الأول: قدم الصراع بين الحق والباطل ودوامه ١٩١
المبحث الثاني: حرص الدعاة إلى الله على إخراج الناس من الظلمات إلى النور ١٩٧
المبحث الثالث: الابتلاء سنّة ماضية ٢٠٦
المبحث الرابع: أنواع الابتلاء ٢١٠
المبحث الخامس: استعلاء الإيمان ومضاء أنصار الحق ٢١٧

المبحث السادس: حزب الله هم الغالبون ٢٢٤
المبحث السابع: اهتزاز عروش الطغاة من الدعاة إلى الله ....
وفيه فرعان: ٢٣٠
الفرع الأول: بيان الأسس التي تقوم عليها عروش الطغاة....... ٢٣٠
الفرع الثاني: بيان الأسس التي يستهدفها الدعاة إلى الله......... ٢٣٥
المبحث الثامن: موقف القوة وموقف التضليل ٢٤٥
المبحث التاسع: نماذج يقتدي بها السائرون
وفيه فرعان: ٢٥١
الفرع الأول: أنموذج الأنبياء والرسل ومن اقتدى بهم إلى العصر الإسلامي الأول........................ ٢٥١
الفرع الثاني: ذكر أمثلة لنماذج المجاهدين في عصور مختلفة ٢٥٦
المثال الأول: الإمام أحمد بن حنبل.................... ٢٥٦
المثال الثاني: العز بن عبد السلام ٢٥٨
المثال الثالث: شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٦٢
المثال الرابع: الشيخ محمد بن عبد الوهاب ٢٧٤
المثال الخامس: الشيخ حسن البنا........................ ٢٧٧
المثال السادس: سيد قطب.......................... ٣٠٢
المثال السابع: أبو الأعلى المودودي....................... ٣٢٠

الباب الثالث
السبيل إلى إعادة الروح الجهادية إلى المسلمين

وفيه فصلان: ٣٣٧

الفصل الأول: (اقتفاء أثر الرسول ﷺ في الدعوة إلى الله)
وفيه ستة مباحث........................ ٣٣٨
المبحث الأول: البدء بغرس الإيمان وتقويته في نفوس المسلمين. ٣٣٩
المبحث الثاني: العمل بمقتضى عالمية الدعوة وتبليغها للعالم كله... ٣٤٤
المبحث الثالث: إعداد القاعدة الصلبة التي تتحمل تكاليف الدعوة ٣٤٧

المبحث الرابع: تحقيق معنى الولاء والبراء في نفوس المسلمين ٣٥٠
المبحث الخامس: بث العزة في نفوس المسلمين وتنفيرهم من الذل والاستخذاء ٣٦٨
المبحث السادس: الحؤول بين المسلمين وبين الترف والاسترخاء ٣٧٣

الفصل الثاني: (السعي إلى إقامة الخلافة الإسلامية التي تجمع شمل المسلمين تحت راية الجهاد في سبيل الله)
وفيه مبحثان ٣٨٢

المبحث الأول: المحافظة على أصول وحدة المسلمين وفروعها
وفيه فرعان ٣٨٣
الفرع الأول: أصول وحدة المسلمين ٣٨٣
الفرع الثاني: ذكر بعض فروع وحدة المسلمين ٣٩٣

المبحث الثاني: الخلافة هي قمة الوحدة الإسلامية، ويجب على المسلمين السعي لإقامتها ٤٠٠

الباب الرابع

ثمرات إقامة الجهاد وأضرار القعود عنه

وفيه فصلان ٤١١

الفصل الأول: (ثمرات إقامة الجهاد في سبيل الله)
وفيه ستة مباحث ٤١٣

المبحث الأول: إعزاز المسلمين وإذلال الكافرين
وفيه ثلاثة فروع: ٤١٤
الفرع الأول: تأهيل الأمة الإسلامية لقيادة البشرية ٤١٤
الفرع الثاني: القضاء على شوكة الكفار وإذلالهم وإنزال الرعب في قلوبهم ٤١٧
الفرع الثالث: ظهور صدق الدعوة للناس الذي يجعلهم يدخلون في دين الله أفواجاً فيزداد المسلمون بذلك عزاً ويزداد الكفار ذلاً ٤٢٥

المبحث الثاني: دخول الناس أفواجاً في هذا الدين عندما يعزّ أهله
وفيه فرعـان ٤٥٠
الفرع الأول: بيان استضعاف أهل الباطل لأهل الحق إذا كانوا أذلّة ٤٥٠
الفرع الثاني: شهادة الواقع التاريخي باحترام الحق الذي تحرسه القوة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً إذا كان أهله أعزّة ٤٥٢
المبحث الثالث: وحدة صفوف المسلمين
وفيه ثلاثة فروع ٤٥٩
الفرع الأول: واقع التاريخ يدل على أن الجهاد في سبيل الله يوحد صفوف المسلمين ويضيّق باب الخلاف بينهم ٤٥٩
الفرع الثاني: ذكر بعض الحوادث الدالة على أن الجهاد يوحد صفوف المسلمين ٤٦٢
الفرع الثالث: معرفة السلف الصالح في القرن الأول هذه القاعدة ٤٦٦
المبحث الرابع: هداية المجاهدين وتسديد خطواتهم
وفيه فرعــان ٤٦٩
الفرع الأول: بيان عناية الله بالمجاهدين وتسديدهم بصفة عامة . ٤٦٩
الفـرع الثاني: بيـان تسـديد الله للمجاهدين في قتـال العـدو، وأساليب قتاله ٤٧٠
المبحث الخامس: التزام المسلمين بالإسلام، والحرص على حمايتـه، وعدم التفريط فيه ٤٧٦
المبحث السادس: إسعـاد الناس بنور الإسلام وعدله ورحمته........ ٤٧٨
الفصل الثاني: (أضرار القعود عن الجهاد في سبيل الله)
وفيه ثلاثة مباحث ٤٨٣
المبحث الأول: علوّ الكفار وهيمنتهم
وفيه أربعة فــروع ٤٨٤

الفرع الأول: إقصاء حكم الله والتمكين لحكم الطاغوت ٤٨٤
الفرع الثاني: استعباد الناس ٤٨٥
الفرع الثالث: إفساد الحياة البشرية بالكفر والفسوق والعصيان .. ٤٨٧
الفرع الرابع: استيلاء الكفار على خيرات الأرض واستغلالها
وتحقيق مآربهم وأطماعهم ٤٩٤

المبحث الثاني: ذل المسلمين واستضعافهم
وفيه ستة فروع ٤٩٨
الفرع الأول: فقد المسلمين عرش الخلافة الممنوح لهم ٤٩٨
الفرع الثاني: استعباد العدو لهم وفتنتهم في دينهم ٥٠٢
الفرع الثالث: إلقاء العداوة والبغضاء بين المسلمين........... ٥١٤
الفرع الرابع: فقد المسلمين الحرية في شؤونهم الدينية والدنيوية . ٥١٨
الفرع الخامس: الرضا بالدون........................ ٥٢٢
الفرع السادس: استحقاق المسلمين العذاب الأخروي لتفريطهم
بالجهاد ٥٢٥

المبحث الثالث: شقاء العالم كله وفقده العدل والسلام
وفيه أربعة فصول ٥٢٨
الفرع الأول: حرمان العالم من تبليغ الدعوة إلى الله ٥٢٨
الفرع الثاني: زهد العالم في هذا الدين لذل أهله........... ٥٣٣
الفرع الثالث: فقد العالم القيادة الهادية العادلة........... ٥٣٧
الفرع الرابع: بذل العالم جهوده وطاقاته فيما يعود عليه بالشقاء .. ٥٣٩

الخاتمة: وفيها مبحثان........................ ٥٤٣

المبحث الأول: تلخيص نتائج البحث........................ ٥٤٤
المبحث الثاني: الواقع المر والأمل الأغر........................ ٥٤٧

المراجع ٥٥٣

انتهى كتاب الجهاد
والحمد لله أولاً وآخراً